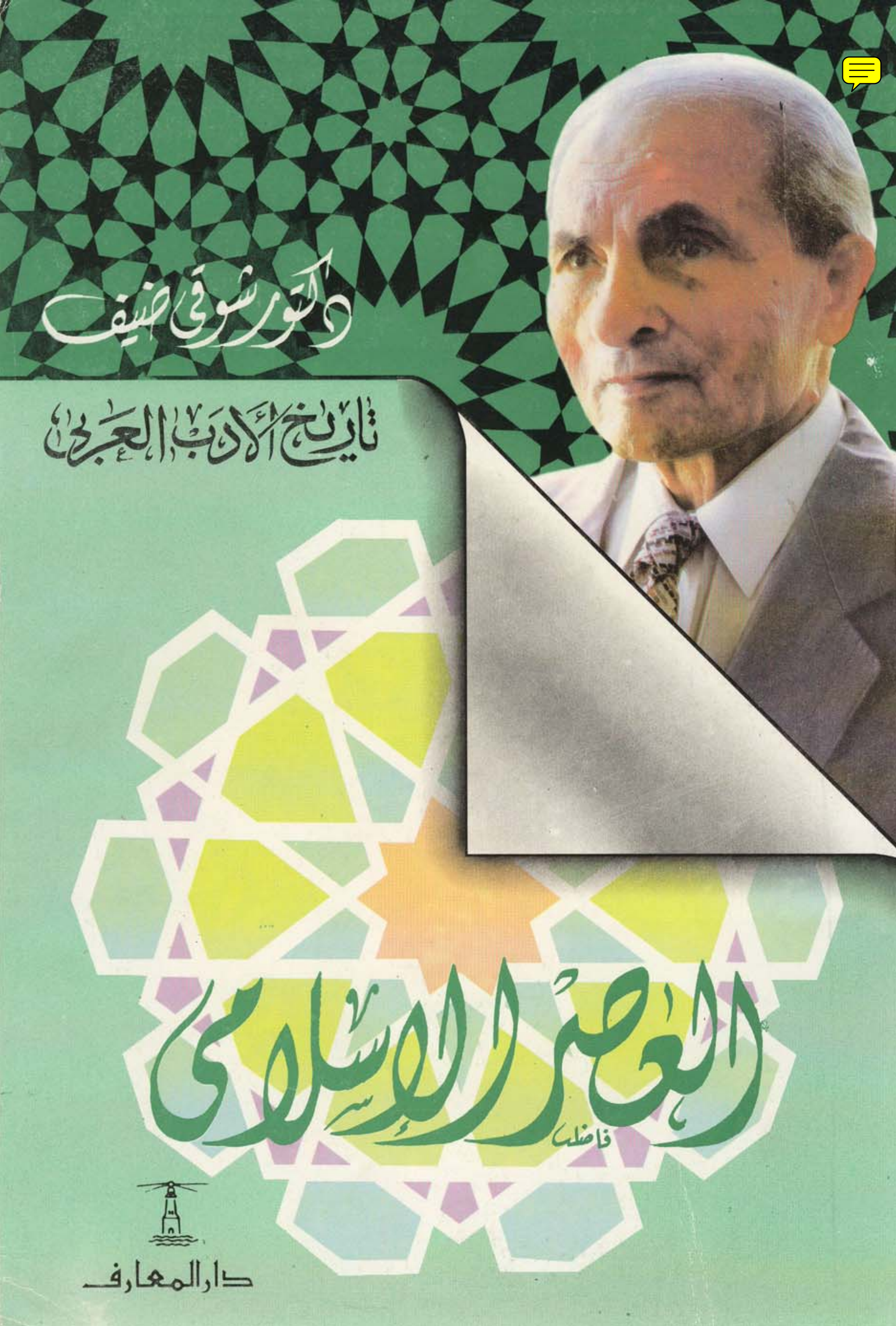
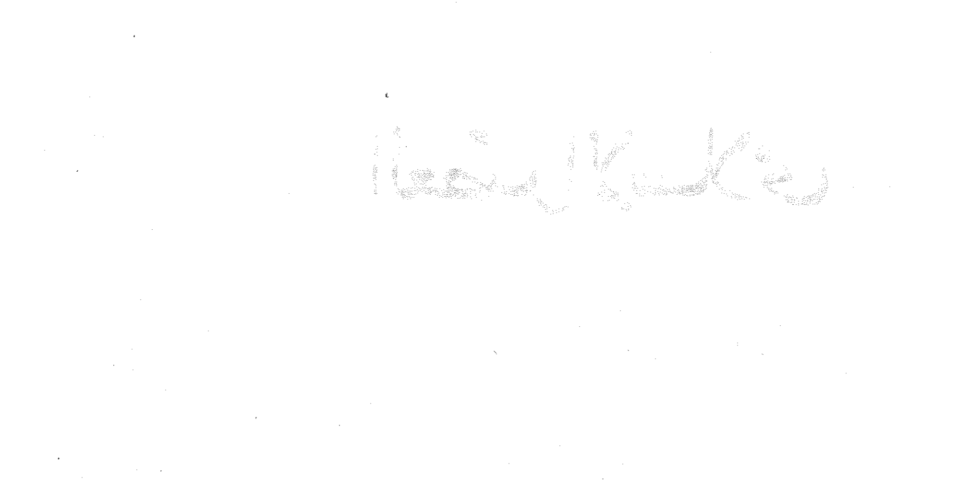

دكتور شوقي ضيف
تاريخ الأدب العربي
العصر الإسلامي
دار المعارف

العصر الإسلامى



تاريخ
الأدب العربى
٢

العصر الإسلامى

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة العشرون



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو الجزء الثانى من تاريخ الأدب العربى ، وهو خاص بالعصر الإسلامى ، وقد وزَّعته على كتابين ، جعلتُ أولهما لعصر صدر الإسلام وثانيهما لعصر بنى أمية، وكل كتاب ينقسم فصولا تُبْحَثُ فيها جوانب الحياة فى العصر بحثاً ترتَّب فيه المقدماتُ والنتائج موصولةً بالنصوص، كما يُبْحَث فيها الأعلام النابهون فى الشعر والخطابة والكتابة بحثاً تُرْسَمُ فيه شخصياتهم وخصائصهم الأدبية .

ودفعتْنى النصوص الكثيرة فى عصر صدر الإسلام إلى نقْض الفكرة التى شاعت فى أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين . إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل فى أشعار المخضرمين . وهو زعمٌ غير صائب ، بل هو زعم يسرف فى تجاوز الحق . فقد أتمَّ الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم فى صفوف المجاهدين فى سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفى الفتوح . وهم فى ذلك كله يستلهمون الإسلام، ويعيشون له، ويعيشون به، يريدون أن ينشروا نوره فى أطباق الأرض ،وقد مضوا يَصْدرون عنه فى أشعارهم صدور الشَّذَى عن الأزهار الأرِجة . وبالمثل صدروا عنه فى نثرهم ، فإذا هم يستحدثون فنوناً من النثر ينشئونها إنشاء إذ أنشأوا — على هدى القرآن الكريم — آيات بديعة من المواعظ الدينية ، كما أنشأوا ضروباً من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية .

ثم كان عصر بنى أمية ، عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم وانسياحهم فى مشارق الأرض ومغاربها، مما أذكى فى نفوسهم جذوة الشعر ، فإذا هو يَحْيَى فى

أوطان جديدة حياة خصبة، ولا أقصد الكوفة والبصرة والشام ومصر فحسب، بل أيضاً خراسان التى أهملها مؤرخو أدبنا، مع ازدهار الشعر فيها ازدهاراً رائعاً. وقد أخذ الشعراء يَخْضعون فى كل مكان لمؤثرات مختلفة: بيئية ودينية وحضارية وثقافية واقتصادية. وفى هذه الأثناء كان الموالى يتعرّبون، وسرعان ما أتقنوا العربية وأعربوا بها عن قلوبهم وعقولهم وأعماق وجدانهم. وليس بصحيح ما يردده المستشرقون من أنهم كانوا يختصمون مع العرب فى العصر الأموى، فقد كانت العلاقة بين الجماعتين حينئذ علاقة بِرّ وتعاون وإخاء.

والكتاب الثانى يَبْسُط كلّ هذه الظروف الجديدة فى حياة الأمة العربية لعصر بنى أمية وكيف اندفع الشعراء فى ظلالها ينهضون بالشعر ويتطورون به فى فنونه وأغراضه. فقد مضى شعراء الهجاء والفخر فى البصرة ينفذون إلى لون جديد هو النقائض التى بثّوا فيها مناظرة عنيفة فى المثالب والمفاخر القبلية. كان يجتمع لها معاصروهم فى سوق المربد للاستماع إليها والفرجة والمتْعة. ومضى شعراء المديح ينفذون إلى لون جديد هو الشعر السياسى الذى صوّر فيه الزبيريون والخوارج والشيعة وغيرهم نظرياتهم فى الحكم وقيامهم من دونها مدافعين. ولكل فرقة من هذه الفرق فى شعرها طوابع تميزه، فبينما يتميز مثلا شعر الخوارج بتصوير استبسالهم فى الحروب وتهافتهم على حياض الموت مستصغرين الدنيا ومتاعها الزائل نرى شعر الشيعة يتميز بكثرة ما ذَرفوا على أئمتهم المستشهدين من دموع غِزار، مطالبين بردّ السلطان إلى أصحابه الشّرْعيين. وقد اضطرمت فنون الشعر اضطراماً لا فى المديح والهجاء والفخر فحسب، بل أيضاً فى الغزل، فظهر فيه الغزل العُذرى بجانب الغزل الصريح، وزَكا شعر الزهد، ونما شعر المجون ووصف الطبيعة، ومدّ الرُّجّاز طاقة أراجيزهم، وسلكوا فيها الطّرديّات، فهى ليست عباسية – كما كان يُظنّ – إنما هى أموية. وتحول نفر منهم بأراجيزه إلى غاية تعليمية للغة وشواذّها وشواردها، حتى غَدَت – فى بعض جوانبها – كأنها متون للاستظهار والحفظ. وفى كل هذه الفنون والأغراض تعاقبت تراجم الشعراء.

ولعل عصراً عربيًّا لم تزدهر فيه الخطابة كما ازدهرت فى عصر بنى أمية بأنواعها السياسية والحفلية والدينية، فقد اشتدت الخصومات بين الفرق السياسية

وانبرى خطباؤها يـَذ ُودون عن نظرياتهم مؤلّبين الناس على خصومهم . ونشطت نشاطاً عظيماً خطابة المحافل بين أيدى الخلفاء والولاة . أما الخطابة الدينية فاحتدمت على لسان الوعّاظ والقُصّاص احتداماً ، استطاعوا فى أثنائه أن يتخذوا لأنفسهم أسلوباً جديداً ، يرتفعون فيه عن ألفاظ العامة المبتذلة ويهبطون عن ألفاظ البدو الآبدة ، أسلوباً يخاطبون به جميع الطبقات فى المراكز المتحضرة التى يختلط فيها العرب بالأعاجم ، وقد أقاموه على الازدواج والترادف وتحلية الكلام بالأخيلة والمقابلات ، مع العناية بدقائق المعانى وفـَتـْق الحِيـَل للتعبير عن خفيّاتها . وقد أخذوا أنفسهم بتعليم شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون الخطابة والمناظرة وكيف يتقنون إصابة الحجة ، وبذلك كانوا أول من مهّد لوضع قواعد البلاغة العربية .

ونمَا تدوين المعارف فى عصر بنى أمية ، سواء فيما يتصل بمعارف الجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، أو فيما يتصل بالإسلام وكل ما يرتبط به من تشريع وتفسير وحديث نبوىّ وخطوب جسام . وقد مضوا يصنّفون فى المغازى والتاريخ وقصص الأنبياء ، وفى المثالب والأمثال والمواعظ ، وفى مسائل العقيدة من قـَدَر وغير قـَدَر ، وفى الأغانى والمغنين وطبقاتهم . وترجموا رسائل فى الطب والنجوم والكيمياء ، ودوّنوا كثيراً من الخطب ومن الرسائل السياسية والوعظية والشخصية . ونهض كتّاب الدواوين بالكتابة عن الخلفاء والولاة والقواد نهضة واسعة ، جعلتهم يستعيرون من الوعاظ أسلوبهم الذى وصفناه ، وما زالوا يـَرْقـَوْن بكتابتهم ، حتى وضعوا الرسائل الأدبية الخالصة . والله أسأل أن يهدينى سواء السبيل .

القاهرة فى ١٥ من يوليه سنة ١٩٦٣ — شوقى ضيف

الكتاب الأول

فى عصر صدر الإسلام

الفصل الأول

الإسلام

١

قيم روحية

تدل كلمة الإسلام باشتقاقها اللغوى على معنى الخضوع والانقياد ، وقد ترددت فى القرآن الكريم بهذا المعنى فى مثل : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) (وأمرتُ أن أُسلم لرب العالمين) . ومن ثمَّ أُطلقت علماً على ديننا الحنيف فى قوله تبارك وتعالى : (اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) وهو دين لسعادة الناس كافة ، دين يكمل الديانات السماوية السابقة ويسيطر على كل ما جاء به الرسل ، يقول جلَّ شأنه : (وما أرسلناك إلا كافَّة للناس بشيراً ونذيراً) ، ويقول : (شَرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ويقول : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلِّه) ويقول : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) .

فالإسـلام هو الشريعة الإلهية الأخيرة التى تفرض سلطانها على كل ماسبقها من شرائع سماوية . وهو يقوم على ركنين أساسيين هما : العقيدة والعمل . وتسمى العقيدة بالإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وأهمُّ أصل فى العقيدة الإسلامية الإيمانُ بوحدانية الله ، يقول سبحانه وتعالى : (قل هو الله أحدٌ الله الصمدُ لم يلدْ ولم يولد ولم يكن له كفُواً أحد) فلا عبودية لغير الله من أوثان وأحجار وكواكب ، وهو ليس إله قبيلة ولا إله شعب بعينه ولا إله نور أو ظلام بل هو (ربُّ العالمين) رب كل شىء فى الكون وخالقه (ليس كمثله شىء) (لا تُدرْكه الأبصار وهو

يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) . قد أحاط علمه بكل ما فى الكون (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) . وعلى مثال علمه الواسع قدرته التى تبسط سلطانها على كل ما فى العالم وتقبض على زمامه (وسع كرسيه السموات والأرض) (والله على كل شىء قدير) . وهو مع قدرته وسلطانه وعقابه للمذنبين الآثمين رحيم بعباده ، يقول سبحانه (ورحمتى وسعت كل شىء) (وقد كتب ربكم على نفسه الرحمة) . وتقترن بالرحمة فى القرآن الكريم المحبة التى يفيضها على عباده مستشعرين بجلاله وكماله المطلق (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم)(فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) . ودائماً تصحب محبة الله الدعوة إلى العمل الصالح والنهى عن العمل الخبيث (إن الله يحب المتقين) (إن الله يحب المتوكلين) (إن الله يحب المحسنين) (والله لا يحب المفسدين) (والله لا يحب الظالمين) . ومن محبة الله للناس ورحمته بهم أن اصطفى لهم من خلقه أنبياء يوحى إليهم بما فيه سعادتهم فى الدارين الأولى والآخرة (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وعلى الناس أن يؤمنوا بما جاءوا به من كتب سماوية ، خاتمتها الذكر الحكيم (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

ووراء هذا العالم المادى الذى نشاهده عالم غيبى ، به نوعان من الأرواح خير وشرير ، والخير هو الملائكة الذين يتنزلون بالوحى على قلوب الرسل (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) (نزل به الروح الأمين على قلبك) . وهؤلاء الملائكة ينصرون المؤمنين ويستغفرون لهم ربهم ويتوفونهم ويكتبون أعمالهم (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) . أما الأرواح الشريرة فهى الشياطين المطرودون عن الملأ الأعلى ، وهم ينفثون غوايتهم فيمن ضلوا عن الصراط المستقيم (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) (ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم) .

ويُكثر القرآن من الحديث عن عقيدة المعاد ، فالناس جميعاً مبعوثون بعد موتهم (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون) وهو يوم الحساب ، كل يحاسب على أعماله (فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيآت جزاءُ سيئةٍ بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا إلا حميماً وغساقاً جزاءً وفاقاً) .

ودائما يردد الذكر الحكيم أن الإنسان مشدود إلى إرادة الله العليا ومشيئته الربانية وأنه ينبغي أن يتدبر إرادته الصغرى بجانب هذه الإرادة الكبرى ، فلا يتبع هواه بل يراقب ربه فى كل ما يأتى ويدع . فهناك مشيئة مطلقة هى مشيئة الله التى تسيطر على كل ما فى الكون (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وبجانبها مشيئة الإنسان التى تجعله مسئولا أمام ربه عن عقيدته وعمله وما كسبت يداه (وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمنْ ومن شاء فليكفرْ) (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) (كلُّ نفس بما كسبت رهينة) (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (ومن يكسبْ إثماً فإنما يكسبه على نفسه) .

وتلك هى أصول العقيدة الإسلامية ، وبجانبها أعمال من العبادات يجب على المسلم أداؤها ، وهى ترجع إلى أربعة أصول : الصلاة والصوم والحج والزكاة . الصلاة بما يسبقها من طهارة الوضوء وبما فيها من تلاوة للقرآن وتسبيح واستغفار ، وقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين كيفيتها وأوقاتها ، وفى القرآن الكريم (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة) (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) . والصوم هو صوم شهر رمضان تبتُّلا إلى الله (يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هُدًى للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصُمْه .. وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيطُ الأبيض من الخيط

الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) . والحج (ولله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سبيلا) وهو فى أشهر معلومات ، وقد بَيَّنَ الرسول للمسلمين كيفيته وما يقترن به من عبادة وذكر لله وتسبيح . ثم الزكاة وهى أن يُرَدَّ من مال الغنى على الفقير وعلى الصالح العام للأمة ، وهى تُذْكر فى القرآن دائماً مع الصلاة تأكيداً لها وحثًّا عليها فى مثل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) .

ولم يرسم القرآن الكريم للمسلمين معالم عقيدتهم وفروضها العملية فحسب ، بل رسم لهم أيضاً طريق الفضيلة وما ينبغي أن يتحلّوا به فى سلوكهم وأخلاقهم ، حتى ينالوا رضا ربهم ومحبته ، يقول تبارك وتعالى : (وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . . والذين إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ولم يَقْتُرُوا وكان بين ذلك قَواما .. ولا يقتلون النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ولا يَزْنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعفْ له العذاب يوم القيامة ويَخْلد فيه مُهانا .. والذين لا يشهدون الزور وإذا مَرُّوا باللَّغْو مروا كراما) (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وَهْناً على وهن . . وَأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبرْ على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تُصَعِّرْ خدَّك للناس ولا تَمْشِ فى الأرض مَرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور واقْصِدْ فى مشيك واغْضُضْ من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) . ويقول جَلَّ وعز ناهياً عن الهزء بالناس والغيبة والظن الآثم : (إنما المؤمنون إخوة .. يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تَلْمِزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئسَ الاسمُ الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسَّسوا ولا يَغْتَبْ بعضكم بعضًا أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه مَيْتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تَوَّاب رحيم) .

وقد حرّم الإسلام جملة الفواحش ما كبر منها وما صغر (قل إنما حرّم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . ومما حرمه تحريماً باتًّا آفة الخمر وآفة القمار (إنما الخمر والمَيْسر .. رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

ودائماً تلقانا فى الذكر الحكيم دعوة المسلمين إلى الخير والارتفاع عن الدنايا والنقائص (ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ويَنْهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون).

وبهذه القيم الروحية جميعاً يقوم الإسلام ، فهو ليس عقيدة سماوية وفروضاً دينية فحسب ، بل هو أيضاً سلوك خلقى قويم ، إذ يدعو إلى طهارة النفس ونَبْذ كل الفواحش والرذائل ، ومراقبة الإنسان لربه فى كل ما يأتى من قول أو فعل ، فإنه معروض عليه يوم القيامة ، يوم يُجْزَى كلُّ إنسان بما قدَّمت يداه . وقد مضى الصحابة يعبدون الله حق عبادته مستشعرين ضرباً من القلق على مصيرهم ، بعث فيهم الضمير الحى الذى يستشعر صاحبه الخوف من ربه فى سره وعلنه ، كما يستشعر الرجاء فى نعيمه ورضوانه .

٢

قيم عقلية

قضى الإسلام على الوثنية الجاهلية بكل ما طُوى فيها من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة ، وبذلك ارتقى بعقل الإنسان إذ خلَّصه من الحماقات والترهات ، وقد مضى يحتكم إليه فى معرفة الكائن الأعلى الذى أنشأ الكون ودبَّر نظامه ، داعياً له إلى أن يتأمل فى ملكوت السموات والأرض ، فإن من ينعم النظر فى هذا الملكوت ونظامه يعرف أنه لم يُخْلَق عبثاً وأن له صانعاً سوّى كل شىء فيه وقدَّره ، يقول جلَّ ذكره : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقِنا عذابَ النار) (الشمسُ والقمر بحُسْبان) (والسماءَ بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون والأرضَ فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون) .

وواضح من ذلك أن القرآن اتجه إلى العقل فى دعوته إلى الإيمان بوجود الله وقدرته وتدبيره ، وكذلك الشأن فى الإيمان بوحدانيته . وقد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) وما كان لهذا الذى

فضّله على كل ما فى الوجود أن يعبد أشياء خلقها الله وسخّرها لفائدته (قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء) (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن). وهو إله واحد يدبر السموات والأرض (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون). وبالمثل يحتكم القرآن إلى العقل فى الدلالة على صحة البعث والنشور فإن من يبعث الحياة فى الكائنات قادر على أن يردها إليها (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شىء قدير).

ويُنْحى الذكر الحكيم باللائمة على من لا يستخدمون عقولهم، فيشبههم بالأنعام التى لا تعقل، ويقول إنهم لا يمتازون فى شىء عن الصم البكم العمى (لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا). وكثيراً ما تُختتم الآيات بمثل (أفلا تتذكرون) (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون).

ودائماً يدعو القرآن كل مسلم أن يستغل عقله فيما خُلق له من التدبر، فيتأمل وينظر ويحكم لا عن عقائد موروثة بل عن دليل ناطق وشهادة صحيحة، ومن ثم كانت المعرفة المستبصرة ركناً أساسياً فى الإسلام، فمن أسلم عن غير فهم وتبصر كان إسلامه منقوصاً، إذ الإسلام الصحيح يقوم على الفهم والاقتناع لا على التقليد والمحاكاة للآباء والأسلاف.

ويشير القرآن مراراً إلى ما وُهب الإنسان من فضيلة العقل، وأن الله أودع فى هذه الفضيلة خواص تمكنه من السيطرة على جميع المخلوقات، يقول جل شأنه: (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم

تشكرون وسخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديد ومنافع للناس) (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) . فكلُّ ما فى الوجود مسخَّر للناس ولعقولهم كى يستغلوه وكى يستكشفوه لمنفعتهم .

وكان أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم : (اقرأْ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علَق اقرأ وربك الأكرم الذى علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم) فالدعوة إلى العلم وأنه نعمة أسبغها الله على الإنسان تقترن بآيات القرآن الأولى . ودائماً تتردد فيه الإشادة بالعلم والعلماء فى مثل : (وقل ربّ زدنى علماً) (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . وفى كل هذه الآيات دعوة صريحة للمسلمين كى يطلبوا كل علم ويفيدوا منه : ولعله لذلك لم يظهر عندنا تعارض بين الإسلام والعلم فى أى عصر من العصور ، بل تعاونا دائماً تعاوناً مثمراً . وقد رُويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تحثّ على العلم والتعلم من مثل : « طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم » و « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة » و « العلماء ورثةُ الأنبياء » .

وقد حمّل الإسلام هؤلاء العلماء أمانةَ الدين الحنيف ، وجعل لهم حق الاجتهاد فى فروعه وما يُطْوَى فيه من استنباط للأحكام يقول جلّ ذكره : (فلولا نفَر من كل فرقة منهم طائفةٌ ليتفقّهوا فى الدين) ويقول : (وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ، ويقول للرسول الكريم : (وشاورْهم فى الأمر) ، وفعلا كان يستشير أصحابه فى كثير من المسائل ويَصْدر عن رأيهم[1] . ومن هنا أصبح الاجتهاد بالرأى أصلا من أصول الإسلام حين لا يوجد نَصٌّ فى كتاب أو سُنّة ، روى الرواة عن مُعاذ أن رسول اللهُ صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له : كيف تصنع إن عرَض لك قضاءٌ ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله

---

(١) انظر «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» لمصطفى عبد الرازق (الطبعة الأولى) ص ١٤٣ وما بعدها .

قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال : فإن لم يكن فى سُنَّة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو. قال: فضرب بيده فى صدرى ، وقال : الحمد لله الذى وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضاه رسول الله»[١]. وقد نَما الاجتهاد بعد وفاة الرسول بحكم الفتوح واتساع الدولة ، ولم يكن الخلفاء يُفْتون بآرائهم إلا بعد استشارة الصحابة[٢]. ومُصِّرت الأمصار وسرعان ما أخذت تظهر جماعات من الفقهاء فى كل مصر إسلامى تحمل للناس تعاليم القرآن وسنة الرسول ، وكانوا إذا عرض لهم أمر لم يجدوا حُكْمه فى القرآن والسنة اجتهدوا وأفتوا الناس فيه برأيهم .

وفى كل ما قدمنا ما يدل بوضوح على أن الإسلام رفَع من شأن العقل الإنسانى إذ جعله الحَكَم فى فروع الشريعة وحثّه على استكمال سيطرته على الطبيعة وقوانينها ، كما حثه على التزود بجميع المعارف . وفتَح الأبواب واسعة أمامه كى يجتهد فى مسالك الدين العملية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا المسلمين يتحولون مع الفتوح إلى معرفة كل ما لدى الأمم المفتوحة من تراث عقلى . وسرعان ما شادوا صَرْح حضارتهم الرائعة ، وقد مضوا يستخدمون كل طاقاتهم الذهنية فى جميع صور المعرفة دينية وغير دينية . وكان لما أصّله الإسلام من حق الاجتهاد العقلى أثر واسع فى أن أصبح الإسلام نفسه قابلا للتطور ، وحقًّا أصوله العقيدية زمنية أبدية . ولكنها أصولٌ أسِّسَتْ على العقل الصحيح وفسحتْ له فى التشريع .

٣

قيم اجتماعية

كان العرب يعيشون فى الجاهلية قبائل متنابذة ، لا يعرفون فكرة الأمة إنما يعرفون فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من نسب ، وكل قبيلة تتعصب لأفرادها تعصباً شديداً ، فإذا جَنَى أحدهم جناية شركته فى مسئوليتها ، وإذا قُتل لها

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (طبع القاهرة) ٢/٥٥

(٢) مصطفى عبد الرازق ص ١٥٨ وما بعدها .

أحد أبنائها هبَّت للأخذ بثأره هبة واحدة . فلما جاء الإسلام أخذ يُضعف من شأن القبيلة ويُحلّ محلها فكرة الأمة ، يقول جلّ ذكره : (إن هذه أمتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (كنتم خيرَ أمة أُخرجتْ للناس) وهي أمة يعلو فيها السلطان الإلهي على السلطان القبلي وعلى كل شيء ، ومن ثمّ أصبحت الرابطة الدينية لا الرابطة القبلية هي التي توحّد بين الناس . وكان أول ما وضعه الإسلام لإحكام هذه الرابطة أن نقل حق الأخذ بالثأر من القبيلة إلى الدولة ، وبذلك لم يعد الثأر — كما كان الشأن في الجاهلية — يجرّ ثأراً في سلسلة لا تنتهي ، من الحروب والمعارك الدموية ، بل أصبح عقاباً بالمثل ، وأصبح واجباً على القبيلة أن تقدّم القاتل لأولى الأمر حتى يلقى جزاءه . وقد مضى الإسلام يحاول القضاء على العصبية القبلية كما قضى على قانونهم القديم : الثأر للدم ، يقول عزّ شأنه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ويقول الرسول في خطبة حجّة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدمَ ، وآدم من تراب ، أكرمُكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، وليس لعربي على عجميّ فضل إلا بالتقوى . »(١)

وأخذ الإسلام يُرْسي القواعد الاجتماعية لهذه الأمة ، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، يسودهم البر والتعاطف ، حتى لكأنهم أسرة واحدة ، مُحيت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية ، وأيضاً فوارق الشرف والسيادة الجاهلية ، فالناس جميعاً سواء في الصلاة وجميع المناسك وفي الحقوق والواجبات ، وينبغي أن يعودوا إخوة ، يشعر كل واحد منهم بمشاعر أخيه ، باذلا له ولمصلحة هذه الأمة كل ما يستطيع ، فهو لا يعيش لنفسه وحدها ، وإنما يعيش أيضاً للجماعة يَفْديها بروحه وبماله وبكل ما أوتي من قوة . ومن ثَمّ وُضع نظام الزكاة وعُدَّتْ — كما قدمنا — ركناً أساسيًّا في الدين ، فواجبٌ كل شخص أن يقدم من ماله سنويًّا فرضاً مكتوباً عليه للفقراء وللصالح العام .

---

(١) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/٣٣ .

وبذلك أصبح للفقير حق معلوم فى مال الغنى ، يؤديه إليه راضياً . ومدَّ القرآن الكريم هذا الحق ، إذ دعا دعوة واسعة إلى الإنفاق فى سبيل الله ، لا بالزكاة فحسب ، بل بكل ما يهبه الأغنياء تقرباً إلى الله ورغبة فى حسن المثوبة ، يقول جَلَّ وعزَّ : (من ذا الذى يُقْرِض الله قَرْضاً حسناً فيضاعفَه له أضعافاً كثيرة . . مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حَبَّة أنبتتْ سبع سَنابل فى كل سُنْبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جَنَّة بربْوة أصابها وابلٌ فآتت أُكُلَها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فطَلٌّ والله بما تعملون بصير . . يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تُغْمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد . . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وعلى هذه الشاكلة حاول القرآن الكريم أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية فى محيط هذه الأمة الجديدة ، إذ جعل ردَّ الغنى بعضَ ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة حقًّا دينيًّا. إنه لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً لأمته ويترابط معها ترابطاً اقتصاديًّا كما يترابط فى وجدانه وإيمانه . وقد اندفع كثير من الصحابة ينفقون أموالهم جميعها فى سبيل الله ، ويُؤْثَرُ عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما نفعنى مالٌ مانفعنى مالُ أبى بكر »[1] وكان غيره من أغنياء الصحابة يقتدون به ، فقد جَهَّز عثمان جيش العُسْرة فى غزوة تبوك بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتمَّ الألف بخمسين فرساً[2] ، وكَثُرَ مال عبد الرحمن ابن عوف حتى قَدِم عليه فى إحدى تجاراته سبعمائة راحلة تحمل القمح والدقيق والطعام فجعلها جميعها فى سبيل الله[3]. ولم يُعْنَ الإسلام فقط بتنظيم العلاقة بين الغنى من جهة والفقير والصالح العام من جهة ثانية ، بل عُنى أيضاً بتنظيم العلاقات العامة كالميراث وتنظيم المعاملات كالتجارة والزراعة والصناعة ، فقد أوجب

---

(١) الاستيعاب (الطبعة الأولى) ص ٣٤٢ .
(٢) الاستيعاب ص ٤٨٨ .
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (طبع دار المعارف) ١/ ٥٠ .

للعامل أجراً يتقاضاه جزاء عمله ، وأوجب على التاجر أن لا يستغلّ الناس بأى وجه من الوجوه ، سواء فى الكيل والميزان أو فى التعامل المالى ، يقول جَلّ شأنه : (وأوفوا الكيلَ إذا كِلتْم وزنوا بالقسطاس المستقيم) (ولا تَبْخسوا الناس أشياءهم) (الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبّطه الشيطان من المَسّ .. وأحلّ الله البيع وحرّم الرِّبا) . ولا يكاد يكون هناك جانب من جوانب الحياة الاجتماعية إلا وضع فيه الإسلام من السنن والقوانين ما يكفل للناس حياة مستقيمة قِوامها العدالة .

وقد نظّم حقوق المرأة ورعاها خير رعاية ، إذ كانت مهضومة الحقوق فى الجاهلية ، فردّ إليها حقوقها ، وجعلها كفؤاً للرجل ، لها ماله من الحقوق ، يقول تبارك وتعالى : (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) وأيضاً لهن مثل ما للرجال من السّعى فى الأرض والعمل والتجارة ، يقول عزّ شأنه : (للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسَبْنَ) . وكان كثير من غلاظ القلوب يَئدون بناتهم خشية العار ، فحرّم ذلك القرآن ، يقول جَلّ ذكره : (وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشّر به أيُمْسِكُه على هُونٍ أم يدسُّه فى التُّراب ألا ساء مايحكمون) . وحرّم البغاء وشدّد فى النكير عليه حتى القتل . ونظّم الزواج وجعله فريضة محبّبة إلى الله ونعمةً من نعمه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) . ودعا فى غير آية إلى معاملة الزوجات بالمعروف . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حِجّة الوداع : « أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرشكم غيركم وأن لا يُدْخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبيِّنة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعْضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهنّ ضرباً غير مبرِّح ، فإن انتهين وأطعْنكم فعليكم رزقهن وكُسْوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله .. فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » . وأباح الإسلام الطلاق ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله ، ويقول جَلّ شأنه : (فإن

كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) . ويوجب القرآن للزوجة كثيراً من الحقوق حين تُفصَم العلاقة بينها وبين زوجها ، من ذلك أن يُسَرِّحها بإحسان وأن لا يُمسك عنها شيئاً من صداقها ، يقول جلّ وعز : (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) .

وبكلّ ذلك كفل الإسلام للمرأة حقوقها ، وأوجب على الرجل أن يرعاها وأن يقوم بها خير قيام . ومن غير شك ليست هناك علاقة بين الإسلام ونظام الحريم الذى شاع فى العصر العباسى ، فإن الإسلام يُجِلّ المرأة ويرفع قدرها ، حتى لنراها فى الصدر الأول من العصر الإسلامى تشارك فى الأحداث السياسية على نحو ما هو معروف عن موقف السيدة عائشة أم المؤمنين فى حروب علىّ وطلحة والزبير ، وكانت هى نفسها مصدراً كبيراً من مصادر الحديث النبوى وهَدْى الرسول الكريم .

٤

قيم إنسانية

رأينا الإسلام يرفع من شأن المسلم اجتماعيًّا وعقليًّا وروحيًّا ، وهو ارتفاع من شأنه أن يسمو بإنسانيته ، إذ حرّره من الشرك وعبادة القوى الطبيعية ، وأسقط عن كاهله نير الخرافات . وبدلا من أن يشعر أنه مسخَّر لعوامل الطبيعة تتقاذفه كما تهوى نبّهه إلى أنها مسخرة له ولمنفعته ، ودعاه لأن يستخدم فى معرفة قوانينها عقله ويُعْمل فكره . وبذلك فك القيود عن روح الإنسان وعقله جميعاً ، وهيأه لحياة روحية وعقلية سامية ، كما هيأه لحياة اجتماعية عادلة ، حياة تقوم على الخير والبرّ والتعاون ، تعاون الرجل مع المرأة فى الأسرة الصالحة وتعاون الرجل مع أخيه فى المجتمع الرشيد .

ودائماً يلفت الذكر الحكيم إلى سمو الإنسان ، وأنه يَفْضُلُ سائر المخلوقات فقد خُلق فى (أحسن تقويم) ، وسُوّى وعُدّل ورُكّب فى أروع صورة ، ووُهب من الخواص الذهنية ما يُحيل به كل عنصر فى الطبيعة إلى خدمته ، يقول جلّ شأنه : (ولقد كرّمنا بنى آدم وحملْناهم فى البرّ والبحْر ورزقْناهم من الطيبات وفضَّلناهم على كثيرٍ ممن خلقْنَا تفْضيلا) . ويذكر القرآن فى غير موضع أن الإنسان خليفة الله فى الأرض (وإذْ قال ربُّك للملائِكَة إنى جاعلٌ فى الأرْضِ خليفة) (وهو الذى جعلكم خلائفَ الأرض) فالإنسان خليفة الله فى أرضه ووكيله فيها ، خلَقه ليسودها ، ويُخْضع كل ما فى الوجود لسيطرته .

وقد مضى الإسلام يعتدّ بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية إلى أقصى الحدود ، وقد جاء والاسترقاق راسخ متأصل فى جميع الأمم ، فدعا إلى تحرير العبيد وتخليصهم من ذل الرق ، ورغَّب فى ذلك ترغيباً واسعاً ، فانبرى كثير من الصحابة ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، يفكُّون رقاب الرقيق بشرائهم ثم عتقهم وتحريرهم . وقد جعل الإسلام هذا التحرير تكفيراً للذنوب مهما كبرت ، وأعطى للعبد الحقّ الكامل فى أن يكاتب مولاه ، أو بعبارة أخرى أن يستردّ حريته نظير قدر من المال يكسبه بعرق جبينه (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم . . وآتُوهم من مالِ الله الذى آتاكم) . وقد حرّم الإسلام بيع الأمة إذا استولدها مولاها ، حتى إذا مات رُدَّت إليها حريتها . وكانوا فى الجاهلية يسترقون أبناءهم من الإماء ، فأزال ذلك الإسلام ، وجعلهم أحراراً كآبائهم .

ووسَّع الإسلام حقوق الإنسان واحترمها فى الدين نفسه إذ نصَّتْ آية كريمة على أن (لا إكْراهَ فى الدّين) فالناس لا يُكْرَهون على الدخول فى الإسلام ، بل يُتْرَكون أحراراً وما اختاروا لأنفسهم . وبذلك يضرب الإسلام أروع مثل للتسامح الدينى ، يقول تبارك وتعالى : (ولو شاء ربُّك لآمَنَ منْ فى الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مُؤْمنين) . وحقّاً اضطُرّ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى امتشاق الحسام ، ولكن للدفاع عن دين الله لا للعدوان ، يقول جلّ وعز : (وقاتلُوا فى سبيل الله الّذِين يقاتِلونكُم ولا تعتَدُوا إنّ الله لا يُحب

المعْتَدين) . وقد دعا الذكر الحكيم طويلا إلى السلم والسلام فى مثل قوله تعالى : (وإن جَنحُوا للسَّلْم فاجْنَحْ لها وتوكّل على الله) (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السِّلْم كافة ولا تتَّبِعوا خُطوات الشَّيطان إنه لكم عدوٌّ مبين) لذلك لا نعجب إذا كانت تحية الإسلام هى « السلام عليكم » .

فالإسلام دين سلام للبشرية يريد أن ترفرف عليها ألوية الأمن والطمأنينة، ومن تتمة ذلك ما وضعه من قوانين فى معاملة الأمم المغلوبة سلماً وحرباً ، فقد أوجب الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين فى حروبهم أن لا يقتلوا شيخاً ولا طفلا ولا امرأة ، وعَهْده[1] لنصارى نجران من أروع الأمثلة على حسن المعاملة لأهل الذمة ، فقد أمر أن لا تُمَسّ كنائسهم ومعابدهم وأن تُتْرَك لهم الحرية فى ممارسة عباداتهم . ومضى الخلفاء الراشدون من بعده يقتدون به فى معاملة أهل الذمة معاملة تقوم على البر بهم والعطف عليهم . ومن خير ما يصور هذه الروح عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس فقد جاء فيه أنه « أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصُلْبانهم . . . لا تُسْكَن كنائسهم ولا تُهْدَم ولا يُنْتقَص منها ولا من حَيِّزها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يُكْرهون على دينهم ولا يضارّ أحد منهم »[2] . وكان هذا العهد إماماً لكل العهود التى عُقِدت مع نصارى الشام وغيرهم .

والحق أن تعاليم الإسلام السمحة لا السيف هى التى فتحت الشام ومصر إلى الأندلس ، والعراق إلى خراسان والهند ، فقد كَفَل للناس حريتهم لا لأتباعه وحدهم ، بل لكل من عاشوا فى ظلاله مسلمين وغير مسلمين وكأنه أراد وحدة النوع الإنسانى ، وحدة يعمها العدل والرخاء والسلام .

---

(١) انظر السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٤ / ٢٣٩ وما بعدها و ٤ / ٢٤١ وما بعدها ، وقارن بفتوح البلدان للبلاذرى (طبع المطبعة المصرية بالأزهر) ص ٧٦ .

(٢) تاريخ الطبرى (طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٣٩) ٣ / ١٠٥ .

الفصل الثانى

القرآن والحديث

١

نزول القرآن وحفظه وقراءاته

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُنْزِل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم مُنجَّماً فى ثلاث وعشرين سنة . حتى تتهيأ النفوس البشرية لتلقى هذا الفيض الإلهى (وقرآناً فرقْناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ونزّلناه تنزيلا) . وكان أول نزوله فى شهر رمضان وفى ليلة معلومة منه هى ليلة القدر (شهر رمضان الذى أُنْزِل فيه القرآن) (إنّا أنزلناه فى ليلة القَدْر) وظلَّ ينزل به على الرسول الكريم روح القدس جبريلُ بلسان عربى بليغ (وإنه لتنزيل رب العالمين نَزَل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) (من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله) (نزّله روح القُدس من ربك بالحق) . إنه كلام الله أوحى به إلى رسوله المصطفى الذى اختاره لتبليغ آخر رسالاته إلى الناس كافّة . وكان الرسول يأمر بكتابة كل ما ينزل منه وقت نزوله ، واتخذ لذلك جماعة من كرام الكاتبين مثل على وعثمان وزيد بن ثابت وأُبىّ بن كعب . ومضى كثير من كَتَبة الصحابة يكتبونه لأنفسهم . على أنهم جميعاً لم يعوّلوا على كتابته فقط ، إنما عولوا أولا على حفظه وأخْذه شفاهاً عن الرسول الأمى ، الذى كان يحفظه ويتلوه على المسلمين . وساروا على سُنّته يتحفّظونه ويتلونه آناء الليل وأطراف النهار مرتّلين له ترتيلا .

ونصوصُ القرآن صريحة فى أن سوره وآياته جميعاً رُتّبت بوحى من الله إلى رسوله ، يقول جَلّ شأنه : (وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآنُ جملةً واحدة كذلك لنثبِّت به فؤادك ورتّلْناه ترتيلا) (إن علينا جَمْعَه وقُرْآنه) . فالرسول لم

يُرْفَعْ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد ترتيب القرآن وآياته وسوره ترتيباً كاملا . وتلقَّاه عنه الصحابة بهذا الترتيب ، وكان حَفظته يسمَّون بالقُرَّاء . ولما استحرَّ القتل بهم فى يوم اليمامة لعهد أبى بكر خشى عمر بن الخطاب أن يستحرَّ بهم فى مواطن أخرى ، فيذهب قرآن كثير ، فدخل على أبى بكر لسنتين من خلافته ، فقال له : إن أصحاب رسول الله يتهافتون فى المعارك ، وإنى أخشى أن تأتى عليهم. وهم حَملة القرآن فيضيع ويُنْسَى ، فلو جمعته! ولم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدره للفكرة ورأى رأيه ، وحينئذ عهد إلى زيد بن ثابت ــ أحد كتبة الوحى الأبرار ــ بجمعه ، فجمعه من العُسب واللِّخاف وصدور الحفظة المشهود لهم بالإتقان من مثل أبىّ بن كعب وعثمان وعلى وعبد الله بن مسعود وطلحة وحذيفة وأبى هُرَيْرَة وأبى الدَّرْداء وأبى موسى الأشعرى وتحريا فى الدقة ومبالغة فى الحيطة أمر أبو بكر أن لا يُقْبَل من حافظ شىء حتى يشهد شاهدان عدلان بصحته وأنه كُتِب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما جُمع المصحف حُفظ فى بيت أبى بكر ، ولما توفى وخلفه عمر انتقل المصحف إليه ، وبعد وفاته انتقل إلى حفصة ابنته أم المؤمنين .

وحدث فى عهد عثمان أن أخذ القُرَّاء فى الأمصار البعيدة يختلفون فى بعض الأداء ، ولم يكن بين أيديهم مصحف أبى بكر ليرجعوا إليه ، فأفزع ذلك حذيفة بن اليمان الذى كان يغزو فى فتح أرمينية وأذربيجان فهُرع إلى عثمان قائلا : إن الناس قد اختلفوا فى القرآن حتى إنى والله لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف. فهَمَّ عثمان الأمر ، وأجمع رأيه على أن يكتب للمسلمين إماماً يرجعون إليه . وبعث إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالمصحف ننسخ منه نسخاً ، ثم نرده إليك ، فأرسلت به إليه . فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقال عثمان للرهط القرشيين ، وهم الثلاثة الأخيرون : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى كتابة شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، فصدعوا بأمره . وردّ عثمان مصحف أبى بكر إلى حفصة وطابت

نفسه ، وأمر أن تكتب المصاحف من مصحفه وأن يحملها القُرّاء إلى الأمصار ، ويُقْرِئوا الناس على حَرْفها ، وأرسل بالمصاحف إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وغيرها من الأمصار الإسلامية ، وأمر بحَرْق ماسواها ، فأطاعته الأمة لما تعلم فى صنيعه من الرشد والهداية . ومضى القُرّاء فى العالم الإسلامى يُقْرِئون الناس القرآن على حَرْف هذا المصحف الإمام ، غير أن فروقاً حدثت بينهم فى القراءة داخل ذلك الحرف ، وهى المعروفة بالقراءات ، وقد وقع إجماع المسلمين على سبع منها ، وهى قراءات ابن عامر وابن كثير وعاصم وأبى عمرو بن العلاء وحمزة ونافع والكسائى .

وواضح مما قدّمنا أن القرآن الكريم أُحيط بسياج متين من المحافظة على نصّه محافظة بالغة ، إذ كانت آياته تُكْتَبُ فور نزولها ، وكان الصحابة يكتبونها ويحفظونها ويتلونها فى صلواتهم وعباداتهم مراراً ليلا ونهاراً ، وسرعان ما جمعه أبو بكر فى مصحف واحد ، وأتبعه عثمان بمصحفه ، وبعثَ بنسخ منه إلى مختلف الأمصار الإسلامية .

٢

سور القرآن وتفسيره فى العهد الأول

عَدَدُ سور القرآن أربع عشرة ومائة تختلف طولا وقصراً ، وتتضمن السورة طائفة من الآيات ، وهى تبلغ عدا البسملة أربع عشرة ومائتين وستة آلاف . وقد قُسِّمت تسهيلا لتلاوته إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء ينقسم إلى حزبين ، وكل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع . وهى أقسام لتيسير التلاوة والحفظ . وقد نزلتْ كثرة السور بمكة ، ومن ثم كانت السور إما مكية وإما مدنية نسبة إلى المدينة ، ومعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل بمكة داعياً للدين الحُنيف ثلاثة عشر عاماً انتقل بعدها إلى المدينة حيث ظل بها عشر سنوات إلى أن لبَّى نداء ربه . على أن بعض السور تمتزج فيها آيات مكية بأخرى مدنية ،

بتوقيف من الله جَلَّ جلاله . وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله إلى رسوله وأتباعه وخصومه .

والسور المدنية بصفة عامة طويلة ، وهى لا تختلف عن السور المكية من حيث الطول والقصر فحسب ، بل تختلف أيضاً فى المعانى التى تدور عليها . أما السور المكية فإنها تخوض غالباً فى الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ونَبْذ عبادة الأوثان والأصنام والإيمان بالبعث والحساب ، فمن عمل صالحاً فله الجنة والنعيم ، ومن عمل سيئاً فله النار والجحيم . وتتخلل ذلك الموعظة الحسنة والقصص عن الأمم الماضية والقرون الخالية والحث على التمسك بأهداب الفضيلة ودعوة العقل إلى التدبر فى خَلْق السموات والأرض ، فإن من تدبر فى هذا الخلق عرف أنه لا بد له من صانع أحكم نظامه وأقام ميزانه . أما السور المدنية فإنها تفصِّل القول فى العمل الصالح الذى ينبغى على المسلم أن يقوم به ، ومن ثَمَّ كان يكثر فيها التشريع الدينى وكذلك التشريع الاجتماعى بكل مايتصل به من نظم الأسرة كالميراث والزواج والطلاق و بِرِّ الوالدين ونظم المجتمع كالبيع والشراء والرهن والمداينة وقسمة الغنائم والزكاة وتحرير الرقيق ، مع بيان بعض العقوبات ووجوه التحليل والتحريم . وفى تضاعيف ذلك تُذْكَرُ العبادات وتتردد الدعوة إلى التوحيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والإيمان بالكتب السماوية .

ودعت الحاجة منذ نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تفسير بعض آياته ، فكان الصحابة يرجعون إليه ليفسِّر لهم بعض ما يتوقفون فيه ، وكان هو أحياناً يبادر فيبيِّن لهم بعض الآيات ، يقول جَلَّ ذكره : (وأنزلنا إليك الذِّكْرَ لتبيِّن للناس ما نُزِّلَ إليهم) ويقول : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكمات هُنَّ أم الكتاب وأُخَرُ متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زَيْغٌ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويلَه إلا اللهُ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذكَّر إلا أولو الألباب) . وتدل الآية الأولى دلالة واضحة على أن الرسول كان يبين للناس الأحكام القرآنية أمراً ونهياً ، فهو المفسر الأول لأوامر الله ونواهيه . وتدل الآية الثانية على أن فى القرآن آيات تحتاج تأويلا ، وهى تصرِّح بذلك فى وضوح .

وفى مقدمة تفسير الطبرى عن ابن مسعود : « كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » . ويتضح من نص الآية الكريمة الثانية أنه سُمح لأولى العلم بالدين وأصوله من الصحابة أن يفسِّروا للناس آى الذكر الحكيم ، وهم الذين يسمِّيهم الله عز وجل باسم الراسخين فى العلم . ويحدثنا السيوطى فى كتابه « الإتقان[١] » أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة وأن يدوِّنها فى كتاب له بعنوان « ترجمان القرآن » وقد اختصره فى كتاب طبع فى ستة أجزاء سمّاه « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » . ويقول إنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم الخلفاء الراشدون وابن مسعود وأبَىّ بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن الزبير وابن عباس[٢] ، ويصرّح بأن الرواية عن أبى بكر وعمر وعثمان نَزْرة ، أما على فقد رُوى عنه كثير . والآثار المروية عن زيد ابن ثابت قليلة ، وكذلك عن أبى موسى الأشعرى وابن الزبير . أما أبَىّ فله سند فى الطبرى عن طريق أبى العالية ، وعاش ابن مسعود بعده مدة طويلة كوّن فى أثنائها مدرسة فى الكوفة حَملت عنه تفسيراً كثيراً ، وسَنده الجيِّد هو السُّدّى الكبير عن مرّة الهمدانى . وما نُسب إلى كل السابقين من تفسير لا يقاس إلى ما نُسب لابن عباس ، فهو أكثر الصحابة تفسيراً . وقد حمل تفسيره كثيرون من التابعين أمثال مجاهد وعطاء وعلى بن أبى طلحة . وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقى لعلم التفسير فهو الذى نَهجه ووضع أصوله ، واشتهر بأنه كان يرجع إلى أهل الكتاب فى قصص الأنبياء ، وأنه كان يعتمد على الشعر القديم فى تفسير بعض الألفاظ[٣] . وقد حَمل ابن جرير الطبرى فى تفسيره الكبير ما أُثر عنه وعن الصحابة الأولين من تفسير الذكر الحكيم ، وكذلك حمل كل ما أضافته الأجيال التالية لعصر الصحابة فى تفسير هذا النبع الإلهى الذى لا تفنى كنوزه .

---

(١) انظر النوع الثامن والسبعين فى هذا الكتاب .

(٢) راجع النوع الثمانين .

(٣) انظر فى ابن عباس ودوره فى التفسير كتاب مذاهب التفسير الإسلامى لجولد تسيهر (ترجمة عبد الحليم النجار) ص ٨٣ وما بعدها .

٣

أثر القرآن فى اللغة والأدب

القرآن الكريم مفخرة العرب فى لغتهم، إذ لم يُتَحْ لأمة من الأمم كتاب مثله لا دينى ولا دنيوى من حيث البلاغة والتأثير فى النفوس والقلوب، سواء حين يتحدث عن عبادة الله الواحد الأحد وعظمته وجلاله، أو عن خَلْقه للسموات والأرض، أو عن البعث والنشور، أو حين يشرِّع للناس حياتهم ويقيمها على نهج سديد يحقق لهم السعادة فى الدارين: الأولى والآخرة.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكاد يمضى فى تلاوته حتى يروع سامعيه ويأخذ بمجامع قلوبهم، سواء أكانوا من أنصاره أم كانوا من أعدائه، فقد روى الرواة أن الوليد بن المغيرة الذى كان من ألدّ خصومه سمعه يتلو بعض آى الذكر الحكيم، فتوجّه إلى نفر من قريش يقول لهم: «والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنْس ولا من كلام الجنّ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطُلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمُغْدق»[1]. وواضح أنه أحسّ فى دقة أن آى القرآن تباين كلام الإنس من فصحائهم كما تباين كلام الجنّ الذى كان ينطق به كُهَّانهم. إنه ليس شعراً موزوناً، مما كان يدور على ألسنة شعرائهم، ولا سجعاً مقفى مما كان يدور على ألسنة كهانهم وغيرهم من خطبائهم، إنما هو نمط وحده فُصِّلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس، وتجد فيها وفى كل ما يتصل بها من ألفاظ رَوْحاً وعذوبة. إنه نمط باهر، بل هو نمط معجز ببيانه وبلاغته، يقول جلّ ذكره: (قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهيرا) (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين). وفعلا عجز العرب عن معارضته عجزاً تامًّا، فمضوا يجرِّدون سيوفهم ويُغْمدون ألسنتهم، ولم تلبث المعجزة الباهرة أن استعلت،

---

(١) انظر تفسير الزمخشرى فى سورة المدثر. مغدق: كثير المياه.

ولم تلبث أضواؤها أن انتشرت فى الجزيرة العربية ، وسرعان ما بزغت على دروب العالم ومسالكه من أواسط آسيا إلى جبال البرانس مما هيأ لانقلاب واسع فى تاريخ اللغة العربية وأدبها ، ونُجْمل ذلك إجمالا . فإن تفصيله لايتسع له كتاب فضلا عن صحف معدودة .

وأول ما كان من آثار القرآن الكريم أنه جَمع العرب على لهجة قريش ، وحقًّا كانت هذه اللهجة تسود القبائل الشمالية فى الجاهلية . غير أن هذه السيادة لم تكن تامة ، فقد كان الشعراء هم الذين يستخدمونها غالباً . أما قبائلهم فكانت تلوك لهجاتٍ تختلف عن اللهجة القرشية قليلا أو كثيراً ، حسب قربها من مكة أو بعدها . فعَمِلَ القرآن على تقريب ما بين هذه اللهجات من فروق واستكمال السيادة للهجة القرشية ، إذ كان العرب يتلونه آناء الليل وأطراف النهار . وأخذت هذه اللهجة تعمُّ بين القبائل الجنوبية متغلغلة فى الأنحاء الداخلية التى كانت لا تزال تتكلم الحميرية . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار أخذت لهجته تسود فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه ، إذ كانت تلاوته فرضاً مكتوباً على كل مسلم ، وحثَّ الإسلام على حفظه وترتيله . يقول عزّ شأنه : (ورتِّل القرآن ترتيلا) (ومَنْ أعرضَ عن ذكرى فإن له معيشة ضَنْكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنْسَى) . وبذلك تحول المسلمون فى جمهورهم إلى حَفَظة للقرآن ، يتلوه كبيرهم وصغيرهم حتى من سكنوا منهم الصحارى البعيدة ورءوس الجبال ، مما جعلهم ينطبعون بطوابعه اللغوية .

ومن غير شك أتاح هذا الحفظ للهجة قريش لا أن تنتشر فى العالم الإسلامى فحسب ، بل أن تُحْفَظ أيضاً وتظل على مَرِّ العصور جديدة غَضَّةً لا تبلى مع الزمان ، وأيضاً فإنها اكتسحت ما لقيت من لغات ، إذ اتخذتها شعوبٌ — لا حصر لها — لسانَها . فأصبح هو اللسان الأدبى من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسى . فكل من عاشوا فى هذه الأنحاء تكلموا العربية القرشية ، إذحلَّت من ألسنتهم محل لغاتهم الأولى وأصبحوا عرباً يعبِّرون بالعربية عن مشاعرهم وعقولهم ، وكل ذلك بفضل القرآن الكريم ، فهو الذى حفظ العربية من الضياع ، ونشرها فى أقطار الأرض ، وجعلها لغة حية خالدة .

وثانى آثاره أنه حوَّل العربية إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، وبذلك أحلَّ فيها معانى لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها ، وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأها ابتداء مثل : الفرقان والكفر والإيمان والإشراك والإسلام والنفاق والصوم والصلاة والزكاة والتيمم والركوع والسجود. وغير ذلك من كلمات الدين الحنيف، ولكن من الحق أن المسألة لم تكن مسألة ألفاظ فحسب ، إنما كانت أيضاً مسألة دين جديد ، له مضمونه الذى لم يكن العرب يعرفونه ، من الدعوة إلى عباد الله واشتقاق الدليل عليها وعلى وحدانيته من خَلْق السموات والأرض ومن تاريخ الأمم وما يعى من عظات ومن تاريخ الأنبياء وما يحمل من عِبر ، ومن تقرير البعث والنشور وبَسْط صُوَر الثواب والعقاب مستعيناً فى ذلك بالوجدانات الغريزية وبالعقول وتمييزها وما ينبغى أن يتهيأ لها من صواب الرأى. وإنه ليترقّى دائماً من معرفة الحواس إلى معرفة الأذهان ، وفى خلال ذلك يشرِّع للناس ما ينبغى أن تكون عليه حياتهم من نظام فى أُسَرهم وفى مجتمعهم بحيث تسودهم الرحمة والعدالة كما تسودهم أخوة عامة ، يَبْذل فيها الغنى للفقير من مال الله ما يعينه ، أخوة لا أسود فيها ولا أبيض ولا عربى ولا أعجمى . وكل هذه الدعوة الكريمة التى نزل فيها مائة وأربع عشرة سورة تُعَدُّ ابتداء ، بعباراتها وبمعانيها . ونستطيع أن نقول إن كل ما كسبته العربية بعد ذلك من عظات عند الحسن البصرى وغيره من كبار الواعظين ، إنما هو من فيض القرآن ومعينه الغزير .

وبمرّ الزمن أخذت تتكون حوله علوم كثيرة . ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غَرس فيهم القرآن من حب العلم كما قدمنا فى غير هذا الموضع . وقد أخذوا يشتقون منه مباشرة علوماً كثيرة كعلم القراءات وغيره من العلوم التى عرض لها السيوطى فى كتابه « الإتقان فى علوم القرآن » وهو يقع فى مجلدين يصور فيهما ما انبثق حوله من علوم مختلفة كعلم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم نحوه وإعرابه وعلم عامّه وخاصّه مما هيأ لظهور علوم البلاغة . ومن العلوم المهمة المتفرعة منه علم الفقه وأصوله . ولا نبالغ إذا قلنا إن العلوم الإسلامية كلها إنما قامت لخدمته ، فهو الذى هيأ بقوة لنهضة العرب العلمية .

وثالث آثاره أنه هذّب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب ، فأقامها فى هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ، ويكفى أن تعود إلى معلقة مثل معلقة لبيد أو إلى شعر قبيلة مثل هذيل وديوانها المطبوع لترى كيف أنه حقًّا اختطّ أسلوباً جزلا ، له رونق وطلاوة ، مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه . وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللفظ على قدر المعنى ، وكأنما رُسم له رسماً ، وهو لفظ لا يرتفع عن الأفهام ولا عن القلوب ، بل يقترب منها حتى يلمس الشغاف . ومما لا شك فيه أن القرآن هو الذى ابتدع هذا الأسلوبَ المحكم ، بل هذا الأسلوبَ السهل الممتنع الذى يلذ الآذان حين تستمتع له والأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصغى إليه ، هذا الأسلوب الذى يميز عربيتنا ، والذى استطاع أن يفتح القلوب حين فتح العرب الأمصار فإذا أهلها مشدوهون ، وإذا هم يهجرون لغاتهم المختلفة إلى لغته الصافية الشفّافة . واقرأْ فى قوارعه حين يتحدث عن البعث والحساب والعذاب وفى ملاطفاته حين يتحدث عن الرحمة والمغفرة أو حين يتحدث إلى رسوله فإنك ستجد الأسلوب دائماً مطردا فى جودة الإفهام وروعته مع سهولة اللفظ ومتانته وسلامته من التكلف ، وانظر إلى قوله تعالى يتوعد المشركين وما ينتظرهم يوم يُبْعَثُون : (ونُفخ فى الصور فَصعِقَ مَنْ فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربّها ووُضع الكتاب وجِيء بالنبيين والشهداء وقُضِيَ بينهم بالحق وهم لا يُظْلَمون . ووفِّيت كلُّ نفس ما عملتْ وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا إلى جهنّم زُمَراً حتى إذا جاءوها فُتحت أبوابها وقال لهم خزَنَتُها ألم يأتكم رُسلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربكم ويُنْذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مَثْوَى المتكبرين) . وقارن بين ذلك وبين ملاطفته جلّ وعز لرسوله فى سورة الضحى : (والضحى والليل إذا سَجَى ما ودّعك ربُّك وما قَلَى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فَهَدَى ووَجَدَك عائلا فأغنى فأما اليتيمَ فلا تَقْهَرْ وأما السائل فلا تنْهر وأما بنعمة ربِّك فحدِّثْ) فلن

تجد هنا ولا هناك كلمة متوعرة ولا لفظاً ضعيفاً ، إنما تجد روعة الأسلوب دائماً وجزالته وعذوبته ونصاعته ، مع دقة العبارات واستيفائها لمعانيها ، ومع الألفاظ المستحسنة فى الآذان وعلى الأفواه ، الألفاظ التى تغذى العقول برحيقها الصافى وتشفى القلوب والنفوس .

وهذا الأسلوب البالغ الروعة الذى ليس له سابقة ولا لاحقة فى العربية هو الذى أقام عمود الأدب العربى منذ ظهوره ، فعلى هَدْيه أخــذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة وحُسْن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات فى مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلّى عن مغزاها ، مع الرصانة والحلاوة . وكان العرب — ولا يزالون — يتحفّظونه ، فهو معجمهم اللغوى والأدبى الذى ساروا على هُداه ، مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم . يقول الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفْل وفى الكلام يوم الجُمَع آىٌ من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسَلَسَ الموقع . وقال الهيثم بن عدى : قال عمران بن حِطَّان : إن أول خطبة خطبتها عند زياد — أو عند ابن زياد — فأُعْجب بها الناس وشهدها عمى وأبى ، ثم إنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شىء من القرآن »[١] . وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه وإحكام نَظْمه ، فإنك تجد العبارة منه ، بل اللفظة ، حين تأتى فى سياق كلام كاتب أو خطيب أو شاعر تضىء ، كأنها الشهاب الساطع . ولا يزال أدباء العرب يَسْتقون من فيضه وينهلون من نبعه الغزير ما يقوِّم ألسنتهم ، ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلف أو تعمل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد .

٤

الحديث النبوى

الحديث هو كل ما حُكى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، وهو بذلك ليس جميعه أقوالا له ، بل منــه ما يسمَّى باسم

(١) البيان والتبيين ١ / ١١٨ .

الآثار وهي ما رواه الرواة حكاية عن خُلقه أو عمله أو فى شأن من شئونه . وضم إليه الرواة كثيراً مما حُكى عن الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدين ، إذ كانوا يقتدون به فى أقوالهم وأفعالهم عملا بقوله تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوة حسَنة) ويقول الجاحظ : «كانوا يكرهون أن يقولوا سُنَّة أبى بكر وعمر ، بل يقال : سنة الله وسنة رسوله»[١]. وفى ابن سعد عن صالح بن كيسان قال : « اجتمعت أنا والزُّهْرى ونحن نطلب العلم فكنا نكتب السُّنن ، قال : وكتبنا ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سُنّة ، قال : قلت إنه ليس بسنة ، فلا نكتبه ، قال : فكتب ولم أكتب ، فأنجح وضيَّعت[٢] » .

وأهمية الحديث ترجع إلى أن القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامى وأحكامه مجملة دون تفصيل وأنه هو الذى يفصِّلها ، فالقرآن مثلا لم يذكر تفاصيل الصلاة والزكاة وهما من أهم أركان الإسلام ، بل اكتفى بمثل قوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وفصَّل الحديث أوقات الصلاة وكيفياتها ، كما فصل القواعد والأسس التى يجب اتباعها فى جَمْع الزكاة وتوزيعها . وهذان أمران من مئات الأوامر التى تناولتها أفعال الرسول وأقواله . فهو الذى بيَّن أحكام الشريعة وصوّرها عمليا كما صور المبادئ الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية التى جاء بها الرسول . وبذلك كان مكملا للقرآن ، وخاصة حين تُجْمَل أحكامه أو يَنْبهم المراد من معنى بعض آياته ، فقد رُوى عن على بن أبى طالب أنه لما أرسل ابنَ عباس ليحاجّ بعض الخوارج أوصاه بأن لا يعارضهم بالقرآن لأنه حمّالُ أوجهٍ ، ويحتمل معانى مختلفة ، وبأن يكون عماده السُّنّة فلا يجدوا منها مخرجاً[٣] .

وكان الصحابة يروون حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته وكان هو نفسه يحثهم على ذلك ، فعن ابن عباس قال : قال رسول الله : « اللهم ارحم خلفائى قلنا

---

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ج ٢ ق ٢ ص ١٣٥ .
(٢) طبقات ابن سعد (طبعة أوربا) ٣٣٦/١ .
(٣) نهج البلاغة ( ) ١٤٦/٢

يا رسول الله ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يروون أحاديثى ويعلمونها الناس[1] » . وكان كثيراً ما يقول للوفود : احفظوا أحاديثى واخبروا بها مَنْ وراءكم من العشائر ، وتتكرر فى خطبة حجة الوداع المشهورة : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » . وكان يُرْسل فى القبائل رسله ليعلموهم القرآن وسنته . ومرَّ بنا أنه لما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تَقْضى ؟ فقال : بكتاب الله ، فقال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسوله . فالحديث كان متداولا فى حياة الرسول وكان الرسول يأمر بنشره وإذاعته فى الناس ، حتى يقفوا على أوامر الدين ونواهيه وما أخذهم به من آداب ونظم .

ولما توفّى الرسول وانتشر الصحابة فى الأمصار الإسلامية أخذوا يبلّغون كتاب الله وسنة رسوله أينما ذهبوا، وكادوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من أفعاله وأقواله إلا أحصوها وتناقلوها ، واشتهر من بينهم جماعة بكثرة ما رُوى عنهم فى هذا الباب مثل أبى هريرة وعائشة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وابن عباس وأنس بن مالك ، وكثير غيرهم . حتى إذا ذهب الصحابة خلفهم التابعون يحكون ما سمعوه منهم . وبذلك أخذ الحديث ينتقل من جيل إلى جيل، فالمحدّث يقول : سمعت من فلان عن فلان أو حدثنى أو أخبرنى أو أنبأنى . ومن ثمّ تكوّن سَند الحديث وتكونت السلاسل الطويلة من رُواته ، تلك السلاسل التى تضخمت مع مر الزمن بعامل طول المسافة بين المحدّث ومن ينقل عنهم حتى عصر الرسول. وقد يكون للحديث الواحد أكثر من سند بسبب تفرّق الصحابة فى الأرض ، وبذلك تعددتْ طرق رواية الحديث ، كما تعدد حاملوه ، وأصبح يحتوى متناً وسنداً يطول ويقصر . وطبيعى أن يسمّى حديثاً لأنه كان يعتمد على الرواية والنقل الشفوى ، وهو يسمّى أيضاً السنة ، وهى فى اللغة العادة ويراد بها العادة المقدسة التى رُويت عن النبى وصحابته،وهى تُستَعمل فى القرآن بمعنى تقاليد الأسلاف الأولين وقد حوّلها المسلمون إلى التقاليد التى حُكيت عن الرسول وصحبه .

ومما لا ريب فيه أن بعض أحاديث الرسول دُوِّن فى حياته، وخاصة تلك

---

(١) انظر فى هذا الحديث مقدمة القسطلانى على البخارى .

التى تتصل بالزكاة حين كان يكتب إلى بعض الأقوام يبيِّن لهم فرائض دينهم ، على نحو ما نجد ذلك فى بعض كتبه المأثورة[١] . ورخّص النبى فى بعض الأحوال لنفر من الصحابة أن يكتبوا حديثه ، فقد أذن لرجل من الأنصار شكا إليه سوء حفظه لما يسمع منه أن يستعين على حفظه بيمينه[٢] ، وعن رافع بن خُديج قال : « قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها ؟ قال : اكتبوا ولا حرج[٣] » ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب ما يسمع من حديث فأذن له[٤] ، وكان يسمِّى صحيفته التى كتبها عن الرسول الصادقة[٥] . وفى بعض الأحاديث أن الرسول أمر أصحابه أن يكتبوا لرجل يمنىٍّ خطبةً سمعها منه ، تضمنت بعض الأحكام الدينية[٦] . على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور ما كان من هذه الكتابة لحديث الرسول فى حياته ، فإنها كانت محدودة جدًّا ، وكان الرسول يَنْهى أن تصبح كتابةُ حديثه عامةً ، حتى لا يختلط بالقرآن ، وهذا هو السبب فيما أُثر عنه من أقوال تنهى عن تدوين حديثه من مثل قوله لأصحابه : « لا تكتبوا عنى شيئاً إلا القرآن فمن كتب شيئاً فليمحه »[٧] .

ومما يدل دلالة قاطعة على أن جمهور الحديث لم يُكتب على عهد الرسول أن نجد عمر بن الخطاب يستشير الصحابة فى كتابته ، وطفق يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزَم الله له فقال : إنى كنت أردت أن أكتب السُّنن وإنى ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبُّوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى ، وإنى والله لا أُلْبِس كتاب الله بشىء أبداً »[٨] . فترك كتابة السنن ، وتبعه كثير من الصحابة يروون الحديث ويكرهون أن يكتبه سامعهم مثل زيد بن ثابت وأبى هريرة وأبى سعيد الخُدْرى وأبى موسى الأشعرى ، واقتدى بهم كثير من التابعين وإن كانت أخذت تظهر عند بعضهم بوادر كتابته ، ولكنه على كل حال لم يدوَّن فى القرن الأول للهجرة تدويناً عامًّا . وظل الأمر على ذلك حتى تولى عمر بن عبد العزيز

---

(١) انظر فى ذلك مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة لحميد الله (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادى (طبعة يوسف العش) ص ٦٥ .

(٣) تقييد العلم ص ٧٢ .

(٤) تقييد العلم ص ٧٤ وما بعدها .

(٥) تقييد العلم ص ٨٤ .

(٦) نفس المصدر ص ٨٦ .

(٧) تقييد العلم ص ٢٩ وما بعدها .

(٨) نفس المصدر ص ٤٩ وما بعدها .

الخلافة (٩٩ - ١٠١ هـ) فأمر بتدوينه . جاء فى حاشية[١] الزرقانى على موطأ مالك: « لم يكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الأحاديث إنما كانوا يؤدونها لفظاً ويأخذونها حفظاً إلا كتاب الصدقات والشىء اليسير .. حتى خيف عليها الدروس وأسرع فى العلماء (من حفاظها) الموت، فأمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر الحزمى (والى المدينة) فيما كتب إليه: أن انظرْ ما كان من سُنَّة أو حديث فاكتبْه . وقال مالك فى الموطأ رواية محمد بن الحسن : أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم ، أن انظرْ ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سُنَّته أو نحو هذا فاكتبه لى فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، علّقه البخارى فى صحيحه، وأخرجه أبو نُعَيْم فى تاريخ أصبهان بلفظ : كتب عمر إلى الآفاق: انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه » . وتوفِّى عمر قبل أن يصله عمل ابن حزم فى هذا الصدد . وأول مدوِّن للحديث بالمعنى الدقيق لكلمة تدوين هو ابن شهاب الزهرى[٢] المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وأخذ التصنيف والتأليف فى الحديث يكثر بعده ويتسع ، وسرعان ما ظهر موطأ مالك ثم تتابعت صحاحه مثل صحيح البخارى وصحيح مسلم .

و إنما قدمنا ذلك ليقف القارئ على أن الحديث تأخر تدوينه ، وكان طبيعيًّا أن يتداوله الأعاجم والمولدون قبل هذا التدوين حتى ينهجوا نهج الرسول ويقتفوا أثره ، فزادوا ونقصوا فى عبارته وقدموا فى كلماتها وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ ، ومن أجل ذلك رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والكوفة و بغداد أن لا يحتجوا بشىء من الحديث فى إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد التى دونوها ، لأن الأحاديث لم تكن تُرْوَى بألفاظها كما جاءت عن الرسول إنما كانت — تُرْوَى غالباً — بمعانيها، ومن أجل ذلك كان كثير من الأحاديث تتعدد رواياته .

---

(١) انظر الحاشية ١/ ١٠ .

(٢) انظر فى ترجمته كتاب الأنساب للسمعانى ٢٨١ وابن خلكان (طبعة بولاق) ١ /٥٧١ وتهذيب التهذيب لابن حجر ٩/ ٤٤٥ وتذكرة الحفاظ للذهبى ١/ ١٠٢ والمعارف لابن قتيبة ص ٢٣٩ وصفة الصفوة ٢/ ٧٧ .

على أن طائفة من الأحاديث رُويت رواية تواتر، ومن ينظر في هذه الأحاديث وما نصّ عليه العلماء بأنه رُوِيَ بلفظه يعرف أنه عليه السلام أوتي جوامع الكلم . وحقًّا ما يقوله الجاحظ من أنه « لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشُيِّد بالتأييد ويُسِّر بالتوفيق »[1] ويضرب الجاحظ لبيانه الرائع بعض الأمثلة من حديثه الذى قَلّ عدد حروفه وكثرت معانيه ، فمن ذلك قوله للأنصار : « أما والله ما علمتكم إلا لتقلّون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » وقوله « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على مَنْ سواهم »، وقوله : « لا تزال أمتى صالحاً أمرها ما لم ترَ الأمانة مغنماً والصدَقة مغرماً » ، وقوله « المستشار مؤتمن » ، وقوله : « إن أحبَّكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقاً الموطَّئون أكنافاً الذين يألفون ويُؤْلفون . وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون المتَفيْهقون » ، وقوله « لا تَجنْن يمينك على شمالك » وقوله : « ما أملقَ تاجر صَدوق » وقوله : « رَحِمَ الله عبدًا قال خيرا فغنمَ أو سكت فسلمَ » وقوله : « إن الله يرْضَى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا : يرْضَى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرّقوا وأن تُناصحوا من ولاّه الله أمركم ، ويكره لكم قيلَ وقالَ وكثرة السؤال وإضاعة المال » وقوله : « يقول ابنُ آدم : مالى مالى ، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيتَ أو لبستَ فأبليتَ أو وهبتَ فأمضيتَ » وقوله : « إن قوما ركبوا سفينة فى البحر فاقتسموا فصار لكل رجل موضع ، فنقَر رجل موضعه بفأس ، فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع به ما شئتُ ، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا » وقوله : « حصِّنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة » وقوله : « من ذَبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقا على الله أن يحرِّم لحمه على النار » وقوله : « أوصانى ربى بتسع : أوصانى بالإخلاص فى السرِّ والعلانية، وبالعدل فى الرِّضا والغضب ، وبالقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حَرمنى ، وأصِل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكراً ونطقى ذكراً ونظرى عِبراً » وقوله : « إن الأحاديث ستكثر

(١) البيان والتبيين ٢ / ١٧ .

بعدى كما كثرت على الأنبياء من قبلى ، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فهو عنى قلته أو لم أقله » . ويذكر الجاحظ طائفة من أقواله التى دارت بين الناس دوران الأمثال والتى تُعَدُّ ذخيرة أدبية رائعة من نحو قوله صلى الله عليه وسلم[1] :

يا خيلَ الله اركبي — مات حَتْفَ أنفه[2] — لا ينتطح فيه عَنْزان — الآن حَمِيَ الوطيس[3] — كل الصَّيْد في جوف الفَرَا[4] — هُدْنة على دَخَن وجماعة على أقذاء[5] — لا يُلْسَع المؤمن من جُحْر مرتين . ومن أمثاله أيضاً : إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قَطَع ولا ظهرا أبقى[6] — إياكم وخضراءَ الدِّمن[7] — الناس كإبلٍ مائة لا تجد فيها راحلة[8] .

وإذا كنا قد عرضنا فى غير هذا الموضع لأثر القرآن فى اللغة والأدب فإن للحديث هو الآخر أثراً فيهما ، وإن كان لا يبلغ أثر القرآن العظيم ، لأنه دونه فى البلاغة ، وإن كان قائله أبلغ العرب قاطبة وأفصحهم . ويمكن أن نلاحظ أثره فى أنه عاون القرآن الكريم فى انتشار العربية ، وفى حفظها وبقائها ، وكان له أثر أيضاً فى توسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تُسْتَخْدَم من قبل هذا الاستخدامَ الخاص . وقد أقبل العلماء فى مختلف الأمصار الإسلامية ، وعلى تعاقب الأعصار ، يدرسونه ويتحفظونه ويشرحونه ويستنبطون منه . وحقًّا أن كثرته رُويت بالمعنى ، ولكن هذا لا يقلل من قيمته اللغوية ، إذ كانت ألفاظه تدور فى عصور سبقت عصر فساد اللغة ، وهى من أجل ذلك ألفاظ عربية سليمة ، وبالتالى هى كنز ثمين . وقد استمد المتأدبون من هذا الكنز فى رسائلهم وأشعارهم ما أضاف إليها — على مر العصور — رونقاً وطلاوة ، وما يزال ذلك شأنهم إلى اليوم . وقد

---

(١) انظر البيان والتبيين ٢/١٥ . وراجع كتب الأمثال .

(٢) مثل يضرب لمن مات على فراشه .

(٣) الوطيس : التنور . يضرب مثلا فى اشتداد الحرب .

(٤) الفرا : حمار الوحش . يضرب مثلا فى نفاسة الشيء أو الشخص .

(٥) دخن : حقد .

(٦) المنبت : من أسرع بناقته حتى هلكت فلم يقض ما يبغى من حاجة أو من سفر . والظهر : الناقة التى يركبها .

(٧) الدمن : البعر المتلبد . يضرب مثلا للتنفير من المرأة الحسناء تنشأ فى منبت سيء .

(٨) الراحلة : الصالحة لأن ترحل .

جاءت فيه أحرف غريبة من لغات القبائل ، إذ كان الرسول يخاطب بعض وفودهم بلغاتهم ، وبقيت من ذلك آثار مختلفة كحديثه المشهور الذى أبدل فيه أل بأم كما يصنع بعض العرب من حمير إذ قال : « ليس من امبرّ امصيام فى امسفر » ، أى ليس من البر الصيام فى السفر . ومن أجل هذا وأمثاله ألف العلماء فى غريبه كتباً ، من أهمها كتاب غريب الحديث للقاسم بن سلام . ومن تأثيره أيضاً نشأة الكتابة التاريخية لا فى السيرة النبوية فحسب ، بل أيضاً فى تراجم المحدِّثين للحكم لهم أو عليهم فيما نُقل عنهم . ومن غير شك هو السبب فى أن المسلمين أشد الأمم عناية بتواريخ رجالهم على نحو ما نعرف فى مثل طبقات ابن سعد وأُسْد الغابة والإصابة والاستيعاب وميزان الاعتدال للذهبى . فالحديث هو الذى فتَح باب الكتابة التاريخية وهيَّأ لظهور كتب الطبقات فى كل فن . وهذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث وغير مشاركته فى علوم التفسير والفقه ، مما بعثَ على نهضة علمية رائعة .

الفصل الثالث

الشعر

١

كثرة الشعر والشعراء المخضرمين

تزخر كتب الأدب والتاريخ بما نُظم من أشعار فى صدر الإسلام ، وهى أشعار كثيرة ، نلقاها فى كل ما يصادفنا من أحداث العصر ، فليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر ويرافقه ، وكان أكبر الأحداث دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وهى دعوة اضطرته إلى حَمْل السيف للذياد عنها ، وانقسمَ العرب بإزائها مؤمنين ومشركين فكان هناك من آمنوا وحَسُنَ إيمانهم ومن وقفوا يدافعون عن الدين القديم ويصدّون عن سبيل الله ، وكل ذلك نجده ماثلا على ألسنة الشعراء . واستقام أمر الإسلام فى الجزيرة ، غير أن أقواماً ارتدوا لعهد أبى بكر ، فحاربهم ومثّل الشعر هذه الحرب ، ثم كانت الفتوح ، فانطلق العرب يحملون مشاعل الإسلام إلى العالم وهم يُنْشدون أناشيد الجهاد . وتلت ذلك فتنة عثمان وحروب على وطلحة والزبير وعائشة من جهة وحروب على ومعاوية من جهة ثانية ، فتعالَتْ أصوات الشعراء وتصايحوا بأشعارهم فى كل مكان .

ومضى كثيرون ينظمون فى هذا العصر لامع الأحداث ، بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيئين إلى حد كبير بالإسلام وهَدْيه الكريم . فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف فى هذا العصر ، وهذا طبيعى لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله فى الجاهلية وكانوا قد انحلت عُقْدَة لسانهم وعبرّوا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتمّ الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه. واقرأ فى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغانى والطبرى وسيرة ابن هشام وكتب الصحابة مثل الإصابة والاستيعاب فستجد الشعر يسيل على كل لسان ، واقرأ فى

المفضليات والأصمعيات فستجد المفضل الضبي والأصمعي يحتفظان فى كتابيهما بغير مطولة للمخضرمين ، وقد عقد ابن قتيبة فى الشعر والشعراء تراجم لكثيرين منهم ، وسلك ابن سلام فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » طائفة من مجوّديهم البارعين .

ومن يرجع إلى كل هذه المصادر يستقر فى نفسه أن الشعر ظل مزدهراً فى صدر الإسلام ، وليس بصحيح أنه توقّف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين إذ يقول فى مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونَظْمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زماناً ، ثم استقرّ ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وحَظْره وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه[1] » . وكأنه يجعل توقفهم عن الشعر مدة نزول الوحى لعصر الرسول ، وواضح أن هذا لا يصدق على المشركين لأنهم لم يُشْغَلُوا بالدعوة ، ومعروف أن جمهور القبائل العربية إنما دخل فى الإسلام بعد فتح مكة فى العام الثامن للهجرة . وإذن فانصرافهم عن الشعر — إن صح — إنما كان لمدة عامين أى إلى أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وهو نفسه ينقض ما قاله فى أول كلامه بما قاله فى آخره من أن الرسول سمع الشعر وأثاب عليه ، ونحن نعرف أنه كان يقف بجانبه ثلاثة من شعراء المدينة ينافحون عنه ويردُّون على شعراء مكة وغيرهم من خصومه ذائدين مدافعين ، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رَواحة . وحتى فى العامين الأخيرين من حياته عامى الوفود كان كل وفد يَقْدم ومعه خطباؤه وشعراؤه ، وبمجرد أن يَمْثُلوا بين يديه يتحدث خطباؤهم ويُنْشد شعراؤهم ويردّ عليهم خطباء الرسول صلى الله عليه وسلم وشعراؤه[2] .

ولعل الذى دفع ابن خلدون إلى كلامه السابق ما جاء عند ابن سلاّم وتناقله الرواة بعده من قوله : « فجاء الإسلام وتشاغلتْ عن الشعر العربُ وتشاغلوا

---

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) . ص ٤٢٧ .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٤٦/٤ وما بعدها .

بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت (العرب) عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنّت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، وألَفْوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير »[١].
وابن سلام إنما يقول ذلك ليدلّ على أن شعراً عربياً كثيراً ضاع من يد الزمن ، وكان يكفيه ما قاله من أنهم لم يدوّنوه وأنهم اكتفوا بروايته ، فإن من شأن الرواية إذا طال العهد بها أن لا تحتفظ بكثير من الشعر وأن يسقط منه غير قليل ، أما قوله بأن العرب لهت عن الشعر وشُغلت عنه بالجهاد فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه .

وربما جاءت شبهة إصغار العرب للشعر فى صدر الإسلام وإعراضهم عنه من مهاجمة القرآن للشعراء فى قوله تعالى : (والشعراءُ يتّبعهم الغاوون ألم تَر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا ». وواضح من نفس هذه الآيات أن القرآن إنما يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول ويثبّطون عن دعوته . فالقرآن لم يهاجم الشعر من حيث هو شعر ، وإنما هاجم شعراً بعينه كان يؤذى الله ورسوله ، وهو نفسه الذى قال فيه الرسول الكريم : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قَيْحاً خير له من أن يمتلىء شعراً »[٢] أما بعد ذلك فإن الرسول كان يُعْجَبُ بالشعر ويقول حين يسمع بعض روائعه : « إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحُكْماً أو حكمة »[٣] ، وكان يحضّ حسان بن ثابت وغيره على نظمه ويثيبهم . وكان بعض خصومه ممن توعدهم يتخذه وسيلة إلى استرضائه وعفوه عنه ، على نحو ما هو معروف عن كعب بن زهير الذى أحفظه بأشعار مختلفة ندّد فيها بالإسلام ، ثم قَدِمَ عليه فأنشده لاميته المشهورة يطلب الصفح عن إساءته ، فتهلل وجهه بشراً وخلع عليه بُرْدته[٤] .

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبع دار المعارف) ص ٢٢ .
(٢) العمدة لابن رشيق (الطبعة الأولى) ١/ ١٢ .
(٣) العمدة ١/ ٩ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٥/ ١٤٢ ومابعدها

والحق أن الإسلام لم يردّ العرب عن الشعر ونظمه ، وسنرى عما قليل أن الرسول عليه السلام اتخذه سلاحاً ماضياً ضد خصومه من مشركي قريش وأعداء رسالته ، إذ كان يرى أن وَقْع نبْله عليهم أشد من وقع الحسام[١] . وكان الخلفاء الراشدون من بعده يرددونه دائماً على ألسنتهم[٢] ، كما كان صحابته كثيراً ما يتناشدونه في المسجد[٣] . وقد اشتهر عمر بن الخطاب بأنه كان كثيراً ما يسأل وفود القبـــائل عن شعرائهم ، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم وقد ينشدها هو متعجباً مستحسناً[٤] ، ويقال إنه كتب إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة : « مُرْ مَنْ قِبَلَك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب »[٥] ، ويقول ابن سلام إنه « كان لا يكاد يعرض أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »[٦] .

وكل ذلك معناه أن الإسلام لم يُثَبِّط عن الشعر إلا حين وقف معارضاً لدعوته ، أما بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه . وقد مضى الخلفاء الراشدون مهتدين بهدى الإسلام الحنيف ينهون عن الهجاء ويعاقبون فيه ، وقصة عمر بن الخطاب مع الحطيئة معروفة ، فقد حبسه حين أقذع في هجائه للزِّبْرِقان بن بدر ، ولما استرحمه على أفلاذ كبده بأبياته المشهورة عفا عنه ، بعد أن عاهده على أن لا يعود إلى مثل هذا الهجاء[٧] . واتبع عثمان سنة عمر في التشديد على من يَسْلُقون المسلمين بألسنة حداد ، وقصته مع ضابئ بن الحارث البُرْجمي مشهورة فقد هجا جماعة من الأنصار هجاء مقذعا أفحش فيه ، فاستعدوه عليه فحبسه ، وظل في حبسه حتى مات[٨] .

---

(١) العمدة ١٢/١ .

(٢) راجع خطبة أبي بكر في السقيفة وكتاب عثمان إلى علي حين حوصر ، وانظر ابن سعد ٥٧/٦ .

(٣) طبقات ابن سعد (طبعة أوربا) ج ١ ق ٢ ص ٩٥ – ٩٦ والفائق للزمخشري ٢٥٧/١ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٩/٨ ، ٢٨٨/١٠ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٢٧٠/٥ وخزانة الأدب للبغدادي ٢٩٢/٢ .

(٥) العمدة ١٠/١ .

(٦) البيان والتبيين ٢٤١/١ .

(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٥/٢ .

(٨) ابن سلام ص ١٤٤ وانظر في ترجمة ضابئ أيضاً الشعر والشعراء ٣٠٩/١ والإصابة ٢٦٧/٣ والخزانة ٨٠/٤ والكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٢١٩ .

ولكن هاتين القصتين شيء ونظم العرب للشعر حينذاك وروايته شيء آخر . فقد كانت حريتهم مكفولة فى هذه الرواية وذلك النظم ما لم يتعرضوا للأعراض، ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كفَّ العرب عن الشعر ووقفَ نشاطه ، فقد كان يُنْشَدُ على كل لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله سواء فى معركة الإسلام مع الوثنيين والمرتدين أو فى الفتوح أو فى معركة على مع خصومه فى العراق . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حلَّت من عُقَد الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بنا نجد مكة التى لم تُعْرَف فى الجاهلية بشعر كثير يكثر شعراؤها ، وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء فى الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها . وهم يسمون جميعاً مخضرمين من الخضرمة وهى الاختلاط لأنهم خلطوا فى حياتهم بين الجاهلية والإسـلام فعاشوا فى العصرين معاً .

٢

الشعر فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا فى الإسلام ، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم ، فماتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا فى غمار الجاهليين ، فهم ليسوا مخضرمين بالمعنى الصحيح للخضرمة ، ومن ثمَّ كنا نخرج دُرَيْد بن الصِّمَّة والأعشى وأمية ابن أبى الصلت والأسود بن يعفر النَّهْشلى وأضرابهم من سِلْكِ المخضرمين وننظمهم فى سلك الجاهليين ، لأن الموت أدركهم قبل أن يتمَّ الله عليهم نعمة الإسلام .

ومعروف أن قريشاً حادَّت الله ورسوله حين بُعث مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وسرعان ما نشبت بين البلدتين معركة حامية الوطيس ، تقف فيها قريش ومن يُعينها من العرب فى جانب ، ويقف الرسول صلوات الله عليه ومن هاجروا معه من مكة ومن التفُّوا حوله فى المدينة فى جانب آخر . وبمجرد أن

اشتبكت السيوف أخذ الشعراء فى الجانبين المتناقضين يسلّون ألسنتهم ، ولم تكن مكة فى الجاهلية - كما قدمنا - تُعْرَفُ بشعر إلا بعض مقطوعات تُنْسَبُ لورَقة ابن نوفل وغيره من المتحنّفين ، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فِتْيانها مثل نُبيْه ومسافر اللذين ترجم لهما أبو الفرج فى أغانيه . فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزِّبَعْرى وضرار بن الخطاب الفِهْرى وأبى عَزَّة الجمحى وهُبَيْرة بن أبى وهب المخزومى ، وقد أخذوا يسدّدون سهام أشعارهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين وأنصاره من المدينة . وعزّ ذلك عليه لا لأنهم كانوا يهجونه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدُّون عن سبيل الله بما يَذيع من شعرهم فى القبائل العربية ، فقال للأنصار : «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسّان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرُّنى به مِقْوَلٌ بين بُصْرى وصنعاء»[1] وانضم إليه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة . واقرأ فى سيرة ابن هشام فستجده ينقل عن ابن إسحق عقب كل موقعة حربية ما قيل فيها من شعر ، تجد ذلك عقب غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة وعقب غزوة أحد فى السنة الثالثة وغزوة الخندق فى السنة الخامسة كما تجد أطرافاً من ذلك فى فتح مكة للسنة الثامنة .

على أنه ينبغى أن نشك فى كثير من هذه الأشعار لأن ابن إسحق - كما يقول ابن سلام - كان يَحْمل كل غُثاء من الشعر حتى أفسده وهجّنه[2] ، ونرى ابن سلام يقول فى ترجمته لأبى سفيان بن الحارث : «لسنا نعدّ ما يَرْوى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأَنْ لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم»[3] . على أن ابن سلام نفسه يُثْبت لأبى سفيان بن الحارث قصيدة كافية ناقض بها فى يوم أحد كافيةً كان قد نظمها حسان بعد وقعة بدر[4] ، وقد

---

(١) أغانى ٤/١٣٧ .

(٢) ابن سلام ص ٨ .

(٣) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٧ وما بعدها .

أثبت لابن الزِّبَعْرى قصيدته التى قالها فى نفس اليوم[١] ، والتى يقول فيها :

ليتَ أشياخى ببدر شهدوا ... ضَجَرَ الخَزْرَجِ من وَقْعِ الأَسَلْ[٢]

حين ألقتْ بقُبَاءٍ بَرْكَهَا ... واستحرَّ القتلُ فى عبد الأَشَلْ[٣]

فقبلنا النِّصْفَ من سادتهم ... وعَدَلْنا مَيْلَ بَدْرٍ فاعتدل[٤]

وأيضاً فإنه أثبت لأبى عَزَّة ميمية يحرِّض فيها بنى كنانة[٥] ، وقال عن هبيرة بن أبى وهب : إنه كان شديد العداوة لله ولرسوله ، وهو الذى يقول فى يوم أحُد[٦] :

قُدْنا كنانةَ من أكنافِ ذى يَمَن ... عَرْضَ البلاد على ما كان يُزْجيها[٧]

قالت كنانةُ : أنَّى تذهبون بنا ... قلنا : النَّخيلَ ، فأَمُّوها وما فيها[٨]

وكان فى الطرف المقابل حسان وكعب وابن رواحة ، وحسان أشعر الثلاثة ، يقول ابن سلام : « وهو كثير الشعر جيِّده » ، ويقال إن أول ما جرى به لسانه حين سلَّه على قريش هذه الأبيات يتحدَّى بها أبا سفيان بن الحارث[٩] :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاك الجَزَاءُ

فإن أبى ووالده وعِرْضِى ... لِعِرْضِ محمدٍ منكم وِقاءُ

أتهجوه ولستَ له بكفْءٍ ... فشَرُّكما لخيركما الفِدَاءُ

---

(١) ابن سلام ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) أشياخه ببدر : من قتلوا بها من مشركى قريش . الأسل : الرماح .

(٣) قباء : موضع بضواحى المدينة . ألقت الحرب بركها : حمى وطيسها . استحر القتل : اشتد وكثر .

(٤) قبلنا النصف : انتصفنا بمن قتلناه منهم لقتلى بدر .

(٥) ابن سلام ص٢١٣ .

(٦) ابن سلام ص ٢١٥ .

(٧) الأكناف : النواحى . ذو يمن : موضع قريب من مكة . يزجى : يسوق ويدفع .

(٨) يريد بالنخيل المدينة لكثرته فيها . أموها : قصدوها .

(٩) أغانى ١٣٩/٤ والاستيعاب لابن عبد البر ص ١٢٩ .

ويقول ابن سلام : « وكعب شاعر مجيد ، قال يوم أحُدٍ فى كلمة :

فجئْنا إلى موجٍ من البحر وَسْطه أحابيشُ منهم حاسِرٌ ومقنَّعُ [١]
ثلاثةُ آلافٍ ونحن نَصِيَّةٌ ثلاثُ مئين إن كثُرنا وأربع [٢]
فراحــوا سراعاً مُوجِفين كأنهم جَهَامٌ هَرَاقتْ ماءَهُ الرِّيحُ مُقْلِعُ [٣]
ورُحْنــا وأخْرَانا بِطاءٌ كأننا أسودٌ على لَحْمٍ ببِيشَةَ ظُلَّعُ [٤]

وقال فى أيام الخندق :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُرَعْبِلُ بَعْضُهُ بعضاً كمَعْمَعَةِ الأباء المُحْرَقِ [٥]
فَلْيَأْتِ مأْسدةً تُسَلُّ سيوفُهــا بين المذادِ وبين جزْع الخَنْدَق [٦]

ووقف ابن سلام عند ابن رواحة وتحدث عن حُسْن إسلامه وأنه كان أحد الأمراء الثلاثة الذين قتلوا يوم مُؤْتة وأثبت له من هجائه لقريش قوله [٧] :

نجالدُ الناسَ عن عُرْضٍ فنأْسرهم فينا النبيُّ وفينا تنزل السُّوَرُ [٨]
وقــد علمتم بأنا ليس غالبَنا حَيٌّ من الناس إن عَزُّوا وإن كثُروا
يا هاشمَ الخيرِ إن الله فضَّلكم على البَرِيَّةِ فَضْلاً ماله غِيَرُ [٩]
فثبَّت اللهُ ما آتاك من حَسَنٍ تثبيتَ موسى ونَصْراً كالذى نُصِروا [١٠]

---

(١) أحابيش قريش : حلف منهم تحالفوا عند جبل يسمى حبشيا. الحاسر : الذى لا بيضة له عكس المقنع .
(٢) النصية : الخيار والأشراف .
(٣) موجفين : مسرعين . الجهام : السحاب أفرغ ماءه .
(٤) بيشة : مسبعة فى واد كثير الشجر . ظلع : من الظلع وهو العرج . يكنى بذلك عن سيرهم البطىء المطمئن .
(٥) يرعبل : يمزق . المعمعة : صوت لهب النار فى القصب . الأباء : أجمة القصب . يصف أصوات المعركة .
(٦) أرض مأسدة : كثيرة الأسود . المذاد : موضع بالمدينة . جزع الخندق : منعطفه .
(٧) ابن سلام ص ١٨٨ .
(٨) عن عرض : عن ناحية ، يريد أنهم لا يبالون من يضربون .
(٩) غير : تغيير .
(١٠) يقصد الرسل .

وفى الأغانى أن حساناً وكعباً «كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيِّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيِّرهم بالكفر ، فكان فى ذلك الزمان أشدَّ القول عليهم قولُ حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة»[1] . ومن المؤكد أن حساناً وكعباً كانا يرميان قريشاً عن بصيرة حين غلبتْ على هجائهما صورةُ الهجاء القديمة ، لأنها هى التى كانت تؤذى نفوس القرشيين المكّيين ولو أنهما رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم ، إذ كانت تلك عقيدتَهم وكانوا يعتزُّون بها ، ومن ثم اتجه حسان وكعب هذه الوجهة، فطعنا فى الأحساب والأنساب ، وعيَّرا سادتَهم وفرسانهم بالفرار من الحرب وتوعداهم بالبلاء المستطير . وطبيعى لذلك أن لا نجد عندهما تأثراً واضحاً بمثالية القرآن الكريم فى ذم المشركين، إذ نراه خالياً من الشتم والسباب والطعن فى الأعراض والأحساب ، وأيضاً فإنه لا يتوعد المشركين بحرب مُبيرة تأتى على الشيب والشبان، إنما يتوعدهم بالنار ، ومع ذلك يفتح الأبواب واسعة لرحمة الله وغفرانه وتوبته على المشركين الذين يثوبون إلى عقولهم ويدخلون فى دينه الحنيف .

وكان يَشْرَكُ شعراء قريش فى التأليب على رسول الله وأنصاره وأصحابه نفر من شعراء اليهود نكثوا ما عاهدوه من الموادعة وحقوق الجوار[2] وأخذوا يهجونه هو والمسلمين ويخذّلون عنه قريشاً والعرب ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتِمّ نوره ولو كره الكافرون. وكان من رءوسهم فى هذا الفساد كعب بن الأشرف[3] ، وقد بلغ من سوء فعله أنْ كان يشبِّب بنساء الرسول ونساء المسلمين، مما جعل محمد بن مسلمة يقتله فى رهط من الأنصار[4] . غير أن اليهود لم يرتدعوا وأخذوا يعملون سرًّا وجهراً على تقويض الدعوة المحمدية، فاضطر الرسول إلى إجلائهم عن المدينة ، حتى إذا انتهينا إلى خلافة عمر رأيناه ببصيرته النافذة يأمر بإجلائهم عن الجزيرة .

---

(١) أغانى ١٣٨/٤ .

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبى) ١٤٧/٢ .

(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٠٦/١٩ .

(٤) ابن سلام ص ٢٣٨ والسيرة النبوية ٥٤/٣ وما بعدها .

وكان كثير من شعراء العرب يقفون مع قريش باكين قتلاها ومحرّضين لها على كفاحها ضد الرسول مثل أمية بن أبي الصلت، ورثاؤه لقتلى بدر مشهور[١] ومثل الأسود بن يَعْفُر الذى أشاد بانتصارها فى يوم أحد[٢]، وقد ماتا فى أثناء هذا الصراع. وكان يقف هذا الموقف نفر من شعراء القبائل التى لما تدخل فى الإسلام. وكان يرد عليهم جميعاً شعراء المدينة متوعدين مهددين على شاكلة قول كعب بن مالك يهدد ثقيفاً بعد انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على يهود خيبر[٣]:

قَضَيْنَا من تِهامةَ كلَّ وِتْرٍ	وخَيْبَرَ ثم أحجمْنا السيوفا[٤]
نخيِّرهـا ولو نطقتْ لقالتْ	قَوَاطِعُهُنَّ : دَوْساً أو ثَقِيفا[٥]
فلستُ لحاصنٍ إن لم تروها	بساحة داركم منا أُلُوفَا[٦]
فننتزعَ العروش بِبَطْنِ وَجٍّ	ونترك داركم منا خُلوفا[٧]
ونُرْدِى اللَّات والعُزَّى ووَدًّا	ونَسْلُبُها القلائد والشُّنُوفا[٨]

وتُفْتَحُ مكة فى السنة الثامنة للهجرة، ولكن تظل للصراع بقية فى شعراء هُذَيْل، على نحو ما يمثلهم أبو خراش الهُذَلى فى بكائه لدُبَيَّة سادن العُزَّى حين قتله خالد بن الوليد[٩]. وتظل بقية أخرى فى ثقيف ومعاركها مع الرسول فى حُنَيْن. على أنه بمجرد أن دخلت مكة فى الإسلام أُدمجت الجزيرة كلها فيه، وأخذت وفودها تفد على الرسول معلنة اعتناقها الدينَ الحنيف. وفى هذه الأثناء نجد كثيراً من الشعراء وعلى رأسهم شعراء قريش يفزعون إلى ساحة الرسول الكريم

---

(١) ابن سلام ص ٢٢١ والسيرة النبوية ٣١/٣.

(٢) ابن سلام ص ١٢٣.

(٣) ابن سلام ص ١٨٤.

(٤) الوتر: الثأر.

(٥) دوس وثقيف: قبيلتان كانتا تنزلان بالطائف.

(٦) الحاصن: المرأة العفيفة.

(٧) يقصد بالعروش قضبان الكرم. وج: الطائف ونواحيها. والحى الخلوف: الذى فارقه الرجال، يقصد أنهم سيبيدونهم.

(٨) نردى: نهدم. اللات والعزى وود: أصنام. القلائد: السموط. الشنوف: جمع شنف وهو القرط.

(٩) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ١٤٨/٢ وانظر الأصنام لابن الكلبى ص ٢٤ وما بعدها.

يطلبون عفوه ، وقصةُ كعب بن زهير مشهورة ، وقد مرت بنا الإشارة إليه ، ومثله أنس بن زنيم ، فإنه كان هجا الرسول ، ثم ثاب إلى رشده ، فقدم عليه معتذراً ، وأنشده أبياتاً مدحه بها ، يقول فى تضاعيفها[١] :

وما حملتْ من ناقةٍ فوق رَحْلها ... أبرَّ وأوفى ذِمَّةً من محمَّدِ

ونَظم أبو سفيان بن الحارث أشعاراً كثيرة يأسَى فيها على مافرَّط فى جَنْب الله ورسوله على شاكلة قوله[٢] :

لعمْرُك إنى يوم أحمل رايةً ... لتغلبَ خَيْلُ اللَّات خَيْلَ محمدِ

لكالمُدْلجِ الحَيْران أظلم ليلـه ... فهذا أوانُ حين أهدِى وأهتدى

وكان كثير من الشعراء المسلمين يمتدح الرسول وهديه الكريم ، يتقدمهم فى ذلك شعراء المدينة ، وتُنْسَبُ إلى الأعشى قصيدة فى مديحه[٣] لا شك أنها منحولة ، وتُنْسَب لأبى طالب قصيدة مدحه بها يقول فيها :

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه ... ربيعُ اليتامى عِصْمةٌ للأَرامل

ويقول ابن سلام : «قد زِيد فيها وطُوِّلت»[٤] وتُنْسَبُ إلى عباس بن مرداس فارس بنى سُلَيْم أشعار كثيرة يمدحه بها من مثل قوله[٥] :

نبيٌّ أتانا بعد عيسى بنـاطقٍ ... من الحق فيه الفَضْلُ منه كذلكا

أميناً على الفُرْقان أول شافعٍ ... وآخـر مبعوثٍ يجيب الملائكا

ونُظم كثير من المراثى فى قتلى المسلمين والمشركين ، ورثاءُ قُتَيْلة لأبيها النَّضْر بن الحارث ذائع مشهور. ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى بكاه الشعراء بكاء حاراً ، ومن أرق ما رُثى به قصيدة حسان التى يستهلها بقوله[٦] :

ما بالُ عينى لا تنام كأنما ... كُحِلَتْ مآقيها بكُحْل الأَرْمَدِ

---

(١) الإصابة لابن حجر ١/٦٩ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩/١٢٥ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٤ .

(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/٣٠٥ .

(٦) ديوان حسان (طبعة هرشفيلد) ص٥٨

وأكبر الظن أنه اتضح كيف أن الشعر فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجرى على كل لسان ، ويكفى أن نرجع إلى سيرة ابن هشام فسنرى سيوله تتدافع من كل جانب ، وحقاً فيها شعر موضوع كثير ، ولكن حينما يُصَفَّى وحين نقابل عليه ما ارتضاه ابن سلام وغيره من الرواة الموثوق بهم نجدنا إزاء ملحمة ضخمة تعاون فى صنعها عشرات من الشعراء والشاعرات .

٣

الشعر فى عصر الخلفاء الراشدين

عَمَّت أضواء الإسلام فى الجزيرة العربية كلها منذ السنة التاسعة للهجرة ، فقد أُعْلِن فى الحج لهذه السنة أنه من شعائر الإسلام وأن الجزيرة دار المسلمين ، وبذلك قُضِى على الوثنية فى أنحائها قضاء مبرماً من جهة ، وأصبح الإسلام والعروبة شيئاً واحداً من جهة ثانية ، وهذا هو السر فى نشوء نظام الولاء حين فُتحت البلاد الأجنبية ، فإنه كان حتماً على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ويصبح كأنه فرد من أفرادها .

ولم يكد يتسلَّم أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة حتى طغت على الجزيرة موجة حادة من الردة ، إذ امتنع كثير من العرب عن أداء الزكاة على شاتهم وبعيرهم ، فاستشار الصدِّيق كبار الصحابة فيما يصنع ، فكلهم قالوا : إنه لا طاقة لنا بقتال العرب جميعاً ، فقال : « والله لأن أخِرَّ من السماء فتخطفنى الطير أحبُّ إلى من أن يكون رأيى هذا » ثم صعد المنبر فخطب الناس خطبة مشهورة قال فيها : « والله لو منعونى عِقالا لجاهدتهم عليه » ثم نزل فوجَّه الجيوش إليهم بقيادة خالد بن الوليد وغيره . وكانت قبيلة أسد قد تجمعت حول متنبئ ظهر فيها يسمى طليحة بن خويلد ، وانضمت إليها غطفان . وعبثا حاول من حَسُنَ إسلامهم فى القبيلتين أن يردوهما عن غيِّهما ، ولم يلبث أن التقى بهما خالد عند بئر بُزَاخة ، فنكَّل بهما تنكيلا شديداً ، استسلمتا على إثره . واتجه خالد توًّا إلى تميم ومتنبئتها سَجاح فلم تلبث بعد مناوشات صغيرة أن أذعنت له ،

وقُتل حينئذ مالك بن نُوَيْرة سيد بنى يربوع ، ولأخيه متمم فيه مراث رائعة[١]. واتجه خالد بجيوشه نحو بنى حنيفة فى اليمامة ومتنبئها مُسَيْلِمة ، فالتقى بها فى « عقربة » ونشبت بين الطرفين معارك حادة استحرّ فيها القتل ، غير أن الدوائر لم تلبث أن دارت على بنى حنيفة ، فسقط متنبئها فى ميدان المعارك ، وأعلنت استسلامها . وكان ذلك نصراً مؤزراً لدين الله، وسرعان ما دانت « البحرين » بالطاعة ، واتجهت أسراب من هذه الجيوش إلى حضرموت ونجران واليمن ، حيث التفّ الناس هناك حول متنبئ يسمى الأسود العنسى ومتنبئ آخر يسمى قيس بن عبد يغوث ، ولم تلبث كل هذه الأنحاء أن استسلمت .

وإذا كانت معركة الشرك لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلّفت ملحمة كبيرة فإن معركة الردة هى الأخرى قد خلّفت أشعاراً كثيرة ، بعضها كان إنذاراً وتخويفاً ووعظاً من مثل قول الحارث بن مرة فى وعظه لبنى عامر[٢] :

بنى عامرٍ إن تَنْصُرُوا الله تُنْصَرُوا ... وإن تَنْصبوا لله والدين تُخْذَلُوا
وإن تُهْزَموا لا يُنْجكمْ منه مهربٌ ... وإن تثبتوا للقوم والله تُقْتَلُوا

وبعضها كان حماسة دينية يهتف بها المحاربون من المسلمين من مثل قول أوس بن بُجَيْر الطائى فى موقعة بُزاخة[٣] :

وليتَ أبا بكرٍ يرى من سيوفنـــا ... وما تَخْتلى من أذْرُعٍ ورقابِ[٤]
ألم تر أن الله لا ربَّ غـــيره ... يصبُّ على الكفار سَوْط عذابِ

وللمرتدين أشعار مختلفة يستثيرون بها العزائم[٥] .

---

(١) انظر فى متمم ورثائه لأخيه الأغانى (طبعة الساسى) ١٤/٦٣ والشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ١/٢٩٦ والخزانة ١/٢٣٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ٤٣٢ والمفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٦٣ ، ٢٧١ .

(٢) الإصابة لابن حجر ٢/٥٥ وراجع فى أشعار أخرى الإصابة ١/٢٧٤ ، ٢/٣ ، ٢/١٥٢ ، ٥/١٢٢ .

(٣) الإصابة ٢/٥٥ .

(٤) تختلى : تقطع .

(٥) تاريخ الطبرى ٢/٤٩٤ والإصابة ٣/١٢٥ .

ورُئِبَ الصَّدْعُ وعاد الحق إلى نصابه، فرأى أبو بكر بثاقب بصيرته أن يدفع العرب إلى خارج جزيرتهم كي ينشروا الإسلام فى آفاق الأرض ، فاندفعوا جميعاً يجاهدون فى سبيل الله ويبتغون رضوانه ، وسرعان ما سقطت الحيرة وجنوبى العراق أمام جيوش المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد ، وجهز أبو بكر جيشين لغزو الشام ، أحدهما بقيادة عمرو بن العاص والآخر بقيادة يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة ، وانتصر الجيشان فى فلسطين . ولم يلبث أن أمدهما أبو بكر بخالد بن الوليد ، وجعل له إمارة الجيوش ، فانتصر على أرطبون فى موقعة أجنادين كما انتصر فى موقعة اليرموك ، وهو رافد من روافد نهر الأردن ، وحاصر دمشق ، واستطاعت جماعات من جيوشه أن تستولى على حمص . ويتوفَّى أبو بكر فى السنة الثالثة عشرة للهجرة قرير العين بما أدى لله ولرسوله ، وكان آخر ما تكلم به « رَبِّ توفَّنى مسلماً وألحقنى بالصالحين»[١] ، وبكاه كثير من الشعراء[٢] ومن خير ما قيل فيه قول حسان بن ثابت[٣] :

إذا تذكرتَ شَجْوًا من أخى ثقةٍ ... فاذكرْ أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
التالىَ الثانىَ المحمودَ سيرتَه ... وأوَّلَ الناس منهم صدَّق الرسلا
وثانىَ اثنين فى الغار المُنيف وقد ... طاف العدوّ به إذ صعَّد الجَبلا
وكان حِبَّ رسولِ الله قد علموا ... خَيْرِ البريَّة لم يعْدل به رجلا

وأوصى أبو بكر من بعده بالخلافة لعمر بن الخطاب ، فسار بأحسن سيرة مقتدياً بهدى الله ورسوله وخليفته الصديق ، لا يخاف فى الحق لومة لائم . وهو أول من دوَّن الدواوين ورتَّب الناس فيها على سوابقهم، وأول من رتَّب التاريخ العربى وجعله من الهجرة ، وأول من تلقب بأمير المؤمنين . وفتح الله له الفتوح ، وكان من أول أمره فى ذلك أن عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيوش فى الشام وولَّى أبا عبيدة بن الجراح مكانه ، فأتمَّ يعاونه خالد فتوح الشام ، وانطلق عمرو بن العاص بجيشه ففتح مصر . أما فى الشرق فكانت المعركة

---

(١) الطبرى ٢/ ٦١٥ .
(٢) الطبرى ٢/ ٦١٧ والاستيعاب ص ٣٤٢.
(٣) ديوان حسان ص ٢٩ والبيان والتبيين ٣/ ٣٦٢ .

حامية الوطيس . وقد أمدّ عمر المثنى بن حارثة بجنود يقودها أبو عبيد الثقفى ، ونشبت سلسلة من الوقائع عند قُسّ الناطف والبويب انتصر فيها المسلمون ، وبينما كان الفرس يستعدون لمعركة أخيرة هى معركة القادسية توفّى المثنى فخلفه فى قيادة الجيوش سعد بن أبى وقاص ، ومُنى الفرس بهزيمة شديدة ، وقُتل قائدهم رستم فى المعركة. وتقدم سعد إلى عاصمتهم المدائن فاستولى عليها . ولم يلبث الفرس أن تجمعوا فى جلولاء شرقى دجلة ، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة . وانسحب يزدجرد ملك الفرس إلى إيران وتبعته الجيوش الإسلامية بقيادة النعمان ابن مقرّن وتوفى فخلفه حذيفة بن اليمَان . ولم تلبث هذه الجيوش أن استولت على نهاوند ثم أصفهان ثم إصطخر ، وعاش يزدجرد طريداً ، حتى أرسل إليه عامل خراسان لعهد عثمان مَنْ قتله فى مخبئه الأخير .

وتلقانا فى كل موقعة حربية شرقاً وغرباً أشعار حماسية كثيرة ، سنعرض لها عما قليل ، ويخيَّل إلى الإنسان كأنما الجزيرة كلها قد تحولت جيشاً يجاهد فى سبيل الله ونشر الإسلام ، فقد أحسّ العرب فى عمق أن عليهم أن ينشروا الدين الحنيف فى أنحاء الأرض . ومن غير شك كان المتخلفون من الشيوخ والنساء وغيرهما يحسون ألماً عميقاً لفراق ذويهم ، على نحو ما يصور لنا ذلك البُرَيْق بن عياض الهذلى ، إذ يقول [١] :

وإن أُمْسِ شيخًا بالرجيع ووِلْدَةً ... وتصبحُ قومى دون دارهمُ مِصْرُ [٢]

أسائلُ عنهم كلما جاء راكبٌ ... مقيما بأَمْلاحٍ كما رُبِط اليَعْرُ [٣]

فما كنت أخشى أن أقيم خلافهم ... بستة أبيات كما نَبتَ العِتْرُ [٤]

وكان عمر يتَنَهَّى من لهم آباء شيوخ يعولونهم عن الهجرة برًّا بهم ، ويُرْوَى أن المخبَّل السعدى جزع جزعا شديداً حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أسنّ وضعف ، فافتقد ابنه فلم يملك الصبر عنه ، ومضى إلى عمر فأنشده أبياتاً يقول فيها :

---

(١) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ٥٨/٣ وانظر أيضاً ١٩٧/٢ ، ١٩٩/٢ حيث تجد لأسامة بن الحارث أشعاراً مماثلة .

(٢) الرجيع : موضع . ولدة : صبية .

(٣) أملاح : موضع . اليعر : الجدى الكبير .

(٤) العتر : شجر له ورق صغار . خلافهم : بعدهم .

إذا قال صحبي يا ربيعُ ألا ترى؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
ويخبرني شيبان أن لن يعقّني تعقُّ إذا فارقتني وتَحُوبُ[١]

فرقّ له عمر ، وكتب إلى سعد يأمره أن يرد شيبان إلى أبيه فردّه إليه ولم يزل عنده حتى مات[٢]. وليس المخبّل وحده الذى فزع إليه يشكو هجرة ابنه ، فقد فزع إليه أيضاً أمية بن حُرْثان بن الأسْكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب الفرس ، وكان مما أنشده فيه :

لمن شيخان قد نشَدا كلابا كتابَ الله إن حَفِظَ الكتابا[٣]
إذا هتفتْ حمامةُ بَطْنِ وَجٍّ على بَيْضاتها ذكرَا كلابا
تركتَ أباك مُرْعَشَةً يداه وأمَّك مـا تُسيغ لها شرابا

فأمر بإشخاصه إليه[٤]. وممن فزع إلى عمر أيضاً فى ذلك أبو خراش الهذلى حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام ، وقد أنشده شعراً مؤثراً ، فأمر برده عليه وأن لا يغزو من له أبٌ هرم إلا بعد أن يأذن له راضياً بهجرته[٥].

ولعل فى هذا كله ما يصور كيف كان يترامى شباب العرب على الجهاد فى سبيل الله ، ومع هذا يأبى المستشرقون إلا أن يجعلوا تلك الفتوح الرائعة ابتغاء الدنيا والغنائم[٦] لا ابتغاء الله وثواب الآخرة ، وربما كان من خير ما يرد عليهم قول النابغة الجعدى لامرأته ، وقد أظهرت تأثرها لهجرته فى فتوح فارس[٧] :

يا ابنةَ عمى كتابُ الله أخرجنى طوعاً وهل أمنعنَّ الله ما فعلا
فإن رجعتُ فربُّ الناس يرجعنى وإن لحقتُ بربِّى فابتغى بدلا
ما كنت أعرجَ أو أعمى فيعذرَنى أو ضارعاً من ضَنًى لم يستطع حِوَلا[٨]

(١) تحوب : تأثم .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ١٩٠ .
(٣) يقصد ما فى كتاب الله من رعاية الآباء والبر بهم .
(٤) ابن سلام ص ١٦٠ والخزانة ٢ / ٥٠٥ .
(٥) أغانى (ساسى) ٢١ / ٦٩ وديوان الهذليين ٢ / ١٧٠ وانظر فى حالات مشابهة الأمالى ٢ / ٣٠٩ وذيله ص ١٠٩ .
(٦) راجع تاريخ الدولة العربية لفلهوزن (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٥ والعقيدة والشريعة لجولد تسيهر ص ١٣٧ .
(٧) الشعر والشعراء ١ / ٢٥١ وقد ظلت هذه الروح مسيطرة على الفاتحين فى العصر الأموى ، انظر الطبرى ٥ / ٤١٣ .
(٨) ضارعا : ضاويا نحيلا . ضنى : مرض .

وكان عمر من وراء هذه الجيوش مثالا رائعاً للعدل والتقوى والزهد فى الدنيا . وما زال يسوس العرب سياسة مثالية ، حتى امتدت إلى جسده الطاهر يد أبى لؤلؤة المجوسى الآثمة فى الظلام ، فطعنته بخنجر مسموم طعنات لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، ولم يلبث أن توفى بين بكاء المسلمين ونشيجهم ، ومن رائع ما قيل فيه من رثاء قول جزء بن ضرار أخى الشماخ [١] :

جَزَى اللهُ خيرًا من أميرٍ وباركتْ ... يَدُ اللهِ فى ذاك الأديم الممزَّقِ [٢]

فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحَىْ نعامةٍ ... لِيُدْرِك ما حاولتَ بالأمسِ يُسْبَقِ

قضيتَ أمورا ثم غادرتَ بعدها ... بَوائقَ فى أكمامها لم تفتَّقِ [٣]

وكان عمر وهو على فراش الموت قد جعل الخلافة شورى فى ستة من أصحاب رسول الله توفى وهو عنهم راض ، وكانوا من المهاجرين الأولين ، وهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص . ووقع اختيارهم على عثمان ، فمضى ينفذ سياسة عمر فى إتمام فتح إيران وإفريقية ، وأقرّ معاوية بن أبى سفيان على الشام ، إلا أنه عزل عمرو بن العاص عن مصر وولاّها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، ففتح إفريقية . وما نصل إلى سنة أربع وثلاثين للهجرة حتى تندلع ثورة عنيفة على عثمان فى الكوفة يقودها الأشتر النخعى وفى مصر يقودها محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر الصديق . وكان من أهم أسباب هذه الثورة ضعف عثمان ، إذ كان شيخاً كبيراً ، واستسلامه لأهل بيته من الأمويين وتوليته لهم كثيراً من الأعمال ، مما أحفظ عليه كبار الصحابة وملأهم موجدة . وكانت هناك أسباب وراء ذلك ، فإن عمر رأى أن يترك للجيش خُمُس الغنائم وأن تستأثر الدولة بالفىء وهو الأرض الثابتة ، ومعروف أنها تُركت لأصحابها على أن يؤدوا عنها إتاوة عادلة وأن يؤدوا الجزية إن لم يُسْلموا نظير حماية الجيش لهم وإعفائهم من

(١) ابن سلام ص ١١١ والأغانى ٩/ ١٥٩ والبيان والتبيين ٣/ ٣٦٤ .

(٢) الأديم : الجلد .

(٣) البوائق : الدواهى . تفتق : تنشق عن ثمرها . والاستعارة واضحة .

الواجبات العسكرية ، وكان كثير من المحاربين يرون أن يَشْركوا الدولة فى الفىء ، ولكن صوتهم لم يرتفع فى عهد عمر لقوة شخصيته ، حتى إذا كان عهد عثمان بدأ التذمر يشتد ، وتطورت الظروف ، فاشتعلت الثورة عليه اشتعالا أدّى إلى قتله فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة ، وبكاه كثير من شعراء الصحابة[١] ، من ذلك قول أيمن بن خُرَيم[٢] :

ضحّوا بعثمان فى الشهر الحرام ضُحًى وأىُّ ذَبْحٍ حرامٍ لهمُ ذبحـــوا
إن الذين تولّوا قتله سَفَهــاً لاقوا أثاماً وخُسْرانًا فما ربحوا
ماذا أرادوا أضلَّ الله سَعْيَهُمُ بسَفْحهم للدّم الزّاكى الذى سَفحوا

وكان علىٌّ يُعَدُّ أكبر الشخصيات بين المهاجرين ، فبايعه الثوار وبايعته المدينة ، ولكن هذه البيعة لم تُرْض طلحة والزبير وانضمت إليهما السيدة عائشة أم المؤمنين ، فأعلنوا سخطهم ، وولوا وجوههم نحو البصرة مستنفرين الناس ضده ، وتبعهم على ، فنزل فى الكوفة ، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين ، وسرعان ما انتصر على فى موقعة الجَمل المشهورة ، وقُتِلَ طلحة والزبير وانسحبت عائشة إلى المدينة . وكان علىٌّ قد عزل معاوية ابن عم عثمان وواليه على الشام ، فلم يصدع لأمره واعتبر نفسه ولىّ دم عثمان ، فجهز الجيوش لحربه وانضم إلى معاوية عمرو بن العاص وكثير من قريش . وسار إليه علىٌّ بجموعه ، فالتقوا على الحدود العراقية السورية فى صِفِّين الواقعة على الضفة اليمنى للفرات ، واحتدمت معركة عنيفة كاد فيها النصر أن يُكْتَبَ لعلىّ ، غير أن معاوية عمد — بمشورة عمرو بن العاص — إلى الحيلة ، إذ جعل طائفة من جنوده تَرْفع المصاحف على أسنّة رماحها طالبة الاحتكام إلى القرآن ووَقْف هذه الحرب المبيرة للمسلمين ، وتنبه علىٌّ للحيلة غير أن كثرة جيشه أجبرته على وَقْف القتال والدخول مع معاوية فى مفاوضات . واتفق الفريقان على اختيار حكمين ، هما عمرو بن العاص عن معاوية وأبى موسى الأشعرى عن على ليحكما بينهما على أساس من القرآن . واستطاع عمرو أن يُقْنع أبا موسى بخلع على ومعاوية

---

(١) انظر الاستيعاب ص ٤٩٢ والكامل المبرد (طبعة رايت) ص ٤٤٤–٤٤٥ والطبرى ٣/٤٤٧ وما بعدها .

(٢) المبرد ص ٤٤٥ والاستيعاب ص ٤٩٣ .

معاً . ولم يلبث مركز علىّ أن تزعزع فى العراق فإن طائفة كبيرة من جيشه كانت قد أسرعت منذ قبوله التحكيم إلى الخروج عليه ، واتخذت معسكراً لها فى حَروراء بالقرب من الكوفة وبايعت عبد الله بن وهب الراسبى بالخلافة . فلما ظهرت نتيجة التحكيم انضم إليها كثير من أتباع على . وعبثاً حاول إقناعهم بخطئهم ، ولم ير أخيراً بداً من حربهم ، فالتقى بهم عند مصب قناة النَّهْروان فى دجلة وهزمهم هزيمة ساحقة ، إلا أن بقية منهم نجت ، وكان منهم عبد الرحمن ابن ملجم الذى تحيَّن منه فرصة ، وقتله غيلةً ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من رمضان سنة أربعين للهجرة ، وقد بكاه كثير من أصحابه[١] ، وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلى إذ يقول[٢] :

أفى شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طُرًّا أجمعينا

قتلتم خَيْرَ من ركب المطايا ... وخيَّسها ومن ركب السفينا

إذا استقبلتَ وجه أبى حسين ... رأيت البدر راقَ الناظرينا

لقد علمتْ قريشٌ حيث حلَّتْ ... بأنك خيْرُها حسباً ودينا

وقد كثُرت الأشعار فى هذه الحروب الأهلية منذ الثورة على عثمان ، فقد كان بعض الثائرين عليه والساخطين يصورون ثورتهم وسخطهم فى أشعار كثيرة[٣] ، ويُقتل عثمان ، ويبكيه كثيرون وخاصة من بنى أمية . وقد ذهبوا يتوعدون عليًّا ويتهددونه على شاكلة قول الوليد بن عقبة يخاطب بنى هاشم[٤] :

وإنا وإياكم وما كان منكمُ ... كصَدْع الصَّفَا لايَرْأبُ الصدعَ شاعبُه

همُ قتلوه كى يكونوا مكانه ... كما غدرتْ يوماً بكسرى مرازِبُهْ

وقد مضى يحرّض معاوية على الأخذ بثأره فى أشعار كثيرة[٥] . وتطورت

---

(١) انظر فى مراثيه الاستيعاب ص٤٨٥ — ٤٨٦ والطبرى ٤/١١٦ .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢/٣٢٩ والطبرى ٤/١١٦ وخيسها فى البيت الثانى : ذللها .

(٣) انظر الاستيعاب ص ٤١٠ .

(٤) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/١٢٠ والكامل للمبرد ص ٤٤٤ .

(٥) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٥/١٢٢ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٢٢ والطبرى ٣/٤٤٩ .

الأمور . ونشبت وقعة الجمل بين على وبين طلحة والزبير وعائشة ، ودوّت فى هذه الوقعة أشعار حماسية كثيرة[١] من مثل قول القائل[٢] :

نحن بنو ضَبَّةَ أصحابُ الجمَلْ   نَنْعَى ابن عفّان بأطراف الأَسَلْ
ننازل الموتَ إذا الموت نَزَلْ   والموتُ أشهى عندنا من العَسَلْ

والتقى على بمعاوية فى صفّين، وحمى وطيس المعارك ، وتنادى الشعراء يهددون ويتوعدون، وكلٌّ يعتقد أن الحق فى جانبه، من مثل قول أبى الطُّفَيْل عامر بن واثلة يصف بعض أنصار علىٍّ :

كهولٌ وشبانٌ وساداتُ معشرٍ   على الخَيْل فرسانٌ قليلٌ صدودها
شعارهمُ سيما النبيِّ ورايـــةٌ   بها انتقم الرحمنُ ممن يَكيدها

وردّ عليه خزيمة الأسدى يصف جيش معاوية[٣] :

ثمــانون ألفاً دينُ عثمان دينهم   كتائبُ فيها جِبْرئيلُ يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ومن يمتْ   ففى النار سُقْياه هناك صَديدها

ويفيض كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم بأشعار كثيرة اندلعت فيها نيران العصبيات القبيلية[٤] ،وقد يكون دخلها انتحال ووضع واسع ، ولكن فى تاريخ الطبرى وفى كتب الأدب وكتب الصحابة ما يكفى لبيان ما انزلق على الألسنة من أشعار ملتهبة[٥] . وقد تلت ذلك وقعة النهروان بين على والخوارج ، ومنذ خروجهم وشعرهم لا يَخْمد له أُوار. ومن غير شك أذكت كل هذه الأحداث جذوة الشعر العربى إذكاء وأشعلتها إشعالا .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥٢٢ وما بعدها .
(٢) الطبرى ٣/٥٢٧ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٥/ ١٤٩ .
(٤) وقعة صفين (بتحقيق عبد السلام محمد هارون) نشر المؤسسة العربية الحديثة ص ١٣٧، ٣١٢، ٣٤٧، ٣٧٦، ٤٨٧ وفى مواضع متفرقة .
(٥) انظر الطبرى ٤/١٦ وما بعدها

٤

شعر الفتوح

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون فى سبيل الله دولتى الفرس والروم . فقضوا على الأولى ، واستولوا على أهم ولايتين للثانية ، وهما الشام ومصر . وكانوا فى أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوية ، يتغنون فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدون لله ودينه . ومن الصعب أن نتعرض كل ما نظموه فى مواقعهم المختلفة ، إنما نلم بطرف منه ، ولنقف قليلا عند موقعة واحدة فى الشرق هى موقعة القادسية ، وفيها يلمع اسم أبى محجن الثقفى[١] ، وكان مولعاً بالخمر فحبسه سعد بن أبى وقاص ، حتى إذا احتدمت المعركة توسل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه — على أن يعود إلى قيده — ليسهم فى شرف المعركة ، فأطلقته وأبلى فيها بلاء حسناً ، وعاد إلى سجنه وهو ينشد[٢] :

لقد علمتْ ثَقِيفُ غير فَخْر ... بأنا نحن أكرمهم سيوفا

فإن أُحْبَسْ فقد عرفوا بلائى ... وإن أُطْلَقْ أجرّعْهم حُتوفا

وكان حول أبى محجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحوا برءوس أبطالهم ، وهم يتصايحون بالشعر الحماسى ، منهم عمرو بن معديكرب الزُّبَيْدى[٣] ، وكان من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم ، وكانت له آثار مشهورة فى القادسية واليرموك ونهاوند ، ومن شعره[٤] :

والقادسيةُ حين زاحم رُسْتَمٌ ... كنا الحماةَ بهنَّ كالأشطان[٥]

الضاربين بكل أبيضَ مِخْذَمٍ ... والطاعنين مجامع الأضْغَان[٦]

(١) انظر فى ترجمة أبى محجن الأغانى (طبع الساسى) ٢١/ ١٣٧ والشعر والشعراء ١/ ٣٨٧ والإصابة ٧/ ١٧٠ والخزانة ٣/ ٥٥٠ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٨٢ .

(٢) أغانى ٢١/ ١٤٠ .

(٣) انظر فى ترجمته كتب الصحابة وأغانى (دار الكتب) ١٥/ ٢٠٨ والشعر والشعراء ١/ ٣٣٢ وذيل الأمالى ص ١٤٥ والخزانة ١/ ٤٢٢ ، ٣/ ٤٦٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ١٥ ومعاهد التنصيص ٢/ ٢٤٠ والعينى ١/ ٣٧٩ .

(٤) ذيل الأمالى ص ١٤٦ .

(٥) الأشطان هنا : الجن والمردة .

(٦) الأبيض : السيف . المخذم : القاطع . مجامع الأضغان : القلوب .

ومنهم بشر بن ربيعة الخَثْعمى، وله يصور بلاءه وبلاء قومه فى مواقع القادسية[١] :

تذكَّرْ - هداك الله - وَقْعَ سيوفنا ... بباب قُدَيْسٍ والمكرُّ عَسِيرُ[٢]

عشيَّةَ ودَّ القوم لو أن بعضهم ... يُعـار جَنـاحَىْ طائر فيطير

إذا ما فرغنا من قِراع كتيبةٍ ... دَلَفْنا لأُخرى كالجبال تسير[٣]

ترى القوم فيها واجمين كأنهم ... جمالٌ بأَحمالٍ لهنَّ زفير[٤]

ومن له بلاء حسن فى القادسية قيس بن المكشوح المرادى ابن أخت عمرو بن معديكرب ، وهو الذى قتل رستم قائد الفرس فى تلك المعارك، وله يصور ذلك[٥] :

جلبتُ الخيلَ من صَنْعاءَ تَرْدِى ... بكل مـدجَّجٍ كالليث سامى[٦]

إلى وادى القُرَى فديار كلبٍ ... إلى اليَرْمـوك فالبلد الشآمى

وجئْن القادسيَّة بعد شَهْرٍ ... مسوَّمـةً ، دوابرُهـا دوامى[٧]

فناهضنا هنالك جَمْع كسرى ... وأبنـاءَ المـرازبة الكرام[٨]

فلما أن رأيتُ الخيل جالتْ ... قصدتُ لموقف المَلكِ الهمام

فأضربُ رأْسه فهوى صريعاً ... بسيفٍ لا أفلَّ ولا كهام[٩]

وقد أبْلَى الإلهُ هناك خيرًا ... وفعـلُ الخير عند الله نامى

ومن حضر القادسية الأسود بن قُطْبة، وله فيها أشعار كثيرة[١٠] ، وعمرو بن

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٥ / ٢٤٣ .
(٢) قديس : يريد القادسية أو موضع بجانبها.
(٣) دلفنا : تقدمنا .
(٤) واجم : من الوجوم وهو السكوت مع كظم الغيظ .
(٥) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع المطبعة المصرية بالأزهر) ص ٢٦١ .
(٦) تردى الخيل : ترجم الأرض بحوافرها .
(٧) مسومة : معلمة . الدوابر : العراقيب . دوامى : ملطخة بالدم .
(٨) المرازبة : رؤساء الفرس .
(٩) أفل : مثلم . كهام : كليل لا يقطع .
(١٠) الإصابة ١ / ١٠٨ .

شأس الأسدى[١]، وكان كثير الشعر فى الجاهلية والإسلام ، وله يذكر قتل رستم[٢] :

قتلنا رُسْتَماً وبنيه قَسْرًا   تثير الخيلُ فوقهم الهَيالا[٣]

وفرَّ الْهُرْمُزَان ولم يحامى   وكان على كتيبته وبالا[٤]

وشهد القادسية أيضاً عروة بن زيد الخيل ، وله فيها شعر كثير على شاكلة قوله[٥] :

برزتُ لأهل القادسية مُعْلَماً   وما كلٌّ من يَغْشَى الكريهةَ يُعْلِم

ومن الشعراء البارزين الذين شهدوها ربيعة بن مقروم الضبي[٦]، وقد ختم الجاحظ كتابه « الحيوان » بأبيات له يذكر فيها بلاءه حينئذ ، يقول فيها[٧] :

وشهدتُ معركةَ الفيول وحـولها   أبناء فارسَ بَيْضُها كالأَعْبَل[٨]

مُتَسَرْبِلى حلقِ الحديد كأنهم   جُرْبٌ مقارفةٌ عَنِيَّةُ مُهْمِل[٩]

والأبيات من قصيدة رواها أبو الفرج فى أغانيه ، وهو فيها يتحدث بجانب صنيعه فى تلك الحرب عن اقتحامه لحوانيت الخمارين ويفخر بأنه يسقى صاحبه الصَّبوح ، ونحن نعرف أن الإسلام حرَّم الخمر ، ومن ثم كنا نقطع بأن القصيدة تتألف من جزءين قيل أولهما فى الجاهلية ، وقيل ثانيهما فى الإسلام ، وسنرى عند حسان بن ثابت قصيدة على هذه الشاكلة حين نترجم له فى الفصل التالى . ومن ذلك قصيدة لِعَبْدة[١٠] بن الطبيب ، وهو من الشعراء المجيدين الذين أبلوا فى حروب القادسية والمدائن ، ونراه يستهلها بقوله[١١] :

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٩٦ والشعر والشعراء ١/٢٨٩ وابن سلام ص ١٦٤ والاستيعاب ص ٤٥٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٢ .

(٢) الطبرى ٣/٥٠ .

(٣) الهيال : ما ينهال من الغبار .

(٤) الهرمزان : الكبير من حكام الفرس .

(٥) الأغانى (طبع الساسى) ١٦/٥١ .

(٦) انظر ترجمته فى أغانى (ساسى) ١٩/٩٠ والشعر والشعراء ١/٢٧٩ والإصابة ٢/٢٢٠ والخزانة ٣/٥٦٦ .

(٧) الحيوان (طبعة الحلبى) ٧/٢٦٣ .

(٨) البيض : الخوذ . الأعبل : حجر أبيض .

(٩) يشبه الفرس بإبل جرباء . مقارفة : من القراف وهو داء يقتل البعير . العنية : طلاء للجرب ، وأراد نفس الإبل الجربى . والمهمل : الذى يهمل الإبل فى المرعى .

(١٠) انظر فى ترجمته الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٦٣ والشعر والشعراء ٢/٧٠٥ والإصابة ٥/١٠١ والموشح ص ٧٥ .

(١١) انظر القصيدة فى المفضليات (طبعة دار المعارف) ص ١٣٥ .

هل حبل خَوْلَة بعد الهجر موصولُ ... أم أنت عنها بعيدُ الدار مشغولُ

ويمضى فيذكر جهاد المسلمين للفرس ، يقول :

يقارعون رءوسَ العُجْم ضاحيةً ... منهم فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ[١]

ويحدثنا عن هجرته مع قومه وأنهم إنما يبتغون ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضلَ ربٍّ سَيْبُه حسنٌ ... وكل خيرٍ لديه فهو مقبـول

ولكنا نُصْدَمُ فى آخر القصيدة بوصفه المسهب لمجلس شراب ، ومن ثَمَّ كنا نقطع بأن للقصيدة أصلا قديماً يتصل بحياة الجاهليين الوثنية وما كانوا يحلّون من خمر . وقد أضيفت إلى هذا الأصل قطع جديدة ، تتصل بالهجرة فى سبيل الله ورسوله ووصف معارك العرب مع الفرس .

وعلى هذا النحو نستطيع دائماً أن نجمع كثيراً من الأشعار التى نُظمت فى كل معركة ، سواء مع الفرس أومع الروم ، وإن ما تطفح به كتب الصحابة مثل الاستيعاب والإصابة وكتب التاريخ مثل الطبرى وكتب الأدب مثل الأغانى وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت ليؤلف للعرب فى الفتوح ملحمة ضخمة . ولم تكن كلها أشعاراً حماسية ، ففيها مراث رائعة لبعض من كانوا يفقدونهم ، من ذلك قصيدة كَثير بن الغَريزة التميمى يرثى بها من أصيبوا فى معارك الطَّالَقان وجُوزجَان لعهد عمر بن الخطاب ، وفيها يقول[٢] :

سَقَى مُزْنُ السحابِ إذا استهلَّتْ ... مصارعَ فتيةٍ بالجُـوزَجانِ

وما بى أن أكون جَزِعْتُ إلا ... حنينَ القَلْبِ للبَرْق اليمانى

ورُبَّ أخٍ أصاب الموتُ قبلى ... بكيتُ ولو نُعِيتُ له بكانى

وعبَّروا فى أثناء ذلك عن حنين بالغ إلى ديارهم وأهليهم . وبجانب هذا الحنين والرثاء نجد بعض الشعراء يتحدثون عن بلائهم فى المغازى بعامة ، على نحو

---

(١) يقارعون : يضاربون . العجم : الفرس . العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه . الميل : جمع أميل وهو الذى لا يحسن ركوب الخيل.

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ٢٧٨/١١ حيث سرد أبو الفرج القصيدة فى ترجمته وانظر فيه الإصابة ٣١٨/٥ والخزانة ١١٨/٤ ومعجم الشعراء ص ٢٤٠ .

ما نجد عند زياد بن حنظلة فى وصفه لمغازى الشام لعهد عمر وما أفاءه الله على المسلمين[١] ويروون أنه كان لأوس[٢] بن مَغْراء « قصيدة طويلة ذكر ما كان فيها من بلائهم فى الفتوح وفخر فيها بقريش لم يقل أحد أحسن منها » ومن قوله فيها :

محمَّدٌ خَيْرُ من يمشى على قَدَمٍ وكان صافيةً لله خُلْصانا

ويمكن أن نضم إلى هذه الأشعار شكوى بعض الجنود من الولاة والعمال حين يخونون فيما ائتُمنوا عليه ، على نحو ما نجد عند يزيد بن الصَّعِق . فقد أرسل بشكوى طويلة إلى عمر بن الخطاب من أصحاب الخراج ، يقصُّ عليه كيف أثْرَوْا ثراء غير مشروع من أعمالهم التى يتولونها ومما يأخذون لأنفسهم من المغازى ، وفيها يقول[٣] :

نؤوبُ إذا آبوا ونغزو إذا غَزَوْا فأنَّى لهم وَفْرٌ وليس لنا وَفْرُ

وقد وصفوا كثيراً مما شاهدوه فى فتوحهم من المعاقل والحصون والحيوان كالفيل ، وتحدثوا عما نزل بهم من طواعين[٤] .

وهناك أشياء لا بد أن نلاحظها فى هذه الأشعار الكثيرة التى رُويت عنهم فى مغازيهم وفتوحهم ، لعل أهمها أنها طُبعت بطابع الآداب الشعبية ، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم . أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التى نُسبت فى العصر نفسه إلى الشعراء المجوِّدين ، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولا ، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجند . ومن ثَمَّ اختلف الرواة فى نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها . ويكثر أن يُرْسل الراوى الشعر إرسالا بدون نسبته إلى شاعر بعينه ، وينصُّ الطبرى على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق فى الجزيرة العربية ولا يُعْرَف من نظمهما ، ويعقِّب عليهما بقوله : « وسُمع بنحو

---

(١) طبرى ٣/١٠٨ .

(٢) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٨ والشعر والشعراء ٢/٦٦٨ والإصابة ١/١١٨ وابن سلام ص ٤٤٥ وفى مواضع متفرقة والموشح ص ٦٥ وما بعدها .

(٣) فتوح البلدان ص ٣٧٧ .

(٤) الحيوان ٤/١٣٧ والإصابة ٣/١٤ ، ٥/٦٠

ذلك فى عامة بلاد العرب[١] » . وكأن طائفة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التى يبدعها الشعب ، فناظمها لا يعرَفُ كما لا يعرف مرْسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذُكروا أو مُجِّدوا بل إنه لا يعنيهم أن يذكروا أو يمجَّدوا ، إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل .

ويسود فى هذا الشعر الإيجاز ، فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة ، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة ، يجرى فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق فى معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية . إنه يعبر عن خاطر التحم بصدره دون معاناة أو مكابدة ، ويرمى به فى سرعة كما يرمى بسهمه أو يضرب بسيفه ، غير مفكر فى تنقيح ولا فى تصفية أو تهذيب ، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التى تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره .

وملاحظة أخيرة ، وهى أن قَصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم فى حروب الفرس والروم أُضيف إلى هذه الأشعار . وقد حَمل لنا ياقوت فى معجمه كما حملتْ كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة . ومن غير شك خضع هذا العمل كله لمخيلة القُصَّاص فزادوا فى القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم. ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح ، وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على ألسنة الفاتحين ، وكانوا ينشدونه فى كل موقف وكل معترك ، مقصِّدين له حيناً وراجزين أحياناً أخرى ، وطبيعى أن يشيع فيه الرجز ، لأنه كان فعلا الوزن الشعبى الذى ينْتظم فيه عامة العرب .

---

(١) طبرى ٣/٨٣ .

الفصل الرابع

الشعراء المخضرمون
ومدى تأثرهم بالإسلام

١

كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام

من يقرأ فى شعر المخضرمين متصفحاً ما نُثر فى كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصدرون فى جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التى آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم. ولشعراء المدينة القِدْحُ المعلَّى فى هذا الميدان، فهم الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نزوله بين ظهرانيهم ينافحون عنه ويدافعون عن دعوته مصوِّرين لهدْيه الكريم، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه فى هجائه للمشركين وفى كل ما ينظم من أشعار، على شاكلة قوله[١] :

شهدتُ بأَن وعد الله حَقٌّ ... وأن النار مَثْوَى الكافرينا

وكان بجانب هؤلاء الثلاثة شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم فى الشهرة الشعرية، وقد رُويت لهم أشعار تنمّ عن مدى إيمانهم العميق كقول أبى قيس صِرْمة بن أبى أنس الأنصارى فى قصيدة بديعة[٢] :

ونعلم أَن الله لا شيءَ غيرُه ... وأن كتاب اللهِ أَصبحَ هاديا

وقول أبى الدَّرْداء[٣] :

يريد المرء أَن يُؤْتَى مُناهُ ... ويأْبَى اللهُ إلا ما أَرادا

يقول المرء فائدتى ومالى ... وتقوى الله أَفضلُ ما استفادا

(١) الاستيعاب ص ٣٦٢.
(٢) الاستيعاب ص ١٤، ٣٣٤.
(٣) الاستيعاب ص ٦٦٣.

وتحوَّل شعراء قريش منذ فُتحت مكة ودخلوا فى دين الله يكفّرون عما قدَّمَتْ ألسنتهم بأشعار ، يعتذرون فيها للرسول صلى الله عليه وسلم كقول ابن الزِّبَعْري[١] :

يا رسولَ المليك إنَّ لسانى   راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُور [٢]

إذ أجارى الشيطان فى سَنَنِ الغَـ   ـىِّ ومن مال مَيْلَهُ مَثْبُـورُ [٣]

آمن اللحمُ والعظامُ بما قُلْـ   ـتَ فنفسى الفِدَا وأنت النَّذيُر

وقد حَسُن إسلامهم ، ومضوا يصدرون عنه فى أشعارهم ، حتى إذا انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجَّعون عليه ، على شاكلة قول أبى سفيان بن الحارث[٤] :

لقد عظمتْ مُصيبتُنا وجَلَّتْ   عشيَّةَ قِيل : قد قُبِضَ الرسولُ

نبيٌّ كان يَجْلُو الشكَّ عنـا   بمـا يوحَى إليه وما يقـولُ

وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى شعراء نجد والبوادى وجدنا بينهم كثيرين يَقْبسون من أضواء الإسلام ، ولا نقصد من خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله فحسب ، فقد عمَّ ذلك مَنْ ظلوا فى الجزيرة ولم يُتِحْ لهم تقدم سنهم شرف الاشتراك فى هذا الجهاد .

ونحن نقف عند مشهوريهم ، ثم نعطف على من لم يبلغوا مبلغهم من الشهرة ، ولعل أول من ينبغى الوقوف عنده عَبْدة بن الطبيب الذى تحدثنا عنه فى شعر الفتوح ، فقد روَى له صاحب المفضليات عينية بديعة ، ونراه فى شطر كبير منها يوصى أبناءه بتقوى الله وبِرِّ الوالد والحذر من النمَّام الذى يزْرع الضغائن بين الناس ، مستلهماً فى ذلك كله آى الذكر الحكيم ، يقول[٥] :

أوصيكمُ بتُقَى الإلٰه فإنـه   يعطى الرغائبَ من يشاء ويمنعُ

وبِبِرِّ والدكم وطـاعةِ أمره   إن الأبَرَّ من البنين الأطْـوَعُ

---

(١) ابن سلام ص ٢٠٢ .

(٢) رتق الفتق: خاطه . بور : ضال هالك .

(٣) سنن : طريق . مثبور : هالك ضائع .

(٤) الاستيعاب ص ٧٠٨ .

(٥) المفضليات ص ١٤٦ .

واعصوا الذى يُزْجِي النَّمائم بينكم   متنصِّحا ذاك السِّمام المُنْقَعُ[١]
يُزْجِى عقاربَهُ ليبعث بينكم   حَرْباً كما بعث العروقَ الأَخْدَع[٢]

وهو القائل فى رثاء قيس بن عاصم[٣] :

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ   ورحمته ما شاءَ أن يترحَّما
فلم يكُ قيسٌ هُلْكُهُ هلكَ واحدٍ   ولكنه بنيانُ قوم تهدَّما

وواضح ما فى البيت الأول من روح إسلامية . وارجع إلى سُوَيْد[٤] بن أبى كاهل اليشكرى فسترى المفضل الضبي يروى له قصيدة[٥] يفخر فيها فخراً جديداً ، لا عهد لنا به من قبل. فخراً إسلامياً يذكر فيه ربَّه وما أنعم به عليهم من نِعَمٍ ، يقول :

كتب الرحمنُ والحمدَ لهُ   سعَةَ الأَخلاق فينا والضَّلَعْ[٦]
وإباءً للدنيَّاتِ إذا   أُعْطِيَ المكثورُ ضَيْماً فكَنَع[٧]
وبناءً للمعالى إنمَا   يرفعِ اللهُ ومن شاءَ وضَعْ
نعَمٌ لله فينا رَبَّها   وصنيعُ اللهِ ، واللهُ صَنَع[٨]

ويمضى فيعرض لخصم دنىء النفس كان يغتابه ، ونراه يصفه وصفاً يستلهم فيه الآية الكريمة(ولاَ يَغْتَبْ بعضكم بعضاً أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) يقول :

---

(١) يزجى : يدفع ويسوق . السمام : السم . المنقع : القاتل .

(٢) الأخدع : عرق فى العنق إذا ضرب أجابته العروق .

(٣) الشعر والشعراء ٢/٧٠٥ .

(٤) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ١/ ٣٨٤ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/ ١٠٢ وابن سلام ص ٢٨ والإصابة ٣/١٧٢ والخزانة ٢/٥٤٦ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ١/ ١٩٠ .

(٥) المفضليات ص ١٩٠ .

(٦) الضلع : الاضطلاع بالأمر .

(٧) المكثور : المغلوب . كنع : خضع .

(٨) ربها : أتمها . صنع : صفة، لا فعل، أى قادر على أن يصنع .

بِئْسَ ما يجمع أن يَغْتابنى ... مَطْعَمٌ وَخْمٌ وداءٌ يُدْرَعْ[١]

ويحيِّينى إذا لاقيتُه ... وإذا يخلو له لَحْمِى رَتَعْ[٢]

وممن أسلم وهو فى سن كبيرة الُحصَين[٣] بن الحُمام سيد بنى مرّة الذبيانيين، وله أبيات تطرد على هذا النحو[٤] :

ويوم تسعَّر فيه الحروبُ ... لبِسْتُ إلى الرَّوْعِ سِرْبالها[٥]

فلم يبق من ذاك إلا التُّقَى ... ونَفْسٌ تعالج آجالها

أمورٌ من الله فوق السماء ... مقاديرُ تنزلُ أنْزَالها[٦]

أعوذ بربى من المُخزيا ... تِ يوم ترى النفسُ أعمالها

وخَفَّ الموازينُ بالكافرين ... وزُلْزِلتِ الأَرض زِلْزالَها

والصلة واضحة بين هذه الأبيات وآى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (واتقوا الله) (فإن الله يحب المتقين) (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (هو الذى يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون) (وإنْ من شىء إلا عندنا خزائنهُ وما ننزِّله إلا بقدَرٍ معلوم) وقوله عزّ شأنه : (إذا زُلزلت الأرض زلزالها) (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفّت موازينه فأمُّه هاويةٌ وما أدراك ماهيه نار حامية) (ووفِّيتْ كلُّ نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) .

واقرأ فى النَّمِر[٧] بن تَوْلب ، وهو ممن أدركوا الإسلام وقد علَت سنُّهم ،

---

(١) وخم : غير مرىء . يدرع : يلبس .

(٢) رتع : أكل بنهم .

(٣) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢/٦٣٠ وابن سلام ص ١٣١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/١ وما بعدها والاستيعاب ص ١٢٧ وأسد الغابة ٢/٢٤ والإصابة ٢/١٨ والخزانة ٢/٧

(٤) أغانى ١٤/١٤ .

(٥) تسعر : تتقد . السربال : الدرع .

(٦) أنزالها : منازلها . تنزل أنزالها : تقع مواقعها .

(٧) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٦ والشعر والشعراء ١/٢٦٨ وابن سلام ص ١٣٣ والأغانى ١٩/١٥٧ والموشح ٧٨ والخزانة ١/١٥٢ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢٥٣ .

فسترى فى شعره آثاراً من تلاوته للقرآن الكريم ، على شاكلة قوله[١] :

ومتى تُصِبك خَصاصةٌ فارْجُ الغِنَى وإلى الذى يُعْطى الرَّغائبَ فارغبِ

وهو القائل[٢] :

أَعِذْنى رَبِّ من حَصَرٍ وعِىٍّ ومن نَفْسٍ أعالجُها عِلاجا
ومن حاجات نفسى فاعْصِمَنِّى فإنَّ لمُضْمَرات النفس حاجا[٣]
وأنت وَلِيُّها فبرئتُ منها إليك وما قضيتَ فلا خِلاجا[٤]

ويُرْوَى أنه أنشد الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة قال فيها[٥] :

لله من آياتــِهِ هذا القَمَــرْ والشمسُ والشِّعْرَى وآياتٌ أُخَرْ

ومرتْ بنا استجارةُ المخبّل[٦] السَّعْدى بعمر بن الخطاب حين هاجرابنه للغزو وكيف ردَّه عليه ، ومن قوله فى نهاية قصيدة له رواها المفضل الضبى[٧] :

إنى وجدتُ الأَمر أرشدُه تقوى الإلهِ وشَرُّهُ الإثْمُ

وكان فى الشَّماخ[٨] شركثير ، وهو ممن شاركوا فى معركة القادسية ومعارك أذربيجان ، ومع ذلك لا نجد فى ديوانه شيئاً واضحاً عن جهاده فى سبيل الله ، وكأنما عُنِى الرواة بشعره البدوى وإحسانه فيه لوصف القَوْس وحمار الوحش[٩] ، ومما يتمثَّل به من شعره[١٠] :

ليس بما ليس به بأْسٌ باسْ ولا يَضُرُّ البَرَّ ما قال الناسْ

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٢٦٩ والأغانى ١٩ / ١٦١ .
(٢) الأغانى ١٩ / ١٦٢ والحيوان ٢ / ٣٠٥ .
(٣) حاج : جمع حاجة .
(٤) خلاج : اعتراض .
(٥) أغانى ١٩ / ١٥٩ .
(٦) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ١ / ٣٨٣ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ١٨٩ والإصابة ٢ / ٢١٨ والخزانة ٢ / ٥٣٦ والموشح ص ٧٥ .
(٧) المفضليات ص ١١٨ .
(٨) راجع فى ترجمته ابن سلام ص ١١٠ والشعر والشعراء ١ / ٢٧٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ٩ / ١٥٨ والخزانة ١ / ٥٢٦ والإصابة ٣ / ٢١٠ والموشح ص ٦٧ .
(٩) انظر ترجمته فى المراجع السابقة وراجع الحيوان ٥ / ٧٩ .
(١٠) الشعر والشعراء ١ / ٢٧٧ وبأس الأولى : شجاعة .

وقد أنشدنا فى الفصل السابق أبياتاً من مرثية أخيه جزء لعمر بن الخطاب ، واشتهر أخوهما مزرّد[1] بهجائه وخاصة للأضياف ، ويظهر أنه ارعوى وتاب عن الهجاء ، كما يدل على ذلك قوله[2] :

تنزَّلتُ من شَتْم الرجال بتَوْبةٍ ... إلى الله منى لا ينادَى وليدها

ومن شعراء هُذَيْل البارعين فى هذا العصر أبو ذُؤَيْب[3] الهُذَلى . وقد قدم المدينة عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف يبكيه مع الباكين قائلا من أبيات[4] :

كُسِفَتْ لمصرعِه النجومُ وبَدْرها ... وتزعزعتْ آطامُ بَطْنِ الأَبْطحِ

وتزعزعتْ أَجبالُ يَثْرِبَ كلُّها ... ونَخِيلُها لحلول خَطْبٍ مُفْدِحِ

وهو فى ديوانه يُعْنَى بوصف النَّحْل، مثله فى ذلك مثل شعراء هذيل ، وقد خرج يغزو فى سبيل الله ، ونراه فى جنود عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح الذين فتحوا قرطاجنة ، وقد أرسل به مع عبد الله بن الزبير إلى عثمان مبشرين له بفتحها . وعاد إلى مصر ، ولكن حدث أن توفِّى له — قبل وفاته بعام — خمس بنين فى وباء ، فرثاهم بعينيته المشهورة وفيها نحس رضاه بقضاء الله مع التحسر اللاذع على نحو ما نجد فى قوله[5] :

أَوْدَى بنِىَّ وأَعقبونى غُصَّةً ... بعد الرُّقاد وعبرةً لا تُقْلِعُ

فَغَبَرْتُ بعدهمُ بعيشٍ ناصبٍ ... وإخال أَنى لاحقٌ مُسْتَتْبَعُ[6]

---

(١) راجع فى ترجمة مزرد الشعر والشعراء ١/٢٧٤ والخزانة ٢/١١٧ والإصابة ٦/٨٥ ومعجم الشعراء ص ٤٨٣ ومعاهد التنصيص ١/٢٠٢ .

(٢) الإصابة ٦/٨٥ .

(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ١١٠ والشعر والشعراء ٢/٦٣٥ والأغانى ٦/٢٦٤ والاستيعاب ص ٦٦٥ والإصابة ٧/٦٣ والخزانة ١/٢٠٣ وأسد الغابة ٥/١٨٨ ومعاهد التنصيص ١/١٩٥ ومعجم الأدباء لياقوت (طبع مصر) ١١/٨٣ وشرح شواهد المغنى ١٠ والاشتقاق (نشرة الخانجى) ص ١٧٨

(٤) الاستيعاب ص ٦٦٦ .

(٥) انظر ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) ١/١ وما بعدها .

(٦) غبرت : بقيت . ناصب : متعب . مستتبع : تابع .

وإذا المنيَّةُ أنشبتْ أظْفَارَها ألفيتَ كل تَميمةٍ لا تنفعُ
والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبْتها وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنعُ

ورَوى الرواة أنه قال حين حضره الموت يخاطب ابن أخ له يسمى أبا عبيد[١] :

أبا عُبَيْدٍ وقع الكتابُ واقترب الوعيد والحسابُ

وأشاع الإسلامُ فى نفوس كثير من الشعراء براً ورحمة بأهليهم وأقربائهم . ويشتهر فى هذا الصدد عمرو بن شأس الذى سبق أن عرضنا له فى شعر الفتوح ، فقد كان له ابنٌ من أمة سوداء ، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به فعاتبها بقطعته المعروفة[٢] :

أَردتِ عِرارًا بالهوان ومَنْ يُرِدْ عِرارًا لعَمْرى بالهوان فقد ظَلَمْ

وكان ينحو هذا المنحى مَعْن[٣] بن أوس المُزَنى فى عتابه لابن عمه الذى أساء إليه إساءة كبيرة . وظل يسىء إليه وهو يوالى أشعاره فى صَفْحه عن زلاته براً به وبقرابته مع تجنّيه عليه وتجرّمه ، يقول[٤] :

وذى رَحِمٍ قلَّمت أظفار ضِغْنِهِ بحلمىَ عنه وهو ليس له حِلْمُ
فما زلتُ فى لينٍ له وتعطُّفٍ عليه كما تَحْنُو على الولد الأُمُّ

ومن غير شك كان يستهدى فى ذلك آى الذكر الحكيم التى تدعو إلى البر بالأقرباء والصفح الجميل . ويمرض عمرو[٥] بن أحمر الباهلى فيتوجه إلى ربه داعياً[٦] :

---

(١) أغانى ٦/ ٢٧٩ ومعجم الأدباء ١١/ ٨٩ .

(٢) ابن سلام ص ١٦٦ والشعر والشعراء ١/ ٣٨٩ .

(٣) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢/ ٥٤ والإصابة ٦/ ١٧٩ والخزانة ٣/ ٢٥٨ وانظر فهرس البيان والتبيين والحماسة للمرزوقى ومعجم الشعراء ص ٣٢٢ ومعاهد التنصيص. وقد نشرت أشعاره فى ليبزج .

(٤) أغانى ١٢/ ٦٠ وديوانه (طبعة ليبزج) ص ٥ ، ٣٦ .

(٥) راجع ترجمته فى ابن سلام ص ٤٩٢ والشعر والشعراء ١/ ٣١٥ والإصابة ٥/ ١١٤ والخزانة ٣/ ٣٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤ والموشح ص ٨٠ .

(٦) الشعر والشعراء ١/ ٣١٦ وقد روى له ابن سلام قطعة حكمية يقول فيها :

والحى كالميت ويبقى التقى والعيش فنان فحلو ومر

إليك إلهَ الحق أرفع رغبتى عِياذاً وخوفاً أن تُطيل ضَمانِيا[١]

فإن كان بُرْءًا فاجعل البُرْءَ نعمةً وإن كان فَيْضاً فاقض ما أنت قاضيا[٢]

وممن نحس عندهم أثر الإسلام واضحاً نَهشل[٣] بن حَرِّى فى مراثيه لأخيه مالك ، وكان قد قُتل بصِفِّين ، ومن قوله فى إحداها[٤] :

أُناسٌ صالحون نشأْتُ فيهم فأَوْدَوْا بعد إلفٍ واتساقِ

أرى الدنيا ونحن نعيثُ فيها مــولِّيَةً تهيَّــا لانطــلاق

أَعاذلَ قد بقيتُ بقاءَ قيسٍ وما حىٌّ على الدنيا بِباق

وكان بجانب من قدَّمنا شعراء عُرفوا برقة دينهم ، ومع ذلك فحين نتعقب شعرهم نجد فيه خيوطاً إسلامية تظهر فى نَسْجه من حين إلى حين ، منهم عَبْد[٥] بنى الحَسْحاس ، وكان يتغزل غزلا مفحشاً جعل قومه يقتلونه لعهد عثمان ونراه يقول :

عُمَيْرَةَ وَدِّعْ إن تجهَّزتَ غازيا كفى الشيبُ والإسلام للمرء ناهيا

ويُرْوَى أنه أنشد هذا البيت عمر بن الخطاب فقال له : لو قلت شعرك مثل هذا لأعطيتك عليه . ومثله النجاشى[٦] قيس بن عمرو ، الذى حَدَّه على بن أبى طالب فى شرب الخمر برمضان ، وقد تهاجى مع كثير من الشعراء وعلى رأسهم تميم بن أُبَىّ بن مقبل العَجْلانى ، وفيه وفى قبيلته يقول :

إذا الله عادَى أهل لؤمٍ ودقَّةٍ فعادى بنى العَجْلان رهطَ ابن مُقْبِلِ[٧]

قبيِّلةٌ لا يغدرون بذمَّــةٍ ولا يظلمون الناس حَبَّة خَرْدَلِ

(١) الضمان : ما يصيب الإنسان فى جسده من مرض أو زمانة .

(٢) فيضا : موتا .

(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٩٥ والشعر والشعراء ٢/٦١٩ والأغانى ٩/٢٧٠ والإصابة ٦/٢٦٨ والخزانة ١/١٤٧ .

(٤) أمالى المرتضى ٢/٢٢٦ .

(٥) انظر ترجمة عبد بنى الحسحاس فى أغانى (ساسى) ٢٠/٢ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٣٦٩ وابن سلام ص ١٥٦ والإصابة ٣/١٦٣ والخزانة ١/٢٧١ وشرح شواهد المغنى ١١٢ . وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه .

(٦) راجع فى ترجمة النجاشى الاشتقاق لابن دريد (نشرة الخانجى) ص ٤٠٠ والشعر والشعراء ١/٢٨٨ والإصابة ٦/٢٦٣ والخزانة ٤/٣٦٨ .

(٧) البيت دعاء على بنى العجلان ، وواضح أن النجاشى يرميهم بأن أحسابهم لئيمة خسيسة .

ولو أنه كان صحيح الإسلام ما هجاهم بالبيت الثانى، فإن الإسلام يُجِل الوفاء بالذمم والعهود وينهى عن الظلم وكل ما يتصل به ولكن روحه كانت جاهلية . وكان ابن[١] مقبل على شاكلته ، يقول ابن سلام : « إنه كان جافياً فى الدين وكان فى الإسلام يبكى أهل الجاهلية »[٢] ومع ذلك ندَّتْ على لسانه أبيات فيها ما يدل فى وضوح على تأثره بالدين الحنيف من مثل قوله[٣] :

هل الدَّهْرُ إلا تارتان فمنهما أموت وأُخرى أبتغى العيش أكْدَحُ

وكلتاهما قد خُطَّ لى فى صحيفةٍ فلا الموتُ أَهْوَى لى ولا العيش أرْوَحُ

وهو يَصْدر فى البيتين عن الآية الكريمة : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتابٍ من قبل أن نَبْرَأها) ومما يُرْوَى له قوله[٤] :

الناسُ هَمُّهم الحياةُ ولا أرى طول الحياة يزيد غير خَبالِ

وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجد ذُخْرًا يكون كصالح الأعمالِ

وممن يُسْلك فى هؤلاء الشعراء الذى عُرفوا برقة دينهم الحطيئة، وسنرى عما قليل أثر الإسلام فى شعره .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على فساد الفكرة التى شاعت بين الباحثين عرباً ومستشرقين من أن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة فى نفوس المخضرمين ، وخاصة أهل البادية[٥] ، فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعاً . ونحن نقف عند خمسة منهم يُعَدُّون فى طليعتهم هم حسان بن ثابت وكعب بن زهير ولبيد والحطيئة والنابغة الجعدى ، لنرى فيهم مدى تأثر المخضرمين بالإسلام ، ولندل فى وضوح على أن هذا التأثر لم يقف عند شعراء المدينة من مثل حسان ، فقد نفذ إلى شعراء البادية وتعمَّقهم على نحو ما سنرى عند لبيد والنابغة الجعدى .

---

(١) راجع فى ترجمة ابن مقبل الشعر والشعراء ١/٤٢٤ وابن سلام ص ١٢٥ والإصابة ١/١٩٥ والخزانة ١/١١٣ وزهر الآداب ١/١٩ .

(٢) ابن سلام ص ١٢٥ .

(٣) الحيوان للجاحظ ٣/٤٨ .

(٤) طبرى ٥/٢٩ .

(٥) راجع مثلا تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية لنالينو (طبع دار المعارف) ص ٩٥ .

٢

حسان[1] بن ثابت

كان أبوه ثابت بن المنذر بن حَرام الخزْرجي « من سادة قومه وأشرافهم » ، وكانت أمه « الفُرَيعة » خزرجية مثل أبيه ، وقد أدركت الإسلام ودخلت فى دين الله[2]. وهو يُسْلك فى المعمرِّين إذ يقال إنه عاش فى الجاهلية ستين سنة وفى الإسلام ستين أخرى ، وهى سنٌّ تقريبية ، فقد قيل إنه توفىِّ قبل الأربعين ، وقيل بل سنة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين. وهو ليس خزرجيًّا فحسب ، بل هو أيضاً من بنى النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فله به صلة قرابة ورحم .

ونراه قُبَيْل الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة ، ويقال إنه مدَّ رحلاته إلى بلاط النعمان بن المنذر ؛ وكان لسان قومه فى الحروب التى نشبت بينهم وبين الأوس فى الجاهلية ، ومن ثَمَّ اصطدم بالشاعرين الأوسيين : قيس بن الخَطيم وأبى قيس بن الأسْلت[3] . ويقال إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ ، وقدَّم عليه الأعشى ، فأثار موجدته[4] .

ويهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فيدخل حسان فى الإسلام ، حتى إذا أخذ شعراء قريش فى هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم بلاذع هجائه ، وكان رسول الله يحثّه على ذلك ويدعو له بمثل : « اللهم أيِّدْه بروح القدس » واستمع إلى بعض هجائه لهم فقال : « لهذا أشدُّ عليهم من

---

(١) انظر فى ترجمة حسان ابن سلام ص ١٧٩ وفى مواضع متفرقة وأغانى (دار الكتب) ٤ / ١٣٤ وما بعدها و ١١ / ٢٧ و ١٤ / ١٥٧ و (طبعة الساسى) ١٦ / ١٢ وما بعدها والشعر والشعراء ١ / ٢٦٤ والموشح ص ٦٠ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤ / ١٢٥ والاستيعاب ص ١٢٨ والإصابة ٢ / ٨ وسير أعلام النبلاء للذهبى (طبع دار المعارف) ٢ / ١١٥ و ص ٣٦٦ وما بعدها وشرح شواهد المغنى ص ١١٤ والخزانة ١ / ١٠٨ . وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة فى ليدن بتحقيق هرشفيلد وفى مصر بتحقيق البرقوقى وفى تونس والهند وبيروت ، وسنعتمد فى المراجعة على طبعة ليدن .

(٢) انظرها فى ابن سعد ٨ / ٢٧١ .

(٣) انظر أغانى (دار الكتب) ٣ / ١٢ والديوان ص ٥٢ وفى مواضع متفرقة .

(٤) أغانى (دار الكتب) ٩ / ٣٤٠ .

وقع النَّبْل » ، وفى حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أمرتُ عبد الله ابن رواحة (بهجاء قريش) ، فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى» . ومرَّ بنا فى الفصل السابق أنه لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان ، إنما كان يهجوهم بالأيام التى هزموا فيها ويعيِّرهم بالمثالب والأنساب . وهذا طبيعى لأنهم كانوا مشركين فعلا ، فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغاً ، ويُرْوَى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبى بكر فليحدثْك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهْجُهُم وجبريل معك »[١] .

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض فى حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، ونراه يعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً ، من مثل قوله :

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبـــةٍ ... وتُصْبح غَرْثَى من لحوم الغوافِلِ[٢]

فإن كان ما قد قيل عنِّىَ قُلتُــه ... فلا رفعتْ سوطى إلىَّ أناملى

ويظهر أن بعض المهاجرين وعلى رأسهم صفوان بن المعطَّل أثاروه فى هذا الحادث ، حتى وجد وجْداً شديداً ، فقال :

أمسى الجلابيبُ قد عَزُّوا وقد كثروا ... وابنُ الفُرَيْعة أمسى بَيْضَةَ البلدِ[٣]

على أنه مضى فى نفس القصيدة يعلن إخلاصه للإسلام وأنه سيستمر فى ذَبِّه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره فى المسجد ، والذى لا شك فيه أنه كان يحظى منه بمنزلة رفيعة ، حتى ليُرْوَى أنه كان يرفع أزواجه إلى أُطُمه حين يخرج لحرب أعدائه ، وكان حين يعود يَقْسم له فى الغنائم ، وقد أهداه بستاناً ، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية ، وهى أم ابنه عبد الرحمن . وكان

---

(١) انظر فى هذا الحديث وما قبله ترجمته فى كتب الصحابة والأغانى ٤ / ١٣٧ وما بعدها .

(٢) حصان : عفيفة . رزان : ذات وقار . تزن : تتهم . غرثى : جائعة . يريد أنها لا تغتاب النساء .

(٣) سمى بعض المهاجرين الجلابيب استصغاراً لشأنهم . البلد هنا : النعام . وفى المثل هو أذل من بيضة البلد لأن النعام يترك بيضه فيحضنه غيره .

الخلفاء الراشدون يجلّونه ويفرضون له فى العطاء . ويقال إنه وفد على معاوية وأنه عَمِىَ بأخرة .

وبحقٍّ سُمِّىَ حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركى العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مُصْمية. وقصته مع الحارث بن عوف المُرّى حين قُتل فى جواره داعٍ من دعاة الرسول مشهورة، فقد قال فيه وفى عشيرته :

إن تَغْدِروا فالغَدْرُ منكم شِيمةٌ   والغَدْرُ يَنْبُتُ فى أُصول السَّخْبَرِ [١]

وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار ، واستجار بالرسول متوسلا إليه أن يكفّه عنه. وقد مضى حين قدم على الرسول وفد بنى تميم يردُّ على شاعر هذا الوفد الزِّبْرقان بن بدر مادحاً للمهاجرين مدحاً رائعاً . يقول فى تضاعيفه :

إن الذوائبَ من فِهْرٍ وإخوتهم   قد بَيَّنُوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ [٢]
يَرْضَى بها كل من كانتْ سريرتُه   تَقْوى الإلٰهِ وبالأمر الذى شرعوا
إن كان فى الناس سبّاقون بعدهمُ   فكلُّ سَبْقٍ لأدْنى سبقهم تَبَعُ
أَهْدَى لهم مِدَحِى قلبٌ يؤازره   فيما أراد لسانٌ حائكٌ صَنَعُ

ومن المحقق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر فى عصره وأنه أشعر اليمن قاطبة . وقد خلّف ديواناً ضخماً رواه ابن حبيب، غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله ، يقول الأصمعى : «تُنْسَب إليه أشياء لاتصحّ عنه » [٣] ويقول ابن سلام : « قد حُمل عليه مالم يُحْمَلْ على أحد ، ولما تعاضهت (تشاتمت) قريش واستبَّت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنَقّى » [٤] . وكان ممن حَمل عليه غُثاءً كثيراً ابنُ إسحق فى المغازى، ولاحظ ذلك ابن هشام وهو يَرْوى عنه السيرة النبوية ، فكان يرجع إلى العلماء بالشعر وعلى رأسهم أبو زيد الأنصارى راوية البصرة المشهور يسألهم عن صحة أشعار حسان

---

(١) السخبر : شجر ، ومن أمثالهم : ركب فلان السخبر إذا غدر .

(٢) الذوائب : الأعالى فى الشرف . فهر : قريش، يريد المهاجرين .

(٣) الاستيعاب ص ١٣٠ .

(٤) ابن سلام ص ١٧٩ .

المروية عندابن إسحق فكانوا يُثْبِتون بعضها وينكرون بعضاً آخر وقد يردُّونها إلى غيره من معاصريه ومن جاءوا بعدهم . ومع ذلك نرى كثيراً مما أنكروه مثبتا فى رواية ابن حبيب . ونحن نعرض صنيع ابن هشام لِيُعلم مدى ما وُضع على حسان ، فمن ذلك أن نراه كثيراً يقول بعد إنشاده لبعض القصائد : « وأهلُ العلم ينكرون هذه القصيدة لحسان»[1] ومن ذلك أنه نَسب قصيدتين أضيفتا إليه إلى كعب بن مالك[2] ونسب ثالثة إلى عبدْ الله[3] بن الحارث السَّهْمى ورابعة إلىمعقل[4] بن خويلد الهُذَلى وخامسة إلى ربيعة بن أمية الدِّيلى وقيل بل هى لأبى أسامة الُجشَمى[5]، ونسب سادسة إلى ابنه عبد الرحمن[6]. وإذا مضينا نبحث فى مراجع أخرى وجدنا قطعة لعبد الله بن رواحة تضاف إليه ، وهى فى رثاء نافع بن بُدَيل[7]، وكذلك أضيفت إليه قطعة ثانية لعبد الله بن رواحة وهى فى رثاء عثمان[8]، وأيضاً أضيفت إليه مقطوعة يائية فى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرة الأوس والخزرج له ، ونصَّ الرواة على أنها لصِرْمة[9] بن أبى أنس الأنصارى ، ونُسب له بيتان فى الفخر بالأزد وهما لسعد[10] بن الحصين الأنصارى ، ونُسبت له مقطوعة رائية ، وهى لبشير[11] بن سعد بن الحصين .

ونظن ظنًّا أن شعره اختلط بأشعار الأنصار ، وخاصة كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وابنه عبد الرحمن ، أما الأولان فقد اشتركا معه فى هجاء قريش ،

---

(١) انظر ابن هشام فى مقطوعة عينية ٣/٥٦ وفى قصيدة عينية ٣/١٤٩ وما بعدها وقابل بالديوان ص٧٦ وهى فى رثاء حمزة ، وانظر حائية فى رثاء حمزة ٣/١٥٩ ومقطوعتين فى رثاء خبيب ٣/١٨٦ وقابل بالديوان ص٤٦ ، ٨٤ وكذلك مقطوعة بائية فى ٣/١٩٢ وقابل بالديوان ص٣٩ ومقطوعتين : لامية ورائية فى عمرو بن ود فى ٣/٢٨١ وقابل بالديوان ص٤٦ .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٣٧ وقابل بالديوان ص ٣٦ وانظر السيرة ٣/٣٦٢ وقابل بالديوان ص ٦٣ .

(٣) السيرة النبوية ٣/٢٠ والديوان ص٢٩ .

(٤) السيرة النبوية ٣/٨١ والديوان ص٨٤ .

(٥) السيرة النبوية ٣/٢٨٢ والديوان ٥١ .

(٦) السيرة النبوية ٤/١٩٩ والديوان ٥١ وراجع الحيوان ٣/١٠٨ حيث تشكك الجاحظ فى مقطوعة تنسب إليه وقال إنها تنسب أيضاً إلى ابنه عبد الرحمن .

(٧) انظر الديوان ص٣١ وقابل بالاستيعاب ص ٣٠٥ وابن هشام ٣/١٩٨ .

(٨) انظر الديوان ص ٧١ وقارن بالاستيعاب ص ٤٩٢ .

(٩) راجع الديوان ص٢١–٢٢ والاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .

(١٠) انظر الديوان ص٤٠ وقارن بالأغانى (طبع الساسى) ١٤/١٢٠ .

(١١) راجع الديوان ص ٤٢ – ٤٣ وقارن بالأغانى ١٤/١٢٠ .

وأما عبد الرحمن فمعروف أنه كان يهاجي النجاشي الحارثي ويذم قومه بني الحارث بن كعب وعشيرته بني الحماس ذماً قبيحاً[١] ، ومن هنا كنا نشك فيما يضاف إلى حسان من هجائهم ونظن أنه من أشعار ابنه ، حُمل عليه[٢] . ومن هذا الباب أشعاره المملوءة غيظاً على قَتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون[٣] ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان في صَفّهم وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظمها حسان في هجاء أسرتهم حين كان أبو سفيان وغيره من رءوسها يقودون الجيوش ضد الرسول ويحادّونه . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار في مديح الزبير[٤] بن العوام وعبد الله[٥] بن العباس ، وكأن الأحزاب السياسية لعبت دوراً في وَضْع الشعر على لسانه .

والحق أن شعر حسان الإسلامي كَثُرَ الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة ، لا لأن شعره لان وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعي ، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . ونحن نوثّق شعره في الجاهلية إلا ما اتهمه الرواة[٦] ، ومن رائع هذا الشعر ميميته التي يملؤها ضجيجاً وعجيجاً بمفاخر قومه والتي يقول فيها :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وأَسيافُنا يَقْطُرْن من نَجْدَةٍ دَما

ولاميته التي يمدح بها الغساسنة بمثل قوله :

بيضُ الوجوه كريمةٌ أَحسابهم شُمُّ الأَنوف من الطراز الأَوَّلِ

أما هجاؤه لقريش فينبغي أن نُبْعد منه ما اتهمه الرواة وأن لانقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب ، ومن ثَمّ كنا نرتضي ميميته (تَبَلَتْ فؤادَك في المنام خريدةٌ) التي يعيّر فيها الحارث بن هشام المخزومي بفراره في يوم

---

(١) ابن سلام ص ١٢٥ .

(٢) انظر الديوان في هجاء بني الحماس الحارثيين وقوم النجاشي ص ٤٧ ، ٨١ وكذلك انظر مقطوعة رائية ص ٤٨ ونونية ص ٨٢ .

(٣) راجع ابن عبد البر في الاستيعاب ص ٤٩٢ حيث يذكر أن أهل الشام زادوا عليه في رثاء عثمان أبياتاً ، وقد رد بيتاً له فيه إلى عمران بن حطان .

(٤) الاستيعاب ص ٢٠٨ وقد نسبت إليه أشعار في هجاء آل العوام والوضع فيها ظاهر . انظر الديوان ص ٨٥ .

(٥) الديوان ص ٧٤ والبيان والتبيين ١ / ٣٠٠ .

(٦) انظر الأغاني (ساسي) ١٤ / ١٢٥ — ١٢٧ .

بدر ، ومثلها قصيدته الميمية (منع النومَ بالعشاء الهمومُ) التى يهجو فيها ابن الزِّبَعْرَى ويفتخر بقومه فخراً عنيفا ، ومن نمطهما لاميته (أهاجك بالبَيْداء رَسْمُ المنازل) . وبهذا القياس نُضيف إليه مقطوعته الكافية التى وجهها إلى أبى سفيان ابن الحارث ، وقد رواها ابن سلام[١] . ومثلها مقطوعته الدالية التى يستهلها بقوله :

وإن سَنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدُك العَبْدُ[٢]

ومقطوعته الميمية التى يقول فيها :

لعمرك إن إلَّك من قريشٍ كإل السَّقْبِ من رَأْل النَّعام[٣]

وأيضاً نحن نثبت له قصيدته الهمزية التى يقول فيها لأبى سفيان بن الحارث :

هجوتَ محمدًا فأَجبتُ عنه وعند الله فى ذاك الجــزاءُ

وهو يستهلها بذكر منازل صاحبته مشبِّباً بها ومستطرداً إلى ذكر الخمر على طريقة الجاهليين ، مما جعل القدماء يقولون إن القصيدة تتكون من جزءين : جزء نظم فى الجاهلية ، وجزء نظم فى الإسلام[٤] . وهو يمضى فى الجزء الثانى متحدثاً عن فروسية قومه ومتوعداً قريشاً بحروب مُبيرة ، وتختلط فى هذا الجزء المعانى الجاهلية بالمعانى الإسلامية إذ يَعْرِض لرسالة النبى صلى الله عليه وسلم ومتابعة قومه له ونصرتهم لدينه . من مثل قوله :

وجبــريلٌ أمينُ الله فينـــا وروحُ القُدْس ليس له كِفاءُ[٥]

وقد تبرز المعانى الإسلامية فى بعض أهاجيه لقريش كقوله من مقطوعة يعيِّرها فيها بهزيمتها يوم بدر :

فينا الرسولُ وفينا الحقُّ نَتْبعه حتى الممات ونصْرٌ غير محدودِ
مستعصمين بحَبْلٍ غير مُنْجذمٍ مُسْتحكمٍ من حبالِ الله ممدود[٦]

---

(١) ابن سلام ص ٢٠٨ والديوان ص ١٩ .

(٢) بنت مخزوم : فاطمة بنت عمرو المخزومى وهى أم عبد الله وأبى طالب والزبير بنى عبد المطلب .

(٣) السقب : ولد الناقة . الرأل : ذكر النعام . الإل : القرابة .

(٤) انظر الاستيعاب ص ١٢٩

(٥) كفاء : كفء ونظير .

(٦) منجذم : منقطع .

وهو يشير فى البيت الثانى إلى قوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) . وله مراثٍ فى الرسول الكريم تتضح فيها المعانى الإسلامية اتضاحاً على نحو ما يلقانا فى مرثيته التى رواها أبو زيد الأنصارى والتى يقول فيها :

وما فقد الماضون مثل محمدٍ ... ولا مثله حتى القيامة يُفْقَد

وقد مرّت بنا فى الفصل السابق مرثيته البديعة لأبى بكر الصديق ، ومن قوله فى عمر حين توفى على إثر طعنة فيروز المجوسى :

وفجّعنا فَيْروزُ لا دَرَّ درُّهُ ... بأَبيض يتلو المُحْكمات منيبِ[١]

وعلى هذا النحو اتشحت بعض أشعار حسان الإسلامية بأضواء الدين الحنيف وهديه الكريم .

٣

كعب[٢] بن زهير

أبوه زهير بن أبى سُلْمى من فحول الشعر فى الجاهلية . وهما من قبيلة مزينة ، ولكنهما يوضعان فى عِداد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أخواله بنى مُرّة الذُّبيانيين . وقد تلقن كعب الشعر عن أبيه ، مثله فى ذلك مثل أخيه بُجَيْر ومثل الحُطَيئة . ويذكر لنا الرواة الطريقة التى كان يخرِّج بها زهير تلاميذه من أهل بيته وغيرهم إذ يقولون إنه كان يحفِّظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى تتضح موهبة الشعر فيهم . ويقولون عن كعب إنه كان يخْرج به إلى الصحراء ، فيُلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يُجيزه[٣] تمريناً له وتدريباً على صَوْغ

---

(١) لا در دره : الدر : اللبن وكثرته ، يدعو عليه بأن لا يزكو عمله . المحكمات : آيات الذكر الحكيم . وكنى ببياض عمر عن نقاء صحيفته .

(٢) راجع فى ترجمة كعب طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٨٦ وأغانى (طبعة الساسى) ١٤٠/١٥ وابن هشام ١٤٤/٤ وما بعدها والاستيعاب ص ٢٢٦ وأسد الغابة ٢٤٠/٤ والإصابة ٣٠٢/٥ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٣٠ والخزانة ٣٧٥/١ ، ١١/٤ . وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوانه برواية ثعلب .

(٣) أغانى (طبع الساسى) ١٤١/١٥ وأمالى المرتضى (طبع الحلبى) ٩٧/١ .

الشعر ونظمه . ويبدو أن كعباً اشتهر فى الجاهليه بأكثر مما اشتهر الُحطَـيْئة ، يدلُّ على ذلك ما يـَرْويه ابن سلام من أن الحطيئة قال له : « قد علمتَ روايتى لكم أهلَ البيت وانقطاعى إليكم ، وقد ذهبت الفحول غيرى وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعنى موضعاً بعدك فإن الناس لأشعاركم أرْوَى وإليها أسرع »(١) ، فقال كعب قطعته التى يقول فيها :

فمَنْ للقوافى شانَها من يَحُوكها ... إذا ما ثَوَى كعبٌ وفوَّز جَرْوَلُ(٢)

ومعروف أن كعباً وبجيراً أخاه والحطيئة أدركوا الإسلام ، وكان أسبقهم إلى الدخول فيه بُجَيْر ، وقد هجاه كعب حينئذ هجاء آذى رسول الله بمثل قوله(٣) :

ألا أبلغا عنى بُجَيْرًا رسالةً ... فهل لك فيما قلتُ ـ ويحك ـ هل لكا

شربتَ مع المأْمون كأْساً رَوِيَّةً ... فأَنْهَلَكَ المأْمونُ منها وعلَّكا(٤)

وخالفتَ أَسباب الهُدَى وتبعتَه ... على أى شىءٍ ـ ويْبَ غيرك ـ دَلَّكا(٥)

على خُلُقٍ لم تُلْفِ أُمًّا ولا أَباً ... عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا

ويقال إن الرسول سمع بهذا الشعر فتوعده ، وأجابه بُجَيْر فيما أجابه به بقوله(٦) :

من مبلغٌ كَعْباً فهل لك فى التى ... تلومُ عليها باطلا وهى أَحزمُ

إلى الله لا العُزَّى ولا اللاتِ وحده ... فتنجو إذا كان النَّجاءُ وتسلمُ

لدى يومَ لا ينجو وليس بمفلتٍ ... من النار إلا طاهرُ القلب مسلم

وما زال كعب على وثنيته حتى فُتحت مكة وانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف ، فكتب إليه بجير أن النبي صلى الله عليه سلم قتل كل من

---

(١) ابن سلام ص ٨٧ وانظر الأغانى (طبع دار الكتب) ١٦٥/٢ .

(٢) ثوى وفوز : مات وهلك . جرول : الحطيئة .

(٣) مقدمة الديوان ص ٣ وأغانى (ساسى) ١٤٢/١٥ والسيرة ١٤٤/٤ والاستيعاب ص ٢٢٦ .

(٤) المأمون : الرسول وقيل بل أراد به أبا بكر . النهل : الشرب الأول . العلل : الشرب الثانى .

(٥) ويب غيرك : هلكت هلاك غيرك ، وويب بالنصب على إضمار فعل .

(٦) الديوان ص ٤ والسيرة ١٤٥/٤ .

آذاه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم ، ودعاه أن يَقْدم على رسول الله تائباً . وشرح الله صدره للإسلام ، فقدم المدينة وبدأ بأبي بكر ، فوقع من نفسه « فلما سلَّم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته ، فقال : يا رسول الله ! هذا رجل جاء يبايعك على الإسلام ، فبسَط النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، يده ، فحسَر كعب عن وجهه ، وقال : هذا مقام العائذ بك يا رسول الله! أنا كعب بن زهير . فتجهَّمته الأنصار وغلَّظت له ، لذكره قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبَّت المهاجرة أن يُسْلم ويؤمِّنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمَّنه رسول الله »[1] ، وأنشده مدحته الخالدة :

بانتْ سُعاد فقلبي اليوم مَتْبُولُ ... متيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ[2]

فكساه النبي صلى الله عليه وسلم بُرْدة اشتراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم ، وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية في العيدين[3] . وقد اكتسى بها كعب حُلَّة مجد لا تبلى ، ولقِّبت قصيدته من أجلها بالبردة . ونراه يستهلها بالغزل ، إذ يذكر سعاد وفراقها وأن قلبه مرتهن عندها فليس له فكاك ، وكأنه يتأثر أباه في بعض غزله إذ يقول في إحدى قصائده[4] :

وفارقتْك برَهنٍ لا فِكاك له ... يوم الوداع فأمسى الرَّهْنُ قد غَلِقَا[5]

ويُلحُّ في وصف سعاد ويشبهها بالظبي ويشبه ريقها بالخمر ، متأثراً في ذلك أباه في نفس القصيدة ، كما تأثره في الحديث عن إخلاف صاحبته لوعدها . ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهماً ما نظمه أبوه في هذا الموضوع من قبل . وما زال ينعت ناقته حتى قال يصوِّر خوفه وفزعه من رسول الله :

---

(١) ابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء ١٠٤/١ وانظر الأغاني ١٤٢/١٤ .

(٢) انظر القصيدة في ديوان كعب (طبعة دار الكتب المصرية) ص٦ . ومتبول : مغرم . وبانت : فارقت . ومكبول : مقيد .

(٣) ابن سلام ص٨٧ والشعر والشعراء ١٠٦/١ والإصابة ٣٠٢/٥ .

(٤) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص٣٣ .

(٥) غلق الرهن : لم ينفك أبداً .

وقلت خَلُّوا طريقى – لا أبا لكمُ – فكلُّ ما قدَّر الرحمنُ مفعولُ

كلُّ ابنِ أنثى وإن طالتْ سلامتهُ يوما على آلةٍ حَدْباءَ محمولُ

أُنبئتُ أَنَّ رسول الله أوعدنى والعَفْوُ عند رسول الله مأْمول

مَهْلاً هداك الذى أعطاك نافلةَ الـ قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل

لا تأْخذنِّى بأَقوال الوشاة ولم أذنبْ ولو كثُرتْ عنى الأَقاويل

إن الرسول لنورٌ يُسْتَضاءُ بهِ مهنَّدٌ من سيوف الله مسلول[1]

فى عُصْبَةٍ من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أَسْلَمُوا زُولُوا[2]

زالوا فما زال أَنكاسٌ ولا كُشُفٌ عند اللِّقاء ولا مِيلٌ مَعَازيلُ[3]

ومضى يمدح المهاجرين حتى قال :

يمشون مشىَ الجمالِ الزُّهْرِ يَعْصمهم ضَرْبٌ إذا عَرَّدَ السُّودُ التنابيلُ[4]

يعرِّض بالأنصار لغلظتهم – كانت عليه – فأنكرت قريش ما قال ، وقالوا لم تمدحنا إذ هجوتهم . ولم يقبلوا منه ذلك حتى قال يذكر الأنصارَ :

من سَرَّه كرمُ الحياة فلا يَزَلْ فى مِقْنَبٍ من صالحى الأَنصارَ[5]

الباذلين نفوسهم لنبيِّهم يوم الهياج وسطوة الجَبَّارِ

يتطهَّرون – كأَنه نُسُكٌ لهم – بدماءِ مَنْ عَلِقُوا من الكُفَّار[6]

صدموا عَلِيًّا يوم بَدْرٍ صَدْمةً دَانَتْ لوقْعَتِها جميعُ نزار[7]

---

(١) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند وهو خير السيوف .

(٢) زولوا : هاجروا .

(٣) أنكاس : جمع نكس وهو الضعيف الذليل . كشف : جمع أكشف وهو الذى ينكشف فى القتال وينهزم . ميل : جمع أميل وهو الجبان . معازيل : جمع معزال : وهو الذى ينعزل فى الحرب عن صحبه ومن يستغيث به .

(٤) الزهر : البيض . عرد : نكل وجبن . التنابيل : القصار .

(٥) المقنب : جماعة الخيل والفرسان .

(٦) علقوا : قتلوا .

(٧) يريد بعلى بنى على بن مسعود وهم بنو كنانة .

إن الكرامَ همُ بنو الأَخيـار ورثوا السيادة كابرًا عن كابرٍ

وحَسُنَ إسلام كعب، وأخذ يصدر فى شعره عن مواعظ وحكم يستهدى فيها الذكر الحكيم ، من مثل قوله :

لو كنت أعجبُ من شيءٍ لأَعجبنى سَعْيُ الفتى وهو مخبوءٌ له القَدَرُ
يسعى الفتى لأُمورٍ ليس يُدْركها والنفس واحدةٌ والهمُّ منتشِرُ
والمرْءُ ما عاش ممدودٌ له أَملٌ لا تنتهى العيْنُ حتى ينتهى الأَثرُ

ونراه يردد كثيراً أن الله يرزق عباده ، وأنه لا يتركهم بدون رزق فهو راعيهم الذى يتفضل عليهم . وهو الغنى الحميد ، يقول :

أَعلمُ أنى متى ما يأتنى قَدَرى فليس يَحْبسُه شُحٌّ ولا شَفَقُ[1]
والمرء والمال يَنْمِى ثم يُذْهِبُـهُ مَرُّ الدهور ويُفنيه فَيَنْسَحِقُ
فلا تخافى علينا الفقر وانتظرى فَضْلَ الذى بالغِنى من عنده نَثِقُ
إن يَفْنَ ما عندنا فالله يرزقنا ومَنْ سوانا ولسنا نحن نرتزق

وهو فى ذلك يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر الشخص منهم فى رزق غد ، بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغتفر . وله قصيدة لامية يظهر أنه نظمها فى الجاهلية لما يذكر فيها من شربه الخمر مع من يصطفيه . ويظهر أنه عاد فأدخل فيها بعد إسلامه هذه الأبيات :

فأَقسمتُ بالرحمن لا شىء غيره يمينَ امرىءٍ بَرٍّ ولا أتحلَّلُ[2]
لأستشعرنْ أَعلى دَرِيسَىَّ مسلما لوجه الذى يُحْيِي الأَنام ويقتل[3]
هو الحافظُ الوَسْنانَ بالليل مَيِّتاً على أنه حَىٌّ من النوم مُثْقَلُ[4]
من الأَسودِ السارى وإن كان ثائرا على حَدِّ نابيه السِّمامُ المُثَمَّلُ[5]

(١) شفق : خوف .
(٢) لا أتحلل : لا أستثنى .
(٣) الدريس : الثوب البالى . كنى بذلك عن حسن إسلامه وتوكله على الله الذى يحيى و يميت .
(٤) الوسنان : النائم .
(٥) الأسود : الأفعى . السارى : الذى يسير ليلا . الثائر : الطالب بثأر . المثمل : المجمّع

وهى تنمّ عن ولائه لدينه الحنيف وأنه أسلم وجهه لربه ، جل جلاله ، الحافظ الذى يكلأ عباده ويقيهم الأذى ، ولعلّ فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على مدى تأثير الإسلام فى نفسه وفى شعره . وديوانه يدل — كما يدل تأخره فى إسلامه — على أنه كان فيه شر كثير ، إذ نراه دائماً فى شعره الجاهلى مفاخراً متوعداً مهدداً ، حتى إذا أسلم أخذت نفسه تصفو ، وأخذ يستشعر معانى الإسلام الروحية ، وما دعا إليه من الخلق الفاضل ، حتى لنراه فى الهجاء نفسه يعلن لهاجيه أنه يصفح الصفح الجميل ، سائقاً له ، لا من الشتم والسباب ، بل من الحكم ، ما يحاول به أن يكفّ أذاه عنه ، يقول[1] :

إن كنت لا ترهب ذَمِّى لما تعرف من صَفْحِى عن الجاهل
فاخْشَ سكوتى إذ أنا منصتٌ فيك لمسموع خَنَا القائل
فالسامع الذامِّ شريكٌ له ومطعمُ المأكول كالآكل
مقالةُ السُّوءِ إلى أهلها أسرع من مُنْحَدِرٍ سائل
ومَنْ دعا الناس إلى ذَمِّهِ ذَموه بالحق وبالباطل
ولا تَهِجْ إن كنت ذا إرْبَةٍ حَرْبَ أخى التجربة العاقل[2]
فإنَّ ذا العَقْل إذا هجتْهُ هِجْتَ به ذا خَبَلٍ خابِلِ

فهو ينهاه أن لا يجعل الصفح عنه سبباً إلى سوء القول ، حتى لا يجنى على نفسه ما هو أقبح أثراً وأبقى وسماً ، ويقول إن الذين يبسطون ألسنتهم بالهجاء سرعان ما يرتد عليهم هجاءٌ أقذع وأمرّ ، هجاء بالحق وبالباطل . وهو فى ذلك كله يأخذ بأدب القرآن ورسوله عليه الصلاة والسلام من العفو والصفح ومن التقريع لمن يهجوه بدلا من الطعن فى الأعراض سنّتهم القديمة .

---

(١) الخزانة ٤/١٢ والاستيعاب ص ٢٢٧ والحيوان ١/١٥ .

(٢) الإربة : الدهاء .

٤

لبيد[١]

من عشيرة ذات سيادة وشرف فى بنى كلاب العامريين ، هى عشيرة بنى جعفر ، وقد اشتهر فيها أبوه ربيعة وأعمامه الطُّفَيْل وأبو بَراء ومعاوية . أما ربيعة فكان بحراً فياضاً ، ومن ثَمَّ لُقِّبَ : « ربيعَ المُقْتِرين » وقد قتلته بنو أسد فى بعض حروبها مع قومه . وأما الطفيل فكان فارساً مغواراً وهو أبو عامر المشهور هو الآخر بفروسيته ، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلقَّب بملاعب الأسنة ، أما معاوية فكان ذا رأى وحكمة ، فلقِّب بمعوِّذ الحكماء . وأم لبيد تامرة بنت زنباع العَبْسية .

وقد نشأ لبيد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأمجادها ومناقبها ، وبمجرد أن شبَّ أخذ يشترك فى حروبها وغاراتها ووفاداتها على أمراء الحيرة ويقصُّ الرواة من ذلك حديثاً يتصل — إن صَحَّ — بأول ما كان من تيقظ موهبته الشعرية وهو لا يزال حَدَثاً ، فهم يروون أن وفداً من قومه على رأسه عمه أبو براء وفد على النعمان بن المنذر ، فوجد هناك وفداً من بنى عَبْس على رأسه الربيع بن زياد ، وكان بين العبسيين وبنى عامر قبيلة لبيد عداوة منشؤها أن العامريين قتلوا زهير بن جذيمة سيد بنى عبس فى بعض حروبهم . ولم يلبث الوفدان أن اصطدما ، وأخذ الربيع يدسُّ على العامريين عند النعمان . وعرفوا ذلك ، فاستشاط لبيد غضباً ، ووثب بين يدى النعمان يهجو الربيع برجز

---

(١) انظر فى ترجمة لبيد ابن سلام ص ١١٣ والشعر والشعراء ١ / ٢٣١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٥ / ٣٦١ وطبعة الساسى ١٥ / ١٣٠ وطبقات ابن سعد ٦ / ٢٠ وأسد الغابة ٤ / ٢٦٠ والموشح ص ٧١ وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١ / ١٨٩ والاستيعاب ص ٢٣٥ والإصابة ٦ / ٤ والمعمرين ص ٦٠ والخزانة ١ / ٣٣٤ وقد طبع الخالدى جزءاً من ديوانه سنة ١٨٨٠ ونشر هوبر جزءاً آخر سنة ١٨٨٧ وأضاف بروكلمان بقية طبعت فى ليدن سنة ١٨٩١ وطبع الديوان أخيراً طبعة علمية محققة اضطلع بها إحسان عباس ونشرت فى الكويت سنة ١٩٦٢ .

مقذع ، فانصرف النعمان عن الربيع وأجزل فى إكرامه للعامريين . وسواء أصحٌ هذا الخبر أولم يصح فإن لبيدا أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه فى الفخر بعشيرته والاعتداد بها اعتداداً بالغاً . ويقال إنه كان يكتمه فى أول الأمر . حتى إذا نظم معلقته : « عَفَتِ الديار محلُّها فمقامها » أخذ يظهره . وأخذ اسمه يطير فى القبائل . ولما سارت الركبان بأمر الرسول فى المدينة ورسالته النبوية أرسله عمه أبو براء برسالة إليه[1] ، فوقع الإيمان فى قلبه ، إلا أنه لم يُعْلن إسلامه حينئذ . وعاد إلى قبيلته ، حتى إذا استدار العام خرج مع وفد منها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا دخولهم فى دين الله . وكان ابن عمه عامر بن الطفيل وأخوه أربد وفدا على الرسول قبل ذلك يريدان به شرًّا فعصمه الله . ودعا عليهما . فلم يلبث عامر أن أصابه طاعون فى عنقه فقتله ، أما أربد فنزلت عليه صاعقة من السماء أهلكته . وظل لبيد بعد إسلامه يبكيه بكاء حارًّا .

ورجع لبيد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنة والنار ويقرأ لهم القرآن . وما زال بينهم حتى خطَّ عمر الكوفة فنزلها وأقام بها إلى أن توفَّاه الله فى صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة . ويقول الرواة إنه شغَل نفسه حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظم الشعر إلا قليلا . ويصوِّرون ذلك فيقولون إن عمر أرسل إلى المغيرة بن شُعْبة واليه على الكوفة : أن استنشدْ من قِبَلك من شعراء مصرك ما قالوا فى الإسلام . فلما سأل لبيداً عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة فى صحيفة ، ثم أتاه بها . وقال : أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر ، فكتب المغيرة بذلك إلى عمر . فأمر أن يزيد عطاءه خمسمائة وكان ألفين . ويمضى الرواة فيزعمون إنه لم يقل فى الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه[2] . فمن قائلٍ هو قوله :

الحمدُ لله إذ لم يأتنى أجَلِى   حتى كسانى من الإسلام سِرْ بالا

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٥ / ١٣١ .

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٢٣٢ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٥ / ٣٦٩ وانظر الاستيعاب ص ٢٣٥ حيث يذكر بيتاً ثالثاً .

ومن قائلٍ ، بل هو قوله :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه والمرْءُ يُصْلحه الجليسُ الصالحُ

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعانى الإسلام ومثاليته الروحية ، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين : قسماً جاهليًّا وقسماً إسلاميًّا .

وهو فى القسم الجاهلى لا يخرج إلى مديح أو هجاء ، بل يمضى مفاخراً فخراً عنيفاً بآبائه وفتوته معتدًّا اعتداداً لا حدَّ له بالأقربين من أسرته ، ومن ثَمَّ وقف مع ابن عمه عامر بن الطفيل ضد علقمة بن عُلاثة حين تفاخرا إلى هرم بن قُطْبة الفزارى[١] واقرأ فيه فستجده دائماً فى هذا القسم مفاخراً بقومه وشجاعتهم وبلائهم فى الحروب وما لهم من مناقب جليلة حتى إذا أفضى إلى نفسه تحدث عن شمائله وتجشُّمه لسُرَى الليل بأصحابه وفتوته وكيف يسق الخمر لداته ، وكيف يقامر ليطعم الجائع المحروم . وكثيراً ما يهجم فى قصائده على هذا الفخر ، وقد يقدم لذلك بمقدمات ، على نحو ما صنع فى معلقته ، إذ بدأها بذكر الديار وذكر الأحبة الظاعنين ، ثم مضى يصف اقتحامه للصحراء على ناقته ، وسرعان ما شبهها بأتان وحشية ، استرسل فى الحديث عنها وعن حمار كان يصاحبها ويلاعبها . وخرج من ذلك إلى تشبيهه لها ببقرة وحشية مذعورة لفقد طفلها ، ويسترسل فى وصف تعقب الرماة لها وإرسالهم جوارح الكلاب عليها ، ويخلص إلى الفخر بكرمه وبسالته ومنادمته لرفاقه . ويفخر بقومه وكثرة سادتهم وما سنّه لهم آباؤهم ، يقول :

إنا إذا التقتِ المجامعُ لم يزل منا لِزازُ عظيمةٍ جَشَّامُهـا[٢]

ومقسِّمٌ يُعْطى العشيرة حَقَّها ومُغَذْمِرٌ لحقوقها هضَّامها[٣]

فَضْلاً ، وذو كرمٍ يُعين على النَّدَى سَمْحٌ كسوبُ رغائبٍ غَنَّامها

(١) أغانى (ساسى) ١٥/٥٢ .

(٢) اللزاز : الملازم للشئ ، جشامها : من التجشم وهو ركوب الخطر .

(٣) مغذمر : لايعطى . هضام هنا : يعطى قوماً ويحرم آخرين .

من مَعْشَرٍ سَنَّتْ لهم آباؤهم ولكل قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها

فبنوا لنا بَيْتاً رفيعاً سَمْكُهُ فسما إليه كهْلها وغلامهـا

فاقْنَعْ بما قسمَ المليكُ فإنَّما قسمَ الخلائقَ بيننا عَلاَّمهـا

وشعره الجاهلى دائماً على هذه الوتيرة من الحديث عن مناقب آبائه ومفاخره ووصف راحلته وتشبيهها بالأتان المتوجسة والبقرة المسبوعة أو النعامة الخائفة ، وقد يتحدث عن المطر . وهو فى ذلك كله يتميز بالإغراب الشديد فى لفظه ، حتى ليمسّ قارئه شيء من الضجر لكثرة ما يورد من أوابد الألفاظ وحوشيِّها . واقرأ ما لم نَرْوه من المعلقة قبل هذه الأبيات التى أنشدناها فإنك ستجده مفرَغاً فى ألفاظ متناهية فى الإغراب ، ومن ثَمّ وصف شعره أبو عمرو بن العلاء فقال : إنه رحى بِزْرٍ[1] ، يريد أنه خشن لا يَحْسن فى السمع ، وقال الأصمعى ، شعر لبيد كأنه طيلسان طبرانىّ أى أنه محكم الصنعة ولا رونق له .

وإذا انتقلنا من هذا القسم إلى شعره الإسلامى وجدنا قراءته للقرآن الكريم تهذِّب من لفظه وتُدْخل عليه غير قليل من الطُّلاوة ، ومن ثَمّ يقول فيه ابن سلاّم : « كان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق » ويتضح ذلك فى مراثيه المشهورة لأخيه أرْبد ، فإن لألفاظها ماء ورونقاً وفى معانيها من الإسلام أصداء وظلالا ، وارجعْ إلى عينيته فستجد جمال السبك والصياغة ، وستجد الروح الإسلامية ماثلة فى تضاعيف أبياتها على شاكلة قوله[2] :

بَلِينا وما تَبْلَى النُّجُومُ الطَّوَالعُ وتَبْقَى الجبالُ بعدنا والمصانعُ[3]

فَلا جَزَعٌ إن فَرَّق الدهرُ بيننا وكل فتىً يوماً به الدهرُ فاجعُ

وما الناسُ إلا كالديار وأهلهـا بها يومَ حَلُّوها ، وغَدْوًا بَلاقِعُ[4]

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٧١ .

(٢) الديوان بتحقيق إحسان عباس ص ١٦٨ .

(٣) المصانع : الأبنية الضخمة .

(٤) بلاقع : جمع بلقع وهو الأرض القفر . وغدوا : غدا .

وما المَرْءُ إلا كالشهاب وضَوْئه　　يَحُورُ رَمادًا بعد إذ هو ساطع[١]

وما البِرُّ إلا مُضْمَراتٌ من التُّقَى　　وما المال إلا عاريات ودائعُ

وليس كل ما حدث من انقلاب فى شعره الإسلامى أنه انتقل من الألفاظ الحوشية إلى الديباجة الطلية ، فقد تغلغل الإسلام فى ضميره . فاتجه فى أشعاره إلى ربه منيباً إليه ، والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذى ينتظره ، يقول فى قصيدة له[٢] :

إنما يحفظ التُّقَى الأَبرارُ　　وإلى الله يستقرُّ القرارُ

وإلى الله تَرْجعون وعند الل　　ه وِرْدُ الأمور والإصدارُ

كلَّ شىءٍ أَحصى كِتاباً وعِلْماً　　ولديه تجلَّتِ الأَسرارُ

إن يكن فى الحياة خيرٌ فقد أُنْ　　ظِرْتُ لو كان ينفع الإنظارُ[٣]

عشتُ دهرا ولا يدوم على الأَيَّ　　ام إلا يَرَمْرَمٌ وتِعَارُ[٤]

فإنك تجده يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح وأن الناس معروضون على الله يوم القيامة وقد أُحْصِى كل شىء فى كتاب وأن الموت حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر فى مصيره . ويمضى فى طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ مَنْ حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية مخوِّفا من الموت ويوم الحساب ، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح ، ومهوناً من الدنيا ومتاعها الزائل ونعيمها الفانى ، على نحو ما نرى فى لاميته التى نؤمن بأنه نظمها فى الإسلام ، وفيها يقول[٥] :

أَلا كلُّ شىءٍ ما خلا الله باطلُ　　وكلُّ نَعيمٍ لا محالَةَ زائلُ

وكلُّ أُنَاسٍ سوف تدخل بينهم　　دُوَيْهِيَـةٌ تصفرُّ منها الأَنامل[٦]

---

(١) يحور : يصير .

(٢) ديوان لبيد ص٤١ والحيوان ٧/١٦٣ .

(٣) الإنظار : التأخير .

(٤) يرمرم وتعار : جبلان فى نجد .

(٥) الديوان ص ٢٥٦ والشعر والشعراء ١/٢٣٧ والطبرى ٥/٢٨ .

(٦) يريد بالدويهية الموت .

وهو فى البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى : (كلٌ من عليها فان ويبقى وجه ربِّك ذو الجلال والإكرام) ويستمد فى البيت الثانى من مثل قوله جلّ وعز : (كلٌّ نفس ذائقةُ الموت) أما البيت الثالث فاستمدّه مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب : (أفلا يعلم إذا بُعثِر ما فى القبور وحُصِّل ما فى الصدور) . واسترسل فى القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر وملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون أنه نظمها فى رثائه[1] وفى الواقع كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتى على الملوك والأمم ، ومن ثَمّ مضى يتحدث عن الغساسنة وأصحاب الرّسّ وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً . وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله[2] :

لله نافلةُ الأَجلِّ الأَفضلِ … وله العُلا وأَثيثُ كل مُؤَثَّل[3]

لا يستطيع الناسُ مَحْوَ كتابهِ … أَنَّى وليس قضاؤه بمبدَّل

وهو فى هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية ، وأن كل ما يجرى فى الكون بقضائه وأن كل ما يأتى من عمل فى كتاب مبين ، وأن كلا سيُجزَى بما سجِّل عليه كتابه ، يقول سبحانه : (وكلَّ شئ أحصيناه كتاباً) (وكان أمر الله قدَراً مقدوراً) (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . ويمضى لبيد فى القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العماليق ولقمان ونَسْره وأبرهة وأمراء المناذرة والغساسنة من رَيْب الزمان . ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته[4] :

من يَبْسُطِ اللهُ عليه إصْبَعا … بالخيرِ والشر بأَىٍّ أُولعا[5]

يملأْ له منه ذَنوباً مُتْرَعَا … وقد أَباد إرَمــاً وتُبَّعا[6]

والحق أن تلاوته للقرآن التى اشتهر بها أثّرت فى نفسه آثاراً عميقة . وقد يكون الرواة تزيدوا فى بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما يُنسَبُ إليه منها يدل على أن

---

(١) انظر الديوان ص ٢٥٤ .

(٢) الديوان ص ٢٧١ .

(٣) أثيث : موطأ عظيم . مؤثل : مؤصل ، ويوصف به الملك والمجد .

(٤) الديوان ص ٣٣٧ .

(٥) الإصبع : الأثر الحسن .

(٦) ذنوباً مترعاً : دلواً مملوءا .

الإسلام تعمق روحه ، وأنه استشعر معانيه ومواعظه ، فمضى يحيلها أبياتاً وأشعاراً ، بل قصائد دينية ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أجود هذه القصائد لاميته المقيدة التي يقول فيها[١] :

إن تَقْوَى ربِّنــا خيرُ نَفَلْ ... وبإذن الله رَيْثى وعَجَــلْ[٢]

أَحْمدُ الله فلا نِدَّ لَهُ ... بيديه الخـيرُ ما شاءَ فَعَلْ

من هداه سُبُلَ الخَير اهتدى ... ناعمَ البال ومن شاءَ أَضلّ

فاكذبِ النفس إذَا حدَّثتها ... إنَّ صدْق النفس يُزْرى بالأَمل

غير أن لا تَكْذِبَنْها فى التُّقَى ... واخْــزُها بالبِرِّ ، لله الأَجلّ[٣]

ونراه يذكر فى هذه القصيدة رحلة له لعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقده لأربد ويبكيه . وعلى هذا النحو يظل لبيد بشعره الإسلامى مستمسكاً بالعروة الوثقى زاجراً عن الدنيا وخُدعها داعياً إلى أن يكفَّ الإنسان عن سيئاته ومرغِّباً له فى الباقيات الصالحات حتى يغتنم بقية أجله بخير عمله .

٥

الحطيئة[٤]

اسمه جَرْول . ولُقِّب بالحطيئة لقصره أولدمامته ، وقد ولد لأمة تسمى الضَّراء ، كانت لأوس بن مالك العَبْسى . ونشأ فى حجره مغموزاً فى نسبه ، وجعله ذلك قلقاً مضطرباً منذ أخذ يحسُّ الحياة من حوله ، وزاد فى اضطرابه وقلقه ضعفُ جسمه وقبح وجهه ، إذ كانت تقتحمه العيون . ولم يكن فيه

---

(١) الشعر والشعراء ١/٢٣٨ والديوان ص١٧٤ وما بعدها .

(٢) النفل : العطية . الريث : البطء .

(٣) اخزها : سسها واقهرها .

(٤) انظر فى ترجمة الحطيئة ابن سلام ص ٨١ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٢٨٠ والأغانى (طبع دار الكتب) ٢/١٥٧ والإصابة ٢/٦٣ والخزانة ١/٤٠٨ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ١/٥٣ ؛ وما بعدها . ونشر ديوانه فى إستانبول ، ونشره جولد تسيهر والشنقيطى ، وكذلك نشره نعمان أمين طه بمطبعة الحلبى ، وسنعتمد على نشرته .

فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه فى « عبس » على نحو ما صنع عنترة من قبله . ومن ثَمَّ نشأ يشعر بغير قليل من المرارة، ولعل هذا هو السبب فى غلبة الهجاء عليه .

ولما تيقظت فى نفسه موهبة الشعر لزم زهير بن أبى سُلْمى يعلمه إحكام صنْعه على نحو ما كان يعلم ابنه كعباً . ومر بنا أن الحطيئة كان يَرْوى شعر كعب أيضاً ، وأنه طلب إليه أن ينوِّه به ، حتى يدور على الألسنة ذكره . ومعنى ذلك أن الحطيئة من مدرسة زهير التى كانت تُعْنَى بالتعبير وصقله وتصفيته من كل شائبة ، كما كانت تعنَى بالمعانى ودقتها .

ويضيء الإسلام فى الجزيرة ، فلا يسارع إليه ، ومن هنا اختلف الرواة هل قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة كعب ، أو أنه تأخرْ فى اعتناقه الإسلام ، حتى توفِّى الرسول الكريم . ونراه يسارع إلى الرِّدَّة ، مُعينا بشعره المرتدِّين ضد أبى بكر وخلافته ، حتى ليقول :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا ... فيا لعبادِ الله ما لأَبى بكر

أيُورِثها بكراً ، إذا مات ، بعده ... فتلك ، وبيتِ الله ، قاصمةُ الظهرِ

على أن من الرواة من نسب هذين البيتين إلى غيره[١]. وقد عاد مع المرتدين إلى الإسلام .

وجمهور شعره يدور فى المديح والهجاء ، ويقول الأصمعى : «كان الحطيئة جشعاً سَؤولا ملحفاً دنىء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلا ، قبيح المنظر ، رثَّ الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول فى شاعر من عيب إلا وجدته ، وقلما تجد ذلك فى شعره »[٢] . وقد يكون الأصمعى بالغ فى نعته بهذه الصفات ، وحقًّا كان يمدح سادة القبائل بشعره منذ نشأ فى الجاهلية من أمثال عُيَيْنة بن حِصْن الفزارى وزيد الخيل، وكان يتورط فيما

---

(١) انظر الطبرى ٢ / ٤٧٧ حيث نسب البيتين إلى أخيه الخطيل وقارن بالديوان ص ٣٢٩ والأغانى ٢ / ١٥٧ .

(٢) أغانى (دار الكتب) ٢ / ١٦٣ .

بينهم من خصومات ومنافرات ، إذ نراه يقف فى صف عيينة بن حصن حين نافر ابن عمه زبّان بن سيار ، كما نراه يقف فى صف علقمة بن علاثة حين نافر عامر بن الطفيل[١]. وكان غيره من الشعراء يصنعون صنيعه ، فقد كان الأعشى ولبيد يقفان فى صف عامر . وقد تكون حادثته مع الزِّبْرقان بن بدر هى التى شوهته ، ذلك أنه لقيه فى عهد عمر بن الخطاب يؤمُّ المدينة ، وكان على صدقات قومه ، فلما عرفه دلّه على داره حيث زوجه وعشيرته ، فنزل بأهله ، وفزع بنو أنف الناقة — إذ كانوا ينافسون عشيرة الزبرقان — حين علموا ذلك ، وعملوا على أن يفسدوا العلاقة بينه وبين زوج الزبرقان ، وكانت قد تراخت فى استقباله . وأتيحت بذلك الفرصة لبنى أنف الناقة ، فضموا الحطيئة إليهم وبالغوا فى إكرامه ، وانطلق يُثْنى عليهم ثناء رائعاً معرِّضاً بالزبرقان بمثل قوله يخاطبه :

دَعِ المكارم لا تَرْحَلْ لبُغْيتها واقْعُد فإنك أنت الطاعمُ الكاسى[٢]

ورَفع الزبرقان أمره إلى عمر ، فحكّم حسان بن ثابت فيه ، فلما حكم بأنه هجاه حبسه . وأخذ الحطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التى يقول فيها :

ماذا تقول لأفراخٍ بذى مَرَخٍ زُغْبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شَجَرُ[٣]

ألقيتَ كاسِبَهم فى قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عُمَر

ولان له قلب عمر ، فعفا عنه بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم[٤].

ونحن إذا قرأنا أشعاره المختلفة التى عرض فيها للزِّبْرِقان وجدناه لا يُقْذع فى هجائه ، إنما يمسُّه على نحو ما رأينا فى بيته السالف برفق ، عامداً إلى التهكم والسخرية . ولا نشك فى أن الإسلام هو الذى خفّف من حدة لسانه ، ونراه يصرِّح بذلك إذ يقول[٥] :

---

(١) ابن سلام ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) يريد المطعوم المكسو .

(٣) ذومرخ : واد بالحجاز . الأفراخ : صغار الطير شبه بها أولاده . زغب الحواصل : لم ينبت على حواصلهم سوى الزغب القصير ، كناية عن صغرهم وأنهم لا يقوون على الطيران .

(٤) انظر فى القصة الأغانى ٢ / ١٧٩ وما بعدها .

(٥) الديوان ص ٩٨ .

ولما أن مدحتُ القوم قلتم   هجوتَ ولا يحلُّ لك الهجاءُ

ألم أكُ مسلماً فيكون بيني   وبينكمُ المودّةُ والإخاء

ولم أشْتُمْ لكم حسبا ولكن   حَدَوْتُ بحيث يُسْتَمعُ الحُدَاءُ

فهو يذكر حرمةالإسلام ، ويتذمم بها ، ويقول إنه حين مدح بنى أنف الناقة وحدا بهم فسمعه قوم الزبرقان جعلوا ذلك ذمًّا لهم وهجاء ، لمدحه خصومهم. ونراه يولّى وجهه نحو علقمة بن عُلاثة ، لينشده إحدى مدائحه فيه ، ولكن الموت يسبقه إليه فيُجْزل له ابنه فى العطاء . ويتجه نحو العراق فى عهد عثمان . فيمدح الوليد بن عقبة واليه على الكوفة ، ويذود عنه حين يطعن عليه أهلها . وقد حُملت عليه أبيات فى ذمه . ويمدح من بعده سعيد بن العاص الذى خلفه فى تلك الولاية ، كما يمدحه فى ولايته لمعاوية على المدينة (٤٩ – ٥٥ هـ) . ونرى أهلها يجْمعون له من أموالهم خشية معرة لسانه . والمظنون أنه توفّى فى ولاية سعيد آنفة الذكر .

وقد كان على شاكلة زهير يُعْنَى بشعره وتجويده عناية شديدة ، وقد أُثر عنه أنه كان يقول : « خير الشعر الحولىُّ المحكّك » فهو ممن كان يتأنّون فى شعرهم ، ويعيدون فيه النظر ، حتى تخرج جميع الأبيات مستوية فى الجودة والروعة . ولعل ذلك ما جعله يُكثر من المقطّعات ، ونراه فى مطوّلاته يشبّب ويصف الصحراء وحيوانها الوحشى والأليف . ومدائحه لا تقل عن مدائح زهير جودة على شاكلة قوله فى بنى أنف الناقة :

يسوسون أحلاماً بعيدا أناتُها   وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والجدُّ

أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البِنا   وإن عاهدوا أوفوا وإن عَقدوا شدُّوا

وكانوا يعيَّرون باسمهم ، فما هو إلا أن قال معرِّضاً بالزبرقان وعشيرته :

قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرهمُ   ومن يُسَوِّى بأنف الناقة الذَّنبا

حتى أصبح اللقب فخراً لهم . وتُروَى له أهاج فى زوج أمه وفى أمه وفى ضيفانه . وكلها مزاح . حتى لنراه يمزح مع نفسه ، فيقول :

أرى لىَ وجها شوَّه اللهُ خَلْقَهُ ... فقُبِّحَ من وجْهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

أما بخله الذى أشار إليه الأصمعى والرواة ، فقد غسله بكثرة مديحه للكرم ، وبقصيدته « وطاوى ثلاث »[1] وفيها يصور أعرابيًّا فقيرا نزل به ضيف ، وعياله من حوله يتضوَّرون جوعاً ، فهمَّ أن يذبح له أحدهم ، لولا أن عَنَّتْ له أتان وحشية ، فصادها وأطعمها ضيفه . والقصيدة رائعة فى وصف غريزة الكرم العربية .

والحق أن الرواة بالغوا فى اتهامه بالبخل ودناءة النفس ، كما بالغوا فى اتهامه بفساد الدين ، قد يكون رقيقه ولكنه ليس فاسده ، فقد كان يستشعره فى الهجاء بشهادة لسانه كما قدمنا . ونراه فى مديحه يكثر من ذكر جزاء الله لممدوحه على ما يقدم له من بِرِّه على شاكلة قوله فى بعض ممدوحيه :

فَلْيَجْزِهِ اللهُ خيراً من أخى ثقةٍ ... وليَهْدِهِ بِهُدَى الخيرات هاديها

وقد يستهل المدح بالثناء على الله فى مثل قوله :

الحمد لله إنى فى جِوار فَتًى ... حامى الحقيقة نَفَّاعٍ وضَرَّار

وقال أبو عمرو بن العلاء : لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة[2] :

من يَفْعَلِ الخير لا يعْدَمْ جوازيَه ... لا يذهب العُرْفُ بين الله والناسِ

ولعل فى ذلك ما يدل على أنه حَسُنَ إسلامه ، وأبلغ فى الدلالة على ذلك قوله فى وصف التقى والعمل الصالح[3] :

ولستُ أرى السعادةَ جمع مالٍ ... ولكن التقىَّ هو السعيدُ

وتقوى الله خيْرُ الزاد ذُخْراً ... وعند الله للأتقى مزيد

(١) الديوان ص ٢٩٥ وما بعدها .

(٢) أغانى ٢/١٧٣ .

(٣) أغانى ٢/١٧٥ والديوان ص ٢٩٣ .

فالسعادة فى رأيه ليست فى الدنيا وأموالها ومتاعها الزائل ، وإنما هى فى الآخرة ونعيمها ومتاعها الخالد الذى لا يُنال إلا بالتقوى ، فهى السعادة الحقيقية . ومعنى ذلك أن الإسلام لم يظل بعيداً عن روح الحطيئة ، بل أخذ يُرْسل فيها مثل هذه الإشعاعات النيرة .

٦

النابغة[1] الجعْدىّ

هو عبدالله[2] بن قيس من بنى جَعْدة العامريين ، ولد بالفَلْج جنوبى نجد ، ولما شبّ اضطرب فيما يضطرب فيه قومه من حروب ، ويقال إنه ظل ثلاثين عاماً فى الجاهلية لا ينطق الشعر ثم تفجّر على لسانه ، فسُمّى النابغة لنبوغه فيه بأخرة ، ويقال إن نبوغه فيه إنما كان فى الإسلام .

والنابغة الجعدى فى جاهليته مثل لبيد يتغنى بمفاخر قومه وانتصاراتهم فى حروبهم ويهجو خصومهم وخاصة بنى أسد الذين قتلوا أخا له فى بعض حروبهم مع قبيلته ، وقد بكاه كثيراً ، ومن بكائه فيه قصيدته التى يؤبّنه فيها بقوله[3] :

فَتًى كَمُلَتْ أَخْلاَقُهُ غير أنه   جوادٌ فما يُبْقِى من المال باقيا

فَتًى تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صديقه   على أَنَّ فيه ما يسوءُ الأَعاديا

ويقال إنه كان يفد بشعره على اللخميين فى الحيرة . ولما أخذت وفود العرب تفد على الرسول صلى الله عليه وسلم معلنةً إسلامها وفد عليه مع قومه سنة تسع للهجرة وأنشده قصيدة يقول فيها :

---

(١) انظر فى ترجمة النابغة : الشعر والشعراء ١ / ٢٤٧ وابن سلام ص ١٠٣ وما بعدها والأغانى (طبعة دار الكتب) ٥ / ١ وما بعدها وأسد الغابة ٥ / ٢ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦ / ٢١٨ وأمالى المرتضى ١ / ٢٦٣ والمعمرين ص ٦٤ والخزانة ١ / ٥١٢ والموشح ص ٦٤ . وقد جمعت ماريا نالينو أشعاره ونشرتها فى روما سنة ١٩٥٣ .

(٢) اختلف المؤرخون فى اسمه هل هو عبد الله ابن قيس أو قيس بن عبد الله أو حبان بن قيس .

(٣) الشعر والشعراء ١ / ٢٥٢ والديوان ص ١٢٣ .

بَلَغْنَا السماءَ مَجْدُنا وجدودُنا وإنا لنَبْغى فوق ذلك مظهــرا

فقال له الرسول الكريم : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فأجابه : الجنة . وأعجب الرسول بشعره ومنطقه ، فقال له : لا يَفْضُضِ الله فاك[١] .

ويُظَنُّ أنه لم يرجع مع قومه إلى منازلهم ، بل أقام فى المدينة مهاجراً ، حتى إذا كانت الفتوح خرج مع العرب ميمماً نحو الشرق والفُرْس مجاهداً فى سبيل الله ونَشْر الدعوة المحمدية. وقد أخذ يضيف إلى رائعته التى أنشدها الرسول أبياتاً كثيرة ، تصور حياته فى الإسلام وابتغاءه رضوان الله بجهاده وتقواه جميعاً يقول[٢] :

أتيتُ رسول الله إذ جاءَ بِالْهُدَى ويتلو كتابًا كالمجرَّة نَيِّرَا[٣]
وجاهدتُ حتى ما أُحِسُّ ومَنْ معى سُهَيْلاً إذا مالاح ثُمَّتَ غَوَّرا[٤]
أقيم على التقوى وأرضى بِفِعْلِها وكنتُ من النار المَخُوفةِ أوْجَرَا[٥]

وعاد إلى المدينة وتشوَّق إلى منازل قومه فى البادية ، فاستأذن عثمان فى الإلمام بهم فأذن له ، حتى إذا نشبت الحروب بين على ومعاوية وجدناه فى صفوف على بصِفِّين ، يَرْجُز بخصومه وينظم الأشعار فى مديحه وهجاء معاوية من مثل قوله[٦] :

قد علم المِصْرانِ والعِراقُ أن عَلِيًّا فَحْلُها العُتَاقُ[٧]
إن الأُلى جَارَوْك لا أفاقوا لهم سياقٌ ولكم سِياق
قد علمتْ ذلكم الرِّفاق سُقتم إلى نَهْج الهدى وساقوا
إلى التى ليس لها عِــراقُ فى مِلَّةٍ عــادَتُها النِّفــاقُ[٨]

---

(١) أغانى ٥/٨

(٢) أغانى ٥/٩ والديوان ص٣٣ وما بعدها.

(٣) المجرة: مجموعة من النجوم الصغيرة ينتشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء.

(٤) غور النجم : غاب .

(٥) أوجر : خائف .

(٦) أغانى ٥/٣١ والديوان ص ١٣٣.

(٧) المصران : الكوفة والبصرة. العتاق : الكريم.

(٨) التى ليس لها عراق: التى لا تعرف لها غاية.

ولعل هذا هو الذى جعله يصطدم بكعب بن جُعَيْل شاعر معاوية . ويُرْوَى أنه لما قُتل على وتحولت الخلافة إلى معاوية كتب إلى مروان عامله على المدينة أن يأخذ أهله وأمواله ، فاستعطفه بأبيات ألانت قلبه فعفا عنه .

ونراه يقف دائماً مع قومه ، حتى لَيَضْطَرّ أبو موسى الأشعرى والى البصرة لعمر أن يضربه أسواطاً ، وكأنما كانت فيه بقية من عصبيته الجاهلية . ولا نشك فى أن هذه البقية فيه هى التى دفعته إلى الاصطدام بأوس ابن مَغْراء ، ويقول ابن سَلاّم إنه غلب عليه ولم يكن إليه فى الشعر ولا قريباً . ونزل مع قومه بأصبهان ، وهناك نراه يتهاجى مع سَوّار بن أوفى القشيرى ، وتتصدى له زوجه ليلى الأخيلية ، ويغلبان عليه جميعاً . وهما أيضاً لم يكونا إليه فى الشعر ، وربما كان لتعمق الإسلام فى نفسه أثر فى تلك الهزائم ، إذ كان يتحرج من المضى فى الهجاء المقذع ، ويقول ابن سلام إن الأخطل هجاه بأخرة . ولما دعا ابن الزبير لنفسه فى أواخر خلافة يزيد بن معاوية قدم عليه فى مكة ومدحه بقصيدة رائعة يقول فيها[1] :

حَكَيتَ لنا الصِّدِّيقَ لما وَلِيتَنا ... وعثمانَ والفاروقَ فارتاح معدمُ
وسوَّيت بين الناس فى العدل فاسْتَووا ... فعادَ صباحا حالكُ الليل مُظْلِمُ

وأثابه ابن الزبير ثواباً جزيلا . وعاد إلى أصبهان ، غير أنه لم يلبث أن توفِّى بها عن سن عالية سنة خمس وستين . وهو بلا شك من المعمرين ، غير أن الرواة بالغوا فى ذلك حتى قالوا إنه أقدم من النابغة الذبيانى وأنه عُمِّرَ مائة وثمانين سنة بل تزيد ، مستشهدين بما أضيف إليه من مثل قوله[2] :

تذكَّرتُ شيئاً قد مضى لسبيله ... ومن عادة المحزون أن يتذكَّرا
نَداماى عند المنذر بن محرِّقٍ ... أرى اليوم منهم ظاهرَ الأرض مُقْفِرا

والمنذر بن محرق هو المنذر بن ماء السماء الذى قُتل فى بعض حروبه مع الغساسنة سنة ٥٥٦ للميلاد ، ولا شك فى أن هذا الشعر مصنوع عليه .

---

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٧٠٤ والديوان ص ١٣٧ .

(٢) أغانى ٥/٦

ومن المحقق أن النابغة كان أحد الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية ، وقد خرج يجاهد فى سبيل الله ، وهو يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، فكان طبيعيًّا أن يستلهمه فى شعره . وهو من هذه الناحية من خير الأمثلة على أثر الإسلام فى شعر المخضرمين ومدى هذا الأثر ، إذ عبَّر فى غير قصيدة عن خشية الله وتقواه من مثل قوله[١] :

منعَ الغَدْرَ فلم أَهْمُمْ بهِ   وأخو الغَدْرِ إذا هَمَّ فَعَلْ
خشيةُ اللهِ وأنِّى رجـلٌ   إنمـا ذِكْرِى كنـارٍ بقَبَلْ[٢]

وهو دائم الحديث عن نعمة الله عليه بالإسلام ، وتحوله من ظلمات الوثنية إلى أضواء الدين الحنيف ، يقول[٣] :

عُمِّرْتُ حَتَّى جاءَ أَحْمَدُ بالهُدَى   وقـوارعٍ تُتْلَى من القُـرْآنِ
ولبستُ مِلْ الإسلام ثَوْباً وَاسِعاً   من سَيْبِ لا حَرِمٍ ولا مَنَّـانِ[٤]

وليس كل ما نجده عنده من أثر الإسلام أبياتاً مفردة تتخلل قصائده ، فإن له موعظة بليغة رواها غير راو ، وهى تطَّرد على هذا النمط[٥] :

الحمدُ لِلهِ لا شَرِيكَ لَهُ   من لم يَقُلْها فنفسَهُ ظَلما
المُولج الليلَ فى النهار وفى اللَّيْـ   ـلِ نهارًا يُفَرِّجُ الظُّلَما
الخافضِ الرَّافعِ السماءَ على الْـ   أَرْضِ ولم يَبْنِ تحتها دِعَما[٦]
الخالقِ البارئُ المصورِّ فى الْـ   أَرْحامِ ماءً حتى يصيرَ دَمَا
من نُطْفَةٍ قَدَّها مقدِّرُهـا   يَخْلُقُ مِنها الأَبْشارَ والنَّسما
ثُمَّ عِظاماً أقامها عَصَبٌ   ثُمَّتَ لَحْماً كَسَاهُ فالْتَأَما
ثـم كَسَا الرَّأسَ والعَواتِقَ أَبْـ   ـشارًا وجِلْدًا تخاله أَدَما[٧]

(١) الديوان ص ٨١ وانظر الحيوان ٣ / ٥٠٤ .
(٢) القبل : النشز من الأرض يستقبلك ورأس كل أكمة أو جبل .
(٣) الديوان ص ١٣٧ وأمالى المرتضى ١ / ٢٦٦ .
(٤) مل الإسلام : من الإسلام . سيب : عطاء . حرم : مناع .
(٥) الشعر والشعراء ١ / ٢٥٣ وانظر الديوان ص ١٠٢ .
(٦) دعم : دعائم وعمد .
(٧) العواتق : جمع عاتق وهو المنكب .

والصَّوْتَ واللَّوْنَ والمَعايِشَ والْـ أخلاقَ شَتَّى وفَرَّق الكَلِمَا
ثُمَّتَ لا بُدَّ أن سيجمعكم واللهِ ، جَهْـرًا ، شهادةً قَسَما
فائْتِمَرُوا الآنَ ما بدا لكمُ واعتصموا إن وجدتمُ عِصَما
فى هذه الأرض والسماء ، ولا عِصْمَةَ منه إلا لمن رَحِمَا
يا أيها الناسُ هل ترونَ إلى فارسَ بادَتْ ، وخَدُّها رَغِما[1]
أمسوا عَبِيدًا يَرْعَوْنَ شاءَكُمُ كأنما كان مُلْكُهُمْ حُلُما
أو سَبَأَ الحاضرين مَأْرِبَ إذ يَبْنُون من دون سَيْله العَرِما
فمُزِّقوا فى البلاد واعترفوا الـ هُونَ وذاقوا البأْساءَ والعَدَما[2]
وبُدِّلوا السِّدْرَ والأَراكَ به الـ خَمْطَ وأضحى البُنْيانُ مُنْهَدِما[3]

والنابغة فى مطلع هذه العظة يُثْنى على الله بما هو أهله ، مقرراً إيمانه بوحدانيته وأنه لا شريك له ، ونحس أنه يستعير لفظه من الذكر الحكيم ، فهو يستهل قوله بكلمة « الحمد لله » ولا يلبث أن يستلهم مثل قوله تعالى : « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . ويتحدث فى البيت الثانى عن نظام الكون المنبىء عن قدرة الله وجليل صنعه له وتقديره على نظام بديع ، مستعيراً من القرآن نفس لفظه فى قوله جَلَّ وعز : (قل اللهم مالك الملك . . . بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل) . وفى البيت الثالث مضى ينظم قوله تعالى : (الله الذى رفع السموات بغير عَمَدٍ ترونها) . وخرج فى البيت الرابع من خَلْقه للكون إلى خلقه للإنسان واستمر ينظم مثل قوله جَلَّ وعز : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نُطْفةً فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة عَلَقَةً فخلقنا العلقة مُضْغَةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسنُ الخالقين) . وهو يمضى فيتحدث عن البعث والنشأة الثانية محذراً مخوفاً . وما يلبث أن يتحدث عن

---

(١) رغم الخد : كناية عن الذل .
(٢) اعترفوا الهون : عرفوه .
(٣) السدر والأراك : شجر لا ينتفع بثمره . الخمط : ثمر الأراك أو هو نبت مر .

القرون والأمم البائدة مكملا بذلك العظة والعبرة ، بالضبط على نحو ما نقرأ فى القرآن من حديث عما أصاب الأمم الباغية من هلاك ، وقد اقتبس منه ما جاء فيه عن دولة سبأ اقتباساً تتطابق فيه الألفاظ واقرأ قوله تعالى : (لقد كان لسَبَأٍ فى مَسْكَنِهِم آيةٌ جنَّتان عن يمين وشمال .. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ وبدَّلناهم بجنتيهم جنَّتين ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشىء من سِدْرٍ قليل ذلك جزيْنَاهم بما كفروا . . وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزَّقناهم كلَّ ممزَّق) ، فإنك تجده قد نظم الآيات الكريمة فى أبياته الثلاثة الأخيرة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح اتضاحاً لا لبس فيه أن أهل نجد والبوادى كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا فى الإسلام فقد تمثلوه وتألقت أضواؤه فى صدورهم وفى أشعارهم ، حتى لتتحول جوانب منها إلى مواعظ خالصة ينفِّرون فيها الناس من الدنيا ونعيمها الفانى ، حاثِّين لهم على التزود بالتقوى والعمل الصالح .

الفصل الخامس

النثر وتطوره

١

تطور الخطابة

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع فى الخطابة ، إذ اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة حيث ظــل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش وكلٍّ من يلقاه فى الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو فى أثناء ذلك يخطب فى الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، محاولا بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصوِّرلهم من قوة الكائن الأعلى مدبِّر الكون ومنظمه ، الذى لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه حق عبادته ، وليستشعروا كل ما يمكن من الكمالات الروحية والاجتماعية والإنسانية ، حتى تتم لهم السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، فاتصلت خطابته ، واتسعت جَنباتها ، بما أخذ يشرِّع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التى ينبغى أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون فى سبيل الحق والخير ، وهو فى تضاعيف ذلك يأخذهم بآداب رفيعة من السلوك السامى ، مبيناً لهم معانى الإسلام الروحية التى تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراءهذه الحياة حياة أخرى يحاسَبُ فيها الإنسان على ما قدَّمت يداه ولو كان مثقال ذرَّة . وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه ، واضعاً الحلول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حُلَّت بما يحقق سعادة الجنس البشرى وهناءته .

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول عليه السلام متممة للذكر الحكيم ، ومن ثَمَّ كانت فرضاً مكتوباً فى صلاة الجمع والأعياد ثم مواسم الحج ، وتحتفظ كتب الحديث بما اتخذه فيها من سنن وتقاليد[١] ثبتتْ إلى اليوم . وبينما كانت تسبق الخطابة الصلاة فى الجُمَع كانت الصلاة تسبقها فى الأعياد ، وهى تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو نَشَز من الأرض ، وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا ، ويُقْبل على الناس مسلِّماً . وتبدأ الخطبة الأولى فى الجُمَع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، ويُؤْثَر عن الرسول أنه كان يقول فى فاتحة هذه الخطبة : « الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضْلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »[٢] . وعادة يتلو الخطيب فى الخطبة الأولى لصلاة الجمعة بعض آى القرآن الكريم ، حتى يستلهمها فى موعظته . وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية ، وفيها يكثر من الدعاء ، ويقال إنه كان آخر دعاء أبى بكر فى الخطبة الثانية : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقائك » وكان آخر دعاء عمر : « اللهم لا تدعني فى غَمْرة ، ولا تأخذنى فى غِرَّة ، ولا تجعلنى مع الغافلين »[٣] . ولا تُفْتَتَحُ خطبتا العيدين بالحمد لله إنما تفتتح بالتكبير ، فيكبِّر الخطيب فى أولاهما سبع تكبيرات وفى ثانيتهما خمس تكبيرات .

وطبيعى أن تقضى هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام ، ولا نقصد سَجْع الكُهَّان الذى كان يرتبط بدينهم الوثنى فحسب ، بل نقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حين كانت تَفِدُ عليه وفود العرب ، على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عُطارِد بن حاجب بن زُرارة بين يديه مفاخراً بقومه ،

---

(١) انظر فى صلاة الجمع والعيدين كتب الحديث مثل صحيح البخارى ومسلم .

(٢) عيون الأخبار ٢/٢٣١ .

(٣) انظر العقد الفريد ٣/٢٢٢ .

وقد ندب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس، فرد عليه مستوحياً هدى الإسلام ، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله[١] .

ونمضى فى عصر الخلفاء الراشدين، فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التى تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء ، كموقف أبى بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السقيفة، فقد درأ فى الموقفين جميعاً الشعث الذى كاد يودى بالجماعة ، وكذلك موقفه حين ارتد كثير من العرب وامتنعوا عن أداء الزكاة . وكم من خطيب وقف حينذاك يحض قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة . ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام فى الجزيرة أعد منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد ، إذ كانت كما قدمنا فرضاً مكتوباً على المسلمين فى كل مكان يحلونه من الجزيرة .

ثم تكون الفتوح ، ويخطب أبو بكر فى الجيوش الغازية يحض على الجهاد ونشر الدين الحنيف فى أطباق الأرض . وترتفع أصوات القواد بالخطابة فى كل قطر حاثين الجنود على الصبر فى القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده ببيانه وبلاغته مالا تملكه الدنيا بحذافيرها . ولا نغلو إذا قلنا إن بلداً من بلدان الفرس فى العراق وإيران وبلدان الروم فى الشام ومصر لم يفتح إلا بعد أن فتحته خطبة أحد هؤلاء القواد ، كخطبة المغيرة بن شعبة فى القادسية[٢] وخالد بن الوليد فى اليرموك[٣] ، وعتبة بن غزوان فى فتح الأبلة ، ونحن نكتفى بقطعة من خطبة عتبة إذ يقول[٤] :

« أما بعد فإن الدنيا قد تولت حذاء[٥] مدبرة، وقد آذنت أهلها بصرم ، وإنما بقى منها صبابة كصبابة الإناء يصطبها[٦] صاحبها ، ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم » .

ويتولى عمر ، فيكثر من الخطابة لا فى الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث ، ومع كل خبر يأتيه بفتح . وقد سار على هدى أبى بكر

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٣٧٨ .
(٢) الطبرى ٣/٣٧ .
(٣) الطبرى ٢/٥٩٢ .
(٤) البيان والتبيين ٢/٥٧ .
(٥) حذاء : سريعة الإدبار .
(٦) يصطبها : يشربها . والصبابة . بقية الماء .

فى استشارة أصحابه فى كل مهمٍ ، وكل ما يجدّ من تشريع ، وخاصة فى معاملة الأمم المفتوحة . وكان هذا بدوره عاملا من عوامل نمو الخطابة فى العصر ، إذ كان الحكم ديمقراطيًّا ، وكان من حق كل شخص أن يخطب مصوِّراً وجهة نظره ، وفَسَحَ عمر لخطابة الوفود فى مجالسه ، تَسْتميح لأقوامها وتذكر حاجتها ، واشتهر الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد قواد الفتوح بخطبة ألقاها بين يديه(١) .

ولم تقف الخطابة الدينية فى هذا العصر عند الجزيرة ، فقد أخذت تحلّ مع المسلمين فى كل بلد فتحوها ، وكان هذا بدون شك عاملا من عوامل نموها ، إذ تكاثر من يردِّدونها ومن يحسنون حَوْكها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواعظ حسنة ، على نحو ما أُثر عن عبد الله بن مسعود فى إحدى مواعظه ، وفيها يقول لأهل الكوفة(٢) :

« أصدقُ الحديث كتابُ الله ، وأوثق العُرَى كلمة التقوى ، وخير الملل ملَّة إبراهيم ، وأحسن السُّنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرُّ الأمور مُحْدَثاتها ، وخير الأمور عزائمها ، ما قلَّ وكفى خير مما كثُر وألهى . . . خير الغنى غنى النفس . الخمر جُمَّاع الآثام . . . أعظم الخطايا اللسان الكذوب . سِباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . . . مكتوب فى ديوان المحسنين من عَفا عُفى عنه . السعيد من وُعظ بغيره ... أحسن الهَدْى هَدْى الأنبياء » .

وفى هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والحضِّ على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان ، حتى إذا أشعل الثوار عليه فى الكوفة ومصر نار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها ، إذ وقف أمثال الأشتر النخعى فى الكوفة ومحمد بن أبى بكر فى مصر يؤلبون الناس عليه . وتتوالى الحوادث ، ويُقْتَلُ عثمان ، ويتولَّى على بن أبى طالب مقاليد الخلافة ، وتجتمع السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ويقررون الخروج عليه . ويقصدون البصرة ، ويستجيب أهلها لهم . فيُضْطَرُّ على إلى أن يتبعهم ، وينزل الكوفة ، وتكون موقعة الجَمَل

(١) انظر البيان والتبيين ٢ / ١٤٤ .
(٢) البيان والتبيين ٢ / ٥٦ .

المشهورة ، وفيها ينتصر علىٌّ ، وتم له بيعة أهل العراق .

وقبيل هذه الموقعة وفى أثنائها تكثر الخطب بين أنصار على وخصومه ؛ فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته ، وفى تاريخ الطبرى من هذه الخطب كثرة وافرة ، وممن يذكرهم بين من ثبّطوا الناس عنه أبو موسى الأشعرى[١] ، أما من استنفروا الناس له فكثيرون ، وعلى رأسهم الأشعث ابن قيس والأشتر النخعى وزيد بن صُوحان وأخوه سَيْحان .

وانتدب علىٌّ أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام ، فخرجوا معه إلى صِفّين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده ، وفى هذه الأثناء تتكاثر الخطب كثرة مفرطة وخاصة فى صفوف على وأصحابه ، وكان هو نفسه خطيباً مفوّهاً . وكان بجيشه غيرُ خطيب من أمثال من ذكرناهم آنفاً وأمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عُبادة وعدى بن حاتم الطائى وعمرو بن الحمق وشبث بن ربْعِيٍّ . وقبل اندلاع الحرب كان يتبادل على ومعاوية الوفود ، وكان يخطب غير واحد بين أيديهما ، وعبثا تحاول الوفود لمّ الشعث ، ويُقْضَى الأمر ، وتنشب الحرب ويخطب معاوية محرضاً أصحابه . ومن رءوس خطبائه حينئذ عمرو بن العاص .

وتستعر المعركة وترجح كفة على وجيشه رجحاناً واضحاً ، فيلجأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة ، إذ يرفعون المصاحف على أسنّة رماحهم ، مطالبين بالاحتكام إلى كتاب الله على يد محكّمين يستهدون بآيه . ويُغْمِد القُرّاء فى جيش علىٍّ سيوفهم ، ويتبعهم الناس ، ويمانعهم على ، فيهددونه بأن يُصْبِح مصيره مصير عثمان ، وينزل على إرادتهم ، ويُخْتار أبو موسى الأشعرى عن أهل العراق وعمرو بن العاص عن أهل الشام . وفى أثناء رجوع على بجيوشه إلى الكوفة ، يتبين كثير من جنده أنهم قد خُدعوا ، ويتلوّمون عليًّا لأنه قبل التحكيم ، ويعظم الخلاف والشجار بين أصحابه ، ويخطب فيهم . ويتكاثر الخطباء بين محبِّذ للتحكيم ومنفِّر منه ، ويخرج عليه فريق كبير من جيشه وينزلون معسكراً خاصًّا بهم فى حَرَوراء بالقرب من الكوفة ، فيسمون لذلك بالحرورية ، أما الاسم الشامل الذى جمعهم فهو الخوارج .

---

(١) الطبرى ٣/٥٠١ .

ويحاول عليٌّ وعبد الله بن العباس أن يردّاهم إلى سواء السبيل، فتقوم بينهما وبينهم مناظرات فى مسألة التحكيم يكون عمادها الجدل المستمدّ من نصوص القرآن والحديث، وبذلك يَعْرف هذا العصر المناظرة الشفوية، بل إنها لتتفجّر تفجراً. ونحن نورد طرفاً من مناظرة ابن عباس لهم مما احتفظ به الطبرى، وهو يجرى على هذه الصورة[١]:

«راجعهم ابن عباس، فقال: ما نقمتم من الحكمين، وقد قال الله عزّ وجل: (إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما)[٢] فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم؟. فقالت الخوارج: قلنا أمّا ما جعل حُكْمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حكم فى الزانى بمائة جلدة وفى السارق بقطع يده، فليس للعباد أن ينظروا فى هذا. قال ابن عباس: فإن الله عز وجل يقول: (يَحْكُم به ذَوَا عدلٍ منكم»[٣]. فقالوا له: أو تجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين؟!. وقالت الخوارج: قلنا له: فهذه الآية بيننا وبينك، أعَدْلٌ عندك ابنُ العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حَرْبه، وقد حكّمتم فى أمر الله الرجال، وقد أمضى الله عزّ وجلّ حُكْمه فى معاوية وحِزْبه أن يُقْتَلُوا أو يرجعوا[٤] وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عزّ وجل فأبوه. ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً، وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة[٥]. وقد قطع عزّ وجلّ الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقرّ بالجزية».

ولما لم يسمع الخوارج ولم يطيعوا اضْطُرّ علىٌّ إلى حربهم، وفتك بهم فتكاً ذَريعاً فى موقعة النهروان. وكانوا يظهرون استبسالا شديداً، يدفعهم إلى ذلك

---

(١) الطبرى ٤٧/٤.

(٢) الآية فى الصلح بين الزوجين وتمامها: (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما).

(٣) الآية فى حكم قاتل الصيد وهو محرم، وتمامها: «يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم).

(٤) يشير الخوارج إلى قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل).

(٥) الاستفاضة: الموادعة.

خطباؤهم من أمثال قائدهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وحُرْقوص بن زهير السعدى والمُسْتورد بن عُلَّفة، ومن يرجع إلى خطبهم يجدها تتقد حماسة وحميَّة من مثل قول ابن وهب فى بعض خطبه[١] :

« أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويُنيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا — التى الرضا بها والركون إليها والإيثار إياها عناء وتَبار[٢] — آثرَ عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالحق وإن مُنَّ[٣] وضُرَّ، فإنه من يُمَنّ ويُضَرّ فى هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوانُ الله عز وجل والخلود فى جناته » .

وينتهى التحكيم بمهزلة خلع على ، وتمتد يد آثمة من أيدى الخوارج إليه فى الظلام ، فتطعنه طعنة نَجْلاء ، ويُسْلم الحسن ابنه الأمر راضياً إلى معاوية ، ويبايعه المسلمون كافة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح من كل ما قدمنا كيف نمت الخطابة فى هذا العصر نموًّا واسعاً، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية . وليس هذا كل ما يلاحَظ فيها ، فقد دارت حول معانى القرآن الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهى معان جديدة لم يكن للعربية بها عهد ، معانى هذا الدين الحنيف الذى بعث لغتنا ونَشَرَها بعثاً جديداً، والذى مرّنها وذلّلها لكى تؤدى الرسالة النبوية وكل ما تحمل من مواعظ وتعاليم . وقد أخذ كل خطيب يحمل قبساً من هذه التعاليم والمواعظ يستضىء به فى كل ما يخاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم وبلوغ ما يريد من أداء الخطبة الدينية الخالصة فى أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأختها التى تدعو إلى الجهاد والحضّ على قتال الأعداء . ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سُنَّة فى كل خطبة ، حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يُسَمّون كل خطبة تخلو منه بَتْراء ، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آى القرآن الكريم والصلاة على الرسول شَوْهاء[٤].

---

(١) الطبرى ٤/٥٤ .

(٢) تبار : هلاك .

(٣) من : قطع وهجر .

(٤) البيان والتبيين ٢/٦ .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزوّرون كلامهم ويُعدونه على أنفسهم إعداداً طويلا ، ثم يلقونه على الناس ، حتى لقد رُوِيَ ذلك عن عمر بن الخطاب [١] . وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال ، أو ببعض أبيات من الشعر تؤكد المعنى الذى يريد أن يصبّه فى نفوس سامعيه صبّاً ، على نحو ما نجد فى خطبة لأبى بكر فى الأنصار [٢] .

وإذا كنا قد لاحظنا فى الجزء الأول من هذا التأريخ للأدب العربى غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ فى هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة ، إلا بقايا ظلت فى خطابة الوفود حين كانت تَقْدُمُ على الخلفاء ، يقول الجاحظ : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة » [٣] ، وبقية أخرى استظهرها بعض المتنبئة فى حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ اليمامة ، ويقول الجاحظ إنه « عَدَا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه » [٤] . ومما يُرْوَى له — إن صَحَّ — قوله [٥] :

« سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره فى كل ما سَرَّ نفسه يجتمع ، رآكم ربكم فحيَّاكم ، ومن وحشة خَلاَّكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشرٍ أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكُبَّار ، رب الغيوم والأمطار » .

ونستطيع أن نقول إن السجع فى خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسجع فى خطابته ، وكان يَنْفِر منه حين يلهج به أحد محدثيه [٦] ، كراهية للتشبه بالكهّان فى سجعهم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلّة الصحابة ، يدلّ على ذلك ما يُرْوَى من أن عمر بن الخطاب سأل صحاراً العَبْدِى حين قدم عليه من غَزْوِ مُكْران الفارسية عن شأنها وشأن العرب هناك ، فأجابه : « أرضٌ سَهْلُها جَبَل ، وماؤها وشَل [٧]

(١) الطبرى ٢/٤٥٦ وقارن بكلمة لعثمان ابن عفان فى البيان والتبيين ١/٣٤٥ وعيون الأخبار ٢/٢٣٥ .

(٢) زهر الآداب ١/٣٢

(٣) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .

(٤) الحيوان ٤/٨٩ .

(٥) الطبرى ٢/٤٩٨ .

(٦) صحيح مسلم (طبع الآستانة) ٥/١١١ وموطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ٢/١٩٢ .

(٧) وشل : قليل .

وثمرها دَقَل (١) ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل وشرها طويل ، والكثير بها قليل . إن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قلّوا بها ضاعوا » . وقد أنكر عمر عليه هذا السجع فقال له : أسجّاع أنت أم مخبر (٢) . وكان الخلفاء بعد عمر يُنكرون السجع على محدِّثيهم . وأمامنا خطب القوم ، وهي تخلو خلوًّا تامًّا من السجع إلا ما جاء عفواً فى الحين البعيد بعد الحين . ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع فإنهم لم يهملوا جزالة اللفظ ورصانته ، بل لقد كان همّ كل خطيب أن يحسن قوله وأن يصوغه صياغة رائعة .

وأخرى تلاحَظُ على الخطابة فى هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية ، فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد ، ومن ثم كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لارابط بينها ، أما فى هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع واضح يجول فيه الخطيب ويصول ، إذ يحدِّث الناس واعظاً ، أو يعرض عليهم حدثاً محدداً من أحداث الإسلام ، بحيث نستطيع أن نقول إن الخطبة أصبحت ذات موضوع ، تلمّ بأطرافه وتفاصيله . وبذلك كله نهضت الخطابة ونهض معها النثر نهضة واسعة ، فقد أخذ الخطباء يوسِّعون طاقته بما يحمِّلونه من معانى الإسلام وما يبسطون فى هذه المعانى ويولِّدون ويفرِّعون . ونحن نقف قليلا عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التى وسَّعت جَنبات النثر وزادت فى معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب البلاغة الوافرة .

٢

خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم

على هدى القرآن الكريم كان محمد صلوات الله عليه يخطب فى العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية ، وقد أوتى من اللَّسَن

---

(١) دقل : ردىء . والبيان والتبيين ١ / ٢٨٥ .

(٢) انظر فى هذا الخبر الطبرى ٣/٢٥٧

والفصاحة ما ملك به أزمة القلوب ، وكأنما كانت المعانى والأساليب موقوفة بشخوصها بين يديه ، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتصغى له الأفئدة . وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قريش ومن يلقاه فى الأسواق كتاب الله حيناً ، وحيناً آخر كان يخطب فى نفس معانى القرآن المكية متحدثاً عن رسالته ، وداعياً إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيمن على الناس فى أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة ، ليجزى بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، حتى إذا انتقل إلى المدينة فرضت الخطابة — كما قدمنا — فى صلاة الجمع والأعياد ثم فى مواسم الحج . وكان ما يزال يخطب فى الأحداث التى تلم . وفى أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات[1] غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة ، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خطبه وعصر التدوين فضاعت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة .

وأكثر هذه البقايا مما خطب به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة ، وهو فيها يتطابق مع آى القرآن التى كانت تنزل عليه ، إذ نراه تارة واعظاً ، وتارة مشرعاً ، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع فى نسيج بلاغى رائع . ونحن نسوق أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس فى دخوله إليها صلاة الجمعة ، وهى تمضى على هذه الشاكلة[2] :

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً . وإن تقوى الله ، لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه ، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذى بينه وبين الله من

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٦٣ .

(٢) الطبرى ٢/١١٥ .

أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكنْ له ذكراً فى عاجل أمره وذُخْراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدَّم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . ويحذِّركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد . والذى صَدق قولُه ، وأنجز وعده لا خُلْفَ لذلك ، فإنه يقول عزَّ وجل : (ما يُبدَّل القول لدىَّ وما أنا بظلاَّم للعبيد) . فاتقوا الله فى عاجل آمركم وآجله ، فى السر والعلانية (ومن يتَّق الله يكفِّرْ عنه سيئاته ويُعْظم له أجراً) . ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله يوقِّى مقته ويوقِّى عقوبته ويوقِّى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرِّطوا فى جَنْب الله . قدعلمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحْسِنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجْتباكم)[1] وسماكم المسلمين (ليهلك من هلك عن بَيِّنة ويحيى من حَىَّ عن بينة) ولا قوة إلا بالله . فأكْثِروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم . فإنه من يُصْلح ما بينه وبين الله يَكْفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم » .

والخطبة موعظة رائعة ، يستهلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه أتمَّ نعمته على الناس بإرساله إليهم كى يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة وَيدْخلوا فى رعايته الإلهية ، فلا يعملوا عملا بدونه . ليترْكوا إذن الوراثة الضالة والوسط المشفى على الهلاك ويجتمعوا على هدى الله وتقواه ، وليستشعروه فى السر والعلانية فإنه يعلم خائنة الأعين وما يستكنّ فى الصدور ، وليقدّموا من خشيته وطاعته ما يكفِّرون به عن سيئاتهم وتبيضُ به وجوههم يوم الحساب حتى يدخلوا فى جنَّاته . إنه يوم ما بعده مستعتب ، فإما الجنة وشفيعها العمل الصالح ، وإما النار وبئس القرار . ويدفعهم دفعاً إلى الجهاد فى سبيل الله ونشر دعوة الحق والخير ، فقد اجتباهم واختارهم ليضطلعوا بأمانة الرسالة المحمدية ، ولينشروها فى أطراف الأرض . والرسول فى كل ذلك يستوحى القرآن وآياته ، وهى تقف

---

(١) اجتباكم : اختاركم .

منارات فى موعظته ، يستمد من إشعاعاتها ما يضىء به كلامه . بل إن وراء هذه المنارات منارات أخرى من هدى القرآن ، بحيث نستطيع أن نرد كل موعظته إلى ينابيع الضوء التى تفجرت منها ، إذ كانت تسيل فى نفسه ، بل كانت تشع بمعانى نورها ، كما يشع نور الشمس فى السماء . وكان أحياناً ينتقل فى سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلى تشريعات يتمّ بها قيام هذا المجتمع الإسلامى ويسود على كل ما حوله ، تشريعات قوامها مصلحة الجماعة وأن يعيش المسلم متعاوناً متضامناً فى سبيل الخير ، وهو خير تُطْبَعُ عليه الجنة بنعيمها الخالد ، خير يكفل سعادة البشرية ، ومن أروع ما يصور ذلك خطبته عليه السلام فى حِجَّة الوداع ، وهى تجرى على هذا النمط [١] :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يَهْدِ الله فلا مُضِلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم — عبادَ الله — بتقوى الله ، وأحثّكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير . أما بعد أيها الناس ! اسمعوا منى أبيِّنْ لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كَحُرْمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى الذى ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع [٢] ، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمى العباس ابن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دَم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السِّدانة [٣] والسِّقاية [٤] . والعَمْدُ قَوَدٌ [٥] ، وشِبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ! إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تَحْقِرون

---

(١) البيان والتبيين ٢/٣١ وانظر السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبى) ٤/٢٥٠ والعقد الفريد ٤/٥٧ .

(٢) موضوع : ساقط ومحرم .

(٣) السدانة : خدمة الكعبة .

(٤) السقاية : سقاية الحجاج .

(٥) العمد : القتل المتعمد . القود : قتل القاتل بمن قتل .

من أعمالكم . أيها الناس! (إنما النَّسيء(١) زيادةٌ فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرَّم الله فيحلّوا ما حرَّم الله). إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم) : ثلاثة متواليات وواحد فَرْدٌ . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جُمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرشكم غيركم ، ولا يُدْخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبيّنة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تَعْضلوهن(٢) وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح(٣) . فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عَوان(٤) ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحلّ لامرئ مسلم مالُ أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعُنَّ بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتابَ الله ، ألا هل بلّغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن ربّكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير . ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلّغ الشاهد الغائب . أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصيةٌ لوارث فى أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجَرُ(٥) ، من ادّعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ،

---

(١) النسيء : شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ، ويحلونه عاماً آخر إن أرادوا الإغارة ، فيقولون إنه بعد شهر صفر ويؤجلونه .

(٢) تعضلوهن : تضيقوا عليهن .

(٣) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .

(٤) عوان : جمع عانية وهى الأسيرة ، أى هن عندكم بمنزلة الأسيرات .

(٥) للفراش : أى لصاحبه ، وللعاهر الحجر : أى أن هذا مقضى به رغم أنفها أو اهله يشير إلى رجمها .

لا يُقْبَلُ منه صَرْف(١) ولا عَدْل(٢). والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ».

وواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكد يُلِمّ بالحمد لله والشهادة والوصية بالتقوى حتى انتقل يبيّن طائفة من التشريعات الإسلامية التي أقامها الدين الحنيف حدوداً بين حياة العرب في الجاهلية وحياتهم في الإسلام ، فقد كانوا مفككين متنافرين يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونهباً للأموال . وجمعهم الإسلام تحت لوائه في جماعة كبرى متآخية متناصرة لا يَبْغى بعضها على بعض . ولكي يقضي على كل سبب للحرب بينهم ردّ دمَ القتيل إلى الدولة فهي التي تعاقب عليه ، ولكي يستأصل هذا الداء دعا إلى التنازل عن حق الأخذ بالثأر القديم ، وحرَّم النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه العقوبة .

والرسول يفتتح في الخطبة أوامر الإسلام ونواهيه بإعلان أن دماء المسلمين وأموالهم حرام ، وأن على كل من كانت عنده أمانة أن يردّها على صاحبها ، وأن على كل مسلم أن يَرْعَى أخاه في ماله ، فلا يأخذ منه شيئاً إلا بالحق ، ومن ثم حَرَّم الرِّبا ، وبدأ بعشيرته وتاجرها الموسر العباس بن عبد المطلب فأسقط عن رقاب المدينين له رباه . وعلى نحو ما أسقط الربا أسقط دماء الجاهلية ، فليس لمسلم أن يثأر لقتيل له ، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . ولم يُبْقِ من مآثر الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج ، وأوجب في قتل العمد القَوَد ، ولكن الدولة هي التي تقوم به ، وبذلك قضى الإسلام على حروبهم الداخلية . وقد جعل في القتل شبه العمد مائة بعير . كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوئام .

ويحذّر الرسول من الشيطان وغواياته ، محرماً للتلاعب بالأشهر الحرم ، واضعاً تقويماً قمريًّا يتألف من اثني عشر شهراً ، منها أربعة حُرُمٌ : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . ويرفع من شأن المرأة ومعاني علاقاتها بزوجها ، فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفي الطرفين جميعاً يحفظ لها كرامتها كما يحفظ لزوجها نفس الكرامة ، داعياً إلى التعاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق وإحسان .

---

(١) صرف : توبة .　　(٢) العدل : الفدية .

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة ، فيقرر أن المؤمنين إخوة ، لكل منهم على صاحبه ما للأخ على أخيه من التآزر والتعاون والتحابّ ، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا سفك للدماء . وإنه لعهدٌ مَنْ نَقَضه عاد كافراً آثماً قلبه . لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابذ وتفاخر . فالناس جميعاً لآدم ، ولا عربى عَدنانى ولا عربى قحطانى ، بل لا عربى ولا أعجمى . فقد وُضعت موازين جديدة لحياة العرب ، فلم يعد التفاضل بالنسب والحسب ، إنما أصبح بالتقوى فهى معيار التفاضل . ويلفت الرسول سامعيه إلى ما قرّره القرآن فى الميراث وأنصبته . وأن للمورِّث أن يوصى بالثلث من ماله . ويُرْسِى قاعدة مهمة فى شرعية الأبناء ، وخاصة هؤلاء الذين تلدهم العواهر . فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم ، وقد لا ينسبونهم أبداً . فحرّم ذلك تحريماً باتًّا . وبذلك قضى على نبالة النسب من جهة الخئولة قضاء مبرماً .

وعلى هذا النحو كان الرسول صلوات الله عليه يبيِّن فى خطابته حدود الحياة الإسلامية وما ينبغى أن يأخذ به المسلم نفسه فى علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصغرى مع أسرته . فإن ترك ذلك فإلى وعظ المسلمين وما ينبغى أن يأخذوا أنفسهم به ، فى سلوكهم حتى تزكو نفوسهم ، وفى عبادتهم لربهم وتقواه حق التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة ، بل يتدرجوا فى مراقى الكمال الإنسانى .

وهذه الخطبة وسابقتها تصوران فى دقة حسن منطق الرسول فى خطابته ، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللونين جميعاً من الكلام لما يدلان عليه من التكلف ، وقد برّأه الله منه إذ يقول فى كتابه العزيز : قل يا محمد : (وما أنا من المتكلفين) . والذى لا شك فيه أنه كان يبلغ بعَفْوه وقُوَى فطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء . وقد وصف الجاحظ بلاغته فى خطابته أدق وصف ، فقال إنه : « جانب أصحاب التقعيب[1] ، واستعمل المبسوط فى موضع البَسْط والمقصور فى موضع القَصْر ، وهجر الغريبَ الوحشىّ ،

---

(١) التقعيب : التقعير وهو التكلم بأقصى قعر الفم .

ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشُيِّد بالتأييد ، ويُسِّر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلَّت له قَدَم ، ولا بارتْ له حجة ، ولم يَقُمْ له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلم القِصار ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفَلْج (١) إلا بالحق ، ولا يستعين بالخِلابة . . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبْيَن فى فَحْوى(٢) ، من كلامه صلى الله عليه وسلم »(٣) . ونضيف إلى الجاحظ أنه عليه السلام هو الذى فتق معانى هذه الخطابة الدينية التى لم يعرفها العرب قبله ، فهو الذى رَسَمها ، وفجَّر ينابيعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأنما احتشد الكلم بأزمَّته إليه ، ليختار منه أفصحه وأسلسه وأبينه فى الدلالة ، يسعفه فى ذلك ذوق مرهف وحِسٌّ دقيق نتبينهما فيما رُوِى عنه من قوله : « لا يقولنَّ أحدكم خَبُثَتْ نفسى ولكن ليقل : لَقِسَتْ نفسى »(٤) كراهية أن يضيف المسلم الطاهر إلى نفسه الخبث ، مما يدل على أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار البرىء من كل ما يُسْتَكره ، اللفظ الذى يحبَّب إلى النفوس لحلاوته وعذوبته وصفائه ونقائه .

٣

خطابة الخلفاء الراشدين

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فى الذروة من الفصاحة والبلاغة ؛ إذ سَرَى فى نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته ، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم .

---

(١) الفلج : الفوز .
(٢) فحوى : دلالة .
(٣) البيان والتبيين ٢ / ١٧ .
(٤) الحيوان ١ / ٣٣٥ ولقست النفس : غثت .

وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وكان أحبَّ رفيق إلى الرسول وألصقَ أصحابه به ، وقد نوَّه القرآن بذكره . فقال جلَّ شأنه : (فأمَّا من أعطى واتقى وصَدَّق بالحُسْنى فسنيسِّره لليسرى) ، وفيه نزلت آيات أخرى . وهو خير من يمثِّل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه ، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل ، بما استشعر من معانى الإسلام وقيمه الروحية . وقد أُثرت عنه خطب كثيرة . تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته فى الدين ويقظته وصدق حسِّه ، وأنه حقًّا كان أجدر أصحاب رسول الله بخلافته . فمن ذلك أنه — لما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطرب الناس وماجوا ، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب : إن الرسول لم يمت — أقبل فكشف عن وجهه ، فقبَّله ، وقال : بأبى أنت وأمى طِبْتَ حيًّا وطبت ميتاً . وخرج من عنده فبَدرَ الصحابة بخطبته المشهورة[1] التى قال فيها : « من كان يَعْبُد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حَىٌّ لا يموت » ثم أخذ فى بيان غلط من كذبوا موته محتجًّا عليهم بمثل قوله تعالى : (إنك ميِّتٌ وإنهم ميتون) ، وتلا : (وما محمد إلا رسول قد خَلَتْ من قبله الرسل أفإنْ مَات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم) ، ثم تلا : (كلُّ نفس ذائقة الموت) ، ثم تلا : (كلُّ شىء هالكٌ إلا وجهَه) . فثابَ من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدهم . ولم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عُبادة فى سَقيفة[2] بنى ساعدة ، يقولون : منا أمير ومن قريش أمير ، فراعه ذلك وخشى على الأمة من الفرقة والطمع فى الملك ، فبادر إليهم قبل أن يستفحل الشر . وتبعه عمر وأبو عبيدة فى نفر من المهاجرين . وهناك خطبَ فى الأنصار ، فأقنعهم أن يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له ، فخطب فى الناس بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه وقال[3] :

« أيها الناس ! إنى قد وليتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حقٍّ فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسدِّدونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا إن أقواكم عندى الضعيفُ حتى آخذ

---

(١) الطبرى ٢ / ٤٤٤ وزهر الآداب ١ / ٣٠ .

(٢) الطبرى ٢ / ٤٤٥ وما بعدها .

(٣) عيون الأخبار ٢ / ٢٣٤ والطبرى ٢ / ٤٥٠ .

الحق له ، وأضعفكم عند القوىُّ حتى آخذ الحق منه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

وأخذت تتجلّى مواقفه العظيمة ومآثره الكريمة . فإنه أمر أن يخرج بَعْثُ أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول . وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة ، ومشى إليه كثير من المهاجرين والأنصار ، يقولون له لا قِبَلَ لنا بحرب العرب ، فاقبل الصلاة منهم واترك الزكاة . فقال قوله المأثور : « لو منعونى عِقالا[1] مما أعطوه النبى لجاهدتهم عليه » . وجاهدهم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردّتهم . وإذا أخذنا نقرأ فى خطبه وجدنا جمهورها وعظاً يستمد مادته من القرآن وكلام الرسول ، على شاكلة قوله فى خطبة له[2] :

« إن الله عز وجل لا يَقبل من الأعمال إلا ما أُريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائب أدّيتموها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عبادَ الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبّارون ؟ . . أين الذين بنوا المدائن وحصّنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم فى ظلمات القبور ، هل تُحِسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم رِكْزاً[3] . . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره . واعلموا أنكم عبيد مَدينون ، وأن ما عنده لا يُدْرَكُ إلا بطاعته ، أما إنه لا خيرَ بخير بعده النار ، ولا شر بشرٍّ بعده الجنة » .

واستنّ بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة ، وهو فى وصاياه يَصْدر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية فى معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثّلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلّوا مالا إلا

---

(١) العقال هنا : كناية عن البعير .

(٢) الطبرى ٢ / ٤٦٠ .

(٣) الركز : الصوت الخفى .

لمأكلة ولا يتعرضوا لرهبان النصارى ، وتصوِّر ذلك كله وصيته لجيش أسامة بن زيد حين سيّره إلى مشارف الشام ، وفيها يقول[١] :

« أيها الناس! قِفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تَغُلُّوا[٢] ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تَعْقِروا[٣] نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وواضح مما تمثلنا به من خطابة أبى بكر أنه لم يكن يلهج بسجع ، إنما كان يلهج بكلم فصيح جزل واضح الدلالة عما فى نفسه . وكان يتخيّر لفظه ؛ وربما كان من الأدلة على ذلك ما يُرْوَى من أنه عرض لرجل معه ثوب ؛ فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله . فتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ إذ قد يُظَنّ أن النفى مسلط على الدعاء ، فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله »[٤] .

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختيارُه عمر خليفةً من بعده ، وكان على شاكلته نفاذَ بصيرة وصدقَ عزم وبلاغةَ لسان ، كما كان صفىَّ رسول الله . وقد أعزّ الله به الإسلام فى مكة حين أعلن ولاءه لرسوله ، وما زال منقطعاً إليه والرسول يقرّبه منه ويتخذه موضع مشورته ، حتى توفّى وخلَفه أبو بكر ، فكان له نعم الظّهير والمعين . ولما أُسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها فى رجاحة عقل ، حتى إن أحداً لم يردّ عليه رأياً واحداً ولا عملا واحداً ، وما زال يوطّىء الأمر بسعة حلم وشدّة عزم ، مجنداً للأجناد ، حتى فُتحت فارس وتَمّ فتح الشام وفُتحت مصر ، وهو على ذلك كله نعم الكالىء والحافظ لرعيته . وكان بيانه فى مقدار عقله قوةً وسداداً ، إذ كان فى مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضّاد من أى شِدْقيه شاء[٥] ؛ فما هو إلا

---

(١) الطبرى ٢/٤٦٣ .

(٢) تغلوا : تخونوا فى الفىء .

(٣) تعقروا : تستأصلوا وتقطعوا .

(٤) البيان والتبيين ١/٢٦١ .

(٥) البيان والتبيين ١/٦٢ .

أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم فى الجنود ناصحاً حتى يتهدر بكلامه، وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً ، ونحن نكتفى بقوله فى إحدى مواعظه[١] :

« إن الله سبحانه و بحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلقكم تبارك وتعالى، ولم تكونوا شيئاً، لنفسه وعبادته... وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة و باطنة ، وحملكم فى البر والبحر ، و رزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً و بصراً . ومن نعم الله عليكم نِعَمٌ عمَّ بها بنى آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم، ثم صارت تلك النعم خواصُّها وعوامُّها فى دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمةٌ وصلت إلى امرئ خاصةً إلا لو قُسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها ، وفدحهم حقُّها إلا بعون الله مع الإيمان بالله و رسوله ، فأنتم مُستَخلَفُون فى الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصرَ الله دينكم . . . والله المحمودُ مع الفتوح العظام فى كل بلد . . . فنسأل الله الذى لا إله إلا هو الذى أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته » .

وسار سيرة أبى بكر فى تشييع الجيوش بالخطابة محرِّضاً على الجهاد، حتى ينتشر الدين الحنيف فى أقطار الأرض ، وهو لن ينتشر إلا بالقوة التى تُعِزُّ الحق وتُعلى سلطانه . إنها معركة الإسلام ، معركة النفوس المؤمنة التى وعدها الله أن ترث الأرضَ ومن عليها . وما زال عمر يُبْرِز هذه المعانى محاولا أن يرتفع العرب فى جهادهم عن ضعف المخلوق ، و يصبحوا قوة من قوات الخالق ، يقول فى بعض هذه الخطب[٢] :

« أين الطُّرَّاء[٣] المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : (ليُظْهره على الدين كله) والله مظهرٌ دينه ، ومعزٌّ ناصره ، ومُولى أهله مواريثَ الأمم ، أين عباد الله الصالحون؟ » .

ولما اجتمع الجيش أمّر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد، وهو أبو عبيد بن مسعود ، وقال له : « اسمعْ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشْركهم

---

(١) الطبرى ٣/٢٨٣ .
(٢) الطبرى ٢/٦٣١ .
(٣) الطراء : الذين خرجوا عن ديارهم .

فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب، والحرب لا يُصْلحها إلا الرجل المَكيث[١] الذى يعرف الفرصة والكفّ » .

وتوفِّى عمر ، فخلفه عثمان ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبى بكر فى الفصاحة والبيان . ويُرْوَى أنه أُرْتج عليه يوماً وقد أراد الخطابة فى الناس فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يُعِدّان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوجُ منكم إلى إمام خطيب » . وليس معنى ذلك أنه كان يُرْتَجُ عليه دائماً ، فقد كان يخطب أحياناً ، فيملأ النفس بمواعظه ، على شاكلة قوله حين بايعه أهل الشورى والناس[٢] :

« إنكم فى دار قُلْعَة[٣] وفى بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتيتم ، صُبِّحتُم أو مُسِّيتم . ألا وإن الدنيا طُويت على الغرور ، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنّكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ثم جِدّوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغْفَلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعَمروها ومُتِّعوا بها طويلا ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا ، فقال عزّ وجل : (واضربْ لهم مثلَ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نباتُ الأرض ، فأصبح هَشيماً تَذْروه الرياح وكان الله على كلّ شيءٍ مُقْتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خير عند ربك ثواباً وخير أملا) » .

وامتُحن فى آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلو القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يُحْدثوا فَتْق هذه الفرقة ، وهو فى أثناء ذلك يعظهم أن لا تُبْطرهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقى على ما يفنى فيلزموا الجماعة ، ولا يتخاذلوا فيصبحوا أحزاباً .

وولىَ علىٌّ الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالناس ، وطلحة والزبير والسيدة عائشة يؤلِّبون عليه أهل البصرة ومعاوية يؤلب أهل الشام ، فاصطدم بهم جميعاً ، وانتقل إلى الكوفة يجمع الناس ويحاربهم .

---

(١) المكيث : الرزين المتبصر فى الأمور .
(٢) الطبرى ٣/٣٠٥ .
(٣) قلعة : انقلاع أى أنها لا تدوم .

وانتصر على الثلاثة الأولين ، ودخل مع معاوية فى حروب صِفِّين . ثم كانت خُدْعة التحكيم . وخرج عليه فريق من جيشه ، فاضطُرَّ إلى حربه ، وهو فى كل ذلك يخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر . وكان خطيباً مفوَّهاً لا يُشَقّ غُباره ، ومن مواعظه قوله(١) :

« إن الدنيا قد أدبرتْ وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطّلاع ، وإن المضمار(٢) اليوم والسباق غداً . ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يَضْرِره أمله ، ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله خسر عمله ، وضَرَّه أمله ، ألا فاعملوا لله فى الرغبة ، كما تعملون له فى الرَّهْبة ، ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ! »

وطبيعى أن تكثر خطبه فى حروب خصومه ، وقد ظل نحو أربع سنوات يجاهدهم ويخطب فى أصحابه حاثًّا لهم على الجهاد ، ومن قوله فى خطبة(٣) له بأخَرَةٍ من أيامه وقد تقاعس بعض جنده وأخذت جنود معاويةَ تغير على أطرافٍ العراقٍ .

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، ولزمه الصَّغار ، وسِيم الخسْفَ ، ومُنع النَّصَف(٤). ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهاراً وسرًّا وإعلاناً ، وقلت لكم : اغْزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غُزِى قوم قط فى عُقْر دارهم إلا ذلّوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، وثَقُل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيًّا ، حتى شُنَّت عليكم الغارات ... فيا عجبا من جدّ هؤلاء القوم فى باطلهم ، وفشلكم عن حقكم . . . حتى صرتم هدفاً يُرْمى وفَيْئاً يُنْتَهَبُ ، يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغْزَوْن ولا تَغْزُون . . قد وَرَيْتم(٥) صدرى غيظاً ، وجَرَّعتمونى الموت أنفاساً(٦) ، وأفسدتم علىَّ رأيى بالعصيان والخِذلان » .

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٥٢ .

(٢) المضمار : الزمن الذى تضمر فيه الخيل للسباق وكذلك الموضع .

(٣) البيان والتبيين ٢ / ٥٣ .

(٤) النصف : الإنصاف .

(٥) وريتم : ملأتم ، وأصله من ورى القيح جوفه إذا أكله .

(٦) الأنفاس : جمع نفس بالتحريك ، وهو الجرعة من الماء ونحوه .

وقد خلّف على خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً فى البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبرى . على أنه ينبغى أن نقف موقف الحذر مما يُنْسَبُ إليه من خطب فى الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فإن كثرته وُضعت عليه وضعاً . وقد تنبّه إلى ذلك السابقون[١] ، واختلفوا فى واضعها ، هل هو الشريف المرتضى أو الشريف الرضى ، وقد توفّى أولهما سنة ٤٣٦ للهجرة بينما توفى الثانى سنة ٤٠٦ . وممن يقول بأنه الشريف المرتضى الذهبى فى ميزان[٢] الاعتدال وابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان[٣] . وذهب النجاشى المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة فى كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى[٤] ، وأقرّ هو نفسه بذلك ، إذ ذكر فى الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذى ألفه وسمّاه باسمه : نهج البلاغة[٥] ، وذكر ذلك أيضاً فى كتابه « مجازات[٦] الآثار النبوية » . والمظنون أن الوضع على علىّ قديم . فقد ذكر المسعودى فى مروج الذهب أن له أربعمائة خطبة ونيفاً وثمانين يتداولها الناس[٧] .

ولعل فى ذلك ما يدلّ على وجوب التحرز والتثبت فيما يضاف إليه من خطب ، وأن لا نعوّل على شىء منها إلا إذا جاء فى المصادر القديمة التى أشرنا إليها . وإن ما جاء فيها لكاف فى تصوير قدرته الخطابية وإحسانه إحساناً كان يخلب ألباب سامعيه ويؤثر فى نفوسهم تأثيراً عميقاً .

وواضح من كل ما قد منا كيف ارتقت الخطابة فى هذا العصر ، وكيف تحولت إلى وعظ الناس وإرشادهم لما فيه كمالُهم وفلاحهم فى الدنيا والآخرة ، وقد أخذت ميادينها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، كما أخذت

---

(١) انظر ترجمة الشريف المرتضى فى ابن خلكان ، وراجع مرآة الجنان لليافعى ٣/٥٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٣/٢٥٧ .

(٢) ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو) ٢/٢٠١ .

(٣) لسان الميزان (طبعة حيدر آباد) ٤/٢٢٣ .

(٤) كتاب الرجال (طبعة بومباى) ص ١٩٢ ، ٢٨٣ .

(٥) الجزء الخامس من حقائق التنزيل للشريف الرضى (طبعة النجف) ص ١٦٧ .

(٦) مجازات الآثار النبوية (طبع بغداد) ص ٢٢ ، ٤١ .

(٧) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤/٤٤١ .

تتشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة ، منها ما يتصل بالجهاد والحرب ، ومنها ما يتصل بالمناظرة فى الآراء السياسية المتعارضة بين على وخصومه القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى . وهى فى كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعانى وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونق .

٤

الكتابة

نوّه الإسلام بالكتابة وفضّلها منذ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال جلّ شأنه : (اقرأْ باسم ربّك الذى خلق . خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربّك الأكرم الذى علّم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) . ومن تمام هذا التنويه القسم بالقلم فى قوله تعالى : (ن والقلم وما يسْطرون) وبالكتاب فى قوله سبحانه : (والطّور وكتاب مسطور فى رَقّ منشور) . وتتردّد فى القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف فى مثل قوله تبارك وتعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لوْح محفوظ) ، وقوله : (قُلْ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيسَ) وقوله : (رسولٌ من الله يتلو صُحُفاً مطهّرة) .

وعمل الرسول عليه السلام جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ، حتى لنراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرةً من صبيان المدينة[١] ، وقد حثّ القرآن على استخدامها فى المعاملات ، يقول عزّ سلطانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجلٍ مسمّى فاكتبوه وليكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدل ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتُبَ كما علّمه الله فليكتبْ وليُملِل الذى عليه الحقّ) . ومن غير شك كانت هى الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فقد كان الصحابة يكتبونه ، حتى يتحفّظوه .

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ١٤ .

وكان هناك جماعة من الكتّاب يكتبون آياته — كما قدّمنا — بين يدى الرسول من مثل عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأُبَىّ بن كعب وزيد ابن ثابت . وكان يكتب له فى حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية ابن أبى سفيان . وكان يكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير ، كما كان يكتب بينهم فى قبائلهم ومياههم عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عقبة الحَضْرمى . وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتّاب الرسول إذا غاب ، فغلب عليه لقبُ الكاتب[1] .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تُسْتَخْدم على نطاق واسع لا فى كتابة القرآن فحسب ، بل فى كتابة كل ما يهمُّ المسلمين فى معاملاتهم وعقودهم . وكان الرسول عليه السلام يستخدمها فى جميع مواثيقه وعهوده ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده ، وتكتظ كتب الحديث والتاريخ والأدب بهذه العهود والمواثيق ، سواء منها ما كان على لسان الرسول وما كان على لسان خلفائه . وقد استطاع محمد حميد الله الحيدر آبادى أن يجمع طائفة ضخمة منها سماها « مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة » وقد قدم لها ببحث عن مقدار الثقة بها ، وجمهورُها مما لا يَرْقى إليه الشك . وهى تفتتح بالكتاب الذى كتبه الرسول حين نزل المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود المقيمين بها . ونقف قليلا عند هذا الكتاب لنبين أهمية هذه الوثائق ومدى تطويرها للنثر الكتابى عند العرب ، فقد أخذ هذا النثر يحمل تشريع دولة الإسلام الجديدة وما يُطْوَى فيه من تعاليم الدين الحنيف وحدوده وفرائضه وأولُ ما يلقانا فى هذا الكتاب أن جميع أهل يثرب : « أمة واحدة من دون الناس » وهى أمة لا ترتبط بروابط النسب المعروفة فى القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين . وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يَبْغى عليها منها أو من غيرها ، وأن تكفل فى داخلها مبادئ السلام كما تكفل حماية الجار ونصرة المظلوم . ومن تبعها من غير دينها له النصرة والأسوة إلا من ظلم وأثم . وهى أمة

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ١٢ .

يعلوها سلطان الله الذى يُردّ إليه و إلى رسوله كل اختلاف وكل حدث أو اشتجار يُخاف شرُّه .

والكتاب بذلك كله يرينا تكوين الجماعة الإسلامية والعلاقات التى تربط بين أفرادها ، وهو يوضّح هذه العلاقات فى داخل العشائر كدفع الدِّية والولاء ، كما يوضح العلاقات بين أعضاء الجماعة الكبرى التى يُشْرف عليها الله ورسوله ، وهى علاقات وثّقها روابط الدين توثيقاً شديداً ، بحيث أصبح كل ما يدعو إلى اشتجار مردُّه إلى هذا الدستور الدينى الجديد ، الذى يُلْغى الفوارق القبلية ، ويقيم العدل والمساواة ، ولا يدع للناس حق الأخذ بالثأر ، بل يرده إلى الله ورسوله ، فلا ثأر يجر ثأراً بل عقاب عادل بالمثل فى القتل وغير القتل .

ونمضى فى تلك الوثائق فنقرأ المعاهدة التى كتبها الرسول بينه وبين قريش عام الحُدَيْبية[١] والتى نَصّت على وضْع الحرب عن الناس عشر سنين ، ذمة لا تنكث « وأنه من أحبّ أن يدخل فى عقْد محمد وعَهْده دخله ومن أحبّ أن يدخل فى عَقْد قريش وعَهْدهم دخل فيه » . ونقرأ بعد ذلك كتابه إلى يهود خيبر ثم قسمة أموالها . وتتوالى كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والتصديق برسالته ، وممن دعاه النجاشى ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس صاحب مصر . وكما يكتب إلى الملوك يكتب إلى أساقفة الشام وأمرائها وولاة شرقى الجزيرة من قِبل كسرى ، وكذلك جنوبيها . وقد يكتب إلى القبائل نفسها . وتلقانا معاهدته مع أهل نجران[٢] ، وفيها يبيّن ما عليهم من خراج ثم يقول : « ولنجران وحاشيتها جوارُ الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملّتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعِهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . ولا يُغيَّر أُسْقف من أسقفيّته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم دية ولا دم جاهلية .. . ومن سأل منهم حقًّا فبينهم النّصف غير ظالمين ولا مظلومين » . وعلى هدى هذا الكتاب كانت كتب أبى بكر وعمر التى كتباها إلى أهل البلاد المفتوحة . وتلقانا بعد ذلك عهوده إلى الأمراء الذين أبقاهم على إماراتهم فى

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٣ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٨٠ .

القبائل وفى اليمن ، كما تلقانا عهوده إلى من كان يـُرْسل بهم لتعليم الناس فى آفاق الجزيرة شئونَ دينهم ، وما ينبغى أن يأخذوه منهم من الزكاة ، وقد يرسل بذلك إلى بعض أمرائهم . ومن خير ما يصوِّر هذه العهود كتابه(١) إلى عامله باليمن ، وفيه يأمره بتقوى الله والأخذ بالحق وأن يعلِّم الناس القرآن ويفقههم فيه كما يعلمهم أوامر الدين ونواهيه وما فُرض عليهم من الحج إلى بيته المقدّس ومن الصلاة ، وإيتاء الصدقات ويرسم له حدودها على الزروع والثمار والأنعام والأغنام وأن من زاد خيراً فهو خير له .

وعلى هذا النحو اتسعت الكتابة على عهد الرسول ، إذ أصبحتْ تؤدِّى تعاليم الدين الحنيف ، وكل ما أقامه لصلاح الجماعة الإسلامية وسعادتها ، وكل ما فرضه من معان إنسانية فى معاملة من يدخلون فى لوائه وفى ذمة الله وعَقْده .

ويتولَّى أبو بكر الصديق مقاليد خلافة الرسول ، ويرتدُّ كثير من العرب ، فيجند لهم الجيوش ويبعث مع قادتها بكتاب مفتوح يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله وأن من استجاب وكفَّ وعمل صالحاً قُبِلَ منه وأُعين عليه ، ومن أبى فلن يُعْجز الله وقوتل حتى يُقرّ بالحق . وأتبع ذلك بعهد لأمراء الأجناد ضمَّنه نفس هذه المعانى وأن يستوصوا بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول . وما زال يتراسل معهم حتى رُئِبَ الصدع . وتتحول الأجناد بأمرائها إلى الفتوح ، فيكتب لهم ناصحاً على نحو ما كتب لخالد بن الوليد(٢) . وتلقانا له منذ هذا التاريخ كتابات وعهود مختلفة كان يرسل بها إلى رؤساء الأجناد فى البلاد المفتوحة . وكان آخر ما كتبه عهده لعمر ، وفيه يقول : « إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن برَّ وعَدَل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدَّل فلا علم لى بالغيب . والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أىَّ مُنْقلب ينقلبون » .

ووَلِىَ عمر ، فتمت فى عهده فتوح إيران والشام ومصر ، ومع كل بلد تُفْتَحُ كان أمراء الأجناد يكتبون لأهلها العقود والعهود ، وكان عمر لا ينى

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ١٠٤ .
(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٢٧ .

عن مراسلتهم فى كل ما يهمّ من الأمر ، سواء فيما يتصل بالحرب وتنظيم الجيوش أو فيما يتصل بمعاملة أهل البلاد المفتوحة وما يُعطَى لهم من عهود، وعهْده لأهل إيليا (بيت المقدس) الذى أشرنا إليه فى غير هذا الموضع مشهور، وفيه يقول[1] :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصُلْبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها: أنه لاتُسْكَن كنائسهم ولا تُهْدَم ولا يُنْتَقَص منها ولا من حيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دِينهم ولا يضارّ أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيليا أن يُعْطوا الجزية .. وعلى ما فى هذا الكتاب عهدُ الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » . وواضح أن عمر ترسَّم فى هذا العهد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى نَجْران . وعلى نحو ما كان يستلهم صنيع الرسول فى عهوده كان يستلهم وصاياه لولاته فى سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان ، ومن خير ما أُثر عنه فى هذا الجانب رسالته إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة ، وهى تمضى فى البيان والتبيين على هذا النحو[2] :

« بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسُنَّة متَّبعة ، فافهم إذا أُدْلى إليك، فإنه لاينفع تكلُّم بحق لانفاذ له . آسِ بين الناس فى مجلسك ووجهك، حتى لايطمع شريف فى حَيْفك ، ولا يخاف ضعيف من جَوْرك . البيِّنة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر. والصلحُ جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرَّم حلالا أو أحلَّ حراماً . ولا يمنعنَّك قضاءٌ قضيته بالأمس فراجعتَ فيه نفسك ، وهُديتَ فيه لرشدك ، أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعةُ الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهمَ الفهمَ عند ما يتلجلج فى صدرك ، مما لم يَبْلغك فى كتاب الله ولا فى سنة النبى صلى الله عليه وسلم . اعرفِ الأمثالَ والأشباه، وقِسِ الأمور عند ذلك، ثم اعمِدْ إلى أحبِّها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى. واجعلْ للمدعي حقًّا غائباً أو بينةً أمداً ينتهى إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجَّهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٦٨ .

(٢) البيان والتبيين ٢ /٤٨ وما بعدها .

وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر . المسلمون عُدولٌ بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حَدٍّ أو مجرَّباً عليه شهادة زور أو ظَنيناً[١] فى ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودَرأ عنكم بالبيِّنات والأيْمان . ثم إياك والقلقَ والضجر والتأذِّىَ بالناس والتنكرَ للخصوم فى مواطن الحق ، التى يُوجب الله بها الأجْرُ ، ويُحْسن بها الذُّخْر ، فإنه من يُخْلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه يَكْفِه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيَّن للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله سِتْره وأبدى فعله . والسلام عليك » .

والرسالة وثيقة مهمة فيما ينبغى أن يكون عليه الحاكم قاضياً أو غير قاض من الرفق برعيته ومعاملة جميع أفرادها على قدم المساواة . وعمر يضع فيها أسس النظر فى الادعاء وفى الصلح بين المتخاصمين ، ويفتح الباب واسعاً أمام من يقضى فى شأن من شئون الرعية ويتبين خطأ قضائه أن يرجع فيه . وما يلبث أن يضع للحاكم الأصول التى يصدر عنها فى أحكامه ، وهى الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما يُنير له الحكم اجتهد برأيه معتمداً على القياس . ويجعل للمدعى أمداً ينتهى إليه . ويقول إن الأصل فى المسلم أن يكون عدْلا ، إلا أن تَنْتفى عدالته فلا تصح شهادته . ويوضِّح للحاكم قاضياً أو غير قاض موقفه من الخصوم فلا يتأذَّى بهم ولا يتنكر لهم . وقد ترك وصية[٢] للخليفة من بعده تُعَدّ دستوراً رفيعاً للحكم ، سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغى أن يُؤْخَذوا به من الرفق .

وفى الحق أننا لا نصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسيًّا فى أعمال الدولة ، وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية فى الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمة فى الشعوب المفتوحة . وعمر فى ذلك كله يستلهم القرآن والسنة النبوية ، ويستشير أصحابه فى كل ما يأخذ من أمر ويَدع ، وهو فى ثنايا ذلك يجتهد ويفتح الباب لاجتهاد أصحابه . فإذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيت فى العصر رقيًّا بعيداً لم نكن مغالين . إذ وَسِعَتْ كل الحاجات السياسية التى جَدَّت ،

---

(١) ظنينا : متهماً .

(٢) البيان والتبيين ٢/٤٦ .

وكل ما أُعْطى للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق .

وقد مضى فاتحو الثغور فى عهد عثمان يكتبون عهودهم لمن يغلبون عليهم أو يدخلون فى طاعتهم دون حرب مقتدين بما رسمت العهود فى عهد عمر وأبى بكر ، وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاته فى الحرب والسلم . وخلفه علىٌّ فكثرت الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . ومن أهم ما كُتب حينئذ وثيقة[1] التحكيم بينه وبين معاوية .

وواضح من ذلك كله أن الكتابة تطورت تطوراً واسعاً فى هذا العصر ، فقد تعددت الموضوعات التى تناولتها والتى لم يكن للعرب بها عهد قبل الإسلام ورسالة صاحبه النبوية ، إذ أخذت تحمل مجموعَ النظم الجديدة التى قامت عليها دولة الإسلام العتيدة . وكان الرسول عليه السلام هو الذى ذللها لتحمل هذه النظم ، وخلفه عليها قواد الجيوش فى عهودهم للبلاد المفتوحة وخلفاؤه الذين فصّلوا هذه النظم وطابقوا بينها وبين حاجات المسلمين من جهة وحاجات من غلبوا عليهم من جهة أخرى ، ولعمرَ من بينهم فى ذلك القِدْحُ المعلَّى إذ ساعدتْ كتبه الكثيرة فى الفتوح وإلى الولاة على أن ينال النثر الكتابى كل ما كان ينتظره زمن الخلفاء الراشدين من تطور ونهوض .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٨١ .

الكتاب الثانى

فى عصر بنى أمية

الفصل الأول

مراكز الشعر الأموى

١

المدينة ومكة

لا نصل إلى عصر بنى أمية حتى تصبح المدينة ومكة مركزين مهمين من مراكز الشعر ، وحتى تتحضر تحضراً واسعاً ، وإذا كانت المدينة فقدت فى هذا العصر أهميتها السياسية ، إذ تحولت عنها الخلافة إلى الكوفة فى عهد على ثم إلى دمشق منذ معاوية فإنها ظلت تحتفظ بالتراث الدينى ، كما ظلت مستقراً لأكثر طوائف المجتمع العربى رقة ودماثة . وهيأت لذلك عوامل مختلفة من الثراء الواسع ومما دخلها من عناصر أجنبية كثيرة أسرعت بها إلى التحضر ، بل إلى الترف البالغ ، أما الثراء فمرجعه إلى ما خلفه فيها الصحابة الأولون لأبنائهم من أموال جلبوها من الفتوح ، فقد رجعوا إليها بحمول الذهب والفضة والجواهر ، وابتنوا القصور وبالغوا فى تجميلها وزخرفتها[١] ، وقام لهم على خدمة هذه القصور الرقيقُ الأجنبى الذى اجتلبوه ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، حتى ليُروى عن الزبير بن العوام مثلا أنه خلف وحده ألف عبد وأمة[٢] . ومنذ أن دون عمر الدواوين كان يُفرض لأهلها الأعطيات الكثيرة ، وكان الأمويون يُغدقون عليهم إغداقاً[٣] ، استرضاء لهم ، حتى يصرفوهم عن التفكير فى الخلافة .

كل ذلك أعد لأن تعيش المدينة فى هذا العصر عيشة دعة ، إلا فترة قصيرة هى الفترة التى انتقضت فيها على يزيد بن معاوية ، وقد دفعت ثمن هذا

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودى (طبعة باريس) ٤/٢٥٤ .

(٢) نفس المصدر ٤/٢٥٤ .

(٣) الفخرى ص ١٢٧ واليعقوبى ٢/٣٥٨ والأغانى ٧/٢٢ .

الانتقاض باهظاً فى موقعة الحرة سنة ٦٣ للهجرة ، وكأن ذلك كان سحابة عارضة فى سمائها لهذا العصر ، فبمجرد انقشاع تلك السحابة خلدت إلى صفو الحياة ونعيمها ، ولم يعكّر عليها هذا الصفو والنعيم شىء ، فقد تجنّبت السياسة ، ونقرأ فى أخبار أهلها فنجدهم ينعمون بألوان الطعام المختلفة[١] رافلين رجالا ونساء فى الثياب الحريرية[٢] وأنواع الطيب والعطور[٣] ، وبالغ النساء خاصة فى اتخاذ صنوف الحلى والجواهر[٤] .

وطبيعى أن يكثر فى هذا المجتمع المتحضر المترف الشبابُ العاطل الذى يريد أن يقطع أوقات فراغه الطويل فى لهو برىء ، وسرعان ما قدّم له الرقيق الأجنبى ما يريد من هذا اللهو ، إذ عُنى بالغناء عناية بالغة ، عناية استحدث فى أثنائها نظرية الغناء العربية التى نقرأ رُقمها فى كتاب الأغانى تالية للأصوات أو كما نقول اليوم الأدوار ، وقد جعلوها ستة ضروب ، هى الثقيل الأول والثقيل الثانى وخفيف الثقيل والرَّمَل وخفيف الرمل والهَزَج ، وميّزوا مَجْرَى الصوت فيها بحسب الأصابع ، فقالوا مثلا : ثقيل أول بالوسطى وخفيف ثقيل بالسبّابة وخفيف رمل بالبِنْصر .

واكتمالُ هذه النظرية على أيدى الرقيق الأجنبى يؤكد أنها تأثرت تأثراً واسعاً بألحان الروم والفرس ، وليست المسألة مسألة افتراض فإن كبار المغنين الأولين فى المدينة يُؤْثَرُ عنهم أنهم كانوا يغنون الغناء الفارسى بجانب غنائهم العربى[٥] ، وكان هناك من يَشْخَصُ إلى الشام فيتعلم ألحان الروم[٦] . على أنه ينبغى أن لا نظن من ذلك أن نظرية هذا الغناء العربى نُقلت نقلا عن الأجانب فقد تأثرت بغنائهم ، ولكنها استوت فى صورة عربية مستقلة . ومما يؤكد ذلك أن مصطلحاتها جميعاً عربية وأن من قاموا عليها من الرقيق الأجنبى وُلدوا فى بلاد العرب جميعاً ، ما عدا نشيطاً الفارسى . وكانت العادة أن يبدأوا

---

(١) ابن سعد (طبعة أوربا) ١٢٦/٤ .

(٢) ابن سعد ٣٥٢/٨ والأغانى ١٣/٦ والمعارف ص ٢٧٤ والأغانى ٣١٠/١ .

(٣) أغانى ٢٦٢/٩ .

(٤) ابن سعد ٣٤٣/٨ وأغانى ٢٧٣/٨ ، ٢٧٨ .

(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣٨/١ ، ٣٢١/٨ .

(٦) أغانى ٣٧٨/١ .

بالغناء العربى ، ثم يرحلوا إلى بلاد الفرس والروم فيأخذوا عنهما غناءهم ، ويُدْخلوا ألحانه فى غناء العرب . ومما يدل على ما نزعم أن أكثر الآلات الموسيقية التى يتردد ذكرها فى هذا العصر قديم مثل الصَّنْج والمِزْهر والقضيب والدفّ والطبل والمزمار ، وحتى آلات العود والطمبور عُرفت فى العصر الجاهلى .

على كل حال نهضت المدينة فى هذا العصر بفن الغناء نهضة واسعة ، وشاركتها فى ذلك مكة كما سنرى بعد قليل ، ولا نغلو إذا قلنا إن البلدتين جميعاً لم تُبْقيا إلا قليلا للعصور التالية كى تضيفه إلى نظريته التى استحدثتاها . وقد أقبل أهل المدينة على هذا الغناء إقبالا شديداً ، يشترك فى ذلك عامتهم وخاصتهم وعُبَّادهم وزهادهم[١] وقضاتهم[٢] ، حتى لتُؤْثَرُ عن عمر بن عبد العزيز أصوات تغنَّى بها فى إمارته لهم[٣] . وكان من أشرافهم مَنْ جعل داره أشبه بفندق للمغنين والمغنيات ، على نحو ما هو مأثور عن عبد الله بن جعفر وقَصْد الناس لداره يسمعون بها ألوان الغناء[٤] ، وقد تخرج فى هذه الدار كثيرون من المغنيات والمغنين المطربين .

ومن كبار المغنين الذين اشتهروا بالمدينة فى هذا العصر طُوَيْس وهو أول من تغنى بها الغناء المتقن[٥] وأول من صنع الهزَج والرَّمَل فى الإسلام[٦] ، وسائب خاثِر مولى ابن جعفر وهو ممن نقلوا ألحان الفرس إلى الغناء العربى[٧] ومَعْبد وهو إمامهم فى الغناء غير منازَع ، وابن عائشة ومالك الطائى وعطرَّد ويونس الكاتب ويُنْسَبُ إليه أول كتاب فى الغناء والأغانى ونِسْبتها إلى أصحابها . ومن أشهر المغنيات عزة المَيْلاء وجميلة وسَلاَّمة القَسّ وحَبابة وسلاَّمة الزرقاء .

ولعل من الطريف أن نعرف أنه كانت هناك دور مخصصة للسماع يفد عليها شباب المدينة كل ليلة ، وأشهر هذه الدور دار جميلة ، وكانت تكتظ

---

(١) أغانى ٢/٢٣٨ ، ٤/٢٢٢ ، ٨/٢٢٤ .
(٢) أغانى ٨/٢٧٧ .
(٣) أغانى ٩/٢٥٠ .
(٤) المسعودى ٥/٣٨٥ .
(٥) أغانى ٣/٢٩ .
(٦) أغانى ٤/٢١٩ .
(٧) أغانى ٨/٣٢١ .

بالمغنين والمغنيات ، ويعُدّ أبوالفرج منهم فى أغانيه عشرات[١] ، ويقص علينا أخباراً كثيرة عن هذه الدار ، نعرف منها ما أصاب الغناء فى المدينة من رقى وازدهار ، إذكانوا يتغنون الغناء المصحوب بالجوقات الكبيرة[٢] والآخر المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة[٣] . وكانت جميلة أحياناً تقوم باستعراض كبير يضم أشهر المغنين والمغنيات لا فى المدينة فقط ، بل أيضاً فى مكة[٤] ، ويُقال إنها أرادت الحج فخرجت فى مهرجان ضخم من المغنين والمغنيات ضَمّ نحو عشرين مغنياً وخمسين قينة[٥] .

وعلى هذا النحو عاشت المدينة فى هذا العصر لفن الغناء تنمّيه وترقيه ، ورقيُّه إنما هو رمز لما أصاب مجتمعها من تحول وتطور وتحضر ، ولما أخذ به من أسباب الرّفه والنعيم . وكان يلتقى فى هذا المجتمع كثير من الطفيليين وأصحاب الفكاهة والتنذير ، واشتهر من بينهم أشْعب ، وكان ماهراً فى إضحاك معاصريه لا بنكته ونوادره فحسب ، بل أيضاً بإشاراته وحركاته . وتَطْفح كتب الأدب بدعاباته وفكاهاته[٦] .

ولمع فى هذا المجتمع كثيرات من النساء قُدْنَ المرح فيه والظّرْف وعملن على تهذيب الأذواق ، نذكر من بينهن السيدة سُكَيْنة بنت الحسين ، وقد ترجم لها أبو الفرج فى أغانيه ترجمة[٧] ، صور فيها جمالها وبهاءها ووقارها وأخْذها بأسباب الزينة حتى إنها عُرفت بتصفيف لجُمّة شعرها كانت النساء يقلّدْنها فيه ، بل كان من الرجال من يحاكيها فى جُمّتها . وكانت ظريفة مزاحة ، وكثيراً ما كان يختلف إليها أشعب لإضحاكها . وكانت تَفْسحَ فى مجالسها للرجال وللمغنين والمغنيات وللشعراء ، وكثيراً ما كانت تفاضل بينهم .

نحن إذن بإزاء مجتمع متحضر اكتملت له كل الأسباب كى يمرح أهله مرحاً بريئاً ، مرحاً قوامه الغناء والدعابة والذوق الراقى المهذب . ولعلنا الآن نفهم

---

(١) أغانى ١٨٦/٨ وما بعدها .
(٢) أغانى ٢١٨/٨ ، ٢٢٧/٨ .
(٣) أغانى ٢٢٦/٨ .
(٤) أغانى ١٨٨/٨ ، ٢١١/٨ .
(٥) أغانى ٢٠٩/٨ .
(٦) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة الساسى) ٨٣/١٧ .
(٧) أغانى (طبعة الساسى) ١٥٧/١٤ وما بعدها .

حزن أبي قَطيفة الأموى على فراق هذا المجتمع حين نفاه ابن الزبير هو وغيره من الأمويين إلى دمشق ، فقد أخذ يبكى بلدته فى شعر مؤثّر ، مقارناً بينها وبين دمشق . ولانقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طُرد من فردوسه الأرضى ، يقول[١] :

القَصْرُ فالنَّخْلُ فالجَمَّاءُ بينهما ... أَشْهَى إلى القلب من أبواب جَيْرونِ

ويقول[٢] :

أقطعُ الليل كلَّه باكتئابٍ ... وزَفيرٍ فما أكاد أنامُ

إلى أشعار كثيرة[٣] تصور رقة حسه وحنينه بل لهفته على الحياة الهنيئة فى مسقط رأسه ، مما جعل ابن الزبير يعفو عنه ويأذن له فى الرجوع .

وفى هذا الجو الرقيق الذى زخر بالغناء والمرح نهض الشعر فى المدينة نهضة واسعة . وقد تعاونت على هذه النهضة عناصر كثيرة من الأنصار وممن هاجر إليهم من قريش وغيرهم وممن تعرَّب فى بلدتهم من الموالى وأبنائهم تعرباً تامًّا . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى كتاب الأغانى حيث يجد أبا الفرج يترجم لكثرة غامرة من شعراء المدينة لهذا العصر ، وممن ترجم له من الأنصار عبد الرحمن ابن حسان وابنه سعيد والنعمان بن بشير والسَّرِىّ بن عبد الرحمن والأحوص بن محمد ، وترجم من قريش لعبد الرحمن بن الحكم وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب وجعفر بن الزبير والحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وترجم من حلفائهم للفقيهين المشهورين عروة ابن أُذَيْنَة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ثم ابن أرْطاة وابن هَرْمة . وممن ترجم لهم من الموالى موسى شهوات وأخوه إسماعيل بن يسار النِّسائى ، وكان له ولدان شاعران هما محمد وإبراهيم . ووراء هؤلاء الشعراء كثيرون ذكرهم أبو الفرج عرضاً .

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١/١١ ، والقصر الذى عناه قصر سعيد بن العاص بالمدينة ، الجماء : أرض بها . جيرون : دمشق .

(٢) أغانى ١/٢٩ .

(٣) انظر ترجمته فى الأغانى ١/١٢ ومابعدها .

وإذا أخذنا نقرأ فى شعر هؤلاء الشعراء وجدنا جمهوره يَجْرى فى الحب والغزل ، وهو شيء طبيعى ، دفعت إليه حياة الشباب المترف فى المدينة ، كما دفع إليه فن الغناء الجديد . وحقًّا بقيت بقية من الهجاء عند عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسان ، إذ أدارا معركة هجاء عنيفة[١] ، ولكن هذه المعركة تنتهى بهما ، ولا تَبْقَى بعد ذلك إلا سهام ضئيلة تظهر من حين إلى حين . وبقيت بقية أوسع من المديح ، إذ كان بعض الشعراء يمدح بنى أمية طلبا لنوالهم ، على نحو ما نجد عند الأحوص[٢] وموسى شهوات[٣] ، وأخيه إسماعيل بن يسار[٤] . والمديح والهجاء جميعاً ليسا هما اللونين اللذين غلبا هناك على الشعر والشعراء . وفى الحق أن من يبحث عن هذين اللونين ينبغى أن يتجه ببصره إلى العراق أو إلى الشام ، أما فى المدينة فكانا يسقطان على هامش شعر الغزل الذى كان يتفق وترف البيئة والذى كان يطلبه المغنون والمغنيات ليضعوا فيه أغانيهم الجديدة . ومن ثَمَّ طُبع هذا الغزل بطوابع غنائية قوية ، إذ كان فى حقيقته أغانىَ تُصْحَبُ بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية . ونستطيع أن نلاحظ هذه الطوابع فى جوانب كثيرة من حيث الكمِّ ومن حيث الكَيْف ومن حيث الوزن ، فأما من حيث الكم فهو فى مجموعه مقطوعات لا قصائد طويلة ، وهو من حيث الكيف لا يقف عند الأطلال إلا نادراً إنما يقف عند حكاية الحب وتحليل خواطر الشاعر إزاءه ، أما من حيث الوزن فإن الشعراء مالوا — تحت تأثير الغناء — إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة حتى يتيحوا للمغنين والمغنيات أن يحمِّلوا شعرهم ما يريدون من ألحان وأنغام جديدة . وكثيراً ما نجد مغنياً يضع لحناً ويطلب إلى شاعرٍ أغْنيةً يوقِّعها عليه[٥] ، وكان بين الشعراء من يُحْسن وضع الألحان على شعره مثل عروة بن أُذَينة[٦] ولا نصل إلى أواخر العصر حتى نجد من بين المغنين والمغنيات من يحسن نظم الشعر مثل أبى سعيد مولى فائد وسَلاَّمة القَسّ ؛ وقد ترجم لهما صاحب الأغانى .

وإذا تركنا المدينة إلى مكة وجدناها تتطابق معها فى كل ما وصفناه من

---

(١) أغانى (ساسى) ١٣/١٤٤ .
(٢) أغانى (دار الكتب) ١/٢٩٧ و ٤/٢٤٨ .
(٣) أغانى ٣/٣٦٥ .
(٤) أغانى ٤/٤٠٨ .
(٥) أغانى ٢/٢٣٨ وطبعة الساسى ٢١/١٠٧ .
(٦) أغانى (ساسى) ٢١/١٠٩ .

مظاهر الحياة والحضارة وفن الغناء الجديد وما اتصل بذلك من شيوع شعر الحب والغزل. وكانت مثلها تغرق فى ثراء واسع ورثه الشباب عن آبائهم ، وقد ورثوا عنهم كثيراً ، ورثوا ما كان فى حجورهم من أموال التجارة فى العصر الجاهلى، ومعروف أن قوافل مكة كانت تحلُّ محل قناة السويس فى عصرنا ، إذ كانت تنقل السِّلَع بين حوض المحيط الهندى وحوض البحر المتوسط ، وانضافت إلى هذه الأموال أموال الفتوح الإسلامية وما فُرض لأهلها من أعطيات ورواتب فى دواوين الخلافة وما قَسَم فيهم الأمويون دائماً من أموال، وكان الحج يُفىء عليهم كل سنة بما يسدُّ خَلّة كل محتاج .

فمكة لم تكن تقلُّ فى هذا العصر ثراء عن المدينة، وهو ثراء استتبع بناء القصور المشيدة التى تختال جمالا وبهاء ، وقد بنى معاوية لنفسه فيها دوراً لُقِّبت « بالرُّقْط » لاختلاف ألوانها أحضَر لها بنَّائين من الفرس[١]، ومع ذلك كان إذا حج وقف مبهوتاً إزاء بعض قصورها الأخرى[٢]. ومعروف أنه اتسع فيها بناءُ القصور والدور اتساعاً كبيراً لعهد عبد الله بن الزبير حين اتخذها مقرًّا لخلافته[٣]. وقد عُنى كثير من الخلفاء ومن وُلاتها الذين أثْرَوْا فى الفتوح باستنباط العيون فيها وغَرْس النخيل والأشجار فى ضواحيها[٤] من ذلك ما يُرْوَى عن سليمان بن عبد الملك من أنه أراد أن يحج فكتب إلى خالد القسرى عامله عليها أن يُجْرِى له عينا إلى الكعبة من الماء العذب ، فصنع بركة فى أصل « ثَبير » بحجارة منقوشة ، وأسال منها الماء إلى المسجد الحرام فى قَصَب من رصاص انتهى بفوارة تسكب الماء فى نافورة رخام بين الركن وزمزم[٥].

ولم تَغْرق مكة فى دور وقصور وعيون فحسب، بل لقد أخذت تغرق إلى آذانها فى الترف والنعيم . فإذا نفر من أهلها يأكلون ويشربون فى صحاف الذهب والفضة[٦] ، ونفر يلبسون مقطعات الخزّ والسندس والديباج والحلل الموشاة

(١) أغانى ٣/٢٨١ .
(٢) أغانى ١/٢١١ .
(٣) الأزرق ١/٣٩٢ .
(٤) المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ١٦٤ و الأزرق ١/٤٤١ وما بعدها .
(٥) اليعقوبى (طبعة أوربا) ٢/٣٥١ .
(٦) أغانى ٥/٦٦ .

على كل لون[١] ، والطيبُ وأنواع العطور تفوح منهم[٢]. وبالغ النساء فى ذلك كله وفى اتخاذ الحلى وصنوف الجواهر[٣].

واكتظت مكة — كما اكتظت المدينة — بالرقيق الأجنبى الذى نهض بحاجات أهلها فى مطاعمهم ومشاربهم وتوفير كل أدوات ترفهم . وكان من أهم ما نهض به الرقيق فن الغناء ، ونحس ضرباً من التعاون الوثيق بين أصحاب هذا الفن فى مكة وأصحابه فى المدينة ، فهم دائماً يلتقون ، حتى ليخيَّل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلدتين ضاحية للأخرى . وكل مغن يحاول أن يبلغ من إتقان هذا الفن مبلغاً بعيداً يستهدى فيه ذوقه وما قد يكون عرفه من ألحان الفرس والروم ، ومن مقدَّميهم وكبارهم فى مكة ابن مِسْجح الذى اشتهر بأنه أول من غنَّى الغناء المتقن ، وأنه « نقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبَرْبطيَّة والأسطوخوسيَّة ، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلَّم الضرب ، ثم قدم إلى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبحه من النبرات التى هى موجودة فى نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنَّى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك ولحَّنه وتبعه الناس بعدُ »[٤] . وعن هذا الأستاذ المبدع أخذ المغنون والمغنيات فى مكة ، ومن أنبههم وأشهرهم ابن مُحْرز ، وهو أول من غنى الرَّمَل[٥] ، وابن سُرَيْج وقد رحل إلى المدينة فأخذ عن طُوَيْس وغيره من مغنيها[٦] ، وكان أول من ضرب على العود الفارسى بالغناء العربى ، والغَرِيض وكان لا يُلْحَق فى الندب والنياحة ، والأبْجر ، والهُذَلى . ومن مغنيات مكة سُمَيَّة ، و بَغُوم وأسماء وكانتا مولاتين لابن أبى ربيعة . ومكة إن لم تُعْرَفْ بدار كبيرة كدار جميلة فى المدينة فإن دار كل مغن فيها كانت تُعَدُّ نادياً من نوادى الغناء .

وعلى نحو ما رأينا أهل المدينة يُشْغَفون بالغناء شغفاً شديداً كان أهل

---

(١) أغانى ٥/ ٦٥ .
(٢) أغانى ٢/ ٣٩٩ ، ٣/ ٤٧ .
(٣) أغانى ٨/ ٢٧٣ ، ٨/ ٢٧٨ وانظر ابن سعد (طبعة أوربا) ٨/ ٣٤٣ .
(٤) أغانى ٣/ ٢٧٦ .
(٥) أغانى ١/ ٣٧٩ .
(٦) أغانى ٨/ ٣٢١ .

مكة جميعاً حتى فقهاؤهم من مثل عطاء[١] بن أبى رباح وابن[٢] جُرَيْج وقضاتهم من مثل الأوْقَص[٣] المخزومى . وتبعت ذلك موجة واسعة من المرح ، ومن خير من يمثلها شاعر يسمى الدارمى ، كان خفيف الروح ، وفى كتاب الأغانى ترجمة[٤] طريفة له تصور فكاهاته ودعاباته . واشتهر فى هذا المجتمع المرح فتيات وسيدات شريفات كان لهن أثر بالغ فى رقة الأذواق ورهافة الأحاسيس، مثل الثُّرَيَّا[٥] بنت على بن عبد الله بن الحارث الأموية ، وكان لها قصر عظيم تُعْقَدُ فيه ندوات يؤمها المغنون والشعراء ، غير من كانوا فيها فعلا ، إذ كانت الثريا مولاةً للغَرِيض ويحيى قَيْل وسميَّة .

ومعنى ذلك كله أن مجتمع مكة كان على غِرار مجتمع المدينة حضارة وترفاً ومرحاً ورقة وغناء وعزفاً كلَّ ليلة على أوتار العيدان والطنابير والآلات الموسيقية من كل لون . وأعدَّ هذا كله شعراء مكة لأن يجرى جمهور شعرهم فى الغزل والحب ، وربما كان أهم شاعر مكىّ تعلق بالهجاء والمديح عبيد الله ابن قيس الرقيات، إذ اتخذه مصعب بن الزبير فى أثناء ولايته على العراق شاعره الذى ينافح عن دعوة الزبيريين ضد بنى أمية . وبعد أن صار الأمر إلى عبد الملك أصبح من مدّاحيه ومداحى أخيه عبد العزيز والى مصر . ولكنْ حتى ابن قيس أكثر شعره فى الغزل ، وعلى غراره العَرْجى . على أن هناك من عاشوا للغزل وحده حتى فاقوا فيه شعراء المدينة على نحو ما هو معروف عن عمر بن أبى ربيعة ، ومن طريف ما كانوا يقولون عنه وعن تأثير غزله : « إذا أعجزك أن تُطْرب القرشىّ فغنِّه غناء ابن سُرَيْج فى شعر عمر بن أبى ربيعة فإنك تُرْقصه[٦] » .

وكلُّ ما قلناه عن تأثر غزل أهل المدينة بالغناء من حيث الكم والكيف والوزن ينصبُّ انصباباً على غزل أهل مكة ، وقد شاع بين الباحثين أن غزل المدينتين جميعاً فى هذا العصر غَلَب عليه الطابع المادى الصريح ، بل لقد

---

(١) أغانى ٢٥٧/١ .

(٢) أغانى ٤٠٨/١ .

(٣) أغانى ٣٦٧/٢ .

(٤) أغانى ٤٥/٣ .

(٥) أغانى ١٢٢/١ ، ٢٠٩/١ ومابعدها وفى مواضع متفرقة .

(٦) أغانى ٢٨٤/١ .

استولى عليه استيلاء بحكم ما أُتيح للمجتمع فيهما من ترف ومن حرية . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ذلك فنظن أن الشعراء تمادوا في صراحتهم إلى حد الإفحاش ، فالصراحة شيء والفحش شيء آخر . ومن المؤكد أن غزل مكة عند عمر بن أبي ربيعة وأضرابه أقل صراحة وحرية من غزل المدينة عند الأحوص وأقرانه، إذ كانت موجة اللهو في المدينة أكثر حِدَّةً . وينبغي أن نلاحظ أن هذا الغزل الصريح عند الأحوص وعمر ونُظَرائهما كان يرافقه غزل عفيف عند الفقهاء والزهاد من أمثال عروة بن أذَيْنة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة في المدينة وعبد الرحمن بن أبي عمار الجُشَمي في مكة ، وغزلهم جميعاً يمتاز بالنقاء والطهارة وسمو العاطفة .

ومما لا شك فيه أنه كانت تسقط من غناء المدينتين الكبيرتين بالحجاز وما شاع فيهما من غزل آثار مختلفة في بقية مدن الحجاز ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن العَرْجي الشاعر المكي من أنه كان ينزل كثيراً في أودية الطائف ، وكان يلزمه مغن يسمى الفِنْد[1] . ويلقانا هناك شاعران كلفا بالغزل هما محمد بن عبد الله النميري ويزيد بن ضَبَّة . ويذكر أبو الفرج أن المغنين في وادي القرى كانوا يفدون على مكة يتعلمون فيها الضرب والغناء والعزف ، ومن أشهرهم عمر[2] الوادي .

٢

نجد وبوادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال

إذا كنا لاحظنا تحضر مدن الحجاز وخاصة المدينة ومكة فإن نجدا وبوادي الحجاز قلما سقط فيهما من الحضارة شيء ذو بال ، إذ استمرت القبائل فيهما تعيش على الرَّعْي وطلب الكلأ ، فهي تعيش — كأسلافها في الجاهلية — معيشة متبدية فيها غير قليل من الشَّظَف .

وفي هذه المعيشة ظلت المنافسات القبلية على المراعي ، وظل تربُّص القبائل

---

(١) أغاني ٣٩٣/١ .
(٢) أغاني ٨٥/٧ .

بعضها ببعض ، وإن كان من المحقق أن ذلك لم يأخذ الشكل الحادّ الذى كان عليه القوم فى الجاهلية ، بسبب نَهْى الإسلام عن الأخذ بالثأر وتحوُّل حقه من أيدى الأفراد إلى أيدى الدولة ، وكان ولاة بنى أمية فى نجد وبوادى الحجاز يقظين ، وكانوا إذا تفاقم الشر من بعض الأفراد زَجّوا به فى السجون . غير أن بقية من الشر والشِّجار بقيت ، وهى بقية استتبعت ظهور بعض قُطّاع الطرق من أمثال طَهْمان[1] بن عمرو الكلابى الشاعر ، كما استتبعت غير قليل من شعر الفخر والهجاء ، على نحو ما نجد فى مهاجاة[2] شبيب بن البَرْصاء الذُّبْيانى لعقيل بن عُلَّفة وأرْطاة بين سُهَيَّة ، ومهاجاة[3] ابن مَيَّادة الذبيانى للحكم الخُضْرى .

ودفع شظف المعيشة فى هذه البيئة البدوية كثيرين من شعرائها للوفود على الخلفاء فى دمشق والولاة فى مكة والمدينة والكوفة والبصرة يطلبون نوالهم ، ومن ثَمّ كانوا يترددون بين البدو والحضر . ولا نُبْعد إذا قلنا إن شعراء شرقىّ الجزيرة من ربيعة وتميم وعبد القيس كانوا دائمى الارتحال إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد وكان منهم من تَقْذف به رحلاته إلى خراسان .

ومرّ بنا أن كثيراً من العرب المتبدين ارتدّوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعوا الزكاة ، وقد قضى أبو بكر على هذه الرِّدّة ، واستجابت الجزيرة لهذا الغرض الدينى راضية مرضية . ويظهر أن بعض عُمّال الصدقات كان يقسو فى جمعها على العرب أحياناً ، ومن ثم ارتفعت أصوات فى هذا العصر الأموى تشكو منهم شكوى مرة[4] .

ولا بد أن نلاحظ أن نشاط الشعر فى نجد وبوادى الحجاز لهذا العصر كان أقل مما كان عليه فى الجاهلية ، بسبب ما قدمنا من إماتة الإسلام لفكرة الأخذ بالثأر التى سَعّرت الشعر والشعراء قديماً وما انطوى فيها من عصبيات ، وحقًّا هو لم يُمت ذلك نهائيًّا ولكنه قلل من حدّته . ومن أسباب ضعف نشاط الشعر أيضاً كثرة من هاجروا فى الفتوح شرقاً وغرباً ، إذ كانت عشائر ترحل

---

(١) انظره فى أخبار اللصوص للسكرى ١٠٠ .

(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ١٢ / ٢٧١ وما بعدها .

(٣) أغانى ٢ / ٢٩٨ .

(٤) انظر جمهرة أشعار العرب (طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٠٥ .

بِرُمَّتها . على أن هذا أحدث حزناً فى نفوس كثيرين سبق أن وصفناه فى عصر صدر الإسلام .

ضَعُفَ نشاط الشعر إذن فى هذه البيئة البدوية ، ولكنه إذا كان ضعف فى مجال الفخر والهجاء فإنه قوى قوة واسعة فى مجال الغزل ، إذ تكاثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثرت قصصه الغرامية، وخاصة فى بنى عُذْرة وبنى عامر . وقد ترجم أبو الفرج فى أغانيه لكثيرين منهم مثل جميل وعُرْوة بن حزام وقيس ابن ذَريح ، ووقف طويلا عند مجنون ليلى وشكَّ فى حقيقته ، وهو يصوِّر بما يضاف إليه من قصص كثير كيف أصبح هذا الغزل شعبيًّا ، وكأن عرب نجد وبوادى الحجاز أفرغوا فيه وفى أفراده صور البطولة التى فقدوها فى حياتهم الإسلامية بسبب خمود حروبهم الداخلية .

وغزل هؤلاء النجديين من أروع صور الغزل العربى ، لما أشاعوا فيه من نبل وسمو وطهارة ونقاء . وعادةً ينسبه الأدباء والمؤرخون إلى بنى عُذْرة ، لكثرة ما أنتجتْ فيه ، فيقولون غزل عُذْرى وهو غزل يمسح عليه الإسلام وما أحاط به المرأةَ من جلال ووقار وما حرَّم من الآثام ظاهرةً وباطنة . وكان مما ساعد عليه شعور الحزن الذى وصفناه فى غير هذا الموضع والذى كان يجلل أطراف الجزيرة لمن هاجروا منها عن عشائرهم وأهليهم ، ودائماً يُصَفِّى الحزن النفس وينقيها ويعدُّها حين تتحدث عن الحب أن تَشْجَى حقًّا وأن تؤثر فى النفوس تأثيراً بالغاً .

وإذا تركنا نجداً وبوادى الحجاز إلى أطراف الجزيرة الشمالية على حدود الشام والجزيرة وجدنا كثيراً من عشائر قيس وبطونها وخاصة من كلاب وعامر وسُلَيْم تنزح إلى الشمال فتزاحم قبيلة كلب وأخواتها اليمنية فى الشام وقبيلة تغلب فى الجزيرة . ويكون ذلك سبب خصام قبلى واسع ، تصطدم فيه المصالح الاقتصادية فى الرَّعْى وغير الرعى كما تصطدم المصالح السياسية ، فقد كانت كلب وأخواتها اليمنية مواليةً لبنى أمية ، وكذلك كانت تغلب ، فكان طبيعيًّا أن تقف قيس فى الصفوف المعادية حين تواتيها الفرصة . ولم تلبث الفرصة أن سَنَحت حين بدا انهيار بنى أمية عقب وفاة يزيد بن معاوية ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة ،

وسرعان ما حَطَبَت قيس فى حَبْله ، معلنة ثورتها على الأمويين تحت إمرة الضحاك بن قيس فى الشام وزُفَر بن الحارث الكلابى فى قرقيسيا بالجزيرة . وتوالت الأحداث واتفق الأمويون وقبيلة كلب بزعامة ابن بَحْدل على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة . وثارت قيسُ الشام ، وأوقعتْ بها كلب وقبائل قضاعة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة ساحقة فى مَرْج راهط ، قُتل فيها الضحاك بن قيس . وتمت البيعة لمروان فى الشام ، وتبعته مصر . غير أن قيسَ الجزيرةِ ثبتت على موقفها بقيادة زفر بن الحارث وانضم إليه عُمَيْر بن الُحباب السُّلمى ، وأخذ عمير يغير غارات كثيرة على كلب فى أيام متعاقبة مثل : يوم الغُوَير ويوم الهيل ويوم كآبة ويوم الإكليل ويوم السماوة ويوم دهمان[١] . ووالت قيس غاراتها على تغلب ، ونكَّل بها عمير فى غير موقعة ، وخاصة يوم ماكِسين[٢] وكان بين مَنْ أسرته قيس فيه القطامى ، فلما عرفه زفر خلَّى سبيله ، وأعطاه مائة من الإبل ، مما جعل القطامى ينوه بمأثرته عليه طويلا[٣] ، وتمضى فإذا تغلب تقتل عميراً سنة ٧٠ فى إحدى غاراته عليها بالحشَّاك إلى جانب نهير الثرثار . ويثأر له زفر فى موقعة مَرْج الكُحَيْل حيث فتك بتغلب فتكاً ذريعاً .

وكان يكفُّ عبد الملك فى هذه الأثناء يَده عن قيسِ الجزيرةِ رجاء أن تتحول إليه ، وكان الصراع مندلعاً بين المختار الثقفى ومعه أهل الكوفة وبين مصعب بن الزبير ومعه أهل البصرة ، فرأى عبدالملك أن ينتظر رجاءَ أن يُفْنى بعضهم بعضاً ، وانتصر مصعب . ولم يعاجله عبد الملك بالهجوم ، ونراه يفلح فى جَذْب زفر إليه ، حتى إذا أصبح طريقه آمنا اقتحم بجيوشه العراق وقتل مصعبا سنة ٧١ للهجرة وأرسل الحجاج إلى عبد الله بن الزبير بمكة فقضى عليه . وبذلك أُنْقذت تغلب من مخالب قيس ، غير أن بقية بقيت لهذه الحروب الدامية إذ تصادف أن الأخطل دخل على عبدالملك وعنده الجحَّاف بن حكيم السُّلَمىّ فسأله عبد الملك هل يعرفه ؟ فقال : نعم هذا الذى أقول فيه :

ألا سائلِ الجحَّافَ هل هو ثائرٌ ... بقتلى أُصيبتْ من سُلَيْمٍ وعامرِ[٤]

---

(١) انظر الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/١٢١ وما بعدها .

(٢) أغانى ٢٠/١٢٧ .

(٣) أغانى ٢٠/١٢٨ .

(٤) يريد الأخطل اليوم الذى قتلت فيه بنو تغلب عمير بن الحباب السلمى .

وكان الجحّاف ممن فتكوا بتغلب تحت لواء عمير بن الُحباب . وقد ظل يموج به الغضب والأخطل ينشد قصيدته حتى إذا فرغ منها أجابه :

نَعَمْ سوف نبكيهم بكل مهنَّـــدٍ ونبكى عُمَيْرًا بالرماح الخواطِرِ (١)

ومضى الجحاف، فأغار بقومه بنى سُلَيْم سنة ٧٣ على تغلب عند موضع يسمى البِشْر، فنكَّل بها تنكيلا فظيعاً، إذ قتل رجالهم ونساءهم وبَقَر بطون حواملهم ، وكان ممن قتله ابن للأخطل . أما الأخطل نفسه فوقع أسيراً ، غير أنه موَّه على بنى سُليم حقيقته وقال : إنه من عبيد تغلب ، فأطلقوه وهم لا يعرفونه . ولما رأى الجحاف أنه خرج بذلك على ميثاقه لعبد الملك لحق بأرض الروم خوفاً منه ، ولكن قيساً ما زالت تتوسل إلى عبد الملك أن يعفو عنه حتى أمَّنه ، غير أنه ألزمه أن يدفع ديات قتلى البِشْر فلجأ إلى الحجاج فأداها له ، وتألَّه الجحّاف بعد ذلك ونَسَك (٢) .

وإنما سقنا هذه الأحداث ، لأن العصبية الجاهلية عادت فيها جَذَعة بين قيس من جهة وكلب وتغلب من جهة أخرى وعاد معها الثأر ، حتى أصبح فوق كل شيء ، وحتى أصبحنا نسمع فى كل مكان النار ولا العار ، واشتطّوا فى القتل وسفك الدماء اشتطاطاً ، إذ بقروا بطون الحوامل وقتلوا النساء .

وعودةُ العصبية القبلية على هذا النحو هيأت فى قوة لعودة أشعار الفخر والهجاء ، ففى كل جانب يتصايح الشعراء منذرين خصومهم بالوَيْل والثبور ، ويفيض الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى بأشعارهم ، ونجد من ذلك آثاراً فى الطبرى يُنْشدها مع الأحداث فى موقعة مرج راهط (٣) وغيرها ، وآثاراً أخرى كثيرة فى كتاب الأغانى (٤) ، فقد تراصّ شعراء كلب من أمثال جَوّاس ابن القَعْطل وعمرو بن الخَلاة ومنذر بن حسان وشعراء تغلب وعلى رأسهم الأخطل ، كما تراصّ شعراء قيس وعلى رأسهم زفر بن الحارث وعمير بن الحباب وجَهْم

(١) خطر الرمح : اهتز فى يد فارسه .
(٢) أغانى ١٢/١٩٨ وما بعدها .
(٣) الطبرى ٤/٤١٨ .
(٤) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢/١٩٨ وما بعدها و (طبعة الساسى) ١٧/١١١ وما بعدها ، ٢٠/١٢١ وما بعدها .

القشيرى وابن الصفّار المحاربى . وأخذ كل فريق يَريش سهامه من الوعيد والتّهديد والتخويف الشديد . فالتّهب الهجاء والفخر التّهابا .

ومضى كثير من شعراء القبائل فى هذه الأنحاء بعد أن عاد السلام إلى نصابه يمدحون الخلفاء والولاة طلباً للنوال ، يتقدمهم فى ذلك الأخطل والقطامى وأعشى تغلب وأعشى بنى شيبان ونابغتهم . وكما كانوا يقصدون الولاة والخلفاء كانوا يقصدون الأجواد من الأمويين وغيرهم .

٣

الكوفة والبصرة

لما أقبل العرب من الجزيرة على العراق يفتحون وينشرون الإسلام واتسعت بهم الفتوح لعهد عمر بن الخطاب رأى أن لا يتخذوا المدن القديمة منازل لهم حتّى لا يتلاشوا فيها ، وأمر بثاقب بصيرته أن يُبْنَى لهم معسكران على حدود الجزيرة الشرقية ، حتى يظل اتصالهم بالجزيرة ، وحتّى لا ينساحوا فى البلاد المفتوحة . وهذان المعسكران اللذان كانا مادة الجيوش المحاربة فى عصر صدر الإسلام والعصر الأموى جميعاً سواء فى فارس أو فى خراسان هما الكوفة والبصرة .

وقد خُطِّطت الكوفة فى سنة سبع عشرة للهجرة ، ونزلت القبائل اليمنية فى شرقيِّها والعدنانية فى غربيها ، ولم تلبث أن حُشِدَت حسب أنسابها فى سبع خطط ، خطة أو سُبْع لكنانة وحلفائها وجَديلة ، وخطة أو سبع لقضاعة وغَسَّان وبَجيلة وخَثْعم وكِنْدة وحضرموت والأزد ، وخطة أو سبع لمذْحج وحمير وَهمْدان وحلفائهم ، وخطة أوسبع لتميم وسائر الرِّباب وهوازن ، وخطة أوسبع لأسد وغطفان ومحارب والنَّمِر وضبيعة وتَغْلب ، وخطة أو سبع لإياد وعَكّ وعبد القيس وأهل هَجر الحمراء. ولم يذكر الطبرى السبع السابع [١]

---

(١) طبرى ٣/١٥٢ وما بعدها .

واستظهر ما سينيون فى كتابه عن خطط الكوفة أنه كان لقبيلة طيْ ، وربما شركتها فيه قبيلة بكر ، إذ لا نجد لها هى الأخرى ذكراً فى الأسباع السالفة . وظلت هذه الأسباع حتى عصر زياد بن أبيه وقد جعلها أربعة ليُدْخل القبائل بعضها فى بعض .

وكان يَكْنُف الكوفة من الشرق زروع ونخيل وأشجار يسقيها الفرات ، وكان فى ظاهرها من الغرب الحيرة والنجف والخَوَرْنق والسَّدير والغَرِيّان ومتنزهات ودِيَرة كثيرة[١] و بمجرد أن نزلها العرب نزلتها معهم بقايا الجيوش الساسانية التى انضمت إليهم ، ويقال إنهم بلغوا أربعة آلاف ، وكان نقيبهم يسمى دَيْلَم ، فنُسبوا إليه ، وسُمُّوا حمراء ديلم[٢] ، ونزلها معهم أيضاً رقيق الحروب التى خاضوها ، وأخذ يتوافد كثير من النبط والتجار والصناع .

وقد اتخذ على بن أبى طالب الكوفة حاضرة له حين ذهب إلى حرب الخارجين عليه ، بينما نزلت السيدة عائشة وطلحة والزبير فى البصرة ، ووقعت بين البلدتين موقعة الجمل المعروفة وفيها علت كفة على والكوفة . ويدخل أهل البصرة فى طاعة على ، ولكن تظل منذ هذا التاريخ فى صدورهم إحَنٌ لأهل الكوفة . ويخرج على بجيوشه إلى لقاء معاوية فى صِفّين ، وتحتدم المعركة بينهما ويشتد أوارها كما يشتد أوار الشعر بين الفئتين المتحاربتين . ويكون التحكيم .

ويخلص الأمر لمعاوية فيولّى على الكوفة المغيرة بن شعبة ، ويأخذها بالرفق الشديد ، حتى مع من كانوا يظهرون فيها التشيع ولا يخفونه من أمثال حُجْر بن عدى ، وكذلك كان يصنع بالخوارج ، وقد كفاه أهل الكوفة أمر المُسْتورد ابن عُلَّفة الخارجى حين ثار عليه ، فانبروا لقتاله وقضوا عليه وعلى من تبعه وهم يتناشدون الشعر ويرمونه وجماعته[٣] به . ومات المغيرة سنة ٥٠ للهجرة فخلفه على الكوفة زياد بن أبيه ، فأخذها أخذاً شديداً ، ولم يلبث أن ضَيَّق الخناق بها على حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة ، واضطُرّ حجر وبعض من شايعه إلى حمل السلاح ، فوقعت مناوشات بينه وبين أصحاب زياد ،

---

(١) انظر مادة كوفة فى معجم البلدان لياقوت.

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى (طبعة المطبعة المصرية بالأزهر) ص ٢٧٩ .

(٣) طبرى ٤/١٤٣ وما بعدها .

ارتفع فيها صوت الشعر[١] ، وتغلب زياد عليه وعلى المتمردين معه ، وأرسله فى نفر منهم إلى معاوية ، فقتله فى ستة من أصحابه . وكانت تلك أول شرارة أوقدت النفوس فى الكوفة ضد الحكم الأموى ، واعتبر الشيعة حُجْراً وأصحابه شهداء، وأخذوا يتفجعون عليهم[٢]. وتمضى الكوفة تحت حكم زياد مبطنةً معارضة شديدة ، إذ أخذ كثير من أهلها يصطبغ بصبغة التشيع لِعلىّ وبنيه . ويتوفَّى زياد فى سنة ٥٣ ويخلفه على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد ، ثم الضحاك بن قيس الفهرى ثم عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى ثم النعمان بن بشير ، ويتوفَّى معاوية ويخلفه ابنه يزيد ، فيضمّها إلى عبيد الله بن زياد والى البصرة . ويأبى الحسين بن على وعبد الله بن الزبير مبايعة يزيد بالخلافة ويخرجان من المدينة إلى مكة ، فيكاتب أهل الكوفة الحسين ، ويرسل إليهم بابن عمه مسلم بن عقيل فيبايعه اثنا عشر ألفاً منهم . ويخرج إليهم الحسين ، ويعلم فى الطريق أن ابن عمه اضطُرَّ إلى قتال عبيد الله بن زياد وأن أهل الكوفة تخلَّوا عنه وأسلموه إلى عبيد الله ، فقتله ، وكان أول قتيل لبنى هاشم صُلبت جثته ، يعلم الحسين بذلك كله ، ولكنه يصمم على المضى إلى غايته فيُقْتَلُ وهو يقاتل جنود عبيد الله بن زياد بكَرْبلاء على نهر الفرات فى العاشر من المحرم سنة ٦١ للهجرة . وتتطور الحوادث . فيتوفَّى يزيد بن معاوية ويُضطَرُّ عبيد الله بن زياد أن يغادر البصرة إلى دمشق . ويتلاقى الشيعة بالتلاوم والتندم على تقصيرهم فى حق الحسين ونفورهم عن نُصْرته ، ويرون أنه لا يغسل عارهم إلا حربُ مَن قتلوه وإلا التوبة مما فرط منهم ، فسُمُّوا التَّوابين ، وولَّوا أمرهم سليمان ابن صُرَد . ولم يلبثوا أن جمعوا آلة الحرب واتجهوا إلى الشام يريدون أن يثأروا للحسين ، فالتقوا فى عَيْن الوردة (رأس العين) فى وسط الجزيرة بجيش أموى على رأسه عبيد الله بن زياد ودارت الدوائر عليهم ، وسقط سليمان فى المعركة ، وكان ذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٥ . وعادت فلول الجيش الشيعى إلى الكوفة ، وانتهز المختار الثقفى الفرصة ، فدعا لمحمد بن الحنفية ، وانضوى الشيعة تحت لوائه ، واستطاع أن يستخلص الكوفة من والى ابن الزبير ويطرده منها ، وأخذ

---

(١) طبرى ٤/١٩٣ .

(٢) طبرى ٤/٢٠٩ .

ينكّل بمن كان هواهم مع بنى أمية ، مما جعل شعراءهم خشية بطشه يمدحونه هو وإمامه ، وكأنهم من شيعتهم على شاكلة قول عبد الله بن همّام السّلولى[١] :

دَعَا يا لثارات الحسين فأَقبلتْ   كتائبُ من هَمْدان بعد هَزيعٍ[٢]
وآب الهُدَى حَقًّا إلى مستقرِّهِ   بخير إيابٍ آبَهُ ورجـــوع
إلى الهاشميِّ المهتدِى المهتدَى به   فنحن له من سامعٍ ومطيـــع

ولما استجمع الأمرُ للمختار أعدّ جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام ، فالتقى فى سنة ٦٦ بجيش عليه عبيد الله بن زياد فى «خازر» بين الموصل وإربل ، ودارت الدوائر على جيش عبيد الله وسقط فى المعركة . ويولّى ابن الزبير على البصرة أخاه مصعباً سنة ٦٧ وتنشب الحرب بينه وبين المختار ، وتعلو كفة مصعب ، فيُقْتَلُ المختار وتدخل الكوفة فى طاعة ابن الزبير .

ونمضى بعد ذلك ، فنجد الكوفة تشارك فى ثورة ابن الأشعث لعهد الحجاج وهى ليست ثورة شيعية ، وإنما هى ثورة أهل السيادة والشرف فى الكوفة على بنى أمية ، فقد كانت الكوفة مستقر البيوتات العربية[٣]. وكان سادة هذه البيوتات وأشرافها يمتعضون من ظلم ولاة بنى أمية لهم وأخذهم بالعنف والقسوة وخاصة الحجاج ، وأتيحت الظروف لواحد منهم هو ابن الأشعث أن يعلن الثورة على الحجاج بل على الظلم كله ، ومن ثم دعا لنفسه بالخلافة ، وانضم إليه كثير من الموالى والقُرّاء . ونازله الحجاج فى وقائع كثيرة أهمها وقعة دير الجماجم وانتصر عليه ، وهرب ابن الأشعث إلى فارس ، وأوغل فى هروبه ، حتى وصل إلى ملك الترك مستجيراً ، وقُتل أخيراً .

وما زال شيعة الكوفة ينتظرون الإمام العلوى الذى يخلّصهم من الأمويين وظلمهم ، حتى ظهر بينهم زيد بن على بن الحسين ، ودعا لنفسه بالخلافة منشئاً نظرية شيعية جديدة نُسبت إليه ، هى نظرية الزيدية . وما زال به شيعته يستعدونه على بنى أمية ويدعونه للخروج ، حتى خرج فى سنة ١٢١ وما كاد

---

(١) طبرى ٤/٥١٠ .

(٢) الهزيع : نحو ثلث الليل .

(٣) من بيوت الشرف العريقة فى الكوفة بيت زرارة بن عدس التميمى وبيت الأشعث بن قيس الكندى وبيت حذيفة بن بدر الفزارى وبيت ذى الجدين الشيبانى .

القتال يستحرُّ بينه وبين جند يوسف بن عمر حتى انفضُّوا عنه إلا قليلا منهم ثبتوا معه حتى قُتلوا عن آخرهم ، وقُتل زيد، وصُلب بسوق الكُناسة فى الكوفة . وهرب ابنه يحيى إلى خراسان ، وخرج بناحية الجوزجان ، وانتهى فى سنة ١٢٥ إلى نفس المصير .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يوضح كيف أن الكوفة كانت موئل الشيعة فى هذا العصر وأن سادتها الذين لم يعتنقوا التشيع كانوا يكنُّون بغضاً لبنى أمية وحكمهم . ولم يكن للخوارج شأن مذكور فى الكوفة ، ومع ذلك نجد لهم فيها شاعراً مشهوراً هو الطِّرِمَّاح . وكان كثير من أهلها ينصرف عن هذه المعارضة السياسية إلى الزهد وتقوى الله ، وكان بجوارهم من يُقْبلون على اللهو والخمر ، أمثال الأُقَيْشر الأسدى ، وتكاثروا بأخرة من العصر على نحو ما هو معروف عن مطيع بن إياس وحلْبته .

ولم تتورط الكوفة فى العصبيات القبلية ، ولذلك كان حظها فى شعر الفخر والهجاء ضعيفاً ، وليس معنى ذلك أن الهجاء انحسر عنها ، فقد أخرجت شاعراً من أكبر الهجائين فى العصر هو الحكم بن عَبْدل . وقد مضى كثير من شعرائها يُعْنَى بمديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وكان منهم من يتعصب لبنى أمية تعصباً شديداً مثل عبد الله بن الزَّبير الأسدى .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة وجدناها تخطَّط حوالى سنة ست عشرة للهجرة معسكراً للجيوش المقاتلة فى الشرق على مقربة من مصب نهر دجلة بين إقليم البطائح الذى تكثر مستنقعاته وشاطئ خليج العرب ، وقد روعى فيها كما روعى فى الكوفة أن تكون على حافة البادية ، وسرعان ما توزعتها القبائل خططاً ، خمساً كبيرة : خطة لتميم وخطة لعبد القيس وخطة لأهل العالية وخطة لبكر وخطة للأزد ، وكانت اليمن تلوذ بخطة الأزد بينما لاذت عشائر من أسد والنمر بن قاسط ببكر ، ولاذ أهل هجر بخطة عبد القيس ، ولاذت ضبة والرباب بخطة تميم . وقد أقاموا بجانبها سوقاً كبيرة ، هى سوق المِرْبد ، وقد تحولت فى هذا العصر إلى سوق أدبية يتناشد فيها الشعراء أشعارهم ، ولكل شاعر حلقته .

ونزلها مع العرب كثير من الرقيق الفارسى الذى جلبوه من الحروب ، كما

نزل معهم فريق كبير من جيوش يزدجرد خرج عليه وقاتله مع المسلمين ، وهو المعروف باسم الأساورة . وقد دخل فى حلف تميم ، ودخل أيضاً فى حلفها نفر من الهنود هم المعروفون باسم الزّط والسيابجة والإندغار ، ونزل أيضاً بالبصرة جماعة من الأصبهانيين وأخرى من الحبش[١] . وكان وقوع البصرة بالقرب من خليج العرب مهيئاً دائماً لأن ينزلها كثيرون من الإفريقيين والهنود ، كما كان مهيئاً لازدهار التجارة بها . وكانت الزراعة مزدهرة بها هى الأخرى ، ولا سيما زراعة النخيل بفضل النهيرات الكثيرة التى اشْتُقَّت من دجلة ، وخاصة نهرى الأبلّة ومعقل .

وأخذ نَزَلَتها من العرب المجاهدين فى سبيل الله ومن انضم إليهم من الأساورة يُثْخنون بقيادة الأحنف بن قيس التميمى لعهد عمر بن الخطاب فى أرض فارس وتغلغلوا إلى خراسان ، وتتابع الفرس على الصلح فيما بين نيسابور وطخارستان[٢] . وولى البصرة لعهد عثمان عبد الله بن عامر فدفع الجيوش البصرية إلى سجستان وعامة خراسان[٣] . ثم كانت فتنة عثمان وبيعة على ، فانضم كثيرون من أهل البصرة إلى السيدة عائشة وطلحة والزبير ، وانزوى الأحنف بقومه تميم عنهم[٤] ، ونشبت موقعة الجمل ، وأسلمت البصرة لعلى ، يتقدّم صفوفها الأحنف ، وحاربت معه بصفّين ، وظلت موالية له إلى وفاته .

وتدخل البصرة فى العصر الأموى ، ونراها تُذْعن لمعاوية وابنه يزيد ، بينما تأخذ فى اجترار العصبيات القبلية القديمة ، وكان مماهيّأ لذلك قيام حلفين كبيرين بها ، هما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وبكر وعبد القيس . وبذلك تكتلت قبائلها فى حلفين كبيرين ، وأوغر صدور الحلف الأول كثرة المهاجرين من أزْد عُمان إلى البصرة . ونرى زياد بن أبيه يستغلّ هذه العصبيات فى توطيد سياسته بالبصرة ، إذ أخذ يضرب القبائل بعضها ببعض .

ومعنى ذلك أن البصرة لم تُشْغَل بخصومة شيعية على نحو ما شُغلت الكوفة ،

---

(١) انظر فى تخطيط البصرة ومن نزلها فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٤١ وما بعدها والطبرى ٤/٢٦٥ ، ٤٧٨ ، ٥٥٩ ونقائض جرير والفرزدق ٧٣٧ .

(٢) طبرى ٣/١٨٩ ، ٢٢١ - ٢٤٤ .

(٣) طبرى ٣/٣٥٨ وما بعدها .

(٤) طبرى ٣/٥١٠ - ٥١١ .

فقد كانت كثرة أهلها عثمانية الهوى ، إنما الذى شغلها حقًّا هو الخصومة القبلية وما طُوى فيها من عصبيات ، وقد كان بها كثيرون من الخوارج ، غير أن زياداً أمعن فى الضرب على أيديهم . ونراه يختار من أهلها خمسة وعشرين ألفاً ومن أهل الكوفة مثلهم ، ويُخرجهم بأُسَرِهم إلى غزو خراسان[١] ، حتى يتخلص من عناصر الشغب فى البلدتين.

وتبعه ابنه عبيد الله فى سياسته من ضَرْب القبائل بعضها ببعض والتشديد على الخوارج. ويتوفَّى يزيد بن معاوية، وتضطرب البصرة، ويبايع كثيرون منها ابن الزبير ، ويُضْطَرُّ عبيد الله أن يبرحها إلى دمشق . ويستولى مسعود بن عمرو سيد الأزد على قصر الإمارة والمسجد بالقوة ، يشدُّ من أَزْره قبيلته وبكر وعبد القيس ويصعد المنبر يخطب فى الناس ، فتغضب تميم وتهجم عليه مع أحلافها من الأساورة ، فتُنْزله من فوق المنبر وتقتله . وينشب القتال بين الأزد وتميم طلباً للثأر ، ويتدخل الأحنف ويستطيع بحُنْكته أن يعيد السلام بين القبيلتين نظير دية كبيرة يؤديها للأزد هو وقبيلته، ولكن العداوة تستمر متأججة بين الفئتين طوال العصر .

وتَتْبَعُ البصرة ابن الزبير ، ويولِّى عليها أخاه مصعباً ، فيحارب المختار الثقفى فى الكوفة كما أسلفنا ، ويقضى عليه قضاء مبرماً . ويحارب الأزارقة ، ويوجِّه إليهم المهلب وغيره من القواد ، ويوقعون بهم هزائم عنيفة . وتنشب ثورة صغيرة للزنج فيُجْهز عليها .

وتعود البصرة إلى الخضوع لبنى أمية عقب مقتل مصعب ، وهى تَغْلى بالعصبيات القبلية. ووَلِيَها الحجاج الثقفى لأكثر من عشرين عاماً ، وفى عهده علا شأن قيس لتعصبه لها ، وكان أكبر شخصية بين أبنائها ، فجنحت إليه وجنح إليها ، وخاصة أنه احتاج تأييدها له فى الثورات الصغيرة التى كانت تنشب من حوله مثل ثورة قبيلة عبد القيس بزعامة ابن الجارود وثورة الزنج . وكان طبيعيًّا أن يكون بين أفراد حاشيته كثير منها . وأخذ تعصبه لها يقوى مع الزمن ، فإذا هو يَعْزِل أبناء المهلب عن خراسان ويولى عليها قتيبة

---

(١) طبرى ١٧٠/٤ .

ابن مسلم الباهلى. ونراه يولِّى على الجيوش الغازية فى الهند محمد بن القاسم الثقفى. ومعروف أنه كان يُنيب عنه فى حكم البصرة الحكم بن أيوب الثقفى. وولَّى على أصبهان ختَنَه مالك بن أسماء الفزارى. ومعنى ذلك أن قيساً قوى أمرها فى البصرة لعهد الحجاج. ويتوفَّى سنة ٩٥ ويتوفَّى بعده الوليد بن عبد الملك، ويخلفه سليمان أخوه، فيولِّى على العراق ثم خراسان يزيدَ بن المهلب. فيعظم شأن قبيلة الأزد.

وعلى هذا النحو كان يعظم شأن كل قبيلة فى البصرة حين يتولاها شخص منها، وكان ذلك يزيد فى تنافس قبائلها واشتعال العصبيات بينها، لما يستتبع من المغانم السياسية فى تولى الوظائف وغيرها. وولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، فعزل عن البصرة يزيد بن المهلب، وولَّى عليها عدىَّ بن أرطاة الفزارى، فعادت إلى قيس مكانتها. ويتوفَّى عمر ويخلفه يزيد بن عبد الملك، فيثور عليه يزيد بن المهلب، وتتجمع حول لوائه الأزد وربيعة بينما تقف تميم وقيس بجانب ابن أرطاة. ويظهر مسلمة بن عبد الملك بجيوش الشام على المسرح، ويقضى على ابن المهلب، ويتبع فلولَ جيشه هلالُ بن أحوز المازنى التميمى فيقضى عليها وعلى من بقى من المهالبة قضاء مبرماً. ويولِّى يزيد بن عبد الملك على العراق مسلمة لمدة محدودة، إذ سرعان ما ولَّى عليه عمر بن هبيرة الفزارى، وكان يتعصب لقيس تعصباً شديداً، ولم يُثِرْ عليه الأزد وربيعة وحدهما، فقد أثار عليه أيضاً تميماً وشاعرها الفرزدق. ويلى الخلافة هشام ابن عبد الملك، فيَعْزل ابن هبيرة، ويولِّى خالداً القَسْرى لنحو خمسة عشر عاماً، وكان يتعصب لليمن تعصباً شديداً، فاضطُرَّ الخليفة آخر الأمر أن يعزله ويولِّى مكانه يوسف بن عمر الثقفى، وبذلك رفعت قيس رأسها، وعادت إلى سابق مكانتها. وممن وليها بعده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وكان آخر ولاتها يزيد بن عمر بن هبيرة القيسى.

ونرى من كل ذلك أن البصرة ظلت طوال العصر تعيش للعصبيات القبلية، ومن ثَمَّ كانت المحور الذى دار عليه شعرها، إذ تحوَّل كل شاعر يفخر بقبيلته مصوِّباً سهام هجائه لمن يعادونها من القبائل. ولم يقف الشعراء عند الخصومات

بين الحِلْفين اللذين تحدثنا عنهما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وربيعة ومن انضم إليهما من القبائل اليمنية ، فقد أثاروا ما بين العشائر والبطون من حزازات قديمة وأضافوها إلى ما تكوَّن من حزازات حديثة ، بحيث لم تبق عشيرة إلا ولها شاعرها أو شعراؤها الذين يذودون عنها مفاخرين هاجين ، واتخذ ذلك شكل معارك عنيفة ، على نحو ما نعرف عن معركة الهجاء التى نشبت بين جرير والفرزدق .

ولم تُنَمِّ البصرة شعر الفخر والهجاء وحده ، بل نَمَّت أيضاً شعر المديح ، فقد تحول شعراؤها إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد يمدحونهم ويأخذون جوائزهم . وقلنا آنفاً إن الخوارج فى البصرة كانوا كثيرين ، وقد هيأت هذه الكثرة لأن يظهر من بينهم غير شاعر مثل عمران بن حِطّان ، أما الشيعة فكانوا قليلين ، ومن ثم لم ينشط الشعر الشيعى بالبصرة ، وكأنها تركته للكوفة كى تبلغ منه كل ما كانت تريد من معارضة الدولة والتشيع للبيت العلوى وبيان حقِّه فى الخلافة . وإذا كنا لاحظنا فى الكوفة أن شعراء كثيرين كانوا يقفون فى صفوف بنى أمية ضد معارضيهم من الشيعة فإن البصرة هى الأخرى كان بها كثير من الشعراء الذين نافحوا عن الحكم الأموى وعلى رأسهم جرير .

ويلقانا بين أعاجم البصرة غير شاعر ، وطبيعى أن ينتظموا فى صورة الشعر البصرى العامة من الفخر والهجاء والمديح ، وممن اشتهروا منهم يزيد بن مفرِّغ الحميرى . ويلقانا أيضاً شعراء يتغنون بالخمر مثل حارثة بن بدر الغُدانى التميمى ، وإن كان من الحق أن موجتها لم تتسع فى البصرة اتساعها فى الكوفة ، فقد كانت أكثر وقاراً ، ومن ثمَّ فَسحت للزهد وشعرائه من أمثال أبى الأسود الدؤلى .

٤

خراسان

مرَّ بنا أن جُنْد البصرة هم الذين مضوا شرقاً فى عهد عمر بن الخطاب حتى فتحوا خراسان ، وقد توغلوا فيها لعهد عثمان . فكان طبيعيًّا أن يحملوا معهم ما أخذت تستشعره القبائل البصرية من العصبيات القديمة . وكان مما زادها

ضراوة فى نفوسهم أن قوّاد الجيوش المحاربة كانوا يكافأون على انتصاراتهم بإسناد إدارة الجهات التى يفتحونها إليهم ، وكان القائد حين تُسْنَدُ إليه ولاية يخص قبيلته بالغُنْم الأكبر . وكذلك كان يصنع الولاة من قبل الخليفة أو والى العراق ، فانطوت النفوس على موجدة شديدة ، وهى موجدة أدّت هناك دائماً إلى حروب عنيفة واشتباكات دامية ، كانت تعلو فيها القبيلة كما كان يعلو الثأر على كل شىء .

وبذلك أصبح العرب بخراسان فى نفس الموقف الذى كان عليه أسلافهم فى الجاهلية ، فهم يعيشون للمنازعات القبلية والثارات ، وحقًّا كانوا يُشْغَلون أحياناً بحروب الترك ، ولكنهم كانوا لا يهدءون وينصرفون قليلا عن حربهم حتى يتحاربوا فيما بينهم حرباً مريرة ، وهى حرب عادت فيها العصبيات جَذَعة .

وقد بدأت هذه العصبيات تَسْتَعِر هناك فى نفس الوقت الذى بدأ استعارها فيه بالبصرة ، أى بعد وفاة يزيد بن معاوية فقد أخذت الأزد وأحلافها تحاول أن تستولى على السلطان هناك ، وتصدت لهم قيس وتميم بزعامة عبد الله ابن خازم السُّلَمى القيسى . واستطاع أن يجمع السلطان فى يده هناك معلناً ولاءه لابن الزبير ، حتى إذا غلب عبد الملك بن مروان على صاحبه أرسل إليه أن يَدْخل فى طاعته على أن يُطْعمه خراسان سبع سنين ، وأَبَى ابن خازم ، غير أن نائبه فى مرو : بكير بن وشاح التميمى ثار عليه ، ولم يلبث ابن خازم أن قُتل . ودخلت خراسان ثانية فى طاعة بنى أمية ، وولّى عليها عبد الملك بكيراً ، ثم ولى أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموى . وضمّها إلى الحجاج ، فولّى عليها فى سنة ٧٨ المهلّب الأزدى بعد قضائه على الأزارقة ، فقدمها يصحبه شاعره كعب الأشقرى الذى طالما أشاد بانتصاراته على الأزارقة . ويلزمه شعراء خراسان يمدحونه ويصفون حروبه مع الترك من أمثال المغيرة بن حَبْناء التميمى ونهار بن تَوْسعة اليَشْكرى البكرى وزياد الأعجم مولى عبد القيس . ويتوفَّى المهلب سنة ٨٢ ، فيولِّى الحجاج بعده ابنه يزيد ، وكان شجاعاً مقداماً كما كان بحراً فياضاً ، وقد أشاد الشعراء هناك بحروبه فى فرغانة وخوارزم وما وراء النهر إشادة رائعة . ويَعْزله الحجاج لعصبيته الشديدة للأزد

وأحلافها من اليمن وربيعة ويولّى أخاه المفضل، وسرعان ما يرى أن يتخلص من المهالبة جميعاً ، فيعزل المفضل ويولى قتيبة بن مسلم الباهلى فى سنة ٨٦ فتعلو كفة قيس ويعظم سلطانها . وكان قتيبة قائداً محنكاً وفارساً مغواراً ، فمضى يفتح فى طخارستان وأرض السُّغْد وخوارزم وسمرقند ، والشعراء من حوله يتغنون بانتصاراته . ولم يلبث قتيبة أن سقط وهو فى أوج مجده ، وذلك أن سليمان ابن عبد الملك وَلِيَ الخلافة بعد أخيه الوليد، وكان حانقاً على الحجاج وعُمَّاله ، وخشى قتيبة على مصيره ، فثار عليه ، وسرعان ما انفضّت عنه الأزد وأحلافها ثم تبعتهم تميم ، لأنه كان قتل منها نفراً من آل الأهتم ، وأساء معاملة بطلها وكيع بن أبى سُود . وتزعّم وكيع حربه ، وانضمت إليه الأزد ، وكانت مغيظة منذ عزْل المهالبة وانضمّت معها قبائل ربيعة كما انضم الموالى بقيادة حيَّان النبطى ، وأخيراً خذلته قيس إلا نفراً من عشيرته باهلة ، فلقى حتفه سنة ٩٦ للهجرة . وولّى سليمان مكانه وكيع بن أبى سُود ، فأخذ الناس بالعنف، فعزله ، وولّى يزيد بن المهلب ، جامعاً له بين خراسان والعراق، وقد مضى يتّبع سياسةً قبلية جامحة ، إذ رفع من شأن الأزد ، وملأ بها الوظائف ، وجعل لها القسط الأكبر فى الغنائم. وتوفّى سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز فعزل يزيد وحبسه لتأخره فى أداء الفَىْء ، وكان قد بالغ لسليمان فى بعض كتبه ، فقال إن الفىء فى بعض حروبه كان قناطير من الذهب ، وزعم أن خُمسه بعد أن أخذ كل محارب حقَّه منه بلغ أربعة آلاف ألف وفى رواية ستة آلاف ألف ، فلما طلب منه عمر ذلك ، ولم يستطع أداءه حبسه حتى يؤدى ما عليه للدولة ، ولم يكتف بعزله وحده ، فقد عزل كل ولاته الأزديين ، وبذلك سقط أو هوى نجمُ الأزد، وقد ولى عمر على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى . ودخلت فى عصر يزيد بن عبد الملك ، وتولاها غير قيسى ، ولا يلبث أن يُظلّها عهد هشام بن عبد الملك ، وفيه تصبح تابعة لخالد القسرى والى العراق ، وكانت فيه عصبية شديدة لليمن ، فارتفع شأن الأزد . ونراه ينيب عليها أخاه أسداً سنة ١٠٥ وكان يحاكيه فى سياسته ، فالتهبت العصبيات القبلية التهاباً، وامتشقت الحسامَ الكتلتان الكبيرتان تميم وقيس من جهة والأزد وأحلافها

من جهة أخرى ووقعت بينهما وقعة معروفة باسم وقعة البروقان ببلخ سنة ١٠٦ وتوالت بينهما الوقائع ، وعُزل أسد سنة ١٠٩ ووليها الحكم بن عوانة الكلبي ولم يلبث أن عُزل وولِيها أشرس بن عبد الله السُّلَمي القيسى ، وخلفه عليها الجنيد بن عبد الرحمن المُرِّى سنة ١١٢ وعُزل عنها فى سنة ١١٦ وخلفه عاصم بن عبد الله الهلالى. وفى عهده نشبت ثورة الحارث بن سُرَيْج وكان يرى رأى المرجئة ، كما كان يرى إسقاط الجزية عن الموالى ، واتخذ جهم بنَ صفوان كاتباً له ، وهو أشهر متكلمى هذه الفرقة . واستفحلت الثورة إذ انضم إليها كثيرون من تميم والأزد والموالى . وما زال عاصم يجاهدهم ، حتى عُزل فى سنة ١١٧ ووَلى مكانه أسد القَسْرى للمرة الثانية فضيَّق الخناق على الحارث حتى فر هارباً . غير أن أسداً مات ، وسقط أخوه خالد فى العراق ، إذ صرفه هشام عن ولايتها وولَّى عليها يوسف بن عمر الثقفى ، جامعاً له معها خراسان ، فولَّى عليها نصر بن سيار ، وفى عهده اشتدت العصبيات اشتداداً مروِّعاً واشتد معها الشجار والقتال فى كل مكان ، وظهر الحارث بن سريج على مسرح الحوادث ثانية وقُتل . وأخيراً يظهر أبو مسلم الخراسانى . وعبثا يصيح نصر بن سيار بجنوده أن يتداركوا الأمر [١] وتكون نهاية بنى أمية .

ويفيض تاريخ الطبرى بأشعار الشعراء فى هذه العصبيات التى احتدمت هناك وفى وصف حروب العرب والترك . ولعل من الطريف أن نعرف أن الشعر نشط فى خراسان نشاطاً عظيما ، إذ كانت الكثرة من العرب هناك مضرية ؛ وحيثما وجدتَ المضريين وجدتَ الشعر ، وكانت الأحداث كثيرة ، فألهمتْ غير شاعر بالشعر الرائع . ومن أهم شعرائهم زياد الأعجم وكعب ابن مَعْدان الأشقرى ونهار بن توسعة وثابت قُطْنة والمغيرة بن حَبْناء . ولعل من الطريف أن نعرف أن مِن هؤلاء الشعراء مَن كان فارساً مقداماً مثل ثابت قطنة وكعب بن مَعْدان ، وكان من هولاء الشعراء الفرسان من يقع فى حب بعض نساء الترك والديلم وفتياتهم ، فيتغزل بهن ، على نحو ما نرى عند أبى جلدة اليشكرى [٢] ، وأعشى همدان [٣] . وكان بين المحاربين كثيرون يحنون إلى ديار

(١) طبرى ٦ / ٣٦ وما بعدها والأخبار الطوال للدينورى ص ٣٦٠ .

(٢) أغانى (دار الكتب) ١١ / ٣١٩ ، ٣٢٥ .

(٣) أغانى ٦ / ٣٤ وما بعدها .

قومهم فى الجزيرة، وخاصة حين يُلم بهم وهن ، ويظنون أنهم ميتون ، وقصيدة مالك بن الريب فى مرضه مشهورة[١]. وكان يحدث أحياناً أن يُخفق بعض البدو بالجزيرة العربية فى حُبِّهم، فيرحلوا إلى الثغور، وينظموا شعراً يضمنونه حبهم اليائس، وهو شعر يفيض باللوعة الممضَّة على نحو ما نجد عند الصِّمَّة القُشَيرى[٢] الذى مات غازيا بطبرستان .

٥

الشام

لا يكاد يُقاس الشعر فى الشام لهذا العصر إلى ما انبثَّ منه فى خراسان والعراق والحجاز ، ومرجع ذلك أن قبائل الشام كانت فى جمهورها قبائل يمنية ، وهى لا تبلغ فى الشعر والشاعرية ما تبلغه القبائل المضرية ، وأهم شاعر أنبتته بيئة الشام فى هذا العصر هو عدىّ بن الرقاع العاملى ، وهو يتأخر خطوات عن شعراء العراق والحجاز المبرِّزين أمثال جرير والفرزدق وعمر بن أبى ربيعة .

على أنه ينبغى أن يلاحَظ أن كثيراً من قبائل قيس نزل الشام مع الفتوح، واصطدمت مصالحه كما قدمنا بمصالح كلب والقبائل اليمنية ، مما جعل الحروب تنشب بين الطرفين من جهة وأوقد نيران الهجاء والفخر بين شعرائهما من جهة ثانية ، سواء فى موقعة مَرْج راهط أو فيما تلاها من مواقع ظلت سنوات . ولكن هذا الشعر نعده طارئاً على الشام ، فلولا وفود هذه القبائل المضرية ما ظهر ولا استطار .

ومما يتصل بهذا الشعر الطارئ على الشام شعرُ الشعراء الذين كانوا يفدون على الأمويين يمدحونهم من الحجاز ونجد والعراق والجزيرة . ومن الحجازيين الذين أكثروا الوفود عليهم ابنُ قيس الرُّقيَّات ونُصَيْب والأحوص وكثيِّر وإسماعيل

---

(١) أغانى (ساسى) ١٩/١٦٢ وذيل الأمالى ص ١٢٦ .

(٢) أغانى (دار الكتب) ٦/٢ وما بعدها

ابن يسار النسائى وطُرَيح الثقفى ويزيد بن ضَبَّة وأبو العباس الأعمى، ومن النجديين الرَّاعى والعُجَيْر السَّلولى وأرطاة بن سُهَيَّة وعقيل بن عُلَّفة وابن ميَّادة ومن العراق جرير والفرزدق والأخطل ومسكين الدارمى وعبد الله بن الزَّبِير الأسدى وأعشى شيبان ونابغتهم وذو الرمة .

وهؤلاء الشعراء جميعاً كانوا وافدين ، ولم يستقروا فى الشام ، إنما كانوا يُلمّون بها ، ثم يعودون إلى ديارهم وأهليهم يُجرّر الحقائب . وربما كان أهم عشيرة اشتهرت بالشعر فى هذه البيئة هى العشيرة الأموية نفسها ، فقد اشتهر من بين أفرادها بنظم الشعر يزيد بن معاوية ، ثم ابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد وسنعرض له ولشعره فى موضع آخر .

على أن هذه الأسرة نفسها كانت طارئة على الشام ، ومن ثَمّ لا نغلو إذا قلنا إن الشعر فيها لهذا العصر كان بعامة شعراً طارئاً . ومن هذا الشعر الطارئ ما كان ينظمه الغزاة فى حروب الروم ، وكانت كثرتهم من عرب الشام اليمنية ، ولذلك لم يكثر الشعر فى هذه الحروب ، غير أن نفراً من المضريين شاركوا فيها ، فجرى الشعر على ألسنتهم وتصايحوا به فى بعض معاركهم ، وبكوا به شهداءهم على نحو ما نجد عند أبى العيال الهُذَلى حين غزا مع يزيد بن معاوية الروم[١] واستشهد ابن عم له يسمى عبد بن زهرة فرثاه رثاء حاراً[٢] .

وعلى هذا النحو كان الشعر فى الشام لهذا العصر محدود النشاط ، وكان فى جملته طارئاً إما مع قبائل قيس ، وإما مع الوافدين على أبواب الخلافة ، وإما مع البيت الأموى القرشى نفسه ، وإما مع الغزاة الذين كانوا يجاهدون الروم .

٦

مصر والمراكز الأخرى

إذا أخذنا نستقصى مراكز الشعر الأخرى لهذا العصر وجدنا العناصر اليمنية

---

(١) الإصابة لابن حجر ١٤٣/٧ .

(٢) ديوان الهذليين (طبع دار الكتب) ٢٤١/٢

تغلب عليها ، وهى من حيث الشعر والشاعرية تتخلَّف عن العناصر المضرية . وقد تصادف أن كان أكثر الفاتحين لمصر وبلاد المغرب والأندلس من العناصر اليمنية ، وأخذت تَقْدم وراءهم قبائل منهم ، تستقر فى تلك الديار ، فكان طبيعيًّا أن لا ينشط فيها الشعر ، وأن يظل خامداً طوال العصر .

ولعل أهم هذه المراكز المتخلفة فى الشعر والشعراء مصر ، وكانت متصلة بالحضارة اليونانية والرومانية قبل الفتح . ومدرسةُ الإسكندرية بها مشهورة وقد ظلت منارةً للعرفان حتى عصر عمر بن عبد العزيز إذ هجرها أكثر أساتذتها إلى أنطاكية . والذى لا ريب فيه أنه ظلت بمصر بقايا كثيرة من الحضارة اليونانية والرومانية. وقد أخذت تتنفس فى جو الثقافة الإسلامية العربية ، وسرعان ما ظهرت بها مدرسة دينية على رأسها عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأخذت تنهض فى هذا المجال . غير أننا إذا رجعنا إلى الشعر بها وجدناه متخلفاً ، لما قلنا من غلبة العناصر اليمنية على العرب النازلين فيها . وحقًّا نجد فيها أشعاراً كانت تُنْظَمُ من حين إلى حين فى الأحداث التاريخية واليومية ، وهى مبثوثة فى كتاب الولاة والقضاة للكندى ، ولكن قيمتها الشعرية ضعيفة وأكثر من ينظمونها يُعَدُّون مجهولين لنا ، وربما كان أهمهم ابن أبى زمزمة الذى عاصر عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر (٦٥ — ٨٥ هـ) وأشعارُه المنسوبة إليه لا تَرْقَى إلى أفق شاعر متوسط من شعراء المراكز الأخرى فى الحجاز ونجد والعراق وخراسان .

ومن المحقق أن الشعر نشط بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان ، غير أنه فى جملته شعر وافد ، أنشده بمصر شعراء الحجاز ونجد والعراق ، الذين وفدوا على ابن مروان يمدحونه لأخذ نواله ، وكان بحراً فياضاً ، وغيثاً مدراراً ، فقصده الشعراء من كل صوْب أمثال كثيِّر وابن قيس الرقيات ونُصَيْب وجميل وأيْمن بن خُرَيْم وعبد الله بن الحجاج الثعلبى . وبمجرد أن مات عبد العزيز خمد هذا النشاط الطارئ ، إذ لم يعد يفد عليها الشعراء لأخذ الجوائز والعطايا الجزيلة .

فمصرُ لم يكن بها نشاط قوى للشعر فى هذا العصر ، وإذا تركناها إلى الغرب انبسطت أمامنا بلاد المغرب إلى مشارف المحيط الأطلسى ، وكان الشعر بها

أكثر تخلفاً ، لغلبة العناصر اليمنية على من نزلها من العرب ، ولأنه لم يظهر بها والٍ على شاكلة عبد العزيز بن مروان ، يَرْحَل إليه الشعراء ويمدحونه . وكذلك الشأن فى الأندلس المفتوحة فى عهد الوليد بن عبد الملك ، فقد فتحتها قبائل يمنية ، ومن ثَمَّ لم يزدهر الشعر بها ، بل ظل ذاويا ذابلا إلى نهاية العصر .

وطبيعى أن يكون النشاط الشعرى فى اليمن خامداً ، لأنها لم تُجلّ فيه من قديم ، ولأنه لم تضطرم بها العصبيات والثورات التى تَندلع ألسنة الشعراء على نحو ما مرَّ بنا فى البصرة والكوفة وخراسان ، ومع ذلك فقد كان ينزلها بعض الشعراء لمديح ولاتها على شاكلة أبى دَهْبل الجمحى الذى اشتهر بمديحه ابنَ الأزرق المخزومى والى ابن الزبير[1] . وحين ظهر فيها نشاط الخوارج الإباضيين لأواخر هذا العصر أخذ الشعر يجرى على بعض الألسنة . ولكن على كل حال كان الشعر هناك متخلفاً ، وربما كان خير شعرائها خالد الزبيدى الذى ترجم له ياقوت فى معجمه[2] .

---

(١) أغانى (دار الكتب) ٧/١٢٨ .

(٢) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ١١/٢١ .

الفصل الثانى

مؤثرات عامة فى الشعر والشعراء

١

الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعربها وأثر ذلك فى اللغة

اندفع العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة فى أقطار الأرض ، ففتحوا العراق وإيران وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب ، وعبروا رقعة الماء الضيقة فى جبل طارق ، وركزوا أعلامهم على مشارف البرانس كما ركزوها فى الهند . وكانت بعض قبائلهم تنتشر قبل الإسلام وفتوحه فى العراق والشام ، فساعد ذلك على تعرُّب هذين القطرين سريعاً ، وأخذت تتعرَّب الأقطار الأخرى التى لم يكن لها عهد بالعروبة من قبل . ومن حينئذ لم يَعُد اللسان العربى خاصًّا بأبناء الجزيرة وحدهم ، فقد أخذ يشيع فى شعوب قريبة وبعيدة ، وسرعان ما تعربت ، وكان مما هيأ لتعرُّبها نظام الولاء الذى أخذ به العرب أنفسهم فى فتوحهم الواسعة ، فقد أدخلوا رقيق الحروب فى ولائهم ، وفتحوا الأبواب واسعة أمام منْ وراءه من الشعوب المفتوحة كى يدخلوا فى هذا الولاء وينتسبوا فيمن يؤثرون من القبائل العربية .

وبمجرد أن تمَّت الفتوح أخذ العرب والموالى جميعاً يعيشون حياة مشتركة حتى فى المدن التى اختطها الفاتحون لمعسكراتهم مثل البصرة والكوفة والفسطاط ، فإن العرب اختلطوا فيها وفى غيرها من المدن بالأجانب الذين قدَّموا لهم خدماتهم فى الحِرَف والزراعة والتجارة ، وغَصَّت بهم دورهم وقصورهم ، إذ استخدموهم فى حاجاتهم من جهة وتزوجوا كثيرات من إمائهم من جهة ثانية ، على نحو ما هو معروف عن اتخاذهم للسَّرارى والجوارى . وظهر أثر ذلك فى أجيال التابعين منذ

جيلهم الأول فقد برز بينهم كثيرون لأمهات أجنبيات ، نذكر من بينهم أبناء بنات يزدجرد : على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وهذا الامتزاج الواسع بالموالى زواجاً وولاء لم يكن تأثُّر الموالى به أقل من تأثر العرب ، فقد أخذوا فى التعرُّب سريعاً ، وكانت أقطارهم تتكلم لغات مختلفة ، إذ كان أهل إيران وخراسان يتكلمون الفارسية ، وكان أهل العراق يتكلمون الفارسية والنبطية ولغات آرامية مختلفة ، ويتكلم أهل الشام الآرامية وغيرها من اللغات السامية ، بينما كان أهل مصر يتكلمون القبطية ، وأهل المغرب يتكلمون البربرية . وكانت لغة السياسة والثقافة فى المغرب والأندلس اللاتينية وفى مصر والشام اليونانية والسريانية وفى العراق وإيران السريانية والفارسية .

وأخذت هذه اللغات تترك أماكنها من ألسنة أصحابها لتحلّ محلها العربية ، غير أن هذا لم يحدث سريعاً بين عَشيَّة وضُحاها ، فقد أخذ التعرب يتدرج شيئاً فشيئاً . وفى أثناء ذلك كانت العربية تتطور صوراً مختلفة من التطور ، وكان أول ما أصابها من ذلك أن مُحيت إلى حد كبير — بفضل القرآن الكريم ولغته القرشية — فروق اللهجات بين القبائل ، فأصبحت لغة القرآن هى اللغة العامة التى يتخاطب بها العرب مضريين ويمنيين فى كل مكان ، وإن ظلت من الماضى آثار هنا وهناك . وأخذ يظهر بسبب الامتزاج بالموالى تطورثان فى لغة التفاهم ، فإن العرب عمدوا إلى استخدام تعبيرات مبسَّطة ، حتى يفهم عنهم الموالى ويلوكوا ما يلفظونه بسهولة . وفى أثناء ذلك كانوا يستعيرون منهم بعض الكلمات الأعجمية وخاصة فى الأطعمة وأدوات الحضارة ، وكانوا يعرِّبونها وقد يبقونها على صورتها الأصلية . ويَعْرِض علينا الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » كثيراً من الكلمات الفارسية التى جرت على ألسنة أهل الكوفة بسبب من عاشوا معهم وخالطوهم من الفرس ، فمن ذلك أنهم كانوا يسمُّون المسحاة « بال » والحوك أو البقلة الحمقاء « الباذروج » وملتقى أربع طرق

«جهارسوك» ، وكانوا يسمون السوق «وازار» والقِثّاء «خياراً» والمجذوم « وَيْذَى[١] »
وكانت الفارسية شائعة فى البصرة ويتضح ذلك فى دخول مقطع « آن »
الفارسى على كثير من أسماء القطائع مثل « عمران[٢] » لعمر بن عبيد الله بن معمر
و «سُوَيْدان» لسويد بن منجوف السَّدوسى و «خالدان» لخالد بن أسيد و « مهلّبان »
لآل المهلب . ومما يدل على شيوع الفارسية فى البصرة ما يُرْوَى من أن يزيد بن
مفرِّغ حين هجا أسرة عبيد الله بن زياد فى ولايته عليها سقاه نبيذاً
وحمله على دابة فى ثياب مهلهلة مقروناً إلى هِرَّة وخنزير ، وأمر أن يطاف به
فى الشوارع على هذه الصورة المُزْرية ، فتجمَّع حوله الصغار يسألونه بالفارسية
إين جيست ؟ أى ما هذا ، فكان يجيبهم بلسانهم[٣] :

آبَ اسْتْ نَبِيذ اسْت عصــاراتِ زبيبَ اسْت
سُمَيَّهْ روسبى است

واست : من أفعال الكينونة ، وآب : ماء . وسمية : أم زياد . وروسبى :
الخنزيرة . أى هذا ماء ونبيذ وعصارة زبيب وسمية الخنزيرة ، ويريد البَغِىّ .
ويلاحِظ الجاحظ أن تأثير الفارسية سقط إلى داخل الجزيرة فى المدينة مع
من نزلها من الفرس ، ولذلك سمو البطيخ « الخِرْبز » والسميط « الرزدق » ، وطعام
المصوص وهو لحم ينقع بالخردل « المزور » والشطرنج « الإشترنج » وغير ذلك
من الأسماء[٤] .

ولم يقف استخدام هذه الألفاظ وما يشبهها عند اللغة اليومية ، فقد تعداها
أحياناً إلى شعر بعض الشعراء من العرب أمثال الفرزدق وجرير اللذين عاشا فى
البصرة ، إذ نجد أولهما يستخدم كلمة « البيذق والبياذق » المعروفة فى لعبة
الشطرنج استخداماً يدل على أنه كان يعرف اللعبة وما يصيب البَيْذق فيها حين
يتقدم إلى آخر الرقعة إذ يصبح وزيراً ، يقول مخاطباً جريراً[٥] :

---

(١) البيان والتبيين ١ / ١٩ وما بعدها .
(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٣ وما بعدها .
(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤٣ .
(٤) البيان والتبيين ١ / ١٩ .
(٥) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفن) ص ٧٨٧ .

ونحن إذا عَدَّتْ تميمٌ قديمها   مكانُ النَّواصى من وجوه السوابق
منعتُك ميراث الملوك وتاجهم   وأنت لدِرْعِى بَيْذَقٌ فى البياذق

فهو يجعله بيذقاً غير متقدم . ونرى جريراً يستخدم فى إحدى أهاجيه للفرزدق كلمة « الرَّوْذق » الفارسية بمعنى الحَمَل المنتوف وَبره بعد سَلقه، ويستخدم معها كلمة « البيذق » الفارسية للدلالة على الشيء التافه ، إذ يقول فى جِعْثِنَ أخت الفرزدق[1] :

لا خير فى غضب الفرزدق بعدما   سلخوا عجانكِ سَلْخَ جلد الرَّوْذقِ
سبعون والوُصَفاء مهر بناتنا   إذ مَهْرُ جِعْثِنَ مثل حُرِّ البَيْذَق

وبنفس هذه الصورة دخلت كلمات نبطية إلى الشعر ولغة التفاهم ، وإذا كان ابن مفرِّغ صاغ من الفارسية شطوراً على نحو ما قدمنا فقد كان وراءه شعراء من الزنج مثل رباح[2] ومن الهند مثل أبى عطاء السندى .

وربما كان أهم من ذلك ما أصاب العربية من لُكْنات هؤلاء الموالى ، فإن كثيرين منهم كانوا يجدون عسراً فى نطق بعض حروف العربية التى لا توجد فى لغاتهم ، ويعرض علينا الجاحظ فى البيان والتبيين صوراً مما كان يجرى على ألسنة عامتهم من هذه اللُّكْنات ،حتى لتُفْسد العبارة العربية إفساداً ، فمن ذلك أن الحجاج سأل نخاساً : أتبيع الدواب المعيبة من جُنْد السلطان؟ فأجابه : « شر يكاننا فى هوازها وشر يكاننا فى مداينها ، وكما تجىء تكون » . ولم يفهم الحجاج ما يقول فقال له ويلك ما تَعْنى؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول : « شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدوابِّ ، فنحن نبيعها على وجوهها[3] » ومن ذلك أن أمَّ ولدٍ لجرير قالت لبعض ولدها : « وقع الجُرْذان فى عِجان أمكم »

---

(١) النقائض ص ٨٤٥ .

(٢) انظر رسالة تفضيل السودان على البيضان للجاحظ وأمالى ابن الشجرى (طبعة كرنكو) ١/١٩٤ وقد اختلف فى اسمه هل هو رباح أو رياح أو سنيح بن رباح . انظر العربية ليوهان فك هامش ص ٣٦ .

(٣) البيان والتبيين ١/١٦١ .

فأبدلت الذال من الجرْذان دالاً ونطقت العجين عجاناً . وقال بعض الشعراء فى أم ولد له يذكر لُكْنتها :

أَوَّلُ ما أَسمع منها فى السَّحَرْ تذكيرُها الأُنثى وتأْنيث الذكرْ

والسوءَة السوءَاءُ فى ذكر القمر

إذ كانت تنطقه الكمر[١] . وكانت آثار من هذه اللكنات تَجْرى على ألسنة فصحاء الموالى ممن صعدت بهم ملكاتهم إلى أفق الشعر العربى ، حتى أصبحوا لا يقلون فيه فصاحة وبلاغة عن شعراء العرب الخُلَّص ، نذكر من بينهم زياداً الأعجم ، وكان يرتضخ لُكْنة فارسية يذهب فيها إلى إبدال العين همزة والطاء تاء والسين شيناً[٢] ، ويروى أنه أنشد المهلب فى بعض مديحه :

فَتًى زاده السُّلطان فى الوُدِّ رفعةً إذا غَيَّر السلطانُ كل خليلِ

فقال : « زاده الشلتان[٣] » وتكرر منه ذلك على سمع المهلب فوهبه غلاماً ينشد شعره[٤] . وكان أبو عطاء السندى وهو ممن عاشوا فى العصرين : الأموى والعباسى يبدل الحاء هاء والجيم زايا والشين سينا ، ودفعه ذلك أن يستوهب ممدوحاً له يسمى سليمان بن سليم الكلبى غلاماً ينشد شعره[٥] .

ولم تجْر هذه اللكنات على ألسنة الموالى وحدهم ، فقد تسربت منها بعض الآثار إلى ألسنة من كانوا ينشئون فيهم وخاصة من كانت أمهاتهم منهم ، على نحو ما يحدِّثنا الرواة عن عبيد الله بن زياد والى العراق ، إذ استبقاه أبوه مع أمه « مرجانة » حين تزوجت الفارس « شيرويه » فكان يبدل الحاء هاء والقاف كافا ، فإذا قال : أحَرَورِىٌّ أنت ؟ قال : أهرورى أنت ؟ وإذا قال قلت لك قال : كلت لك[٦] . وقال مرة : افتحوا سيوفكم بدلا من سُلُّوا سيوفكم ، مما جعل ابن مفرغ يهجوه بقوله[٧] :

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٧٣ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ٧١ والأغانى (طبعة الساسى) ١٤ / ٩٩ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٧١ والكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٣٦٦ .

(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ٨٩

(٥) الشعر والشعراء ٢ / ٧ وراجع الأغانى (طبعة الساسى) ١٦ / ٧٩ .

(٦) البيان والتبيين ١ /٢ .

(٧) البيان والتبيين ٢ / ٢١٠ .

ويوم فتحتَ سيفك من بعيدٍ　　أَضَعْتَ وكلُّ أَمــرك للضَّياع

ويُرْوَى أن أباه زياداً أوفده على معاوية فكتب إليه مشيراً إلى لُكْنته: « إن ابنك كما وصفت ولكن قَوِّم من لسانه »[١].

وليس بين أيدينا نصوص توضح ما حدث من ذلك فى مراكز الشعر الأخرى بالأقطار المفتوحة ، ولكن لا بد أن ما كان يحدث فى العراق من هذه اللكنات كان يحدث فى المراكز القريبة والبعيدة ما يماثله . واقترنَ بهذه اللكنات لحنٌ كثير بسبب ضعف السلائق من مثل قول زياد الأعجم :

إذا قلت قد أَقبلتْ أَدبرتْ　　كمن ليس غادٍ ولا رائحُ

وكان القياس أن يقول : « ليس غادياً ولا رائحاً[٢] » . ويظهر أن اللحن شاع على ألسنة بعض العرب أنفسهم ، ومن ثم عُنِى خلفاء بنى أمية بتأديب أولادهم ويقال إن عبد الملك أهمل تأديب ابنه الوليد فجرى اللحن على لسانه ، ومما يروون من لحنه أنه نطق يوماً كلمة « لصّ » بضم اللام ، وأنه قال لأبيه حين قُتل أبو فديك الخارجى : « يا أمير المؤمنين قُتل أبى فديك » وقال مرة : « يا غلام رُدَّ الفرسان الصادَّان عن الميدان[٣] ».

واتسع هذا اللحن فى الكوفة والبصرة حتى لنرى الحجاج المعروف بفصاحته ولَسَنه ونشأته فى البادية يخاف على نفسه منه ، فيسأل ابن يَعْمر : أتسمعنى ألحن ؟ فقال : الأمير أفصحُ الناس ، فقال الحجاج : عزمتُ عليك أتسمعنى ألحن ؟ قال : حرفاً ، فقال الحجاج : أين ؟ قال : فى القرآن ، فقال : ذلك أشنع له ، فما هو ؟ قال ابن يعمر : تقول : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتُموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحبُّ إليكم من الله ورسوله) بقراءة أحب بالرفع ومكانها النصب . وكأنه لما طال عليه الكلام نسى ما ابتدأ به . فقال الحجاج : لا جرم لا تسمع لى لحناً أبداً[٤] . وكان خالد القسرى مع ما اشتهر به من فصاحته لحَّاناً ، ويُرْوَى

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢١٠ .

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٣٩٨ .

(٣) البيان والتبيين ٢ / ٢٠٤ وما بعدها .

(٤) ابن سلام ص ١٣ .

أنه قال يوماً : « إن كنتم رجبيُّون فإنا رمضانيُّون » . وفيه يقول يحيى بن نوفل[١] :

وألحنُ الناسِ كلِّ الناس قاطبةً   وكان يُولَعُ بالتَّشْديق فى الخُطَبِ

ويَرْوِى الرواة أن عيسى بن عمر النحوى خاصم رجلا إلى بلال بن أبى بُرْدة والى البصرة لخالد القسرى فجعل عيسى يتتبَّع الإعراب وجعل الرجل ينظر إليه، فقال بلال للرجل : لأن يذهب بعضُ حقِّ هذا أحبُّ إليه من ترك الإعراب فلا تتشاغلْ به واقصد لحجّتك[٢]، وممن عُرف فى خراسان باللحن عمرو بن مسلم أخو قتيبة بن مسلم[٣]، وكان سليمان بن عبد الملك فى دمشق يقول : المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يفخِّم اللحن كما يفخم نافع بن جبير الإعراب[٤].

وانتشارُ اللحن على هذه الشاكلة هو الذى دفع لظهور اللغويين والنحاة منذ القرن الأول للهجرة ، فقد أخذت تتجرَّد جماعة من العلماء وخاصة فى البصرة لتنقية العربية مما دخلها من فساد. وكان بعض هؤلاء العلماء يتعرض لفصحاء الشعراء ينقدهم نقداً نحويًّا ، حتى لو اضطرتهم إلى ذلك القافية ، واشتهر فى هذا الجانب عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى بمراجعاته للفرزدق فيما كان يُحْدثه أحياناً من بعض شاذات نحوية ، وما زال يراجعه حتى قال فيه بيته المأثور :

فلو كان عبد الله مولًى هجوتُه   ولكنَّ عبد الله مَوْلى مواليا

فتعرض له ابن أبى إسحق قائلا : كان يَحْسن أن تقول : مولى موال[٥]. على أن الفرزدق لم يُعْرَفْ بضعف فى الحِسِّ اللغوى لأنه نشأ فى البادية، إنما الذى عُرف بذلك بعض الشعراء الذين نبتوا فى المدن مثل الطِّرِمّاح والكُمَيْت. ويسجِّل الرواة على الطرماح أنه كان يَسْتخدم الألفاظ البدوية الغريبة فى شعره استخداماً غير دقيق[٦] وأنه كان يتكلَّف بإدخال ألفاظ النبط الآراميين فى شعره[٧]. ولم

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢١٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٢١٨ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .

(٤) البيان والتبيين ٢/٢١٧ .

(٥) ابن سلام ص ١٦ وما بعدها .

(٦) الموشح ص ٢٠٩ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢/٣٦ .

(٧) الموشح ص ٢٠٨ .

يكن الكميت يسلك فى أشعاره الألفاظ النبطية ، ولكنه كان يَشْرَكُ الطرماح فى ظاهرة الاستخدام غير الدقيق للألفاظ البدوية[1] ، ويُرْوَى أنه أنشد ذا الرُّمَّة يوماً بعض شعره ، وسأله رأيه فيه ، فقال له : « إنك لتقول قولا ما يَقْدر إنسان أن يقول لك فيه أصبتَ أو أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تجيء به ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً » واقتنع الكميت بوجهة نظره واعتلَّ لذلك بأنه لا يصف شيئاً رآه بعينه ، إنما يصف شيئاً وُصف له[2] » ، ولذلك كان اللغويون لا يستشهدون بأشعاره ولا بأشعار الطرماح فى اللغة[3] .

وعلى هذا النحو أخذت السلائق تضعف حتّى عند العرب أنفسهم ، وخاصة من نشأوا منهم فى الحضر ولم يتغذَّوا بلبان البادية . وما نصل إلى العصر العباسى حتّى يضع اللغويون خطاً فاصلا بين الشعر القديم الجاهلى والإسلامى والشعر العباسى الحديث الذى سموه شعر المولَّدين وهو خط فَصلوا به فصلا تامًّا بين الشعر الفصيح الذى يمكن الاستشهاد به فى اللغة والشعر الذى لا يُعتدّ به فى هذا الاستشهاد . وقد اعتدُّوا بشعر الجاهليين والمخضرمين دون استثناء ، أما شعر الأمويين فأخرجوا منه نفراً من العرب أمثال الطرمّاح والكميت متخذين النشأة فى الحضر مقياساً لمعرفة المشوب والمصفَّى والمعيب والسليم .

٢

الإسلام وأثره فى موضوعات الشعر

طبيعى أن يؤثر الإسلام فى موضوعات الشعر الأموى ، وهو تأثير يقوى ويضعف حسب نفسية الشعراء ، إذ كان بينهم من تعمَّقه الإسلام ومن لم يتغلغل إلى أعماقه . على أنهم جميعاً كانوا يستظلون بظلاله ، وكان من حولهم الوعاظ والنسَّاك يذيعون فى مختلف الأجواء عَبير وعظهم ونُسكهم ، سواء فى المساجد الجامعة أو فى مقدمات الجيوش الغازية . وكانوا ما يزالون يحدِّثون الناس عن البعث

---

(١) الموشح ص ١٩٢ والأغانى (دار الكتب) ٣٦/١٢

(٢) أغانى (ساسى) ١٢٠/١٥ .

(٣) الموشح ص ١٩١ ، ٢٠٨ .

والثواب والعقاب ونعيم الجنة وعذاب النار داعين دعوة واسعة إلى التقوى والزهد فى متاع الدنيا . وترامت من هذه المواعظ ومن القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة الأولين أشعة كثيرة نفذت إلى نفوس الشعراء وانعكست فى أشعارهم على اختلاف موضوعاتها .

وقد أشرنا فى غير هذا الموضع إلى ما أصاب الغزلَ بتأثير الإسلام من براءة وطُهْر وصفاء ونقاء عند شعراء نجد وبوادى الحجاز وعند فقهاء المدينة ومكة ، مما هيأ لظهور الغزل العذرى بل لشيوعه ، وكأنما أضْفَى الإسلام على المرأة وعلاقاتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضرباً من القدسية ، أحاطها بهالة من الجلال والوقار ، فإذا الشاعر لا يدنو منها إلا فى احتياط ، بل إذا هو يرى دونها صعاباً أى صعاب ، فيتحول إلى نفسه يشكو ما أصابه من تباريح الحب وأوصابه شكوى تشفّ عن ألمه وعذابه فى حبه ، وهى شكوى يَضْرع فيها أحياناً إلى ربه على شاكلة قول جَميل[1] :

إلى الله أَشكو لا إلى الناس حُبَّها ... ولا بد من شكوى حبيبٍ يُرَوَّعُ

ألا تتقين الله فيمن قتلْتِهِ ... فأَمسى إليكم خاشعاً يتضرَّعُ

فيارِبِّ حَبِّبْنِى إليها وأَعْطِنى الـ ... ـمودَّة منهـــا أَنت تعطى وتمنع

ونرى الغزلين جميعا عُذْريين وغير عُذْريين يستلهمون فى غزلهم بعض الأفكار الإسلامية كفكرة العفو والغفران ، يقول عمر بن أبى ربيعة[2] :

فديتُكِ أَطْلِقِى حَبْلى وجودى ... فإن الله ذو عَفْوٍ غَفورُ

وقد مضى غير شاعر يردد فكرة الإثم فى القتل وعقاب الله لقاتل النفس المؤمنة ، ونرى الفرزدق يفصِّل هذه الفكرة تفصيلا فى إحدى مقطوعاته ، فيقول[3] :

يا أختَ ناجيةَ بن سامةَ إننى ... أَخشى عليك بَنِىَّ إن طلبوا دمى

فإذا حلفتِ هناك أَنك من دمى ... لبريئـــةٌ فتَحَلَّلى لا تَـأْثَمِى[4]

فلئن سفكِت دما بغير جريرةٍ ... لتُخَلَّدِنَّ مع العذاب الأَلأَمِ

---

(١) ديوان جميل تحقيق حسين نصار ص ١١٧ .

(٢) ديوان عمر (نشر شوارتز) رقم ٤٠ بيت د .

(٣) ديوان الفرزدق(طبعة الصاوى) ٢/٧٧٨ .

(٤) تتحلل من اليمين : تستثنى .

ولئن حملتِ دمى عليك لتَحْمِلنْ ثِقْلاً يكون عليك مثل يَلَمْلَمِ (١)

وإذا كان الفرزدق توسَّع فى فكرة القتل على هذا النحو ، فأضاف إليها الاستثناء من اليمين وما ينتظر القاتل فى غير جناية من عذاب الآخرة فإن وضّاح اليمن يستغل فكرة الحلال والحرام ويشفعها بفتوى الترخص فى اللَّمَمِ ، يقول (٢) :

إذا قلتُ يوماً نَوِّلينى تبسَّمتْ وقالتْ معاذَ الله من فعل ما حَرُمْ

فما نوَّلتْ حتى تضرَّعتُ عندها وأعلمتُها مارخَّص الله فى اللَّمَم

وواضح أنه يقصد باللمم النظرة وما يماثلها . وكل ذلك جاء وضاحاً ومن ذكرناهم بتأثير الإسلام الذى كان يخالط قلوبهم ، فإذا ألفاظه وأفكاره تمتزج بمعانى الحب وألفاظه .

وإذا تحولنا إلى المديح وجدناه يتحول فى كثير من جوانبه إلى تصوير الفضيلة الدينية فى الممدوح ، ووثّق هذا التصوير فى مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم عُراه ، فمضى الشعراء يتحدثون عن تقواهم وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية . ونشب صراع حاد بين الأمويين من جهة والخوارج والشيعة من جهة ثانية فى الحاكم الأعلى للمسلمين وما ينبغى أن يتحلّى به من صفات دينية . ولم يلبث شعراء بنى أمية أن نفذوا من ذلك إلى تمجيد الأمويين ورسم إطار دينى لكل منهم ، وكان عمر بن عبد العزيز مثالا حقًّا للحاكم الأموى التقى ، فأكثر الشعراء من رسم إطار التقوى الذى يُطيف به وبحكمه ، على شاكلة قول كُثَيِّر (٣) :

وصدَّقتَ بالفعل المقالَ مع الذى أتيتَ فأمسى راضيا كلُّ مسلمِ

وقد لبِسَتْ لِبْسَ الهَلُوك ثيابها تراءى لك الدنيا بكفٍّ ومِعْصَمِ

وتومض أحيانا بعينٍ مريضةٍ وتَبْسِمُ عن مثل الجُمان المنَظَّم

---

(١) يلملم : جبل على مرحلتين من مكة .

(٢) أغانى ٦/٣٢٨ .

(٣) ديوان كثير (طبعة الجزائر) ٢/١٢٣ .

فأَعرضتَ عنها مشمئزًّا كأَنما   سَقَتْك مَدُوفاً من سِمامٍ وعَلْقَم(١)
تركتَ الذى يفنى وإن كان مونقا   وآثرتَ ما يبقى برأْيٍ مصمِّم
وأَضربتَ بالفانى وشمَّرت للذى   أَمامك فى يوم من الشر مُظْلِم

وهو لا يصور فى عمر التقوى فحسب ، بل يصور فيه أيضاً الزهد والإعراض عن الدنيا وفتنتها ومتاعها الزائل الذى يغُرُّ الناس من حوله . وتتسع هذه الصورة فى مديح الشيعة لأئمتهم على نحو ما نجد فى هاشميات الكُمَيْت وفى شعر أيمن بن خُرَيم إذ يقول فى بنى هاشم(٢) :

نهارُكمُ مكابدةٌ وصومٌ   وليلكمُ صلاةٌ واقْتِراءُ
وَلِيتم بالقُران وبالتزكِّى   فأَسرع فيكمُ ذاك البلاءُ

وعلى نحو ما تأثر المديح بالإسلام ومثاليته الروحية تأثر الهجاء ، إذ أخذ الشعراء يهجون خصومهم بانحرافهم عن الدين ، فأطالوا فى وصفهم بالفسوق والبغى والطغيان كقول جرير فى آل المهلب(٣) :

آلُ المهلب فرَّطوا فى دينهم   وطغَـوْا كما فعلتْ ثمود فباروا

ودائماً يرمى شعراء الشيعة الأمويين بالظلم وانتهاك الحُرمات وتعطيل أحكام الدين وابتداع ما لم يأت به كتاب ولا سُنَّة من مثل قول الكميت(٤) :

لهم كلَّ عامٍ بدعةٌ يحدثونها   أَزلّوا بها أَتباعهم ثم أَوْحَلُوا
كما ابتدع الرهبان ما لم يجىْ به   كتابٌ ولا وَحْىٌ من الله مُنْزَلُ
تَحِلُّ دماءُ المسلمين لديهمُ   ويَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلة المتهدِّل

واشتد لهب الهجاء — كما قدمنا فى غير هذا الموضع — بتأثير العصبيات ، ولم يكد يَنْجُ منه خليفة ولا وال ولا شريف ، بل حتى القُرَّاء كان يتعرض لهم الشعراء ، وخاصة إذا رأوهم يداجون أولى الأمر ، فكانوا يرمونهم بالنفاق وأنهم

---

(١) مدوفاً : مزيجاً .
(٢) أغانى (ساسى) ٢١/٦ .
(٣) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ٢١٩ .
(٤) الهاشميات ص ١٢٣ .

ليسوا صادقين فيما يظهرون من تقوى وصلاح ، على شاكلة قول ذى الرمة ساخراً من إحدى طوائفهم[١] :

أما النبيذ فلا يَذْعَرْك شاربُهُ ... واحفظْ ثيابك ممن يشرب الماءَ
قومٌ يُوَارُونَ عما فى صدورهمُ ... حتى إذا استمكنوا كانوا همُ الداءَ
مشمِّرين إلى أنصاف سُوقِهم ... همُ اللصوص وهم يُدْعَوْن قُرَّاءَ

ولعلنا لا نُبْعِد إذا قلنا إن شعر الحماسة كان أقوى فى تأثره بالإسلام من شعر الهجاء والمديح ، إذ كان يُنْظَمُ أكثره فى الجهاد ، ومعروف أنه كان دائماً فى صفوف المحاربين قُصَّاصٌ وعاظ يحثُّونهم على الاستشهاد فى سبيل الله، حتى يفوزوا برضوانه ، ومن ثَمَّ تحولت بعض القطع الحماسية التى نُظمت فى خراسان إلى مواعظ خالصة ، كقول نصر بن سيَّار[٢] :

دَعْ عنك دُنْيا وأَهْلاً أنت تاركهم ... ما خَيْرُ دُنْيا وأهلٍ لا يدومونا
وأكثِرْ تُقَى الله فى الأسرار مجتهدا ... إن التُّقَى خَيْرُهُ ما كان مكنونا
واعلمْ بأنك بالأعمال مُرْتَهَنٌ ... فكُنْ لذاك كثير الهمِّ محزونا
وامنَحْ جهادَك من لم يَرْجُ آخرةً ... وكُنْ عَدُوًّا لقومٍ لا يصلُّونا
فاقتلهمُ غَضباً لله منتصرا ... منهم به ، ودعِ المرتابَ مفتونا

وواضح أن نصراً يزهد فى الدنيا ومتاعها الفانى بما يذكر من هلاك الأهل، ويدعو إلى التقوى فى السر والخفاء مذكِّراً باليوم الآخر وما ينبغى أن يُتَّخذ له من ذخر الجهاد والذبِّ عن دين الله ، وبيع النفس فى محاربة أعدائه .

وكانت حرب الخوارج حرباً دينية خالصة ، أما هم فآمنوا بأنهم على الحق وأن المسلمين من غيرهم خرجوا على حدود الله وأنه ينبغى جهادهم حتى يعودوا إلى حياض الشريعة . وبنفس الصورة كان يراهم المسلمون من خصومهم ويرون جهادهم فرضاً مكتوباً . وبذلك كانت أشعار الطرفين تُغْمَسُ غمساً

---

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبر يدج) ص ٦٦١ .
(٢) طبرى ٥/٤٣٣ .

فى العقيدة الدينية ، فهم إنما يحاربون من أجلها وفى سبيلها ، ونحس كأنما غاية كل خارجى أن يُقْتَلَ حتى يُكْتَبَ فى سجل المستشهدين .

وكان شعر من حاربوهم يسيل بالدعوة للاستبسال فى الحرب وجهاد هذه الفرقة التى زاغت فى رأيهم عن طريق الهدى ، ومن خير ما يصور ذلك قول كعب الأشقرى فى ملحمته الطويلة التى وصف فيها قتال المهلب للأزارقة وقضائه عليهم [١] :

إنا اعتصمنا بِحَبْلِ الله إذ جَحَدُوا ‏ ‏ ‏ بالمُحْكمات ولم نكفر كما كفروا

جاروا عن القَصْد والإسلام واتبعوا ‏ ‏ ‏ دينا يخالف ما جاءتْ به النُّذُرُ

وكان كثيرون يُقْتَلون فى هذه الحروب ، فكان الشعراء يندبونهم ندباً حارًّا ، مازجين ندبهم بما ينتظرهم من نعيم الخلد ، كقول الضحاك بن قيس يرثى بهلولا الصُّفْرِىَّ الذى خرج لعهد هشام بن عبدالملك وقُتل [٢] :

يا عَيْنُ أَذْرِى دموعاً منك تَهْتانا ‏ ‏ ‏ وابكى لنا صُحْبةً بانوا وإخوانا

خَلَّوا لنا ظاهر الدنيا وباطنهـــا ‏ ‏ ‏ وأَصبحوا فى جِنان الخلد جيرانا

وتعمُّ هذه الروح الدينية فى مراثى من قُتلوا من العلويين منذ على بن أبى طالب ، وقد تحوَّل مقتل الحسين منذ حدوثه إلى عويل وتفجع رهيب . وكان من يرثون الأمويين يستشعرون هذه الروح فى مراثيهم ، كقول جرير فى عمر بن عبد العزيز [٣] :

حُمِّلْتَ أمرا عظيماً فاصطبرتَ له ‏ ‏ ‏ وقمتَ فيه بأَمر الله يا عمرا

بل لقد طُبع الرثاء عامة بطوابع هذه الروح وما يُطْوَى فيها من التسليم لله والرضا بقضائه ، فكلُّ نفس ذائقة الموت ، وهو حَتْمٌ فى رقاب العباد ، وعليهم أن يتذرَّعوا إزاءه بالصبر الجميل .

---

(١) طبرى ٥/١٢٥ .
(٢) طبرى ٥/٤٦٠ .
(٣) الديوان ص ٣٠٤ .

وعلى هذه الشاكلة كان الإسلام يؤثر فى نفسية الشعراء ، وانعكس هذا التأثير على الموضوعات المختلفة التى نظموا فيها حتى وصف الصحراء ، فإننا إذا قرأنا هذا الوصف عند ذى الرمة أحسسنا أن قلبه يمتلىء بالرحمة والشفقة والعطف البالغ على الحيوانات .

وليس هذا كله جميع ما أثّر به الإسلام فى الشعر الأموى ، فإنه فجّر ينبوعاً ، كان قد أخذ يسيل منذ ظهور الإسلام على ألسنة بعض الشعراء ، ولكن سيله لم يبلغ ما بلغه فى هذا العصر . ونقصد ينبوع الزهد وما يُطوى فيه من الدعوة للعمل الصالح . وسنرى فى غير هذا الموضع كثرة الشعراء الذين تدفق على لسانهم هذا الينبوع الغزير ، بحيث أصبح موضوعاً قائماً بنفسه ، وبحيث أخذ فريق من الشعراء الذين لم يُعرفوا بزهد يستظهرون صوراً إسلامية كثيرة فى شعرهم ، بل حتى نجد الفرزدق المستهتر ينظم قصيدة فى إبليس الرجيم [١]. ولم يصطبغ الشعر وحده بالمثالية الدينية وما يرتبط بها من معان ، فقد جاراه الرجز فى هذا الاصطباغ حتى لنجد رجازاً كثيرين يبدءون أراجيزهم بحمد الله ، وقد يمضون فيتحدثون عن خلق السموات والأرض ، وكثيراً ما يضيفون أدعية وابتهالات لربهم .

والحق أن الإسلام أثّر أثراً واسعاً فى نفوس الشعراء ، وهو أثر ما زال يتعمق نفراً منهم حتى انقلبوا وعاظاً يعظون الناس ويذكّرونهم باليوم الآخر وما ينتظرهم من الثواب والعقاب ، وهم فى أثناء ذلك يتحدثون عن الموت وما تخرّم من قرون بعد قرون ، كما يتحدثون عن الدنيا ومتاعها الزائل مصوّرين طريق النجاة وأنه يقوم على التقوى والعمل الصالح ومجانبة كل خلق ردىء من مثل الكبر والبخل والخيانة ، والتحلى بكل خلق كريم من مثل التواضع والجود والأمانة .

٣

السياسة

قام الإسلام على تقرير السيادة الإلهية وسيطرتها على أمور المسلمين الدينية والدنيوية سيطرة تنهض على مبادئ الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهى عن

---

(١) الديوان ٢/٧٦٩ .

المنكر . وبذلك فرض الإسلام على كل مسلم أن يشترك فى الحياة العامة للجماعة ونشاطها السياسى ، وهو نشاط ينبغى أن يقوم على مبادئ الدين ومقاصده السامية .

وقد رأينا — فى غير هذا الموضع — كيف أن الحوادث تطورت بعد مقتل عثمان ، فولى على ، ونشبت بينه وبين السيدة عائشة وطلحة والزبير موقعة الجمل ، ثم نشبت معركة صفين بينه وبين معاوية . وكان التحكيم ، فخرج جمع كبير من جيشه ثائرين ضده ، ولم يلبث أن قتل ، فتحولت الخلافة إلى معاوية وبيته الأموى وأصبحت وراثية فى هذا البيت . وكان الأمويون فى نظر كثيرين لا يمثلون الحكام الجديرين بالدولة الإسلامية ، لأنهم عادوا الإسلام فى أول ظهوره ، وبذلك كانوا يعدون مغتصبين للخلافة . وزاد فى الحنق عليهم أن سيرة يزيد بن معاوية وابن أخته يزيد بن عبدالملك وابنه الوليد لم تكن سيرة مرضية . وأيضاً فإن عمالهم ظلموا الناس. ومن أجل ذلك سخط عليهم جمهور من القراء أهل التقوى والورع ، غير أن هذا الجمهور لم يكون حزباً لمعارضتهم معارضة إيجابية ، فقد اكتفى بإشاعة السخط فى الناس ، واشترك منه نفر فى بعض الثورات عليهم ، لكنه على كل حال لم يقم بثورة منظمة . على أنه ينبغى أن نشير إلى ثورة المرجئة فى خراسان بقيادة الحارث بن سريج ، وسنعرض لها فى حديثنا عن الثقافة وأصحاب المقالات الكلامية .

والحجاز والعراق هما أهم المراكز التى نشأت فيها المعارضة لبنى أمية ، وقد بدأت معارضة الحجاز لهم منذ حاول معاوية إسناد ولاية العهد لابنه يزيد وأخذه البيعة على ذلك من أهل الأمصار ، فإن فريقاً من أبناء كبار الصحابة مثل الحسين بن على وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر أبوا أن يبايعوا ليزيد . فلما ولى الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة أن يشدد على هؤلاء الثلاثة فى أخذ البيعة تشديداً ليس فيه رخصة ، فبايع عبد الله بن عمر ، وفر الحسين وعبد الله بن الزبير إلى مكة . ولم يلبث أهل الكوفة أن استدعوا الحسين لبيعته ، فخرج وقتل بكربلاء على حدود العراق . أما ابن الزبير فعاذ بالبلد الحرام الذى لا يحل فيه القتل وسفك الدم ، ولما يئس يزيد من بيعته له أرسل إلى عامل المدينة أن يأخذها منه كرهاً ، فبعث

إليه بأخيه عمرو بن الزبيرِ على رأس جيش ، وكان بينهما مغاضبة ، ولم يُفْلح هذا الجيش فى مهمته ، وقبض عبد الله على أخيه وقتله تحت السياط .

وفى هذه الأثناء رأى عامل المدينة أن يبعث إلى يزيد بطائفة من أشرافها ، ولما مثلوا بين يديه أكرمهم وأعظم جوائزهم ، غير أنهم رجعوا يثيرون عليه الناس ويقولون : « إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ويشرب الخمر ويعزف بالطنابير وتَضْرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الخُرّاب والفتيان[1] » . وثار أهل المدينة وبايعوا عبد الله بن حنظلة ، فأرسل إليهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المُرِّى ونشبت بين الفريقين معركة الحَرَّة المشهورة التى استُبيحت فيها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثةَ أيام ، وقد بكاها من الشعراء كثيرون[2] . وولَّى بعد ذلك جيش مسلم وجهه نحو مكة ، وسمع بذلك بعض الخوارج فنفروا لمساعدة ابن الزبير ، وحدث أن توفِّى مسلم فى طريقه ، فخلفه الحصين بن نُمَير السَّكونى ، ومضى حتى حاصر مكة وابن الزبير ، غير أن الأنباء جاءته بوفاة يزيد سنة ٦٤ للهجرة ، ففكَّ الحصار وعاد إلى الشام .

وهيَّأ ذلك لأن تتسع دعوة ابن الزبير . فإن الأمصار اضطربت على ولاة بنى أمية حتى الشام ، إذ بايع بعض ولاتها ابن الزبير ودعمته هناك قبائل قيس . ولم تلبث مصر أن دخلت فى طاعته كما دخلت الكوفة والبصرة وخراسان ، غير أن المختار الثقفى دعا لابن الحنفية (أحد أبناء على من سيدة من بنى حنيفة) فى الكوفة وأخرج منها عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير ، الذى انتقم منه بحبس ابن الحنفية فى سجن عارم بمكة ، وولَّى على البصرة بدلا من عبد الله بن الحارث الملقب بالقُباع أخاه مصعباً ، فنازل المختار الثقفى وقضى عليه ، وبذلك عادت الكوفة إلى الدخول فى طاعة ابن الزبير . وتلقانا فى هذه الأحداث أشعار كثيرة مبثوثة فى الطبرى .

ومنذ أول الأمر تدور الدوائر على قيس فى موقعة مَرْج راهط بالشام ، ويخلص هذا الإقليم لمروان بن الحكم ، وتتبعه مصر ، وسرعان ما يخلفه ابنه

---

(١) طبرى ٣٦٨/٤ .

(٢) طبرى ٣٧٠/٤ وراجع كلمة حرة فى معجم البلدان لياقوت .

عبد الملك. فيتريث فى القدوم على مصعب بجيوشه ، حتى يرى ما يكون من أمره مع المختار الثقفى . ويُشْغَلُ مصعب بعد المختار بالخوارج ، ويَقْدُمُ عبد الملك فيقضى عليه ، ويُرْسل الحجاجَ إلى ابن الزبير بمكة ، فيهزمه ويقتله فى سنة ٧٣ . وكان ابن الزبير شحيحاً ، ومن ثم هجاه فَضالة بن شريك هجاء مرًّا[1]. أما مصعب فكان جواداً ممدَّحاً، ولذلك مدحه ورثاه غير شاعر [2] :

وبمجرد القضاء على ابن الزبير فى مكة دخل الحجاز فى طاعة بنى أمية ، ولم يعد للثورة عليهم طوال العصر . أما العراق فكان موطن الخصومة الحقيقية لهم ، إذ كان فيه الخوارج وخاصة فى البصرة لأول هذا العصر ، وكان فيه الشيعة وخاصة فى الكوفة ، وكان فيه كثير من أشراف العرب الذين كانوا يعدُّون بنى أمية غاصبين للخلافة. ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع انتقاض عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عليهم وكذلك انتقاض يزيد بن المهلب. وكان هناك كثير من الرقيق الذين كانت تعاملهم الدولة فيما يظهر معاملة قاسية، مما جعلهم يثورون مراراً، مرة فى عهد المغيرة بن شُعْبة والى الكوفة[3]، ومرة ثانية فى عهد مصعب ، ومرة ثالثة فى عهد الحجاج ، وكان الزنج هم الذين أشعلوا الثورتين الأخيرتين ، وسجَّل ذلك بعض الشعراء فى أشعارهم[4].

على أن هذه الثورات الجانبية لا تُقاس فى شىء إلى ثورات الخوارج التى امتدَّ لهبها إلى أركان كثيرة فى العراق والموصل وإيران واليمامة وحضرموت وعُمان . وكان أول ظهورهم عقب التحكيم بين على ومعاوية وما كان من رِضا على به، فقد تنادى فريقٌ من جيشه: لا حُكْم إلا لله، وبذلك شقّوا عصا الطاعة عليه ، ولم يلبثوا أن عدّوه ومن معه ضالين وتجب الهجرة عنهم كما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة ، وفعلا هاجروا إلى حَرُوراء بالقرب من الكوفة ، ولذلك سموا الحرورية. وسُمُّوا أيضاً الخوارج ، لأنهم خرجوا على الجماعة ، أو لعلهم هم الذين سمُّوا أنفسهم بذلك أخذاً من قوله تبارك وتعالى :

---

(١) أغانى ١/١٥ وانظر ١٢/٧١ وما بعدها.

(٢) انظر الأغانى ٦/٣٣ وابن سلام ٥٣٠ والطبرى ٤/٥٩٢ ، ٥/٩ وما بعدها .

(٣) اليعقوبى ٢/٢٦٢ .

(٤) طبرى ٥/٣٣٨ وما بعدها .

(ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله). وسمّوا أنفسهم الشُّراة أخذاً من قوله جلّ وعز : (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله). وكان الذى أثارهم أنهم رأوا عليًّا ومعاوية يقتتلان على الخلافة ، كأن الأمر ليس أمر الله إنما هو أمر أشخاص ، فثاروا على ذلك ثورة عنيفة اعتبروها جهاداً فى سبيل الله وسبيل دينه الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وجاهدوا عليًّا ، ولكنه نكّل بهم فى موقعة النهروان . ولم يلبث ابن مُلْجم المرادى أن قتله لينال رضا امرأة منهم [١] . وتحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية فرأوا فيه إماماً زائفاً ، وأخذت تتكوّن عقيدتهم بسرعة حول محور ثابت هو أن الخلافة ينبغى أن لا تحتجزها قريش لنفسها من دون المسلمين ، فهى ليست حقًّا لقريش ، إنما هى حق لله وينبغى أن يتولاها أكفأ المسلمين لها وخيرهم تقوى وورعاً ولو كان عبداً حبشيًّا . ومضوا يعتقدون أنهم وحدهم الجديرون بوصف الإسلام ، مؤمنين بأنه لا يتجاوز حدود معسكراتهم ، ومؤمنين أيضاً بأن من واجبهم أن يجاهدوا الجماعة التى ارتضت الأمويين وما ثبّتوه من نظام الوراثة للخلافة فى بيتهم . وكانت آراؤهم تعمل عمل السِّحْر فى كثير من النفوس ، فانضم إليهم كثير من العرب والموالى والأتقياء . ونراهم يُغْمدون سيوفهم لأول عهد معاوية ، ولكن لا تلبث طائفة منهم أن تخرج فى الكوفة بقيادة المستورد بن علّفة سنة ٤٣ وسرعان ما يُقْضَى عليهم . وتهدأ الكوفة حتى سنة ٥٨ فتثور منهم جماعة بقيادة حيان بن ظُبْيان وينتظرهم نفس المصير ، ولا يعودون بعد ذلك إلى الظهور فى الكوفة ، إذ لم يكن بها جمهورهم الكبير . بل كان فى البصرة ، وهى لذلك تُعَدُّ مهد نشاطهم الأول . وقد تولّى أمرها زياد ابن أبيه ، فأخذهم أخذاً عنيفاً اضطرّوا معه إلى الاستتار . وخلفه ابنه عبيد الله فمضى فى سياسته ، وعنُف بهم ، فأكثر من حبسهم وقتلهم ، وكان ممن قتله من رجالهم عروة بن أُدَيَّة ومن نسائهم البَلْجاء ، ولم يلبث أبو بلال مرداس أخو عروة أن خرج فى أربعين رجلا إلى الأهواز سنة ٥٨ فبعث إليه ابن زياد جيشاً عليه ابن حصن التميمى عداده ألفان ، غير أن الجيش هُزم هزيمة نكراء عند « آسك » فقال رجل من بنى تيم الله بن ثعلبة [٢] :

---

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٥٤٩ . (٢) طبرى ٢٢٢/٤ وانظر الكامل ص ٥٨٨ .

أألفا مؤمنٍ منكم زعمتم ويقتلهم بآسَكَ أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكنَّ الخوارج مؤمنونا
همُ الفِئَةُ القليلةُ قد علمتم على الفئة الكثيرة يُنْصَرُونا

وأرسل إليه ابن زياد جيشاً آخر بقيادة زُرْعة بن أسلم العامرى ، فلم يكن حظه خيراً من حظ سابقه ، حتى إذا كانت سنة ٦١ بعث إليه عباد بن علقمة فهزمه وقضى عليه . وقد تطايرت مع معاركه أشعار كثيرة .

وعاد الجيش المنتصر إلى البصرة ، فتصدى عبيدة بن هلال الخارجي ونفر معه لقائده فقتلوه غيلةً ، وأخذ كثير من الخوارج يدعو للاقتداء بأبى بلال فى خروجه شعراً[١] وغير شعر . وسمع فريق منهم بأن جيشاً سَيُسَيَّر لابن الزبير فى مكة ، فخرجوا إليه ليعينوه ضدَّ من سيهاجمونه هو والبلد الحرام . وتوفّى يزيد فرجع أهل الشام إلى ديارهم ، وانفضَّ الخوارج من حول ابن الزبير ، إذ رأوه لا يرى رأيهم ، وفى مقدمتهم نَجْدة بن عامر الحنفى ونافع بن الأزرق وعبد الله بن الصفّار وعبد الله بن إباض . وذهبوا إلى البصرة ، وأخذوا يَدْعون لمحاربة السلطان ، وساعدهم فى شَغَبهم فرار عبيد الله بن زياد عقب وفاة يزيد إلى الشام وانتقاض تميم وحلفائها على الأزد ومن آزرها . وانتهز نافع بن الأزرق الفرصة فخرج بجمع كبير من الخوارج إلى الأهواز ، وطرد منها عمّال ابن زياد ، وتخلّف عنه نَجْدة بن عامر وابن الصفار وابن إباض ، إذ رأوه يغلو فى آرائه ، وذلك أنه كان يرى دار المسلمين دار كفر يجب الخروج عنها كما يجب تحريم ذبائحهم وميراثهم والتزوج منهم ، وأيضاً يجب قتلهم وقتل نسائهم وأطفالهم ، وسلك ابنُ الأزرق معهم القَعَدَةَ من الخوارج . وخالفه فى كل ذلك الثلاثة الذين سميناهم فقد ذهبوا إلى أن المسلمين ليسوا كفارَ دينٍ لتمسكهم بالتوحيد والقرآن السنة ، إنما هم كفار نعمة ، ومن ثَمَّ يحل التزوج منهم كما يحل التوارث بينهم وبين الخوارج ، وحقًّا يجب جهادهم ولكن لا يصحُّ قتل أطفالهم ، وأجمعوا

(١) الكامل ص ٥٩٠ ، ٥٩٥ .

على أن القَعَدة منهم ليسوا كفاراً[١] . ومضى نجدة بأصحابه الذين يسمون بالنَّجَدات نسبةً إليه فنزل اليمامة ، وأعلن هناك الجهاد ، أما عبد الله بن الصفَّار الذى تنسب إليه الصُّفْرية ، لصفرة وجوههم من أثر العبادة[٢] فإنه لم يُعْلن الخروج ، ومن أجل ذلك شاع القعود عن الجهاد بين أنصاره[٣] .

وقد انضمَّ إلى نافع بن الأزرق كثيرٌ من جموع الخوارج الذين دانوا برأيه ، وهم يسمون الأزارقة نسبة إليه ، وكان من بنى حنيفة ، إلا أن أكثر أنصاره كانوا من بنى تميم ، ولم يلبث أن جَهَّز جيشاً كبيراً اتجه به إلى البصرة فخرج إليه مسلم بن عُبَيْس فى جيش ضخم ، وما زال يدافعه حتى كانت وقعة دولاب على نهر دُجَيل فى الأهواز وفيها قُتل نافع ومسلم معاً ، وتوالت وقائع أخرى قُتل فيها عبد الله بن الماحوز خليفة نافع . وتصدَّى لهم المهلب فى سولاف ثم فى سِلَّى وسِلَّبْرى ، وانسحب الخوارج إلى الجبال بقيادة الزبير بن الماحوز ، وهزمهم عمر بن عبيد الله بن معمر عند سابور ، فانسحبوا إلى أصفهان وكرمان وتعقبهم هناك عتّاب بن ورقاء وقتل أميرهم الزُّبير فولَّوا عليهم قَطَرِيّ بن الفُجاءة وتقدَّم بهم إلى العراق ، فوجَّه إليهم مصعب المهلبَ ، فصدهم وما زال يناوشهم حتى قُتل مصعب ، وتحوَّل الأمر إلى بنى أمية ، فأرسلوا إليهم قواداً حالفتهم الهزائم ، حينئذ وجَّه إليهم بشر بن مروان المهلبَ عدوَّهم اللدود ، وما زال يخضد من شوكتهم فى رامهرمز وسابور وكرمان ، وتعقبهم إلى جيرفت ، ولم يلبث أن دبَّ الخلاف بينهم ، وتحاربوا ، إذ خرج على قطرىٍّ جماعةٌ كبيرة من صفوفه بزعامة ابن عبد ربّ ، وكان أكثرهم من الموالى . ورأى قطرى أن ينسحب بجموعه إلى طبرستان ، وبذلك قضى المهلب سنة ٧٨ على عبد رب وأصحابه قضاء مبرماً ، وتعقبت جيوش أخرى قطريًّا وصاحبه عبيدة بن هلال ، وكُللت جهودها بالنجاح ،

---

(١) الكامل ص ٦١٠ — ٦١٥ وانظر الفرق بين الفرق للبغدادى ٦٢ وما بعدها والشهرستانى (طبعة لندن) ص ٩٠ ، ٩٣ ، ١٠٠ — ١٠٢ وما بعدها حيث تجد تفصيلا لآراء هذه الفرق .

(٢) الكامل ص ٦١٥ .

(٣) نفس المصدر ص ٦١٥ والشهرستانى ص ١٠٢ .

وبذلك انتهت حروب الأزارقة التى استمرت نحو أربعة عشر عاماً ، وقد تطاير فيها شعر كثير [١] .

وقد قلنا إن نجدة خرج بمن معه إلى اليمامة ، فأخضعها ، كما أخضع البحرين وعُمان ، وساعده اضطراب شئون الدولة فى عهد ابن الزبير على أن يتسع نفوذه فى اليمن وجزيرة العرب . غير أن خلافاً نشب بينه وبين بعض أنصاره ، فولَّوا عليهم أبا فُديك سنة ٧٢ وقد هاجم البصرة مراراً ، غير أنه هُزم فى سنة ٧٣ هزيمة ساحقة قضت على دولة النجدات قضاء مبرماً .

وشاع مذهب الصُّفْرية فى الموصل ، وشاع معه القعود عن الخروج إلى أن ظهر فيهم صالح بن مسرِّح ، وكان من وعَّاظهم ، فما زال يدبر للأمر حتى اجتمع حوله كثيرون ، فخرج بهم فى سنة ٧٦ وأنزل بجيوش الحجاج هزائم متوالية ، غير أنه لم يلبث أن قُتل فى إحدى الوقائع . فنهض خليفته شبيب بن يزيد ومعه زوجته غَزالة وأمه جَهيزة بمقارعة الحجاج مقارعة عنيفة حتى لقد قتل خمسةَ قواد أرسلهم إليه واحدا بعد واحد . ودخل فى بعض غاراته مع زوجته غزالة على الحجاج فى الكوفة ، فهُرع إلى قصره ، وتحصَّن به منه ، وبذلك جلَّله بالعار . وفى إحدى حروبه نفرَ به فرسه فغرق فى نهر دُجَيْل سنة ٧٧ غير أن ذكراه بقيت خالدة فى ذاكرة الخوارج . وظل صُفرية الموصل بعده لا يهدءون فقد تجدد خروجهم فى عهد يزيد بن عبدالملك بقيادة شَوْذب ، وقضت عليه جيوش الشام ، وخرج بعده فى عهد هشام بهلول بن بشر ، وقضت عليه جيوش خالد القسرى ، وكان آخر ثُوَّارهم الضحاك بن قيس الذى استولى على العراق فى سنة ١٢٧ وبايعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليها وسليمان بن هشام وصلَّيا خلفه فقال شُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعى [٢] :

أَلم تر أَن الله أَظهر دينَهُ ... وصَلَّتْ قريشٌ خلف بكر بن وائلِ

وأرسل إليه مروان بن محمد ابنه عبد الله ثم نازله بنفسه فقضى على ثورته .

---

(١) انظر الكامل للمبرد ص ٦١٧ — ٧٠٣ . فى مواضع متفرقة من الجزء الخامس وكذلك

(٢) البيان والتبيين ١/٣٤٣ وانظر فى أحداث الطبرى الكامل للمبرد .

وظل أنصار عبد الله بن إباض المسمون بالإباضية نسبة إليه لا يتحركون ، حتى ظهر من أتباعه فى سنة ١٢٩ عبيد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق فى حضرموت فاستولى عليها وعلى اليمن ، وجهّز جيشاً بقيادة أبى حمزة للاستيلاء على مكة والمدينة ، واستولى عليهما غير أن جيشاً أمويًّا لقيه فى وادى القُرَى وهزمه هزيمة ماحقة فرّ على إثرها إلى مكة ، وهناك لحقه الجيش وقتله ، وتقدم هذا الجيش فقضى على عبيد الله بن يحيى وعاد الأمر إلى نصابه .

وكان الشيعة طوال العصر يعارضون بنى أمية جهراً وسرًّا ، وكان مركزهم الكوفة كما قدمنا ، ويُضْطَرّ زياد بن أبيه إلى العنف بهم كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع حتى إذا وجد أهلها الفرصة بعد وفاة معاوية كاتبوا الحسين ليذهب إليهم لأخذ البيعة ، ويُقْبل الحسين فلا يخفّوا إلى نجدته ، ويُقْتَل فى كربلاء ، ويتحوّل قتله فى نفوس الشيعة ناراً حامية لا تزال تسيل عويلا وحُرَقاً لاذعة[1] . ثم تكون حركة التوّابين بزعامة سليمان بن صُرَد ، ويُقْضَى عليها ، ويبكيهم أعشى همْدان فى قصيدة طويلة كانت من المكتّمات فى أيام بنى أمية[2] .

ويتولى المختار بعد سليمان بن صُرَد قيادة الشيعة فى الكوفة ، فيخرج عنها والى ابن الزبير ، ويدعو دعوة صريحة لابن الحنفية ، وهو — كما أسلفنا — ابن لعلى بن أبى طالب من امرأة من بنى حَنيفة . وسرعان ما أخذت تتكون حول دعوته نظرية شيعية تسمى الكيسانية نسبة لمولى يسمى كَيْسان ، وقيل بل كيسان هو المختار نفسه . وتشترك هذه النظرية فى الأسس التى قام عليها التشيع ، وهى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة من بعده لعلى ، فهى ليست مفوَّضة للأمة ، بل هى تنتقل بالوصية فى على وأبنائه المعصومين من الأئمة انتقالا طريقه النص . وزادت الكيسانية أفكاراً غالية استمدتها من السبئية المنسوبين إلى عبد الله بن سبأ ، وكان

---

(١) انظر الطبرى فى حوادث سنة ٦١ ومقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى (طبع الحلبى) ص ١٢٦ .

(٢) طبرى ٤٧٢/٤ . ص ١٠٤ وما بعدها ومعجم الشعراء للمرزبانى

يغلو فى تصور علىّ ، حتى لقد زعم أن به قبساً إلهيًّا ورثه عن الرسول ، وهو ينتقل من بعده فى الأئمة واحداً تلو الآخر ، وبذلك أشاع فكرتى الحلول والتناسخ ، وأيضاً فقد زعم أن عليًّا سيعود فيملأ الأرض عدلا وعلماً ونوراً ، وبذلك وضع أسس فكرة الرَّجْعة . ومضى يزعم أن الإمام لا يعلم علم الظاهر فحسب ، بل هو يعلم أيضاً علم الباطن لاطلاعه على أسرار الكون وخفايا المغيبات .

وكل هذه الأفكار انزلقت إلى الكيسانية[١] وزاد المختار عليها شعوذات[٢] كثيرة ، من ذلك أنه كان يقول بالبَداء على الله أى أن له أن يعدّل فى الأحكام كلما بدا له التعديل ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً. وإنما اعتنق هذا القول لأنه كان يدّعى علم ما يحدث من الأحوال بوحىٍ يوحَى إليه ، فكان إذا وعد أصحابه بحدوث شىء ، فإن حدث جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يحدث يقول : قد بَدا لربكم . وكان يزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدى المنتظر الذى يخلِّص العالم من شروره ، وكان يتكهن بالأسجاع ، واتخذ لأشياعه كرسيًّا غشّاه بالديباج وقال لهم : إنه من ذخائر أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وهو منكم بمنزلة التابوت فى بنى إسرائيل . وكان يُكْثر من إرسال حمامات بيضاء على جيوشه زاعماً أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء ، وفى ذلك يقول سُراقة[٣] البارقى وقد فرّ عنه[٤] :

ألا أَبلغْ أَبا إسحاقَ أَنى ... رأيت البُلْقَ دُهْمًا مصمتاتِ[٥]

كفرتُ بوَحْيكم وجعلتُ نَذْرًا ... علىّ قتالكم حتى المماتِ

---

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٤ والملل والنحل للشهرستانى ص ١٠٩ .

(٢) الملل والنحل ص ١٠٩ — ١١١ .

(٣) انظر فى ترجمة سراقة الطبرى ٤/٥٢٦ وما بعدها والأغانى (طبع دار الكتب) ٨/١٣ ، ٦٨ ، ٩/١٣ وابن عساكر ٦/٦٩ والأخبار الطوال للدينورى ص ٣٠٠ وقد نشر ديوانه فى القاهرة بتحقيق حسين نصار .

(٤) طبرى ٤/٥٢٧ وأغانى ٩/١٣ .

(٥) البلق : الحمامات. مصمتات : لا يخالط دهمتها لون آخر .

ويقول أعشى همْدان[١] .

شهدتُ عليكم أنكم سَبَئِيَّةٌ وأنى بكم يا شُرْطَةَ الكُفر عارفُ
وأقسم ما كرسيُّكم بسكينةٍ وإن كان قد لُفَّتْ عليه اللفائف[٢]
وإن لُبِّس التابوت فُتْناً وإن سمتْ حمامٌ حواليه وفيكم زخارف[٣]

ولعل أهم فرقة شيعية بعد فرقة الكيسانية لهذا العصر هى فرقة الزيدية أتباع زيد بن على الذى ثار فى الكوفة سنة ١٢١ لعهد هشام بن عبد الملك ، وقُتل كما مرّ فى غير هذا الموضع ، وكان يؤمن بحقوق بيته فى الخلافة غير أنه لم يكن يؤمن بالنص فى الإمامة ولا ببقية الآراء الغالية عن الكيسانية وأشباههم ، وكان يجوّز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك جوّز إمامة أبى بكر وعمر مع وجود على ، وذهب إلى أن كل فاطمى عالم زاهد سخى شجاع قادر على القتال فى سبيل الحق يخرج للمطالبة به يصح أن يكون إماماً . وبكل ذلك كانت فرقة الزيدية ــ فى نشأتها ــ من أكثر فرق الشيعة اعتدالا[٤] ، وشاعرها الأول الذى عاش يردّد نظريتها الكُمَيْت . وهاشمياته مطبوعة ومشهوره . وخرج بعد زيد ابنه يحيى ولكنه قُتل سنة ١٢٥ دون غايته . وخرج من بعده عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ وانضم إليه كثيرون من أهل الكوفة ، وانتهى أمره بخروجه إلى بلاد الجبل ثم فراره وقتله . غير أن رايات الشيعة لا تلبث أن تقدم من خراسان ، وتكون نهاية بنى أمية .

ومن المحقق أن هذه الانقسامات العنيفة فى صفوف الأمة العربية لعصر بنى أمية وما جرّت إليه بين أبنائها من تطاحن ومعارك دامية جعلها تنتكس صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ ظلت طوال هذا العصر مشغولة بفتن وحروب داخلية لو لم تُشْغَلْ بها لفتحت أكثر العالم ولتغيّر وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ انقسم الشعب أحزاباً وصفوفاً تتحارب وتتناحر فى سبيل

---

(١) الحيوان ٢/٢٧١ .

(٢) يشير إلى الآية الكريمة التى كان يقصدها المختار فى اتخاذ كرسيه : (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم) .

(٣) فتن : جمع فتان وهو الغشاء .

(٤) أنظر فى الزيدية وعقيدتهم الملل والنحل ص ١١٥ .

الحكم ومطامعه ، ولو أنصفت الأمة لأخذت بنظرية الخوارج فأحقُّ الناس بحكمها أصلحهم سواء أكان من البيت الهاشمى أو من البيت الأموى أو من أى بيت من بيوت العامة ، فخير الأمة أنفعهم لإدارة شئونها ولو كان أبوه نجاراً أو حدّاداً أو راعياً من الرعاة . ومن الغريب أنهم أهملوا التفكير فى المصلحة العامة للشعب وما ينبغى أن يسوده من عدالة اجتماعية ومضوا يفكرون فى الخلافة ومن أحقُّ بها من سواه ، وكأنما انقلبت الوسيلة غاية ، تُسفَك من أجلها الدماء .

وفى كل الأحداث التى قدمناها سواء منها ما يتصل بالشيعة والخوارج وثوراتهما وما يتصل بأشراف العرب وثوراتهم على الأمويين تروى كتب التاريخ أشعاراً كثيرة ، إذ كان الشعر يجرى على كل لسان ، واتخذه الأمويون وخصومهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة .

٤

الحضارة

رأينا فى الفصل السابق كيف أن المدينة ومكة غرقتا فى نعيم الحضارة ، بما صَبَّ فيهما من أموال ورقيق أجنبى وجوار وإماء . وبمجرد أن هاجر العرب من الجزيرة ومصّروا الأمصار ونزلوا فى بلدان الأمم المفتوحة أخذوا يتأثرون تأثراً واسعاً بالحضارات الأجنبية ، إذ كانت تحت أعينهم ، وكانت حجورهم تمتلىء بأموال الفىء وغنائم الحرب وما رُسِم لهم فى دواوين الدولة من رواتب ثابتة . وسرعان ما تحضروا ، بل سرعان ما أُترفوا ، إذ ابتنوا القصور ، وطعموا فى أوانى الذهب والفضة مختلف الأطعمة . ولبسوا الثياب الحريرية المزركشة ، وتعطّروا بالمسك وغيره من أنواع الطّيب . وكان الموالى من ورائهم يهيّئون لهم جميع الأسباب لينعموا بكل ألوان الترف ، إذ اكتظّت بهم قصورهم ، يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد فى شىء من الحضارة ، فقد حُكى أنه قُدِّم لهم المرقّق فكانوا يحسبونه رِقاعا ، وعثروا

على الكافور فى خزائن كسرى فاستعملوه فى عجينهم . فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم فى مِهَنِهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المَهرة فى أمثال ذلك والقَوَمة عليه ، أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فى أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوّروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفُرش والآنية وسائر الماعون والخُرْثِىّ(١) فأتوا من ذلك وراء الغاية(٢) » .

وقد ورث العرب فى الشام المدنَ هناك ولم يمصّروا أمصاراً جديدة ، وبذلك عاشوا فى نفس المدن والدور والقصور التى كانت قبل الفتوح تتنفّس الحضارة اليونانية الرومانية . وكان ذلك سبباً فى سرعة تحضرهم ، إلا من آثر منهم العيش فى البادية . وكانت هناك دمشق حاضرة الدولة التى أخذت تسيل إليها سيول الذهب والفضة من كل قُطْر ، ثم توزّعها فى الناس من أهل الشام أولا ثم من أهل البلدان الأخرى ، واستنّ لهم ذلك معاوية الذى كان يَرِدُ بالناس على أرجاء وادٍ رَحْب(٣) ، ويؤْثَرعنه أنه كان يقول إننا تمرغنا فى نعيم الدنيا تمرغاً(٤) . ويظهر إثم هذا النعيم فى ابنه يزيد الذى عُرف عنه كما قدمنا أنه كان « يشرب الخمر ويَعْزف بالطنابير وتَضْرب عنده القيان ويلعب بالكلاب » . ويخلفه مروان ابن الحكم وأبناؤه الذين أحاطوا أنفسهم بكل ما يمكن من أبهة الملك لا فى قصورهم التى كانت تزدان بالطنافس وتلمع على حيطانها الفُسَيْفساء وصفائح الذهب وتترامى فى أفنيتها النافورات فحسب ، بل أيضاً فى بيوت الله ، وعنايةُ عبد الملك بالمسجد الأقصى وقبّته التى تُعَدّ إحدى عجائب الدنيا مشهورة ، وكذلك عناية الوليد ابنه بالجامع الأموى فى دمشق وزخرفته بالرخام والفُسَيْفساء والزجاج الملون أشهر من أن نقف عندها(٥) ، ولا تزال من ذلك بقية إلى اليوم . وقد بسَط هذه العناية على المسجد الحرام فى مكة ، فأحاله تحفة رائعة(٦) . ومما يُذْكَرُ له من مآثر أنه عَمّ بعطائه المجذّمين وقال لهم : لا تسألوا

---

(١) الخرثى : أثاث البيت .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية بمصر) ص ١٢١ .

(٣) طبرى ٢٩٨/٤ .

(٤) طبرى ٢٤٧/٤

(٥) الحيوان للجاحظ ٥٦/١ .

(٦) اليعقوبى ٣٤٠/١ .

الناس، وأعطى كل مُقْعَد خادماً وكل ضرير قائداً[١]. وتفنّن الناس لعهده فى بناء الدور والقصور، وخلفه سليمان فصبّ عنايته على الملابس والمطاعم وتأثّره الناس لعهده تأثراً واسعاً[٢]. وتظهر ضريبة هذا الترف عند يزيد بن عبد الملك الذى وصفه أبو حمزة الإباضى، فقال: إنه «يشرب الخمر ويلبس الحُلّة قُوِّمت بألف دينار... حَبابة عن يمينه وسَلاّمة عن يساره تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قدّ ثوبه، ثم التفت إلى إحداهما فقال: ألا أطير»[٣] وقد أرسل فى طلب مغنى الحجاز، فجاءه منهم كثيرون.

ولم تكن حمول الذهب والفضة تُحْمَلُ وحدها إلى بنى أمية من الآفاق، فقد كانت تُحْمَلُ معها حمول الجواهر واللآلىء كما يحدثنا الجهشيارى[٤]، ويَرْوى الطبرى أن يوسف بن عمر حمل إلى هشام بن عبد الملك لآلئ حَبُّها أعظم ما يكون وحجراً من الياقوت يخرج طرفاه من الكف، قُوِّم بثلاثة وسبعين ألف دينار[٥]. وقد بلغ الترف أقصاه فى عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى عاش للهو والغناء، حتى تحوّل قصر الخلافة فى عهده إلى ما يشبه داراً كبيرة من دور اللهو، ويقولون إنه «كان يلبس حول عنقه قلائد ذهبية مرصّعة بالأحجار الكريمة، ويغيّرها فى اليوم مراراً كما تغيّر الثياب شغفاً[٦]».

ومن المؤكد أن أفراد العرب فى الشام لم يتحولوا جميعاً إلى مثل الوليد بن يزيد ولا إلى مثل أبيه فى هذا الترف الآثم، إنما المؤكد أنهم تحضروا وأن نفراً منهم أُتْرِفوا، بعضهم من أمراء البيت الأموى وبعضهم من الرعية. وبالمثل تحضّر من نزلوا فى الفسطاط والقَيْروان والأندلس، وكانت كثرتهم من عرب الشام، الذين أصابوا حظًّا من الحضارة قبل الفتوح لنزولهم قديماً فى تلك البيئة المتحضرة.

---

(١) طبرى ٥/٢٦٥.
(٢) طبرى ٥/٢٦٦.
(٣) البيان والتبيين ٢/١٢٣.
(٤) نظر الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٧، ٣٤.
(٥) طبرى ٥/٥١٩.
(٦) أغانى ٧/٥٩.

وإذا ولّينا وجوهنا نحو البصرة والكوفة وجدنا العرب هناك يتحضرون تحضراً واسعاً رغم احتفاظهم بعصبياتهم القبلية ، إذ ساكنوا الفرس وبقايا الآراميين وخالطوهم ، وتحوّلت إليهم كنوز العراق وإيران وما كانوا يفتحونه من خراسان ، حتى كان يُقْسَم للفارس الواحد فى بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب[١] ، ومن يرجع إلى ما كتبه البلاذرى فى فتوح البلدان عن تمصير الكوفة والبصرة تهوله كثرة القطائع التى تملّكها الناس هناك من عرب وموال أمثال مسمار مولى زياد وفَيْرُوز حصين وحسّان النبطى . وكانت الحمامات تدرُّ فى البصرة لهذا العصر أموالا كثيرة ، حتى ليُرْوَى أن بعضها كان يُغِلّ يومياً ألف درهم ، ولم يكن يتملكها العرب وحدهم ، بل كان يتملكها أيضاً الموالى . ومما يذكره البلاذرى من حماماتهم حمام أَعْيَن مولى سعد بن أبى وقاص وحمام فيل مولى زياد وحمام سباه الأسوارى .

ونرى العرب والموالى جميعاً يتنافسون بالبصرة فى بناء القصور الفخمة ، ويذكر البلاذرى منها قصر زربى مولى عبد الله بن عامر وقصر أبى نافع مولى عبد الرحمن بن أبى بَكْرة وقصر ابن الأصبهانى وقصر شيرويه الأسوارى الذى سُمّى «هزاردر» لأنه اتخذ فيه ألف باب . ومما يدلُّ على مبلغ التأنق فى بناء هذه القصور ما يُرْوَى عن بعض التميميين بالبصرة من أنه طَلَب إلى معاوية أن يُعينه فى بناء داره باثنى عشر ألف جِذْع[٢] ، وكذلك ما يُرْوى من أن عبيد الله بن زياد أنفق على داره هناك التى سماها البيضاء ألف ألف درهم وأنه ملأها بالرياش والطنافس وزخرف حيطانها بتصاوير الحيوانات[٣] ، وفى نصوص كثيرة أنهم كانوا يحيطون قصورهم بالحدائق والبساتين[٤] .

وتبع ذلك كله الرَّفَه والترف فى المطعم والملبس ، حتى لنرى نفراً من الأتقياء يلبس الديباج والقلانس[٥] ، ونراهم يَكْنُون عن هذا التحول فى حياتهم بأنهم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ .

(٢) طبرى ٢٤٦/٤ .

(٣) راجع ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة البيضاء وانظر الطبرى ٤٠٢/٤ .

(٤) انظر الكامل للمبرد ص ٧٨٥ والبيان والتبيين ٨٢/٢ .

(٥) ابن سعد ١٣٩/٥ ، ٢٠٢/٦ ، ٧ ق ١٥٣/١ .

طعموا الجَرْدق ولبسوا النُّمْرُق[١]. وكانت الثياب والأطعمة تُحْمَل إليهم من البلدان القريبة والبعيدة ، ويُرْوَى عن الحجاج أنه كتب إلى عامل له بفارس «ابعث إلى بعسل من عسل خُلاَّر[٢] ، من النَّحل الأبكار ، من الدَّسْتفشار[٣] ، الذى لم تمسَّه النار[٤]». ومما يصور هذا الرفه فى العيش والتنعم مايُرْوَى من أن عبيد الله بن زياد هيأ لأبيه حين توفِّى ستين ثوباً ليكفنه فيها[٥] ، فلم يعد الثوب ولا الثوبان ولا الثياب القليلة تكفى الكفن الواحد .

وطبيعى أن يُعْنَوْا فى ثناياهذه الحياة الرَّغْدة بكثير من أسباب اللهو كسباق الخيل[٦] والصيد[٧] والقَنْص ولعبَى[٨] الشطرنج والنردوسنرى أن كثيرين تورطوا فى إثم الخمر . وقد أخذت الكوفة تُعْنَى بالغناء ولم تكتف بمن نشأوا فيها من أمثال حُنَيْن[٩] الحيرى وأحمد[١٠] النَّصْبى ، فقد أخذت تستقدم المغنين والمغنيات من الحجاز ، وتفتح لهم دوراً يختلف إليها الناس كدار[١١] ابن رامين . وسقط هؤلاء المغنون إلى كل بلد عربى ، إذ نجد فى الفسطاط ابن أبْجر[١٢] مغنى المدينة .

ونَعِمَ العرب فى خراسان بكثرة ما أصابوا من الأموال وفَىْءِ الغنائم ، وفى كتب التاريخ والأدب أخبار من ذلك تكاد تشبه الأساطير ، منها أن عبد الرحمن بن زياد الذى ولاه معاوية أعمال خراسان سُئِلَ فى أثناء ولايته عما صار إليه من أموال فقال : إنى قدَّرت ما عندى لمائة سنة ، فإذا هو يبلغ فى كل يوم ألف درهم[١٣] ، ويُرْوَى أن مصعب بن الزبير فى ولايته على العراق جاءه من هناك نخلةٌ مصنوعة من الذهب ، عَثاكيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر

---

(١) طبرى ٥/٢٨٠ . والنمرق : مفرد نمارق وهى الطنافس

(٢) خلار : موضع بفارس مشهور بعسل النحل .

(٣) الدستفشار : كلمة فارسية معناها المعصور باليد .

(٤) البيان والتبيين ٢/١٠٣ .

(٥) طبرى ٤/٤١٥ .

(٦) البيان والتبيين ٣/٢٥٧ .

(٧) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٦١ والشعر والشعراء ٢/٥٨٨ .

(٨) نقائض جرير والفرزدق ص ٧٨٧ .

(٩) أغانى (دار الكتب) ٢/٣٤١ .

(١٠) أغانى ٦/٣٣ .

(١١) أغانى (دار الكتب) ١٥/٦٠ .

(١٢) أغانى ٣/٣٤٦ .

(١٣) الجهشيارى ص ٢٩ .

وأخضر ، وقد قوِّمت بألفى ألف دينار(١). ويُرْوَى أن الإصْبهبذ فى طبرستان صالح يزيد بن المهلب فى بعض حروبه هناك على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقداً ومائتى ألف ، وأربعمائة حِمْل زعفران وأربعمائة رجل ، على كل رجل بُرْنس ، وعلى البرنس طيلسان وجام من فضة وسرقة (شُقّة) من حرير(٢). ويُقال إن الجراح الحكمى واليها لعهد عمر بن عبد العزيز كان يتخذ تحت بساطه نُقَراً يملؤها ذهباً وفضة ويوزِّعها على من يدخل عليه من أصحابه(٣) . وكان الأمراء والدهاقين يَقْدمون على ولاة خراسان بالهدايا النفيسة ، وقد قوِّمت إحدى هداياهم لأسد بن عبد الله القسرى بألف ألف ، وكانت قصرين : قصراً من فضة وقصراً من ذهب ، وأباريق وصحافاً من ذهب وفضة(٤). وكان الولاة بِدَوْرهم يرسلون بالهدايا إلى الخلفاء، ويُرْوى أن نصر بن سيار أعدّ للوليد بن يزيد هدية من الجوارى والبراذين الفارهة وأباريق الذهب والفضة وتماثيل الظباء والسباع وأنه أرسل له بكثير من آلات الطرب (٥).

ووسط هذه الأمواج من الأموال تحضَّر العرب فى خراسان، بل أُتْرفوا ترفاً شديداً ، حتى لنرى بعض الولاة يقول إن فَيْىء خراسان لا يفى بمطبخى(٦)! ويقال إن يزيد بن المهلب كان يتخذ ألف خِوان يُطْعم عليها الناس(٧). وتدل نصوص كثيرة على أن العرب تأقلموا هناك ، فلبسوا السراويل والطيالسة والقلانس القصيرة والطويلة(٨)، واحتفلوا بعيد النيروز والمهرجانات ، واختلفوا إلى سماع الطبول والمزامير(٩) ، وشرب كثير منهم النبيذ حتى اضْطرّ بعض الولاة لتفشيه فى الجند إلى أن يعاقب عليه بالقتل(١٠) .

وفى كل مكان نجد آثار هذا الترف . وفى كتاب الأغانى تراجم كثيرة لمن كانوا يُسْرفون على أنفسهم فى شراب الخمر لا فى خراسان فقط ، بل أيضاً

(١) الجهشيارى ص ٤٤ .
(٢) طبرى ٥/٢٩٥ .
(٣) بلاذرى ص ٤١٥ .
(٤) طبرى ٥/٤٦٥ .
(٥) طبرى ٥/٥٣٣ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٨١ وطبرى ٥/١٣٢ .
(٧) طبرى ٥/٢٨٨ .
(٨) لم يقف هذا اللبس عند عرب خراسان، فقد شاع بين عرب العراق وزهادهم . انظر ابن سعد ٥/١٣٩، ٥/٣٩٢، ٦/٢٠٢، ٦/٢٥٥.
(٩) طبرى ٥/٤٣٧ .
(١٠) طبرى ٥/٢٨٣ .

فى العراق وفى الحجاز ، ولم تكن الخمر وحدها ضريبة هذا الترف ، فقد ظهرت فى المدينة طائفة من المخنثين ، كانوا يتشبهون بالنساء فى ثيابهن وعاداتهن من مثل تضفير الشعر وتصفيفه وصبغ الأظافر بالحناء ، مما اضطر سليمان بن عبد الملك أن يُنْزل بهم عقاباً صارماً[١].

وطبيعى أن يمتد هذا الترف إلى النساء العربيات فقد كان الجوارى يزاحمنهن فى قلوب الرجال ، فتفنّن فى زينهن تفنناً واسعاً ، على نحو ما حكينا ذلك فيما أسلفنا عن السيدة سُكينة بنت الحسين . ويُروَى أن مصعب بن الزبير أهدى زوجته عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ثمانى حبّات من اللؤلؤ ، قيمتها عشرون ألف دينار ، ولما دخل عليها بهديته وجدها نائمة فأيقظها ليقدّمها إليها ، فلما رأتها قالت له غير آبهة : لقد كان النوم أحبّ إلىّ[٢] . ويروى الأغانى أن عاتكة بنت يزيد ابن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان استأذنته فى الحج فقال لها : ارفعى حوائجك واستظهرى فإن عائشة بنت طلحة تحجّ ، ففعلت ، وجاءت بهيئة جهدتْ فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألتْ عنها ، فقالوا : هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة ، عائشة ، فضغطهم ، فسألتْ عنه ، فقالوا : هذه ماشطتها . ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سَنَنِها ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة ، عليها القباب والهوادج ، فقالت عاتكة : ما عند الله خير وأبقى[٣].

٥

الثقافة

إذا أخذنا نحلل عناصر الثقافة العربية فى هذا العصر وجدناها تعود إلى ثلاثة جداول مهمة : جدول جاهلى وجدول إسلامى وجدول أجنبى . فأما الجدول الجاهلى فيبدو فى الشعر والأيام ومعرفة أنساب القبائل وتقاليد الجاهلية ، وقد

(١) أغانى (دار الكتب) ٤/٢٧١ وما بعدها.
(٢) أغانى ١١/١٨٢ .
(٣) أغانى ١١/١٨٨ .

أقبل العرب يعبُّون من هذا الجدول عبّا ، وكأنما صُفّوا عليه صفوفا ، وسرعان ما ظهر من بينهم علماء كثيرون يتخصصون بمعرفة الشعر وروايته والأنساب وتشعباتها وأخبار الجاهلية وأيامها مثل عُبَيْد بن شَرِيَّة راوية الأخبار اليمنية ، ودَغْفل بن حنظلة النَّسَّابة والنَّخَّار بن أوس العُذْرى وزيد بن الكيِّس النمَرى وشهاب بن مذعور وبنى الكَوّاء وغيرهم كثيرون . وفى أهل هذه الطبقة يقول مسكين الدارمى(١) :

وحكِّمْ دَغْفَلاً وارحلْ إليه ... ولا تُرِحِ المَطِىَّ من الكَلالِ
تعالَ إلى بنى الكَوَّاء يقضوا ... بِعِلْمهمِ بأنساب الرجال
هَلُمَّ إلى ابن مذعورٍ شِهابٍ ... يُنَبِّئْ بالهَّوافل والعوالى
وعند الكيِّس النَّمِرِىِّ علمٌ ... ولو أضحى بمُنْخَرَقِ الشَّمالِ

وأما الجدول الإسلامى فيبدو فى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته وغزواته ، ثم فى الفتوح الإسلامية وأحداثها وحروب على وخصومه . وقد أخذ هذا الجدول يتشعب شعبتين كبيرتين : شعبة تاريخية تُعْنَى بتاريخ الإسلام على نحو ما يصور لنا ذلك أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير فى اهتمامهما بمغازى الرسول ، وكان هناك من عُنوا بجمع أخبار أهل الكتب السماوية مثل وهب بن منبِّه . وشعبة دينية تُعْنَى بقراءات القرآن وبالحديث النبوى وما يتصل بهما من تشريع وفقه . وقد ألّف أصحاب هذه الشعبة فى كل بلد إسلامى مدرسة كبيرة يأخذ فيها الخلف عن السلف ، واشتهر من بينهم بمكة تلاميذ ابن عباس وعلى رأسهم عطاء وعكرمة وبالمدينة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومولاه نافع وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة وعروة بن أُذَيْنة والزُّهْرى وباليمن طاووس وبالكوفة تلاميذ ابن مسعود وعلى رأسهم الشَّعْبى وسعيد بن جُبَير وشُرَيْح بن الحارث القاضى وبالبصرة ابن سيرين والحسن البصرى وقتادة وإياس بن معاوية ومالك بن دينار وبخراسان الضحاك بن مزاحم وبالشام شهر بن حَوْشب ومكحول والأوزاعى وبمصر الصابحى ويزيد بن عبد الله البرلى .

(١) البيان والتبيين ١/٣٥١ .

وهذان الجدولان الإسلامى والجاهلى أخذت تنشأ حولهما طبقة من المعلمين العامين الذين كانوا يعلمون الناشئة القرآن والشعر وما يتصل بهما ، وكان منهم معلمون لأولاد الخاصة[١] من خلفاء بنى أمية وأمرائهم وولاتهم مثل عبدالصمد ابن عبد الأعلى ، ومعلمون لأولاد العامة فى كتاتيب القرى ، وقد اشتهر الحجاج الثقفى بأنه هو وأباه كانا معلِّمين بالطائف. ومن هؤلاء المعلمين الكُمَيْت بن زيد وكان يعلم الصبية بالكوفة ، وكان يقابله فى مكة عطاء بن أبى رباح وفى خراسان الضحاك بن مزاحم وفى الرَّىِّ الطرماح ، وفيه يقول بعض من شاهدوه هناك : « لقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده وكأنهم قد جالسوا العلماء[٢] » .

وكان يلتقى بهذين الجدولين الإسلامى والجاهلى جدول ثالث أجنبي جاء العرب من ملابستهم للأمم الأجنبية فقد اندفعوا يطلبون كل ما لدى هذه الأمم من معارف تطبيقية نافعة ، فتعرَّفوا على تخطيط المدن وعمارة المبانى وطريقة استغلال الأرض وشق التُّرَعِ والقنوات ؛ كما تعرفوا على طرق جباية الخراج وضبط الدواوين ، ونقلوا فى ذلك عن الفرس والروم كثيراً . وكانوا فى أول الأمر يستعينون بالأولين فى دواوين العراق وفارس وخراسان وبالأخيرين فى دواوين مصر والشام ، وظلوا على ذلك إلى عصر عبد الملك ، إذ عُرِّبت تلك الدواوين . وقد دفعتهم حروبهم مع الروم لإنشاء الأساطيل واقتباس بعض أساليبهم الحربية .

ولم يقف العرب فى تأثرهم بالأجانب عند المعارف التطبيقية النافعة ، فقد تحولوا إلى المعارف النظرية البحتة يدرسونها ، وكانت تنتشر فى البلاد التى فتحوها الثقافة الهيلينية ، وهى مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة دينية وغير دينية . وكانت تُعْنَى بهذه الثقافة مدرسة جُنْدَيْسابور فى إيران ومدارس أخرى فى الرُّها ونَصيبين وأنطاكية وقِنَّسرين وحَرَّان والإسكندرية كما كانت تعنى بها بعض الأديرة فى العراق والشام ومصر . وكان المعلمون

---

(١) انظر فى هؤلاء المعلمين للخاصة ومن يليهم من معلمى الكتاتيب : البيان والتبيين ١/٢٥١ والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٧١ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٢٢٣ .

فى هذه الأديرة والمدارس يعتمدون غالباً على مصادر سريانية ويونانية ، وممن اشتهر منهم فى هذا العصر «سويرس سيبوخت» أسقف دير قنسرين وتلميذه يعقوب الرهاوى وجورجيس أسقف حوران ، وكانوا جميعاً يُعْنَوْنَ بالمنطق الأرسطاليسى والفلسفة اليونانية[١].

وطبيعى أن يتصل العرب بهذه الفلسفة وذلك المنطق ، إذ كانوا ناشرين لدينهم ، وكانوا يجادلون النصارى وغيرهم من أصحاب الملل ، وقد اشتهر يوحنا الدمشقى الذى كان يشرف على الشئون المالية لغير خليفة أموى بأنهم كانوا يكثرون من جداله ، وله مصنفات مختلفة ، منها محاورة مع بعض المسلمين فى ألوهية المسيح ونظرية حرية الإرادة[٢]. وقد مضى العرب يطلبون الوقوف على ماعند القوم من وجوه الاستدلال المنطقى ، حتى يستعينوا على دحض الشُّبَه ، ويدعموا جدالهم بالحجج القاطعة. وينبغى أن نلاحظ أن كثيرين من حَمَلة هذه الثقافة الهيلينة المتشعبة أسلموا ، وتحولوا يدافعون عن الإسلام ويردون على خصومه. وبذلك لم تنتظر طويلا هذه الثقافة وما يتصل بها من المنطق حتى تُتَرْجَم ، فقد كان أهلها يعرّبون تعريباً تامًّا ، ومن ثم انتقلوا بها إلى العربية. وبين أيدينا أخبار تدل على أن العرب اهتموا بالترجمة منذ هذا العصر ، فمن ذلك مايُرْوَى عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه استعان براهب رومى يسمى ماريانس ليعلمه الكيمياء[٣] ، كما استعان بأصطفن القديم ، ويقول الجاحظ : « هو أول من ترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء[٤] » ويذكر ابن النديم بعض كتبه فى ذلك[٥]. وفى أخبار عمر بن عبد العزيز أنه أمر ماسرجويه البصرى أن يترجم من السريانية إلى العربية كتاباً فى الطب للقس أهْرَن بن أعين[٦] ، وقد ذكر الحكم بن

---

(١) انظر مقالة مايرهوف « من الإسكندرية إلى بغداد » فى التراث اليونانى لعبد الرحمن بدوى ص ٥٣ وما بعدها .

(٢) راجع تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى (الطبعة العربية) ٢/٣١٤ .

(٣) وفيات الأعيان (طبعة ديسلان) ١/٢٤٦ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٢٨ .

(٥) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨ .

(٦) ابن أبى أصيبعة ١/١٦٣ وتاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) طبع ليبزج ص ٣٢٤ وانظر نقولا عن ماسرجويه فى الحيوان ٣/٢٧٥ ، ٥/٣٦٤ .

عبدل الكوفى أهْرَن وطبَّه فى بعض شعره[١]. ويُرْوَى أن سالما مولى هشام بن عبد الملك تَرْجَم بعض رسائل لأرسطاليس[٢]. كما يُرْوَى أنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية يتحدث عن الدولة الساسانية ونظمها السياسية.[٣]

وهذه الأخبار القليلة عن الترجمة فى عصر بنى أمية إنما هى رمز للحقيقة الكبيرة ، حقيقة تحول الثقافة الهيلينية إلى حجور العرب بكل ما كان فيها من منطق يونانى ومعارف مختلفة ، ومن المؤكد أن هذا التحول لم يتأخر إلى العصر العباسى كى يتم ، أو كى تتم دورته ، فقد كان كل شىء فى هذا العصر الأموى يدفع إلى تمامه ، لا عن طريق الترجمة فحسب ، بل أيضاً كما قلنا آنفاً عن طريق المشافهة وانتقال الشعوب المفتوحة إلى الإسلام والعربية بكل كنوزها الفكرية ومعارفها العقلية .

ومعنى هذا كله أن العقل العربى دُعم فى هذا العصر بمواد ثقافية كثيرة ، وهو دَعْم نجد آثاره فى ازدهار العلوم الإسلامية الخالصة : علوم الفقه والتفسير والحديث ، كما نجد هذه الآثار فى كثرة المناظرات التى نشبت بين الآراء المختلفة فى السياسة والدين وغير السياسة والدين . وارجعْ إلى أخبار الخوارج فستجدهم يثيرون الجدال فى كل مكان ، وجدالهم مع على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس مشهور ، ويُرْوَى أن عبد الملك بن مروان أُتى برجل منهم ، فجعل يبسط له من قولهم ويزين له من مذهبهم بلسان طَلْق وألفاظ بينة ومعان قريبة ، حتى قال عبد الملك : لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خُلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبَّت الله علىَّ من الحجة وقرَّر فى قلبى من الحق[٤]. وهذا رجل من عامتهم فما بالنا بزعمائهم ، ويُشيد المبرد فى كتابه « الكامل » بقدرتهم على الجدل واستظهار الأدلة والبراهين[٥] ، وقد جعلهم

---

(١) الحيوان ١/٢٤٧ وعيون الأخبار ٤/٦٢ .

(٢) الفهرست ص ١٧١ .

(٣) راجع صفحات عن إيران لصادق نشأت ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو المصرية) ص ٨١ .

(٤) الكامل (طبعة رايت) ص ٥٧٣ .

(٥) الكامل ص ٥٦١ .

ذلك يختلفون ويتوزعون فرقا من أزارقة ونَجْديّة وصُفْرية وإباضية، وشكا زيد بن جُنْدب من هذا الاختلاف بينهم ، فقال[١] :

كُنَّا أُناساً على دينٍ ففرَّقنـا طولُ الجِدال وخلطُ الجدِّ باللَّعِبِ
ما كان أغنَى رجالا ضَلَّ سَعْيُهُمُ عن الجدال وأغناهم عن الخُطَبِ

وكان الشيعة على شاكلتهم ينافحون عن عقيدتهم ، واختلفوا هم الآخرون وتجادلوا فيما بينهم ، وجادلوا أصحاب الفرق التى عاصرتهم ، وممن اشتهر بإحسانه للجدال منهم زيد بن على بن الحسين مؤسس مذهب الزيدية الشيعى ، وقد تحول شاعره الكميت بأشعاره الملقَّبة بالهاشميات إلى تقرير نظرية هذا المذهب وكأننا لا نقرأ عنده شعراً ، وإنما نقرأ مقالة فى المذهب الزيدى تبسط أصوله وتدافع عنه بالحجج والبراهين .

وإذا انتقلنا من السياسة إلى الدين وجدنا الفقهاء يتجادلون طويلا فى مسائلهم الفقهية بين أيدى الخلفاء وفى مجالسهم العامة والخاصة ، وتُرْوى من ذلك مناظرة[٢] بين قَتادة والزُّهْرى فى مجلس سليمان بن عبد الملك وأخرى[٣] بين ابن شبرمة وإياس بن معاوية ، تناولا فيها نحو سبعين مسألة . ويُرْوَى أن الشَّعْبى الكوفى كان يجلس فى مجالسه وحوله تلاميذه يناظرونه[٤] . وقد كثرت هذه المناظرات حتى نشأ عنها علم الاختلاف أى اختلاف الفقهاء . وكان أيوب السَّختيانى يقول: « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف[٥] » ، وأداهم ذلك إلى تحكيم العقل فى آرائهم والتدقيق فى مسالك أدلتهم حتى نشأ بينهم من سُمُّوا أهل الرأى لغلبة القياس على فقههم[٦] .

وقد تجادلوا طويلا فى مسائل العقيدة ، وسرعان ما أخذ علم الكلام فى الظهور وتكونت فيه مذاهب القدرية والجَبْرية والمُرْجئة والمعتزلة ، وكان من أهم المسائل التى أثيرت بينهم مسألة حرية الإرادة ، وهل الإنسان حر مختار فى أفعاله أو هو

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٤٣ .
(٣) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .
(٤) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ .
(٥) البيان والتبيين ٢/٩٨ .
(٦) المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٨ .

مُجبر مسيَّر ؟ ووقف القدرية وعلى رأسهم الحسن البصرى يدافعون عن الرأى الأول ، إذ لو كان الإنسان مسيَّراً بقضاء لازم وقدر محتوم لبطل الثواب والعقاب وسَقط وَعْد الله ووعيده .

واصطفَّ أمام القدرية أصحاب مذهب الجَبْر يناضلون عن مذهبهم وأن كل شيء بقضاء وقدر. وكان هذا المذهب يُرْضى الأمويين ، لأنه يَصْرِف الناس عن التفكير فى ولايتهم وتدبيرهم لشئونهم ، مؤمنين بأن خلافتهم قَدَرٌ مقدور يجب عليهم التسليم به ، ومن ثَمَّ نرى شعراءهم يردِّدون هذه الفكرة طويلا على شاكلة قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان[١] :

اللهُ طوَّقك الخلافةَ والهُدَى والله ليس لما قَضَى تبديلُ

وانبثقت من هذا المذهب ومذهب القدرية شعبة المُرْجئة فكان هناك جبرية مرجئة وقدرية مرجئة ، وكانوا يرون الفصل بين الإيمان والعمل ، فالمؤمن مسلم وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية ، إذ المعوَّل فى الإيمان على التصديق بالقلب . وكانوا يرون أيضاً إرجاء الحكم على أعمال الناس وتركه إلى الله جَلَّ جلاله ، ومن ثَمَّ رأوا إرجاء الحكم فى أمر على وعثمان ومعاوية حتّى يحكم الله بينهم . وجعلهم ذلك يصطدمون بالدولة ، لما تنتهى إليه دعوتهم من تعطيل أحكام الدين وأوامره ونواهيه ، ويلقانا منهم أبو رؤبة سنة ١٠٢ فى نفر من أصحابه يحارب مع يزيد ابن المهلب فى ثورته على الأمويين[٢]. وفى أخبار عمر بن عبد العزيز أنه طلب أئمتهم فى الكوفة من أمثال عَوْن بن عبدالله بن عتبة الهُذَلى ، وناظرَهم فى آرائهم[٣]. ونرى عَوْناً يرجع من عنده ، فيبرأ منهم ، وينضم إلى الشيعة ، مصوراً ذلك فى أبيات تُنْسَب إليه تجرى على هذا النمط[٤] :

وأولَ ما نفارقُ غير شَكٍّ نفارقُ ما يقول المُرْجئونـا
وقالوا مؤمنٌ من أهل جَوْرٍ وليس المؤْمنون بجائرينا
وقالوا مؤمنٌ دَمُهُ حلالٌ وقد حَرُمَتْ دماءُ المسلمينا

---

(١) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص٤٧٤ .
(٢) طبرى ٥/٣٤٠ .
(٣) ابن سعد ٦/٢١٨ .
(٤) البيان والتبيين ١/٣٢٨ .

وواضح أنه يصف المرجئة بأنهم يستحلُّون دماء المسلمين مما كان سبباً فى تعقب الأمويين لهم ، وقتْلهم أحياناً على نحو قتل هشام بن عبد الملك لغيْلان[١] الدمشقى.

ولم يُعْرَفْ هذا المذهب فى العراق والشام فحسب ، فقد كان له أنصار فى خراسان ، ومن قدماء أنصاره هناك ثابت قُطْنة وهو من مُرْجئة الجبرية ، وله قصيدة طويلة يصور فيها عقيدته ، يقول فى تضاعيفها[٢] :

المسلمون على الإسلام كلُّهمُ ... والمشركون أَشَتُّوا دينهم قِدَدا[٣]

ولا أرى أن ذنبا بالغٌ أحـدا ... م الناسِ شِرْكا إذا ما وحَّدوا الصَّمَدا

وما قضى الله من أمرٍ فليس له ... رَدٌّ وما يَقْضِ من شيء يكنْ رَشَدَا

كلُّ الخوارج مُخْطِ فى مقالتهِ ... ولو تعبَّد فيما قال واجتهـدا

أمـا علىٌّ وعثمانٌ فإنهمـا ... عبدان لم يُشْركا بالله مُذ عَبَدا

ويتوفَّى ثابت ، ويظهر هناك جَهْم بن صفوان أحد رءوس الإرجاء[٤] ويضع يده فى يد الحارث بن سُرَيج ويشعلان ثورة عنيفة على الأمويين ، ويُقْضَى عليها بعد صراع مرير .

وقد انبثق من مذهب القدرية مذهب جديد هو مذهب الاعتزال ، وكانت المشكلة الأولى التى انبثق عنها هذا المذهب هى مشكلة مرتكب الكبيرة ، إذ كان الخوارج يرون أنه كافر ، بينما كانت المرجئة ترى أنه مؤمن ، وكان الحسن البصرى ومن تابعوه من القَدَرية يرون أنه مؤمن فاسق فأظهر واصل بن عطاء القول بأنه غير مؤمن ولا كافر ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين . وأثار ذلك جدالا عنيفاً بينه وبين أصحابه من القدرية ، ودفع الحسنُ عمرو بن عُبَيْد ليجادله فيه ، فأقنعه واصل برأيه[٥] ، وبذلك فارقا معاً مذهب الحسن ، وسُمِّيا هما ومن

(١) انظر فى ترجمته لسان الميزان ٤/٤٢٤ والمعارف ص ٢٤٤ وفى هذين الكتابين أنه كان قدريا ولكن فى الفهرست ص ١٧١ والملل والنحل (طبعة لندن) ١٠٥ أنه كان مرجئاً ، ومن ثم فعداده فى مرجئة القدرية. وراجع فيه المنية والأمل لابن المرتضى والفرق بين الفرق ص ١٩٠ .

(٢) أغانى ١٤/٢٧٠ .

(٣) أشتوا : فرقوا . قددا : طرائق وفرقا .

(٤) انظر الملل والنحل ص ٦٠ حيث يوضح كيف أصبح رئيساً لفرقة تسمى الجهمية مبيناً بعض أصول مقالتها .

(٥) انظر فى ذلك أمالى المرتضى ١/١٦٥

تابعهما باسم المعتزلة . وقد اجتذبا إلى آرائهما كثيراً من الأتباع والدعاة ، تَسنُدهما فى ذلك دراسة مستفيضة لآى القرآن الكريم وعقلٌ دعماه بالمنطق وأدلته الدقيقة . ومضى أتباعهما على شاكلتهما يجمعون بين الدين والفلسفة ، فازدهر الاعتزال وأصبح فى العصر العباسى الأول أهم مذاهب المتكلمين ،

وإنما أطلنا فى هذا الجانب لندل على أن العقل العربى فى عصر بنى أمية أمدَّته روافد كثيرة ، دعمته دعماً ، مما كان له آثار بعيدة فى أشعار الشعراء ، إذ كانوا مندمجين فى الفرق السياسية والعقيدية وما نشب بينها من مجادلات ، ويسوق الرواة من ذلك مجادلة بين ذى الرُّمَّة ورُؤْبة فى القدر ، وكان أولهما قدريًّا وثانيهما جبريًّا[1] . وبتأثير هذه المجادلات تحوَّل جرير والفرزدق يتجادلان جدالا عنيفاً فى عشيرتيهما من جهة وفى قيس وتميم من جهة ثانية على نحو ما هو معروف فى نقائضهما ، وكأنهما يتحولان بشعر الهجاء والعصبيات القديم إلى ما يشبه مقالات أهل النِّحَل . وكلٌّ ذلك من آثار هذا التطور الذى أصاب العقل العربى ، والذى جعله يندفع فى البحث والمناظرة والتدرب على جَمْع البراهين والأدلة فى أى موضوع يعرض له .

وكان من ثمار هذا التطور أيضاً أن رأينا بعض الشعراء يسعى بشعره إلى غاية تعليمية ، إذ أخذ بعض الشعراء المعلمين من أمثال الكُمَيْت والطِّرِمَّاح يحشدون فى أشعارهم أوابد اللغة وشواردها ، ليعينوا الناشئة على معرفتها . ولم يلبث الرُّجَّاز وعلى رأسهم العَجَّاج ورُؤْبة أن قدَّموا من ذلك مادة وفيرة للناشئة ولعلماء اللغة .

٦

الاقتصاد وموقف العرب من الموالى

لا ريب فى أن للمؤثرات الاقتصادية أثراً كبيراً فى حياة الإنسان ، وبالتالى فى كل ما ينتج من أعمال وآثار . وإذ أخذنا ننظر فى حياة الشعراء لهذا العصر وجدنا للاقتصاد أثره العميق فى اتجاهاتهم ، وهل نستطيع تفسير شيوع الغزل

---

(١) أمالى المرتضى ١/١٩ .

المادى الصريح فى مدن الحجاز وانتشار الغزل العذرى العفيف فى نجد وبيئات البوادى إلا بردّ ذلك إلى نعومة العيش وما كان يَتَنعّم به سكان تلك المدن من ثراء عريض ثم ما كان فيه سكان نجد والبوادى من شظف العيش وخشونته ، ولا ننكر أثر الإسلام فى نفوسهم ، غير أننا لا ننكر أيضاً أثر نظام الحياة الاقتصادى ومدى عمله فى النفوس . وبالمثل نحن لا نستطيع تفسير شيوع المديح فى العراق وخراسان وما كان يهبط منه إلى دمشق إلا بردّ ذلك إلى ظهور طبقة ضخمة من الأثرياء كانت أخلاطاً من الحكام الذين أداروا شئون الدولة فى الخراج وغير الخراج ومن الأغنياء الذين ملكوا الإقطاعات ، بينما ظل وراءهم جميعاً جمهور كبير ، يتلقى منهم رزقه إما بالعمل لهم وإما بما يقدّم لهم من مديح ، يقول ذو الرُّمَّة(١) :

وما كان مالى من تُراثٍ وَرِثْتُـــهُ ولا دِيَةٍ كانتْ ولا كَسْب مَأْثَمِ

ولكنْ عطاءُ الله من كلِّ رحْلَـــةٍ إلى كل محجوب السُّرادق خِضْرِمِ(٢)

وقد مضى كثيرون من أصحاب الثراء العريض يحققون لأنفسهم كل ما تصبو إليه نفوسهم من صور الترف مما أدَّى ، وخاصة فى أواخر العصر ، إلى ذيوع شعر الخمر والمجون وانتشاره .

وإذا ذهبنا نتعمَّق النزاع السياسى الحادّ الذى نشب طوال العصر وتكونت بسببه فرق الزبيريين والشيعة والخوارج رأيناه يعود فى كثير من جوانبه إلى بواعث اقتصادية ، فقد كانت هذه الفرق ترى الأمويين متسلطين على أموال الدولة ينثرونها على أنصارهم ومن يلوذون بهم دون نظر إلى مصلحة الجماعة . وذهب الزبيريون إلى أنه لا يمكن تحقيق هذه المصلحة إلا بعودة الخلافة من دمشق إلى الحجاز وتحرير الناس من تحكم القبائل اليمنية التى جعل لها الأمويون معظم السلطان ، وذهبت الشيعة إلى أن هذه المصلحة لا يمكن أن تتحقق إلا على يد علوية تحمل الناس على الجادّة ، بينما ذهب الخوارج إلى أنه لا يمكن أن تتحقق إلا بردّ الأمر إلى الأمة لتختار أولياءه الصالحين ، ومضوا يجاهدون الأمويين جهاداً عنيفاً .

(١) الديوان ص ٦٣٣ .

(٢) الخضرم : كثير الخير والجود .

وتدل دلائل كثيرة على أن ولاة بنى أمية ومن كانوا يقيمونهم على شئون الخراج والزكاة كانوا يستغلون وظائفهم فى جمع ثروات ضخمة ، غير مراعين فى ذلك إلاًّ ولا ذمة، فالمهلّب مثلا حين صرفه الحجاج عن الأهواز وجده قد احتجن لنفسه من بيت المال ألف ألف درهم[١] ، بينما احتجن ابنه يزيد حين صُرف عن خراسان لنفسه من بيت المال ستة آلاف ألف درهم[٢] ، ويقال إن راتب خالد القَسْرى فى ولايته على العراق كان عشرين ألف ألف درهم ، ولم يكن يكفيه كل هذا الراتب ، إذ كان يستصفى لنفسه — بوسائل غير مشروعة — ما يزيد على مائة ألف كل عام ، وقد استخرجَ منه ومن موظفيه يوسفُ الثقفى حين وَلِىَ بعده العراق سبعين ألف ألف[٣] . وكأنما أصبحت الولاية على الناس السبيل غير الشريف للثروة الضخمة والغنى العريض ، حتى لنرى أنس بن أبى أُناس يقول لحارثة بن بدر الغُدانى التميمى حين ولى على سُرَّق إحدى كور الأهواز[٤] :

أحارِ بنَ بَدْرٍ قد وليتَ إمـارةً ... فكن جُرَذًا فيها تخون وتَسْرقُ

وعلى هذا النحو أصبحت الولاية على الأقاليم والكور مقترنة بالخيانة والسرقة ، وعمَّ هذا الفساد ، حتى بين السعاة الذين كانوا يجمعون الزكاة فى نجد داخل الجزيرة العربية ، على نحو ما تصوِّر ذلك شكوى الراعى التى وجَّه بها إلى عبد الملك بن مروان، وفيها يصف سنة مجدبة أصابت قومه بنى نُمَير . ومع ذلك فَرَض عليهم السعاة فروضاً ثقيلة، فلما لم يؤدوها صَبُّوا عليهم السِّياط وأرهقوهم من أمرهم عُسْرا، ومن قوله فى تلك الشكوى المريرة[٥] :

أخليفةَ الرحمنِ إنا معشَرٌ ... حُنَفَـاءُ نسجدُ بكْرَةً وأصيلا

إن السُّعَاة عصوك يوم أمرتهم ... وأتوا دواهىَ لو علمت وغُولا

فادْفَعْ مظالمَ عيَّلتْ أبناءنا ... عنا وأنْقِذْ شِلْوَنا المأْكولا[٦]

---

(١) طبرى ٥/١٣٥ .
(٢) طبرى ٥/٣٠٣ وانظر ٥/٣١٢ .
(٣) تاريخ اليعقوبى (طبعة أوربا) ٢/٥٥ ، ٣٨٨ .
(٤) الحيوان ٣/١١٦ والشعر والشعراء ٢/٧١٥ .
(٥) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى (طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٥٥ .
(٦) عيلت : أفقرت . الشلو : العضو .

وإذا كان هذا يحدث فى نجد والبوادى فما كان يحدث فى العراق وخراسان أدهى وأمرّ ، فقد مضى الولاة وجُباة الخراج يعتصرون الناس بفرض ضرائب استثنائية كثيرة ، مما ملأ عليهم القلوب غيظاً وحنقا والنفوس سخطا ووَجْدا ، فارتفعت الأصوات تطالب بالأمانة فى الحكم لا فى عهد بنى أمية فحسب ، بل أيضاً فى عهد الزبيريين ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة طويلة لابن همّام السَّلولى وجّه فيها لابن الزبير شكوى عنيفة من عُمّاله فى العراق ومن أقامهم هناك على الخراج ، وهو يستهلها بقوله (١) :

يا بنَ الزُّبير أميرَ المؤمنين ألم ... يبلغك ما فعل العُمّال بالعمل
باعوا التِّجارَ طعامَ الأرض واقتسموا ... صُلْبَ الخراج شِحاحاً قسمةَ النَّفَل (٢)

وقد مضى يسميهم واحداً واحداً مصوراً خيانتهم فى الحكم ومطالباً بمحاسبتهم على ما استخلصوا من أموال لأنفسهم ظلماً وعسفاً .

ويظل الناس متحمّلين من هذا العسف والظلم ما يطاق وما لا يطاق إلى أن وَلِيَ الخلافة عمر بن عبد العزيز ، فأمر برفع المظالم عنهم وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية ، كما أمر بحطّ الجزية عمن أسلموا من الموالى . وبعث على العراق وخراسان عُمّالا جُدداً ينفذون سياسته العادلة ، ومع ذلك ظلت الشكوى قائمة ، فقد قام إليه رجل وهو على المنبر فقال (٣) :

إن الذين بعثتَ فى أقطارها ... نبذوا كتابَك واستُحِلَّ المَحْرَمُ
طُلْسُ الثياب على منابر أرضنا ... كلٌّ يجورُ وكلُّهم يتظلَّم (٤)

ويناديه كعب الأشقرى من خراسان (٥) :

إن كنت تحفظ ما يَليك فإنما ... عُمّال أرضك بالبلاد ذئابُ
لن يستجيبوا للذى تدعو له ... حتى تجلَّد بالسيوف رقابُ

---

(١) أنساب الأشراف ٥/١٩١ وما بعدها .
(٢) النفل : غنائم الحروب .
(٣) البيان والتبيين ٣/٣٥٩ .
(٤) طلس : غبر ، وهو يكنى بغبرة الثياب عن قذارة نفوسهم وأنهم ليسوا أعفاء . يتظلم حقه : يظلمه إياه .
(٥) البيان والتبيين ٣/٣٥٨ .

ويتوفَّى عمر بن عبد العزيز سريعاً ، ويعود العسف والظلم. ويثور الحارث ابن سُرَيْج بخراسان فى العقد الثانى من القرن الثانى مطالباً برفع الجزية عمن أسلموا من الموالى ، ويتولَّى هناك نصر بن سيار فى العقد الثالث ، ويرفع الجزية عن الموالى مثبّتا للخراج على الأرض .

ولا بد أن نفرق هنا بين معاملة العرب للموالى ومعاملة الدولة لهم فإن الدولة إذا كانت قد تعسفت معهم أحياناً فإن العرب ظلوا يَرْعون لهم أخوتهم فى الإسلام. ويسوق المستشرقون دليلا قويًّا على سوء معاملة الدولة لهم ما حدث فى أيام الحجاج إذ هاجر كثير من موالى السَّواد فى العراق إلى البصرة والكوفة، فأمر بردِّهم إلى قُراهم ونَقْش أسمائهم على أيديهم حتى لا يبرحوها [١] وظاهر الحادث عنف شديد فى الظلم ولكن قد يكون الحجاج اضُطرَّ إلى ذلك لتعطل الزراعة فى السواد وبالتالى تعطل الخراج الذى كان يُنفق منه على تجهيز الجيوش إلى خراسان وغير ذلك من شئون ولايته .

ولم ينكر عمر بن عبد العزيز وحده الجزية التى كانت مفروضة على مسلمى الموالى ، فقد كان ينكرها جماعة الأتقياء والقُرَّاء ، لأنها تخالف نصوص الإسلام ، وأنكرتها جميع الفرق المعارضة للدولة من خوارج وشيعة ومرجئة ، وما زالت الأمة تلح فى إنكارها إلحاحا حتى رُفعت عنهم بأخرة من العصر . وقد عقد ابن عبد ربه فصْلا فى العقد الفريد ، صوَّر فيه العرب يسيئون فى المعاملة إلى الموالى لعصر بنى أمية إساءة بالغة[٢] . غير أن بين أيدينا أخباراً كثيرة تشهد بأنهم لم يكونوا يَضْطهدون أحرارهم ولا أرقاءهم ، فقد ذكر ابن حبيب أن نحو ثلاثين من الرقيق فى الكوفة والبصرة نَبُهَ شأنهم حتى أصبحوا من أرباب السيادة والشرف[٣] . أما ما يلاحظه ڤلهوزن من أنهم كانوا يحاربون فى جيش المختار رجالة لا فُرْسانا[٤] فلعل ذلك حدث اتفاقاً ، وقد اشتهر من بينهم غير قائد فى خراسان مثل حُرَيْث بن قُطْبة وأخيه ثابت وحيَّان النبطى وابنه مقاتل ، ومن قوادهم المشهورين فى الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس .

---

(١) طبرى ١٨٢/٥ وتاريخ الدولة العربية لڤلهوزن ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٢) العقد الفريد ٤٠٣/٣ وما بعدها .

(٣) المحبر ص ٣٤٠ .

(٤) تاريخ الدولة العربية لڤلهوزن ص ٢٣٧ .

وقد مرّ بنا فى حديثنا عن الحضارة ما كان لهم من إقطاعات وقصور وحمامات تُستَغَلُّ فى البصرة . فهم لم يكونوا فى مرتبة متخلفة بالقياس إلى العرب ، ولعل مما يدل على ذلك أن نجد الفرزدق المعروف بغطرسته حتّى على الخلفاء يمدح طائفة منهم مثل عبد الله[١] بن عبد الأعلى مولى خالد بن الوليد ومسلمة[٢] ابن سنان مولى بنى مسمع وكثير[٣] بن سيار مولى بنى سعد ومسلم[٤] بن المسيب مولى بنى بجيلة . ومن يرجع إلى ديوان جرير يجده فى إحدى قصائده يفتخر بمعدٍّ مدخلا فيها قُضاعة كما يفتخر بالموالى ذاكراً أنهم ينتسبون إلى إسحق بن إبراهيم عليهما السلام . يقول[٥] :

أنا ابنُ الثَّرَى أدعو قُضاعة ناصرى   وآل نزارٍ ما أعزَّ وأكثرا[٦]

وأبناءُ إسحاق الليوثَ إذا ارتدوا   مَحامل موتٍ لابسين السَّنَوَّرا[٧]

فيوما سرابيلُ الحديد عليهمُ   ويوما ترى خَزًّا وعَصْباً مُنَيَّرَا[٨]

إذا افتخروا عَدُّوا الصَّبَهْبَذَ منهمُ   وكسرى وآل الهُرْمزان وقيصرا[٩]

ويصرِّح بأن الموالى أبناء إسحق يجمعهم مع العرب أبناء إسماعيل أب واحد ، يقول :

أبونا أبو إسحٰقَ يجمع بيننـــا   أبٌ كان مهديًّا نبيًّا مُطَهَّرَا

ولا تهمنا صحة الأسطورة التى ردَّدها جرير فى هذه الأبيات ، والتى تجعل الفرس والروم من أبناء إسحق ، إنما تهمنا دلالتها على ما كان يسود بين العرب من الإحساس بأنهم والموالى شعب واحد ، تفرَّق، ثم عاد إلى الاجتماع

---

(١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى) ص ٢ .

(٢) الديوان ص ١٠٦ .

(٣) الديوان ص ٢٨٧ .

(٤) الديوان ص ٨٨٧ .

(٥) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ٢٤٢ .

(٦) ابن الثرى : كناية عن كثرة قومه فهم عدد الثرى .

(٧) السنور : السلاح . وهو يصف بذلك الفرس .

(٨) الخز : الحرير . العصب : ضرب من الثياب النفيسة . منيرا : منسوجاً بالقصب وله أهداب ووشى .

(٩) الصبهبذ : لقب أمراء إيران .

على الإسلام والعروبة ، ونرى جريراً فى نفس القصيدة ينوه بمولى من البربر يسمى وضّاحاً ، يقول :

لقد جاهد الوضاح بالحق مُعْلَماً فأورث مجدا باقيا أهلَ بَرْبَرَا

والحق أن العرب اندمجوا فى الموالى منذ الأيام الأولى فى الفتوح ، فقد ساكنوهم وتزوجوا منهم ، وعرّبوهم عن طريق نظام الولاء الذى شرعه الإسلام ، إذ أدخلوهم فى عداد قبائلهم ، وكأنما أرادوا بذلك أن يُلْغوا جنسياتهم إلغاء ، فهم عربٌ ولاءً . واستشعر الموالى ذلك فى عمق حتى إذا أحسن نفر منهم نَظْمَ الشعر وجدناهم يقفون فى صفوف قبائلهم ذائدين عنها ومفاخرين بنفس روح أبنائها الأصيلين ، ومن خير ما يصور ذلك زياد الأعجم مولى عبد القيس فقد عاش لقبيلته يحامى عنها ويصول[1] ، ومثله هرون[2] مولى الأزْد وثَرْوان[3] مولى بنى عُذْرة وشُقْران[4] مولى بنى سَلامان . وكانت القبائل تبادلهم نفس التعصب ، فإذا جنَى أحدهم جناية كبيرة وزُجَّ به فى السجن لم يقر قرار لقبيلته حتى تُرَدَّ له حريته ، على نحو ما يقصه الرواة من موقف اليمانية من ابن مفرِّغ حين زُجَّ به عَبَّاد بن زياد فى سجن سجستان ، فإنها ما زالت تتشفع فيه عند الخليفة وتتوسل حتى أمر بإطلاق سراحه[5] .

ومعنى ذلك أن نظام الولاء أقام أواصر بين العرب والموالى كأواصر الرحم ، أما ما يلقانا عند إسماعيل بن يسار النسائى شاعر المدينة من أشعار تمجد الفرس[6] فإنه يعد شذوذا فى العصر ، وهو شذوذ ربما ساقه إلى نفسه كثرة الأشعار التى كان يفتخر فيها كل عربى بقبيلته ممجداً لها ومشيداً بها محاولا الغضَّ من القبائل التى تعاديها ، وكأن ذلك نبَّه إسماعيل للإشادة بجنسه الفارسى ، وقد لقى جزاءه عند هشام بن عبد الملك ، فإنه غضب عليه غضباً شديداً حين رآه يفخر بأصله الفارسى .

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١٣/٨٩ ، ١٥/٣٨٠ وما بعدها .

(٢) الحيوان للجاحظ (طبع الحلبى) ٧/٧٥ .

(٣) البيان والتبيين ٣/٣٠٩ .

(٤) نفس المصدر ١/١٠٨ وأغانى (دار الكتب) ٢/٣٠٨ .

(٥) الشعر والشعراء ١/٣٢٣ .

(٦) انظر ترجمته فى أغانى دار الكتب ٤/٤١١ وما بعدها .

ومهما يكن فإن إسماعيل كان شذوذاً على الموالى أنفسهم فى هذا العصر ، وأكبر الدلالة على ذلك أننا نجد بشار بن برد الذى أعلن النزعة الشعوبية فى عهد العباسيين إعلاناً قويًّا يفتخر فى هذا العصر بمواليه من قيس افتخاراً عنيفاً[١] . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الشعراء من العرب يفتخرون بأمهاتهم الأعجميات مثل ابن ميَّادة[٢] ، ومثل أبى نُخَيْلة الذى يقول[٣] :

أنا ابنُ سَعْدٍ وتوسَّطْتُ العَجَمْ فأنا فيما شئتُ من خالٍ وعمّْ

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على بطلان ما يذهب إليه بعض المستشرقين من أن العرب والموالى كانوا يستشعرون العداء بعضهم لبعض فى هذا العصر[٤] ، فقد كانوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكان كل منهم ينصر صاحبه كلما هتف به أو استغاث ، وقد أخذوا ينهضون بجميع صور الحياة نهوضاً مشتركاً . وحقًّا كانت الدولة عربية وكانت تتخذ ولاتها من العرب ، ولكنها فسحت للموالى فى شئون الخراج وفى الدواوين حتى بعد أن تُرْجمت وعُرِّبت ، على نحو ما هو معروف عن سالم مولى هشام وكان رئيس دواوينه ، ومثله عبد الحميد الكاتب وكان على رأس دواوين مروان بن محمد .

وربما كان أهم جانب يوضح علاقة العرب بالموالى لهذا العصر وأنها كانت تقوم على البر والتعاون الوثيق نهضتهم جميعاً بالدراسات الدينية وما انطوى فيها من وعظ وإمامة للمسلمين فى المساجد ، فإننا حين نستعرض هذا الجانب نجدهم لا يقفون مع العرب فيه على قدم المساواة فحسب ، بل إنهم يبزّونهم ، حتى لتصبح منهم الكثرة الكثيرة من علماء الدين ودارسيه . وواضح من ذلك كله أن الموالى شاركوا فى الحياة العربية لهذا العصر مشاركة قوية ، إذ كانوا يُعَدّون فعلا عرباً ، وقد أخذوا ينهضون بالأدب العربى ، على أنه أدبهم ، فهجروا آدابهم المختلفة من فارسية وغير فارسية ، وأخذوا يعبّرون عن عواطفهم ومشاعرهم بلغة القرآن الكريم التى ملكت أزمة قلوبهم واستولت منهم على الضمائر استيلاء .

---

(١) أغانى ٣/١٣٩ والديوان ١/٣١٦ ، ٢/٨ ، ٣/٢٥٠ .

(٢) أغانى ٢/٢٦١ .

(٣) البيان والتبيين ٣/٢٢٥ والشعر والشعراء ٢/٥٨٣ .

(٤) فلهوزن ص ٤٧٢ وفى مواضع متفرقة .

الفصل الثالث

شعراء المديح والهجاء

١

شعراء المديح

تعوَّد العرب منذ العصر الجاهلى أن ينوِّهوا فى أشعارهم بأشرافهم وذوى النباهة منهم ويتحدثوا عن خصالهم النبيلة من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء وحماية الجار ، وكان لا يُعَدُّ السيد فيهم كاملا إلا إذا تغنى بنباهته ومناقبه غير شاعر . ومضوا على هذه السنَّة فى الإسلام ، فكل سيد فيهم وكل ذى مكانة يودّ لو يَحْظَى بشاعر يُشيد به ، حتى يسير الركبان بذكره . وتستطيع أن ترجع إلى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغانى والطبرى لترى مصداق ذلك واضحا ، وكأنه لم يعد للشعراء من شاغل يشغلهم سوى مديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وسنعرض لمُدَّاح الأولين فى الفصل التالى . أما الولاة فإنه لا يوجد من بينهم مَنْ لم يتعلق الشعراء بمديحه ونَشْر ورود الثناء فى طريقه .

وأولُ من يلقانا من الولاة البارزين فى العراق لهذا العصر زياد بن أبيه ممدوح حارثة[1] بن بدر الغُدانى التميمى ومسكين[2] الدارمى ، وقد شُغف عبد الله بن الزَّبير الأسدى بمدح ابنه عبيد الله[3] . ويخضع العراق لابن الزبير ، ويولِّى عليه أخاه مصعبا ، وكان جوادا سمحاً ، فالتفّ حوله كثير من الشعراء يمدحونه من أمثال ابن قيس الرقيات وأعشى[4] هَمْدان وُدكَيْن الفُقَيمى[5] . ويدخل العراق فى طاعة عبد الملك بن مروان فيولِّى عليه خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى وهو من الأجواد الممدحين[6] ولا يلبث أن يعزله ويولى أخاه بشرا « وكان من فتيان قريش سخاء ونجدة ، وكان ممدَّحا « مدحه جرير والفرزدق والأخطل

---

(١) أغانى (ساسى) ٢١/١٩ وطبرى ٤/١٦٨ والمبرد ص ١٧٩ .

(٢) ابن سلام ص ٢٥٩ .

(٣) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٢٧ ، ٢٣٥ .

(٤) أغانى ٦/٣٣ وطبرى ٤/٥٦٥ ، ٥٩٢ .

(٥) معجم الأدباء (طبع مصر) ١١/١١٦ .

(٦) المحبر لابن حبيب ص ١٥٠ والطبرى ٥/٤٥ حيث يذكر أنه وزع على الناس فى يوم واحد ألف ألف .

وكثيّر وأعشى بنى شيبان[١] » كما مدحه نصيب[٢] والأقَيْشر[٣] الأسدى وأيمن[٤] بن خُرَيم وغيرهم كثير . ويخلف بشرا الحجاج الثقفى ، ويظل نحو عشرين عاماً ، والشعراء يتوافدون على بابه من مثل جرير والفرزدق وأعشى[٥] بنى شيبان وحُمَيد[٦] الأرقط وليلى[٧] الأخيلية . وكانت فيه قسوة جعلت من يقترفون بعض الجنايات حين يقعون فى يده يمدحونه مدحاً مسرفاً على شاكلة قول العُدَيل بن الفرخ العِجْلىّ فيه[٨] :

خليلُ أمير المؤمنين وسيفُه لكلِّ إمامٍ مُصْطَفًى وخليلُ
بَنَى قُبَّةَ الإسلام حتى كأنما هدَى الناسَ من بعد الضلال رسولُ

ولعل من الطريف أن نجد محمد بن عبد الله النميرى الثقفى[٩] يهوى أخته زينب ، وينظم فيها غزلا كثيراً يملؤه موجدة عليه ، فيطلبه ويهرب منه إلى اليمن ويركب البحر هناك ، ثم يعود إليه ، وقد ضاقت به الأرض ، متوسلا بمدائح كثيرة ، تجعله يعفو عنه .

ويتولّى العراق لسليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب ، وسنعرض لمدّاحه عما قليل . وقد عزله عمر بن عبد العزيز ونراه يثور فى عهد يزيد بن عبد الملك ويقضى على ثورته أخوه مسلمة ويوليه العراق لفترة محدودة ، ومن مدّاحه أبو نُخَيْلة[١٠] وأعشى[١١] تغلب . وخلفه على العراق عمر بن هبيرة الفزارى ، وللفرزدق

---

(١) ابن سلام ص ٣٧٧ .
(٢) أغانى (دار الكتب) ١/٣٣٤ .
(٣) أغانى ١١/٢٧٠ .
(٤) انظر ترجمة أيمن فى الشعر والشعراء ١/٥٢٦ والأغانى (طبع ساسى) ٢١/٢٥ والإصابة ١/٩٤ وتهذيب ابن عساكر ٣/١٨٧ والموشح ص ٢٢١ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٦/١٥٦ .
(٦) طبرى ٥/١٩٠ وانظر ترجمته فى معجم الأدباء ١١/١٣ .
(٧) أغانى (دار الكتب) ١١/٢٤٨ .
(٨) البيان والتبيين ١/٣٩١ وانظر ترجمته فى الأغانى (ساسى) ٢٠/١١ والشعر والشعراء ١/٣٧٥ والاشتقاق لابن دريد ص ٣٤٥ والخزانة ٢/٣٦٧ .
(٩) انظر ترجمته فى أغانى (دار الكتب) ٦/١٩٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ٣٤٢ .
(١٠) انظر الأغانى (ساسى) ١٨/١٤٠ .
(١١) مات على النصرانية سنة ٩٢ . انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ١١/٢٨٠ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ١١/١٣٢ ومجلة المشرق ج ٢٢ ص ٢٩٨ .

فيه مدائح[١] ، لعله أراد أن يغسل بها هجاءه المقذع فيه ، ومثلها مدائحه فى خالد القسرى الذى ولى بعده[٢] ، وكأنه يكفر عن هجائه لهما ببعض المدائح . وممن مدحوا خالدا القسرى جرير[٣] ، وأبو الشَّغب وفيه يقول حين عُزل وسجن :[٤]

فإن تسجنوا القَسْرِىّ لاتسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه فى القبائلِ

وكان الذى وَلِىَ العراق بعده يوسف الثقفى . ونرى الكميت يمدحه تقية وخوفاً من بطشه[٥] . وآخر ولاة هذا الإقليم يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان جوادا مِعْطاء ، وهو ممدوح أبى عطاء[٦] السِّنْدى وبشار[٧] بن بُرْد وخلف[٨] بن خليفة .

ولم يمدح الشعراء فى العراق هؤلاء الولاة وحدهم . فقد كانوا يمدحون أيضاً نُوّابهم وأصحاب شُرْطتهم وعمالهم على الخراج وعلى البلدان من مثل الحكم بن أيوب الثقفى نائب الحجاج على البصرة ، وهو ممدوح الفرزدق[٩] وجرير[١٠] ومثل مالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطة البصرة لخالد القسرى . ومن مُدّاحه الفرزدق[١١] ، ومثل بلال بن أبى بردة ، نائب القسرى على البصرة . وهو ممدوح ذى الرمة[١٢] والفرزدق[١٣] وحمزة[١٤] بن بيض . وكان منقطعاً إليه ، ومثل أبان بن الوليد البجلى صاحب الخراج فى عهد القسرى . ومن مُدّاحه الفرزدق[١٥] . ومثل قطن بن مدركة الكلابى والى البحرين . وقد خصه الفرزدق

---

(١) الديوان (طبعة الصاوى) ص ٢٨٠ ، ٥٧٩ .

(٢) الديوان ص ١٥٦ ، ١٦٥ ، ٣٣٥ .

(٣) الديوان (طبعة الصاوى) ص ١٧٤ .

(٤) البيان والتبيين ٣/٢٣٦ .

(٥) أغانى (ساسى) ١٥/١١٦ .

(٦) الشعر والشعراء ٢/٧٤٥ .

(٧) ديوان بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/١٤٥ .

(٨) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢/٦٩٢ .

(٩) الديوان ص ٢٣ .

(١٠) أغانى (دار الكتب) ٨/١٣ وما بعدها .

(١١) الديوان ص ٣١ ، ٧٦ ، ٦٧٨ ، ٨٠٣ .

(١٢) انظر فهرس ديوانه (طبعة كمبريدج) والبيان والتبيين ١/١٤٨ وأغانى (ساسى) ١٦/٣٨ والمبرد ص ٢٥٩ .

(١٣) الديوان ص ٧٠ ، ٧٤ ، ٥٤٧ ، ٦٦٠ ، ٦٧٤ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ .

(١٤) انظر فى ترجمته الأغانى (طبعة الساسى) ١٤/١٥ وما بعدها ومعجم الأدباء ١٠/٢٨٠ وراجع فهارس البيان والتبيين والحيوان .

(١٥) الديوان ص ٦١ ، ٤٢٠ ، ٨٧٦ .

ببعض مدائحه[1] ، وكان المهاجر بن عبد الله والى البحرين جواداً ممدّحا، ومن مدّاحه جرير[2] وأبو نُخَيْلة[3] وذو الرمة[4]. ومن ولاة فارس الذين طار ذكرهم على ألسنة الشعراء عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ، وله أحاديث كثيرة فى جوده[5] وهو ممدوح كثيرين ، منهم زياد الأعجم[6] وأبو حُزابة[7] ومن ولاة الرّىّ الممدّحين خالد بن عتّاب بن ورقاء ممدوح أعشى همْدان[8] .

وإذا ولينا وجوهنا نحو خراسان وسجستان وجدنا الولاة والعمال هناك يَكيلون الأموال والعطايا للشعراء كيْلا ، وهم بدورهم ينثرون عليهم رياحين مديحهم نثرا . ولعل أسرة لم تَحظ هناك بما حظيت به أسرة المهلب بن أبى صُفْرة الأزدى الذى قضى على الأزارقة فى فارس ، ثم وَلِىَ للحجاج خراسان سنة ٧٨ وظلّ بها إلى أن توفّى سنة ٨٢ فأقام الحجاج ابنه يزيد مقامه إلى أن صرفه عنها وولّى عليها أخاه المفضل ، ولم يلبث أن عزله هو الآخر . وما نصل إلى سنة ٩٦ حتى يعود نجم المهالبة إلى البزوغ . إذ ولّى سليمان بن عبد الملك يزيد على العراق ، وجمع له مع ولايتها خراسان، فأصبح حاكماً للشرق. ويتولى عمر بن عبد العزيز ، فيعزله ويسجنه فى أموال خراج خراسان ، ولا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى يعفو عنه ؛ غير أنه لم يلبث أن قاد ضده مع إخوته وآله ثورة عنيفة ، قضى عليها مسلمة بن عبد الملك يؤازره هلال بن أحْوز المازنى .

ولعلنا لا نُبعد إذا قلنا إن هذه الأسرة تقوم فى عصر بنى أمية مقام أسرة البرامكة فى عصر بنى العباس ، إذ كان أفرادها بحورا فياضة ، فنوّه بهم الشعراء طويلا فى خراسان والعراق جميعاً ، ويُؤْثَر عن المهلب أنه كان يقول : « عجبت لمن يشترى المماليك بماله ولا يشترى الأحرار بمعروفه[9] » ونرى الشعراء مصطفين

---

(١) الديوان ص ٧٠٠ .

(٢) الديوان ص ٣٩ ، ١٢٥ ، ٢٥١ .

(٣) أغانى (ساسى) ١٨/١٤٥ وما بعدها .

(٤) انظر فهرس ديوانه .

(٥) المحبر ص ١٥١ .

(٦) أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٧٩، ٣٨٥ .

(٧) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة ساسى) ١٩/١٥٢ .

(٨) أغانى (دار الكتب) ٦/٥٦ .

(٩) البيان والتبيين ٣/٢٠٥ .

ببابه يمدحونه مدائح رائعة ، وفى مقدمتهم كعب[١] الأشقرى وزياد[٢] الأعجم وحمزة[٣] بن بيض والمغيرة[٤] بن حَبَنْناء التميمى ونهار[٥] بن توسعة ، وله يرثيه حين توفى بمَرْو الروذ :

أَلا ذهبَ الغزو المقرِّب للغِنى ... ومات النَّدَى والحزم بعد المهلَّبِ

أقاما بمَروِ الرُّوذ رهنَ ضريحهِ ... وقد غُيِّبا عن كل شَرْقٍ ومغربِ

وكان ابنه المغيرة على شاكلته جوداً ونَـوالا غَـمْرا ، وتوفِّى قبله بقليل ، فبكاه الشعراء طويلا على شاكلة قول زياد الأعجم فى مرثية بديعة له[٦] :

إنَّ السماحةَ والمروءة ضُمِّنـا ... قبْرًا بمرْوَ على الطريق الواضحِ

ولا يكاد يوجد شاعر فى العراق وخراسان لأيام أخيه يزيد إلا مدحه ونوه به تنويهاً بعيداً ، ومن مُدّاحه الفرزدق[٧] ونهار[٨] بن توسعة وحمزة[٩] بن بيض وحاجب[١٠] الفيل والعُدَيْل بن الفرخ العِجْلىّ وفيه يقول[١١] :

يَداه :يَدٌ بالعُرْف تَنهب ماحَوَتْ ... وأُخرى على الأعداء تسطو وتجرحُ

وكان كعب الأشقرى وثابت قُطْنة لا يفارقان مجلسه[١٢] ، وفيه يقول ثابت حين خذله أهل العراق فى ثورته على بنى أمية وفرّ واعنه ، فقُتل قَعْصاً بالرماح[١٣] :

إنْ يقتلوك فإنَّ قَتْلك لم يكن ... عارًا عليك وبعضُ قَتْلٍ عارُ

(١) طبرى ٥/٢٣ ، ٧٧ ، ١٥٩ وأغانى (دار الكتب) ١٤/١٨٧ وما بعدها .

(٢) أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٨٣ وما بعدها .

(٣) أغانى (ساسى) ١٥/٢٤ .

(٤) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ١/٣٦٧ وأغانى (دار الكتب) ١٣/٨٤ والخزانة ٣/٦٠١ وفهرس الطبرى ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٧٣ والمؤتلف ص ١٠٥ والاشتقاق ص ٢٢٠ حيث يقول ابن دريد إنه استشهد بخراسان وكان شاعر تميم فى عصره .

(٥) انظر فى ترجمة نهار بن توسعة وأخباره الشعر والشعراء ١/٥٢١ والمؤتلف ١٩٣ والأمالى ٢/١٩٨ وفهرس الطبرى والأغانى .

(٦) ذيل الأمالى ص ١٠ وأغانى (دار الكتب) ١٥/٣٨١ .

(٧) ديوان الفرزدق ص ٤٦ ، ٣٧٤ .

(٨) الشعر والشعراء ١/٥٢٢ .

(٩) أغانى (ساسى) ١٥/١٨ .

(١٠) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٦٤ وما بعدها . وانظر فيه الشعر والشعراء ٢/٦١٣ وفهارس الطبرى والبيان والتبيين والحيوان وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ٢/١٠٥ .

(١١) أغانى (ساسى) ٢٠/١٣ .

(١٢) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٦٦ .

(١٣) أغانى ١٤/٢٧٩

وكان أخوه المفضل ممدَّحا وممن أشادوا به كعب[١] الأشقرى وثابت[٢] قطنة ، وكذلك كان مخلد بن يزيد بن المهلب وكان يخلف أباه على خراسان ، هو ممدوح حمزة[٣] بن بيض والكميت[٤]. وفى المهالبة وكرمهم الفياض يقولُ بُكَير بن الأخْنَس[٥] :

نزلتُ على آل المهلَّب شاتيا فقيرًا بعيدَ الدار فى سنةٍ مَحْل[٦]

فما زال بى إلطافُهم وافتقـــادهم وإكرامُهم حتى حسبتهمُ أهلى[٧]

ومن ولاة خراسان الممدَّحين قتيبة بن مسلم الذى وليها للحجاج بعد المهالبة سنة ٨٦ ، وهو أكبر قائد تولى لبنى أمية حربَ الترك ، وقد فتك بهم فتكاً ذريعاً ، وشَقَّ الطريق إلى بلاد الشاش وسمرقند. وقد تغنَّى كثير من شعراء خراسان بانتصاراته الباهرة من أمثال المغيرة[٨] بن حَبْناء وكعب[٩] الأشْقرى ونهار بن تَوْسعة وفيه يقول[١٠] :

وما كان مذ كُنَّا ولا كان قبلنا ولا كائنٌ من بعدُ مثل ابن مسلمِ

أعمَّ لأهل الشِّرك قَتْلاً بسيفه وأكثر فينا مَغْنماً بعد مغنم

ووليها لعهد عمر بن عبد العزيز الجرّاحُ بن عبد الله الحكميّ ممدوح الفرزدق[١١]. ومن الأجواد الممدَّحين الذين ولوها لخالدالقسرى الجُنَيْد بن عبد الرحمن المرِّى ممدوح جرير[١٢]، وأسد القسرى وكان بحراً فياضاً ، وقد نوه

---

(١) طبرى ٥/١٩٤ .

(٢) انظر مرثية بديعة له فيه بالأغانى ١٤/٢٧٥ .

(٣) أغانى (ساسى) ١٥/١٩ .

(٤) نفس المصدر ١٥/١٠٨ ، ١٢٢ .

(٥) البيان والتبيين ٣/٢٢٣ .

(٦) محل : مجدبة .

(٧) الافتقاد : طلب الشيء عند غيبته كناية عن كثرة سؤالهم عنه واهتمامهم بأمره .

(٨) طبرى ٥/٢٤٠ .

(٩) طبرى ٥/٢٤٧ وأغانى (دار الكتب) ١٤/٢٩٩ .

(١٠) أمالى القالى ٢/٢٠٢ والشعر والشعراء ١/٥٢٢ .

(١١) الديوان ص ٢٢٨ .

(١٢) الديوان ص ٥١ .

به الفرزدق طويلا[١] . ووليها ليوسف بن عمر الثقفى نصر بن سيار ، وكان شاعراً وبطلا مغوارا وغيثاً مدراراً ، وهو آخر ولاتها للأمويين ، وممن مدحوه قبل ولايته عليها الفرزدق[٢] وثابت[٣] قُطْنة ومن مُدّاحه فى ولايته أبو عطاء[٤] السِّنْدى . ومن قُوّاد الجيوش فى خراسان هلال بن أحْوز المازنى الذى أبلى فى حرب المهالبة مع مسلمة بن عبد الملك وهو قاتل جَهْم بن صفوان متكلم المرجئة فى ثورتهم بخراسان ، وممن أشادوا به طويلا الفرزدق[٥] وجرير.[٦]

ويلقانا فى سِجِسْتان من الممدّحين عبدالله بن الحَشْرج ، وكان واسع العطاء وفيه يقول زياد الأعجم[٧] :

إن السَّماحة والشجاعة والنَّدَى ... فى قُبَّةٍ ضُرِبتْ على ابن الحَشْرَجِ

ومنهم طلحة بن عبد الله الخُزاعى الملقب بطلحة الطلحات ، وهو أجود أهل البصرة فى عصره غير مدافَع ، وممن مدحوه أبو حُزابة[٨] وعُوَيْف[٩] القوافى والمغيرة[١٠] بن حَبْناء ، ونوّه به ابن قيس الرقيات طويلا حتى إذا توفّى رثاه بقصيدة بديعة[١١] ومنهم عبيد الله بن أبى بكرة ممدوح الفرزدق[١٢] وابن مفرِّغ[١٣] ، ومسمع بن مالك بن مسمع ممدوح أبى جِلدة اليشكرى ، وفيه يقول حين وافاه الموت[١٤] :

كنت الشهابَ الذى يُرْمَى العدوُّ به ... والبحرَ منه سِجالَ الجود نغترفُ

ومن ولاة الحجاز الممدّحين سعيد بن العاص والى معاوية على المدينة ، وكان يَتَنحر

---

(١) الديوان ١٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٥٢٦ ، ٥٨١ ، ٥٩٢ ، ٦٢٦ ، ٨٧٥ .

(٢) الديوان ص ٣٤٧ ، ٤١١ ، ٥١١ .

(٣) طبرى ٥/٣٩٩ .

(٤) أغانى (ساسى) ١٦/٨١ .

(٥) الديوان ص ٥٥ ، ٦٠ ، ٢٢١ ، ٥٠٧ ، ٥٤٨ ، ٥٧٤ .

(٦) الديوان ص ٥٣ ، ٢٤٠ ، ٥٣٧ .

(٧) أغانى (دار الكتب) ١٢/٢٣ .

(٨) أغانى (ساسى) ١٩/١٥٣ .

(٩) انظر فى ترجمة عويف أغانى (ساسى) ١٧/١٠٥ والخزانة ٣/٨٧ ومعجم الشعراء ص ١٢٧ .

(١٠) أغانى (دار الكتب) ١٣/٨٥ .

(١١) ديوان ابن قيس الرقيات بتحقيق محمد يوسف نجم (طبع بيروت) ص ٢٠ .

(١٢) الديوان ص ٥٧ .

(١٣) أغانى (ساسى) ١٦/٧٠ وما بعدها .

(١٤) أغانى (دار الكتب) ١١/٣١٣ .

فى كل يوم جـَزوراً يطعمه الناس[١]، وممن نوهوا به الُحطَيئة[٢] والفرزدق[٣]. وكان ابن الأزرق المخزومى والى ابن الزبير على اليمن جوادا معطاء، وهو ممدوح أبى دَهْبل[٤] الجمحى. ولعل واليا لم يُمْدح كما مدح عبدالعزيز بن مروان فى ولايته على مصر، وكان بحراً سيالا من بحور العرب، ومن مدّاحه نُصَيْب[٥] وابن قيس[٦] الرقيات وكثيّر[٧] وعبد الله[٨] بن الحجاج والأحوص[٩] وأيمن[١٠] بن خُرَيم وأمية[١١] بن أبى عائذ. ومن ولاّتها بعده عبد الله بن عبد الملك ممدوح الَحزين[١٢] الكنانى.

ويلمع بجانب هؤلاء الولاة والعمال أسماء كثيرين من الأجواد، وفى مقدمتهم عبد الملك بن بشر بن مروان ممدوح ابن عَبْدل[١٣]، وعبد الواحدبن سليمان ممدوح القطامى[١٤]، وعبد الرحمن بن محمد بن مروان ممدوح عُوَيف[١٥] القوافى ومعاوية بن هشام بن عبد الملك ممدوح جرير[١٦]، وأسماء بن خارجة ممدوح القطامى[١٧] وأعشى شيبان[١٨]، وعكرمة بن رِبْعِىّ الفياض ممدوح الأخطل[١٩] والعُدَيْل[٢٠] بن الفرخ العجلى، والمنذر بن الجارود ممدوح الفرزدق[٢١] وأبى الأسود[٢٢] الدؤلى، وزكريا بن طلحة الفياض ممدوح الأقيشر[٢٣] الأسدى. ومالك بن مسمع ممدوح العُدَيْل[٢٤]، وكانت قبائل ربيعة فى البصرة تجتمع عليه

---

(١) المحبر لابن حبيب ص ١١٥
(٢) ابن سلام ص ١٠٠، ١٠١ وأغانى (ساسى) ١٦/٣٨.
(٣) ابن سلام ص ٢٧١ والديوان ص٦١٥.
(٤) المحبر ص ١٥٢.
(٥) أغانى (دار الكتب) ١/٣٢٤ وما بعدها.
(٦) أغانى ٥/٨٧.
(٧) البيان والتبيين ٣/١٢ وأغانى (دار الكتب) ٩/٣٣.
(٨) انظر فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ١٣/١٥٨ والبيان والتبيين ١/٣٩٠.
(٩) ابن سلام ص ٥٤٣، ٥٤٦.
(١٠) أغانى (ساسى) ٢١/٧.
(١١) أغانى (ساسى) ٢٠/١١٥.
(١٢) أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٢٣.
(١٣) أغانى ٢/٤٢٥.
(١٤) أغانى (ساسى) ٢٠/١١٩.
(١٥) أغانى (ساسى) ١٧/١١٧.
(١٦) الديوان ص ١٥٢، ١٨٢.
(١٧) ابن سلام ص ٤٥٥.
(١٨) أغانى (ساسى) ١٦/١٥٧.
(١٩) ابن سلام ص ٤١٧.
(٢٠) أغانى (ساسى) ٢٠/١٨.
(٢١) الديوان ص ٢٢٠.
(٢٢) أغانى (دار الكتب) ١٢/٣٣١.
(٢٣) أغانى ١١/٢٥٥.
(٢٤) أغانى (ساسى) ٢٠/١٧، ١٩.

فى الإسلام اجتماعها على كُليب فى الجاهلية . وممن كان لا يبارَى فى جوده عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وله فى كرمه أخبار وأحاديث يقصها الرواة ، ومن مُدّاحه ابن[1] قيس الرقيات . وكان يجرى على مثاله فى الجود بالمدينة عروة ابن الزبير ممدوح إسماعيل[2] بن يسار النسائى ، وحمزة بن عبد الله بن الزبير ممدوح موسى[3] شهوات ، وفيه يقول[4] :

حمزةُ المبتاعُ بالمال الثَّنَـا ... ويرى فى بَيْعه أن قد غَبَنْ

وهو إنْ أعطى عطـاءً فاضلا ... ذا إخاءٍ لم يكدِّره بِمَنْ

وطلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ممدوح الحزين[5] الكنانى . ولعل من الخير أن نقف عند نفر من الشعراء الذين أحسنوا فن المديح لهذا العصر ، وقد اخترنا من بينهم نُصَيْباً من الحجاز والقطامى من الجزيرة وكعباً الأشقرى وزياداً الأعجم من خراسان .

نُصَيْب[6]

شاعر حجازى نوبى الأبوين كان شديد السواد ، وجعله ذلك يحتجّ للونه كثيراً على شاكلة قوله فى بعض شعره :

فإن يَكُ من لونى السَّوادُ فإننى ... لكالمِسْك لا يَرْوَى من المِسْكِ ذائقُهْ

وكان مُسْتَرَقّاً لرجل من كنانة من أهل وَدّان بالقرب من مكة ، وتيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، فكاتَبَ مولاه ، وفزع إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ، فردّ إليه حريته ، وكان لذلك أثر عميق فى نفسه . فدبّج فيه مدائح رائعة من مثل قوله :

---

(١) اغانى (دار الكتب) ٥/٧٩ ، ٨٦ .

(٢) أغانى ٤/٤٠٨ .

(٣) انظر ترجمة موسى شهوات فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٣/٣٥١ والشعر والشعراء ٢/٥٥٨ والخزانة ١/١٤٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٨٦ .

(٤) أغانى ٣/٣٥٧ والمبرد ص ٣٦٧ .

(٥) المحبر ص ١٥٢ .

(٦) انظر فى ترجمة نصيب أغانى (دار الكتب) ١/٣٢٤ وراجع فهرسه والشعر والشعراء ١/٣٧١ وابن سلام ص ٥٤٤ والاشتقاق لابن دريد ص ١٤٦ ومعجم الأدباء ١٩/٢٢٨ وشواهد العينى ١/٥٣٧ والموشح ص ١٨٩ .

فبشِّرْ أهلَ مصرَ فقد أتاهم مع النِّيل الذى فى مصرَ نِيلُ
يقول فيحسن القولَ ابنُ ليلى ويفعل فوق أحسنِ ما يقولُ[١]

وقوله :

لعبد العزيز على قومهِ وغيرهمُ مِنَنٌ غامره
فبابك أسهلُ أبوابهم ودارك مأهولةٌ عامره
وكفُّك حين ترى السائلـ ـين أَنْدَى من الليلة الماطره

ومازال مع عبد العزيز حتى توفى سنة ٨٥ للهجرة ، فبكاه بكاء حارًّا ، وأوصى به من بعده سليمان بن عبد الملك ، فلزمه . ومن قوله فيه :

قِفُوا خبِّرونى عن سليمان إننى لمعروفه من أهل وَدَّانَ طالبُ
فعاجُوا فأَثْنَوْا بالذى أنت أهلُه ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ[٢]

وله مدائح فى يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام مما يدل على أنه عاش إلى أوائل القرن الثانى . وله مدائح فى بعض ولاة الحجاز من مثل إبراهيم بن هشام المخزومى والى مكة وعبد الواحد النصرى والى المدينة ، وبعض ولاة العراق وقواده مثل بشر بن مروان وعمر بن عبيد الله بن معمر . وكان يعنى بثيابه وطيبه ، وكان كبير النفس ، فلم يتورط فى هجاء ، كما كان عفيفاً ، وله غزل نقى طاهر ، وهو لذلك يُسْلَكُ فى العذريين .

القطامى[٣]

لقبٌ غَلَبَ على عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبى ، وهو من بنى الفَدَوْكس عشيرة الأخطل ، ومن ثَمّ نشأ نصرانيا ، غير أنه فيما يظهر دخل فى الإسلام . وقد اشترك فى الحروب التى نشبت بين قبيلته تغلب وقيس فى أثناء فتنة ابن الزبير ،

---

(١) ليلى : أم عبد العزيز بن مروان وهى بنت زبان بن الأصبغ الكلبية .

(٢) عاجوا : وقفوا .

(٣) راجع فى ترجمة القطامى أغانى (ساسى) ٢٠/١١٨ وابن سلام ص ٤٥٢ والشعر والشعراء ٢/٧٠١ والخزانة ١/٣٩١ والاشتقاق ص ٣٣٩ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٧ ومعاهد التنصيص ١/١٨٠ والموشح ص ١٥٨ . وقد نشر ديوانه فى ليدن سنة ١٩٠٢ ونشرته دار الثقافة ببيروت ، ونشر نشرة محققة ببغداد .

وأسرَه أحد القيسيين فى يوم ماكَسين ، غير أن زُفَر بن الحارث حين عرفه افتكّه من الأسر ، وردّ عليه ما سُلب منه ، وأعطاه مائة من الإبل مما جعله ينوّه به ويصنيعه معه طويلا ، على شاكلة قوله :

ومن يكن استلام إلى ثَوِىٍّ فقد أَحسنتَ ، يا زُفَرُ ، المتاعا (١)
أأكفرُ بعد رَدِّ المـوت عنِّى وبعد عَطائك المائةَ الرِّتاعا (٢)
ولم أر مُنْعمين أقلَّ مَنًّــا وأكرمَ عندما اصطنعوا اصطناعا (٣)
من البيض الوجوه بنى نُفَيْلٍ أبتْ أخلاقهم إلا اتساعا (٤)

وفى هذه القصيدة يتأسى للحروب الناشبة بين تغلب وقيس على ما بينهما من صلات وأسباب ، ويدعو مخلصاً للصلح ووَقْف هذه الحروب المُبِيرة التى لا تتوقف رَحاها حينا إلا لتعود أشد التهاماً لأبناء القبيلتين ، يقول :

ألم يحزنْك أن حِبال قيسٍ وتغلبَ قد تباينتِ انقطاعا
وكُنَّا كالحريق أصاب غاباً فيخبو ساعةً ويَشِبُّ ساعا
أُمورٌ لو تدبَّرها حليمٌ إذَنْ لنَهَى وهيَّب ما استطاعا

ووفدَ على الوليد بن عبد الملك ، وقيل على عمر بن عبد العزيز ، فقيل له إن الشعر لا ينفق عنده ، وهذا عبد الواحد(٥) بن سليمان سَيبرُّك إن مدحته ، فمدحه ، وأضفى عليه كثيراً من بِرِّه ونواله . وكان أول ما مدحه به قصيدته :

إنا محيُّوك فاسْلَمْ أيها الطَّلَلُ وإن بَليتَ وإن طالتْ بك الطِّيَلُ (٦)

---

(١) استلام : أتى ما يلام عليه . الثوى : الضيف المقيم . المتاع : الزاد .

(٢) يريد بالكفر كفر النعمة وجحدها . الرتاع : جمع راتعة .

(٣) المن : الفخر بعمل الخير . يقول إنهم لا يمنون بما يصنعون .

(٤) بنو نفيل : عشيرة زفر وهم من بنى عامر ابن صعصعة ، ويريد باتساع الخلق الكرم وغيره من الشيم الفاضلة .

(٥) انظر فى تحقيق نسب هذا الممدوح وهل هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك أو عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص الخزانة ٣/١٢٤ وقارن بأخبار القطامى فى الأغانى وبالقصيدة الأولى فى الديوان .

(٦) الطيل هنا : الأزمنة .

ونراه يضمنها نظرات فى الحياة وفى الناس وأخلاقهم ، وهو يقترب فى ذلك من ذوق المتنبى فى مدائحه كما نرى فى مثل قوله :

والعيشُ لا عيش إلا ما تَقَرُّ بِهِ عَيْنٌ ، ولا حالَ إلا سوف تنتقلُ

والناسُ من يَلْقَ خيرًا قائلون له ما يَشْتهى ولأُمِّ المخطىءِ الهبَلُ

قد يُدْرِك المتأنّى بعضَ حاجتهِ وقد يكون مع المستعجل الزَّلَلُ

ويُشيد فى القصيدة بقريش ونُصْرتها للرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيتها لدعائم الدين الحنيف مما يدل أكبر الدلالة على أن الله أتمّ عليه نعمة الإسلام . يقول :

قومٌ همُ ثَبَّتوا الإسلام وامتنعوا قومُ الرسول الذى ما بعده رسُلُ

وممن أشاد بهم ونوّه بذكرهم أسماء بن خارجة الفزارى ، وله فيه أمداحٌ رائعة على شاكلة قوله :

إذا مات ابنُ خارجة بن حِصْنٍ فلا هطلتْ على الأَرض السماءُ

ولا رجع البريد بغُنْمِ خيرٍ ولا حملتْ على الطُّهْر النِّساءُ

ومن أهم ما يميزه فى شعره صفاءُ موسيقاه وحلاوة ألفاظه وعذوبة أنغامه وتمكن قوافيه وجودة مطالعه والمظنون أنه توفّى فى أوائل القرن الثانى للهجرة .

كعب[1] بن معدان الأشقرى الأزدى

من شعراء خراسان الذين برعوا فى المديح ، وهو فارس شجاع له آثار فى حروب المهلّب للأزارقة فى فارس وللترك فى خراسان . وله فى المهلّب ووصف حروبه قصائد كثيرة ، منها قصيدة طويلة فى حروبه للأزارقة تشبه أن تكون ملحمة ، وقد روى منها أبو الفرج أطرافاً ، وروى منها الطبرى ثلاثة وثمانين بيتاً[2] وهو فى شعره يحسن حوْك اللفظ والمعنى جميعاً على شاكلة قوله يمدح المهلب وأبناءه :

---

(١) انظر فى ترجمة كعب الأغانى (طبع دار الكتب) ٢٨٣/١٤ وما بعدها والشعر والشعراء ٣٩٧/١ وما بعدها ومعجم المرزبانى ص ٢٣٦ وراجع الجزء الخامس من الطبرى فى مواضع متفرقة .

(٢) طبرى ١٢٢/٥ .

برَاكَ اللهُ حينَ بَرَاكَ بَحْرًا وفجَّر منكَ أنهارًا غِزارا[١]

بنوكَ السابقونَ إلى المعالى إذا ما أعظمَ الناسُ الخِطارا[٢]

كأنَّهمُ نجومٌ حولَ بَدْرٍ دراريٌّ تكمَّلَ فاستدارا[٣]

ملوكٌ ينزلونَ بكلِّ ثَغْرٍ إذا ما الهامُ يومَ الرَّوْعِ طارا[٤]

رِزانٌ فى الأمورِ ترى عليهم من الشَّيْخِ الشَّمائلَ والنِّجارا[٥]

نجومٌ يُهْتَدَى بهمُ إذا ما أخو الظَّلماءِ فى الغمراتِ جارا

وتوفِّى المهلب ، فلزم ابنه يزيد يمدحه ويصف حروبه مع الترك وبرَّه ونائله الجزل ، ومن بديع ما قاله فيه :

يَداكَ إحداهما تَسْقى العدوَّ بها سَمًّا وأُخرى نَداها لم يزل دِيَمَا

ولما عُزل يزيد عن خراسان لعهد الحجاج ووليها قتيبة بن مسلم الباهلى وانتصر على الترك انتصاراته الرائعة مضى يُشيد به وبانتصاراته بمثل قوله[٦] :

دوَّخ السُّغْدَ بالكتائبِ حتّى ترك السُّغْدَ بالعَراءِ قعودا

فوليدٌ يبكي لفقدِ أبيهِ وأبٌ موجَعٌ يبكِّى الوليدا

وجرَّه ذلك إلى التخلص من عصبيته لقبيلته وصاحبها يزيد بن المهلب ، ويقال إنه نال منه وثلبه . وكان قبل هذه الفترة من حياته يستشعر عصبية حادة للأزد ، وهى عصبية جعلته يتهاجى هجاء مريراً مع شعراء قبيلة عبد القيس وعلى رأسهم زياد الأعجم ، كما تهاجى مع شعراء ربيعة . وكان موقفه مع قتيبة سبباً فى غضب يزيد بن المهلب عليه غضباً شديداً ، فلما ولى العراق وخراسان لعهد سليمان بن عبد الملك طلبه ، فهرب إلى عُمان ، وظلّ بها إلى أن ثار يزيد على الأمويين سنة ١٠٢ فأتبعه من قتله .

---

(١) براك : خلقك .

(٢) الخطار : المراهنة .

(٣) نجوم دراری : مضيئة .

(٤) الهام : الرءوس ، يوم الروع : يوم الحرب والخوف .

(٥) رزان : جمع رزين . ويريد بالشيخ المهلب . الشمائل : الطباع . النجار : الأصل والحسب .

(٦) طبرى ٥/٢٠٤ والسغد : جنس من الترك .

زياد(١) الأعجم

مولى لقبيلة عبد القيس ، أصله ومولده ومنشؤه بأصبهان ، وكانت فيه لثغة شديدة سبق أن تحدثنا عنها ، وكان يُحْسن فَنّ المديح إحساناً رائعاً ، وممن ظلّ يمدحهم طويلا عمر بن عبيد الله بن معمر والى فارس ، وفيه يقول :

سألناه الجزيلَ فمَا تأبّى وأعطى فوق مُنْيَتِنا وزادا

وأحسنَ ثم أحسن ثم عُدْنا فأحسن ثم عُدْتُ له فعادا

أخٌ لك لا تراه الدهرَ إلا على العِلاّت بسّاماً جوادا

ويُرْوَى أن ابن مَعْمَر عدّ أبيات هذه القصيدة ، فأعطاه على كل بيت ألفا . وما زال يلزمه حتى توفّى ، فولى وجهه نحو خراسان ، فمدح عبد الله بن الحشرج والى سجستان ، وتوفّى فرثاه رثاء حارًّا ، تمثلنا فيما سلف ببيت منه ، وحدّث أن مدح المهلّب وعنده كعب الأشقرى والمغيرة بن حَبناء ، فأمر لهم بجوائز ، وفضّل زيادا ، ولاحظ — كما أسلفنا — لُكْنته فى قوله :

فَتًى زاده السُّلطان فى الخير رفعةً إذا غَيَّر السُّلطانُ كلَّ خليلِ

إذ نطق السلطان « الشلتان » بإبدال السين شيئاً والطاء تاء ، فوهب له غلاماً فصيحاً ينشد شعره . وغاظ صنيع المهلب بزياد المغيرةَ بن حَبْناء وكعباً ، وانتُدب له المغيرة ، فتهاجيا طويلا . ولم يلبث أن تهاجى مع كعب ، وتفوق عليه فى عدة قصائد يقول فى إحداها هاجيا قبيلته :

قُبَيِّلة خَيْرُهــا شَرُّها وأصدقُها الكاذبُ الآثِمُ

وضيفهمُ وَسْطَ أبياتهم وإن لم يكن صائماً صائمُ

وهاجى قتادة بن مغرِّب اليَشْكرى . وفى قبيلته هو الآخر يقول :

ويَشْكر لا تستطيع الوفاءَ وتعجز يشكر أن تَغْدرا

---

(١) انظر فى ترجمة زياد أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٨٠ وابن سلام ص ٥٥٧ والشعر والشعراء ١/٣٩٥ ومعجم الأدباء ١١/٢٢١ والخزانة ٤/١٩٣ والاشتقاق ص٣٢٣ وراجع أغانى (دار الكتب) ١٣/٨٩ وما بعدها وذيل الأمالى ص ١٠ والجزء الخامس من الطبرى فى مواضع متفرقة .

وكان مُغْرًى بهجاء الوعاظ والفقهاء والنُّسَّاك، ويقال إن الفرزدق همَّ بهجائه حين رآه يُكثر من هجاء المغيرة بن حَبْناء وقبيلته تميم ، فبادره بقوله :

وما ترك الهاجون لى إن هجوته مصَحًّا أراه فى أديم الفرزدقِ
وإنا وما تُهْدى لنا إن هجوتنا لكا لبحر مهما يُلْقَ فى البحر يَغْرَقِ

فتوسل الفرزدق إليه أن يكفَّ عنه . وفى ذلك ما يدل على أنه كان يتقن الهجاء كما كان يتقن المديح والرثاء ، ومرثيته للمغيرة بن المهلب من روائعه . وقد توفِّى فى حدود المائة الأولى للهجرة .

٢

شعراء الهجاء

احتدم الهجاء فى هذا العصر احتداماً شديداً ، بتأثير العصبيات القبلية التى اشتعلت — كما مرَّ بنا — نيرانُها فى كل مكان ، ومعروف أن الإسلام دعا إلى نَبْذ هذه العصبيات وحاربها حرباً عنيفة ، غير أن هذا — فيما يظهر — كان مثلا أعلى لم يستطع العرب تحقيقه إلا إلى فترة محدودة ، فلم تكد نيرانها تتحول إلى رماد ، حتى عادت إلى الظهور ، إذ نشبت حرب الرِّدَّة وأشرع فيها الشعراء ألسنتهم صادرين عن روحهم القبلية ، على نحو ما يُرْوَى عن أبى شجرة السُّلمى وانتصاره للمرتدين من قبيلته سُلَيْم ، وكأن من دخلوا هذه الحرب أرادوا أن يخلعوا عنهم سلطان قريش . وقضى أبو بكر الصديق قضاء مبرما على هذه الفتنة ، ودفع العرب إلى الفتوح ، ولكنهم لا يكادون يهدأون ، حتى تحدث فتنة عثمان وتنشب الحروب بين علىّ وخصومه : طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية . وكانت كثرة جيشه من اليمانية وربيعة ، ونراهما تتنافسان فى قيادة حربه بموقعة الجمَل ، كما تتنافسان فى موقعة صِفِّين ضد معاوية ، ويتبادل شعراؤهما الطعن والتجريح كلٌّ يصور حسن بلاء قومه فى الحرب . والتقت بهذه الأصوات أصوات مُضَرِيَّة كثيرة . وحدث هذا نفسه فى صفوف خصومه ، مما نجد آثاره فى الطبرى وفى

وقعة صِفّين لنصر بن مزاحم . وعبثاً حاول علىٌّ أن يُعْلى كلمة الإسلام الذى حاول أن يمحو الدعوات الجاهلية وما اتصل بها من عصبيات ، إذ لم تلبث طائفة كبيرة فى جيشه بعد قبوله للتحكيم أن نظرت فى تولى قريش تدبير الأمور فى الأمة ، وأن من حقها جميعاً أن يكون لها الحكم والسلطان . وبسرعة تكونت جماعة الخوارج وشَهرت سيوفها فى وجهه مما اضطره أن يحاربها ويذيقها وبال انتكاسها وخروجها على الجماعة .

ومما لا شك فيه أن موقف معاوية كان سبباً قويًّا من أسباب استشعار جماعته للعصبية القبلية ، فقد مضى يطالب بحق عشيرته الأموية فى الأخذ بثأر عثمان ، وكأنه أحْيى قاصداً أو غير قاصد الفكرة القديمة التى كانت تجعل حق الثأر للقبيلة والعشيرة . ومعروف أن الإسلام هدم هذا الحق وحوّله من القبائل والأفراد إلى الدولة ، فهى التى تعاقب عليه بما يفرضه دستور القرآن الكريم . وزاد فى استشعار العصبية فى صفوفه أنه كان يعتمد على قبيلة كلب اليمنية ، وكان بينها وبين الأمويين مصاهرات مختلفة ، فإن عثمان تزوج منها بنائلة بنت الفُرافِصة . وتزوج معاوية من مَيْسون بنت بَحْدَل ، وهى أم ابنه يزيد ، وكذلك تزوج مروان بن الحكم ليلى بنت زَبّان بن الأصبغ الكلبية ، وهى ابنة عم نائلة . وقد استغل معاوية فى حربه لعلى ذلك ، لأن الصِّهْر عند العرب كالنسب ، ووسَّع استغلاله ، إذ ضمَّ تحت لوائه جميع القبائل اليمنية الشامية .

وعلى هذا النحو كانت العصبية القبلية تَسْرى فى أحداث هذه الفترة ، وهدأت الأمور نحو ربع قرن ، حتى إذا توفِّى يزيد وجدنا العصبية تَستعر بين القبائل فى الشام والجزيرة وفى البصرة وخراسان . أما فى الشام والجزيرة فاندلعت بسبب نزول قيس فيهما واصطدامها فى أولاهما بكلب والقبائل اليمنية وفى ثانيتهما بتغلب الرَّبعية . وكانت وفاة يزيد بن معاوية إشارة الوقت لهذا الاندلاع ، فقد بايعت قيسٌ ابنَ الزبير وبايعت اليمنية وتغلب مروانَ بن الحكم ، وسلَّ الطرفان سيوفهما فى معارك حامية تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع ، وانبعث شعراء كل طرف يفتخرون ويهجون ، بالضبط ، كما كان يفتخر آباؤهم فى الجاهلية ويهجون .

وفى نفس الوقت نجد الحِلْفين الكبيرين فى البصرة : حلف تميم وقيس من جهة وحلف الأزد وربيعة واليمنية من جهة أخرى يستشعران العصبية القبلية استشعاراً حادًّا . ومرّ بنا فى غير هذا الموضع كيف اصطدم الحِلْفان بعد فرار عبيد الله بن زياد عن العراق ، وكيف أفضى الاصطدام إلى القتال ، لولا أن تدارك الأمرَ الأحنفُ بن قيس فرتقَ الفتْق . وقد ظلت نفوس الحلفين تغلى طوال العصر ، وظل الشعراء يتصايحون صياحهم القبلى حتى لنجد أبا نُخيلة ، وهو ممن أدركوا الدولة العباسية ينظم أرجوزة طويلة يذكر فيها حرب قومه التميميين مع الأزد وربيعة مفاخراً بانتصارهم على شاكلة قوله [1] :

نحن ضربنا الأَزْدَ بالعـراقِ والحىَّ من ربيعـةَ المُرَّاقِ
ضربًا يُقيم صَعَرَ الأَعنـاقِ بغير أَطمـاعٍ ولا أَرْزاقِ [2]
إلاّ بقايا كرم الأَعْراقِ

ولم تحتدم العصبيات القبلية فى البصرة فحسب ، فقد انتقلت إلى خراسان لسبب طبيعى ، وهو أن أكثر جيوشها كانت تتألف من جُنْد البصرة ، إذ هم الذين ابتدءوا فتحها منذ عهد عمر ، وتوالت بعد ذلك كتائبهم وفرقهم هناك ، فكان طبيعيا أن تنعكس بها نيران هذه العصبيات ، وقد أخذت تزداد تأججاً واشتعالا بعامل المنافسة على قيادة الجيوش وولاية الثغور ، إذ كان الوالى هناك يولّى عماله وقواده من قبيلته وأَحلافها ، فإذا تولّى المهالبة مثلا قدّموا رجال الأزد وربيعة واليمن وانتكست قيسٌ وتميم ، وإذا تولى قتيبة بن مسلم الباهلى مثلا رفعتْ قيس وتميم رءوسهما وانتكست الأزد وأحلافها . ولم تقف المسألة عند ذلك فإن القبائل فى الحلف الواحد كثيراً ما اختلفت وتحاربت وتطاحنت بسبب الاختلاف على المغانم وطمعاً فى اكتنازها ، واقرأْ فى أى شاعر ممن عاشوا هناك وترْجم له صاحب الأغانى فستراه دائماً يذود عن قبيلته بلسانه ، سواء كان من أصولها أو من مواليها ، على نحو ما مرّ بنا من استعار الهجاء بين زياد الأعجم مولى

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٣ .

(٢) الصعر : الميل ، وصعر الأعناق كناية عن الكبر والغطرسة ، وأصله ميل العنق والنظر عن الناس تهاوناً واستكباراً .

عبد القيس وكعب الأشقرى الأزدى ، وكان زياد يهاجى أيضاً المغيرة بن حَبْناء التميمى وقتادة بن مغرِّب اليشكرى وابن عمه أبا جِلدة[١]. وقد يرتفع صوت فى أثناء هذا الضجيج باعتزال هذه الحرب اللسانية وما تطوى من عصبيات عنيفة على شاكلة قول نهار بن تَوْسعة[٢] :

أبى الإسلامُ لا أبَ لى سواهُ   إذا هتفــوا ببكر أو تميمِ

ولكن مثل هذا الصوت كان يضيع فى غمار هذه العصبيات التى استعلى سلطانها فى العصر استعلاء شديداً ، وهو استعلاء سقطت منه آثار مختلفة فى جميع البيئات .

وقد قلنا فيما أسلفنا إن الكوفة شُغلت عن العصبيات القبلية بتشيعها وخصومتها للأمويين ، ومع ذلك فإننا نجد هناك الكميت بن زيد الأسدى يثير معركة حامية مع حَكيم[٣] بن عياش الكلبي وهرون[٤] مولى الأزد ، وكثيراً ما كانت تُثار معارك بين شعراء العشائر والبطون ، ولكنها على كل حال لم تحتدم هناك على نحو ما احتدمت فى خراسان والبصرة . وإذا ولَّينا وجوهنا نحو المدينة وجدنا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يتهاجى مع عبد الرحمن بن الحكم الأموى هجاء مريراً[٥] ، ويقال إنه هجا يزيد بن معاوية وشبَّب بأخته رملة تشبيبا أحفظه ، فأغرى الأخطل بهجائه ، فجهاه وهجا قومه الأنصار ، وأغضب ذلك النعمان ابن بشير ، فتعرض للأخطل بهجاء عنيف[٦] :

ويلقانا فى نجد هجاء كثير دار على ألسنة شعراء القبائل ، ولعل من خير ما يمثله تهاجى المرَّار بن منقذ الأسدى ومُساور بن هند العبسى . ومن طريف ما للمرار قوله[٧] :

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١١/٣٢١ .

(٢) الشعر والشعراء ١/٥٢١ .

(٣) أغانى (ساسى) ١٥/١٢ ومعجم الأدباء ١٠/٢٤٧ .

(٤) الحيوان ٧/٧٥ .

(٥) أغانى (ساسى) ١٣/١٤١ والمبرد ص ٢٨٩ .

(٦) انظر فى ترجمة النعمان بن بشير أغانى (ساسى) ١٣/١٤٧ ، ١٤/١١٤ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٤٥٦ وقد طبع له ديوان على الحجر فى دهلى ونشره كرنكو مع ديوان أبى بكر بن العزيز .

(٧) أغانى (دار الكتب) ١٠/٣١٨ .

شقيتْ بنو عَبْسٍ بشعر مساورٍ إن الشقىَّ بكل حَبْلٍ يُخْنَقُ

ومرّ بنا ما كان من مهاجاة شبيب بن البرْصاء الذبيانى وابنى عمه عقيل بن عُلّفة وأرطاة بن سُهَيَّة ومهاجاة ابن ميَّادة والحكم الخُضْرى ؛ وكان فى ابن ميَّادة[1] شر كثير جعله يهاجى كثيرين من مثل عقبة بن كعب بن زهير وعقال بن هاشم اليمنى وشُقْران مولى بنى سلامان .

وعملتْ بجانب هذه العصبيات أسباب شخصية كثيرة على اندلاع نيران الهجاء ، فمن ذلك أن ينتصر أحد الشعراء لزميل فى تهاجيه مع زميل آخر ، حينئذ يرميه بسهام هجائه ، على نحو ما هو معروف عن جرير فى تهاجيه مع الفرزدق إذ كان كثير من الشعراء يقفون مع خصمه ضده . فكان ينصبُّ عليهم شُواظ نار . وقد يفاضل أحد الولاة أو الأجواد بين من يمدحونه من الشعراء فيزيد شاعراً فى جائزته على زميله أو زملائه، فيغضب المفضول ، ويَسْقط بغضبه على من فضّله كما مر بنا فى تهاجى المغيرة بن حَبْناء ، وزياد الأعجم . وقد يبطئ الممدوح على مادحه بمكافأته ؛ فيتحول إلى هجائه على نحو ما هجا الحَزين الكنانى عمرو بن عمرو بن الزبير بقوله[2] :

مواعِيدُ عمرو تُرَّهاتٌ ووجهه على كل ما قد قلتُ فيه دليلُ

جبانٌ وفحَّاشٌ لئيمٌ مذمَّمٌ وأكذبُ خلق الله حين يقول

وقد يَحرم ممدوح مادحا له من نواله فيسرع إلى هجائه على نحو ما كان من عكرمة بن رِبْعى مع المتوكل[3] الليثى ؛ وقد لا تقوم مكافأة الممدوح فى

(١) انظر فى ترجمة ابن ميادة الشعر والشعراء ٢/٧٤٧ والمؤتلف ١٧٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ٢/٢٦١ وما بعدها والاشتقاق ص٢٨٧ والخزانة ١/٧٦ والموشح ص ٢٢٨ .

(٢) أغانى دار الكتب ١٥/٣٣٨

(٣) انظر فى ترجمة المتوكل ابن سلام ص ٥٥١ وما بعدها وأغانى (دار الكتب) ١٢/١٥٩ ومعجم الشعراء ص٣٣٩ وهو صاحب البيت المشهور :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

رأى المادح بما قدّم له من مديحه . فيهجوه ويسرف فى هَجْوه على نحو ما صنع الشَّمَرْدَل بهلال[١] بن أحوز المازنى فارس تميم فى عصره غير مدافع . وقد يحجب الممدوح مادحه فلا يأذن له بلقائه ، فيصبُّ عليه نار هجائه ، على نحو ما رَوى الرواة عن حَجْب مقاتل بن مسمع بن مالك لأبى جِلدة الشكرى ، فقد تولَّى يهجوه بمثل قوله[٢] :

قَرَى ضَيْفَهُ الماءَ القَراح ابنُ مِسْمَع وكان لئيماً جارُه يتذلَّلُ

وقد يمتدح الشاعر أحد العمال ويطلب إليه حاجة فلا يقضيها ، حينئذ ينتقم منه بهجائه ، على نحو ما كان من زياد الأعجم مع عبَّاد بن الحصين ، وكان على شرطة القُباع والى ابن الزبير على البصرة ، فسأله حاجةً فازورّ عنه فهجاه وهجا عشيرته الحَبَطات طويلا . وفيها يقول[٣] :

رأيت الحُمْرَ من شَرِّ المطايا كما الحَبَطات شَرُّ بنى تميم

وعلى هذا النحو أصبحنا نجد الأجواد والقواد والولاة الذين مرت بنا أسماؤهم والذين طالما مدحهم الشعراء يُهْجَوْن كثيراً أو قليلا ، فزياد وبنو زياد يهجوهم ابن مفرِّغ ، والحجاج يهجوه العُدَيْل[٤] بن الفرخ العجلى ومالك[٥] بن الريب التميمى . وفيه يقول[٦] :

ولولا بنو مروانَ كان ابنُ يوسفٍ كما كان عبدًا من عبيد إيادِ
زمانَ هو العبد المقرُّ بذُلِّهِ يراوح صبيانَ القُرَى ويغادى

وكان الفرزدق مولعاً بهجاء كثير من الولاة والعمَّال عصبيةً لقبيلته تميم

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٥٨ .
(٢) أغانى ١١/٣٣١ .
(٣) البيان والتبيين ٤/٣٧ والخزانة ٤/٢٨٠ .
(٤) أغانى (ساسى) ٢٠/١٣ .
(٥) انظر فى ترجمة مالك الشعر والشعراء ١/٣١٢ وأغانى (ساسى) ١٩/١٦٣ والخزانة ١/٣١٧ ومعجم الشعراء ص ٢٦٥ .
(٦) المبرد ص ٢٩٠ .

أو لأسباب شخصية ، وممن أكثرَ من هجائهم عمر[١] بن هبيرة الفزارى وخالد القسرىّ[٢] ، وفيهما يقول إسماعيل بن عمار[٣] :

بكتِ المنابرُ من فَزارة شَجْوَها فالآن من قَسْرٍ تضجُّ وتجزع

وكان المهالبة ممدَّحين كما قدمنا . ومع ذلك لم يسلموا من هجاء الشعراء وعلى رأسهم الفرزدق[٤] . ومن ولاة الشرق الذين هجاهم غير شاعر قتيبة بن مسلم الباهلى والى خراسان ، وسنرى عما قليل هجاء ثابت قطنة له ، ومنهم عبد الله العبشمى مهجوّ أبى حُزابة[٥] . ونرى أعشى همدان يهجو خالد بن عتّاب بن ورقاء والى الرىّ وأصبهان حين جفاه بمثل قوله[٦] :

ويركب رأسَه فى كل وَحْلٍ ويَعْثُرُ فى الطريقِ المستقيمِ

ويهجو أبو نُخَيْلة المهاجر بن[٧] عبد الله والى اليمامة . وفى الحجاز نجد الأحوص مشغوفاً بهجاء ابن[٨] حزم والى المدينة لعمر بن عبد العزيز كما نجد العرجى مشغوفاً بهجاء محمد بن هشام المخزومى والى مكة لهشام بن عبد الملك . ونحن نقف قليلا عند ثلاثة من الهجائين هم ابن مفرّغ البصرى والحكم بن عَبْدل الكوفى وثابت قُطْنة الخراسانى .

ابن[٩] مفرّغ

هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى نشأ بالبصرة ، ويقال إنه كان حليفاً لقريش ، وقيل بل كان مُسترقًّا للضحاك الهلالى فأعتقه . وكان يتقن الفارسية كما أسلفنا فى غير هذا الموضع ، ولعل فى ذلك ما يدل على أنه يرجع إلى أصول إيرانية ، أما لقبه الحميرى فلعل منشأه أنه كان من حَفَدة الفرس الذى نزلوا اليمن قبل الإسلام ، أو لعله يرجع إلى وضعه سيرة لتبّع .

---

(١) الديوان ص ٢٨٢ ، ٦٤٧ .
(٢) أغانى (ساسى) ١٩/٢٣ .
(٣) أغانى (دار الكتب) ١١/٣٧٩ .
(٤) انظر الديوان ص ١٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٤١٢ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٩/١٦٢ .
(٦) البيان والتبيين ٤/٥٠ .
(٧) أغانى (ساسى) ١٨/١٤٥ .
(٨) أغانى (دار الكتب) ٤/٢٣٧ .
(٩) انظر فى ترجمة ابن مفرغ ابن سلام ص ٥٥٤ والشعر والشعراء ١/٣١٩ وأغانى (ساسى) ١٧/٥١ والطبرى ٤/٢٣٥ والاشتقاق ص ٥٢٩ ومعجم الأدباء ٢٠ / ٤٣ والخزانة ٢/٢١٢ ، ٥١٤

ويظهر أن موهبة الشعر تيقظت عنده مبكرة ، وطبيعى وهو قد نشأ فى البصرة أن يتجه بشعره إلى المديح والهجاء اللذين كانا شائعين فيها على ألسنة الشعراء من حوله ، غير أن الهجاء هو الذى غلب عليه ، وقد صبه صبًّا على أسرة زياد بن أبيه ، وكان الذى دلع لسانه فيها أن سعيد بن عثمان والى معاوية على خراسان أراد استصحابه فآثر عليه عَبَّاد بن زياد والى سجستان ؛ وصحبه فلم يحمده ، وكان عباد طويل اللحية عريضها ، فركب ذات يوم وابنُ مفرغ يسير معه فى موكبه ، فهبَّت ريح ، فنفشت لحيته . فقال ابن مفرغ توا :

ألا ليتَ اللِّحَى كانت حشيشا فنعْلفهـــا دوابَّ المسلمينا

وعلم عباد بما قال ، فأخذ يجفوه ويتنكر له ، وأخذ ابن مفرغ يظهر ندمه على صُحْبته وترْكه لسعيد بن عثمان ، وفى ذلك يقول :

إن ترْكى نَدَى سعيد بن عثما ن فتى الجود ناصرى وعَديدى

واتِّباعى أخا الوضاعة واللُّؤْ م لنقصٌ وفوْتُ شأوٍ بعيد

وكان على ابن مفرغ دَين ، فاستعدى عليه دائنوه عبَّادا ، فأمر ببيع ماله فى دَينه . وكان فيما بيع عليه عبد يقال له بُرْد وجارية تسمى أراكة ، فبكاهما طويلا بمثل قوله :

وشريتُ بُرْدًا ليتنى من بعد بُرْدٍ كنت هامَه[1]

يا هامــةً تدعو صَدًى بين المُشَقَّر فاليمامه[2]

الريح تبكى شَجْوَهُ والبرق يلمع فى الغمامه[3]

وأخذ يهجو عَبَّادا وأخاه عبيد الله والى العراق وأباهما زيادا هجاء مقذعا ، وكان مما وقف عنده طويلا استلحاق معاوية لزياد ؛ معلناً نكيره على هذا الاستلحاق بمثل قوله :

---

(١) يقال فلان هامة اليوم أو الغد أى أنه يموت فى يومه أو غده . وشريت هنا : بعت .

(٢) كانت العرب تزعم أن الهامة والصدى يطيران من رأس الميت . المشقر : حصن بين البحرين ونجران .

(٣) يقول إن البرق يبكيه لامعاً فى الغمامة .

ألا أبلغْ معاويةَ بن حَرْبٍ مُغَلغِلةً عن الرجل اليمانى
أتغضب أن يُقال أبوك عَفٌّ وترضى أن يقال أبوك زانى
وأشهد أن إلَّك من زيادٍ كإلِّ الفيل من ولد الأتان[1]

وكان أهل البصرة يتغنَّون بهجائه لتلك الأسرة، مما أثار عليه حفيظة عبيد الله، فطلبه وألحَّ فى طلبه . وحدث أن قدم البصرة وعبيد الله غائبٌ عنها فى وفادة على معاوية أو على ابنه يزيد، فاستجار بالمنذر بن الجارود، وكان عبيد الله مُصْهِراً إليه، فأجاره . وعاد عبيد الله فلم يَرْعَ جوار المنذر، وأخذ ابن مفرِّغ وسجنه . ورأى أن ينكِّل به، فأمر — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — أن يُسْقَى نبيذاً ويُحْمل على بعير مقروناً إلى هِرَّة وخنزير ويُطاف به فى أزقة البصرة بتلك الصورة المزرية، واجتمع الصبية حوله فى طوافه يخاطبونه بالفارسية ما هذا، وهو يرد عليهم بلغتهم هاجيا عبيد الله وجدته سُمَيَّة هجاء مقذعاً . ورُدَّ إلى السجن، ويقال بل أرسله عبيد الله إلى أخيه عباد لينزل به عقاباً أليما، فألقى به فى غيابات السجون . وشفعتْ فيه اليمنية عند يزيد بن معاوية، وألحت فى شفاعتها، حتى أمر بإطلاقه، وقد مضى يهجو عبَّادا وأخاه عبيد الله، وخاصة حين خلا له الجوُّ بفرار عبيد الله إلى الشام عقب وفاة يزيد بن معاوية، فقد ظلَّ يَسْقُط عليه بهجاء مرير . وقد توفِّى سنة تسع وستين .

الحكم[2] بن عَبْدل

من بنى أسد، نشأ بالكوفة، يمدح ويهجو، وكان هواه مع بنى أمية، فلما دخل العراقُ فى طاعة ابن الزبير أمر بنفيه إلى الشام، فقدمها على عبد الملك وحظىَ عنده، وله فى تحريضه على قتال مصعب بن الزبير وهجائه هو وأسرته أشعار كثيرة من مثل قوله :

ياليت شعرى وليتٌ ربما نفعتْ هل أُبصرنَّ بنى العَوَّام قد شُمِلوا
بالذلِّ والأَسْر والتشريد إنهمُ على البريَّة حَتْفٌ حيثما نزلوا

---

(١) الإل : القرابة .

(٢) انظر فى ترجمة الحكم بن عبدل أغانى (دار الكتب) ٢/٤٠٤ وما بعدها ومعجم الأدباء ١٠/٢٢٨ وما بعدها وفهرس البيان والتبيين والحيوان .

ولما دخلت العراق فى طاعة عبد الملك رجع إلى وطنه وأخذ يمدح بشر بن مروان وابنه عبد الملك وكثيراً من أجواد بلدته ، وكانت فيه فكاهة جعلته يتصعلك فى بعض مدائحه ، إذ نراه يصف لممدوحيه بؤسه وما يملأ بيته من عناكب وحشرات وجرذان[١] . وبذلك كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهروا فى العصر العباسى ، وكانوا سبباً فى نشوء فن المقامات عند بديع الزمان ثم الحريرى.

وكان هجّاء خبيث اللسان ، وممن هجاهم طويلا محمد بن حسان بن سعد ، وكان يتولّى خراج الكوفة ، فكلمه فى شخص ليضع عنه ثلاثين درهما من خراجه فرده ردًّا قبيحا جعله يَسُلُّ لسانه عليه بقصيدة طويلة يقول فيها :

رأيت محمدا شَرِهاً ظلوماً وكنت أراه ذا ورعٍ وقَصْدِ
يقول : أماتنى ربِّى خِداعاً أماتَ الله حسَّان بن سَعْدِ

وذاعت القصيدة على ألسنة الكوفيين ، حتى كان المُكارى يسوق بغله أو حماره فيقول : عَدِّ ، أمات الله حسان بن سعد . وحدث أن خطب ابن حسان فتاة من ولد قيس بن عاصم وسمع بذلك ابن عبدل ، فأخذ يعمل على إفساد هذه الخِطْبة بأشعار كثيرة من مثل قوله :

وما كان حسانُ بن سعدٍ ولا ابنُه أبو المِسْك من أكفاءِ قيس بن عاصمِ[٢]
خذى ديةً منه تكن لكِ عُدَّةً وجيئى إلى باب الأمير فخاصمى

وكان ذلك سبباً فى نَقْض هذا الصِّهْر ، إذ أنفت للفتاة عشيرتُها وردت ابن حسان ردًّا قبيحاً . وممن هجاهم ابن عبدل عمر بن يزيد الأسدى صاحب شرطة الحجاج ، وله يصف شُحَّه وتقتيره :

جئنا وبين يديه التَّمْرُ فى طَبَقٍ فما دعانا أبو حَفْصٍ ولا كادا

وولى إمارةَ الكوفة لمسلمة بن عبد الملك فى ولايته على العراق عبدُ الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وكان أعرج ، وتصادف أن كان صاحب شُرْطته مثله أعرج ، فدخل عليه الحكم ، وكان هو الآخر أعرج ، فأنشده فى أبيات :

(١) انظر الحيوان ٥/٢٩٧ وفى مواضع متفرقة. (٢) يكنى ابن عبدل بأبى المسك عن ذقن ابن حسان.

أَلْقِ العَصا ودَعِ التخامُعَ والتمسْ عملا فهٰذى دولةُ العُرْجانِ[1]

فأعطاه عبد الحميد مائتى درهم وسأله أن يكفّ عنه ، ويقول الجاحظ : « لما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدى لمحمد بن حسان بن سعد وغيره من الولاة والوجوه هابه أهل الكوفة ، واتقى لسانه الكبير والصغير ، وكان الحكم أعرج لا تفارقه عصاه ، فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته . ويبعث بها مع رسوله ، فلا يُحْبَس له رسول وتأتيه الحاجة على أكثر مما قدّر وأوفر مما أمل ، فقال يحيى بن نوفل[2] :

عَصا حكمٍ فى الدار أولُ داخلٍ ونحن على الأبواب نُقْصَى ونُحْجَبُ[3]

وللحكم هجاء فكه فى زوجة همدانية كرهها ونفر منها ، ونراه يصورها متغضنة الجلد قبيحة قبحاً شديداً . والمظنون أنه توفى فى مطالع القرن الثانى للهجرة .

ثابت[4] قُطْنة

هو ثابت بن كعب من بنى العَتيك الأزديين ، وقيل بل هو مولى لهم ؛ ولقِّب قُطْنة لأن سهماً أصابه فى إحدى عينيه فى بعض حروب الترك ، فذهب بها ، فكان يجعل عليها قُطْنة . وهو من فرسان المهلب المبرِّزين وقد علا نجمه فى ولاية يزيد بن المهلب الأزدى على خراسان إذ كان يولّيه أعمالا فى الثغور ، فيحسنها وتظهر كفايته وبسالته . وكان قوم من المرجئة هناك يجتمعون و يتجادلون فمال إلى قولهم واعتنقه أشد اعتناق ، وقد مرت بنا أبياته فى الإرجاء فى تضاعيف حديثنا عن الثقافة .

---

(١) التخامع : العرج .

(٢) انظر فى ترجمة ابن نوفل الشعر والشعراء ٧١٧/٢ وأغانى (دار الكتب) ٢٧/٤ والطبرى ٤٥٧/٥ وفهارس البيان والتبيين والحيوان والمبرد. وكان مولعاً بهجاء خالد القسري وعبد الملك بن عمير قاضى الكوفة .

(٣) البيان والتبيين ٧٤/٣ .

(٤) راجع فى ترجمة ثابت الشعر والشعراء ٦١٢/٢ وأغانى (دار الكتب) ٢٦٣/١٤ والخزانة ١٨٤/٤ والاشتقاق ص ٤٨٣ .

ويلتئم فى ثابت هجاء العصبيات وهجاء الأسباب الشخصية ، إذ كان يتعصب لقومه من الأزْد تعصباً شديداً . وكان أقل حادث يثيره . ونراه مع المهلب فى حروب الأزارقة . ويتعرض بعض بنى الكوَّاء اليَشْكريين للمهلب والأزد بالهجاء ، فينبرى هاجياً له ولعشيرته بمثل قوله :

كل القبائل من بكر نعدُّهم — واليَشْكُرِيُّون منهم ألأَمُ العربِ

ويمضى مع المهلب إلى خراسان ، فيظل بها بقية حياته غازياً مجاهداً فى سبيل الله . ولما وليها يزيد بن المهلب أخلص له وُدَّه ، فكان يمدحه ، وكلما شغبت عليه قبيلة صَبَّ عليها هجاءه . وكانت قبائل ربيعة لما حالفت الأزد فى البصرة كما قدمنا تعينها وتشدُّ من أزرها لا فى البصرة فقط ، بل أيضاً فى خراسان حين وليها المهلب ثم ابنه يزيد ، ولكن حدث أن استبطأت يزيدَ فى بعض الأمر ، وهى تنزل مع الأزد حواليه ، فشَغبت عليه حتى أرضاها ، وأغضب ذلك ثابت ، فهجاها بأشعار كثيرة يقول فيها :

عصافير تَنْزُو فى الفساد وفى الوَغَى — إذا راعها رَوْعٌ جماميحُ بَرْوَقِ[1]

وأنتم على الأدنى أُسودُ خَفِيَّة — وأنتم على الأعداءِ خِزَّانُ سَمْلَقِ[2]

وحين ولى قتيبة بن مسلم الباهلى خراسان بعد عزل الحجاج ليزيد بن المهلب أخذ يزورُّ عنه امتعاضاً لابن المهلب . ولم يلبث أن هجاه هو وقبيلته باهلة حين هُزمت فى بعض حروب الترك وثبتت تميم ، فقال :

توافتْ تميمٌ فى الطِّعان وعَرَّدتْ — بُهَيْلَةُ لما عاينتْ معشرًا غُلْبَا[3]

تسامون كعباً فى العُلا وكلابها — وهيهات أن تلقوا كلابا ولا كعبا

وأهمُّ شاعر اصطدم به حاجب بن ذبيان المازنى التميمى ، وكان قد أعطاه يزيد بن المهلب جائزة كبيرة لبعض مديحه فيه ، فغبطه عليها ، وأساء له

---

(١) تنزو : تثب . الروع : الفزع . الجماميح : ما نبت على رءوس القصب مما إذا دق تطاير . بروق : نبت ضعيف .

(٢) خفية : أجمة فى سواد الكوفة . خزان : جمع خُزَز وهو ذكر الأرانب وهى معروفة بالجبن . والسملق : الأرض الجرداء لا شجر بها .

(٣) عردت : فرت . بهيلة : تصغير باهلة .

ببعض القول ، فهجاه حاجب ، وبادله الهجاء ، ولقَّبه فى هجائه بالفيل ، فأصبح ذلك علماً عليه فسمّاه الناس حاجباً الفيل ، وله يقول فى بعض أهاجيه :

أَحاجبُ ! لولا أن أَصْلك زَيِّفٌ وأَنك مطبوعٌ على اللؤم والكفرِ
وأَنى لو أَكثرتُ فيك مقصِّرٌ رميتُك رمياً لا يَبِيد يَدَ الدهر

وله أشعار كثيرة فى مدح المهالبة ورثائهم ، وقد بكى يزيد حين قُتل فى معاركه مع بنى أمية طويلا ، وهو فى مديحه ورثائه لهم يستشعر عصبية القبيلة استشعاراً قويًّا . وأكبر الظن أنه توفى قبل نهاية العقد الأول من القرن الثانى .

٣

شعراء النقائض

هيأ استعار العصبيات فى البصرة وخراسان لاشتعال الهجاء طوال هذا العصر ، كما هيأ لنمو فن النقائض نموًّا واسعاً ، وقد أعدّت لهذا النمو أسباب كثيرة ، يرجع بعضها إلى عوامل اجتماعية وبعضها إلى عوامل عقلية. أما العوامل الاجتماعية فمردّها إلى حاجة المجتمع العربى خاصة فى البصرة إلى ضرب من الملاهى يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة . ودائماً حين تنشأ المدن تنشأ معها أوقات فراغ تبعث أهلها على أن يملئوها إما بالدرس والنظر العقلى وإما بلهو يختلفون إليه . وفعلا نهضت — كما رأينا فى غير هذا الموضع — دراسات دينية وعقلية مختلفة ، وكان لا بد أن ينشأ بجانبها نوع من أنواع الملاهى يجد فيه الفارغون من العمل تسليتهم ؛ وقد رأينا المدينة ومكة تُقْبلان على الغناء وتجدان فيه حاجة أهلهما من التسلية واللهو . ولم تتجه قبائل العراق هذا الاتجاه ، إذ كانت شديدة الصلة بحياتها البدوية القديمة ، وأخذت نيران الهجاء تشتعل فيها اشتعالا شديداً. حينئذ انبرى الهجّاءون يملأون أوقات الناس هناك بأهاجيهم ، وسرعان ما تحولوا بها إلى نقائض مثيرة ، فشاعرُ قبيلةٍ من القبائل ينظم قصيدة من القصائد فى الفخر بقبيلته وأمجادها ويتعرض لخصومها من القبائل الأخرى فينبرى له شاعر

من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على وزن قصيدته ورَوِيِّها، وكأنه يريد أن يظهر تفوقه عليه من ناحية المعانى ومن ناحية الفن نفسه ، ويتجمَّع الناس من حواليهما يصفِّقون و يهتفون و يصيحون[١] . و بذلك تحولت النقائض من غاية الهجاء الخالص إلى غاية جديدة هى سدُّ حاجة الجماعة الحديثة فى البصرة إلى ضرب من ضروب الملاهى .

وتدخلت فى صنع النقائض بجانب هذه العوامل الاجتماعية عوامل عقلية مردُّها إلى نمو العقل العربى ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة فى النِّحَل السياسية والعقيدية وفى الفقه وشئون التشريع . وعلى ضوء من ذلك كله أخذ شعراء النقائض يتناظرون فى حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها ، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث فى أدلته ليوثِّقها وفى أدلة خصمه لينقضها دليلا دليلا ، وكأننا أصبحنا بإزاء مناظرات شعرية ، وهى مناظرات كانت تتخذ سوق المِرْبَد مسرحاً لها ، فالشعراء يذهبون هناك ، و يذهب إليهم الناس و يتحلَّقون من حولهم ، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه .

وأهمُّ من وقفوا حياتهم على تنمية تلك النقائض القبلية مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه السياسية جرير والفرزدق التميميان[٢] . وكان أولهما من عشيرة كُلَيْب اليربوعية ، والثانى من عشيرة مجاشع الدارمية ، وقد ظلا يتناظران نحو خمسة وأربعين عاماً فى عشيرتيهما من جهة وفى قيس وتميم من جهة ثانية ، فإن ظروفا كثيرة جعلت جريراً يقف فى صفوف قيس محامياً عنها ضد خصومها ، وذلك أن عشيرته اليربوعية أسرعت بالبيعة لابن الزبير ، فاتفق هَوَى عشيرته مع هوى قيس ، وتصادف أن كان قد قتل مجاشعىٌّ الزبيرَ بن العوام حين لجأ بعد موقعة الجمل إلى مجاشع ، وأيضاً تصادف أن لجأت النَّوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير ، فأعانها عليه ، مما جعل الفرزدق يهجوه[٣] .

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١٠/١٥٢ وطبعة ساسى ١٩/١٠٣ .

(٢) شرح أبو عبيدة نقائض الشاعرين ، وحقق الشرح ونشره بيفن سنة ١٩٠٥ فى ثلاثة أجزاء ضخمة. ونشر الشرح نشرة ناقصة بتحقيق الصاوى سنة ١٩٣٥ .

(٣) أغانى (دار الكتب) ٩/٣٢٤ وما بعدها

ونحن لا نصل إلى حكم القُباع والى ابن الزبير على البصرة سنة ٦٦ حتى نجد الشاعرين التميميين ملتحمين فى تلك المناظرة ، يدل على ذلك أننا نجدهما فى نقيضتين لهما يُعْلنان نكيرهما على هذا الوالى، إذ أمر بهدم بيتيهما لما يثيران من ضغائن بين القبائل[١] . ويقول الرواة إن سبب التحامهما أن شاعراً من عشيرة سليط اليربوعية يسمى غسَّاناً هجا جريرا فسقط عليه بهجاء مرير ، فاستغاث منه بالبَعيث[٢] المُجاشعى ، فأغاثه بمثل قوله فى جرير وعشيرته :

أترجو كُلَيْبٌ أن يجىء حديثها بخيرٍ وقد أعْيَا كليبا قديمُها

فانصبَّ جرير عليه وعلى مجاشع شُواظ نار ، وأفحش بنسائهم إفحاشاً شديداً جعلهن يستغثن منه بالفرزدق . وكان معروفاً بإقذاعه فى الهجاء ، وقصته مع زياد بن أبيه وهربه منه لهجائه بنى فُقَيْم التميميين معروفة ، ووجَدْنه عاكفاً على حفظ القرآن الكريم ، يريد أن يبدأ سيرة جديدة ، فما زلن به يستثرنه قائلات إن جريراً هتك عورات نسائك ، وظللن يوردن عليه ذلك حتى أحفظنه ، فهجا جريرا ، واستطار الهجاء بينهما وامتدا به لا إلى عشيرتيهما فحسب ، بل أيضاً إلى قيس وتغلب وتميم .

وبذلك تكاملت حلقات هذه المناظرة العنيفة بين الشاعرين . وكان كثير من الشعراء ينزلق فيها متحيزا للفرزدق على جرير ، فكان يَشْوى وجوههم ووجوه عشائرهم بنيران هجائه ، فينسحبون منهزمين على شاكلة الرّاعى[٣] ، وكان من سوء حظه أن فضّل الفرزدق على جرير بقوله :

يا صاحبىَّ دنا الرَّوَاحُ فسِيرا غلب الفرزدقُ فى الهجاء جريرا

وهجاه بقصيدة بائية ، فنظم جرير قصيدة هجاه بها كما هجا الفرزدق ، ويقول الرواة إنه ما زال يُعيدُها ، حتى عرف أن الناس قد جلسوا مجالسهم

---

(١) شرح النقائض لأبى عبيدة (طبعة بيفن) ص ٦٠٧ ، ٦٨٣ وانظر أنساب الأشراف للبلاذرى ٢٧٨/٥ .

(٢) انظر فى ترجمة البعيث ابن سلام ص ٣٢٦ وما بعدها وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٤٧٢/١ والاشتقاق ص ٢٤١ وابن عساكر ١٢٢/٥ ومعجم الأدباء ٥٢/١١ .

(٣) انظر فى ترجمة الراعى ابن سلام ص ٣٧٢ ، ٤٣٤ وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٣٧٧/١ وأغانى (ساسى) ١٦٨/٢٠ وفى ترجمة جرير، وفى الخزانة ٥٠٢/١ والموشح ص ١٥٧

بالمِرْبَد ، وكان له مجلس ، وللفرزدق مجلس ، فدعا بدُهن (طيب) فادَّهن وكفَّ[1] رأسه ، وكان حسن الشَّعْر ، ثم قال : يا غلام أسرجْ لى ، فأسرج له حصاناً ، ثم قصد مجلس الفرزدق والراعى ، فتوجه للراعى يقول له : أبَعَثَك نِسْوتك تكسبهن المال بالعراق ، أما والذى نفسُ جرير بيده لترجعن إليهن بميْر[2] يسوءهن ولا يسرُّهن[3] ، ثم اندفع فأنشد قصيدته ، وفيها يقول للراعى بيته المشهور :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلابا

ولم يلبث الراعى أن انصرف من مجلس الفرزدق يعلوه الخِزْى والصَّغار ، واتجه توا إلى منازل قبيلته نمير فى نجد ، وهو يردِّد : فضَحنا والله جرير ، وهم يقولون : هذا شؤمك .

وإنما أطلنا فى هذا الخبر لنعطى صورة عن شاعر النقائض فى المِرْبَد ، وكيف كان يحتفل بثيابه وزينته . وكيف كان له مجلس يتحلق فيه الناس من حوله ليستمعوا إلى شعره بين الصياح والتهليل ، وأيضاً لندل على قدرة جرير فى الهجاء وكيف كان يفضح من يتعرضون له فضيحة الأبد . ويقال إنه أسقط فى الهجاء ثلاثة وأربعين شاعراً ، ويقال بل ثمانين ونيفا ، كانت أقواسهم أضعف من أن ترميه بمثل سهامه المصمية ، وممن ثبت له قليلا ثم اندحر عمر بن لجأ التَّيْمىُّ[4] ، وله يقول :

أتوعدنا ونمنع ما أردنا ونأخذ من ورائك ما نريدُ
ويُقْضَى الأمر حين تغيب تَيْمٌ ولا يُسْتأْذَنون وهم شهود
لئامُ العالمين كرامُ تَيْمٍ وسيِّدهم ـ وإن رغموا ـ مَسُودُ

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .
(٢) المير : جلب الطعام للأهل والعشيرة .
(٣) انظر فى هذا الخبر أغانى (دار الكتب) ٢٩/٨ .
(٤) انظر فى ترجمة عمر بن لجأ ابن سلام ص ٣٦٣ وما بعدها وص ٤٩٩ وما بعدها وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٦٦٢/٢ والاشتقاق ص ١٨٥ والخزانة ٣٥٩/١ وفهرس الجزء الثامن من الأغانى والموشح ص ١٢٧ وما بعدها .

وقد جعله دفاعه عن قيس يصطدم بالأخطل شاعر تغلب. وسنعرض لذلك عما قليل. وفي الحق أن الفرزدق أهم شاعر اشتبك معه، إذ كان على شاكلته يعرف كيف يبري نبال الهجاء المصمية؛ وقد تبادل معه نقائض كثيرة، وظلا سنين طويلة يتحاوران ويتجادلان وكل منهما يغترف من نبع لا ينضب في نفسه.

ومن يرجع إلى شرح أبي عبيدة لنقائضهما يجده يستعين على شرحه لها بأيام العرب، ذلك لأن الشاعرين لم يتركا يوماً للقبائل التي يتحدثان عنها دون أن يذكراه. فجرير يتحدث عن أيام يربوع وقيس، والفرزدق يتحدث عن أيام مجاشع وتميم، وقد يضيف إلى ذلك حديثاً عن أيام تغلب انتصاراً للأخطل. وهما لا يتحدثان عن أيام الجاهلية فحسب؛ بل يتحدثان أيضاً عن أيام الإسلام، وخاصة ما كان بين تميم وقيس في خراسان، إذ دفعت تميما الحوادثُ هناك لكي تنكّل بعبد الله بن خازم السُّلَمي والى ابن الزبير حين ثار على عبد الملك بعد قتل مصعب؛ كما نكلت بعد ذلك بقتيبة بن مسلم الباهلي حين ثار على سليمان ابن عبد الملك.

ومعنى ذلك أن جريراً والفرزدق درسا دراسة عميقة تاريخ القبائل العربية في الجاهلية والإسلام واستلهما هذا التاريخ في نقائضهما، بحيث تُعَدُّ وثائق تاريخية طريفة. وكان ذلك من غير شك يصعِّب عمل النقيضة؛ لأنها لم تكن هجاء فحسب، بل كانت أيضا دراسة، ولم يكن الشاعر يدرس تاريخ القبائل التي كان يحامي عنها فحسب؛ بل كان يدرس أيضاً تاريخ القبائل التي يهجوها ليقف على الأيام التي انهزمت فيها، حتى ينشر مخازيها في الناس.

وواضح أن أساس الهجاء في النقائض كان يقوم على العصبيات القبلية، وقد مرَّ بنا في غير هذا الموضع أن هذه العصبيات اختلطت في العصر الأموي بالسياسة؛ وهيأ ذلك النقيضة لأن تخوض في مديح الخلفاء والولاة، بحيث أصبحت لا تحتوي فخراً وهجاء فحسب؛ بل تحتوي كذلك مديحاً، كما تحتوي نسيباً وغزلا. والشاعر في كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام في معانيه، كما يستلهم قدرة العقل العربي الجديدة على الجدال ونقض الدليل بالدليل؛ وقدرته أيضاً على التوليد في المعاني. وبذلك كله أصبحت النقيضة

عند الفرزدق وجرير عملا فنيًّا معقداً . ولعل من الخير أن نقف عند نقيضتين للشاعرين نرى فيهما جملة ما كانا يعرضان له من المعانى ، ونحن نختار للفرزدق نقيضته :

تحنُّ بزوراء المدينة ناقتى حَنِينَ عَجُولٍ تبتغى البَوَّ رائم (١)

وهو فى غزلها يستشعر الإسلام خائفاً وجلا من يوم الحساب . ونراه يعتذر مما قد بَدَرَ منه من أشعار تصوِّره فاسقاً ، ويدعوها لغواً من القول ، وإنه ليقول :

ولستَ بمأْخوذ بلَغْوٍ تقوله إذا لم تعمَّدْ عاقدات العزائم

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللَّغْو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأيمان) ويمضى فيمدح سليمان بن عبد الملك بمثل قوله :

جُعلتَ لأَهل الأَرض نورًا ورحمةً وعَدْلاً وغَيْث المُغْبَرات القواتم (٢)

وكان الحجاج لجّ فى البيعة لعبد العزيز بن الوليد من دون سليمان ، وتوفِّى قبل خلافته ، فنكَّل بمن لجُّوا معه من ولاته على المشرق . ونرى الفرزدق يهجو الحجاج هجاء مرًّا صوَّره فيه طاغياً باغياً ، لقى جزاء بغيه وطغيانه من ربه ، فأصابه بما أصاب به ابن نوح حين ارتقى إلى جبل فغرق مع الغارقين وما أصاب به أصحاب الفيل إذ ترميهم طير أبابيل . ولم يزل به حتى جعله من أهل النار . وممن يتلقون كتابهم بالشمال . وخرج الفرزدق من ذلك إلى قتيبة بن مسلم الباهلى وثورته على سليمان بخراسان ، وافتخر بأن تميما بزعامة وكيع بن أبى سُود هى التى قضت عليه . ومضى يكيل لقيس وشاعرها جرير هجاء مريراً ، متعرضاً لثورة ابن خازم وقضاء تميم عليه ولأيام تغلب على قيس فى الجزيرة . ويتجسَّم له جرير كأنه قيسٌ نفسها فيقول :

---

(١) البو : جلد ولد الناقة يحشى ، ويعرض على أمه فترأمه أى تحن إليه ظنا منها أنه ولدها حقيقة .

(٢) المغبرات القواتم : السنوات المجدبة .

وأَلقيتَ من كفَّيْك حبـــل جماعةٍ   وطاعةَ مهدىٍّ شديد النَّقائمِ [1]

ويسمِّى أصحاب قتيبة مشركين ، يضربون فيهم بسيف سليمان الذى ضرب الله به مشركى قريش فى يوم بدر . ويعيِّر جريراً بما يأخذ من هدايا قيس ، ويعتذر عن حادث نُبُوِّ السيف فى يده مما سنعرض له عما قليل . ويفتخر على صاحبه فخرا عارماً بتميم وأيامها فى الجاهلية وأمجادها العريقة فى الحروب ، ويهجو عشيرته برعيها الحمير ، ومن ثم يسميه ابن المرَاغة (الأتان) فهم ليسوا فرسانا ولا أهل خيل وحروب ، ويقول :

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبنى   وكانت كليبٌ مَدْرَجاً للشتائم

ودائماً يصف كليبَ باللؤم والدناءة ، ويُفْحش فى النَّيْل من نسائها ومن أم جرير خاصة ، ولا يترك مذمة إلا وَيَلْفح بها جريراً وعشيرته ، وفيها يقول من نقيضة أخرى :

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بنى كُلَيْبٍ   نجومُ الليل ما وضحتْ لسارِ
ولو يُرْمَى بلؤمهمُ نهــارٌ   لدنَّس لؤمُهم وضَحَ النهارِ
وما يغدو عزيزُ بنى كليبٍ   ليطلب حاجــةً إلا بِجـــارِ

ووقف جرير فى الصف المقابل يردّ عليه نقيضته التى لخصناها آنفاً ، فمضى بعد غزلها يتحدث عن الفرزدق وفسقه الذى اشتهر به ، يقول :

لقد ولدتْ أمّ الفرزدق فاجرا   وجاءت بِوَزْوَازٍ قصير القوائم [2]
وما كان جارٌ للفرزدق مسلمٌ   ليأمن قِرْدًا لَيْله غير نائم
أَتيتَ حدود الله مذ أنت يافعٌ   وشِبْتَ فما ينهاك شَيْبُ اللَّهازم [3]
تتبَّع فى الماخور كلَّ مريبة   ولستَ بأَهل المُحْصَنات الكرائم [4]

---

(١) المهدى هنا سليمان بن عبد الملك ، لقبه بالمهدى كما يلقب الشيعة أئمتهم .

(٢) الوزواز : الخفيف ، كناية عن قصره .

(٣) اللهازم : أصول اللحية .

(٤) المحصنات : العفيفات .

ومضى يَصِمُه بأخته جِعْثِن. وكانت سيدة طاهرة، ولكنه الهجاء. كما وصمه بأنه قَين ابن قَيْن: فهو ليس شريف الأصل كما يزعم. وكان لجده قيون، فرمى جدَّته بهم، كي يغيظه ويُحْفظه. ودائماً يردد له جرير ذلك كما يردد قذفه فى أخته، وأيضاً فإنه كان يردد كما فى هذه النقيضة أن مجاشعاً لم تحفظ للزبير حق جواره، ولو أنه كان جاراً لقيس أو ليربوع لحفظا له جواره، كل ذلك ليضرب من حواليه نطاقاً من الذل. وكان الذى قتَل قتيبة بن مسلم الباهلى وكيعُ بن أبى سُود اليربوعى. فهو ليس مجاشعيا؛ إنما هو من قوم جرير، ومن ثَمَّ يقول له:

فَغيرُك أَدَّى للخليفــة عَهْده ... وغَيْرُك جلَّى عن وجوه الأَهاتمِ (١)

فإِنْ وكيعاً حين خارتْ مجاشعٌ ... كفى شَعْبَ صَدْعِ الفتنة المتفاقمِ

لقد كنت فيها يا فرزدقُ تابعا ... وريشُ الذُّنابى تابعٌ للقوادمِ (٢)

وبذلك استلَّ منه الفخر بحادثة وكيع. وجعلها لقومه اليَرْبوعيين، لا لمجاشع وشاعرها الفرزدق. وأخذ يفخر بباهلة قبيلة قُتَيبة القيسية وأيامها فى الجاهلية. وعمَّم الفخر بقيس وأيامها ضد تغلب فى الجزيرة. وعيَّر تغلب بمسيحيتها وما تدفع من خراج لخليفة المسلمين. وكان عمر قَبِلَ منها أن تدفع صدقة كالعرب لا جزية، ولكن جريراً يأبى إلا أن يسمِّى ما تدفعه جزية. ثَلْبا وتعييراً. ويعود إلى أيام قيس فى الجاهلية، يعددها. ويعدد مالها من انتصارات على تميم وخاصة على دارم.

وتصادف أن كان جرير والفرزدق يصحبان سليمان بن عبد الملك فى أثناء حِجَّة له. وجاءوه بأسرى من الروم. فأمر بجزّ حلاقمهم. وأُعْطى لبعض من صحبوه أسيافٌ يضربون بها رءوس هؤلاء الروم. وعرف بعض القيسيين أن سيُطْلب إلى الفرزدق أن يضرب أحدهم، فدَسُّوا له سيفاً كليلا لا يقطع. فلما ضرب به لم يصنع شيئاً فى الرومىِّ. وانتهزها جرير، فكان يكرر له هذا

---

(١) الأهاتم: من أشراف تميم

(٢) القوادم: الريشات الطويلة فى مقدمة جناح الطائر، والذنابى ما خلفها من ريشات قصيرة.

الحادث ليضحك أهل المِرْبد عليه، بما يصور من خَوَره وجُبْنه، ومن ثَمّ يقول له الفرزدق فى نقيضته السالفة :

فهل ضربةُ الرومىِّ جاعلةٌ لكم أبًا عن كليبٍ أو أبا مثل دارمِ

ونرى جريرا يردُّ عليه بمثل قوله :

بسيفِ أَبى رَغْوَان سيف مجاشعٍ ضربتَ ولم تضرب بسيف ابن ظالمِ (١)

ضربتَ به عند الإمام فأُرْعِشَتْ يداك وقالوا مُحْدَث غير صارم

ضربتَ به عُرْقوبَ نابٍ بصَوْأَرٍ ولا تضربون البَيْضَ تحت الغماغم (٢)

عنيفٌ بهزِّ السيف قَيْنُ مجاشعٍ رفيقٌ بأَخْرات الفُئوس الكَرازم (٣)

وكان الفرزدق كثير الافتخار بيوم صَوءر ، وهو يوم نحر فيه أبوه غالب للناس مائة بعير وقيل أربعمائة، فتَجَلّل له جرير هذه المكرمة بعار الجبن ، فأبوه وهو إنما يضربان ،بمثل هذا السيف الذى نبا فى يده، عراقيبَ الإبل لا صدور الفرسان . ويقول له إنك قَيْنٌ لا تحسن الضرب بالسيف، بل تفزع وتهلع حين تمسك به ، إنما تحسن الإمساك بالفئوس فهى صناعتك .

وواضح أن جريراً لم يقف بنبوِّ السيف فى يد الفرزدق وَوصْفه بأنه قين ابن قين عند حد الثَّلْب، بل لقد تحول بهما إلى عنصرين من عناصر الإضحاك على الفرزدق . واستخرج من الوصف الأخير أبياتاً مضحكة كثيرة تدل أبلغ الدلالة على ما أصاب العقل العربىَّ عند جرير من قدرة على التوليد فى المعانى ، كما نرى فى مثل قوله :

إذا آباؤُنا وأبوك عُدُّوا أبانَ المُقْرِفاتُ من العِرابِ (٤)

فأورثك العَلاةَ وأورثونا رباطَ الخيلِ أَفنيةَ القِبابِ (٥)

(١) ابن ظالم : هو الحارث بن ظالم المرى أحد فرسان قيس فى الجاهلية .

(٢) الناب : الناقة المسنة . البيض : خوذ المحاربين . الغماغم : أصوات الجيوش ، جمع غمغمة .

(٣) أخرات : جمع خرت وهو الثقب فى أعلى الفأس. الكرازم : الفئوس ضخمة الرءوس .

(٤) المقرفات : الهجينات التى لا يخلص نسبها . العراب : الأصيلات فى العروبة .

(٥) العلاة : سندان الحداد .

وقوله :

هو القَيْنُ وابن القين لا قينَ مثله لفَطْحِ المساحى أَو لِجَدْلِ الأَداهِمِ (١)

وقوله :

ورقِّع لجَـدِّك أَكْيـارَهُ وَأَصلحْ متاعك لا تُفْسِدِ
وأَدْنِ العَلاةَ وأَدْنِ القَدومَ ووسِّع لكِيرك فى المَقْعَدِ

وكان جرير يعرف كيف يستخرج من كل شىء هذا العنصرَ من عناصر الإضحاك ، وقد غاظه من الفرزدق انضمامه إلى الأخطل النصرانى ضده ، فأخذ يُضْحك عليه سامعيه فى المِرْبَد بمثل قوله :

وإنك لو تعطى الفرزدق درهمـا على دين نصرانيَّةٍ لتنصَّرا

وقوله :

يحبُّك يوم عيدهمُ النَّصارى ويومَ السَّبْت شِيعتُك اليهودُ

ولعل فى هذا مايدل أكبر الدلالة على أن النقائض عند الشاعرين الكبيرين : جرير والفرزدق إنما كان يُقْصَدُ بها قبل كل شىء إلى تسلية الجماعة العاطلة التى تكونت فى المدينتين الكبيرتين : البصرة والكوفة . وقد بدأت بأسباب قبلية ، ولكنها تطورت إلى مناظرة يُراد بها ملء أوقات العاطلين ، وهى مناظرة كانت تقاطَع بالتهليل والتصفيق . ومن ثَم لم تأخذ شكلا جادًّا من أشكال الهجاء المعروفة عند العرب . ولو أنها أخذت شكلا من هذه الأشكال لَشُهرت معها السيوف ، وخاصة حين يأخذ جرير والفرزدق فى قَذْف نساء العشائر والأمهات والأخوات . إنها لم تعد هجاء بالمعنى القديم ، بل أصبحت فنًّا يُقْصَدُ به إلى إمتاع الناس فى البصرة وقطع أوقات فراغهم . ولذلك كان الخلفاء والولاة يستقدمون شاعريها المبرزين ، ليتناشدا أمامهم ابتغاء اللهو والتسلية (٢) . وكل الأخبار تؤكد أن جريراً والفرزدق كانا متصافيين متوادَّين لا متخاصمين متباغضين ، فهما يجتمعان

---

(١) فطح المساحى : تسويتها وتعريضها . الجدل أيضاً : التسوية . الأداهم : جمع أدهم ، وهو القيد .

(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٣٧ ، ٧٦ .

عند الخلفاء والولاة ، وهما يرحلان إلى دمشق سويًّا، وإذا نزلت بأحدهما شدة أو حزَبه أمر وقف الآخر معه يمدُّ له يدَ العون، فإذا طُلب جرير لحرب الأزارقة تشفَّع له الفرزدق [١]، وإذا هجا الفرزدق خالداً القَسْرِيَّ وحبسه تشفع له جرير عنده [٢]، وما يزال به يستعطفه ويسترحمه ، لعله يلين له قلبه ويطلقه [٣]. ونراه حين يُلَبِّي القدر قبله يرثيه رثاء حارًّا بمثل قوله :

ولا حملتْ بعد الفرزدق حُـرَّةٌ ۔۔۔ ولا ذاتُ حَمْلٍ من نِفاسٍ تعلَّتِ [٤]

هو الوافد المَجْبُوُّ والراتق الثَّأَى ۔۔۔ إذا النَّعْل يوما بالعشيرة زلَّتِ [٥]

فلم تكن المسألة مسألة هجاء حادٍّ إنما كانت مسألة مناظرة فنية بالشعر فى عصبيات القبائل والعشائر ، على نحو ما كان يتناظر فى عصرنا أصحاب الصحافة الحزبية فى آرائهم السياسية مدافعين مهاجمين، وتظل لهم فى أثناء ذلك صداقتهم . وواضح مما قدمنا أن نقائض جرير والفرزدق نشأت تلبية لحاجة أهل البصرة إلى ما يسدّ فراغهم ويشغل أوقاتهم ، ولم يلبث الشاعران أن حققا لهم كل ما كانوا يبغون من ذلك ، إذ تحولا بفن الهجاء القديم إلى هذه النقائض الجديدة التى استضاءا فيهـا بقدرة العقل العربى الحديثـة على الجدال والتوليـد فى المعانى . وارجعْ إلى أى فكرة عندهما كفكرة أن الفرزدق قَيْن أو فكرة ذل بنى كليب فسترى كلا منهما يعرض الفكرة التى يقف عندها فى صور كثيرة ، إذ ما يزال يولِّد فيها، وما يزال يستنبط ويفرِّع ويشعِّب، وكأنما يريد أن لا يُبْقى فيها بقية . وانظر فى أى نقيضة يردّ بها أحدهما على خصمه، فستراه يقف بإزاء كل بيت قاله صاحبه ويردّ عليه صُنْع المتناظرين من أهل اللَّدَد والخصومة فى المسائل العقيدية ، فهو يحاول جاهداً أن يبطل كل فكرة اعتمد عليها صاحبه فى هجائه وأن ينقضها نقضاً . ومن ثَمَّ كنا نرى أن نقائض جرير والفرزدق فن جديد ، وهى ككل فن يتصف بهذه الصفة ، سبقتها مقدمات فى العصور

---

(١) أغانى (ساسى) ١٩/٢٨ .

(٢) أغانى ١٩/٤٢ .

(٣) الديوان ص ١٧٨ .

(٤) تعلت : تطهرت .

(٥) الثأى : الفساد والضعف. زلت : عثرت .

السالفة ، ولكنها استوت عند الشاعرين فى صورة جديدة ، وهى صورة معقدة ، إذ اعتمدت على دراسة التاريخ القديم والحديث للقبائل ودراسة مفاخرها ومثالبها . كما اعتمدت على استيحاء روح الإسلام وما شاع فى العصر من قدرة على الجدال والحوار ، وأخذت تظهر فيها ظاهرة لم تكن شائعة فى الهجاء القديم : وهى ظاهرة التنديد على المهجوّ وقبيلته ، حتى تُضْحك المستمعين فى المربد ، وحتى تمدهم بما يريدون من التسلية ومن التهليل والصياح والصفير والتصفيق . ومن ثَمَّ لم يترك كل من الشاعرين شيئاً يثير الضحك فى خصمه إلا أثاره ، كأن يقول الفرزدق فى جرير :

يُهْدِى الوعيدَ ولا يحوطُ حَرِيمَهُ كالكلب يَنْبَحُ من وراءِ الدار

أو يقول فى كليب عشيرته :

يستيقظون إلى نُهاق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتارِ (١)

أو يقول :

أتعدل أحسابا لئامًا أَدقَّةً بأَحسابنا إنى إلى الله راجعُ

وكان جرير يلقاه بمثل قوله :

زَعَم الفرزدق أن سيقتلُ مِرْبَعاً أَبْشِرْ بطول سلامةٍ يا مِرْبَعُ

وقوله :

خذوا كُحْلا ومِجْمَرَةً وعِطْـرا فلستم يا فرزدقُ بالرجالِ

وهو يتفوق على الفرزدق فى هذا الجانب تفوقاً واضحاً ، ومن ثَمَّ كان هجاؤه أكثر مرارة وأشد نكاية .

وساقت الظروفُ الأخطلَ شاعر تغلب ليصطدم بجرير شاعر قيس ومحاميها المناضل عنها . وكان الأخطل – كما قدمنا – يهاجى قيساً فى الحروب التى

---

(١) الأوتار : جمع وتر وهو الثأر .

نشبت بينها وبين قبيلته منذ موقعة مَرْج راهط سنة ٦٥ وكان شعراؤها يردُّون عليه ، فيُفحمهم بأهاجيه المقذعة .

وشاءت المقادير أن يلمّ بالعراق فى ولاية بشر بن مروان ، فاصطدم هناك بجرير ، ويقول الرواة إنه أحفظه إذ فضل الفرزدق عليه [١] وطبيعى أن يفضل الأخطل الفرزدق وينحاز له ضد شاعر قيس بل يُجْلب عليه ، فلم يكن منشأ التفضيل الحكم الفنى من حيث هو ، إنما كان منشؤه الخصومة العنيفة بين تغلب وقيس . وسرعان ما استطار الهجاء بين الشاعرين . وإذا هما يخلّفان طائفة كبيرة من النقائض ، جمعها أبو تمام [٢] . وقد ظلا ينظمانها منذ سنة ٧٣ إلى أن توفّى الأخطل حوالى سنة ٩٢ . وهو يُعَدُّ مع جرير والفرزدق فحول الشعر فى هذا العصر . يقول الجاحظ : « والذين هجوا فوضعوا من قدر مَنْ هجوه ، ومدحوا فرفعوا مِنْ قدر مَنْ مدحوا ، وهجاهم قوم فردوا عليهم ، فأفحموهم ، وسكت عنهم بَعْضُ مَنْ هجاهم مخافة التعرض لهم ، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبةً بأنفسهم عن الرد عليهم ، وهم إسلاميون ، جرير والفرزدق والأخطل » [٣]

وجميع الظواهر التى لاحظناها فى نقائض جرير والفرزدق نجدها مجسمة فى نقائض جرير والأخطل ، فهما جميعاً يُعْنَيان بتاريخ القبائل فى الجاهلية والإسلام . وهما يخلطان العصبيات بالسياسة . وقد ساقت الظروف تغلب لتقف فى صفوف بنى أمية ضد قيس ، على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، كما ساقت الأخطل التغلبى ليكون شاعر بنى أمية منذ عصر معاوية ولسانهم الناطق فى الجزيرة والعراق . وربما كانت قصيدة « خَفَّ القطين » للأخطل أروع نقائضه مع جرير ، ونراه يستهلها بالنسيب ووصف حزنه لفراق أحبته ، وهو يُتْبعهم طرفه مولّيها ، حتى ليشبِّه نفسه بالسكران المنتشى ، ويصف الخمر وصفاً قصيراً ، وهو موضوع لم يكن جرير ولا الفرزدقُ يلمّان به ، لتحريم الإسلام للخمر ، وكان الأخطل نصرانيا ، فانفرد بهذا الموضوع فى شعره .

---

(١) ابن سلام ص ٣٨٧ ، ٤٠٨ وأغانى ٨/٣١٥ ونقائض جرير والفرزدق ص ٨٧١ .

(٢) نشر صالحانى هذه النقائض فى بيروت سنة ١٩٢٢ عن مخطوطة فى الآستانة ، وقد اشتملت هذه المخطوطة على بعض نقائض الشاعرين ، ومن الممكن أن يستخرج من ديوانيهما نقائض أخرى لها .

(٣) البيان والتبيين ٤/٨٣ .

على أنه لم يُطْنب فيه هنا ، فقد تركه إلى وصف ظُعُن الحبيبة ، مستلهماً زهيراً في هذا الوصف ومضيفاً إليه تصويراً لأخلاق النساء، وإقبالهن على الشباب وانصرافهن عن الشيوخ . وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك، فمدحه من حيث هو خليفة ، منوِّهاً بجوده ، ومشبهاً له في هذا الجود بالفرات، وهي صورة يتأثر فيها تأثراً واضحاً بصورة النابغة للنعمان بن المنذر في معلقته . ويمضي فيفصِّل الحديث عن حربه لمصعب بن الزبير ومهارته في قيادة الجيوش والظفر بخصومه . ويمدح أسرته الأموية منوها بشرفها العريق وأنفتها وحمايتها عن الحقوق وبأسها وقوة مراسها وحلمها وصلابتها . ويشيد بوقوفه في صفوف بني أمية ونضاله أعداءهم ، كما يشيد بنصر قبيلته لهم ، ويحمل على زُفَر بن الحارث زعيم قيس ، وكان قد دخل في طاعة عبد الملك ، وكأنه يبغي أن يُحْفظه عليه وعلى قبيلته ، يقول :

بني أميةَ إني ناصحٌ لكمُ ... فلا يبيتنَّ فيكم آمنا زُفَرُ

ويستطرد إلى انتصارات تغلب على قيس في حروبهما بالجزيرة ، ويزعم أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس في طاعة بني أمية ! وقد مرّ بنا أنها نكلت بتغلب بعد موقعة الحَشَّاك التي قتل فيها فارسها عمير بن الُحباب وأن زُفَر بايع عبد الملك قبل قدومه بجيوشه لحرب مصعب ، لا قهراً من تغلب ، ولكن بُعْدَ نظر . ومضى الأخطل يهجو قيسا حتى إذا بلغ من ذلك كل ما يريد انتقل إلى جرير وعشيرته كليب ، فأقذع في هجائها إقذاعاً شديداً بمثل قوله :

أما كُلَيْبُ بن يربوعٍ فليس لهم ... عند التفارط إيراد ولا صَدَرُ [١]

مخلَّفون ويقضى الناسُ أمرهمُ ... وهمُ بغيبٍ وفى عمياءَ ما شعروا [٢]

ملطَّمون بأَعْقار الحِياض فما ... ينفكُّ من دارمِيٍّ فيهمُ أَثَرُ [٣]

قومٌ أنابتْ إليهم كلُّ مخزيةٍ ... وكل فاحشة سُبَّتْ بها مُضَرُ [٤]

على العِيارات هدَّاجون قد بلغتْ ... نَجْرَانَ أو حُدِّثَتْ سَوْءاتهم هَجَرُ [٥]

---

(١) التفارط : التقدم للاستقاء من الآبار ، والإيراد : ورود الماء . والصدر : الصدور عنه.

(٢) يريد أنهم لايستشارون ولا يعبأ بهم .

(٣) يقول إنهم يُلَطَّمون حيث يكونون فى مؤخرات الحياض، تلطمهم دارم عشيرة الفرزدق لعزتها وشرفها .

(٤) أنابت : رجعت وتناهت .

(٥) العيارات : جمع عير وهو الحمار ، يهجوه بأنهم أصحاب حمر لا أصحاب خيل . الهدج : تقارب الخطو .

ويأخذ فى هجاء جرير هجاء عنيفاً يُقْذع فيه إقذاعاً شديداً. وعلى هذه الشاكلة لا يزال الأخطل فى نقائضه لجرير يذمُّ عشيرته. رامياً لها بكل ما يستطيع من نبال الذل والخسَّة والدناءة ، وهو يتحدث فيها عن مواقع تغلب مع قيس فى الإسلام وما حققت من بعض الانتصارات ، وكثيراً ما يضم إلى ذلك فخراً بأيامها فى الجاهلية ، كما يضم انتصارا للفرزدق وعشيرته دارم ، حتى يبلغ من جرير كل ما يريد من هجاء مرير .

وكان جرير ينقضُّ عليه كالصَّقْر الجارح ، فيضع تحت عينه مخازى تغلب وهزائمها فى حروبها مع قيس سواء فى يوم ماكِسين الذى نكَّل بها فيه عمير بن الحُباب أو فى يوم الكُحَيْل الذى نكل بها فيه زفر بن الحارث أو فى يوم البِشْر الذى نكَّل بها فيه الجحَّاف السُّلَمِىّ ، ضامًّا إلى ذلك انتصارات قبيلته : يربوع فى الجاهلية وملججا فى هزائم تغلب قبل الإسلام، مفتخراً عليه افتخاراً عنيفاً بمثل قوله يردُّ عليه نقيضته السالفة :

نحن اجْتَبَيْنَا حياضَ المجد مُتْرَعَةً ... من حَوْمةٍ لم يخالط صَفْوَها كدرُ [(١)]

لم يُخْزِ أولَ يربوعٍ فوارسُهم ... ولا يُقال لهم كلا إذا افتخروا

هل تعرفون بذى بَهْدَى فوارسَنا ... يوم الهُذَيْل بأيدى القوم مُقْتَسَرُ [(٢)]

خابتْ بنو تغلبٍ إذ ضلَّ فارطُهم ... حَوْضَ المكارم إن المجد مُبْتَدَر [(٣)]

الظاعنون على العمياءِ إن ظعنوا ... والسائلون بِظَهْرِ الغيب ما الخبر [(٤)]

الآكلون خبيثَ الزاد وحدهمُ ... والنازلون إذا واراهم الخَمِرَ [(٥)]

إنى رأيتكمُ والحقُّ مغضبةٌ ... تَخْزَوْنَ أن يُذْكَرَ الجَحَّاف أو زُفَرُ

كانتْ وقائعَ قلنا لن تُرَى أبدا ... من تغلبٍ بعدها عَيْنٌ ولا أَثَر

حتى سمعتُ بخنزيرٍ ضَغَا جَزَعاً ... منهم فقلت أرى الأموات قد نُشِروا [(٦)]

---

(١) الحومة : معظم الماء .

(٢) ذو بهدى : يوم ليربوع على تغلب وفيه أسرت فارسها الهذيل بن هبيرة .

(٣) الفارط : الذى يتقدم قبل الإبل ليملأ لها الحوض .

(٤) يريد أنهم لايعرفون الأمر إلا تدبراً ، فهم لا يُسْألون فى شىء وهم يَسْألون عن أخبار الناس .

(٥) الخمر : الموضع المستتر ، يقول إنهم ينزلون به فراراً من الضيفان والحقوق التى تلزمهم .

(٦) نشروا : حيوا وبُعثوا .

وواضح أنه يردُّ على معانيه معنًى معنًى ، وقد لقبه فى البيت الأخير بأنه خنزير إشارة إلى أنه نصرانى ، وكان يسقط عليه من هذا الجانب دائماً، وهو يمضى فى نفس هذه النقيضة ، فيقول .

رِجْسٌ يكون إذا صَلَّوْا ، أَذانُهم — قَرْعُ النواقيسِ لا يدرون ما السُّوَرُ [١]
وما لتغلبَ إن عَدَّتْ مساعِيَها — نجمٌ يضيءُ ولا شمسٌ ولا قَمَرُ
الضاحكين إلى الخنزير شهوتَه — يا قُبِّحَتْ تلك أفواها إذا كَشروا [٢]
والمُقْرعين على الخنزير مَيْسِرَهُمْ — بئس الجَزورُ وبئس القوم إذ يَسَروا [٣]
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا — وهل يضيرُ رسولَ الله أن كفروا

وكان الأخطل إذا سمعه يقول ذلك وشبهه انْجَحَرَ ، ولم يستطع له جوابا ، ومن ثم كان جرير يقول إنى أُعِنْتُ عليه بكفره . وأُعين عليه أيضاً بمهارته فى التنديد على خصمه ، ومما يجمع الجانبين جميعاً قوله فى نقيضة ثانية :

قَبَح الإلهُ وجوه تغلبَ كلما — شَبَحَ الحَجيجُ وكبَّروا إهلالا [٤]
عَبدوا الصَّليب وكذَّبوا بمحمدٍ — وبجَبْرَئيل وكذَّبوا مِيكالا
المُعْرسين إذا انْتَشَوْا ببناتهم — والدائبين إجارةً وسؤالا [٥]
والتغلبيُّ إذا تُنُبِّح للقِرَى — حَكَّ اسْته وتمثَّلَ الأمثالا [٦]
ولو انَّ تغلب جمَّعتْ أحسابها — يوم التفاضل لم تزنْ مثقالا
نُبِّئْتُ تغلب يَنْكحون رِخالَهم — وترى نساؤهم الحَرام حلالا [٧]
لا تطلبنَّ خؤولةً فى تغلبٍ — فالزِّنْجُ أكرمُ منهم أخوالا

---

(١) يريد سور القرآن الكريم .

(٢) يريد أنهم إذا نظروا إلى الخنزير ضحكوا شهوة للحمه .

(٣) الميسر : اللعب بالقداح على الجزور وهو ما يذبحونه من بعير أو ناقة . يقول إنهم نصارى ولذلك ييسرون ويقامرون على الخنزير .

(٤) شبح : رفع يديه بالدعاء . الإهلال : رفع الصوت .

(٥) يقول إنهم بين أجير وسائل .

(٦) تنبح : كانوا ينبحون فى الظلام إذا ضلوا لتردّ عليهم كلاب الحى ، فيستهدون بها للقرى وهو الطعام والضيافة .

(٧) الرخال : أولاد الضأن .

ويقول فى نقيضة ثالثة :

إن الذى حَرم المكارم تَغْلبــا جعل الخلافة والنبوة فينــا
مُضَرٌ أَبى وأَبو الملوكِ فهل لكم يا خُزْرَ تغلبَ من أَب كأَبينا[١]
هذا ابنُ عَمىٍّ فى دمشقَ خليفةٌ لو شئتُ ساقكمُ إلىَّ قَطينا[٢]

وما زالا يتهاجيان حتى حضر الأخطلَ الموت ، فقيل له ألا توصى ؟ فقال تَوًّا :

أُوصِّى الفرزدقَ عند المماتِ بِأُمِّ جــريرٍ عيــارها[٣]

ولم يكد يسمع بذلك جرير ، حتى نظم فيه هجاء عنيفاً من وزن هذا البيت وقافيته يقول فيه :

وزار القبورَ أبو مالكٍ فأَصبح أَلأَم زوَّارهــا[٤]

والحق أن جريراً كان يتفوق على خصميه جميعاً فى الهجاء ، وقد شهد له الأخطل بذلك ، إذ قال للفرزدق فيما يَرْوى الرواة : «إن جريرًا أُوتى من سير الشعر ما لم نُؤْتَه ، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحدا قال أهْجى منه ، قلت :

قومٌ إذا اسْتَنْبَحَ الأَضيافُ كَلْبَهُمُ قالوا لأُمهم بُولى على النار

فلم يَرْوه إلا حكماءُ أهل الشعر ، وقال هو :

والتغلبىُّ إذا تُنُبِّحَ لِلقِــرَى حَكَّ اسْتَهُ وتمثَّل الأَمثالا

فلم تبق سقاةٌ ولا أمثالها إلا رَووه[٥]» . ولعل من الخير أن نلمّ بحياة هؤلاء الشعراء الثلاثة وأشعارهم ، إذ عدَّهم الرواة والنقاد فحول هذا العصر ومبرِّزيه فى الهجاء والمديح جميعاً .

---

(١) الخزر : ضيق فى مؤخر العين ، يكنى به جرير عن اللؤم .
(٢) القطين هنا : الخدم والعبيد .
(٣) أعيار : جمع عير وهو الحمار .
(٤) أبو مالك : كنية الأخطل .
(٥) أغانى ٨/٣١٨ .

٤

الأخطل [١]

واضح مما قدمنا أن الأخطل من قبيلة تغلب ، وهى إحدى القبائل العربية الكبيرة التى كانت تكوِّن مجموعة قبائل ربيعة ، وكانت تنزل فى الجزيرة ، وتمتدُّ بعض عشائرها جنوباً إلى الحيرة ،غرباً إلى الشام، وشرقاً إلى أذربيجان . وكان لها قديماً حروب مع أختها بَكْر جَلّى فيها المهلهل .وأخرى مع أمراء كندة وأمراء الحيرة ، وقصة قَتْل فارسها وشاعرها عمرو بن كلثوم لعمرو بن هند صاحب الحيرة مشهورة . وقد اعتنق جمهورها فى الجاهلية النصرانية على مذهب اليعاقبة ؛ ولماُ فتحت الفتوح لجَّتْ فى أول الأمر مع الفرس والروم؛ وسرعان ما اضُطَّرت إلى الدخول فى طاعة الخلافة الإسلامية لعهد عمر بن الخطاب ، واستغاثت به أن يضع عنها الجزية ، فوضعها عنها ، وقَبِلَ منها أن تؤدِّى الصدقة أسوةً ببقية العرب . ودخلت طائفة منها فى الإسلام ، ولكن كثرتها ظلت نصرانية . ونرى فريقاً منها يُعين معاوية فى حروبه مع على بِصِفِّين ، ويلمع من بينهم اسم كعب بن جُعَيْل ، وهو شاعر مجيد ، اعتنق الإسلام ، وكان أحدَّ الألسنة فى جيش معاوية على خصومه [٢] :

وقد مضت تغلب بعد صِفِّين تَحْطب فى حبل الأمويين ، من سفيانيين ومروانيين ، فإن قبائل قيسية كما قدمنا نزحتْ إلى منازلها مع الفتوح و زاحمتها فى

---

(١) انظر فى ترجمة الأخطل أغانى (دار الكتب) ٨/٢٨٠ وكذلك فى ترجمة جرير ٨/٣ وما بعدها وفى خبر الجحاف ويوم البشر ١٢/١٩٨ وما بعدها ، وراجع الشعر والشعراء ١/٤٥٥ وابن سلام ص ٣٨٦ وما بعدها وفى مواضع متفرقة وخزانة الأدب ١/٢٢٠ والموشح ص ١٣٢ والاشتقاق ص ٣٣٨ وكتاب الأب لامانس: Le Chantre des Omiades والأخطل شاعر بنى أمية للسيد مصطفى غازى وانظر فى أشعاره نقائض جرير والأخطل وديوانه نشر صالحانى .

(٢) انظر فى أشعار كعب بصفين واقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٥٦ وفى مواضع متفرقة . وانظر فى ترجمة كعب ابن سلام ص ٤٥٨ وما بعدها وفى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) والشعر والشعراء ٢/٦٣١ ومعجم الشعراء ص ٢٣٣ والخزانة ١/٤٥٧ وراجع فهرسى الطبرى والأغانى .

مواردها الاقتصادية ، ولم تلبث بعد وفاة يزيد بن معاوية أن بايعت ابن الزبير فاصطدمت مصالح الطرفين الاقتصادية والسياسية . ولم تكد تتقدم بهما الأيام فى أثناء فتنة ابن الزبير ، حتى سَلاّ سيوفهما ، واحتُدمت المواقع بينهما ، إلى أن دخلت قيس فى طاعة عبد الملك وتكافَّت القبيلتان عن المغازى فى الجزيرة .

وفى هذه القبيلة وفى فرع منها يسمى جُشَم بن بكر وفى عشيرة من هذا الفرع تسمى بنى الفَدَوْكس وُلد الأخطل فى بادية الحيرة حوالى سنة ٢٠ للهجرة . وكانت أمه مثل أبيه نصرانية ، وهى من قبيلة إياد ، ومن ثَمَّ نشأ نصرانيًّا ، وظل حياته على دينه ، فلم يدخل فى الإسلام . وفى أخباره أنه كان يُكثر الشِّجار فى صباه مع زوج أبيه فلقبته دَوْبلا ، والدوبل الحمار الصغير . وتزوجُ أبيه بامرأة غير أمه مخالفاً بذلك العقيدة المسيحية يدل على أن نصرانيته كانت رقيقة ، وكذلك كانت نصرانية ابنه ، فإننا نراه يطلِّق زوجته ، ويتزوج بأخرى ، كما نراه يتردد على دور القيان . وقد استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، واقترن بها سَفَهٌ شديد ، فكان يُكثر من هجاء الناس ، ولذلك لقبوه أو لقبه شاعر عشيرته كعب بن جُعَيْل الأخطلَ ومعناه السفيه . أما اسمه فغياث ، وكان يكنى بأبى مالك وهو أكبر أبنائه .

ويحاول الاتصال بمعاوية وابنه يزيد ، لينال جوائزهما وتواتيه الفرصة ، فإن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كان يهاجى عبد الرحمن بن الحكم الأموى ويتعرَّض لنساء بنى أمية . وكان ممن تعرض لهن رملة بنت معاوية إذ تغزل بها غزلا مفحشاً ، وبذلك كان أول من اتخذ الغزل سلاحاً للهجاء السياسى ، ومعروف أن الأنصار كانوا مغاضبين لبنى أمية منذ وقوفهم مع على فى صِفِّين . وحاول يزيد بن معاوية نفسه أن يردَّ عليه ، فاستعلاه ابنُ حسان ، فقال يزيد لكعب بن جُعَيْل : أجبْه عنى واهْجُه ، فقال : « أرادِّى أنت إلى الإشْراك بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصروا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى أدلك على غلام منا نصرانى ، كأن لسانه لسان ثَوْر ، يعنى الأخطل » . فأرسل إليه يزيد ، فقدم عليه ، فقال له : اهجهم ، فقال له كيف أصنع بمكانهم وسابقتهم

فى الإسلام ؟ أخافهم على نفسى ، فقال يزيد : لك ذمة أمير المؤمنين وذمتى ، فنظم فى هجائهم قصيدته التى يقول فيها :

ذهبتْ قريشٌ بالمكارم والعُـــلا ‏ ‏ ‏ ‏ واللُّـــؤْم تحت عمائم الأَنصارِ

وغضب النعمان بن بشير الأنصارى ، وكان ممن صحبوا معاوية فى حروبه ضد على وولاّه الولايات وأكرمه ، فجاء إليه يشكو له هجاء الأخطل لقومه ، فقال ما حاجتك؟ قال لسانهُ ، فقال معاوية ذلك لك . وعلم الأخطل ، فاستغاث بيزيد ، فدخل على أبيه ، وقال له : إنى جعلتُ له ذمتك وذمتى ، إذ ردّ عنى ، فقال معاوية للنعمان : لا سبيل إلى ذمة يزيد . وردّ النعمان على الأخطل — كما أسلفنا — ولكن الهجاء لم يستطر بينهما ، وكأن الأخطل انسحب من المعركة سريعاً خوفاً على نفسه . ومنذ هذا التاريخ يصبح الأخطل شاعر بنى أمية ، فهو يعيش لهم يمدحهم ، وهم يُغْدقون عليه . وليس فى ديوانه مديح لمعاوية ، ويظهر أن مديحه له سقط من الديوان ، فإن المرتضى فى أماليه روى له فيه هذين البيتين (١) :

إذا متَّ مات العِزُّ وانقطع الغِنَى ‏ ‏ ‏ ‏ فلم يبق إلا من قليلٍ مصرَّدِ (٢)

ورُدَّتْ أكفُّ الراغبين وأَمسكوا ‏ ‏ ‏ ‏ من الدين والدنيا بِخِلْفٍ مجدَّد (٣)

وفى ديوانه مدائح مختلفة ليزيد وأخيه عبد الله ولابنه خالد ، ونحسُّ فى قصائد الأولين ضرباً من الدعوة السياسية لبنى أمية ، إذ لا ينسى أن ينوِّه بانتصار معاوية فى صِفِّين وأن الله اختار بيتهم للخلافة ، على شاكلة قوله :

تَمَّتْ جُدودهم واللهُ فضَّلهم ‏ ‏ ‏ ‏ وجَـــدُّ قوم سواهم خامِلٌ نَكِدُ

ويوم صِفِّين والأَبصارُ خاشعةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ أمدَّهم — إذ دعوا من ربهم — مَدَدُ

وأنتم أهلُ بيتٍ لا يـــوازنهم ‏ ‏ ‏ ‏ بَيْتٌ إذا عُدَّتِ الأَحسابُ والعَدد

---

(١) أمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ٢/٢٤ .

(٢) مصرد : مقلل .

(٣) الخلف : واحد أخلاف الناقة ، ويقال تجددت أخلافها إذا ذهب لبنها .

ويظهر أنه لم يكن يقيم بدمشق طويلا ، فقد كان يفد عليها وفوداً ، وسرعان ما يعود إلى منازل قومه فى الجزيرة ، يدلُّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجده فى الفترة التى احتدمت فيها المعارك بين تغلب وقيس واقفاً فى صفوف قومه يناضل عنهم الراعى وابن الصَّفَّار المحاربى وابن الصَّعِق وغيرهم من شعراء قيس. ومرَّ بنا أن القبائل اليمنية فى الشام وعلى رأسها كلب بايعت مروان بن الحكم . بينما نشزت عليه القبائل القيسية إذ كان هواها مع ابن الزبير ، وسرعان ما اصطدم الطرفان فى موقعة مَرْج راهط . وانتصرت كلب وأخواتها انتصاراً حاسماً . وكانت تغلب قد أعانتها فى تلك الموقعة ، ومضت تعلن ولاءها لمروان ثم لابنه عبد الملك ، وأخذت تتحرش بها قيس فى الجزيرة ، فنشبت بينهما سلسلة معارك حَمِيَ فيها وطيس الحرب ، وأُشْرِعت فيها ألسنة الشعراء على نحو ما أشرعت أسنة الشجعان ، وكان الأخطل أهم لسان أُشْرِع فى تغلب على نحو ما أسلفنا فى الحديث عن نقائضه .

وما زال عبد الملك يستنزل زُفَر بن الحارث وغيره من زعماء قيس ، ليأمن طريقه إلى مصعب بن الزبير . ويُذْعنون ويدخلون فى طاعته ، فتهدأ الحروب الناشبة بين قيس وتغلب ، وتمر بهما فترة سلام . ويعود عبد الملك إلى دمشق مظفَّراً ، ويحاول فى سنة ٧٣ أن يصلح بين الفئتين، فيستقدم زعماءهما إلى دمشق ويختصمون عنده ، ويلمع اسم الأخطل فى هذا الاختصام ، إذ يدخل على عبد الملك بن مروان وعنده الجَحَّاف السُّلَمِيّ ، فينشد :

ألا سائلِ الجحَّافَ هل هو ثائرٌ بقَتْلَى أصيبتْ من سُلَيْمٍ وعامرِ
أجحاف إن نهبِطْ عليك فتلتقى عليك بحورٌ طامياتُ الزواخـــر

ووثب الجحاف يَجُرُّ مُطْرَفَهُ غضباً، وذهب توًّا إلى قومه فى الجزيرة ، فجمع فرسانهم وأغار بهم على تغلب ليلا فقتل فيها مقتلة عظيمة، وَبقَر من النساء من كانت حاملا . ومن كانت غير حامل قَتَلها . وتسمى تلك المعركة معركةِ « البِشْر » باسم جبل وقعت بجواره . وقد قتل فيها ابن للأخطل ، ووقع هو نفسه أسيراً ، غير أنه ضَلَّل من أسروه إذ قال لهم إنه عَبد، فأطلقوه . وهرب

الجحاف بعد تلك الوقعة إلى الروم ، إلى أن سكن غضب عبد الملك وأمّنه ، فعاد على أن يؤدّي الحمالات عما سفك من دماء . ونرى الأخطل يتضوّر من هذه الوقعة تضورا شديداً ، حتى لنراه يهدد بنى أمية بانصراف تغلب عنهم ، إن لم يأخذوا لهم بثأرهم ، يقول :

لقد أوقع الجحَّافُ بالبِشْر وقعةً ... إلى الله منها المشتكى والمعوَّلُ
فسائلْ بنى مروانَ ما بالُ ذمَّةٍ ... وحَبْلٍ ضعيفٍ لا يزال يوصَّلُ
فإلا تغيِّرها قريشٌ بِملكها ... يَكنْ عن قريش مُسْتَرادٌ ومَزْحَلُ[1]

واستطاع عبد الملك أن يَرُمَّ الفتْقَ ويُحكم الصلح بين الفئتين . ويعود الأخطل إلى رحابه ويحلّ منه منزلا عليًّا ، إذ يصبح شاعره الأثير على الرغم من نصرانيته ، ويقول الرواة إنه كان يَمْثُلُ بين يديه « وعليه جبة خزٍّ وحرز خزّ ، فى عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفُض لحيته خمرا[2] »

وعصْرُ عبد الملك يُعَدُّ العصر الذهبى للأخطل ، فقد نزل منه منزلة الشاعر الرسمى للدولة ، وآثره على جميع معاصريه من الشعراء ، وأمر من يُعلن بين الناس أنه شاعر بنى أمية وشاعر أمير المؤمنين ، وفى الأغانى أخبار كثيرة تصور ذلك . ونرى مدائح الأخطل لعبد الملك حينذاك تمتلئ بالفخر بقومه وما قدّموا من خدمات لبنى أمية ، كما تمتلئ بالدعوة السياسية للأمويين ، وهى دعوة ينال فيها من خصومهم أمثال الزبيريين ، كما ينال من قَيْس وشاعرهم جرير ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته « خَفَّ القطينُ » التى أسلفنا الحديث عنها ، وقد أُحكم نَسْجها حتى لتتوهج بعض أبياتها توهجاً على مثال قوله فى الأمويين :

حُشْدٌ على الحق عَيَّافو الخَنا أُنُفٌ ... إذا أَلَمَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
وإن تدجَّتْ على الآفاق مُظْلمةٌ ... كان لهم مخرجٌ منها ومُعْتَصَرُ[3]

---

(١) بملكها : بمقدرتها . مستراد : مرعى . مزحل : من زحل عن مكانه إذا زال عنه وتنحى .

(٢) أغانى (دار الكتب) ٨/٢٩٩ .

(٣) تدجت : أظلمت . معتصر : ملجأ .

أَعطاهم اللهُ جَدًّا يُنْصَرون بهِ لا جَدَّ إلا صغيرٌ بعدُ مُحْتَقَرُ[١]

شُمْسُ العداوة حتى يُسْتقادَ لهم وأَعظمُ الناسَ أَحلاماً إذا قدروا[٢]

والأخطل فى مديحه لا يقل براعة ومهارة عن الفرزدق وجرير ، بل لاشك فى أنه يتقدم أولهما إذ كانت نفسه صلبة ،وكان يعتز بآبائه اعتزازاً شديداً ، فلم يبرع فى المديح ، إنما برع فى الفخر . أما جرير فكانت نفسه لينة ، ومن ثَمَّ يُعَدُّ هو والأخطل فى المديح فرسى رهان . وإن كنا نلاحظ فى الوقت نفسه أن مدائح جرير أكثر عذوبة ، إذ كان يتفوق على خصميه جميعاً فى حلاوة الألفاظ وجمال النغم ورشاقة اللفظ ونعومته . أما الأخطل فيمتاز برصانة الألفاظ وفخامتها وجزالتها ، ومدائحه فى عبد الملك تُعَدُّ درره الشعرية ، وهو فيها يكثر من أن الله اصطفاه لأمته على شاكلة قوله :

وقد جعل اللهُ الخلافة فيكمُ بأَبيض لا عارى الخِوان ولا جَدْبِ

ولكن رآه اللهُ موضعَ حقِّها على رغم أَعداءٍ وصَدَّادةٍ كُذْبِ[٣]

ونراهُ يلمُّ فى هذه الفترة من حياته بالكوفة والبصرة كثيراً يمدح ولاتهما وأجوادهما من مثل خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى ، وبشر بن مروان والحجاج ، وسماك الأسدى ، وهو من أجواد الكوفة. ونراه ينوِّه بمصقلة بن هبيرة الشيبانى أحد قواد طبرستان، كما ينوه بعكرمة بن رِبْعى الفياض وجوده الغَمْر ، ومن قوله فيه :

إن ابن رِبْعِيٍّ كفانى سَيْبُه ضِغْنَ العدوِّ وعِذْرَةَ المُحْتالِ[٤]

وإذا عدلتَ به رجالاً لم تجدْ فَيْضَ الفُرات كراشح الأَوْشال[٥]

وممن نوَّه بهم جرير بن عبد الله البَجلى وجدار بن عتَّاب التغلبى وهمام بن مطرف .

---

(١) الجد : الحظ .

(٢) شمس : جمع شموس وهو العسير فى عداوته . استقاد له : أعطاه مقادته وذمامه ، فخضع وذل .

(٣) كذب : جمع كذوب .

(٤) السيب : العطاء . العذرة : الاعتذار ، يشير إلى من يسألهم فيعتذرون .

(٥) عدلت : وزنت . الأوشال : جمع وشل وهو الماء القليل . والراشح : الذى يسيل فى قلة.

وتُطْوى صفحة حياته الزاهية إذ يتوفّ عبد الملك ، ويخلفه ابنه الوليد ، فيأفل نجمه ، إذ يُقْصيه عنه ، ويقرِّب منه شاعراً شاميًّا مسلماً هو عدى بن الرِّقاع العاملى ، وبذلك انزوى الأخطل ، ولم يعد له كبير شأن . وقد مدح الوليد ، ومدائحه فيه فاترة .

وعلى نحو ما كان الأخطل يجيد المديح كان يجيد نعت الخمر ودِنانها ونَداماها ، ويطيل المديح فى عِتْقها والسرور بشربها ، يقول :

صهباء قد كلفتْ من طول ما حُبِستْ   فى مخدعٍ بين جنّات وأنهارِ[1]

عذراء لم يَجْتَل الخُطّاب بهجتها   حتى اجتلاها عبادىٌّ بدينارِ[2]

واقرأ له القصيدة الأولى فى ديوانه ، فستراه يصور فيها زقاق الخمر تصويرا بديعاً ، إذ يقول ،

أناخوا فجَرُّوا شاصِياتٍ كأنّها   رجالٌ من السُّودان لم يَتَسَرْبَلوا[3]

ويصف تمشيها فى دمه وجسمه وعظامه ، فيقول :

تدبُّ دبيبــا فى العظام كأنه   دَبيبُ نِمالٍ فى نَقًا يتهيَّلُ[4]

ويَرْسم صورة المنتشى بها نَشْوة تفقده حسه ووعيه ، على هذا النحو :

صريعُ مُدام يرفع الشَّرْبُ رأسه   لِيَحيَا وقد ماتتْ عظامٌ ومَفْصِلُ

نُهاديه أحيانا وحينًـــا نجرُّهُ   وما كاد إلا بالحشاشة يَعْقِلُ[5]

إذا رفعوا صدْرا تحامل صدره   وآخرُ مما نال منها مخبَّل

وكان الأخطل شغوفاً بالخمر شغفاً شديداً ، حتى لنراه يذكر فى حديث له مع عبد الملك أنها هى التى تمنعه من إعلان إسلامه[6] . وفى أخباره وأشعاره ما يدل على انصياعه لدينه أحيانا ، فقد كان يتمسَّح بالقساوسة تبركاً ، وكانوا إذا أنزلوا به عقاباً خضع لهم واستكان . ونراه يذكر الصليب فى ديوانه كما يذكر قديس قبيلته مار سرجيس ، ويُقْسم بالمسيح والرهبان . وقد ظل يهاجى جريراً إلى أن توفِّى سنة اثنتين وتسعين للهجرة .

---

(١) الصهباء : الخمر . كلفت : تغير لونها .

(٢) عذراء : لم تفضّ . العبادى : نسبة إلى قوم فى الحيرة كانوا يتجرون فى الخمر ، وهم نصارى ، سموا العباد .

(٣) الشاصيات : الممتلئة .

(٤) النقا : الكثيب من الرمل .

(٥) نهاديه : نسوقه . الحشاشة : بقية النفس .

(٦) أغانى (دار الكتب) ٨/٢٩٠ .

٥

الفرزدق (١)

شاعر تميمى ، وكانت تميم تنزل فى الجاهلية بشرقى الجزيرة ، وتمتد عشائرها وبطونها من اليمامة إلى شواطئ الفرات ، وتتغلغل فى نجد . مما جعلها تصطدم بالقبائل اليمنية والمضرية والربعية فى أيام كثيرة ، كما اصطدمت بالحيرة وملوكها المناذرة . وتُعدّ أكبر القبائل المضرية ،وهى فى حقيقتها مجموعة من القبائل ، تنتسب إلى أب واحد . وعلى نحو ما كانت تصطدم بجيرانها كانت تصطدم قبائلها بعضها ببعض ،ومن أشهر هذه القبائل دارم ويَرْبوع ومازن ومِنْقر وبنو الُهجَيْم وبنو أنف الناقة . ويُفيض كتاب شرح نقائض جرير والفرزدق فى الحديث عن أيامها وحروبها القديمة ،ومن أهمها « أُوارة » بين دارم وعمرو بن المنذر ملك الحيرة و«الرَّحْرحان» بين دارم وعامر و « ذو نَجَبٍ» بين يربوع وعامر و « النِّباج » بين مِنْقر وبكر و «إراب» بين يربوع وتغلب و«جَبَلة» بين تميم ومعها ذبيان ، وعامر ومعها عبس و«طَخْفَة» بين دارم ويربوع . وكانت وثنية إلا نفراً قليلا تنصروا ، وهم يسمَّون فى الحيرة بالعباديين . ومن أشهر شعرائها الجاهليين أوس بن حَجَر وسلامة بن جَنْدل وعلقمة الفحل وعدى بن زيد العبادى ، ومن شعرائها فى صدر الإسلام عَبْدة بن الطبيب ومتمم

---

(١) انظر فى ترجمة الفرزدق الأغانى (طبع ساسى) ٢/١٩ وما بعدها وأخباره مع ابن الزبير وزوجه النوار فى أغانى (دار الكتب) ٩/٣٢٤ وما بعدها و واجع فيه الشعر والشعراء ١/٤٤٣ وابن سلام ٢٤٩ وما بعدها والموشح ص ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ١٩/٢٩٧ وخزانة الأدب ١/١٠٥ ومرآة الجنان لليافعى ١/٢٣٨ وأمالى المرتضى ٥٨١ وما بعدها . وله أخبار متفرقة فى الأغانى انظر الفهرس ، وراجع الإصابة ٥/٢٦٢٠ والطبرى ٤/١٨٠ وما بعدها و ص ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٢٨٣ ٣٠٦ والمبرد ص ٦٩ وما بعدها ، ١٢٨ ، ٢٠٨ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ والأمالى ٣/٥٣ وكذلك الاستيعاب لابن عبد البر ص ٤٦٩ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٦٥ والاشتقاق ص ٢٣٩ وما بعدها. وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة ، طبع بوشيه جزءاً كبيراً منه وأكمله هل . وطبع فى مصر وبيروت طبعات مختلفة ، أهمها طبعة الصاوى . ونشر بيفن كما قدمنا نقائضه مع جرير بشرح أبى عبيدة ، والديوان والنقائض جميعا فى حاجة إلى نشرة علمية محققة .

ابن نويرة . وقد دخلت فى الإسلام بعد فتح مكة ، وكانت من أسرع القبائل إلى الردة ، إذ ظهرت فيها متنبئة تسمى سجَاح . وتبعها كثيرون ، فجمع لها أبو بكر الجموع بقيادة خالد بن الوليد . وسرعان ما عادت تميم إلى الإسلام ، مستضيئة بنوره ، وشاركت مشاركة ضخمة فى فتوح إيران وخراسان . ونجدها بارزة فى معارك صِفِّين ، كما نجد فئات كثيرة منها تنضم إلى الخوارج فى زمن على بن أبى طالب ، ثم فيما تلاه من أزمنة ، وخاصة فى صفوف الأزارقة . وقد مرَّ بنا أنها تحالفت فى البصرة مع قيس ضد الأزد وربيعة ، وظهرت نتيجة هذا الحلف عقب وفاة يزيد بن معاوية ، فقد اصطدمت بالأزد ، وظلتا متنافرتين طول العصر لا فى البصرة فحسب ، بل أيضاً فى خراسان .

وكانت دارم تتشعَّب شعباً أهمها بنو فُقَيْم وبنو نَهْشَل وبنو مُجاشع ، وفى بيت نبيل من بيوت العشيرة الأخيرة وُلد الفرزدق وهو لقبٌ لقِّب به لجهامة وجهه وغلظه ، فإن الفرزدقة الخُبْزَة الغليظة التى يتخذ منها النساء الفَتوت . واسمه هَمَّام ابن غالب بن صَعْصعه بن ناجية بن عِقال ، وجميعهم فى ذروة الشرف والسيادة من دارم . وقد اشتهر جده صعصعة بأنه كان ممن فَدَى الموءودات فى الجاهلية ونَهى عن قتلهن ، ويقال إنه فَدى أربعمائة منهن ، وقيل دون ذلك ، ونوَّه الفرزدق فى شعره بهذه المكرمة لجده طويلا ، من مثل قوله :

أَبى أَحدُ الغَيْثين صعصعةُ الذى ... متى تُخْلف الجوزاءُ والنَّجْمُ يَمْطُرِ

أَجار بناتِ الوائدين ومن يُجِرْ ... على القَبْر يُعْلَمْ أَنه غيرُ مُخْفِرِ

وكان لصعصعة قيون منهم جُبَيْر وَوَقْبان ودَيْسم ، ومن ثَمَّ جعل جرير مجاشعا قيونا كذباً وبهتاناً . وصعصعة أحد من أتوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فى وفد تميم . وعلى نحو ما كان صعصعة عظيم القدر فى الجاهلية كان ابنه غالب فى الإسلام وأمه ليلى أخت الأقرع بن حابس ، وكان بحراً فياضاً ، ومما يروى من جوده السَّيَّال أن نفراً اختاروه بين طائفة من الأجواد يسألونهم ليعرفوا مدى جُودهم ، فما كاد يسمع مسألتهم حتى أعطاهم مائة ناقة دون أن يعرفهم . ويُروَى أن دارما ويربوعا أصابتهما سنة مجدبة ، فعقر لعشيرته ناقة ، وبادر سيد يربوع سُحيم بن وَثيل فصنع صُنعه ، فنحر عشرا من الإبل ، فنحر سُحَيْم مثله عشرا .

فلما رآه ينافسه نحرَ إبله كلها فى مكان يسمى صَوْءر ، وقيل إنها كانت مائة ، وقيل بل كانت أربعمائة . وافتخر الفرزدق بالحادثين كثيراً فى شعره . ولم يكن يتلفع بالشرف من قبل أبيه وحده فقد كانت أمه من أسرة شريفة من قبيلة ضبة . وكانت له أخت تسمى جِعِثْن ، وتصادف أن أحد أشرار بنى مِنْقر رآها فضرب بيده على نحرها . فصرخت ومضى ،وقد عيرَّ جرير الفرزدق بذلك كثيرا حتى لنراه يرميها بالفحشاء افتراء ، إذ كانت سيدة فاضلة .

وليس بين أيدينا ما يدل على السنة التى وُلد فيها الفرزدق ، وأغلب الظن أنه وُلد حوالى سنة عشرين للهجرة ، ففى أخباره أنه قال « : كنت أهاجى شعراء قومى وأنا غلام فى خلافة عثمان » وخلافته امتدت من سنة ثلاث وعشرين إلى خمس وثلاثين للهجرة . وفى أخباره أيضاً أن أباه قدَّمه إلى على بن أبى طالب بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ ، وقال له إن ابنى هذا شاعر ، فنصحه أن يعلِّمه القرآن .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق نشأ فى بيت كريم ، مآثره ومفاخره لاتُدْفَعُ ، وكان لذلك أثر عميق فى نفسيته إذ كان يعتدُّ بآبائه اعتدادا شديداً ، كما كان يعتد بعشيرته وقبيلته ، حتى إنه يُعَدُّ أضخم صوت لتميم فى هذا العصر ، وجعله ذلك يتمسك بمآثر أهله وكرمهم المسرف ، فإذا باع إبله نثر أموالها على الناس ، لينتسب فيهم ، وظل يُجير على قبر أبيه غالب ، على نحو ما كان أجداده يُجيرون . ولما توفِّى صديقه بشر بن مروان نحر ناقته على قبره كما كان يصنع الجاهليون . وأخلاقُ الفرزدق من هذه الناحية تتصل بالأخلاق الجاهلية، وبكل ما ينطوى فى هذه الأخلاق من إثم، فقد عُرف بفسقه وشربه للخمر التى حرَّمها الإسلام،وأيضاً بكل ما ينطوى فى هذه الأخلاق من عصبية وغلظة . وهو من هذه الناحية يمثِّل البدوى التميمى شديد الشكيمة الذى لا يدين بالطاعة للسلطان ، ولعله من أجل ذلك ظل طويلا بعيداً عن قصر بنى أمية فى دمشق، وكأنه كان يحسُّ أنه من أسرة لا تقل عن أسرة بنى أمية شرفاً وسيادة . ونرى هذا الإحساس واضحاً حين ألمَّ عم له يسمى الُحتات بمعاوية مع وفد من تميم ، فقد تصادف أن توفِّى قبل مغادرة الوفد دمشق، فأمر معاوية بأخذ ما كان أعطاه من مال،ولم يكد يسمع بذلك الفرزدق حتى نظم قصيدة فى معاوية يقول فيها :

فما بالُ ميراث الحُتات أخذتَه ... وميراثُ حَرْبٍ جامدٌ لك ذائبُهْ [١]

فلو كان هذا الأمرُ فى جــاهليَّةٍ ... علمتَ منِ المرءُ القليلُ حلائبه [٢]

ويقول بعض الرواة إن أول شعر قاله الفرزدق نظمه فى ذئبٍ ذهب بكبش من غنم لأهله ، وهو يستهلّه بقوله :

تلوم على أن صَبَّح الذئب ضَأْنَها ... فألْوَى بكبْشٍ وهو فى الرَّعْيِ راتعُ

وهى أبيات جيدة الصياغة . وفى أخباره كما مر بنا ما يدل على أنه نشأ حديد اللسان محبا للخصومات ، يهجو من حوله من قومه وغير قومه ، وكان ممن هجاهم وأسرف فى هجائهم بنو فُقَيْم وذلك أنهم خرجوا يطلبون دماً لهم فى قوم ، فصالحوا منه على دية ، فقال حين رجعوا :

لقد آبَتْ وفودُ بنى فُقَيْمٍ ... بِآلَمِ ما تؤوبُ به الوفودُ

ومضى يهجوهم هجاء كثيراً ، فاستغاثوا منه بالأشهب بن رُمَيْلة النَّهْشلى ، واستعر الهجاء والتفاخر بينهما ، حينئذ رفعوا أمره إلى زياد بن أبيه . وكان ذلك فى سنة خمسين للهجرة ، فطلبه ، وخافه الفرزدق ، فهرب منه متجهاً نحو البادية ، وأخذ يستجير ببعض شيوخ القبائل ، فأجاره قوم من بكر بن وائل ، وأعانوه على الفرار ، فولَّى وجهه نحو المدينة وعليها سعيد بن العاص من قِبَل معاوية ، وكان سيداً ممدَّحا ، فأمَّنه وأجاره ، ومدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

ترى الغُرَّ الجَحاجحَ من قريشٍ ... إذا ما الأمْرُ فى الحَدَثانِ غالا [٣]

قياماً ينظرون إلى سعيدٍ ... كأنَّهمُ يرون بِهِ هِـــلالا

وسمعه الحطيئة وهو ينشد سعيداً هذه القصيدة . فقال : هذا والله الشعرُ لا ما نُعلَّل به منذ اليوم . وبلغه أن زياداً رقَّ له وقال : لو أتانى لآمنته وأعطيته ، فقال فى كلمة :

دعـــانى زيادٌ للعطاءِ ولم أكنْ ... لآتيَهُ ، ما ساق ذو حَسَبٍ وَفْرا [٤]

(١) حرب : جد معاوية .

(٢) الحلائب : الجماعات وأبناء العم فى القبيلة .

(٣) الغر : جمع أغر وأصله أبيض الغرة ويريد به الشريف . الجحاجح : جمع جحجاح وهو السيد الكريم . الحدثان : حوادث الدهر ونوائبه . وغال : أصاب بشر .

(٤) الوفر : المال الكثير . وأراد التأبيد أى لا آتيه أبداً .

ومضى فى المدينة ينفق أيامه ولياليه فى اللهو والاختلاف إلى دور القيان، وذكر ذلك فى شعره بمثل قوله :

إذا شئتُ غنَّانى من العاج قاصفٌ على مِعْصَمٍ رَيَّان لم يَتَخَدَّدِ[1]

وقوله :

هما دلَّتانى من ثمانينَ قـامةً كما انقضَّ بازٍ أقْتَمُ الرِّيشِ كاسِرُه

وقد أتاه جرير كثيراً من هذه الثُّغْرة فى خلقه وسلوكه . وكان معاوية يجعل المدينة تارة لسعيد بن العاص وتارة لمروان بن الحكم، فَوَلِىَ مروان ، وكانت فيه شدة على أصحاب اللهو ، فترك الفرزدق المدينة إلى مكة ، وفى طريقه إليها أتاه نعى زياد فثابت إليه نفسه ، ومضى إلى البصرة ، وهناك وجد ابن عمه مسكينا الدارمىَّ يتفجَّع على زياد بمثل قوله :

رأيت زيادةَ الإسلام ولَّتْ جِهـارا حين ودَّعها زيادُ

فحنق عليه حنقاً شديداً، وهجاه بقصيدة يقول فيها :

أمسكينُ ! أَبكى اللهُ عينك إنما جَرَى فى ضلالٍ دمعُها فتحدَّرا

وهجاه مسكين، وأمسك الفرزدق عنه ، حتى لا يهْدم شطر حسبه . ونراه يمدح عبيد الله بن زياد ويوسع له فى مجالسه . ولا يفارقه شره ، فيهجو بنى مِنْقَر ، ويغضب لهم مُرَّة بن مَحْكان [2] شاعر بنى رُبيع التميميين وسيدهم ، فيهجوه وعشيرته بكلمة يقول فى تضاعيفها :

تُرَجِّى رُبَيْعٌ أن يجىءَ صِغـارُها بخيرٍ وقد أَعْيَا رُبَيْعاً كبارُهـا

ويشتعل بينهما الهجاء . وندخل فى فترة فتنة ابن الزبير ، وتتبعه العراق كما تبعته الحجاز، ويحدث أن يقتل مصعبٌ ابنَ محكان. ونرى الفرزدق فى هذه الأثناء

---

(١) أراد بالعاج أساور العاج . قاصف : من القصف وهو الجلبة ، يشير إلى وسوسة الأساور . ريان : ممتلىء . يتخدد : يتجعد .

(٢) انظر فى ترجمة مرة ابن سلام ص ٢٧٥ والشعر والشعراء ٢/٦٦٧ وأغانى (ساسى) ٢٠/٩ ومعجم الشعراء ص ٢٩٥ .

يدخل — كما مر بنا — مع جرير فى معركة الهجاء التى استمر شررها يتطاير حتى توفى ، والتى أورثتنا نقائضهما آنفة الذكر . وينشب شجار بين الفرزدق وبين زوجه النوار وهى ابنة أعين بن ضبيعة المجاشعى ، وكان قد تزوجها راغمة ، إذ خطبها خاطب من قريش فجعلته وليها ، فانتهز الفرصة ، وأشهد أنها جعلت أمرها إليه وأنه يتزوجها على مائة ناقة حمراء سوداء الحدق . فغضبت من ذلك وما زالت تغاضبه ، وادعت عليه طلاقاً ، ونازعته ، وخرجت إلى عبد الله بن الزبير ونزلت على زوجته خولة بنت منظور بن زبان الفزارى ، وتشفعت إليها . وتبعها الفرزدق فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فكان حمزة إذا أصلح شيئاً من أمر الفرزدق قلبته عليه خولة . فقال الفرزدق :

أما البنون فلم تُقْبَلْ شفاعتهم وشُفِّعَتْ بنتُ منظور بن زَبَّانا
ليس الشفيعُ الذى يأْتيك مُؤْتزرا مثلَ الشفيع الذى يأْتيك عُرْيانا

وأمرهما ابن الزبير أن يحتكما إلى عامله فى العراق فمضت معه النوار مغاضبة له ، ويقال : بل اصطلحا فى مكة ، غير أنها ظلت تشارُّه وتشاجره ؛ إذ كانت تكره كثيراً من أمره ، وكانت صالحة حسنة الدين . وخطب حدْراء بنت زيق بن بسطام الشيبانية وكانت نصرانية وأخذ يمدحها ويعرِّض بالنوار ، فاستغاثت منه بجرير ، فأغاثها وأخذ يهجو حدراء وقومها معها ، وتصادف أن ماتت حدراء قبل أن يبنى بها ، ويظهر أنه كان مزواجا ، فقد تزوج زنجية أعقب منها ابنته مكية ، وتزوج رهيمة النمرية وطيبة المجاشعية ، ونشزتا منه فطلقهما ، ومازالت النوار تغاضبه حتى طلقها وندم ندماً شديداً ، يقول فى كلمة له يصور ندمه :

ندمتُ ندامةَ الكُسَعِيِّ لما غَدَتْ منى مطَلَّقةً نَوارُ[1]
وكانتْ جَنَّةً فخرجتُ منها كآدم حين أَخرجه الضِّرار[2]

ويذكر ابن قتيبة أنه وُلد له لبطة وسبطة وخبطة وركضة من النوار ووُلد له أيضاً زَمْعة . وكان شاعراً وإن لم يبلغ مبلغ أبيه فى الشعر . وفى تسميته

(١) الكسعى : شخص يضرب به المثل فى الندم. (٢) الضرار : العصيان والمخالفة .

لأبنائه هذه الأسماء مايدل من بعض الوجوه على غلظ نفسه ولاشك فى أن فشله المبكر فى حياته الزوجية يدل على جفوته . ونراه مقرباً من بشر بن مروان الذى ولى العراق لأخيه عبد الملك ، حتى ليستثير الشعراء لمناقضة جرير وهجائه ، وفيه يقول :

يا بِشْرُ إنك سيف الله صِيلَ به   على العدو وغيثٌ يُنْبت الشَّجَرا

ووَلِىَ العراقَ الحجاجُ ، وكانت فيه قسوة ، فخشى بطشه ومضى يمدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

إن ابن يوسفَ محمودٌ خلائقهُ   سيانِ معروفهُ فى الناس والمطرُ
هو الشهابُ الذى يُرْمَى العدوُّ بهِ   والمشرفىُّ الذى تَعْصَى به مُضَر[1]

ونوّه طويلا بسيرته وقضائه على الرشوة والثوار وإقامته لموازين العدل . حتى إذا توفّى رثاه رثاء حارًّا ، يقول فيه :

ومات الذى يَرْعَى على الناس دينَهم   ويضربُ بالهنْدِىِّ رأْسَ المخالِف[2]

وسرعان ما نجده يثوب إلى نفسه وعصبيته التميمية ضد قيس وزعيمها الحجاج وخاصة حين رأى سليمان بن عبد الملك يلى الخلافة ، وكان أخوه الوليد حاول أن يخلعه من ولاية العهد ، ولجَّ معه الحجاج وولاته فى المشرق ، وتصادف أن توفّى الحجاج قبل خلافة سليمان ، فلما ولِىَ لم يكن له هم إلا عُمَّال الحجاج وثار عليه قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى بخراسان ، فقتلته تميم وردّت الأمر إلى نصابه . حينئذ نرى الفرزدق يهجو الحجاج ويقذع فى هجائه ، مستشعراً عصبية عنيفة لتميم . وكان يستشعر هذه العصبية دائماً إلا أن يُضْطرَّ اضطراراً للنزول عنها . وبتأثيرها نجده يشذ على ذوق مواطنيه ، فيهجو المهلب الأزدى السيد الجواد والفارس الشجاع الذى لهج الشعراء باسمه ، ويحاول ابنه يزيد حين صار إليه الأمر بعد أبيه أن يستقدمه إليه فى جرجان ، ليُضْفى عليه من نواله ، فيأبى قائلا :

---

(١) تعصى هنا : تضرب ، من العصا .   (٢) الهندى : السيف .

دعانى إلى جُرْجان والرَّىُّ دونه ... لآتَيهُ ، إنى إذنْ لزَءُورُ[1]

سآبى وتأبى لىَ تميمٌ وربما ... أبيتُ فلم يقدر علىَّ أمير

حتى إذا ولى يزيد العراق لعصر سليمان بن عبد الملك مضى يمدحه مسرفاً فى مديحه على شاكلة قوله :

إنى رأيتُ يزيدَ عند شبابِه ... لَبِسَ التُّقَى ومهابةَ الجبَّارِ

وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتهم ... خُضُعَ الرِّقاب نواكسَ الأَبصارِ

ودار الزمن فثار ابن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، وقضى على ثورته مسلمة تُعينه تميم وفارسها المغوار هلال بن أحوز المازنى الذى تعقب آل المهلب فى قندابيل وقضى عليهم قضاء مبرماً ، حينئذ نجد الفرزدق يفتخر بهلال وصنيع تميم ، هاجياً يزيد بن المهلب وأسرته هجاء مرا[2] .

وقد قلنا آنفاً إنه ظل طويلا لا يفد على قصر بنى أمية فى دمشق ، وأول من وفد عليه من خلفائهم سليمان بن عبد الملك ، وله يقول :

تركتُ بنى حَرْبٍ وكانوا أئمةً ... ومروانَ لا آتيه والمتخيِّرا

أباك وقد كان الوليدُ أرادنى ... ليفعل خيرا أو ليُؤْمن أَوْجَرا[3]

فما كنتُ عن نفسى لأَرحل طائعا ... إلى الشام حتى كنت أنت المُؤَمَّرا

ومنذ هذا التاريخ يصبح من شعراء بنى أمية الذين يدعون لهم ويدافعون عن خلافتهم ، مضْفين عليهم هالة قدسية من التقوى والبرّ ، تحفُّها المبالغة المسرفة من مثل قوله فى سليمان :

أنت الذى نعت الكتابُ لنا ... فى ناطق التوراة والزُّبْرِ

كم كان من قَسٍّ يخبِّرنا ... بخلافة المهدىِّ أو حَبْرِ

جعل الإلٰهُ لنا خلافته ... بُرْءَ القروح وعصمةَ الجَبْرِ

---

(١) زءور : كثير الزيارة .

(٢) الديوان ص ٥٧٥ .

(٣) الأوجر : الخائف .

وقوله فى يزيد بن عبد الملك ، ولهوُه ومجونه معروف :

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبىٌّ لهم منهم لأمر العزائم
لكنت الذى يختاره الله بعده لحَمْل الأَمانات الثِّقال العظائم
ورثتم خليلَ الله كل خِزانةٍ وكلَّ كتابٍ بالنبـوة قائم

ولعل فى هذه الأبيات ما ينقض قول من زعموا أنه كان شيعيًّا مائلا إلى بنى هاشم وإنهم ليسترسلون فى ذلك فينسبون إليه قصيدة فى على بن الحسين وهى القصيدة ذات البيت المشهور :

هذا الذى تعرف البَطْحاءُ وَطْأَتَهُ والبيتُ يعـرفه والحِلُّ والحَرَمُ

وقد أنكر أبو الفرج الأصبهانى نسبة القصيدة إليه(١)، والذى لا شك فيه أنها تخالف نَسجْه كما تخالف نفسيته إذ كان لا يتعصب لشىء سوى قبيلته وآبائه ، وقد مدح بنى أمية بأخرةٍ ، أما ولاة العراق فكان إذا خاف بطشهم مدحهم ، فإذا اطمأن وسكن روعه هجاهم ، وخاصة إذا أظهروا عصبية ضد تميم ، وممن أسرع إلى هجائه منهم عمر بن هبيرة الفزارى والى يزيد بن عبد الملك ، وفيه يقول :

أميرَ المؤْمنين وأنت عَفٌّ كريمٌ لستَ بالطَّبِع الحَرِيصِ(٢)
أَوليتَ العِراقَ ورافِديْهِ فَزاريًّا أَحـذَّ يدِ القميصِ(٣)

ووَلِىَ بعده خالد القسرى لهشام بن عبد الملك ، وكان شديد العصبية لليمنية ، وكانت أمه مسيحية ، فبنى لها كنيسة بالكوفة ، وسخَّر الناس فى شق نهر المبارك ، وانتهز الفرصة الفرزدق ، فأخذ يهجوه بالعملين جميعاً ، يقول :

بَنَى بيعةً فيها الصليبُ لأُمِّه وهـدَّم من كُفْرٍ منارَ المساجِد

ويقول

أَهلكتَ مالَ الله فى غير حقِّه على نَهْرك المشئوم غير المبارَكِ

(١) أغانى (ساسى) ١٤/٧٥ .
(٢) الطبع : اللئيم الدنىء .
(٣) أحذ : سريع ، يصفه بالسرقة وأنه غير أمين على أموال الأمة .

وأمر خالد صاحب شرطته مالك بن المنذر بن الجارود أن يحبسه ، فألقى به فى السجن ، فانقلب يستعطف مالكاً وخالداً وهشام بن عبد الملك وبعض مقربيه من الكلبيين بمدائح كثيرة ، واستعان بخصومه من القيسية وأعانه شاعرهم جرير . وتصادف أن حجّ خالد وأناب عنه أخاه أسدا ، فردّ إليه حريته ، ومن ثم نراه يمدحه مدائح كثيرة .

وكل شيء يؤكد أنه أناب إلى ربه فى سنيه الأخيرة فقد أخذ يندم على ما اقترف من آثام ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته فى إبليس ، وفيها يقول :

أطعتكَ يا إبليسُ سبعين حِجَّةً ... فلما انتهى شَيْبى وتمَّ تمامى

فَرَرْتُ إلى ربى وأيقنت أننى ... مُلاقٍ لأيام المَنون حِمامى

وأخيراً وافاه القدر سنة ١١٤ للهجرة .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق أمضى حياته فى المديح والهجاء ، وهو فى مديحه يتخلف عن الأخطل وجرير جميعاً لما قدمناه من خشونة نفسه وصلابتها ، وهو كذلك يتخلف عن جرير فى الهجاء ، لأن نفس جرير كانت محملة بمرارة مسرفة . إذ لم يكن له ما للفرزدق من شرف المحْتِد ، فكان ينصبُّ عليه وعلى غيره من مهجويه كالصقر الجارح . وهذه النفس الخشنة الصلبة للفرزدق جعلته لا يبرع فى الغزل ، يقول الجاحظ : « وهذا الفرزدق وكان مستهتَراً بالنساء وكان زيرَ غَوانٍ وهو فى ذلك ليس له بيت واحد فى النسيب مذكور ، ومع حسده لجرير . وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا »[١] . وكان جرير يتقدمه كذلك فى الرثاء ، إذ كانت نفسه لينة رقيقة . والموضوع الذى يتفوق فيه الفرزدق على الأخطل وجرير ، بل على جميع شعراء عصره ، هو الفخر ، إذ كان يعتدُّ بآبائه وقبيلته اعتداداً لاحد له ، ومن ثم بلغ فى الافتخار بهما الغاية القصوى على شاكلة قوله :

وكُنَّا إذا الجبَّارُ صعَّرَ خَدَّه ... ضربناه حتى تستقيم الأخادعُ[٢]

---

(١) البيان والتبيين ٢٠٨/١ .

(٢) صعر خده : أماله كبراً وغطرسة . الأخادع : جمع أخدع وهو العرق البارز فى صفحة العنق . واستقامة الأخادع كناية عن الخضوع والذل .

وقوله :

ترى الناس ماسرْنا يسيرون خَلْفَنا　　وإن نحن أَوْمَأْنا إلى الناس وقَّفوا[١]

وقوله :

إن الذى سَمك السماءَ بنى لنا　　بَيْتاً دعائمُهُ أَعزُّ وأَطولُ[٢]

حُلَلُ الملوك لِباسُنا فى أهلنا　　والسّابغاتِ إلى الوَغَى نتَسَرْبَلُ[٣]

أَحلامُنا تَزِنُ الجبالَ رزانةً　　وتخالنا جِنًّا إذا ما نَجْهلُ[٤]

فادْفَعْ بكفِّك -- إن أَردت بناءَنا --　　ثَهلانَ ذَا الهضباتِ هل يتَحلْحَلُ[٥]

والحق أن الفرزدق كان نبعاً كبيراً من ينابيع الشعر ، وهو نبع كان يتدفق من نفس صَلْبة ، ولعل ذلك ما جعل الالتواء والشذوذ يكثر فى أساليبه ، من مثل قوله المشهور فى مديح إبراهيم بن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك :

وما مثلُه فى الناس إلا مُمَلَّكاً　　أَبو أُمِّه حىٌّ أَبوه يُقاربُهْ

فإن البيت لا يُفْهَمُ إلا إذا رتبنا كلماته ترتيباً طبيعيًّا على هذا النحو : « وما مثله (الممدوح) فى الناس حىٌّ يقاربه إلا مملكا أو ملكاً (هو هشام بن عبد الملك) أبو أمه أبوه . وكان يضيف إلى ذلك شواذ نحوية كقوله :

وعَضُّ زَمانٍ يابنَ مَرْوان لم يَدَعْ　　من المال إلا مُسْحَتاً أَو مُجَرَّف[٦]

وكان القياس أن يقول مجرفاً بالنصب ، ولكنه رفع على الاستئناف تمشيا مع رَوِىِّ قصيدته . وكان ابن أبى إسحق الحَضْرمى يراجعه فى ذلك ومثله كثيراً ، فكان يَسْخر منه . وقد عدّه اللغويون أحد مصادر اللغة ، حتى قالوا : « لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب » ومن ثَمَّ دارت أشعاره فى كتب اللغويين والنحاة كما دارت فى كتب التاريخ والأخبار لحديثه عن أيام العرب ومناقبهم ومثالبهم

---

(١) وقفوا : وقفت ركائبهم لا يتقدمون .

(٢) سمك : رفع .

(٣) السابغات : الدروع الكاملة . نتسربل : نلبس . .

(٤) نجهل هنا : نغضب حمية . .

(٥) ثهلان : جبل . يتحلحل : يتحرك .

(٦) المسحت والمجرف : المهلك المستأصل .

حتى قالوا : « لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس » . وواضح مما قدمنا أن شعره لا يشتبك بأحداث البصرة وحدها ، بل يشتبك أيضاً بأحداث الخوارج وأحداث خراسان . وله مدائح وأهاج مختلفة فى ولاتها وولاة فارس ، أمثال عبيدالله بن أبى بكرة والجراح الحكمى وعمرو بن عبيدالله بن معمر والجنيد ابن عبد الرحمن المرى ، وقد نوه طويلا بأسد بن عبد الله القسرى وهلال بن أحوز المازنى . وأشعاره رغم فسقه مطبوعة بروح الإسلام ، فهو يكثر فيها من ذكر الصلاة والتقوى والبعث والحساب ، كما يكثر من الإشارة إلى قصص الأنبياء ، وهو يضمن ذلك مدائحه وأهاجيه جميعاً . وتمتاز أساليبه بجزالة اللفظ وقوة الرصف ، مما جعل تراكيبه ضخمة ، وهو ضخم ناشئ من طوايا نفسه الضخمة الصلبة التى قلما تعرف الرقة واللين .

٦

جرير [١]

شاعر تميمى من عشيرة كليب اليربوعية ، ولم يكن لآبائه ولا لعشيرته ما لآباء الفرزدق وعشيرته مجاشع من المآثر والأمجاد ، أما العشيرة فعرفت بأنها كانت ترعى الغنم والحمير . وقد دعا ذلك جريراً إلى أن يرتفع بفخره إلى يربوع وكان لها أيام كثيرة فى الجاهلية ، فأشاد بأيامها وفرسانها طويلا .

وكان أبوه عطية متخلفا فى المال مبخَّلا ، أما جده الخطفى فكان كثير المال من الغنم والحمير ، وقد أتاه من قبله الشعر ، ومما يروى من شعره قوله :

عجبتُ لإزراءِ العَيِىِّ بنفسهِ وصَمْتِ الذى قد كان بالقول أعْلَما
وفى الصمت سترٌ للعَيِىِّ وإنما صحيفةُ لُبِّ المرءِ أن يتكلما

(١) انظر فى ترجمة جرير الأغانى (طبع دار الكتب) ٨/٣ وما بعدها والشعر والشعراء ٤٣٥/١ وابن سلام ص٣١٥ والموشح للمرزبانى ص ١١٨ وخزانة الأدب ٣٦/١ والعينى ٩١/١ وراجع فهارس الكامل للمبرد والبيان والتبيين — وانظر ذيل الأمالى ص٤٣ والطبرى ٢٦٧/٥ ، ٢٧٣ وراجع فهرس الأغانى فى مواضع متفرقة والاشتقاق ص ٢٣١ وما بعدها . وقد نشر ديوانه فى القاهرة سنة ١٣١٣ للهجرة ونشره الصاوى بتعليقات مختصرة عن مخطوطة تتصل روايتها بابن حبيب . ونشر بيفن نقائضه مع الفرزدق بشرح أبى عبيدة ، ونشر صالحانى نقائضه مع الأخطل برواية أبى تمام .

وكانت أمه تسمى أم قيس ، وهى من نفس عشيرته ، وقد ولدتْ جريراً فى بادية اليمامة حوالى سنة ثلاثين للهجرة ، وكان له أخوان هما عمرو وأبو الورد ، كانا ينظمان الشعر .

فجرير إن لم يكن نشأ فى بيت مجد فقد نشأ فى بيت شعر ، وظل الشعر يُتوارث فى أبنائه ، وأشعرهم بلال . وحفيده عُمارة من الشعراء المشهورين فى العصر العباسى ، وعنه أخذ الرواة شعر جَدِّه وأكثر أخباره ، ويقول ابن قتيبة كان لجرير عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور .

ويظهر أن موهبة جرير الشعرية تفتحت مبكرة ، وقد وَجَد فى جَدِّه الخطَفى خير من يلقِّنه الشعر ، ويقال إن من أوائل ما نظمه مما رواه له الرواة أبياتاً عاتبه بها ، وذلك أنه كان ذا مال كثير ، وكان يَنْحلُ أبناءه وأحفاده من ماله ، فاستنحله جرير ، فأعطاه بعض ماله ، ثم رجع فيه ، وقيل بل أعطاه قليلا فاستزاده فلم يزده ، فتسخَّطه ، ونظم فيه طائفة من الأبيات يعاتبه بها ، وقد وصلها بعد ذلك بسنوات بأبيات نظمها فى الفرزدق وغَسَّان السليطى ، وفيها يقول معاتباً جدّه :

وإنى لمغرورٌ أُعلَّلُ بالمُنَى ليالىَ أرجو أنَّ مالك مَالِيا

وإنى لعَفُّ الفقر مُشْتَرَكُ الغِنى سريعٌ - إذا لم أرض دارى - انتقاليا

ويقال إنه وفد بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية وهو خليفة ، فأنشده هذه الأبيات ، فقال له : كذبت إنها لجرير ، فقال له : أنا جرير . ومن قوله فيها :

وليستْ لسيفى فى العظام بقيَّةٌ وللسَّيْفُ أشوَى وقعةً من لسانيا

وواضح أنه يجعل لسانه أقطع من السيف ، فالسيف إنما يقطع الشَّوَى أى الأطراف ، فيُبْقِى على من طعنه ، أما لسانه فلا يُبْقِى بقية فيمن يطعنه . وهو استهلال لحياته الشعرية ، يدل على أنه مقتحم بها فن الهجاء ، وقد ظل يجول ويصول فى هذا الفن منذ خلافة يزيد إلى وفاته سنة ١١٤ إذ توفى بعد الفرزدق بنحو ستة أشهر . ونراه يهاجى غَسَّاناً السَّليطى ، ويعينه البَعِيث ، فيطعنه ويطعن نساء عشيرته مجاشع طعنات نجلاء ، فيُضْطَرُّ الفرزدق أن ينازله ،

ويحتدم بينهما الهجاء طوال حياتهما ، ويقال إنه ظل يهجوه وهومقيم بالمَرُّوت من بادية اليمامة بضع سنوات . فأرسلتْ بنو يربوع إليه : إنك مقيم بالمروت ، ليس عندك أحد يَرْوِى عنك . والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك . فانحدرَ إلى العراق ، فأقام بالبصرة ، منشدا :

وإذا شهدتُ لثَغْرِ قومى مشهدًا آثَرْتُ ذاك على بَنِىَّ ومالى

ويظهر أن إقامته بالبصرة بدأت مع دخول العراق فى طاعة ابن الزبير إذ نجد واليه الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة الملقب بالقُباع (٦٥ — ٦٦هـ) يأمر — حين رآه يتواقف مع الفرزدق بالمِرْبَد — صاحب شرْطته عبَّاد بن الحُصَيْن بهدم داريهما ، فيهدم الدارين جميعاً ويطلبهما ، وفى ذلك يقول الفرزدق :

أَحارثُ دارى مرَّتين هدمتها وكنتَ ابن أُختٍ لا تُخاف غَوائله

ويقول جرير :

وما فى كتاب الله هَدْمُ بيوتنا كتهديم ماخورٍ خبيثٍ مَداخِلُهْ

ولم يتهاج جرير مع الفرزدق وحده ، فقد تهاجى — كما أسلفنا — مع كثير من الشعراء ، ويقول صاحب الأغانى نقلا عن الأصمعى إنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً ، فينبذهم وراء ظهره ، ويرمى بهم واحداً واحداً ، ويقول فى موضع آخر إنه كان يهاجيه ثمانون شاعراً غلبهم جميعاً وكان يقول : إنهم يبدءوننى ثم لا أعفو ، كما كان يقول : إنى لا أبتدئ ولكن أعتدى ، ويُرْوَى أن الراعى سمع راكباً يتغنى :

وعاوٍ عَوَى من غير شىء رميتُه بقافيةٍ أَنْفاذُها تقطر الدِّما[1]
خَروجٍ بأَفواه الرُّواة كأَنها قَرَا هُنْدُوَانىٍّ إذا هُزَّ صمَّما[2]

---

(١) أنفاذ : جمع نفذ وهو الكلم الذى تحدثه الطعنة .

(٢) خروج : كثيرة الخروج ؛ يريد أنها كثيرة الإنشاد . قرا : متن وظهر . الهندوانى : السيف ؛ كانوا يجلبون سيوفهم الجيدة من الهند . صمم : قطع اللحم وبرى العظم .

فسأل عن صاحب البيتين ، فقيل له جرير ، فقال : والله لو اجتمع الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئاً ، هل أُلام على أن يغلبني مثل هذا الشاعر ؟ . وكان لا يزال بخصومه يطعنهم طعنات مسمومة فى نساء عشائرهم ، كقوله فى نساء عشيرة سُراقة البارقى ، وكان ممن رفعوا الفرزدق عليه :

يُعْطَى النساءُ مهورهن كرامةً ونساءُ بارقَ مالهن مهورُ

ولم يثبت له — كما أسلفنا — سوى الفرزدق والأخطل ، وثبت له عمر بن لجأ التَّيْمى إلى حين ويقال إنهما وفدا على المدينة ، وعليها عمر بن عبد العزيز ، وقيل ابن حزم ، وتصادف أن حجَّ الوليد بن عبد الملك ، فسمع بأنهما يتهاجيان ، فأمر بأن يُضْرَبا تأديباً ، فضُربا وأقيما على البُلُس[1] مقرونين . وعادا إلى العراق ، وجرير يرميه وعشيرته بمثل قوله :

قومٌ إذا حضَر الملوكَ وفودُهم نُتِفتْ شواربهم على الأَبوابِ

واستغاثت تَيْمٌ بجرير وتوسلت إليه وتضرَّعت أن يكفَّ عنها ، فكفَّ بعد أن ثَلَبَها وشاعرها ثلباً قبيحاً . وويل للعشيرة التى كانت تتعرض له ، روى الرواة أن الفرزدق أتى مجلس بنى الهُجَيْم فى مسجدهم ، فأنشدهم ، وبلغ ذلك جريرا ، فأتاهم من الغد لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق ، فتعرض له شيخ منهم قائلا له : اتَّقِ الله ، فإن هذا المسجد بُنِى لذكر الله والصلاة ، فانصرف عنهم مغضباً ، وهو يقول :

إن الهُجَيْمَ قبيلةٌ ملعونةٌ حُصُّ اللِّحَى متشابهو الأَلوانِ[2]
لو يسمعون بأَكلةٍ أَو شَرْبَةٍ بعُمان أَصبح جمعهم بعُمان
متوركين بنيهمُ وبناتِهم صُعْرَ الأُنوفِ لريح كلِّ دُخانِ[3]

---

[1] البلس : غرائر كبار تحشى تبناً ، كان يرفع عليها الجناة تشهيراً لهم وتأديباً .

[2] الأحص : قليل الشعر فى ذقنه وعارضيه .

[3] متوركين : يريد أنهم يحملون بناتهم وبنيهم ويذهبون يسألون بهم . صعر : جمع أصعر وهو الذى ينظر بوجهه لاوياً عنقه .

وظل جرير إلى أوائل عصر الحجاج (٧٥ — ٩٥هـ) لا يعرف من الشعر سوى الفخر والهجاء وما يقدّم لهما من الغزل ووصف الصحراء، حتى إذا أظلّه هذا العصر ، وصار حكم العراق لقيس وصاحبها الحجاج رأيناه يَقْدم على صهره وابن عمه الحكم بن أيوب الثقفى نائبه على البصرة ، فيمدحه برجز ، يقول فيه :

خليفة الحجَّـاج غير المتَّهَمْ فى مَعْقِدِ العِزِّ وبُؤْبُؤِ الكَرَمْ[١]

واستنطقه فأعجبه ظَرْفه وشعره ، فكتب إلى الحجاج يخبره عنه، فكتب إليه أن ابعثْ به إلىَّ، فقدم عليه ، فأكرمه . وسرعان ما عاش له جرير يمدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النفـاق عليكمُ أم مَنْ يصولُ كصولة الحَجَّاجِ[٢]
أَم من يَغَارُ على النِّساءِ حفيظةً إذ لا يَثِقْنَ بغَيْرةِ الأَزواجِ[٣]
إنَّ ابنَ يوسف فاعلموا وتيقَّنُوا ماضى البصيرة واضحُ المِنْهاجِ
ماضٍ على الغَمرات يُمْضى همَّهُ والليلُ مختلفُ الطرائق داجِى[٤]
منع الرُّشا وأَراكمُ سُبُلَ الهُدَى والِّلصَّ نكَّله عن الإِدْلاجِ[٥]
وإذا رأَيتَ منافقين تخيَّروا سبلَ الضَّجاج أَقمتَ كلَّ ضجاجِ[٦]
داويتَهم وشفيتَهم من فتنةٍ غبراءَ ذاتِ دواخنٍ وأُجاجِ[٧]
ولقد كسرتَ سِنانَ كلِّ منافقٍ ولقد منعتَ حقائبَ الحُجَّاجِ

وهو يمدحه بالصفات التى يجلُّها العرب من قديم، وبصفات أخرى تتصل بسياسته وولايته للعراق ، إذ يقول إنه سد ثغور النفاق ، مع شجاعة فائقة ومحافظة على الذمام . ويقول إنه نافذ البصيرة واضح السياسة ، يعرف كيف يخرج من الغمرات والشدائد ، ويصوِّر كيف أقام العدل فى الناس ومنع

---

(١) بؤبؤ : أصل .
(٢) المطلع : المنفذ من أعلى ، أو المصعد .
(٣) الحفيظة : الغضب .
(٤) الغمرات : الشدائد . داجى : مظلم .
(٥) الإدلاج : السير ليلا .
(٦) الضجاج : الباطل .
(٧) الأجاج هنا : من أجة النار . والدواخن : جمع داخن وهو الدخان

الرشوة وقضى على اللصوص وقُطَّاع الطريق فى الليل المدلهم . ويقول إنه قوَّم كل مائل وباطل ، وإنه داوى النفوس المريضة وحطم أسنة المنحرفين عن الدولة ولم يعد هناك أحد ممن يعيثون فى الأرض فسادا . ويقضى الحجاج على ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢ فينوِّه بانتصاره عليه قائلا :

دعا الحجَّاجُ مثلَ دُعاءِ نوحٍ ... فأَسمع ذا المَعارج فاستجابا [١]

صبرتَ النفسَ يابن أَبى عَقيلٍ ... محافَظةً فكيف ترى الثَّوابا

ولو لم يَرْضَ ربُّك لم ينزِّلْ ... مع النَّصْر الملائكة الغِضابا

إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ ... رأَى الحجَّاجَ أَثْقَبَها شهابا

وكان عبد الملك بن مروان فى دمشق يفسح فى مجالسه للأخطل شاعر تغلب النصرانى ، ويُنْقَلُ إليه شعر جرير فى الحجاج فيَغْبِطُه عليه لروعة شعره ومهارته فى المديح . ورأى الحجاج أن يُهديه إليه ، ووجد عند جرير رغبة صادقة فى أن يَمْثُلَ بمديحه بين يديه ، فصحبه معه فى وفادته التى وفدها على عبد الملك ، ويقال : بل بعث به إليه مع ابنه محمد ، فأذن له فى النشيد ، فبدأ فأنشد مدائحه فى الحجاج واحدة بعد واحدة ، ثم أنشده قصيدته التى يقول فى استهلالها :

تعزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثم قالتْ ... رأَيتُ المُوردين ذوى لِقاحِ [٢]

تعلِّل ، وهْىَ ساغبةٌ ، بَنيها ... بأَنْفاسٍ من الشَّبِمِ القَراحِ [٣]

سأَمتــاح البحورَ فجَنِّبينى ... أَذاةَ اللوم وانتظرى امتياحى [٤]

وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فقال

وإنى قد رأَيتُ علىَّ حَقًّــا ... زِيارتىَ الخليفَــة وامتداحى

أَلستم خيْرَ من ركب المطايا ... وأَنْدَى العالمين بطونَ راحِ [٥]

---

(١) كان دعاء نوح : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) ذو المعارج : الله جل جلاله .

(٢) الموردون : أصحاب الإبل يوردونها الماء . ولقاح : جمع لقحة وهى الناقة فى أول نتاجها . أم حزرة : إحدى زوجاته .

(٣) تعلل أبناءها : تشغلهم . ساغبة : جائعة . النفس من الماء : الجرعة . الشبم : البارد . القراح : الصافى .

(٤) أمتاح : أستقى من الميح وهو العطاء .

(٥) أندى : أجود .

ولم يلبث أن أخذ يهاجم من ثار على عبد الملك مثل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص . ووقف عند عبد الله بن الزبير يصوِّر فتنته وكيف قضى عليه عبد الملك قضاء مبرماً . ومضى يمدح عبد الملك وأسرته وأنهم الجديرون من بين القرشيين بالخلافة ، منوها بانقياد الأمة له واجتماعها تحت لوائه ، يقول :

وقـــومٍ قد سموتَ لهم فدانوا بِدَهْمٍ فى مُلَمْلَمـــة رَدَاحِ [(١)]
أبحتَ حِمَى تهـامةَ بعد نَجْدٍ وما شىءٌ حميتَ بمستباح [(٢)]
دعــوتَ المُلْحدين أبا خُبَيْبٍ جِماحًا ، هل شفيتَ من الجماح [(٣)]
فقــد وجدوا الخليفة هِبْرِزِيًّا ألفَّ العِيصِ ليس من النواحِى [(٤)]
فما شجراتُ عِيصِك فى قُرَيْشٍ بِعَشَّات الفروع ولا ضَواحى [(٥)]
رأى الناسُ البصيرةَ فاستقاموا وبَيَّنَتِ المِراضُ من الصِّحاح [(٦)]

وأُعجب عبد الملك بجرير إعجاباً شديداً فأعطاه مائة من الإبل وثمانية من الرعاة ومِحْلباً من فضة . وجرير فى هذه القصيدة ليس مادحاً فحسب ، بل هو محام عن عبد الملك وحكمه ، يدافع عن حقه فى الخلافة ، ويهاجم خصومه هجوماً عنيفاً ، وقد مضى بقية حياته يقرر فى مدائحه لعبد الملك ومن خلفوه حقهم فى الخلافة على الناس ، وهو من هذه الناحية يُعَدُّ شاعراً سياسياً بالمعنى التام ، شاعراً يحامى عن نظرية الأمويين فى الحكم ويناضل عنهم وما يزال يسدِّد سهامه إلى خصومهم ، وهو فى تضاعيف ذلك يحفُّهم بإطار رائع من التقوى والعمل الصالح ، مقرراً أن شيعتهم على الحق ، وأن من يخالفهم من الشِّيَع أهلُ باطل وضلال وأهواء وبِدَعٍ ، يقول فى عبد الملك :

لولا الخليفةُ والقرآنُ نقرؤهُ ما قام للناسِ أحكامٌ ولا جُمَعُ

(١) دانوا : أطاعوا . الدهم : الجيش الكثير . ململمة : مجتمعة . رداح : ضخمة . يقصد من ثاروا عليه .

(٢) يريد عبد الله بن الزبير وغلبة عبد الملك على ما كان فى يديه من نجد والحجاز .

(٣) أبو خبيب : ابن الزبير : الجماح : العناد والخلاف .

(٤) هبرزيا : نافذاً فى الأمور ماضياً . ألف : ملتف . العيص : الشجر . يريد أنه فى صميم العز وليس فى نواحيه .

(٥) الشجرة عشة الفروع : دقيقة الأغصان . والضاحية : بادية العيدان ولا ورق عليها .

(٦) بينت : تبينت .

أنت الأَمين أَمينُ الله لا سَرِفٌ ... فيما وَليتَ ولا هَيَّابةٌ وَرَعُ[1]

أَنت المباركُ يَهدى اللهُ شِيعتَه ... إذا تفرَّقتِ الأَهواءُ والشِّيَعُ

فكلُّ أَمر على يُمْن أَمرتَ به ... فينا مُطاعٌ ومهما قلتَ مُسْتَمع

يا آلَ مروان إن الله فَضَّلكم ... فَضْلاً عظيما على مَنْ دينُه البِدَع

وواضح أنه يُزْرى على أصحاب الأهواء الذين يحادّون بنى أمية من الزبيريين والخوارج والشيعة ، ويسميهم أهل بدع وضلالة . ويتوفّى عبد الملك ، فيلزم ابنه الوليد ، ويظهر أنه كان يجفوه فى أول الأمر ، فقد مرّ بنا أنه أمر واليه على المدينة أن ينزل به وبابن لجـأ عقوبة صارمة . غير أن هذا لم يَصْرف جريرا عنه ، فقد كان يلمّ به فى دمشق ، وكان يراه يقرّب عدىَّ بن الرِّقاع ، فهجاه ، وحاول أن يستثيره ، ولكن عديا آثر العافية . واستطاع جرير أن ينفذ إلى الوليد وأن يقع منه بعد ذلك موقعاً حسناً بما دبَّجه فيه من مدائح رائعة على شاكلة قوله :

إنَّ الوليدَ هو الإمامُ المصطفى ... بالنَّصْر هُـزَّ لواؤُه والمغْنَمِ

ذو العرش قَدَّر أن تكون خليفةً ... مُلِّكْتَ فاعْلُ على المنابر واسْلَمِ

ونراه يلزم ابنه عبد العزيز ، ويقدم له مدائح كثيرة . حتى إذا عزم الوليد على تنحية سليمان أخيه عن ولاية العهد وتوليتها عبد العزيز رأيناه يَحْطب فى حبله بمثل قوله :

إذا قيل أَىُّ الناس خيرٌ خليفةً ... أَشارتْ إلى عبد العزيز الأَصابعُ

وسرعان ما تتطور الظروف ، ويتوفّى الوليـد ويتولى سليمان ، فيفـد عليه مادحاً ، محاولا أن يستنزل عطفه عليه ، بما يصوِّر من تقواه ومن عدله وكيف أطلق مَنْ سَجنهم الحجاجُ وكيف ردّ مظالمه عن أهل العراق وأحسن

---

(١) الهيابة : الجبان وكذلك الورع بفتح الراء .

إلى الناس ، وهو فى تضاعيف ذلك ينوِّه بأن الله اختاره للأمة ناعتاً له بأنه المهدى المنتظر ، يقول [١] :

سليمانُ المبارك قد علمتم — هو المهدىُّ قد وضح السبيلُ
أجرتَ من المظالم كلَّ نَفْس — وأدَّيتَ الذى عَهِدَ الرسولُ
صَفَتْ لك بيعةٌ بثبات عَهْد — فَوزْنُ العَدْلِ أصبح لا يميل
وتدعوك الأَرامِلُ واليتامى — ومن أمسى وليس به حَوِيلُ [٢]
ويدعوك المكلَّفُ بعد جَهْدٍ — وعانٍ قد أضرَّ به الكبُول [٣]

ونراه يمدح ابنه أيوب ، ويرشحه لولاية العهد . غير أن سليمان رأى أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان يتأله فى دينه ويزهد فى الدنيا ، فأوصد أبوابه من دون الشعراء سوى جرير ، وكأنه قرَّبه لما عرف فيه من عفته وحسن دينه ، ومعرفتُه به ترجع إلى أيام ولايته على المدينة ، وله فيه مدائح مختلفة ، يصوِّر فيها تقواه وأن الله اصطفاه للناس من مثل قوله :

أنت المبارك والمهدىُّ سِيرتُه — تَعْصِى الهوى وتقوم الليل بالسُّوَرِ
نال الخلافةَ إذ كانتْ له قَدَرًا — كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

ويشير إلى سياسة عمر فى طرْح العشور عن الرعية وكل ما كان يُجْبَىَ منها غير الخراج [٤] ، فيقول فى مدحة أخرى :

إن الذى بعث النبىَّ محمَّدًا — جعل الخلافة فى الإمام العادلِ
ولقد نفعتَ بما منعتَ تحرُّجاً — مَكْسَ العُشور على جسور الساحل [٥]

---

(١) جرير هنا يرسم فعلا سياسة سليمان فإنه لما ولى الخلافة أطلق الأسارى وأهل السجون وأولى الناس بإحسانه . انظر الطبرى ٣٠٤/٥ وراجع ميمية الفرزدق التى نظمها فى قتل قتيبة بن مسلم ، وقد تحدثنا عنها فى الكلام على النقائض .

(٢) حويل : حيلة وقوة .

(٣) المكلف بعد جهد : الذى كلف فوق طاقته . والعانى هنا : السجين . والكبول : القيود . وهو يشير هنا فى وضوح إلى عسف الحجاج وظلمه ؛ غير أنه لم يتناوله بالهجاء على نحو ما صنع الفرزدق فى ميميته .

(٤) انظر الطبرى ٣٢١/٥ .

(٥) موضع المكس حيث طريق المارة فى قنطرة أو جسر .

وسرعان ما توفِّى عمر ، فندبه ندباً حارًّا ، يصور فجيعة الأمة فيه حتى ليقول إن الشمس تبكيه مدى الدهر :

تَنْعَى النُّعاةُ أَميرَ المؤمنين لنـــا   يا خيرَ مَنْ حَجَّ بيتَ الله واعتمرا
حُمِّلْتَ أَمرًا عظيما فاصطبرتَ له   وقمتَ فيه بأَمر الله يا عُمَرَا
فالشمس كاسفةٌ ليستْ بطالعةٍ   تبكى عليك نجومَ الليل والقمرا[١]

ويتولَّى يزيد بن عبد الملك ، ويثور عليه فى العراق يزيد بن المهلب ، ويَقْضى على ثورته مسلمة ، ويصيح به جرير مراراً فى قصائد مدح بها يزيد ابن عبد الملك ، بنفس الصورة المثالية التى صور بها سابقيه من الخلفاء ، من مثل قوله :

زان المنابرَ واختالتْ بمنتجَبٍ   مثبَّتٍ بكتاب الله منصورِ

ويصفه بالعدل وأنه ورث الملك عن آبائه بعهد منهم . ودائماً ينوِّه فى مديحه لهم بهذا العهد ، فليست الخلافة عامة فى الأمة ولا فى قريش ، بل هى وراثية فى بنى أمية تتوالى فيهم بعهود موثقة . وآخر من مدحهم منهم هشام بن عبد الملك ، وفيه يقول فى آخر قصيدة مدحه بها ، وقد أرسلها إليه مع ابنه عكرمة :

إلى المهدىِّ نَفْزَع إن فزعنا   ونستسقى بغُـــرَّتِـه الغَماما
وحَبْـــلُ الله يَعْصمكم قُوَاه   فلا نَخْشَى لعُرْوته انفصاما[٢]

ومدح جرير بجانب الخلفاء كثيراً من أبنائهم ، فهو يمدح مسلمة بن عبدالملك وعبد العزيز بن الوليد وأخاه العباس وأيوب بن سليمان ومعاوية بن هشام ، ودائماً ينوِّه بالأسرة وأن الله اختارها للأمة ، فإذا قلنا بعد ذلك إنه عاش منذ عرفَ عبد الملك داعية للأمويين لم نكن مبالغين . وليس له فى سواهم إلا مدائح قليلة فقد مدح الحجاج وصهره الحكم بن أيوب كما قدمنا ، ومدح خالداً القسرى مستشفعا للفرزدق كى يُطْلقه ، ومدح بعض أشراف قيس وتميم مثل المهاجر بن

---

(١) يريد بقوله نجوم الليل والقمر أبد الآبدين .

(٢) قوى الحبل : طاقاته .

عبد الله الكلابى والجُنَيْد بن عبد الرحمن المُرِّى وهلال بن أحْوز المازنى الذى نكّل بآل المهلب فى ثورتهم . ويظل أضخم صوت فى ديوانه تغنّى به مادحاً صوته فى الأمويين . ولعل فيما قدمنا ما يدل على أنه لم يكد يلم بهذا الفن من فنون الشعر حتى برّز فيه على أقرانه ، وبدون شك كان يسبق فيه الفرزدق ، وفى رأينا كما قدمنا أنه كان فيه مع الأخطل فرسى رهان ، بل لقد كان يتقدمه فى كثير من الأحيان بعذوبة لفظه ، وأيضاً بما كان يضع حول ممدوحيه من إطار الإسلام ومثاليته الكريمة .

ودائماً يتقدم جرير الأخطلَ والفرزدق جميعاً فى الموضوعات التى تتطلب دقة فى الإحساس ورقة فى الشعور ، إذ كان الأخطل متكلفاً يصطنع الوقار ، وكان الفرزدق — كما أسلفنا — صاحب نفس خشنة صلبة ، ولذلك تفوق فى الفخر وساعده أن وجد مادة غزيرة من مناقب عشيرته وآبائه هيأته ليرسل كلماته كأنها العواصف القاصفة والصواعق المدمّرة . أما جرير فلم يكن لعشيرته ولا لآبائه شيء من المآثر الحميدة ، فانطوت نفسه على حزن عميق صَفَىّ جوهرها ، وزادفى هذا الصفاء تأثره بالإسلام إذ كان دَيِّناً عفيفاً طاهر النفس . واقرأْ رثاءه لزوجته أم حَزْرة ، إذ يقول :

لولا الحَياءُ لعادنى استعبارُ ولَزُرتُ قَبْرَكِ والحبيبُ يُزَارُ

ولَّهتِ قلبى إذ علتْنى كَبْرَةٌ وذوو التمائم من بَنيك صِغارُ

ولقد أراكِ كُسيتِ أجملَ منظرٍ ومع الجمال سكينةٌ ووقارُ

صَلَّى الملائكة الذين تُخُيِّروا والصالحون عليكِ والأَبرارُ

فإنك تحس تفجعه المرير ، لقيام سور الموت الصفيق بينها و بينه هو وأولادها ، وهو يدعو لها دعاء المسلم المؤمن قلبه ، محيِّيا فيها جمالها وخلقها الرفيع . وتدل دلائل كثيرة على أن علاقاته بزوجاته : أم حَزْرة هذه وأمامة التى أهداها إليه الحجاج وأم حكيم الديلمية أم ابنيه بلال ونوح ، كانت علاقات وُدٍّ ومحبة . ولم تَنْشز عليه سوى جارية اشتراها بأخرة ، وقد عابت عليه عَيْشه وكَبْرةَ سنه ، ففارقها راضياً . أما زوجاته المذكورات فكن يبادلنه ودًّا بود ، وقد اتخذهن

موضوعاً لغزله الرقيق الذى كان يقدِّم به بين يدى قصائده ونقائضه . وأتاح له صفاء نفسه وانطواؤها على الحزن أن يبلغ من هذا الغزل كل ما يريد من تصوير الحب الخالص الطاهر ، إذ ما يزال فيه يتلطف ويستعطف ويشكو ويتضرَّع على شاكلة قوله :

بنفسى من تجنُّبُه عزيزٌ　　علىّ ومَنْ زيارته لمامُ[1]
ومن أُمْسى وأُصبح لا أراه　　ويَطْرقنى إذا هجَع النِّيــام

وقوله :

لقد كتمتُ الهوى حتى تهيَّمنى　　لا أستطيع لهذا الحب كتمانا
إن العيون التى فى طرفها مرضٌ　　قتَلْنَنَا ثم لم يُحْيين قتلانا
يَصْرَعنَ ذا اللُّبِّ حتى لاحَراك به　　وهن أَضعفُ خلق الله أركانا
أتبعتهم مُقْلَةً إنسانُها غَــرِقٌ　　هل ما ترى تاركٌ للعَيْن إنْسانا[2]

وكان إذا هجا نساء من يهجونه أصبح سما ذعافاً لا يطاق ، فإذا أشاد بنساء عشيرته أو بنساء عشيرة النَّوار زوجة الفرزدق إغاظة له وكيداً نثر فوقهن زهور شعره ، واصفاً خلقهن الكريم وجمالهن الباهر الذى يَشْغف القلوب ، ومن بارع قوله فى نساء عشيرة النَّوار :

وهنَّ كماءِ المُزْن يُشْفَى به الصَّدَى　　وكانت مِلاحاً غيرهن المشاربُ[3]

ولعل شاعراً قديماً لم يستطع أن يصف عواطف الأبوة وحنانها تلقاء الولد على نحو ما صوّر ذلك فى هذه المقطوعة التى يصور فيها حبه لابنه بلال :

إن بلالاً لم تَشِنْه أُمُّهُ　　يَشْفى الصُّداعَ ريحُه وشَمُّهُ[4]
ويُذْهب الهمومَ عنى ضَمُّهُ　　ينفح ريحَ المسك مُسْتَحَمُّهُ
يُمْضى الأمور وهو سام هَمُّه　　بَحْرُ البحور واسعٌ مجَمُّهُ[5]
يُفَرِّج الأَمرَ ولا يَغُمُّهُ　　فنَفْسُهُ نفسى وسمِّى سَمُّهُ[6]

---

(١) يريد أن طيفها يزوره وهو نائم فى الحين بعد الحين .

(٢) إنسان العين . سواد حدقتها .

(٣) المزن : السحاب . الصدى : العطش .

(٤) يشير إلى أن أمه أعجمية ، ولم تشنه عجمتها .

(٥) المجم : الصدر .

(٦) يغمه : يبهمه ويستره .

وواضح أن جريراً كان لا يبارَى فى جميع الموضوعات التى تتصل بدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ، وهو لذلك يسبق الأخطل والفرزدق فى الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والأبوة ، وهو كذلك يسبقهما فى الهجاء الخالص إذ كان يعرف كيف يَريش سهامه ويسدّدها إلى نحور خصومه، محمّلا لها كل ما يمكن من سموم . وليس لأحدهما موضوع يتقدم به عليه سوى ما كان من فخر الفرزدق إذ لم يكن لجرير مادة يبنى منها فخره ، إلا أن يرتفع عن عشيرته إلى يربوع أو إلى تميم عامة ، حينئذ تَنِدُّ عنه أبيات رائعة كقوله :

إذا غضبتْ عليك بنو تميمٍ حسبتَ الناس كلَّهمُ غِضابا

ولكنه على كل حال يقصر عن الفرزدق فى هذا المجال . ومن الحق أن الفرزدق كان نَبْعاً ثَرًّا من ينابيع الشعر ، ولذلك استطاع الصمود لجرير ، والأخطل — مع أنه استطاع أن يثبت له — يأتى دون الشاعرين جميعاً ، إلا ما يسوقه فى النُّدْرة من قطع مديح متوهجة . وساقَ نفسَ هذا الحكم عليهم قديما بشارٌ ، فقال حين سأله سائل عنهم : « لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصَّبت له وأفرطت فيه » ومضى يفضل جريرا على الفرزدق فقال : « كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النَّوار (زوجه) فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير ؛ إذ لم يجدوا للفرزدق شعراً يصلح . فقال له السائل : وأى شىء لجرير من المراثى إلا التى رثى بها امرأته : أم حَزْرة ، فأورد عليه بشار مرثيته فى ابنه سوادة التى يقول فيها :

فارقتَنى حين كفَّ الدَّهْرُ من بَصَرِى وحين صِرْتُ كعظم الرِّمَّة البالى

فاقتنع سائله[1] .

وإذا رجعنا إلى أساليب الثلاثة وجدنا الأخطل يُعْنَى أشد العناية بصقل ألفاظه وتنقيحها ، وكأنه من ذوق مدرسة زهير الجاهلية ، ولم يكن الفرزدق يُعنى بصقل ألفاظه كل هذه العناية ، ومن ثم ظهر فيها كثير من صور الانحراف والشذوذ على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع، وقد أتاه ذلك — كما أسلفنا — من

(١) ابن سلام ص ٣٩١ .

خشونة نفسه وصلابتها ومن تمرده الطاغى . ومما لا شك فيه أنه كان قوى البصيرة فى نقد الشعر وتمييز جيده من رديئه ، حتى قالوا إنه كان يَسْطو على بعض أبيات معاصريه ، حين يبهره حسنها ويفرط بها إعجابه . وهو بعامة يمتاز فى شعره بجزالة لفظه وشدة أَسْره . أما جرير فإنه لا يبارَى فى عذوبة كلمه وحلاوة نغمه ، فإذا قرأته أحسست الذوق المهذب الصافى ، وقد جاءه ذلك من تأثره بالقرآن الكريم وأساليبه ، وكانت نفسه لينة رقيقة لا تشوبها شوائب من تمرد ، فجرَت أشعاره صافية ، كأنها الجدول الرقراق ، أشعار تلذُّ الأذن بكمال جرْسها وتلذ النفوس والأفئدة .

الفصل الرابع

شعراء السياسة

١

شعراء الزبيريين

رأينا في غير هذا الموضع كيف أخذت تظهر في صفوف الأشراف من أبناء كبار الصحابة معارضة حادة لأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بولاية العهد واستخلافه له من بعده ، وكيف قاد الحسين بن على بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير هذه المعارضة . وحدث أن دعا بعض أهل الكوفة الحسين ليبايعوه ، ومضى إليهم غير أنه قُتل دون غايته، فخلا الجوّ لابن الزبير الذى عاذ بمكة، وقد اتخذ من قَتْل الحسين أداة للتشنيع على يزيد وعُمّاله، وثارت المدينة ، وأوقع بها يزيد وقعة الحَرّة المشهورة . فاتسعت الجروح في الحجاز ، وبدا للعيان أن الأمويين ، وإن كانوا قرشيين ، يحكمون بسيوف كَلْب وغيرها من قبائل الشام اليمنية، وكأنه لم يَعُدْ لقريش ولا للحجاز عامة شيء في الحكم . وحقًّا أن الأمويين قرشيون ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها في الحجاز إلى دمشق، ولم يعودوا يستندون في حكمهم على قريش ، بل أصبحوا يستندون على قبائل الشام اليمنية ويحكّمونها في رقاب الناس ، بل لقد استباحوا بها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضوا يَلُون الخلافة كما وليها يزيد، لا بسلطان شرعي ، وإنما بسلطان السيف والقوة ، إذ أن يزيد لا يأتى أولا بين أبناء كبار الصحابة فبينهم من يَفْضلونه بسابقة آبائهم في الإسلام وبسيرتهم الفاضلة . واتجه الجيش الذى نَكّبَ المدينة في وقعة الحَرّة إلى مكة حيث يعوذ ابن الزبير ، وهبّ كثير من العرب حتى من الخوارج للذَّوْد عن البلد الحرام . وضُرب من حوله حصار ،

غير أن الأنباء جاءت بموت يزيد ، فرُفع الحصار ، وعاد الجيش أدراجه . وبدا حينئذ كأن ابن الزبير هو القرشي الذى اختير للجماعة ، فأبوه من كبار الصحابة المقدَّمين وأمه أسماء أخت السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان قويَّ الشخصية تقيا وشارك فى فتوح إفريقية ، وسرعان ما انضمت تحت لوائه قيس فى الشام والجزيرة وتبعته العراق ومصر ، وكذلك تبعته خراسان بقيادة عبدالله بن خازم السُّلَمى القيسى . وولى بعد يزيد ابنه معاوية بعهد منه ، ولكنه توفِّى سريعاً ، وبدا كأن حكم بنى أمية قد انتهى ، حتى ليقول ابن عَرادة بخراسان[1] :

أبنى أُميَّةَ إنَّ آخر مُلْككم ... جَسَدٌ بحُوَّارين ثَمَّ مقيمُ[2]

طرقتْ منيَّتُهُ وعند وِسادِه ... كوبٌ وزِقٌّ راعفٌ مَرثوم[3]

ومُرِنَّةٌ تبكى على نَشْوانهِ ... بالصَّنْج تقعد تارةً وتقوم[4]

وظل ابن الزبير يقود الولايات التى تبعته من مكة ، ولم يلبث مروان بن الحكم أن ظهر بالشام تَسْنده كلب والقبائل اليمنية ، وأوقع بقَيْس الشام وقعةَ مَرْج راهط المشهورة ، فخلصتْ له الشام ، ولم تلبث مصر أن استجابت له ، وولّى عليها ابنه عبد العزيز . وبذلك تحولت الخلافة من بيت السفيانيين إلى بيت المروانيين ، فإن مروان لم يلبث أن توفِّى وخلفه ابنه عبد الملك ، وكان سياسيًّا أريباً ، يعرف كيف يستخدم المال فى جمع الناس من حوله ، وكان فى ابن الزبير بخل وحرص شديد جعل كثيراً من العرب ينصرفون عنه ، ويَضْرب الرواة لذلك مثلا هو أن فَضَالة بن شريك الأسدى ، وقيل بل ابنه ، وفَد عليه[5]

---

(١) طبرى ٤/٤٢١ .

(٢) حوارين : قرية من قرى حمص توفى بها يزيد .

(٣) راعف : سائل . مرثوم : انكسر حتى تقطرت منه الخمر .

(٤) مرنة : مغنية .

(٥) انظر فى هذه الوفادة ترجمة فضالة بن شريك فى الأغانى (طبع دار الكتب) ١٢/٧١ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٧/٤٢٤ والإصابة ٣/٢٢٤ ومعجم الشعراء ص ١٧٦ .

فقال له: إن ناقتى قد نَقِبَتْ[١] وَدَبِرَتْ[٢] ، فقال: ارْقَعْها بجلْد[٣] ، واخْصِفْها بهُلْب[٤]، وسِرِ البَرْدَيْن[٥] بها تصحّ، فقال فضالة : إنى أتيتك مُسْتَحمِلا ولم آتك مستوصفاً، فلعن الله ناقة حملتنى إليك ، فقال له ابن الزبير : إنّ[٦] وراكبها . وانصرف فضَالة من عنده، وهو يقول :

شكوتُ إليه أنْ نَقِبَتْ قَلوصى ... فردَّ جوابَ مشدودِ الصِّفاد[٧]

يَضِنُّ بناقةٍ ويروم مُلْكًا ... محالٌ ، ذلكم غيرُ السَّدادِ

ومضى يُشيد ببنى أمية وكرمهم الفياض ، ويقول إنه صائر إليهم . ولعل فى هذا الحادث ما يفسر السبب فى قلة الشعراء الذين صدروا عن رأى ابن الزبير فى الخلافة مدافعين عنه بنبال شعرهم،وكأنما لم تكن تَعْنيه هذه النبال .

وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك شعراء يقفون فى صف ابن الزبير ، وإنما معناه أنه رغب بنفسه عن هذا اللون من الدعاية،أو قل رغبَ به شُحُّه عنه ، ومع ذلك فقد وقف فى صَفِّه كثير من الشعراء ، لا فى الحجاز حيث كان يدعو لنفسه بل بين قيس فى الشام والجزيرة ولدن أخيه مصعب واليه على العراق . ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أن العصبيات والوقائع الحربية اشتعلت بين القبائل القيسية من جهة والقبائل اليمنية وتغلب من جهة ثانية، وأن الشعراء فى الطرفين جميعاً سَلُّوا ألسنتهم مدافعين عن قبائلهم ومهاجمين،أو بعبارة أخرى مفاخرين ومهاجين هجاء مريراً . ولم يكن الطرفان يتناقضان فى العصبية القبيلية فحسب ، بل كانا أيضاً يتناقضان فى السياسة ، إذ كان هوَى قيس مع ابن الزبير وهوى القبائل اليمنية وتغلب مع بنى أمية،ومن ثم اختلطت فى أشعارهم العصبية بالسياسة، ومن خير ما يمثل ذلك قصيدة «خَفَّ القَطين» التى ضمنها الأخطل هجاء قيس ومديح عبد الملك مصوراً موقف قبيلته من الخلافة الأموية وما قدمته لها من

---

(١) نقبت : من نقب البعير إذا حفى ورقت أخفافه .

(٢) دبرت : أصابها جرح فى ظهرها .

(٣) ارقعها بجلد : يريد أن يجعل لها خفا من جلد .

(٤) الهلب : الشعر. الخصف : الخرز . يريده أن يخرز الخف به ليقيه .

(٥) البردين : الغداة والعشى .

(٦) إن هنا بمعنى نعم .

(٧) القلوص : الناقة . الصفاد : ما يشد به الأسير من قيد ونحوه .

مساعدات حربية ولسانية . وحين نتصفح أشعار زُفَر بن الحارث نجدها تقطر عصبية[١] عنيفة ، فهو دائماً يتهدد تغلب وكلبا وأخواتها من القبائل اليمنية ، وهو فى تهديده لا ينسى ابن الزبير وأنه يقف من دونه ضد قبيلة كلب وزعيمها ابن بَحْدل الذى يناصر بنى أمية ، يقول [٢] :

أفى الله أما بَحْدَلٌ وابنُ بَحْدَلٍ ... فيَحْيَى وأما ابنُ الزبير فيُقْتَلُ

كذبتم وبيتِ الله لا تقتلونه ... ولما يكن يومٌ أغرُّ محجَّلُ[٣]

ولما يكن للمشرفيَّة فوقكم ... شعاعٌ كقَرْنِ الشمس حين ترجَّلُ[٤]

وعلى هذا النحو كانت تختلط فى أشعار الطرفين الذحول والثارات بالسياسة . وظلوا يجترُّون ذلك طويلا ، إذ نرى جريراً لسان قيس ومحاميها يشنُّ هجوماً قاسياً على تغلب وشاعرها الأخطل الذى انبرى له يردُّ كيده على نحو ما مرَّ بنا فى النقائض .

وكان مصعب بن الزبير من فتيان قريش شجاعة وسخاء ، فلما ولى العراق لأخيه انهلَّتْ غُيوثه على الشعراء ، فمدحه منهم كثيرون مثل أعْشَى همدان ودُكَيْن الفُقَيْمى ، ولكن المدح من حيث هو لا يهمنا ، إنما يهمنا الشعر السياسى الذى كان يدافع عن نظرية ابن الزبير فى الخلافة ، هاجياً لبنى أمية مؤلباً عليهم القبائل . ولعل شاعراً لم يبلغ من ذلك ما بلغه ابن قيس الرقيات ، فهو شاعر الزبيريين ونظريتهم السياسية غير مَدافعٍ ، ومن ثَمَّ ينبغى أن نقف عنده قليلا .

ابن [٥] قيس الرقيات

اختلف الرواة فى اسمه هل هو عبيد الله أو عبد الله ، والأول أرجح ، لأن فى أخباره أنه كان له أخ يسمى عبد الله . وعلى نحو ما اختلفوا فى اسمه اختلفوا فى

---

(١) انظر الجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذرى فى مواضع متفرقة والأغانى (ساسى) ١١٢/١٧ ، ١٢٤/٢٠ .

(٢) طبرى ٤١٩/٤ .

(٣) يريد يوماً مشهوراً يبير كلباً ولا يبقى ولا يذر

(٤) المشرفية : السيوف . ترجل : ترتفع .

(٥) انظر فى ترجمة ابن قيس الأغانى (طبع دار الكتب) ٧٣/٥ وما بعدها والشعر والشعراء ٥٢٣/١ وابن سلام ص ٥٣٠ وخزانة الأدب ٢٦٥/٣ والموشح ص ١٨٦ وشواهد المغنى ص ٢١١ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ٣١٦/١ وكتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥ . وله ديوان نشره رودكناكس فى فينا سنة ١٩٠٢ وحققه تحقيقا علميا وأعاد نشره فى بيروت محمد يوسف نجم . والرقيات إما صفة لابن قيس فينوّن قيس وإما مضافة . راجع فى ذلك الخزانة .

سبب نعته بالرُّقَيَّات ، وأصوب الآراء أنه كان يشبِّب بغير فتاة تسمى رقية ، فنُعت بالرقيات إشارة إلى ذلك . وهو قرشي من بني عامر بن لؤى ، وُلد بمكة فى العقد الثالث للهجرة لقيس ابن شُرَيْح بن مالك بن ربيعة (النويعم) بن أُهَيْب بن ضِباب بن حُجَيْر بن عَبْد بن مَعيص بن عامر بن لؤى. وأقدم أخباره تشير إلى ملازمته لبعض المغنين وتصفحه لبعض النساء فى الحج ، ولم تكد تقع عينه على رقية بنت عبد الواحد بن أبى سعد أحد أفراد عشيرته الذين هاجروا مع طائفة منها إلى الجزيرة سنة سبع وثلاثين حتّى شُغف بها ، وسرعان ما أخذ ينظم فيها أشعاره .

ويظهر أنه تحول عن مكة إلى المدينة وأقام بها طويلا ، ولعل الذى دفعه إلى ذلك تعلقه بالمغنين والمغنيات . ويسوق صاحب الأغانى أخباراً له مع سائب خاثر وبُدَيح وفِنْد ، وهم من مغنى المدينة المشهورين ، ونراه يذكر فى بعض شعره داراً له بها [١] ، ويبدو أنه لم ينزلها وحده ، بل نزلها مع أخيه عبد الله ونفر من عشيرته . وفى اختلاطه بالمغنين ما يدل على أنه كان يحيا حياة لاهية فى المدينة ، ونراه يشكو من مروان بن الحكم الذى كان يُعْقب معاوية بينه وبين سعيد بن العاص فى حكمها ، إذ كان كل منهما يليها فترة وكانت فى مروان شدة وغلظة فكان إذا وَلِيَ يأخذ المغنين ودورهم بالضبط الشديد، ومن ثَمَّ تعرَّض له ابن قيس يصف شدته وقسوته [٢] ، وهو فى أثناء ذلك ينظم مقطوعاته فى الغزل ، ويترنَّم بها المغنون والمغنيات ، ويستحسنها الناس استحساناً شديداً . ونراه يرحل إلى الجزيرة فى أثناء حكم يزيد بن معاوية ، ويظهر أنه أراد الابتعاد عن المدينة فى تلك الفترة التى ثارت فيها على يزيد . وهناك جاءته الأنباء بموقعة الحرَّة وأن طائفة من أهل بيته قُتلوا فيها من بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله، فهزته تلك الأنباء هزًّا عنيفاً، فإذا هو يبكى من ماتوا من أهله بكاء حارًّا ، يقطر بالثورة على يزيد وبنى أمية ، يقول :

إن الحــوادث بالمدينة قد أَوْجَعْنَنى وقَــرَعْنَ مَرْوَتِيَــهْ [٣]

---

(١) الديوان (طبعة بيروت) ص ٢٤ .
(٢) الديوان ص ١٧٧ والأغانى ٥/٧٢ وما بعدها.
(٣) المروة : حجر أبيض تقدح منه النار . وهو مثل يضرب لمن نزل به شر .

يُنْعَى بنو عَبْد وإخوتهم حـلَّ الهلاك على أقاربيَه (١)

ونُعِي أسامةُ لى وإخوتُه فظللتْ مُسْتَكًّا مَسامعيـه (٢)

تبكى لهم أسماءُ مُعْـولةً وتقـول ليلى : وارَزِيَّتِيَـهْ

واللهِ أبرحُ فى مقـدِّمةٍ أَهْدِى الجيوشَ ، علىَّ شِكَّتِيَهْ (٣)

حتى أفجِّعهم بإِخـوتهم وأسوقَ نِسْوتهم بِنسْوَتِيَهْ

ولم يلبث يزيد أن توفى ، وتحولت الجزيرة إلى ميادين حروب بين قيس وتغلب على نحو ما مرَّبنا فى غير هذا الموضع ، واصطدمت عشيرته بعمير بن الحُباب بطل قيس فى بعض حروبه ، مما جعله يؤثر التحول عن الجزيرة إلى فلسطين ، ولم يلبث أن تركها إلى العراق ، حيث مصعب بن الزبير . وكان طبيعيًّا أن يجذبه إليه ، فقد رأيناه حنقاً على بنى أمية منذ موقعة الحرَّة ، يريد أن يقود الجيوش ضدهم ، فيثأر لابنى أخيه ، ويسبى نساءهم . وجعله ذلك يستشعر عقيدة الزبيريين ، فالخلافة ينبغى أن تكون فى قريش روحاً وواقعاً عمليًّا ، بحيث تكون حاضرتها فى الحجاز ، وبحيث تعتمد على القرشيين لا على كَلْبٍ وأخواتها من قبائل الشام اليمنية التى أوقعت بأهل المدينة وقعة الحرة المشئومة. وهو يصدر فى ذلك عن قرشيته من جهة وعن الكلوم التى أصابت فؤاده من أهل الشام من جهة أخرى ، ومن ثَمَّ كان اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقاً مخلصاً ، وهو اعتناق يشوبه الحقد على بنى أمية والرغبة الشديدة فى أن ينقضَّ حكمهم فى الشام انقضاضاً ، ولعل خير ما يصور ذلك قصيدته الهمزية التى يفتتحها بقوله :

أقفرتْ بعد عَبْد شَمْسٍ كَداءُ فكُدَىٌّ فالرُّكْنُ فالبَطْحاءُ (٤)

ومضى يطيل فى ذكر الأماكن التى هجرها الأمويون إلى دمشق وربوع

---

(١) بنو عبد : عشيرته نسبها إلى جده السابع .

(٢) استكت المسامع : صمّت وضاقت ، هو مثل يضرب للنبأ الشديد يعرك سامعه .

(٣) مقدمة : يريد مقدمة الجيش . الشكة : السلاح التام .

(٤) كداء وكدى : جبلان بمكة . والركن : ركن البيت الحرام . والبطحاء : حيث كان ينزل أشراف مكة حول البيت فى الجاهلية .

الشام منوِّهاً برجالهم وحسانهم من النساء ، وكأنه يأسى لهذا المصير الذى انتهت إليه قريش . فقد تفرقت بُلْداناً وشيَعاً ، حتى طمع فيها الطامعون ، ويصرِّح بذلك فيقول :

حَبَّذا العيشُ حين قومى جميعٌ لم تفرِّق أُمورَها الأَهواءُ
قبل أن تطمع القبائل فى مُلْـ ـكِ قريشٍ وتَشْمَتَ الأَعداءُ

ويمضى فيرد على الخوارج وأشباههم ممن كانوا يرون أن تُنْزَعَ الخلافة من قريش وتُرَدَّ إلى العرب ، بل إلى المسلمين جميعاً ، يقول :

أيها المُشْتَهِى فناءَ قريشٍ بِيَدِ الله عُمْرُها والفناءُ[١]
إن تودِّعْ من البلاد قريشٌ لا يكنْ بعدهم لحىٍّ بقاءُ

فقريش هى عمود الخلافة ، ولو أنها زالت عنها لسقط ركنها سقوطاً لا يرتفع بعده . ولا يلبث أن يتوجَّه بخطابه إلى عبد الملك هاجياً :

قد عَمِرنا فَمُتْ بدائك غيظاً لا تميتَنَّ غيرَك الأَدْواءُ[٢]

ويأخذ فى الفخر بقريش وفضلها على الإسلام والخلافة ، فيذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين وحمزة عم الرسول وجعفراً الطيار والزبير بن العوَّام حوارىَّ النبىِّ وأبا عبد الله ومصعباً . ويشير إلى انتصار مصعب على المختار الثقفى ، ويعرض لما كان يزعم من أنه يوحَى إليه ، ويمدح مصعباً ، فيقول :

إنما مصعب شهابٌ من اللـ ـهِ تجلَّتْ عن وجهه الظَّلْماءُ
مُلْكُهُ ملكُ قوَّةٍ ليس فيه جبروتٌ ولا بهِ كبْرياءُ

ويعود إلى الافتخار بقريش ورجالاتها فى الجاهلية والإسلام ، ويفتخر ببيتها الحرام الذى يحجُّ إليه الناس من كل فجٍّ عميق ، ويأسى لحَرْق جيوش الشام هذا البيت حين حصارها لابن الزبير بعد موقعة الحرَّة ، ويُشيد ببناء ابن الزبير له بعد هذا الحصار ، ولا يلبث أن يدعو دعوة عنيفة لحرب عبد الملك

(١) عمرها : يريد بقاءها .
(٢) عمرنا : عشنا زمناً طويلا ، يشير إلى خلافة ابن الزبير وأنها استقرت له أعواماً .

وبنى أمية الذين استباحوا المدينة والبيت الحرام، وقتلوا الحسين فى كربلاء يقول :

كيف نَوْمى على الفِراش ولمَّا ... تَشْمَلِ الشَّامَ غارةٌ شَعْواءُ
تُذْهل الشَّيْخَ عن بَنِيه وتُبْدِى ... عن بُراها العقيلةُ العَذْراءُ[1]
أنا عنكم بنى أُميــة مُزْوَ ... رٌّ وأنتم فى نفسىَ الأَعداءُ
إنَّ قَتْلَى بالطَّفِّ قد أوجعتْنى ... كان منكم لئن قُتِلْتُم شفاءُ[2]

وهذه هى الأنغام السياسية التى كان يوقِّعها على قيثارته الشجية ، وكان يضيف إليها مديحاً لعبد الله بن الزبير وبيان أنه أحق قرشى بالخلافة . وكان لا يزال يذكر وقعة الحرة مضيفاً إليها وقعة مَرْج راهط التى هُزِم فيها أنصار ابن الزبير من القبائل القيسية متوعدًا عبد الملك بالغارات المُبيرة. ومُشيداً بمصعب وشجاعته وكرمه وتقواه . وكان قد رأى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين لجَّ الهجاء بينه وبين يزيد بن معاوية يتخذ الغزل الفاضح برملة أخته وسيلة إلى الهجاء المقذع ، فحاكاه فى هذا الاتجاه بغزله بعاتكة زوجة عبد الملك وأم البنين زوجة ابنه الوليد . وفى الوقت نفسه كان يشبب بزوجتى مصعب : عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين تشبيباً كله وقار ، وكأنه أزهار ثناء . يريد أن يرضى بها مصعباً . ونحن لانقرن الصورتين من الغزل بعضهما إلى بعض حتى نرى خبثه ومكره ، وكيف استطاع أن يتخذ من الغزل أداة لشعره الزبيرى السياسى ومن قوله فى عائشة ، وقد بعث به مصعب إليها وهى غاضبة عليه ليترضَّاها [3] :

جِنِّيَّةٌ برزتْ لتقتلنى ... مطليَّـــةُ الأَصداغ بالمِسْكِ
عَجبًا لمثلِك لا يكون له ... خَرْجُ العِراقِ ومِنْبَرُ المُلْكِ[4]
تَرْمى لتقتلنا بأَسهمها ... ونزُنُّها بالحلم والنُّسْكِ[5]

---

(١) البرى : الخلاخيل . وقد كنى بذلك عما يصيبهن من فزع شديد .

(٢) الطف : من ضواحى الكوفة حيث كربلاء التى قتل فيها الحسين .

(٣) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ١١/١٧٦ وقارن بالديوان ص١٤١ وقد وصل القطعة بأبيات فى أم البنين لاشك فى أنها ملأت صدر عبد الملك موجدة .

(٤) يريد بمنبر الملك الخلافة ،كأنه يتمناها لمصعب .

(٥) نزنها : ننسبها إلى .

وواضح أنه يحوطها بالنسك والطهارة والعفاف ، واقرنْ هذه الصورة إلى غزله بعاتكة وأم البنين الذى كان يسوقه فى مقدمة مدائحه لمصعب ، فإنك ستراه يعرضهما فى صورة تؤذيهما كقوله فى عاتكة :

بَدتْ لىَ فى أتْرابها فقَتَلْنَنى   كذلك يقتلْن الرجال كذلكا
وقالتْ لو انَّا نستطيع لزاركم   طبيبان منا عالمانِ بدائكا[1]

ويتخيل أم البنين جاءته فى الُحلم ، فنال منها كل ما أراد ، وكأنها امرأة مبتذلة ، لا يمسكها طهر ولا عفاف ، فهى تمعن معه فى اللهو إلى طلوع الفجر ، يقول :

أتتْنى فى المنام فقُلْـ   ـتُ هذا حين أُعْقَبُها[2]
فلما أنْ فَرِحْتُ بهـا   ومال علىَّ أعْذَبُها[3]
شربتُ بريقهـا حتى   نَهِلْتُ وبِتُّ أُشْرِبهـا[4]
وبِتُّ ضجيعهـا جَـذْلا   نَ تعجبنى وأعجبهـا[5]
وأيقظنا منـادٍ فى   صلاة الصبح يرْقُبهـا[6]

وظل على هذا النحو يصول ويجول بشعره ضد عبد الملك وبنى أمية ونسائهم ، معلناً أن صلاح الأمة لا يتم إلا باجتماعها على ابن الزبير الذى يمثِّل الحكم القرشى الصحيح . وما نصل إلى سنة ٧١ للهجرة حتى يقدم عبد الملك بجيش ضخم إلى العراق لحرب مصعب ، فيلقاه فى دَيْر الجاثليق ، وقد انفضَّ عنه أكثر أنصاره ، ولم تبق معه منهم سوى بقية قليلة بينها ابن قيس . ويُقْتَل مصعب ويفرُّ ابن قيس إلى الكوفة متفجِّعاً على صاحبه آسياً لانفضاض العراقيين عنه ، ويطلبه عبد الملك ، فيستتر منه عند امرأة أنصارية تسمى كثيرة نحو عام ، ونظن ظنًّا

(١) طبيبان : يريد رسولين ، ويريد بالداء الحب الذى سرى فى نفس عاتكة له .
(٢) أعقبها : صارت عقباها لى أى صارت إلى .
(٣) أعذبها : فمها .
(٤) نهلت : رويت . أشربها : أسقيها .
(٥) جذلان : فرح .
(٦) يرقبها : أى يرقب الصلاة .

أنها زوجة[1] على بن عبد الله بن العباس ، وكان ممن يجيرون على عبد الملك ، ولكن يظهر أنه لم يستطع أن يطلب العفو منه على ابن قيس الرقيات لأن ذنبه كان عظيماً. ومن ثَمَّ رأيناه يخرج من مخبئه ، ميمماً وجهه شطر عبد الله بن جعفر فى المدينة ، ويقال إنه راسل عبد العزيز بن مروان كى يشفع له عند أخيه ، ولبَّاه عبد العزيز ، فأرسل إلى ابنته أم البنين ، وكان عبد الملك لا يردّ لها طلباً ، أن تشفع فيه ، وقُبِلت شفاعتها ، وقيل بل راسلها ابن جعفر وفى رواية أن ابن جعفر هو الذى شَفَع له عند عبد الملك ، ولم يلبث أن مَثَل بين يديه ينشده بائيته التى يقول فيها :

ما نَقَموا من بنى أمية إ ... لاَّ أنهم يَحْلُمون إن غضبوا

وأنهم مَعْدِن الملوك فلا ... تصلحُ إلا عليهمُ العرَبُ

إن الفَنيقَ الذى أبوه أبو الـ ... عاصى عليه الوقارُ والحجُبُ[2]

خليفةُ الله فوق منبرِهِ ... جَفَّتْ بذاك الأقلامُ والكتب

يَعْتَدِل التاج فوق مفرقهِ ... على جَبينٍ كأنه الذَّهَبُ

ويظهر أن عبد الملك لم يَطِبْ نفساً له ، ومن ثم نرى ابن قيس يولِّى وجهه شطر العراق فيمدح أخاه بشرا ، ويُعْطيه الجزيل . ويعود من لدنه إلى الحجاز فيعيش فى ظل ابن جعفر يُغْدِق عليه من بِرِّه ونواله ، ويجذبه جود عبد العزيز بن مروان بمصر ، فيرحل إليه ، ويمكث عنده طويلا ، حتى إذا فكر عبد الملك فى صَرْف ولاية العهد عنه إلى ابنه الوليد رأيناه يثور معه على أخيه ، إذ يقول فى بعض مدائحه له ، مبشراً له بالخلافة وأنها ستصير إليه وإلى بنيه :

لَتَهْنِهِ مصرُ والعراق وما ... بالشام من بَزِّه ومن ذهبه[3]

يَخْلُفك البِيضُ من بنيك كما ... يَخْلُف عودُ النُّضار فى شُعَبه[4]

نحن على بَيْعَة الرسول وما ... أعطىَ من عُجْمه ومن عَرَبه

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة أوربا) ص ٤١٢ .

(٢) الفنيق : أصله الفحل من الإبل الكريم على أصحابه .

(٣) البز : الثياب والمتاع .

(٤) النضار : يريد الشجر النضر ، ويخلف الثانية : ينبت عوداً بعد عود .

وبلغت القصيدة عبد الملك فتوعَّده ، وعرف ذلك ابن قيس ، فلم يقرَّ له قرار وضاقت الدنيا فى عينيه فنظم قصيدة بديعة يذمّ فيها من يغتابونه عند عبد الملك رياء له ونفاقاً افتتحها بقوله :

بَشَّر الظَّبْىُ والغُرابُ بسُعْدى مرحبـاً بالذى يقول الغرابُ

وهو فيها يصور ما يلزمه من نَحْس رمز له بالغراب . ويظهر أنه كان يفد على عبد الملك من حين إلى حين ففى ديوانه مدائح له مختلفة ، والطريف أنه يستهلُّ بعضها بغزله بأم البنين لا على شاكلة غزله القديم الذى كان يريد به أن يؤذى عبد الملك ، ولكن على شاكلة غزله بعائشة بنت طلحة ، فهو يصف جمالها ووقارها متلطفاً . وليس فى ديوانه مدائح فى الوليد مما يدل على أنه إن كان لحق عصره فإنه لم يعش فيه طويلا . وفى ديوانه قصائد مختلفة مدح بها عبد الله بن جعفر ، وهو يشيد به وبجوده إشادة رائعة على شاكلة قوله :

أتيناك نُثْنى بالذى أنت أهله عليك كما يُثْنى على الروض جارُها

إذا مُتَّ لم يُوصَلْ صديقٌ ولم تَقُمْ طريقٌ من المعروف أنت مَنارُها

وممن مدحهم ونوَّه بهم طويلا طلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان ، وهو يثنى على كرمه وشجاعته ، وفيه يقول حين توفِّى بيته المشهور من مرثية فيه بديعة :

نضَّر الله أعْظُماً دفنوها بسِجِسْتانَ طلحةَ الطلحاتِ

وليس له وراء هجائه السياسى سوى قطعة هجا بها عبد العزيز بن عبد الله ابن خالد حين هُزم فى حربه للأزارقة ، وهو لا يقسو فيها قسوة الهجَّائين فى عصره .

وحتى الآن لم نتحدث عن غزله ، وهو فى الطليعة من شعراء الغزل المكيين ، ولو أنه لم يَشْغل نفسه بالمديح والدعاية للزبيريين وتَخَلَّص للغزل على شاكلة عمر بن أبى ربيعة لما قصَّر عنه فى هذا الفن ، وقد رأيناه فى مطلع حياته يلزم

المغنين والمغنيات ، وكان لذلك أثر واسع فى موسيقى شعره ، إذ تمتاز بالنقاء والصفاء والعذوبة حتى فى مدائحه ومراثيه . وليس ذلك فحسب ، فإنه من أكثر الحجازيين عناية بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة ، وهو من هذه الناحية يُطْبَع شعره بطوابع الغناء التى عاصرته ، إذ نجد عنده حلاوة النغم وخفة الأوزان بحيث تحمل كل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام وترنيمات على مثال قوله :

رُقَىٌّ بعيشِكم لا تَهْجُرينا ... وَمنِّينا المُنَى ثم امطُلينا
عِدينا فى غَدٍ ما شئتِ إنَّا ... نُحِبُّ - وإن مَطلتِ - الواعدينا
فإما تُنْجِزِى عِدَتى وإما ... نعيش بما نؤمل منك حِينا

وقوله :

رُقَيَّةُ تَيَّمَتْ قلبى ... فواكبدى من الحبِّ
وقالوا اداوُه طبٌّ ... ألا بل حبُّها طِبى

وقوله :

حبٌّ ذاك الدَّلُّ والغُنُجُ ... والتى فى عينها دَعَجُ (١)
والتى إن حدثتْ كذبتْ ... والتى فى وعدها خَلَجُ (٢)
خَبِّرونى هل على رجل ... عاشق فى قُبْلَةٍ حَرَج

ودائماً يجرى غزله على هذه الصورة من عذوبة الألفاظ ورشاقة الألحان . وهو لا يتغزل بمن سُمِّين باسم رقية فحسب ، إذ نراه يتغزل بكثيرات ، غزلا يملؤه بالصبابة واللوعة . وخاصة حين يكون غزله صادقاً لا يريد به سياسة ولا ما يشبه السياسة .

---

(١) الدل : الدلال . الغنج : حسن الدل والمزح . الدعج : شدة سواد العين .

(٢) الخلج : الاضطراب وعدم الثبات على حال .

٢

شعراء الخوارج

رأينا فى غير هذا الموضع كيف أن الخوارج بفرقهم المختلفة من أزارقة وُصُفْرية ونَجدات وإباضية ظلوا يحاربون الجيوش الأموية طوال العصر، وكلما قضوا على جماعة منهم هبَّت جماعة أخرى تطلب الاستشهاد فى سبيل عقيدتها فى ولاية الأمة وأنه ينبغى أن لا تكون قاصرة على قريش ، بل يتولاها خير المسلمين ورعاً وتقوى ولو كان عبداً حبشيًّا . وقد أخذوا يتصورون الجماعة الإسلامية ضالة عن الطريق الدينى الصحيح ، ومضوا يرون جهادها فريضة دينية .

وعلى هذا النحو عاش الخوارج فى هذا العصر للحرب ، مستحلِّين دماء إخوانهم المسلمين ، وهى معيشة طبعت شعرهم بطوابع ميزته من شعر الفرق السياسية الأخرى ، فهو شعر ثوّار ترافقهم السيوف فى غدوهم ورواحهم وفى استقرارهم وترحالهم . وقد استعذبوا الموت غير آبهين بالحياة الدنيا، ومن ثَمَّ كان شعرهم فى جملته حماسيًّا ، وهى حماسة لا تحركها العصبيات القديمة ، عصبيات القبيلة التى كانت تقوم على الأخذ بالثأر ، وإنما تحركها عصبية حديثة لعقيدتهم السياسية التى تعمقتهم مؤمنين بأنها تطابق تعاليم الدين الحنيف وأن عليهم أن يجاهدوا فى سبيلها مخلصين ، حتى يفوزوا برضا الله وثوابه .

وكان إخلاصهم لدينهم عظيماً ، غير أنهم ضلوا عن المحجة ، إذ مضوا يشرعون سيوفهم ويسلُّونها على المسلمين ، كأن الإسلام لا يحيا إلا فى معسكراتهم ، وبذلك مزّقوا الجماعة الإسلامية ، إذ ظلوا ثائرين ، وظلت عقيدتهم كأنها مبدأ ثورى يدعوهم دائماً إلى الحرب والقتال . وكانوا أتقياء ، ولكنهم من غير شك كانوا غالين فى نضالهم، فقد رفضوا الدنيا واستحلوا دماء إخوانهم المسلمين ، وأخذوا يجاهدونهم جهاداً عنيفاً موطِّنين أنفسهم على طلب الشهادة فى ميدان هذا الجهاد ، حتى كان بينهم من إذا طُعن فأنفذه الرمح جعل يسعى فيه إلى

قاتله ، وهو يقول : (وعجلتُ إليك ربِّ لترضى) [١] وكأنما وهبوا أنفسهم للموت . ولهم فى ذلك أخبار وأشعار كثيرة يستصغرون فيها الحياة ويهوِّنون من شأنها . من ذلك أن رجلا منهم قدَّمه الحجاج إلى القتل ، فأنشد [٢] :

ما رغبةُ النفس فى الحياة وإنْ عاشت قليلا فالموت لاحقُها
وأيقنتْ أنها تعود كما كان بَراها بالأمس خالقها [٣]
يوشك من فرَّ من منيَّتهِ فى بعض غِرَّاته يوافقها
من لم يمتْ عَبْطَةً يمتْ هرما والموت كأْسٌ والمرءُ ذائقها [٤]

وعلى هذه الشاكلة كان الموت أمنية كل خارجى ، الموت قَعْصًا بالرماح ، حتى يفوز بالاستشهاد وبما عند الله من الثواب ، يقول يزيد بن حبناء وكان من الأزارقة :

أبيتُ وسِرْبالى دِلاصٌ حصينة ومِغْفَرُها والسيف فوق الحيازم [٥]
أريد ثواب الله يوماً بطَعْنَةٍ غموسٍ كشِدْقِ العنبرىِّ بن سالم [٦]

فهم يطلبون الموت ويستعذبونه ابتغاء ثواب الله والفوز برضوانه وجناته ، وإنهم يستعجلونه تعجلا ، يقول قطرى بن الفجاءة [٧] :

إلى كم تعاريني السيوف ولا أرى معاراتها تدعو إلىَّ حِماميا [٨]
أنازعُ عن دار الخلود ولا أرى بقاءً على حالٍ لمن ليس باقيا
ولو قَرَّب الموتَ القِراعُ لقدأنَى لموتىَ أن يدنو لطول قراعيا [٩]

---

(١) المبرد ص ٥٦٤ .

(٢) المبرد ص ٤٣ .

(٣) براها : خلقها .

(٤) عبطة : شابا .

(٥) الدلاص : الدرع الملساء اللينة . المغفر : زرد يلبس تحت القلنسوة أو حلق يتقنع به المتسلح .

(٦) غموس : واسعة . العنبرى بن سالم : رجل من الأزارقة كان يقال له الأشدق لسعة فه .

(٧) انظر فى ترجمة قطرى وأشعاره وفيات الأعيان لابن خلكان والملل والنحل ص ٩٠ وأمالى المرتضى ١ / ٦٣٧ وفهارس الكامل للمبرد والطبرى والبيان والتبيين .

(٨) تعاريني : تطلبنى عارية . الحمام : الموت .

(٩) القراع : مضاربة السيوف فى الحرب . أنى : آن .

فهو يريد أن يتخلص من الحياة الزائلة وينزح عنها إلى الحياة الباقية التى لا تزول ، وهو لذلك يستبطئ الموت ، وكأنما ملّ دنياه . وتصوّر لنا هذا الملل إحدى نسائهم المقاتلات ، وهى أم حكيم ، إذ تقول [١] :

أحمل رأساً قد سئمتُ حَمْلَهْ وقد مَلِلْتُ دَهْنه وغَسْله

ألا فَتًى يحمل عنى ثِقْلَهْ

وكأنما أصبح الموت شعارهم ، بل قل الاستشهاد ، حتى يلحقوا بالملأ الأعلى وبمن سبقوهم إلى جنات ربهم ونعيمه ، يقول أبو بلال مرداس فى خروجه [٢] :

أبعد ابن وهب ذى النَّزاهة والتُّقَى ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا

أحبُّ بقاءً أو أُرجِّى سلامةً وقد قتلوا زيد بن حِصْن ومالكا

فيارِبِّ سَلِّمْ نيتى وبصيرتى وهَبْ لى التُّقى حتى ألاقى أولئكا

فهو يخرج طلباً للاستشهاد حتى يلحق بعبد الله بن وهب الراسبى والسابقين من رفاقه ، وهو يدعو ربه صادقاً أن ينيله طَلِبته ، فيقتل فى سبيل عقيدته ، وكأن الحياة حجاب صفيق يريد أن يجتازه إلى ربه وإلى رفاقه .

وقد جعلهم ذلك لا يبكون قتلاهم ولا يرثونهم بالصورة التى نجدها عند شعراء الفرق الأخرى ، إذ كان قتلهم يحقق فى رأيهم السعادة المنشودة ، وهى سعادة يطلبها كل خارجى لنفسه ، لذلك مضوا يمجدون قتلاهم على شاكلة قول أم عمران الرَّاسبى حين قُتل ابنها فى يوم دولاب [٣] :

اللهُ أيَّد عِمْرانًا وطهَّره وكان عمران يدعو الله فى السَّحَرِ

يدعوه سِرًّا وإعلاناً ليرزقه شهادةً بيدى مِلْحادَةٍ غُدَرِ [٤]

ودائماً نجد هذه الصورة من الرثاء ، إذ يصوِّرون استشهاد قتلاهم زُلْفى إلى الله راسمين فيهم مثلا أعلى للتقوى والصلاح والانكباب على عبادة الله خوفاً من

---

(١) أغانى (دار الكتب) ٦/١٥٠ وتريد أم حكيم بدهن شعرها ما تدهنه به من الطيب .

(٢) المبرد ص ٥٨٦ .

(٣) أغانى ٦/١٤٥ .

(٤) ملحادة : من الإلحاد والتاء للمبالغة . غدر : كثير الغدر .

عذاب ربهم ، يقول عمرو بن الحصين فى رثاء عبد الله بن يحيى وقائده أبى حمزة ومن قُتل من أصحابهما [١] :

يارب أسلكنى سبيلهـم ذا العرش واشدد بالتُّقَى أزرى
فى فتيةٍ صبروا نفوسهمُ للمشرفيـة والقنـا السُّمْر [٢]
متـأهّبين لكل صالحةٍ ناهين من لاقوا عن النُّكر

وما يزال يصور خشوعهم وخشيتهم من النار وانكبابهم على العبادة انكباباً لا ينامون فيه إلا اختلاساً وآونة بعد آونة إلى أن يقول :

كم من أخٍ لك قد فُجعتَ بهِ قـوّامٍ ليلته إلى الفجرِ
متـأوّه يتلو قـوارعَ من آى القُران مفزّع الصَّدْر

ويمضى فيصور انصرافهم عن الدنيا ولذاتها واحتسابهم أنفسهم لربهم حتى إذا أُشْرعت الرماح وسُلّت السيوف ورَعدت الحرب بصواعق الموت تهافتوا على الموت شوقاً إلى الجنة . ولا ريب فى أن هذه صورة جديدة فى الرثاء ، تخالف ما نألفه عنـد غيرهم من الشعراء ، فهم لا يبكون فيمن يرثونهم خـلال الكرم والمروءة ، وإنما يبكون فيهم المثل الأعلى للخارجى من التقوى ورفض الحياة الدنيا وزهرتها ومتاعها ، مصورين إقبالهم على الموت الذى يتمنونه لأنفسهم ، الموت الذى يفتح لهم أبواب الفراديس والجنان ، فهو موت موصول بآمالهم فى حياة الخلد والرضوان . وهو رثاء حماسى ، فيه دعوة قوية لمنازلة خصومهم رثاء يفيض بالحنين إلى القتال والمضى قُدُماً حتى تفيض أرواحهم على أعناق أفراسهم ، وتتخضب بالدماء صدورها وصدورهم .

وعلى هذه الشاكلة دائماً رثاؤهم وحماستهم ، فهم يتعطشون للموت ، حتى القَعَدة منهم ، فقد كانت فرقهم سوى الأزارقة تُجيز القعود عن الحرب . ولكن نحس دائماً كأن هذا القعود هدنة مسلّحة إلى حين ، وبذلك نفسر كثرة ثورات الصفرية بالموصل ، مع أنهم كانوا أكثر الخوارج تحمساً للقعود ، فهم يقعدون

---

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/١١١ وما بعدها .
(٢) المشرفية : السيوف .

انتظاراً للحوادث وتهيؤاً للقتال ، إلا نفراً منهم ، أبوا حمل السلاح وتعلقوا بالحياة ، وهو تعلق يُرَدُّ فى أكثر الأمر إلى إشفاقهم على بناتهم وأبنائهم أن يَقلب لهم الدهر المِجَنّ من بعدهم ، وكان لا يزال ثُوَّارهم يحمسونهم ، ويدعونهم إلى الخروج عن دار المسلمين الباغين فى رأيهم ، ويصور ذلك ما رواه المبرد [١] من أن أبا خالد القنانى استحبّ القعود ، فلامه قَطَرِىّ بن الفُجاءة بمثل قوله :

أبا خالدٍ يا انفِرْ فلستَ بخالدٍ ... وما جعل الرَّحْمنُ عُذْرًا لقاعدِ [٢]

أتزعم أن الخارجىَّ على الهُدَى ... وأنت مقيمٌ بين لِصٍّ وجاحِدِ

فكتب إليه أبو خالد .

لقد زاد الحياة إلىَّ حُبًّا ... بناتى إنهن من الضِّعافِ

أحاذر أن يَرَيْنَ الفقر بعدى ... وأن يَشْرَبْنَ رَنْقاً بعد صافى [٣]

ولا يتحول مثل هذا الاختلاف فى الرأى بينهم إلى هجاء حاد ، بل يقف عند هذا اللون من اللوم والاعتذار . وكانوا يحسون حقًّا بتعاطف وتراحم قويين بينهم ، فهم أصحاب مقالة واحدة ، وجمهورهم يدافع عنها بأرواحه حتى الدَّماء الأخير . وعلى نحو ما يقطر شعرهم تعاطفاً وحماسة يقطر زهداً فى الدنيا ورفضاً لها طلباً لما عند الله من حسن المثوبة . ومن المحقق أنهم أوغلوا فى مقالتهم دون رفق ودون تفكير عميق فى المصلحة الحقيقية للأمة وأن من الخير لها أن تجتمع لا أن تتنابذ فرقاً وتتقطع شِيَعاً ويسفك الأخ دم أخيه .

وملاحظة أخيرة فى أشعارهم ، هى أنهم يُبدئون ويعيدون فى معانيهم التى صورناها ، ولولا ما يلقانا فيها دائماً من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسسنا فى أثناء قراءتها بغير قليل من الملل والسأم . ولعل هذا هو السبب فى أن شخصياتهم الشعرية قلما تمايزت أو تباينت ، وكأنما هى صور متعددة من نمط واحد ، صور متشابهة ، ومن ثَمَّ أشكلت نسبة كثير منها إلى أصحابها الحقيقيين على الرواة ، فتارة ينسبونها إلى هذا الخارجى أو ذاك . وارجع إلى يوم « دولاب »

---

(١) المبرد ص ٥٢٩ .

(٢) يا انفر يا للتنبيه أو فى تقدير حذف منادى مثل يا أخى .

(٣) الرنق : الكدر .

فى الأغانى فسترى فيه مقطوعة حماسية رائعة من مقطوعاتهم ، اختلف الرواة فى ناظمها ، أما المبرد فنسبها إلى قطرى بن الفجاءة ، ونسبها المدائنى إلى صالح بن عبد الله العَبْشَمِىّ . وقال خالد بن خِداش : بل قائلها عمر والقَنا ، وقال وهب بن جرير : بل هو حبيب بن سهم[١] . ونقف الآن عند شاعرين من شعرائهما هما عمران بن حِطّان والطِّرِمّاح .

عمران[٢] بن حِطّان

بَصْرِىٌّ سَدُوسِىٌّ من شيبان ، نشأ على الفقه والورع ، وقد أدرك صدراً من الصحابة وروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث قبل أن يدخل فى مقالة الخوارج . ونلقاه فى عصر زياد خطيباً يروع من يستمعون إليه[٣] . ولا يلبث قلبه أن يتعلق بابنة عم له تسمى جمرة ، كانت خارجية ، فتزوجها ، وأراد أن يردها عن مذهبها فأغوته وأدخلته فيه ، ويقال إنها كانت ذات جمال ، وكان قبيحاً دميماً ، ويُرْوَى أنها قالت له يوماً : أنا وأنت فى الجنة ، قال : ومن أين علمتِ ذلك ؟ قالت : لأنك أُعطيتَ مثلى فشكرت ، وابتليت بمثلك فصبرت ، والشاكر والصابر فى الجنة .

وقد تعمقته مقالة الخوارج حتى أصبحتْ جزءاً من نفسه ، فهو يعيش لها ويعيش بها ، ويُشيد بأصحابها حتى بأشقاهم عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب ، وفى طعنته له يقول[٤] :

يا ضربةً من تَقِىٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذى العَرْش رضوانا

إنى لأذكرُهُ حيناً فأحسبه ... أوفى البَرِيَّة عند الله ميزانا

ونراه يتأثر تأثراً بليغاً حين قُتل أبو بلال مرداس سنة ٦١ للهجرة ، حتى ليفكر فى الخروج وامتشاق الحسام ، يقول :

---

(١) أغانى ٦/١٤٧ وما بعدها .

(٢) انظر فى ترجمة عمران الأغانى (ساسى) ١٦/١٤٦ وما بعدها والمبرد ص ٥٣٠ وما بعدها والإصابة ٥/١٨١ وخزانة الأدب ٢/٤٣٦ وما بعدها والاشتقاق ص ٣٥٣ وهامش أمالى المرتضى ص ٦٣٥ .

(٣) البيان والتبيين ١/١١٨ .

(٤) انظر فى نقض هذا الشعر المبرد ص ٥٣١ والخزانة ٢/٤٣٦ .

لقد زاد الحياةَ إلىَّ بُغْضاً وحُبًّا للخروج أبو بـلالِ
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذُرَى العوالى[1]
ولو أنى علمت بأن حَتْفِى كحتف أبى بلالٍ لم أُبالِ
فمن يكُ هَمُّهُ الدنيا فإنى لها والله ربِّ البيت قالى[2]

فهو يخشى أن يموت على فراشه حتف أنفه ، ولا يموت ميتة الخوارج الشريفة قعصاً بالرماح ، ميتة أبى بلال ، وقد ظلت ذكراه عالقة بنفسه طويلا ، حتّى ليقول :

أنكرتُ بعدك من قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يامرداس بالناسِ

وكأن الناس جميعاً ما توافيه . ولم يخرج عمران ، فقد كان يؤمن بالقعود ، ومن ثَمَّ اعتنق مذهب الصُّفْرية ودعا إلى القعود ، حتى عُدَّ رئيس قَعَدَتهم . ولم تقعد به بناته على نحو ما رأينا عند أبى خالد[3] ، إنما قعد به — فى أغلب الظن — حبه لزوجته جمرة ، فقد كان يُشْغف بها شغفاً شديداً ، ويعلِّل أبو الفرج ذلك علة أخرى فيقول إنه إنما صار من القعدة ، لأن عمره طال وعجز عن الحرب وحضورها ، وكأنه يرى أنه اعتنق المذهب فى سن عالية . على أنه إن كان قعد فقد مضى فى شعره يصور كرهه للحياة وأنها عبء ثقيل كما مضى يحسِّن لغيره الخروج ويزيِّنه ، وكذلك كان قعدتهم فهم لا يشتركون فى الحروب ويُغْرون بها رفاقهم . ويظهر أنه تمادى فى ذلك لعهد الحجاج ، فطلبه ، ولم يلبث شبيب الصُّفْرى وزوجته غزالة أن هجما على الكوفة فى بعض أصحابهما ، فهلع الحجاج وتحصَّن فى قصره ، فكتب إليه عمران :

أسدٌ علىَّ وفى الحروب نعامةٌ رَبْداءُ تنفر من صَفير الصافرِ[4]
هلا برزتَ إلى غَزالة فى الضُّحَى بل كان قلبك فى جناحَىْ طائرِ[5]

---

(١) العوالى : الرماح .
(٢) قالى : كاره .
(٣) نسبت أبيات أبى خالد إلى عمران فى ترجمته بالأغانى ، والأرجح أنها لأبى خالد كما جاء عند المبرد .
(٤) ربداء : من الربدة وهو لون إلى الغبرة .
(٥) هذا مثل ضربه عمران لتصوير فزع الحجاج ورعبه .

وغضب الحجاج واشتد فى طلبه بعد قضائه على شبيب وصاحبته سنة ٧٧ للهجرة ففرَّ منه على وجهه يتنقَّل فى القبائل منتسباً فى كل حى نسباً يقرب منه ، وما زال يتنقل شاعراً بمرارة الحياة وما يحتمل فى سبيل عقيدته من خطوب حتى انتهى إلى روح بن زنباع الجذامى بالشام . فانتسب له أزديا فأنزله منزلا آمناً نحو عام وبالغ فى إكرامه ، وكان روح سميرا لعبد الملك أثيراً عنده ، فذكر له صاحبه وحسن حديثه وروى له بعض أشعاره ، فرأى عبد الملك فيها ما شككه فى أن صاحبه هو عمران ، وذكر ذلك لروح وطلب منه أن يجيئه به ، ونقل روح إليه رغبة عبد الملك ، فقال له : ذلك ما كنت أريد ، وإنى تابعك إليه على الأثر ، ولم يلبث أن ارتحل مخلفًا لروح رقعة يقول فيها :

قد كنتُ جارك حَوْلا ما تروِّعنى فيه روائع من إنسٍ ومن جانِ[1]

حتى أردتَ بىَ العظمى فأَدركنى ما أَدرك الناسَ من خوف ابن مَرْوان

ومضى حتى نزل بزفر بن الحارث فى قرقيسيا ، فانتسب له أوزاعيًّا ، وتصادف أن رآه رجل عنده كان قد رآه من قبل عند روح ، فلما قال له زُفَـرُ هل تعرفه ؟ قال : نعم أزْدى رأيته عند روح ، حينئذ قال له زفر يا هذا أزْدِيًّا مرة وأوزاعيًّا أخرى ؟ إن كنت خائفاً آمناك وإن كنت فقيراً جبَرناك ، فلما أمسى هرب وخلَّف فى منزله رقعة كتب فيها مقطوعة بديعة يستهلها بقوله :

إن التى أَصبحتْ يَعْيَى بها زُفَرُ أَعيتْ عياءً على رَوْح بن زِنْباعِ

وارتحل حتى أتى عمان ، وهناك أخذ يثير الناس للخروج والثورة على الحجاج ، فطلبه ، فارتحل حتى أتى قومًا من الأزد فى روزميسان بالقرب من الكوفة ، فأقام بينهم حتى توفى سنة ٨٤ .

ولعمران أشعار كثيرة ترويها كتب الأدب والتاريخ ، وهو فيها جميعاً يصدر عن إيمان عميق بمقالة الخوارج ، إيمان جعله يزدرى الحياة ويزهد فيها لولا جمرة ، ومن ثم نشأ فى نفسه صراع عنيف بين الرغبة فى الحياة الكريهة التى يحياها

---

(١) روائع هنا : من الروع وهو الخوف والفزع .

وما يحتمل فيها من أذى ومكروه وبين الرغبة فى الموت ، وعبر عن ذلك فى صور مختلفة ، كأن يصوِّر تهالك الناس على الدنيا ، وهى ليست بدار قرار ، على شاكلة قوله :

أرانا لا نملُّ العيش فيها　　وأولِعْنــا بحرصٍ وانتظارِ
ولا تَبْقَى ، ولا نَبْقَى عليها　　ولا فى الأَمر نأْخذ بالخيارِ
كركبٍ نازلين على طريقٍ　　حثيثٍ رائحٍ منهم وسارى[١]

ويقف كثيراً عند هذا المعنى ، فالناس يتعلقون بالدنيا حتّى جياعهم وعُراتهم فأفٌّ لهم من أشقياء لم يتبينوا الطريق السوىّ . ولا يُخْفِى أنه يسير على كره منه فى نفس الركب ، وأن قلبه هو الآخر ينطوى منها على شىء من الحب والحرص ، وحرى به أن يرفضها رفضاً ، يقول :

أرى أشقياء النَّاس لا يسأمونها　　على أنهم فيها عُرَاةٌ وجُوَّعُ
أراها وإن كانت تُحَبُّ فإنها　　سحابة صَيْفٍ عن قليلٍ تقشَّعُ[٢]

وعلى هذا النحو كان لا يزال يردد أن الموت سيأتى على كل الأحياء وأن لا مفر منه لكائن ، فالكل فان حتّى الموت نفسه ، يقول :

لا يُعْجز الموتَ شىءٌ دون خالقِه　　والموتُ فانٍ إذا ما ناله الأَجَلُ
وكلُّ كَرْبٍ أمام الموت متَّضِعٌ　　للموت ، والموت فيما بعده جَلَلُ[٣]

فالموت سيموت فى النهاية . وهو بذلك كله يعبر عن فكرة الموت التى تلقانا دائماً فى شعر الخوارج ، إنه موت ينقل إلى دار الخلود ، ولذلك ينتظره هائناً به مغتبطاً . وهذا هو شعر عمران دائماً فليس فيه سوى عقيدته . وكان لا يزدرى شيئاً ازدراءه المديح ، وقد سمع الفرزدق مرة ينشد بعض مدائحه ، فتعرض له يقول :

أيهــا المادح العبادَ لِيُعْطَى　　إن لله ما بأَيدى العبادِ

(١) حثيث : سريع . وسارى : يسير ليلا .　　(٣) جلل : عظيم .
(٢) تقشع : تزول .

إنه لا يسأل ولا يمدح سوى ربه ، ولا يفكر إلا فى عقيدته ، فهو مثال دقيق للخارجى الذى تعمقته مقالته حتى الشغاف .

الطِّرِمَّاح [1]

شاعر طائى نشأ فى الشام ، وانتقل إلى الكوفة مع من صار إليها من جيوش الشام . فنزل فى بنى تَيْمِ اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخ من الخوارج له سمْت وفيه وقار ، فكان الطرماح يجالسه ويسمع منه ، فرسَخ كلامه فى قلبه ، ودعاه الشيخ إلى مذهبه ، فقبله واعتقده أشد اعتقاد وأصحَّه حتى مات عليه . واختلف الرواة فى الفرقة التى دخل فيها ، فقال أبو الفرج إنه دخل فى فرقة الأزارقة ، وقال الجاحظ : هو من الصُّفْرية ، وقول الجاحظ هو الصحيح ، لأنه كان من القعدة ولو كان من الأزارقة ما استحل القعود ، إذ كانوا يحرمونه ولا يجيزونه . ولم يُمْضِ قعوده فى مقاومة المسلمين والدعوة إلى الخروج ضدهم على نحو ما صنع عمران بن حطان . فهو صُفْرىٌّ مسالم . ويظهر أنه كان يمضى فى السلم إلى أبعد حد ، فلم يكن يكفِّر المسلمين كمتطرفة الخوارج ، بل كان يعاشرهم ويوادُّهم ويصادقهم ، حتى لنراه يعقد صداقة شديدة بينه وبين الكميت ، يقول الجاحظ : « لم يرَ الناس أعجب حالا من الكُمَيْت والطِّرِمَّاح ، كان الكميت عدنانيًّا عصبيًّا ، وكان الطرماح خارجيًّا من الصُّفْرِية ، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يَجْرِ بينهما صَرْمٌ ولا جَفْوةٌ ولا إعراض ولا شىء مما تدعو هذه الخصال إليه » . وأكبر الظن أن الذى وثَّق بينهما هذه الصلة احترافهما مهنة واحدة ، هى تعليم الناشئة ، فقد كانا معلمين ، يعلمان أولاد العامة ، وكانا خطيبين كما كانا شاعرين . ويُرْوَى عن الطرماح أنه ترك الكوفة حيناً إلى الرَّى بفارس حيث عُنى بتأديب الناشئة

---

(١) انظر فى ترجمة الطرماح أغانى (دار الكتب) ١٢ / ٣٥ والشعر والشعراء ٢ / ٥٦٦ والعينى ٢ / ٢٧٦ والاشتقاق ص ٣٩٢ والموشح للمرزبانى ص ٢٠٨ والبيان والتبيين ١ / ٤٦ ، ٢ / ٢٢٣ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٧ / ٥٢ والخزانة ٣ / ٤١٨ وله ديوان نشره كرنكو فى لندن سنة ١٩٢٧ . والطرماح : الطويل القامة .

فيها ، وَيَرْوِى الجاحظ عن عبد الأعلى أنه قال : « رأيت الطرماح مؤدباً بالرَّىِّ فلم أر أحداً آخذ لعقول الرجال ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده ، وكأنهم قد جالسوا العلماء » .

ويظهر أنه لم يكن يكفيه ما تدرّه عليه هذه المهنة ، إذ نراه يحمل مديحه إلى أبواب الأمراء والولاة ، ففى أخباره أنه قدم مع الكميت على مخلد بن يزيد ابن المهلب ، وأراد أن يمدحه قاعداً ، فنحَّاه مخلد ، ودُعى الكميت فأنشده قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرجا شاطره الكميت ما أخذه . وفى أخباره أيضاً أنه مدح خالد بن عبد الله القسرى الذى ولى العراق سنة ١٠٥ للهجرة ، فأعطاه كل ما بعث به إليه واليه على سجستان ، وهو من هذه الناحية يختلف عن عمران اختلافاً بعيداً ، إذ يطلب الدنيا والمال ملحًّا فى طلبه ، وأيضاً فإننا نراه يستشعر عصبية شديدة لقبيلته ، بل لكل أخواتها من القبائل القحطانية وخاصة الأزد قبيلة المهلب بن أبى صُفْرة ، ودفعه ذلك إلى أن يدخل فى معركة حادة مع الفرزدق شاعر تميم عدوة الأزد والقبائل القحطانية عامة . ومرَّ بنا حديثنا عن هذه العداوة وكيف احتدمت فى البصرة وخراسان . ونعجب للطرماح حين تتعمقه هذه العداوة وما يُطْوَى فيها من عصبية وهو خارجى ، والخوارج لا يعتدون بالعصبيات القبلية ، إنما يعتدون بالعصبية المذهبية ، وكأنما كان مذهبه الخارجى يأتى على هامش حياته . ونعجب حين نقرأ هجاءه للفرزدق ولغيره من شعراء القبائل الذين اصطدم بهم إذ نراه يُقْذِع فيه إقذاعاً شديداً ، ومن طريف هجائه قوله فى تميم :

لو حان وِرْدُ تميم ثم قيل لها ... حَوْضُ الرسول عليه الأَزْدُ لم تَرِدِ

أو أنزل الله وَحْياً أن يعذِّبها ... إن لم تَعُدْ لقتال الأَزد لم تَعُدِ

لا تأْمنَنَّ تميمياً على جَسَدٍ ... قد مات ما لم تُزَايَل أَعْظُمُ الجسَدِ

ونراه يسوق بجانب هجائه مديحاً مفرطاً بنفسه ، لا يتحدث فيه عن بلائه فى الحروب على شاكلة قطرى إنما يتحدث فيه عن خلقه معتدًّا بشمائله اعتداداً مسرفاً ، يقول :

لقد زادنى حُبًّا لنفسىَ أننى بَغيضٌ إلى كل امرئٍ غير طائلِ[1]
وأنى شقىٌّ باللئام ولا ترى شقيًّا بهم إلا كريم الشمائل

والطرماح بذلك كله يبتعد عن روح الخارجي الذى ازدرى الدنيا وكل ما فيها من منازعات قبلية ومفاخرات شخصية فهو يعيش معيشة الناس من حوله ، ويضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات ومن طلب للدنيا ، ولعله من أجل ذلك أكثر التنقل فى العراق وفى فارس وخراسان . ومع ذلك فقد كان يستشعر عقيدته أحياناً ، حتى ليتمنى الخروج ، يقول :

وإنى لمقتادٌ جَوادى وقاذفٌ به وبنفسى العامَ إحدى المقاذفِ
لأَكسبَ مالا أو أَؤُولَ إلى غِنىً من الله يكفينى عِداتِ الخلائف[2]
فياربِّ إن حانتْ وفاتى فلا تكن على شَرْجَعٍ يُعْلَى بخُضر المطارف[3]
ولكن أَحِنْ يومى سعيدًا بعُصْبةٍ يصابون فى فَجٍّ من الأَرض خائفِ
فوارسُ من شيبان أَلَّف بينهم تُقَى الله نَزَّالون عند التزاحف
إذا فارقوا دنياهمُ فارقوا الأَذى وصاروا إلى موعود ما فى المصاحفِ

فهو يسأل ربه أن يموت فى ميدان الحرب مستشهداً ، غير أنه يسوق فى تضاعيف أبياته ما يدل على أنه لم يكن خالص النية فى أمنيته ، إذ نراه فى البيت الثانى يفكر فى الدنيا والمال ، فهو يحارب إما ليقتل شهيداً وإما ليصبح غنيًّا مثرياً . ومن طريف وصفه للخوارج قوله :

لله درُّ الشُّراةِ إنهمُ إذا الكَرى مال بالطُّلا أَرِقوا[4]
يرجِّعــون الحنين آونةً وإن علا ساعةً بهم شَهِقوا
خوفاً تبيتُ القلوب واجفةً تكاد عنها الصُّدورُ تَنْفَلِقُ

---

(١) غير طائل : خسيس .
(٢) عدات : جمع عدة ويريد بها الصلة . الخلائف : جمع خليفة .
(٣) الشرجع : النعش .
(٤) الطلى : الأعناق ، مفردها طلية .

كيف أرجىَّ الحياة بعدهمُ وقد مضى مُؤْنِسِىَّ فانطلقوا
قومٌ شِحَاحٌ على اعتقادهمُ بالفَوْز مما يُخاف قد وَثِقوا

وعلى قَبَس من زهد الخوارج فى الدنيا ومتاعها الزائل وما جاء فى القرآن الكريم من ذم الشحيح الذى يجمع مالا ويدّخره دون أن ينفقه على المحتاجين والمساكين ، وما جاء فيه أيضًا من أن كل إنسان مسئول يوم القيامة عما قدمت يداه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، يوم تشهد عليه جوارحه بما عمل ، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، يقول :

كلُّ حَىٍّ مستكملٌ عِدَّة العُمْـ ـرِ ومودٍ إذا انقضى عَدَدُهْ[١]
عجبًا ما عجبتُ للجامع الما ل يباهى به ويَرْتَفِدهْ[٢]
وُيضيع الذى يصيِّره اللـ ـه إليه فليس يعتقدهْ
يوم لا ينفع المخوَّل ذا الثر وة خِلاَّنُه ولا ولَدُهْ[٣]
يوم يُؤْتَى به وخصماه وسط الـ ـجنِّ والإنْس رِجْلُه ويدهْ
خاشعَ الصَّوت ليس ينفعه ثَـ ـمَّ أمانيهٌ ولا لَدَدُهْ

وكل من يقرأ شعر الطرماح يلاحظ أنه لا يجرى على وتيرة لغوية واحدة ، فهو حين يصدر عن عقيدته ، أو يمدح أو يهجو لا يغرب على سامعيه ، ولكن حين يصف الصحراء يحاول بكل ما يستطيع أن يجمع أوابد الألفاظ ووحشيّها ، وهو جانب دفعه إليه تعليمه الناشئة ، وكأنما شعره ينقسم قسمين : قسماً أراد به أن يدور فى أفواه الناس ، وقسماً أراد به أن يدور فى أفواه المتأدبين حتّى يقفوا على الألفاظ اللغوية الغريبة ، فهو قسم تعليمى محض . ويصوِّر اللغويون مدى إغرابه فى شعره ، فيقولون إن ابن الأعرابى العالم اللغوى المشهور سُئل عن ثمانى عشرة كلمة آبدة فى أشعاره ، فلم يستطع تفسيرها ، ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أن حِسَّه اللغوى لم يكن دقيقاً وأنه كان مشغوفاً بإدخال الألفاظ النبطية فى كلامه . وقد مات حوالى سنة ١٠٥ للهجرة .

---

(١) مود : ميت .
(٢) يرتفده : يكتسبه .
(٣) المخول : الثرى .

٣

شعراء الشيعة

رأينا التشيع ينمو فى الكوفة منذ اتخذها على حاضرة لخلافته . وقد مضى كثير من أهلها بعد وفاته يؤمنون بأن أبناءه وأحفاده أهلُ الخلافة الحقيقيون وأصحابها الشرعيون ، وأن الأمويين اغتصبوها منهم ، وينبغى أن تُرَدَّ عليهم . وتكوَّنت فى أثناء ذلك فرقة الكَيْسانية التى دعت لابن الحنفية ، وقد تأثرت بغير قليل من آراء ابن سَبأ ، فذهبت تزعم أن ابن الحنفية هو المهدى المنتظر ، وأنه ورث عن علىٍّ علمَ الباطن وأن به قبساً من روح الله ، وهو قبس يتنقل فى أئمة الشيعة إماماً بعد إمام ، حتى إذا توفىِّ قالوا برجعته ، وأنه سيعود فيملأ الأرض علماً ونوراً . ونمضى إلى أواخر العصر الأموى فتظهر فرقة الزَّيْدية ، ولم تكن غالية غلو فرقة الكيسانية ، وقد صورنا ذلك فى حديثنا عن السياسة .

وعلى نحو ما كثر شعراء الخوارج فى هذا العصر كثر شعراء الشيعة يتقدمهم كثيِّر شاعر الكيسانية والكميت شاعر الزيدية ، ولعل من الطريف أننا نجد عند أولهما عقيدة الكيسانية ماثلة فى أشعاره بكل ما أوغلت فيه من تطرف فى العقيدة الشيعية ، كما نجد عند ثانيهما عقيدة الزيدية بكل أصولها المذهبية .

وإذا أخذنا نقرأ فى أشعارهما وأشعار غيرهما من شعراء الشيعة وجدناهم محزونين على أئمتهم الذين سفك الأمويون دماءهم ، لا يَرْعَوْن فيهم إلاًّ ولا ذِمّة ، وقد تحولوا يبكونهم ويندبونهم بدموع لا تَرْقَأُ ولا تجفُّ . وربما كان هذا الطابع أهمَّ ما يميِّز الشعر الشيعىَّ فى هذا العصر ، فهو دموع وبكاء وزفرات على الحسين أولا ثم على زيد بن على وابنه يحيى ، زفرات ودموع سخينة من مثل قول سليمان بن قَتَّة يرثى الحسين [١] :

---

(١) مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى (ساسى) ١٥٨/١٤ وما بعدها والمبرد ص ١٢٧ (طبعة الحلبى) ص ١٢١ وانظر أيضاً فى مراثى الحسين الطبرى ٢٠٩/٤ وما بعدها وأغانى والاستيعاب ص ١٤٦ .

مررتُ على أبيات آلِ محمَّدٍ فلم أرها كعهدها يوم حُلَّتِ
وكانوا رجاءً ثم صاروا رَزِيَّـــةً وقد عظمتْ تلك الرزايا وجَلَّتِ
ألم تر أن الشمس أضحتْ مريضةً لفَقْدِ حُسَيْنٍ والبلادُ اقشعرَّتِ
وقد أعولتْ تبكى السماءُ لفقـــدهِ وأنجُمُها ناحتْ عليه وصَلَّتِ

ولم يكونوا يرثونه ويبكونه فقط ، إذ كان كثير منهم يضيف إلى رثائه وبكائه تحريضاً على الأخذ بثأره وثأر من دافعوا عنه من رفاقه ، وهو تحريض يتحول إلى رغبة شديدة فى سفك الدماء ، حتّى يغسل الشيعة عنهم عار القعود عن نصرته . ويتحول ذلك عند طائفة منهم إلى ما يمكن أن نسميه غريزة الدم المسفوح ومن خير منْ يصورها عوف[1] بن عبد الله بن الأحمر الأزدى ، وله فى الحسين قصيدة طويلة رثاه بها وحضّ الشيعة على الطلب بدمه ، وفيها يقول :

لِيَبْكِ حُسَيْنًا كلما ذَرَّ شارقٌ وعند غسوق الليل من كان باكيا
وياليتنى إذ كان كنتُ شهِدتُه فضاربتُ عنه الشانئين الأعاديا
ودافعتُ عنه ما استطعتُ مجاهدًا وأعملتُ سَيْفى فيهمُ وسِنانيا

ومرّ بنا أن كثيرين أخذوا يتلاومون فى الكوفة على خذلانه ، وهم جماعة التوابين ، ومن خير من يمثلهم عبيد الله بن الُحرّ ، ويروى أنه خرج فى جماعة من أصحابه حتى أتى كَرْبَلاء ، فنظر إلى مصرع الحسين ورفاقه فاستغفر لهم ، ثم مضى وهو ينشد[2] :

ويا ندمى أن لا أكون نصرتُه ألا كلُّ نفسٍ لا تسدَّد نادمه
وإنى لأنى لم أكن من حُماتهِ لذو حسرةٍ ما إن تفارق لازمه

ويُقْتَلُ زيد بن على بن الحسين ، فيبكيه الشيعة مُعْولين منذرين لبنى أمية ومهددين من مثل قول المفضَّل المطَّلبى[3] :

---

(١) انظر ترجمة عوف فى معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٢٦ .
(٢) طبرى ٤ / ٣٦٠ .
(٣) مقاتل الطالبيين ص ١٤٩ .

أَلا يا عينُ لا تَرْقَىْ وجُودى ... بدمعك ليس ذا حينَ الجمود[١]
وكيف تضنُّ بالعبَرات عيني ... وتطمـع بعد زيدٍ فى الهجود[٢]
وكيف لها الرُّقاد ولم ترأنى ... جيادَ الخيل تَعْدُو بالأُسود
بأَيديهم صفـائحُ مرهفاتٌ ... صوارمُ أُخْلِصَتْ من عهد هودِ
بها نَسْقى النفوس إذا التقينا ... ونقتـل كلَّ جبارٍ عنيدِ
ونُحْكِم فى بنى الحكَم العوالى ... ونجعلهم بها مثـل الحَصيد[٣]

وعلى هذا النحو كان كل شاعر شيعى يَطْوى فى نفسه حزناً عميقاً على أئمته المستشهدين ورغبة عنيفة فى سفك دماء من قتلوهم ، ولكن أنَّى ذلك وسيوف بنى أمية بالمرصاد لكل من يخرج عليهم . وإنهم ليتعقبون هم وولاتهم أحياءهم ويعدُّون أنفاسهم عدًّا . ومن ثم نشأت بين الشيعة نظرية مشهورة هى نظرية التقية ، فمن حق الشيعى أن يخفى عقيدته ويكتمها ، حتى لا يعرِّض نفسه للخطر بل لا مانع من مصانعة خصومه أحياناً على نحو ما سنرى عند كثيِّر والكميت عما قليل ، إذ مدحا بنى أمية ، وهما يكنَّان لهم العدواة والبغضاء .

وهذان المنزعان من بكاء الشهداء والتحريض على قتل من قتلوهم كان ينطوى فيهما حقد شديد على الأمويين ، وهو حقد ينتهى أحياناً إلى دعوة الناس شيعيين وغير شيعيين للثورة عليهم على نحو ما نجد عند الكميت حين ولىَّ خالد القسرى أخاه أسداً على خراسان سنة ١١٧ فإنه أرسل إلى أهل مَرْو يستحثهم على الثورة بأبيات ، يقول فيها [٤] :

أَلا أَبلغْ جماعةَ أهلِ مَرْو ... على ما كان من نَـأْىٍ وبُعْـدِ
رسالةَ ناصحٍ يُهْدى سلاماً ... ويأْمر فى الذى ركبوا بجِدِّ
فلا تَهنوا ولا تَرْضَوْا بخَسْفٍ ... ولا يَغْرُرْكُمُ أَسدٌ بعَهْـدِ
وإلا فارفعوا الراياتِ سُودًا ... على أَهل الضَّلالة والتعدِّى

(١) ترقى : من رقأ الدمع إذا جف وسكن . جمود العين : بخلها بالدمع .
(٢) الهجود : النوم .
(٣) بنو الحكم : بنو مروان بن الحكم . العوالى : الرماح . الحصيد : الزرع المحصود .
(٤) طبرى ٥/٤٣٣ .

وإذا كانت قلوب الشيعة على هذا النحو تمتلئ بالحقد والغيظ على بنى أمية فقد كانت تمتلىء بالحبّ لآل البيت حبًّا يملك على نفوسهم أهواءها وعواطفها وإحساساتها ومشاعرها، على شاكلة قول أبى الأسود الدؤلى وقد عابه قوم بتشيعه: [١]

أُحبُّ محمدًا حبًّا شديدًا ... وعبَّاسا وحمزة والوصيًّا [٢]

أُحبهمُ لحب الله حتى ... أجىء إذا بُعثتُ على هَوَيَّا [٣]

هَوًى أُعْطيته منذ استدارتْ ... رَحَى الإسلام لم يُعْدَلْ سَوِيًّا [٤]

بنو عَم النبىِّ وأقـــربوه ... أحبُّ الناس كلُّهم إليَّـــا

فإن يك حبُّهم رُشْدًا أُصِبْهُ ... ولستُ بمخطئٍ إن كان غَيًّا

ويقول عبد الله بن كثِّير السَّهمى فى نفس المعنى [٥]:

إن امرءًا أمستْ معايبهُ ... حبُّ النبيِّ لغيرُ ذى ذَنْبِ

وبنى أَبى حسن ووالدِهم ... مَنْ طاب فى الأَرحام والصُّلْبِ

أَيُعَدُّ ذنبًا أن أُحبَّهُمُ ... بل حبُّهم كفَّارة الذنْبِ

فهم يحبون آل البيت لجدهم صلوات الله عليه، وهو حب دفعهم دفعاً إلى استشعار التقوى وعبادة الله حق عبادته، بل لقد دفع نفرًا منهم إلى الزهد فى الحياة ومتاعها الزائل، على نحو ما سنرى عند أبى الأسود الدؤلى فى حديثنا عن شعراء الزهد، ومما يصور ذلك قول حرب بن المنذر بن الجارود، وكان يتشيع، فى كلمة له [٦]:

فحسبى من الدنيا كَفافٌ يُقيمنى ... وأثوابُ كتَّان أَزورُ بها قبرى [٧]

وحُبِّى ذوى قُرْبَى النبىِّ محمَّدٍ ... فما سَالَنا إلا المودَّةَ من أجْرِ [٨]

---

(١) المبرد ص ٥٥٤.

(٢) يريد بالوصى على بن أبى طالب، إذ كان الشيعة كما قلنا مراراً يعتقدون أن النبى أوصى له بالخلافة.

(٣) على هويا: على هواى.

(٤) لم يعدل سوياً: لا مثيل له.

(٥) البيان والتبيين ٣/٣٦٠.

(٦) البيان والتبيين ٣/٣٦٥.

(٧) الكفاف: القوت القليل لا فضل فيه.

(٨) سالنا بالتخفيف: لغة فى سأل. وهو يشير إلى الآية الكريمة: (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى).

وواضح من كل ما سبق أن الشيعة كانت تستغرق أشعارهم فى عصر بنى أمية منازع قوية من حب آل البيت حبًّا قد ينتهى إلى الزهد فى الدنيا ، ومنازع أخرى من الثورة على بنى أمية ، ثورة تَطْوى فى داخلها رغبة شديدة فى أن تُسْفَك دماؤهم كما سُفكت دماء شهداء أبهم : الحسين وزيد بن على ، ومن قبلهما على نفسه . ودائماً يبكون هؤلاء الشهداء الذين استأثروا بهم وملكوا عليهم كل شىء ، وإنهم ليدلعون فى قلوبهم ناراً لا تُطْفَأ من الأسى والحزن العميق . ويحسن بنا أن نقف قليلا عند كثيِّر شاعر الكيسانية ، والكميت شاعر الزيدية .

كُثَيِّر (١)

هو كثيِّر بن عبد الرحمن بن أبى جمعة ، شاعر حجازى من خُزاعة كان ينزل المدينة كثيراً ، وكان قميئاً شديد القصر محمَّقاً وفى الأغانى أخبار كثيرة عن حمقه وعبث الناس به لهذا الحمق . وكان أول ما ساق فيه شعره الغزل ، إذ كان راوية لجميل بن مَعْمر العذرى ، وهو فى جمهور غزله يترنَّم بعزَّة بنت حُمَيل الضَّمْرِية ، وقد اشتهر بغزله فيها حتى سُمِّى كثير عزَّة ، وأروعُ أشعاره فيها تائيته التى يقول فى تضاعيفها :

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامر   لعزَّةَ من أعراضنا ما استحلَّتِ

وهو يلتزم فى رويها التاء واللام جميعاً ، مما يدل من بعض الوجوه على أنه كان متكلفاً فى غــزله ، ويقول ابن سلام : إنــه كان يتقول ولم يكن عاشقاً ولا صادق الصبابة .

ولا نصل إلى سنة ٦٥ للهجرة ودعوة المختار الثقفى لابن الحنفية ، وتكوينه حوله نظرية الكَيْسانية ، حتى يصبح أكبر بوق لهذه النظرية ، فهو يعتنقها اعتناقاً بكل ما يداخلها من غلو ومن أفكار متطرفة ، كفكرة التناسخ وأن

(١) انظر فى ترجمة كثير أغانى (دار الكتب) ٩/٢ وما بعدها و ١٢/١٧٤ وفى مواضع متفرقة ، وابن سلام ص ٤٥٧ و ما بعدها والشعر والشعراء ١/٤٨٠ والفرق بين الفرق ص٢٨ والموشح ص١٤٣ ومعجم الشعراء ص٢٤٢ والخزانة ٢/٣٧٦ ومرآة الجنان ١/٢٠٢ ومعاهد التنصيص وابن خلكان والملل والنحل ص ١١١ وحديث الأربعاء ١/٣٥٨ وما بعدها . وقد نشر بيريس ديوانه فى الجزائر .

قبس النبوة لا يزال يتنقل فى على وأبنائه ، وكفكرة أن ابن الحنفية هو المهدى المنتظر وفيه يقول :

هو المهدىُّ خبَّرَناه كعبٌ   أخو الأَحبار فى الحِقَب الأَوالى[1]

ونراه يمتلئ حقداً على ابن الزبير حين رآه ينزل غضبه على إمامه ويحبسه فى سجن عارم بمكة ، لدعوة المختار الثقفى له فى الكوفة و إخراجه واليه منها . وكان ابن الزبير كما مرَّ بنا قد عاذ بالبيت الحرام لعهد يزيد بن معاوية ، فتوجه إليه كثيِّر يقول :

تخبَّرْ من لاقيت أنك عائذٌ   بل العائذُ المظلومُ فى سجْن عارمِ
وصىُّ النبىِّ المصطفى وابنُ عمِّه   وفكَّاكُ أغلال ونفَّاعُ غارمِ
أَبىَ فهْو لا يَشْرى هُدًى بضلالةٍ   ولا يتَّقى فى الله لومةَ لائم
ونحن بحمد الله نتلو كتابَه   حُلولا بهذا الخَيْف خيف المحارم[2]
بحيث الحمامُ آمِنُ الرَّوْع ساكنٌ   وحيث العدوُّ كالصديق المُسالمِ
وما فَرَحُ الدنيا بباقٍ لأَهله   ولا شِدَّةُ البَلْوَى بضَرْبة لازمِ

وواضح أنه يسجِّل على ابن الزبير خَرْقه لما فرض الإسلام من أمن لكل من لاذ بالحرم ، حتى الحمام فإنه لا يحل صيده ولا التعرض له ، ومع ذلك يتعرض ابن الزبير لابن الحنفية وصى على أو بعبارة أخرى وصى الرسول الكريم الذى يأخذ بأيدى العُناة ، والذى يتقى الله حق تقواه .

ويردُّ ابن الزبير لابن الحنفية حريته ، فيخرج عن جواره ، ويلحق بعبد الملك فى دمشق ، وكثيِّر فى ركابه ، فيكرمه وينزله منزلا عليًّا هو وشاعره . ومن هنا نفهم الصلة التى انعقدت بين كثير وعبد الملك ، فقد أصبح من مداحه ،

(١) كعب : هو كعب الأحبار ، كان ممن يقصون فى العهد الأول .

(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .

وأخذ يثيره على ابن الزبير متمنياً لو انتصر عليه وازال سلطانه عن الحجاز والعراق جميعاً ، حتى إذ ارآه يعدُّ جيشه لحرب مصعب أخذ يحثه على المبادرة لحربه بمثل قوله :

إذا ما أراد الغَزْوَ لم تَثْنِ هَمَّهُ حَصانٌ عليها عِقْدُ دُرٍّ يَزِينُها[١]

نَهته فلما لم تر النَّهْى عــاقَه بكتْ فبكا مما شَجاها قَطِينُها[٢]

وظل يمدح عبد الملك . وارتحل إلى مصر يمدح أخاه عبد العزيز واليها وظن بعض المعاصرين فى مديحه لبنى أمية ضرباً من النفاق[٣] ، وهو لم يكن فى مديحه لهم منافقاً ، إنما كان تابعاً فى ذلك لإمامه الذى رآه يمنح عبد الملك ولاءه . وحتى لو لم يدخل ابن الحنفية فى بيعة عبد الملك لكان مدحه له تقية لا نفاقاً ، ومرّ بنا أن الشيعة كانوا يجيزون التقية خشية على أنفسهم ، وبين أيدينا أخباره مع عبد الملك وهى تقطع بأنه كان يكرمه مع معرفته بتشيعه وأنه يصر عليه إصراراً . على أنه كان يحمِّل مديحه له كثيراً من السموم ، كتصويره له بأنه حية ما تزال تلدغ ، يقول :

يقلِّب عَيْنَى حَيَّــةٍ بِمحَارةٍ إذا أمكنتْه شدَّةٌ لا يُقيلها[٤]

ونراه حين يعرض لخلافته يسلكه من طرف خفى فى مجموعة الخلفاء الذين لا تُقر غالبية الشيعة خلافتهم وترى أنهم اغتصبوها اغتصاباً من ورثتها الشرعيين ، إذ كان يجعله سابع الخلفاء مسقطاً خلافة على ، لأنها الخلافة الصحيحة فى رأيه بين تلك الخلافات الظالمة ، يقول :

وكنت المُعَلَّى إذ أُجِيلَتْ قِدَاحُهم وجــال المَنِيحُ وسْطها يَتَقَلْقَلُ

والمعلَّى هو القدح السابع من قداح الميسر ، وهو أعلاها نصيباً ، أما المنيح فلا نصيب له . وواضح أنه لم يرد أن عبد الملك أعلى الخلفاء الذين سبقوه كعباً ، بل موّه بذلك فى الظاهر ، وعنَى فى الباطن أنه السابع بين الخلفاء الذين لا

(١) الحصان : العفيفة .
(٢) القطين ، الخدم والوصفاء .
(٣) انظر حديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ٣٦٣/١ .
(٤) المحارة هنا : جحر الحية . الشدة : الهجمة على العدو . يقيلها : يفسخها . أراد أنه يبرم عزيمته ولا يتردد .

ترتضى الشيعة إمامتهم . ومن ثَمَّ يقابل عبد الملك فى ترتيب هؤلاء الخلفاء القدح السابع بين القداح وهو المعلى ، وقد صرح بذلك فى مدحة له أخرى ، إذ يقول :

وكان الخـلائف بعد الرسو ل لله كلهمُ تابعـا
شهيدان من بعد صِدِّيقهم وكان ابنُ حَرْب لهم رابعا [١]
وكان ابنهُ بعده خامسا مطيعا لمـن قبله سامعا
ومروان سادسُ مَنْ قد مضى وكان ابنُه بعده سابعا

وعلى هذا النحو لم يتخلَّ عن عقيدته فى مديحه لعبد الملك . وربما كان عمر بن عبد العزيز أهم من أخلص له فى مديحه لبنى أمية ، وهو إخلاص مرجعه فى رأينا إلى موقفه من آل البيت فإنه بالغ فى إكرامهم ومنع عماله منعاً باتًّا من سبِّهم على المنابر ، وكان صالحا تقيًّا ، وفيه يقول كثيِّر مشيراً إلى هذه المكرمة :

وَلِيتَ فلم تشتم عليًّا ولم تُخِفْ بَرِيًّا ولم تَقْبَلْ إشارةَ مجرمِ
وصدَّقتَ بالفعل المقالَ مع الذى أتيت فأمسى راضياً كلُّ مسلمِ
وقد لبستْ لُبْسَ الهَلوكِ ثيابها تراءَى لك الدُّنْيا بكفٍّ ومِعْصَمِ [٢]
وتومض أحياناً بعينٍ مريضةٍ وتَبْسِمُ عن مثل الجُمان المنظَّمِ [٣]
فأعرضتَ عنها مشمئزًّا كأنما سَقَتْكَ مَدُوفاً من سِمامٍ وعَلْقَمِ [٤]
تركتَ الذى يَفْنَى وإن كان مونقًا وآثرتَ ما يَبْقَى برأىٍ مصمِّمِ
وأضررتَ بالفانى وشمَّرْتَ للذى أمامك فى يومٍ من الهَوْلِ مظلمِ

والحق أن كثيراً ظل مخلصاً لعقيدته الشيعية ، وهو إخلاص لا يقف عند إشادته بابن الحنفية ووصفه بأنه مهدىّ أو وصىّ ، أوصى له على . بل يتجاوز ذلك إلى استشعاره ما كان يؤمن به الكيسانية من رجعة أئمتهم بعد

(١) الشهيدان : عمر وعثمان . الصديق : أبو بكر . ابن حرب : معاوية .
(٢) الهلوك : المرأة تشغف بالرجال .
(٣) الجمان : اللؤلؤ .
(٤) المدوف : المخلوط . السمام : جمع سم

مماتهم ، فهم لا يموتون ، بل يغيبون مدة من الزمن ثم يعودون ، يقول فى ابن الحنفية حين لبىّ نداء ربه :

ألا إن الأئمةَ من قريشٍ ... ولاةَ الحق أربعةٌ سَواءُ
علىٌّ والثلاثةُ من بنيهِ ... هم الأَسباطُ ليس بهم خفاءُ
فسِبطٌ سِبْطُ إيمانٍ وبِرٍّ ... وسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاءُ
وسِبْطٌ لا تراه العينُ حتى ... يقود الخَيْلَ يَقْدُمُها اللِّواءُ
تغيَّب لا يُرَى عنهم زمانا ... برَضْوَى عنده عَسَلٌ ومــاءُ

فالأئمة الحقيقيون أصحاب الولاية الشرعية على المسلمين هم على والحسن والحسين وابن الحنفية ، وهم متساوون فى هذه الولاية . ويأبى إلا أن يسمى قَتْل الحسين فى كَرَبْلاء غيبة ، أما ابن الحنفية فهو غائب بجبل رضوى يَطْعم العسل والماء ، وسيعود فى جيش كثيف يقوِّض الحكم الأموى ويرد الأمر إلى نصابه . وما زال يؤمن بعقيدته حتى إذا حضرته الوفاة سنة ١٠٥ ، وقيل سنة ١٠٧ ، رفع صوته ينشد :

بَرِئْتُ إلى الإله من ابن أَرْوَى ... ومن دين الخوارج أجمعينا[1]
ومن عُمرٍ بَرِئْتُ ومن عتيقٍ ... غَداةَ دُعِى أمير المؤمنينا[2]

وواضح أنه يجعل لعلى وبنيه وحدهم الحق فى لقب أمير المؤمنين ، أما من حملوا هذا اللقب قبلهم من الخلفاء الراشدين فهم فى رأيه يُعَدُّون مغتصبين . وعلى هذا النحو كان يغلو فى تشيعه غلوًّا قبيحاً حتى أنفاسه الأخيرة .

الكُمَيْت[3]

هو الكُمَيْت بن زيد الأسدى ، وُلد بالكوفة سنة ٦٠ للهجرة ، ولم يكد

---

(١) ابن أروى : عثمان بن عفان ، وأروى : أمه.

(٢) العتيق : أبو بكر الصديق .

(٣) انظر فى ترجمة الكميت وأخباره أغانى (ساسى) ١٥/١٠٨ والشعر والشعراء ٢/٥٦٢ والموشح ص ١٩١ وابن سلام ص ٢٦٨ وخزانة الأدب ١/٦٩ ، ٨٦ والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ (انظر الفهرس) وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/٦٦ ، ٩٩ ، ٢/٨٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٣٨ ومعاهد التنصيص وكتابنا التطور والتجديد فى الشعر الأموى (طبع دار المعارف) ص ٢٩٢ . وقد طبعت مدائحه فى بنى هاشم مراراً باسم الهاشميات .

يشبّ حتى أخذ يختلف إلى دروس العلماء يتلقن الفقة والحديث النبوى وأنساب العرب وأيامها ، ولم يلبث أن تحوّل معلماً ، يعلم الناشئة فى مسجد الكوفة . ونراه يَنْشُدو الشعر ، وتنعقد مودة بينه وبين الطِّرِمَّاح على نحو ما تحدثنا عن ذلك آنفاً.

ولا يلبث أن يبرع فى الشعر ، فيطلب به جوائز الأشراف والولاة والخلفاء ففى أخباره أنه وفد على مخلد بن يزيد بن المهلب حين كان أبوه يوليه أعمالا فى مدة إمارته على خراسان لعهد سليمان بن عبد الملك . ويقال إنه لقى على بابه أربعين شاعراً ، كلهم ينتظر الإذن له ، وتَرْوى كتب الأدب له مدائح مختلفة فيه . ونراه فى مطالع القرن الثانى يفد على يزيد بن عبد الملك .

ويظهر أن صلته بالهاشميين بدأت مبكرة ، ففى أخباره أنه امتدح على بن الحسين الملقب بزين العابدين . ومعروف أنه توفى سنة تسع وتسعين . ونمضى معه إلى ولاية خالد القسرى على العراق (١٠٥ — ١٢٠ ﻫ) فنجده قد أصبح شيعيًّا خالصاً ، وقد استخلصه لنفسه زيد بن على بن الحسين إمام فرقة الزيدية فإذا هو يناضل عنه ويدافع ، ويعيش لهذا النضال والدفاع ، إذ أُشرب قلبه حبّه وحب الهاشميين ، حتى لينكر من نفسه مديحه القديم ، وحتى ليقول :

طَرِبْتُ وما شوقًا إلى البيض أطربُ	ولا لَعِباً منِّى وذو الشَّيْب يلعبُ
ولم تُلْهِنى دارٌ ولا رَسْم منزلٍ	ولم يتطرَّبْنى بَنَانٌ مُخَضَّبُ
ولكنْ إلى أهل الفضائل والنُّهى	وخيرِ بنى حَوَّاءَ والخيرُ يُطْلَبُ
بنى هاشمٍ رهطِ النبيِّ فإننى	بهم ولهم أرضى مرارًا وأغضبُ

فلم يعد فيه شيء للغزل ولا للحب سوى حب بنى هاشم ، وينصرف إلى هذا الحب ، وينقطع له ، ويشتهر بإحسانه فيه ، حتى ليقول الفرزدق المتوفّى سنة ١١٠ وقد ذُكر له : إنه وجد آجُرًّا وجِصًّا فبنى ، أى أنه وجد مادة غنية لأشعاره ، فأحسن فى نظمه . ونراه فى تصويره لهذا الحب ثائراً ثورة عنيفة على بنى أمية وواليهم خالد القسرى . إذ كان ما ينى يؤلّب عليه وعليهم الناس . داعياً لزيد دعوة صريحة ، حتى لنراه يكتب — كما أسلفنا — إلى أهل مرو أن يثوروا فى وجه أسد القسرى حين ولاه أخوه خالد على خراسان .

وكانت أشعاره الثائرة لا تصل إلى سَمْع خالد فحسب ، فقد وصلت إلى سَمْع هشام بن عبد الملك ، فأمر خالداً بحبسه ، فألقاه فى غياهب السجن . وكانت امرأته تدخل عليه فى ثياب وهيئة حتى عرفها الحُرَّاس ، فدخلت فى غفلة منهم يوماً ، فلبس ثيابها وتهيأ بهيئتها ، ومضى على وجهه إلى الشام ، فضرب قُبَّته على قبر معاوية بن هشام فجاءه أولاده ، فربطوا ثيابه بثيابهم ، حتى دخلوا به على جدهم ، فاستعطفوه حتى ألانوا قلبه وعفا عنه . ويقال بل الذى توسط له بالشفاعة مسلمة بن هشام ، وله فيه وفى بنى أمية مدائح نظمها حينئذ ، من مثل قوله :

الآن صرتُ إلى أميَّـ ـة والأُمـور لها مصائرْ
أهلِ التجاوب فى المحا فل والمقاولِ بالمخاصر[1]
أنتم معـادنُ للخلا فة كابراً من بعد كابر

وهى مدائح تُحْمَلُ على التقيَّة ، إذ اضطر إلى مديحهم مداراة لهم . وعاد إلى الكوفة وقد رُدَّت إليه حريته ، فعاد إلى نضاله مع إمامه زيد . ونعجب إذ نراه على هاشميته وتشيعه يَفْسح لأشعار ، يفخر فيها بمضريته ويهجو اليمن هجاء شديداً ، ولكن إذا عرفنا السبب زال العجب كما يقولون ، فقد تصدى له شاعر يمنى هو حَكيم بن عيَّاش الكلبى كان يتعصب للأمويين ويهجو الهاشميين وزيد بن على هجاء[2] مرًّا ، فرأى الكميت أن يصرفه عن ذلك بفَتْح معركة معه فى اليمنية والمضرية . وبذلك دفعه عن هجاء بنى هاشم وشغله بقومه والنضال عنهم . ويقول الرواة إنه كان يمكر به فيفخر عليه ببنى أمية المضريين حتى يسكته ويغلبه ، وقد ظهَر عليه فعلا لا بذلك فحسب ، بل بما نظم فى عصبيته لمضر وهجائه لليمن من قصائد دوَّت بعيداً ، وعلى رأسها مذهَّبته[3] : (ألا حُيِّيت عنا يا مدينا) ويقال إنها بلغت ثلاثمائه بيت لم يترك فيها مثلبة لليمن إلا سجَّلها ووصمه بها وصمًا .

---

(١) المقاول : جمع مقول ، وهو المفوه . والمقاول بالمخاصر : الخطباء لاتخاذهم لها فى الخطابة

(٢) انظر فى ذلك ترجمته فى الأغانى والإصابة ٢ / ٨٠ ومعجم الأدباء ١٠ / ٢٤٨ .

(٣) فى خزانة الأدب ١ / ٨٦ بعض أبيات من هذه القصيدة وانظر الأغانى (طبع الساسى) ١٥ / ١١٢ والمسعودى (طبعة دار الرجاء بمصر) ٣ / ١٦٢ .

وحتى الآن لم نتحدث عن هاشمياته ، وهى تمتاز بصدق العاطفة وبراعة الحجاج والاستدلال فى بيان حق الهاشمين الشرعى فى الخلافة ، وهو استدلال وحجاج جعل الأقدمين يلاحظون أنه فى شعره وفى هاشمياته خاصة يخرج على المألوف من ذوق الشعراء ، إذ كانوا لا يعرفون فى الشعر هذه الصورة من الجدل ، إنما كانوا يعرفونها للخطباء وأصحاب المقالات ، ومن ثَمّ قالوا إن شعره أشبه بالنثر ، كما قالوا إنه خطيب وليس بشاعر . ومن غير شك كان شاعراً مبدعاً ، فقد نهج بشعره نهجاً جديداً ، إذ أخضعه لصورة المقالة المعاصرة له وما تُشْفَعُ به من براهين وأدلة . وهو فى ذلك يُعَدّ صَدًى قويًّا لما شاع فى عصره من الجدال بين المتناظرين فى مسائل العقيدة ، فقد مثّل هذا الجدال تمثيلا باهراً . ومن غير شك كان يختلف إلى حلقات هذا الجدال ، فقد كان إمامه زيد يتتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وتبعه الكميت فى هذه التلمذة ، فهو الآخر تلميذ لواصل ، تلقّن منه الكلام والجدل فى المسائل العقيدية ، وتحول يستخدمه فى هاشمياته ، فإذا هى ليست أشعاراً فى مديح زيد إمامه ، إنما هى مقالة الزيدية بكل أصولها العقيدية . وبكل ما تستخدمه من أسلحة العقل فى دعم هذه الأصول . ومرت بنا أبياته التى يعلن فيها أنه لن يقف بالرسوم والأطلال يتحدث عن حبه ، فحبه جميعه منصبٌّ على بنى هاشم ، وبذلك كان أول شاعر دعا إلى نبذ الوقوف على الديار سُنَّةَ من سبقوه ، وهو يمضى ، فيسوق الأدلة الناصعة على حق البيت الهاشمى من سلالة فاطمة رضى الله عنها فى الخلافة على شاكلة قوله متحدثاً عن اغتصاب الأمويين لهذا الحق الشرعى :

بخاتمكم غَصْباً تجوز أُمورهم	فلم أَرَ غَصْباً مثْله يُتَغَصَّبُ
وجدنا لكم فى آل حاميم آيةً	تأَوَّلها منا تَقِيٌّ ومُعْرِبُ
وفى غيرها آيًا وآيًا تتابعتْ	لكم نَصَبٌ فيها لذى الشَّكِّ مُنْصِبُ
وقالوا ورثناها أبانا وأُمَّنا	وما ورَّثَتْهُمْ ذاك أُمٌّ ولا أَبُ
ولكنْ مواريثُ ابن آمنةَ الذى	بهِ دانَ شرقٌ لكم ومغرِّبُ
يقولون لم يُورَثْ ولولا تُراثُهُ	لقد شَرِكتْ فيه بَكيلٌ وأَرْحَبُ [1]

(١) بكيل وأرحب : عشيرتان من همدان .

وعَكٌ ولَخْمٌ والسَّكون وحِمْيَرٌ وكِنْدَةُ والحَيَّان بكرٌ وتغلبُ
وما كانتِ الأنصارُ فيها أذلَّةً ولا غُيَّباً عنها إذ الناسُ غُيَّبُ
فإن هى لم تصلح لحىٍّ سواهمُ فإن ذوى القُرْبَى أحقُّ وأقربُ

وواضح أنه بنى احتجاجه على أقيسة عقلية ، فهو يستدل بآى القرآن الحكيم فى سُوَر « حاميم » وغيرها التى تُشيد بأهل البيت وقرابتهم من الرسول ، مقررة حقَّ ذوى القربى من مثل : (وآت ذا القربى حقَّه) ومثل : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القُرْبى) ويناقش الأمويين فى نظامهم الوراثى ، وأنهم لا يُدْلون للرسول كما يدلى آل بيته ، فهم ورثته الشرعيون ، وإلا لورثته القبائل جميعاً وعلى رأسها الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام . وهو يستدل بالنصوص القرآنية تارة ويحكِّم العقل تارة أخرى .

ودائماً يعرض هذه الأدلة مجادلا محاولا الظفر بخصومه ، فإن ترك ذلك لجَّ فى عقيدته الزيدية وأصولها المذهبية ، ومعروف أنها كانت — فى أصلها — من أكثر العقائد الشيعية اعتدالا وإن داخلها فيما بعد التطرف والمغالاة ، إذ كان زيد بن على لا يؤمن بتناسخ ولا ببَداء ولا برَجْعة على نحو ما كان يؤمن الكَيْسانية ، وكان لا يدخل فى عقيدته أى شعوذة أو غلو مسرف ، إنما كان يثبت نظرية الوصاية ، وما تؤمن به الشيعة جميعاً من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى يوم غدير خُمٍّ . وفى ذلك يقول الكميت :

ويومَ الدَّوْحِ دَوْحِ غَديرِ خُمٍّ أبانَ له الولايةَ لو أُطيعـا[1]

وكان زيد كما قدمنا يرى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك صحَّح خلافة أبى بكر وعمر ولم يطعن فيهما ، ولا دفع إلى شتمهما كما تصنع الرافضة ، وفى هذا يقول الكميت :

أهوى عليًّا أمير المؤمنين ولا أرضى بشَتْم أبى بكر ولا عمرا

ومعروف أن زيداً كان يشترط فى الإمام أن يكون من أبناء فاطمة ، ويحتِّم أن يكون عالماً زاهداً شجاعاً سخيًّا[2] ، ويُردِّد الكميت فى هاشمياته هذه الصفات ، يقول فى مدح الأئمة من الهاشميين :

---

(١) غديرخم : بين المدينة ومكة ، نزله الرسول وخطب فيه .
(٢) انظر الملل والنحل ص ١١٥ .

الحُماة الكُفاة فى الحرب إن لُـ ـفَّ ضِرامــا وقــودُها بضِرام
والغيوثُ الذين إن أمْحَلَ النَّا س فمأْوى حواضن الأَيتــام
غالبيِّين هاشميين فى العِلْـ ـم ربَوْا من عطية العَلَّام [1]
وهمُ الآخذون من ثقة الأمْـ ـرِ بتقواهمُ عُرًى لا انفصام [2]

ويضيف الكميت إلى هذه الصفات صفة العدل ، فهم عدول إن حكموا الناس لم يظلموهم نقيراً . وكثيراً ما يقف فى تقريره لهذه الصفة عند جور بنى أمية وظلمهم للناس ، وأنهم لا يتقون الله فى رعايتهم لهم ، بل يعاملونهم كأنهم أغنام ، مبتدعين دائماً بِدَعاً لم يجئ بها الإسلام ، يقول

لهم كلَّ عامٍ بدعةٌ يُحْدثونها أزلُّوا بها أتباعهم ثم أوْحَلُوا

ودائماً يجأر لربه أن يكشف غُمَّتهم عن صدر الأمة ، فقد بغوا فيها وطغوا ، وساموها كل ما استطاعوا من ألوان الخسف والعذاب ، وإنه ليسأل الله أن يُحل الأسرة الهاشمية محلهم ، يقول :

أجــاع الله من أشبعتموه وأشبع مَنْ بِجَوْرِكمُ أُجيعا
بمرضيِّ السياسة هاشميٍّ يكون حَيًا لأمته ربيعا [3]

ووقف الجاحظ عند أبيات مدح بها الرسول ، فقال : « ومن غرائب الحمق المذهب الذى ذهب إليه الكميت فى مديح النبى صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

إلى السِّراج المنير أحمدَ لا تَعْدلنى رَغْبَةٌ ولا رَهَبُ
عنه إلى غيره ولو رفع الـ ـنَّاس إلَيَّ العيونَ وارتقبوا
وقيل أفرطتَ بل قصدتُ ولو عنَّفنى القائلون أو ثَلَبوا

(١) ربوا : نموا من التربية .
(٢) يشير إلى قوله تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) .
(٣) الحيا : المطر .

فتى رأى شاعراً مدح النبي صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس ، حتى يزعم هو أن ناساً يعيبونه ويثلبونه ويعنّفونه[١]» . ويقول المرتضى إن ظاهر الخطاب للنبي والمقصود أهل بيته[٢] . وقد مضى الكميت يناضل عن إمامه مؤيداً مقالته إلى أن رأى الخروج ، فقعد عن نصرته ، وفى هاشمياته ما يدل على أنه كان يكره الخروج ولا يراه ، من مثل قوله :

تجود لهم نفسى بما دون وَثْبَةٍ تظلُّ لها الغِرْبان حولىَ تَحْجِلُ

وخرج زيد وقُتل ، فجزع الكميت ، وذهب يبكيه معلناً سخطه على الأمويين وعاملهم يوسف الثقفى محمّساً الناس أن ينفضُّوا عنه وعنهم . وضيّق عليه يوسف الخناق ، وظلّ يتحين له الفرص ، حتى إذا وفد عليه مادحاً سنة ١٢٦ للهجرة يريد أن يستلّ ضغنه دسّ إليه من قتله .

٤

شعراء ثورة ابن الأشعث

مرّ بنا فى حديثنا عن الكوفة أن أشرافها كانوا يضطغنون على بنى أمية منذ قوّضوا دولتها ، واتخذوا دمشق حاضرة للخلافة ، بل لقد كان العراقيون جميعاً يشعرون بهذا الضغن والحقد ، سواء منهم الكوفيون وغير الكوفيين ، فإنهم فقدوا السيادة ، وأصبحوا خاضعين لعرب الشام ، ولم يعد لهم من الأمر شيء .

وسلّط عليهم الأمويون ولاةً يعْنُفون بهم عنفاً شديداً ، وكان ذلك يزيد فى حقدهم وألمهم ، فتعلقوا بكل ثائر على الأمويين . وسرعان ما كانت جيوش أهل الشام تغلب عليهم ، فيخضعون على مضض ، ويمضون منتظرين للحوادث .

ويتولى الحجاج ، ويأخذهم بسياسة قاسية لا رحمة فيها ولا شفقة ، ويُحس كثير منهم ، وخاصة أشرافهم أنه يستذلهم ، فيأنفون لأنفسهم أنفة شديدة ،

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٢٣٩ .
(٢) أمالى المرتضى ٢ / ٨٠ .

ويودون لو استطاعوا نقض هذا الضيم والخلوص من هذا الذل . وكان ممن تجسّدت فيه هذه المشاعر من أشراف الكوفة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذى يرجع فى نسبه إلى ملوك كندة الأقدمين ، وكان من أشد العرب إحساساً بشرفه وإعجاباً بنفسه وتيهاً وخيلاء . وواتته الفرصة كى يقود هذه الثورة التى كانت تغلو بها نفوس الأشراف فى الكوفة ، ذلك أن عبيد الله بن أبى بكرة عامل سجستان أخفق فى حملة قادها إلى زنبيل ملك الترك ، إذ استدرجه إلى داخل بلاده ثم أطبق عليه فنكل بجيشه حتى يقال إنه مات كمداً .

وفكر الحجاج فى قائد محنك يوليه سجستان ، ويقود الحرب فيها ، وهداه تفكيره إلى عبد الرحمن ، وكان فى كَرْمان ، فأمده بجيش عظيم كان يسمى «جيش الطواويس» ، لتمام أهبته وعُدّته . والتقى بجيوش الترك وانتصر عليها انتصارات عظيمة ملأت يده بالغنائم ، غير أنه رأى — خشية على جيشه — أن لا يتوغل وراء الترك ، حتى لا يصنعوا به ما صنعوه بابن أبى بكرة . ولم يكد يعرف الحجاج ذلك حتى كتب إليه يتهمه بالخور والضعف ، وهدده إن لم يمض فى القتال بعزله . فثار عبد الرحمن لكرامته ، وجمع قادة الجيش ، وحدثهم بكتب الحجاج وكانوا مثله ينطوون على بغضه ، ويتمنون لو عادوا إلى أهليهم ، فأظهروا الثورة عليه ، وقالوا إنه لا يبالى بموتنا ، ويريد أن يعرّضنا للخطر ، حتى نسوق له ولخليفته الغنائم . ولم يلبثوا أن بايعوا عبد الرحمن ، وصمموا على حرب الحجاج حتى يخرج من العراق .

وودع عبد الرحمن ملك الترك وعاهده أنه إن ظفر بالحجاج لم يسأله خراجاً أبداً ، وإن هزمه الحجاج لجأ وأصحابه إليه ، فمنعهم . واتجه بجيشه إلى العراق ، وانضم إليه فى طريقه كثير من جند الكوفة والبصرة المقيمين بحاميات الأمصار ، ولما صار فى فارس خلع عبدَ الملك بن مروان وخلعه جنده ، وبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الجيش «مثل السيل المنحطّ من علٍ ، ليس يرده شىء حتى ينتهى إلى قراره» وأعشى همدان وأبو جِلْدَة اليشكرى فى مقدمته يثيران الناس ويحمّسانهم للقاء الحجاج ومن يستعين بهم من عرب الشام ، الذين نزلوا منازلهم وحلّوا دورهم بينما أُخرِجوا منها

للحرب والموت فى سِجستان وخُراسان على نحو ما نرى فى قول أبى جِلْدة[١] :

أيا لهفى ويا حُزْنى جميعاً ويا غَمَّ الفُؤادِ لما لقينا
تركنا الدِّين والدُّنيا جميعا وخَلَّينا الحلائل والبنينا[٢]
فما كنا أُنَاساً أهل دينٍ فنَصْبِر للبلاء إذا بُلينا
ولا كنا أُناساً أهل دُنْيا فنَمْنَعها وإن لم نَرْجُ دينا
تركنا دورنا لطَغام عَكٍّ وأنباطِ القُرَى والأَشْعَرِينا[٣]

وتقدَّم الحجاج بجيشه، فالتقى بجيش ابن الأشعث على نهر دُجَيْل فى ذى الحجة سنة ٨١ وانتصر ابن الأشعث وتقدم بجنوده ، فاستولى على البصرة ، ومضى الحجاج فنزل بجيشه فى ضاحية من ضواحيها تسمى الزاوية ، وحدثت فيها بين الطرفين معركة عنيفة كان فيها أبو جلدة يحرض على قتال الحجاج بمثل قوله[٤] :

نحن جلبنا الخَيْلَ من زَرَنْجا مالك ياحجّاج منا مَنْجَى[٥]
لتُبْعَجَنَّ بالسيوف بَعْجَا أو لتفِرَّنَّ فذاك أَحْجى[٦]

وما زال أبو جلدة يحمس الجنود ويبث الغَيْرة فيهم لنسائهم حتى شدُّوا على عسكر الحجاج شدة ضعضعته ، وثبت الحجاج وصاح بأهل الشام ، فتراجعوا وثبتوا ، وكانت الدائرة له . وانسحب ابن الأشعث بمن معه إلى الكوفة وهناك حدثت بينه وبين الحجاج موقعة دير الجماجم ، وفيها هُزِم هزيمة ساحقة . ولم يلبث أن جمع للحجاج جموعاً جديدة ، والتقى به فى « مَسْكِن » فحالفته الهزيمة ، فولّى وجهه نحو المشرق إلى أن وصل إلى سجستان ، فالتجأ إلى زنبيل ، وبعد محاولات منه لرَجْع سلطانه أسلمه الزنبيل لجيوش الحجاج ، وقُطِعَت رأسه ، وقيل بل مات انتحاراً . ويلقانا بجانب أبى جلدة شعراء كثيرون لجّوا فى هذه الثورة لعل أهمهم أعشى همدان ، وهو بحق يعد شاعر هذه الثورة .

---

(١) مرت فى الفصل السالف مصادر ترجمته وانظر فى الأبيات أغانى (دار الكتب) ٣١٢/١١

(٢) الحلائل : الزوجات .

(٣) الطغام : الأوغاد ، وعك : من قبائل الشام اليمنية . ومثلها الأشعر قبيلة يمنية . وسماهم أنباطا يريد أنهم ليسوا بدواً ، فهم فلاحون .

(٤) أغانى ٣١٢/١١ .

(٥) زرنج : قصبة سجستان

(٦) البعج : الشق . أحجى : أخلق وأجدر

أعشى [١] همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله الهَمْدانىّ القَحْطانىّ ، نشأ فى الكوفة ، وعُنى فى أول نشأته بالفقه وقراءة القرآن حتى لنرى الشَّعْبى فقيه الكوفة المشهور يُصْهِر إليه ، فيتزوج أخته ويزوِّجه أخته . وتيقظت فيه موهبة الشعر فترك القرآن ورواية الحديث النبوى ، وأقبل عليه ، وآخى أحمد النَّصْبى مغنى بلده ، فكان إذا قال شعراً غنَّى له فيه . وأول ما بين أيدينا من أشعاره يتصل بمديح النعمان بن بشير الأنصارى الذى ولى على الكوفة سنة تسع وخمسين ، وفيه يقول :

متى أَكْفُرِ النعمانَ لم أُلفَ شاكرا ... وما خيرُ من لا يقتدى بشكورِ

وله أشعار ينزع فيها منزع زهد فى الدنيا ، فهو ينفِّر منها ومن التعلق بمتاعها ، وأكبر الظن أنه كان ينظم هذه الأشعار فى أول عهده بالنظم حين كان يختلف إلى مجالس صهره الشعبي وغيره من وعَّاظ الكوفة ، ومن أطرفها قوله :

وبينا المرء أمسى ناعماً جَذِلاً ... فى أهله مُعْجَباً بالعَيْش ذا أَنَقِ [٢]

غِرًّا ، أُتيح له من حَيْنه عَرَضٌ ... فما تلبَّث حتى مات كالصَّعِقِ

فما تزوَّد مما كان يجمعـــه ... إلا حَنوطاً وما واراه من خِرَق [٣]

وغيرَ نَفْحَة أعوادٍ تُشَبُّ له ... وقلَّ ذلك من زادٍ لمنطلق

ونراه حين هُزم التوابون بقيادة سليمان بن صرد سنة خمس وستين يبكيهم بقصيدة كانت إحدى المكتَّمات التى كتمت فى ذلك الزمان [٤] . ويتولَّى مصعب البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير فيلزمه فى سلمه وحربه للمختار الثقفى ناظماً أشعاراً كثيرة ، رواها الطبرى ، يصوِّر فيها شعوذة المختار الثقفى وما كان يتخذ من

---

(١) انظر فى ترجمة أعشى همدان الأغانى (طبع دار الكتب) ٦/٣٣ والاشتقاق ص ٤٢٣ والمؤتلف ١٤ والموشح ص ١٩١ وراجع فهرس الطبرى والجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذرى وله ديوان نشره جاير ملحقاً بديوان أعشى قيس .

(٢) أنق : فرح وسرور .

(٣) الحنوط : طيب يتخذ للميت خاصة .

(٤) طبرى ٤/٤٧٢ .

كُرْسى وحمامات بيضاء تمويهاً على جنده[1] . ويُدال للبصرة من الكوفة ، ويفتخر البصريون بانتصارهم ، فيغضب لبلدته ، ويتوجه إليهم بالخطاب قائلا :

وإذا فاخرتمونا فاذكروا ما فعلنا بكمُ يوم الجَملْ[2]

ونراه يخرج مع جيوش مصعب لحرب الخوارج محارباً تحت لواء المهلب وغيره من القواد أمثال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويظهر أنه ظل يشهر سيفه ضدهم حتى عهد بشر بن مروان على العراق إذ نراه فى موقعة جَلُولاء . وقد انتصر الخوارج ، فمضى يهجو قائد الحملة هجاء مرا . ويتولى خالد بن عتاب بن ورقاء أصبهان ، وكان صديقه ، فيمدحه مدائح رائعة ، غير أنه يجفوه ، فيهجوه . ونراه فى شعره يتحدث عن طلاقه لامرأة من قومه بسبب بَذائها . ويشكو من أخرى تنكرها له ، مع شغفه بها .

ويبعث به الحجاج مع بعض جيوشه إلى مَكْران ، فيمرض هناك ، وينظم قصيدة طويلة يصور فيها حنينه إلى بلدته وأهله وأنه خرج إلى الحرب على رغمه ، خوفاً من سيف الحجاج وبطشه . ويتوغل مع بعوث الحجاج فى بلاد الديلم ، فيقع أسيراً ، وتهواه بنت للعِلْج الذى أسره وتحل قُيوده ، وتأخذ به طرُقاً تعرفها ، وبذلك تخلِّصه وتهرب معه . ويظهر أنه لم يُوَلِّ وجهه إلى العراق ، بل اتجه إلى سِجستان حيث كان ينازل عبيد الله بن أبى بكرة زنبيل ملك الترك ، ولما دارت على جيشه الدوائر بكى هذا الجيش مضمناً بكاءه هجاء شديداً لابن أبى بكرة سواء فى قيادته غير الحكيمة أو فى إهداره لمسئولياته ، إذ انتهز ما كان فيه جيشه من ضيق ، فباع القفيز من الشعير بدرهم ، كما باع لهم العنب الحِصْرِم ، وهم يتساقطون جوعاً ، يقول :

أَسمعتَ بالجيش الذين تمزَّقوا وأصابهم رَيْبُ الزمان الأَعْـوجِ

حُبسوا بكابُلَ يأْكلون جِيادهم بأَضرِّ منزلةٍ وشرِّ مُعَرَّجِ[3]

لم يلق جيشٌ فى البلاد كما لقوا فلمثلهم قُلْ للنوائح تَنْشِجِ

---

(١) انظر الطبرى ٤/٥٥٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٥ .

(٢) يشير إلى وقعة الجمل وانتصار على فيها بأهل الكوفة على أهل البصرة .

(٣) كابل : قصبة زنبيل ملك الترك .

ثم اتجه بخطابه إلى عبيد الله فقال :

وُلِّيتَ شَأْنَهُمْ وكنتَ أميرهم فأضعتهم والحرب ذاتُ توهُّجِ

وتَبيعهم فيهــا القفيزَ بدرهمٍ فيظلُّ جيشك بالملامة ينتجي [١]

ومَنعتهم أَلبــانَهم وشعيرهم وتَجِرْتَ بالعنب الذى لم ينْضَج

ومات ابن أبي بكرة كما قدمنا ، فوَلِيَ سجستان ابن الأشعث ، فسأله أن يزيد فى عطائه ، فلم يُلَبِّ سؤاله ، فمضى يعاتبه فى قصيدة طويلة ، يقول له فى تضاعيفها :

مالك لا تعطى وأنت امرؤٌ مُثْرٍ مِن الطَّــارفِ والتَّــالدِ

تَجْبِي سجستانَ ومــا حولها متَّكِئــاً فى عيشك الراغــدِ

وتتطور الظروف ، ويثور ابن الأشعث على الحجاج ، فيضع الأعشى يده فى يده وكأنه صَدَرَ فى ثورته عن أمنيته ، فقد وقف من قديم فى صفوف المعارضة الأموية ، وقف كما قدمنا مع التوابين من الشيعة ثم وقف مع مصعب بن الزبير . وكان دائماً لا يرضى عن ولاة بنى أمية ، ويراهم ظالمين للرعية يسومونها العذابَ على نحو ما رأينا فى هجائه لابن أبي بكرة . وهذا الحجَّاج على العراق قد بغى وطغى ، ولا يعرف أحد طغيانه وبغيه مثله ، فقد أمره بالخروج فى بعوث الشرق ، وخرج كارهاً مُرْغَماً ، لا يعرف متى يأذن له فى العودة لتقرَّ عينه بأهله وولده . لذلك حين أعلن ابن الأشعث الثورة على الحجاج لزمه ينظم الشعر محمِّسا لجنده ، فلما توجه مقبلا إلى العراق سار بين يديه على فرس وهو يقول :

إنا سفَوْنا للكفور الفَتَّانْ حين طغى فى الكفر بعد الإيمانْ [٢]

بالسيد الغِطْرِيف عبد الرحمن سار بِجَمْعٍ كالدَّبَى من قحطانْ [٣]

أَمكن ربِّى من ثقيفٍ هَمْدان يوماً إلى الليل يُسَلِّى ما كانْ

إن ثقيفا منهم الكذَّابان كَذَّابُها الماضى وكذابٌ ثانْ

(١) ينتجى : يتسار ، من النجوى وهى السر .
(٢) سفا : خف وأسرع .
(٣) الدبى : الجراد .

وأخذ ينظم أشعاراً كثيرة ، يثير بها الجند ويحرّضهم على القتال ، ونجده فى هذه الأشعار يتحدث عن مجد ابن الأشعث القديم ، وما كان لآبائه من مُلك وشرف وسيادة فى الجاهلية ، وهو بذلك يضع فى يدنا وثيقة سياسية لهذه الثورة ، فهى كما قدمنا ثورة أشراف الكوفة الذين انحدروا من أُسَرِ العصر الجاهلى النبيلة ، يقول :

يأْبى الإله وعزةُ ابنِ محمَّد ... وجُدود مَلْكٍ قبل آل ثمودِ[1]

أن تأْنَسُوا بِمُذَمَّمين عُروقُهم ... فى الناس إن نُسبوا عروقُ عبيدِ

كم من أب لك كان يَعْقد تاجَه ... بجبين أبْلَجَ مِقْوَلٍ صِنْديدِ[2]

ما قصرَّتْ بك أن تنال مدى العُلا ... أخلاقُ مكرمةٍ وإرثُ جُدودِ

وانتهت الحرب وانتصر الحجاج ، وأُتى إليه بأعشى همدان أسيراً ، فأخذ يستعطفه ويسترحمه ويحاول أن يُلين قلبه له بقصيدة رائعة يقول فيها مشيداً بانتصاره :

أبَى اللهُ إلا أن يتمِّم نوره ... ويطفئَ نار الفاسقين فتَخْمُدَا

ويُنْزل ذُلاًّ بالعراق وأهله ... لِما نقضوا العهدَ الوثيقَ المؤكَّدَا

وما نكَثُوا من بَيْعَةٍ بعد بيعةٍ ... إذا ضَمِنوها اليوم خاسوابها غَدَا[3]

وما أحدثوا من بِدْعَةٍ وعظيمةٍ ... من القَول لم تَصْعَدْ إلى الله مَصْعَدَا

وما زاحف الحَجَّاجُ إلا رأيته ... مُعَانًا مُلَقًّى للفتوح معوَّدا

ليهنئْ أميرَ المؤْمنين ظهورُه ... على أمةٍ كانوا بُغاةً وحُسَّدَا

ولكن ذنبه عند الحجاج كان عظيماً فاربدَّ وجهه واهتزَّ منكباه ، وأمر الحرسىَّ فضرب عنقه سنة ٨٣ للهجرة .

---

(١) ابن محمد : هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويريد بآل ثمود قبيلة ثقيف قوم الحجاج ، وكان هناك من يقول إنهم بقايا ثمود .

(٢) أبلج : طلق الوجه . مقول : خطيب . صنديد : الجواد الشجاع

(٣) خاس : غدر ونكث

٥

شعراء بنى أمية

لا نريد هنا أن نتحدث عن مُدَّاح بنى أمية ، فالمديح شىء والشعر السياسى شىء آخر. المديح ثناء يقدمه الشاعر ابتغاء النوال والعطاء ، أما الشعر السياسى فنضال عن الحكم وعن نظرية معينة فيه ، فهو ليس مجرد مديح ، إنما هو دفاع من جهة وهجوم من جهة ثانية ، دفاع عن نظرية ، تعتنقها جماعة من الجماعات أو فرقة من الفرق ، وهجوم على خصومها ومن يقفون فى الصفوف المعارضة لها .

وأول صورة تلقانا للشعر السياسى المناصر لبنى أمية ما أخذ ينظمه الأمويون أنفسهم من مثل الوليد بن عقبة عقب مقتل عثمان ، إذ مضوا يهاجمون الثوار ، الذين قتلوه ، جاعلين أنفسهم أصحاب الحق فى الثأر من قتلته ، فهم أهله الأقربون ، ومن ثَمَّ فهم أولياء دمه . وكان علىٌّ قد بُويع بالخلافة وانشق عليه طلحة والزبير والسيدة عائشة ، كما انشق زعيم بنى أمية معاوية أمير الشام يسنده جيش يمنى موال له تمام الولاء . وبذلك انقسمت الجماعة الإسلامية شيَعاً ، وأخذت كل شيعة تحاول أن تفرض رأيها السياسى باللجوء إلى السيف والقوة . ومضى الثلاثة الأولون إلى العراق ونزلوا البصرة فتبعهم على ونزل الكوفة ، وبذلك خرجت الخلافة من المدينة ، ولم يلبث طلحة والزبير أن سقطا فى وقعة الجمَل ، فخلا الجو لمعاوية ومطالبته بالثأر من قتلة ابن عمه عثمان . وأسرع على بعد أن بايعه أهل العراق جميعاً قاصداً معاوية فالتقى به عند صِفِّين على حدود الفرات . ونشبت معركة عنيفة كاد ينتصر فيها علىٌّ انتصاراً حاسماً لولا ما لجأ إليه معاوية من رفع المصاحف وطلب الاحتكام إلى القرآن لا إلى السيف . وفى هذه الموقعة نُظم شعر كثير تبادل فيه الفريقان الهجاء ، وكل منهم يدافع عن نظريته فى الحكم وعن إمامه الذى ارتضاه مستلهماً خصومة الشام والعراق فى الجاهلية وما كان من تنافس على سلطان القبائل العربية بين الغساسنة والمناذرة ، على شاكلة قول كعب بن جُعَيْل التغلبى :

أرى الشامَ تكره مُلْكَ العراق وأهلُ العراق لهم كارهونا
وقالوا عليٌّ إمامٌ لنــا فقلنا رضينا ابنَ هِنْدٍ رضينا

وردّ عليه بعض شعراء العراق، فقال ينقض ما زعمه، مشيراً إلى ما بين الطرفين من عداوات قديمة:

أتاكم عليٌّ بأهل العراقِ وأهل الحجاز فما تصنعونا
فإن يكره القومُ مُلْكَ العراق فِقدْ مَا رضينا الذى تكرهونا (١)

وتطورت الظروف وقُتل على بعد التحكيم، وبايع الناس معاوية، ودخلت العراق فى طاعته وطاعة من خلفوه من الأمويين، ولكنها ظلت تعارضهم خفية، وكلما استطاعت أن تجهر بمعارضتها نهضت إلى ذلك تارة مع الخوارج، وتارة مع الشيعة، وتارة مع ابن الأشعث أو يزيد بن المهلب. وعارضتهم الحجاز فى عهد يزيد بن معاوية وتجسمت معارضتها فى عبد الله بن الزبير.

وقد رأينا شعراء مختلفين يقفون فى هذه الصفوف المعارضة يناضلون عن نظرياتهم السياسية، وكان الأمويون يستظهرون عليهم بشعرائهم طوال العصر. وكان أول ما استخدموا فيه هؤلاء الشعراء هجاء عبد الرحمن بن حسان والأنصار حين اشتبك مع يزيد بن معاوية، وفى رواية مع عبد الرحمن بن الحكم، فاستعان عليه يزيد بالأخطل النصرانى التغلبى، على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع، ومنذ هذا التاريخ أصبح الأخطل شاعراً أمويًّا يناضل عن السياسة الأموية. ويحاول معاوية أن يجعل الخلافة وراثية فى بيته، وأن يأخذ البيعة لابنه يزيد فى حياته. وكان ذلك فى رأى كثيرين بدعة منكرة، إذ تَخْرُجُ الخلافة به عن الشورى وتصبح إرثاً من الأب لابنه، على نحو ما هو معروف عند الروم وما كان معروفاً عند الفرس، وعَرَف معاويةُ نفور المسلمين من ذلك، فدفع بعض الخطباء إلى الدعوة لفكرته، كما دفع بعض الشعراء، وكان أسرع من لبّاه منهم مسكين الدارمى فأنشأ يقول فى كلمة له (٢):

---

(١) انظر الأخبار الطوال للدينورى (طبع ليدن) ص ١٧٠.

(٢) الأغانى (ساسى) ١٨/٧١.

بنى خُلفاءِ الله مهلا فإنما ... يُبوِّئها الرحمنُ حيث يريدُ[١]

إذا المِنْبَرُ الغَرْبىُّ خلَّى مكانه ... فإن أميرَ المؤمنين يزيد

على الطائر الميمون والجَدُّ صاعدٌ ... لكلِّ أناسٍ طائرٌ وجدودُ[٢]

ويقال إن معاوية أقبل عليه ، فقال : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله ، ووصله هو وابنه يزيد وأجزلا صلته .

ومن شعراء آل أبى سفيان المتوكل[٣] الليثى وعبدالله[٤] بن همّام السلولى « وكان مكينًا حظيًّا فيهم وهو الذى حدَا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية » فى أشعار يرويها الرواة ، كان يرثى فيها أباه ويحضه على البيعة لابنه من مثل قوله[٥] :

اصْبِرْ يزيد فقد فارقتَ ذامِقَةٍ ... واشكر حباءَ الذى بالمُلْك حاباكا

لا رُزْءَ أعظمُ فى الأقوام نعلمه ... كما رُزِئتَ ولا عُقْبَى كعُقْباكا

أصبحتَ راعىَ أهل الدين كلِّهم ... فأنت ترعــاهمُ والله يرعاكا

وفى معــاويةَ الباقى لنا خَلَفٌ ... إذا نُعيتَ ولا نَسْمَعْ بِمَنْعاكا

ونمضى إلى عصر المروانيين ، وأول من نلقاه من شعرائهم أبو العباس[٦] الأعمى الشاعر المكى مولى بنى الدُّئل يقول أبو الفرج الأصبهانى : « كان من شعراء بنى أمية المعدودين المقدَّمين فى مدحهم والتشيع لهم وانصباب الهوى إليهم » ونراه حين غلب ابن الزبير على الحجاز ونفى عنه الأمويين وعلى رأسهم مروان ابن الحكم يبكيهم بأشعار كثيرة من مثل قوله :

ولم أر حَيًّا مثل حَىٍّ تحمَّلــوا ... إلى الشام مظلومين منذ بُرِيت[٧]

أعزَّ وأمضى حين تَشْتجر القَنا ... وأعلمَ بالمسكين حيث يَبيت

---

(١) يبوئها : ينزلها .

(٢) الجد : الحظ .

(٣) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ١٢/١٥٩ .

(٤) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ٢/٦٣٣ وابن سلام ص ٥٢٢ والخزانة ٣/٦٣٨ .

(٥) البيان والتبيين ٢/١٣٢ ، والمبرد ص ٧٨٥ وراجع المصادر السابقة .

(٦) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع الساسى) ١٥/٥٧ ونكت الهميان للصفدى ص ١٥٣ ومعجم الأدباء ١١/١٧٩ والتهذيب ٣/٤٤٩ والبيان والتبيين ١/٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٧) تحملوا : ارتحلوا . بريت : خلقت .

إذا مات منهم سَيِّدٌ قام سيد بصيرٌ بعَوْرات الكلام زَميت[(١)]

وقوله :

ليت شعرى أفاح رائحة المِسْـ ـكِ وما إن أخال بالخَيْف أنسِى[(٢)]

حين غابتْ بنو أميَّة عنه والبهَاليلُ من بنى عبد شَمْسِ

خطباءُ على المنابر فُرْسا نٌ عليها وقالةٌ غير خُرْسِ

لا يُعابون صامتين وإن قا لوا أصابوا ولم يقولوا بِلبْسِ

وبلغ ابن الزبير نُبَذٌ من كلامه وأنه يمدح عبد الملك ويرسل له بجوائزه وصلاته ، فنفاه إلى الطائف ، وهناك أخذ يهجوه وآله هجاء مرًّا ، محرضاً عبد الملك على حربه . وعلى نحو ما كان ينحرف عن ابن الزبير كان ينحرف عن بنى هاشم ، وفى ذلك يقول لأبى الطفيل عامر بن واثلة وكان شيعيًّا :

لعمرك إننى وأباطُفَيْلٍ لمختلفان واللهُ الشهيدُ

لقد ضَلُّوا بحب أبى تُرابٍ كما ضلَّتْ عن الحق اليهودُ

ويقال إنه أدرك دولة بنى العباس ، وتُرْوَى له أشعار مختلفة — إن صحت — فى بكاء الأمويين ، يتفجع فيها عليهم ويتحسر تحسراً شديداً من مثل قوله :

خلتِ المنابرُ والأَسرَّة منهمُ فعليهمُ حتى المماتِ سلامُ

وممن كان يلهج بهم ويقف فى صفوفهم نابغة بنى شيبان[(٣)] عبد الله بن المخارق ، ويستظهر أبو الفرج أنه كان نصرانيًّا ، لحلفه بالإنجيل والرهبان والأيمان التى يحلف بها النصارى ، وفى ديوانه أشعار كثيرة تدل أنه اعتنق الإسلام من مثل قوله :

ويَزْجرنى الإسلامُ والشَّيْبُ والتُّقى وفى الشَّيْبِ والإسلام للمرءِ زاجرُ

---

(١) زميت : وقور .

(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .

(٣) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ٧/١٠٦ وقد نشرت دار الكتب ديوانه.

وكان منقطعاً إلى عبد الملك ، فلما همَّ بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد العهد مَثَل بين يديه ينشده قصيدة طويلة يقول فى تضاعيفها :

لَابنُكَ أولى بمُلْكِ والده ونَجْمُ من قد عَصاك مطَّرَحُ

فعلم الناس أن هذا هو رأى عبد الملك . وظل من بعده يمدح أبناءه ، وله تهنئة طويلة ليزيد حين قضى أخوه مسلمة على ابن المهلب . ولازم بعده ابنه الوليد ، وله فيه مدائح كثيرة ، وكان من هواه فى الخمر والشراب ، وله فيها أشعار طريفة .

وعلى شاكلته فى الانتصار لبنى مروان أعشى قبيلته عبد[1] الله بن خارجة ، وكان شديد التعصب لهم ، وله فى عبد الملك مدائح كثيرة ، يحضه فيها على حرب ابن الزبير والقضاء عليه من مثل قوله :

آلُ الزبير من الخلافة كالتى عَجِلَ النِّتاجُ بِحَمْلها فأحالها[2]
قوموا إليهم لا تناموا عنهمُ كم للغواة أَطلتمُ إمهـالها
إن الخلافة فيكمُ لا فيهمُ ما زلتمُ أركانها وثِمالها[3]
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقاً فانهض بيُمْنك فافتتح أقفالها

ومن شعراء بنى أمية أبو عطاء[4] السِّنْدِىّ مولى بنى أسد ، وكانت فيه لُكْنة سبق أن تحدثنا عنها وكان من شعراء يزيد بن عمر بن هبيرة آخر ولاة الأمويين على العراق ، ولما قتله العباسيون رثاه بمراثى بديعة . وقد عاش إلى أيام المنصور ، ونراه يبكى بنى أمية حين سقطت دولتهم هاجياً العباسيين فى أشعار كثيرة من مثل قوله :

ياليت جَوْرَ بنى مروانَ عاد لنا وأنَّ عدل بنى العباس فى النار

وقوله :

بنى هاشمٍ عودوا إلى نَخَلاتكمْ فقد قام سِعْرُ التَّمْر صاعاً بدرهمِ
فإن قلتمُ رَهْطُ النبىِّ وقومُـهُ فإن النصارى رَهْطُ عيسى بن مريمِ

(١) انظر ترجمته فى الأغانى طبع (ساسى) ١٦/١٥٥ وقد نشر جاير ديوانه ملحقاً بديوان أعشى قيس .

(٢) أحالها : جعلها لا تنتج .

(٣) الثمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه .

(٤) انظر فى ترجمة أبى عطاء أغانى (ساسى) ١٦/٧٨ والشعر والشعراء ٢/٧٤٢ والخزانة ٤/١٧٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٥٦ والعينى ١/٥٦٠ .

وبجانب هؤلاء الشعراء كثيرون كانوا لا ينقطعون لبنى أمية ، ولكنهم كانوا يمدحونهم من حين إلى حين ، منوهين بأن الأمة لا تصلح إلا عليهم ، ولا تتم لها سعادتها إلا بهم ، وكانوا لا يزالون يقولون إنهم المختارون للأمة على شاكلة قول الأحوص فى الوليد بن عبد الملك[١] :

تخيَّرهُ ربٌّ العباد لخلقهِ وَلِيًّا وكان الله بالناس أعْلَما

وقد يصعدون بهم فيشبهونهم بالأنبياء ، يقول يزيد بن الحكم فى سليمان[٢] :

سُمِّيتَ باسم امرئٍ أشبهتَ شِيمَتَه عَدْلا وفضلا سليمانَ بنَ داودا
أحْمِدْ به فى الوَرَى الماضين من ملكٍ وأنت أصبحتَ فى الباقين محمودا

وكان فى زهد عمر بن عبد العزيز مدد لهم لا ينفد فى تصوير تقواه وانصرافه عن الدنيا ومتاعها الزائل على نحو ما أسلفنا عند كثيِّر، ويقول العَبْلى فى هشام بن عبد الملك وأسلافه[٣] :

يَقْطعون النهارَ بالرأْى والحــزْ م ويُحْيُون ليلهم بالسجودِ

والغريب أن نجد هذا التصوير يمتدُّ حتى إلى من عُرفوا منهم بالمجون مثل الوليد بن يزيد ، وفيه يقول يزيد بن ضبَّة[٤] :

إمــامٌ يُوضِحُ الحقَّ له نــورٌ على نــورِ

ولما اضطربت الدولة فى عهده وعهد خلفائه ، وأخذوا يحتربون ويقتل بعضهم بعضاً ، وبَدَتْ فى الأفق النُّذر بزوال حكمهم كتب نصر بن سيار واليهم على خراسان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة واليهم على العراق يستنصره وينبئه عن تحرك الشيعة فى دياره قائلا[٥] :

أرى خَلَل الرَّمادِ وميضَ جَمْرٍ فيوشك أن يكون له اضطرامُ
فقلتُ من التعجّب ليتَ شعرى أأيقاظٌ أميَّــةُ أم نِيــامُ
فإن كانوا لحينهمِ نِيــاماً فقل قوموا فقد طال المنام

(١) أغانى (دار الكتب) ١/٢٩٨ .
(٢) أغانى (دار الكتب) ١٢/٢٨٨ .
(٣) أغانى ١١/٣٠٦ .
(٤) انظر ترجمته فى الأغانى ٧/٩٥ وما بعدها .
(٥) البيان والتبيين ١/١٥٨ .

ولم تلبث الثورة عليهم أن اندلعت ، وقوّضتْ حكمهم سنة ١٣٢ للهجرة بين عويل كثير من الشعراء وبكائهم ، على نحو ما أسلفنا عند أبى عطاء السندى ونقف الآن عند شاعر ين مهمين من شعرائهم .

عبد الله[1] بن الزَّبِير

كوفى المنزل والمنشأ من بنى أسد « كان من شيعة بنى أمية وذوى الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدرهم » ونراه يلهج بالشعر منذ خلافة معاوية ، وحدث أن فسد ما بينه وبين عبد الرحمن بن أم الحكم واليه على الكوفة فأخذ يهجوه ، ويقال إن يزيد بن معاوية هو الذى كان يغريه على ذلك ، إذ كان يبغض ابن أم الحكم ، ولما طلبه استجار منه بمروان بن الحكم وهو على المدينة فأجاره ، ومدحه . ونراه يمدح عمرو بن عثمان مديحاً رائعاً ، إذ يقول :

سأشكر عمراً إن تراختْ منيَّتى ... أيادىَ لم تُمْنَنْ وإن هى جَلَّتِ

فتىً غير محجوبِ الغنى عن صديقه ... ولا مُظْهر الشكوى إذا النَّعْلُ زَلَّت

رأى خَلَّتى من حيث يَخْفى مكانُها ... فكانتْ قَذَى عينيه حتى تجلَّتِ[2]

ويمدح أسماء بن خارجة ، ويقال إنه شفع له عند ابن أم الحكم ، فعفا عنه ، ولم يكتف أسماء بذلك فقد وصله وجعل له ولعياله عطاء دائماً ، مما جعله يُشيد به بمثل قوله :

ولا مَجْدَ إلا مَجْدُ أسماءَ فوقه ... ولا جَرْىَ إلا جَرْىُ أسماءَ فاضلُهْ

فَتًى لا يزال الدهرَ ما عاش مُخْصِباً ... ولو كان بالمَوْماة تَخْدِى رَواحلُه[3]

وعزُل ابن أم الحكم عن الكوفة وضُمَّتْ إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة ، فلزمه يمدحه وينوّه به فى قصائد كثيرة ، ومن قوله فيه :

تصافى عبيدُ اللهِ والمجدُ صفوة ال ... حليفين ما أرْسَى ثَبيرٌ ويَثْرِبُ[4]

وأنت إلى الخيرات أولُ سابقٍ ... فأبْشِرْ فقد أدركتَ ما كنت تطلبُ

---

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ١٤ / ٢١٧ وما بعدها والخزانة ١ / ٣٤٥ ومعاهد التنصيص ١ / ٢٠ .

(٢) الخلة : الحاجة والخصاصة . والقذى : ما يقع فى العين .

(٣) الموماة : المفازة . تخدى الناقة : تسرع فى سيرها .

(٤) ثبير : جبل بظاهر مكة . يثرب : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتموج الفتنة بالعراق ، فيفر ابن زياد إلى الشام وتخلص الكوفة للمختار الثقفى فيتحول إليه ابن الزُّبير يتوعده ويتهدَّده بكتائب المروانيين . ويغلب مصعب على الكوفة ويؤتى به أسيراً ، فيمنُّ عليه ويصله ويحسن إليه ، فيمدحه ، ولكنه لا ينتقل بولائه إلى أخيه عبد الله ، إذ نراه يهجوه حين يبلغه قتله لبعض شيعة بنى أمية ، وله يقول :

أيهـا العائذُ فى مكةَ كمْ ... من دمٍ أهْرَقْتَه فى غير دَمْ
أيَدٌ عـائذةٌ معصمةٌ ... ويدٌ تقتل مَنْ حَلَّ الحَرَمْ

ولما قضى عبد الملك على مصعب ، وخلص له العراق ، وأرسل الحجاج للقضاء على ابن الزبير بمكة مضى ينذره بسوء المصير قائلا :

كأنى بعبد الله يركب رَدْعَـه ... وفيه سِنان زاعِبِىٌّ مُحَرَّبُ[1]
وقد فَرَّ عنه الملحدون وحلَّقتْ ... بهِ وبمن آساه عَنْقاءُ مُغْرِب[2]
تولَّوا فخلَّوه فشالَ بشِلوهِ ... طويلٌ من الأَجذاع عارٍ مشذَّبُ[3]
بكفَّى غلامٍ من ثَقيفٍ نَمَتْ به ... قريشٌ وذو المجد التَّليد معتَّبُ

ويلزم بشر بن مروان فى ولايته على العراق ، ويمدحه مدائح كثيرة وقد توفِّى فى خلافة عبد الملك ، ويظهر أنه لم يعش طويلا بعد بشر ، ويقال إنه عمِىَ بأخرة ، ويقول أبو الفرج إنه كان هجاء يُرْهَبُ شره .

عدى[4] بن الرِّقاع

من عاملة إحدى قبائل قُضاعة ، كان منزله بدمشق ، وهو بذلك يُسْلك فى حاضرة الشعراء . وكان مقدَّماً عند بنى أمية — كما يقول أبو الفرج مدَّاحاً

---

(١) يقال ركب ردعه : إذا سقط قتيلا يتشخب دمه . والزاعبية : ضرب من الرماح . محرب : محدد .

(٢) يقال عنقاء مغرب على الوصف وبالإضافة يقصد حوم الطير على أشلائهم .

(٣) الشلو : الجسد . شال به : رفعه أى أنه صلب على جذع طويل . مشذب : مصلح مقوم.

(٤) انظر فى ترجمة عدى وأخباره وأشعاره أغانى (طبع دار الكتب) ٢٩٩/١ وما بعدها و ٣٠٧/٩ وما بعدها و (طبع الساسى) ١٦٥/١٧ والطبرى ٢/٥ والشعر والشعراء ٦٠٠/٢ وابن سلام ص ٣٢٤ ، ٤٣٥ ، ٥٥١ ، ٥٥٨ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٨٦ والاشتقاق ص ٣٧٥ والموشح ص ١٩٠ والطرائف الأدبية (طبع لجنة التأليف) ص ٨١ .

لهم، خاصًّا منهم بالوليد بن عبد الملك . ونراه يشترك فى مخاصمات أشراف قبيلته لعهد يزيد بن معاوية . ولما أُشرعت الأسنة بين القبائل اليمنية وقيس فى الشام ناصر قومه وبنى أمية . ونراه مع عبد الملك فى حربه لمصعب بن الزبير ، وله يمدحه مفاخراً بنصرتهم له :

لعمرى لقد أَصْحرتْ خيْلُنا بأَكنافِ دِجْلة للمُصْعَبِ[1]
يَهزُّون كلَّ طويل القنا ة ملتئم النَّصْل والثَّعْلَبِ[2]
تقدَّمَنا واضحٌ وجْهــه كريمُ الضرائب والمَنْصبِ[3]
أُعِينَ بنا ونُصِرْنا بهِ ومن يَنْصُرِ اللهُ لم يُغْلَبِ

ولا نكاد نمضى فى عصر الوليد بن عبد الملك حتى نجده يقربه منه ويتخذه شاعره الرسمى ، حتى لَيُشْعليه على جرير فى بعض مجالسه ، ويثور جرير ، ويهجوه ، فيتدخل الوليد ويتهدده إن عاد إلى هجائه . ويظل فى رعايته يصْفيه مدائحه ، ويتغنى له فيها المغنون ، ومما غَنَّى له ابن سُرَيج فيه قوله :

صَلَّى الذى الصَّلواتُ الطيِّباتُ له والمؤمنون إذا ما جمَّعوا الجُمَعا
هو الذى جَمع الرحمنُ أُمَّته على يديه وكانوا قبله شِيَعَا
إن الوليدَ أميرَ المؤمنين له مُلْكٌ عليه أعانَ اللهُ فارتفعَا

وقوله :

صَلَّى الإلهُ على امرىءٍ ودَّعتُه وأتمَّ نعمتَــه عليه وزادها
أولا تَرى أن البَرِيَّة كلَّها ألقتْ خــزائِمَها إليه فقادها[4]
ولقد أراد الله إذ ولاَّكهــا من أُمَّةٍ إصلاحَهــا ورشادها
أعْمَرْتَ أرضَ المسلمين فأقبلتْ ونفيتَ عنها مَنْ يروم فسادَها

(١) أصحرت : برزت
(٢) الثعلب : رأس الرمح
(٣) الضرائب : الطباع
(٤) الخزائم : جمع خزامة . وهى البرة يخزم بها البعير فى أنفه . كنى بذلك عن الانقياد والطاعة .

وأصبتَ في أَرض العدوِّ مصيبةً عَمَّتْ أَقاصيَ غَوْرِها ونِجادَها

ظَفَرًا ونصْرًا ما تناول مثلَه أحدٌ من الخلفاء كان أَرادها

وإذا نَشَرْتُ له الثناءَ وجدتُه جَمع المكارم طِرْفَهَا وتِلادهـا[1]

وعلى هذا النحو كان يمدح الوليد مدحاً مبالغاً فيه مفرطاً ، محاولا بكل ما يستطيع أن يخلع عليه هالة من القداسة ، فهو قد اصطفاه الله للأمة واختاره لسياستها وصلاح شئونها ورشاد أمورها والتئام شعثها ، وقد انقادت إليه بأزمتها ، والله يتم عليه نعمته ، وهي تصلى له وتدعو بالتوفيق بل إن الله في علاه ليصلى عليه كما يصلى على نبيه محمد المصطفى . ويصور حسن سياسته الداخلية ، وكيف أعمر أرض المسلمين حتى ازدهرت وآتت أكلها ، وإنه ليحوطها بجنده منزلا على أعدائها صواعقه ، فتمحقهم محقاً .

وفي أشعاره ما يدل على أنه كان يُعْـنَى بها عناية شديدة إذ ما يزال يَصْقلها ويشذبها حتى تلين له متونها ، مردداً فيها نظره مجيلا عقله ، يقول :

وقصيدةٍ قد بتُّ أَجمعُ بينها حتى أُقوِّم مَيْلَها وسِنادها[2]

نظرَ المثقِّف في كُعوب قَناته حتى يُقيم ثِقافُه منآدَها[3]

واشتهر بين القدماء بأنه كان يحسن وصف الإبل وحُمر الوحش والظباء ، ومن بديع وصفه لظبية ترتعي ومعها شادنها أو ابنها قوله :

تُزْجي أَغَنَّ كأَن إبرة رَوْقِهِ قلمٌ أَصابَ من الدواة مِدادها[4]

ويشبه امرأة بجؤذر ، فيقول :

وكأَنها وسْطَ النساءِ أَعارها عينيه أَحْوَرُ من جآذرِ جاسمِ[5]

وَسْنانُ أَقصَده النُّعاسُ فرنَّقتْ في عينه سِنَةٌ وليس بنائم[6]

---

(١) طرفها : حادثها . تلادها : قديمها .

(٢) السناد : من عيوب الروى .

(٣) المثقف : الذى يشحذ الرماح والسيوف ويقومها . منآدها : معوجها .

(٤) تزجي : تسوق . الأغن : الشادن في صوته غنة . الروق : القرن . إبرته : طرفه المحدد .

(٥) الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة . وجاسم : من قرى دمشق .

(٦) أقصده : صرعه . رنقت : خالطت .

ونراه يصف سنابك حمارى الوحش حين يعدوان فى الصحراء ويثيران من حولهما الغبار وصفاً طريفاً إذ يقول :

يتعاوران من الغبار مُلاءةً غَبْراء محكمةً هما نسجاها
تُطْوَى إذا عَلَوا مكاناً ناشزاً وإذ السنابكُ أسهلتْ نَشراها

وله فى النسيب أبيات تدل على دقة حِسِّه من مثل قوله :

ولقد تبيت يَدُ الفتاة وسادةً لىَ جاعلا يُسْرَى يدىَّ وسادها

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنه كان شاعراً بارعاً ، وأنه كان يطلب فى شعره أن يأتى بالصور الطريفة والأخيلة المبتكرة والأحاسيس الدقيقة .

الفصل الخامس

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل الصريح

رأينا فى حديثنا عن مراكز الشعر لهذا العصر كيف تحضرت المدينة ومكة وغرقتا إلى آذانهما فى الرّفه والنعيم ، بتأثير ما صبّ فيهما من أموال الفتوح والرقيق الأجنبى ، وكيف أخذ هذا الرقيق يسُدّ حاجة الشباب المتعطّل من اللهو بما كان يقدّم له من غناء وموسيقى ، وقد استطاع من خلال ملاءمته بين الغناء العربى القديم وما ثقفه من غناء الفرس والروم أن ينفذ إلى نظرية جديدة وضع على أساسها الألحان والأنغام التى وقّع عليها الشعر ، وظلت هذه النظرية مسيطرة على غنائنا العربى قروناً طويلة .

ويخيّل إلى الإنسان كأنما فرغت المدينتان الكبيرتان فى الحجاز للغناء ، فالناس يختلفون فيهما إلى المغنين والمغنيات ، حتى النُّسّاك والفقهاء ، فليس هناك من لا ينعم بالغناء ، حتى النساء كن يتخذن الأسباب لسماعه فى مجالسهن . وفى كتاب الأغانى أخبار كثيرة تصور كلفَ سكان المدينتين به وأنه أصبح شغلهم الشاغل[١] . وقد شاعت فى هذا الجو المعطرة أنفاسه بالموسيقى موجةٌ واسعة من المرح ، ورقيت الأذواق ودقت الأحاسيس وعاش الشعراء للحب والغزل فهو الموضوع الذى كان يطلبه المغنون والمغنيات ويستهوى الناسَ من رجال ونساء .

وبذلك كادت تختفى من المدينتين الموضوعات الأخرى للشعر ، فقلما نجد فيهما مديحاً أو هجاء ، إنما نجد الغزل يشيع على كل لسان . وأخذ يتطور بتأثير الغناء الذى عاصره تطوراً واسعاً ، إذ أصبحت كثرته مقطوعات قصيرة ، وعدلَ الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثل الرّمل والسريع والخفيف والمتقارب والهزج

(١) انظر فى ذلك كتابنا : الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٩٤ ، ٢٢٧

والوافر ، كما عدلوا إلى مجزوءات الأوزان الطويلة من مثل الكامل والبسيط والرجز ، بل لقد مالوا إلى تجزئة الأوزان الخفيفة من مثل الخفيف والرمل والمتقارب ، حتى يعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كي يلائموا بين أشعارهم وألحانهم وأنغامهم التي يوقّعونها على آلاتهم الوترية وطبولهم الموسيقية ، فيطيلوا أو يقصروا ويجهروا في مواضع الجهر ويهمسوا في مواضع الهمس . وليس ذلك فقط ما أثّر به الغناء الأموي في الغزل الذي عاصره ، فقد دفع الشعراء إلى اصطناع الألفاظ العذبة السهلة ، حتى يُرْضوا أذواق المستمعين في هذا المجتمع المتحضر الذي يخاطبونه . وكانت هذه أول دفعة قوية نحو تصفية الشعر العربي من ألفاظه البدوية الجافية .

ولم يختلف هذا الغزل الجديد عن الغزل الجاهلي القديم في صورته الموسيقية والأسلوبية فحسب ، فقد أخذ يختلف أيضاً في صورته المعنوية ، إذ لم يعد تشبيباً بالديار وبكاءً على الأطلال ، كما كان الجاهليون يصنعون في جمهور غزلهم ، بل أصبح غالباً تصويرًا لأحاسيس الحب التي سكبها المجتمع الجديد في نفوس الشعراء . وهو مجتمع ظفرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية ، فكانت تَلْقى الرجال وتحادثهم ، وكانت – شأنَ المرأة في كل عصر – تُعْجَبُ بمن يصف جمالها وتعلق القلوب بها . وينبغي أن نفرق بين الحرية والإباحية ، ففي الأولى يبقى للمرأة وقارها وعفافها ، وفي الثانية تصبح ممتهنة تقبل على اللهو والعبث والمجون ، لا يردُّها وقار ولا حشمة ولا خلق .

وحقًّا برزت المرأة في مكة والمدينة للشباب في هذا العصر ، ولكنها ظلت تحتفظ بحجاب من الوقار ، كانت فيه لا تضيق بما يقال فيها من غزل ، بل لعلها كانت تحبُّ فيه أن يحظى بغير قليل من الحرارة . وبذلك نفهم إقبال الثُّرَيَّا بنت علي بن عبد الله الأموية في مكة وسُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في المدينة على هذا الغزل ، بل لقد مرَّ بنا أن ابن قيس الرقيات كان يتغنى بنساء ممدوحه مصعب بن الزبير ، وتغنَّى بأم البنين في مدائحه لعبد الملك ، ولم يجد أحدهما في ذلك حرجاً .

وعلى هذا النحو كان الناس رجالا ونساء في مكة والمدينة يقبلون على شعر

الغزل، وأخذ الشعراء يُخْضعون ملكاتهم وعواطفهم له ، منهم من يتحفظ ، فيكظم حبه فى نفسه ، فإذا هو حب عذرى نقى طاهر ، وهم أصحاب التقوى والورع مثل عبد الرحمن بن أبى عمَّار الجُشَمىّ ناسك مكة وعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة فقيهى المدينة . ومنهم من لا يتحفظ ، بل يصرح بحبه وزياراته لمحبوباته ، وهم الجمهور الأكثر ، وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة والأحوص والعَرْجىّ ، فهم جميعاً يطلبون المرأة ويلحون فى الطلب ، وهم جميعاً يُلقون من حولها شباك الإغراء ، ولا بأس أحياناً من أن يستفزوا أهلها بما يثيرون فى نفوسهم من ريبة ، وبلغ من تيه عمر فى ذلك أن رأيناه يصورها متهالكة عليه تتضرع إليه وتستعطفه ، ونحن نقف قليلا عنده وعند صاحبيه ، لتتضح لنا صورة هذا الغزل الصريح .

عمر[1] بن أبى ربيعة

فى بيت قرشى واسع الثراء ، هو بيت بنى مخزوم ، ولد عمر فى سنة ٢٣ للهجرة ، لأبيه عبد الله بن أبى ربيعة ، ولأم يمنية أو حضرمية تسمى مَجْدا . وكان أبوه فى الذروة من قومه ثراء ، واستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم والياً على إقليم من اليمن يسمى الجنَد ، وظل عليه فى عهد عمر وعثمان ، حتى إذا حُصر الأخير جاء لينصره فسقط عن راحلته قرب مكة فمات سنة خمس وثلاثين . وهو أحد من نزل بأهله فى مكة بعد هجرتهم[2] ، وفيها وُلد له عمر ، وبها نشأ ، ترعاه عين أمه الغريبة ، وكان جميلا فدللته ، يؤازرها فى ذلك ما ورثه عن أبيه من أموال وفيرة .

وإذن فعمر شاعر مكى ، وليس بصحيح أنه من أهل المدينة كما توهم

(١) انظر فى ترجمة عمر الأغانى (طبع دار الكتب) ١/٦١ وما بعدها ، ٩/٢٣٩ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/٥٣٥ والموشح ص ٢٠١ والخزانة ١/٢٣٨ ومرآة الجنان لليافعى ١/١٨٢ وابن خلكان وشذرات الذهب ١/٤٠ وأمالى القالى ٢/٥١ ، ٣٠٩ ، وذيل الأمالى ص ٦٨ ، وحديث الأربعاء (طبعة الحلبى) ١/٣٧٢ وما بعدها وشاعر الغزل (فى سلسلة اقرأ) لعباس محمود العقاد وكتابينا : التطور والتجديد فى الشعر الأموى (طبع دار المعارف) ص ٢٣٩ والشعر والغناء فى المدينة ومكة ص ٢٣٩ . وقد نشر شفارتس ديوانه وألحق به دراسة عن حياته وشعره ولغته وأوزانه . ونشر الديوان بمصر وفى بيروت .

(٢) ابن سعد ٥/٣٢٨ .

بعض المعاصرين ، وبنوا دراستهم له على هذا الوهم[١] ، وفى الكامل للمبرد إشارات لذلك كثيرة تنقض هذا الوهم نقضاً[٢] ومما يشهد لذلك شهادة قاطعة قوله :

وأنا امرؤٌ بِقَرارِ مكَّةَ مسْكنى ولها هوايَ فقد سَبَتْ قَلْبِى

وقد عاش حياته للغزل الصريح ، ويسَّر له ثراؤه هذه المعيشة ، فالدنيا دائماً مشرقة باسمة من حوله ، والمغنون والمغنيات من أهل مكة مثل ابن سُرَيْج وابن مِسْجح والغريض يلزمونه ويغنونه فى شعره ، حتى لنظن أنهم كانوا يقاسمونه حياته ، فضلا عما كان يعطيهم من عطايا جزيلة[٣] . ويقول الرواة إنه كان ببيته مغنيتان تغنيانه فى أشعاره هما بَغوم وأسماء . وسرعان ما يطير غزله إلى المدينة ، فإذا مغنوها ومغنياتها من مثل مَعْبد وجميلة يغنون فيه ، ويلم بالمدينة كثيراً ، ويصبح أكبرَ غزِلٍ فى عصره ، ولهذا لم يكن غريباً أن يخلِّف أضخم ديوان لا فى عصره فحسب ، بل فى جميع العصور العربية .

وهو فى غزله يُخْضع ملكاته لفن الغناء الذى عاصره ، إذ يستخدم الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، حتى يحمِّلها المغنون والمغنيات ما يريدون من ألحان وإيقاعات كما يستخدم لغة سهلة ، فيها عذوبة وحلاوة ، حتى تَفْسح لهم فى روعة النغم . ونراه لا يصطنع أى ثوب من ثياب التكلف ، بل يُظْهرنا على حقيقته فى غزله وأنه لا يزال يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة فى مكة ، وتحوَّل إلى مواسم الحج ، يعلن حبه إعلاناً لكل امرأة ذات حسن يلقاها ، يقول :

يَقْصِد الناس للطواف احْتِسابا وذُنوبى مجمــوعةٌ فى الطَّوافِ

وتذهب مواسم الحج ، فيتصدَّى لكل فتاة جميلة بمكة ، وخاصة الثُّريا بنت على الأموية . وينزل المدينة فيتصدى للقرشيات الجميلات بها من مثل سُكينة بنت الحسين وزينب الجُمَحِيَّة . وعلى هذا النحو كان لا يزال يتغزل فى فتيات قريش النبيلات ، ومن ثم وصفَ ترفهن وما كنَّ فيه من نعيم ، وديوانه من خير الدواوين التى تصوِّر ما غرقت فيه القرشيات لهذا العصر من حضارة

---

(١) انظر عمر بن أبى ربيعة حياته وشعره لجبور طبع بيروت .

(٢) الكامل ص ٣٧٤ ، ٥٧٠ وراجع أخباره فى الأغانى مع مغنى مكة ومع الثريا .

(٣) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٣٥٩/١ ، ٣٢٢/٣ ، ٢٩٦/٤ ، ٢٠٨/٨ .

وحُلِيٌّ وطيب ، على نحو ما نرى فى قوله :

قالتْ ثُرَيَّا لأترابٍ لها قُطُف ... قُمْنَ نُحَيِّى أبا الخطَّاب من كَثَب[1]

فطِرْن طَيْرًا لما قالتْ وشايعها ... مثلُ التماثيل قد مُوِّهْنَ بالذهب

يَرْفلن فى مُطْرَفات السُّوس آونةً ... وفى العتيق من الدِّيباج والقَصَب[2]

ترى عليهن حَلْىَ الدُّرِّ متَّسِقاً ... مع الزبرجد والياقوت كالشهب

ونراه أحياناً يلهج بصبابته وحبه وما يذوق من وجد وألم ، متلطفاً لصاحبته ، ملحًّا على أن تواصله بودها ، مستعطفاً ، متضرعاً ، بمثل قوله :

ما كنت أشعر إلا مذ عرفتكمُ ... أن المضاجع تمسى تُنْبت الإبَرا

قد لمتُ قلبى وأعيانى بـــواحدةٍ ... فقال لى : لاتَلُمْنى وادْفَع القَدرا

ولكن هذا يأتى نادراً فى غزله ، إذ قلما يشكو من هَجْر أو يتألم لصَدٍّ ، فقد تحول بشعره يملؤه تيهاً بنفسه . ويقال إنه كان جميلا ، وكأنما انعكست فيه صورة الحب ، فهو لا يشكو الغرام والعشق ، بل محبوبته هى التى تشكو من ذلك ، فهى التى تحيطه بشباك التضرع والاستعطاف ، وهى التى ما تنى مسهَّدة تتعذب فى حبه وتتمنى لو تراه . واسمعه يقول على لسان إحدى صواحبه :

تقول إذ أيقنتْ أنى مفارقُها ... ياليتنى مِتُّ قبلَ اليوم يا عمرا

ويقول على لسان ثانية :

ما وافق النفسَ من شىءٍ تُسَرُّ به ... وأعجبَ العينَ إلا فـــوقه عُمَرُ

ويقول عن ثالثة :

قد حلفتْ ليلة الصَّوْرَيْن جاهدةً ... وما على المرءِ إلا الحلْفُ مجتهدا[3]

لأُختها ولأُخرى من مَناصفها ... لقد وجدتُ به فوق الذى وجدا[4]

لو جُمِّع الناسُ ثم اختير صَفْوهمُ ... شخصاً من الناس لم أعدل به أحدا

(١) قطف : جمع قطوف وهى بطيئة الخطو . كثب : قريب .

(٢) مطرفات : ثياب نفيسة . السوس : بلد بالمغرب . القصب : الحرير .

(٣) الصوران : موضع قرب المدينة .

(٤) مناصف : جمع منصف كنبر ، وهو الخادم .

ويصور شغل ثلاث أخوات به ، فيقول :

قالت الكُبْرى أتعرفنَ الفتى   قالت الوُسْطَى نعم هذا عُمَرْ
قالت الصُّغْرَى وقد تَيَّمْتهَا   قد عرفناه وهل يَخْفَى القمر

ولم يقف بإعجاب المرأة به عند ذلك الحد ، فقد أخذ يصور كَلَفها به وتصدِّيها له ، وأنها تدور حوله لعلها تجد سبيلا إليه ، وهو فى أثناء ذلك يتدلل ويتمنع ، وهى تسعى إلى الوصول منتهزة كل فرصة ، حتى بين مشاعر الحج ، يقول :

قالتْ لِتربٍ لها تحدِّثها   لنُفْسِدَنَّ الطَّواف فى عُمَرِ
قومى تصدَّىْ له ليعرفنا   ثم اغمِزِيه يا أختَ فى خَفَر
قالتْ لها قد غمزتُه فأَبَى   ثم اسبطرَّتْ تَسْعى على أثرى[1]

وعلى هذا النحو نراه فى غزله ، يوقد قلوب الفتيات حبًّا ، وهن يتمنين عطفه وحنانه ، وبذلك يعكس الصورة المألوفة فى الغزل العربى ، إذ لا يزال الشاعر يطلب ويأمل ويتضرع ويرجو العطف والحنان ، بل لا يزال يعلن العشق والهيام مسترحماً مستعطفاً ، أما عند عمر فهذا كله موجود ولكن لا فى تصوير حبه هو وإنما فى تصوير حب الفتيات والنساء له وما يوقدُ به قلوبهن من العشق والصبابة.

فعمر فى غزله معشوق لا عاشق ، أو على الأقل فى جمهور هذا الغزل ، ويستتمُّ خطوط هذه الصورة لا بإعلان الفتيات والنساء حبهن له فحسب ، بل أيضاً بما يصفن من خطوب هذا الحب ، فهن يتحدثن عن هجرانه ، وهن يذقن مرارة الغيرة ويصطلين بنارها المحرقة ، وهن يتألمن من الوشاة ومن فقدهن لعطفه وأنهن لا يجدن عنده إلا الإعراض والصُّدوف ، يقول على لسان إحداهن :

أمن أجلِ واشٍ كاشحٍ بنَميمةٍ   مَشَى بيننا صَدَّقْته لم تكذِّبِ

وأتاح له ذلك أن يصور عواطف المرأة ونفسيتها وما يتعمقها من دقائق الحب وما يثير فى قلبها من المشاعر الرقيقة ، وكيف تتخذ الأسباب لاسترضاء عاشقها حين تراه ينصرف عنها ، وكيف تتقدم لها بعض صديقاتها تحاول أن تعيد الصفاء بينهما ، يقول :

---

(١) اسبطرت : أسرعت

قالتْ على رِقْبَةٍ يوماً لجارتها ما تأمرين فإن القلبَ قد شُغِلا[١]

فجاوبتْها حصانٌ غير فاحشةٍ برَجْعِ قولٍ وأَمرٍ لم يكن خطِلا

اقْنَىْ حياءَكِ فى سِتْرٍ وفى كرمٍ فلستِ أَولَ أُنثى عُلِّقَتْ رجلاً[٢]

لا تظهرى حُبَّه حتى أراجعــه إنى سأَكفيكه إن لم أمت عَجلا

وترضى خطَّتها وتوصيها أن تكذِّب عنده الوشاة ، وتتوسل إليها أن لا تسرف فى لومه وعذله :

فإن عهدى به واللهُ يحفظه وإن أَتى الذنب ممن يكره العَذلا

وتكثر الرسل بينه وبين محبوباته فى ديوانه . ونراه يعمد إلى مراسلة بعضهن ، على شاكلة هذه الرسالة التى أرسل بها إلى الثريا ، وقد سار عنها أو سارت عنه :

كتبتُ إليكِ من بلدى كتــاب مولَّهٍ كَمِــدِ

كئيبٍ واكفِ العينـ ين بالحسرات منفــرد[٣]

يؤرِّقــه لَهِيبُ الشَّو قِ بين السَّحْرِ والكبدِ[٤]

فيمسكُ قلبــه بيــدِ ويمسح عينــه بِيَدِ

وتردُّ عليه الثريا شعراً[٥] ، وهو يعد أول من اتخذ هذا الأسلوب من تبادل الرسائل بينه وبين صواحبه ، وقد تبعه فيه العباسيون .

ومن أهم ما يَطْبع غزله هذا الحوار القصصى الذى رأيناه على لسان محبوباته يصفن فيه لجاراتهن وأخواتهن وجواريهن حبهن له وهيامهن به . ونراه يعمد أحياناً إلى تصوير اقتحامه لليل والأهوال والأحراس على بعض صواحبه على نحو ما نعرف فى قصيدته :

أَمِن آل نُعْمٍ أَنت غادٍ فمُبْكِرُ غداة غَدٍ أم رائحٌ فَمُهَجِّرُ[٦]

---

(١) رقبة : انتظار .

(٢) اقنى حياءك : احتفظى به .

(٣) واكف العينين : سائل الدموع .

(٤) السحر : الرئة .

(٥) أغانى (دار الكتب) ١ / ٢٣٥ ومابعدها.

(٦) غاد : من الغدوة وهى البكرة أو أول النهار ، رائح : من الرواح وهو العشى أو من الزوال إلى الغروب . مهجر : من الهاجرة وهى نصف النهار . وانظر فى هذه القصيدة وشرحها المبرد ص ٣٨١ ، ٥٧٠ .

ويمضى فيصور قضاءه الليل فى الحديث معها حتى تباشير الصباح ، وكأنه فى ذلك يحاكى امرأ القيس فى معلقته إذ يصف بعض مغامراته ، ولكن خلافاً واضحاً يقوم بينهما ، فامرؤ القيس يغامر مع نساء متزوجات ، أما عمر فيغامر مع فتيات نبيلات ، وهى عنده مغامرات لا تتعدى اللقاء والمتعة بالحديث . وعمر من هذه الناحية صريح ولكنها صراحة لا تنتهى إلى إباحية ولا إلى إثم . ومن ثَمَّ كنا ننفى القِصَص التى تزعم أن بعض الخلفاء حين حج نفاه إلى الطائف أو إلى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر ، ونظن ظنًّا أن هذا من انتحال الرواة . ويقولون إنه مات وقد قارب السبعين أو جاوزها[1] ، وإذا صح ذلك يكون قد توفِّى حوالى سنة ثلاث وتسعين للهجرة .

الأحوص [2]

أوْسى من الأنصار من أهل المدينة ، اسمه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم ابن ثابت ،وجده عاصم حَمِىّ الدَّبْر أى النَّحْل ،إذ بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى لَحْيان فى نَفَر ، فحاربوهم فى يوم يسمى يوم الرَّجيع .ولما قتلوه أرادوا أن يصلبوه، فحمته الدبر منهم نهاراً حتى إذا جَنّ الليل أمطرت السماء فاحتمله السَّيْل ، فسمِّى حمىّ الدبر. وخال أبيه حنظلة بن أبى عامر الذى قُتل يوم أحد وقال عنه الرسول إن الملائكة لتغسله ، وقد افتخر بهما الأحوص جميعاً ، فقال :

غَسَّلتْ خالىَ الملائكة الأبْـــرَارُ مَيْتاً طُوبىَ له من صَرِيعِ
وأنا ابن الذى حَمَتْ لَحْمَه الدَّبْـــرُ قتيلُ اللَّحْيان يوم الرَّجيع

وإنما لقب الأحوص لَحوَص كان فى عينيه ، وهو ضيق فى مُؤْخرهما . ويقال إنه كان أحمر شديد الحمرة . وهو مثل ابن أبى ربيعة عاش للحب

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١/٧١

(٢) انظر فى ترجمة الأحوص وأخباره الأغانى (طبع دار الكتب) ٤/١٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٤/٢٢٤ وما بعدها ، ٦/٢٥٤ وما بعدها ، ٩/٦٤ وما بعدها وابن سلام ص ٥٣٤ والشعر والشعراء ١/٤٩٩ والموشح ص١٨٧ والاشتقاق ص٤٣٧ والخزانة ١/٢٣١ وحديث الأربعاء ١/٣٢٩ وكتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية ص ١١٤ .

والغزل، غير أنه فيما يظهر لم يكن ثريًّا، ومن ثَمَّ كان يرحل كثيراً إلى دمشق يمدح خلفاء بنى أمية وينال عطاياهم الجزيلة، يقول :

وما كان مالى طارفاً من تجـارةٍ ... وما كان ميراثاً من المال مُتْلَدَا
ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ ... مَلاَ الأَرض معروفاً وجوداً وسُؤْددا

وله مدائح مختلفة فى الوليد بن عبد الملك وعبد العزيز بن مروان وعمر ابنه ويزيد بن عبد الملك . وأخباره تدل على أنه كان فيه طيش شديد ، ولعله من أجل ذلك كان يصطدم بكثير من معاصريه ، فيهجوهم هجاء قبيحاً . وهو فى غزله شديد الصبابة ، يستأثر الحب بقلبه ويملك عليه كل شيء ، حتى ليقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تَدْرِ ما الهوى ... فكن حَجَرًا من يابس الصَّخْر جَلْمَدَا

فالحب الحياة ومن لم يعشق عُدَّ من الأموات ، بل من الجماد ، بل من الحجارة أو أشد قسوة . وهو يعلن حبه إعلاناً ، يعلن صبوته وثورة نفسه . وكان فاسد الخلق ، فانصرفت الفتيات والنساء عنه ، إذ رأينه يذهب بعيداً فى التصريح ، على شاكلة قوله :

تعرَّضُ سلماك لما حرم ... تَ ضلَّ ضلالُك من مُحْرِمِ (١)
تريد به البِرَّ يا ليتَـهُ ... كفافاً من البِرِّ والمَأْثَمِ (٢)

وأشعاره فى أم جعفر الأوسية أنقى غزلياته ، وكانت تدفعه عنها دفعاً شديداً ، وكذلك كان يدفعه عنها أخوها أيمن ، حتى ليُرْوَى أنه أصلاه يوماً سياطاً حامية ، وفيها يقول :

أدورُ ولولا أن أرى أُمَّ جعفرٍ ... بأَبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُ
أَزورُ البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها ... وقلبى إلى البيت الذى لا أَزورُ
وما كنتُ زَوَّاراً ولكن ذا الهَوى ... إذا لم يَزُرْ لا بد أن سيزور

---

(١) حرمت : دخلت الحرم مثل أحرمت .

(٢) يقول : ليتنى تعادل إثمى وبرى ، فخرجت غير بار ولا آثم .

ويقول :

وما هو إلا أن أراها فجاءةً فأُبْهَت حتى ما أكاد أُجيبُ
لكِ اللهُ إنى واصلٌ ما وصلتِنِى ومُثْنٍ بما أوليتِنى ومُثيبُ
أَبثُّك ما ألقى وفى النفس حاجةٌ لها بين جِلْدِى والعظام دَبِيبُ

ومضى ينظم فيها أشعاره ، وهى تزداد كرهاً له وازوراراً عنه . ونراه مشغوفاً بجميلة المغنية وناديها المشهور فى المدينة ومن كنّ فيه من الإماء مثل الذّلْفاء وَعقيلة وسَلاّمة القس وله فيهن غزل كثير ،كن يغنين فيه ، من مثل قوله فى الذلفاء :

إنمـــا الذلْفـــاءُ هَمِّى فليـــدعْنى من يلومُ
حبَّبَ الذّلفـــاءَ عندى منطـــقٌ منهـــا رَخيمُ
حبُّها فى القلب داءٌ مستكنٌّ لا يَـــريمُ[1]

وكانت سلامة القس أكثرهن عطفاً عليه وبِـرًّا به ،فنظم فيها غزلا كثيراً ، يصوِّر كلفه بها أشد الكلف وتهالكه عليها أشد التّهالك على شاكلة قوله :

يا دِينَ قلبك منها لستَ ذاكرها إلا ترقرق ماءُ العين أو دمعـــا[2]
لا أستطيع نزوعاً عن محبّتها أو يصنع الحبُّ بى فوق الذى صَنعا
وزادنى كلفاً فى الحب أنْ منعتْ وحَبٌّ شىءٍ إلى الإنسان ما مُنعا

وهو فى هذا الغزل بالإماء والجوارى يختلف عن ابن أبى ربيعة الذى كان لا يتغزل كما مرّ بنا إلا بالحرائر النبيلات من القرشيات والعربيات . وهو يختلف عنه أيضاً فى بعده فى التصريح ، إذ كان لا يتحرج أحياناً من إباحة ، ومن ثَمّ شكاه أهل المدينة لأبى بكر بن حزم عامل سليمان بن عبد الملك ، فأقامه على البُلُس للناس . ولما ولى عمر بن عبد العزيز أمر بنفيه إلى دهلك ، فظل بها طوال خلافته ، وولى يزيد بن عبد الملك ، فشفعت له سَلاّمة — وقد صارت إليه — عنده فعفا عنه . ولما رُدّت إليه حريته زار دمشق ، وتغنّى بيزيد وانتصاراته على ابن المهلب طويلا . ويقال إنه توفّى حوالى سنة ١١٠ للهجرة .

---

(١) لا يريم : لا يبرح . (٢) دين هنا : داء .

العرجيّ (١)

لُقِّب هذا اللقب لضيعة له قرب الطائف تسمى العَرْج كان ينزل بها ، وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، من أهل مكة . ويقول الرواة إنه كان أشقر جميل الوجه ، وإنه شُهر بالغزل وَنحا فيه نحو عمر بن أبى ربيعة وتشبَّه به فأجاد .

وهو يختلف عنه من وجوه كثيرة ، إذ لم تكن له نباهته فى أهله ، وكان مشغوفاً باللهو والصيد ، وكانت فيه فتوة وفروسية ، حتّى عُدَّ فى الفرسان ، ومن ثَمَّ اجتذبته حروب مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، إذ كان من أفرس الناس وأرماهم وأبْراهم لسَهْم . وهو لا يختلف فى ذلك عن عمر فحسب ، بل هو يختلف معه أيضاً فى أنه كان يسرف فى فتوته ، حتّى ليخرج إلى شىء من الإباحية ، على شاكلة قوله :

قالتْ رضيتُ ولكن جئتَ فى قمَر   هَلاَّ تلبَّثْتَ حتى تَدْخُلَ الظُّلَمُ

وقوله :

باتا بأَنعم ليلةٍ حتى بـدَا   صُبْحٌ تلوَّح كالأَغرِّ الأَشقرِ
فتلازما عند الفراق صَبابةً   أَخْذَ الغريم بفضل ثوب المُعْسِر (٢)

وهو لا يقف بمثل هذه المعانى عند نفسه ، بل يرمى بها حتّى الحواج الناسكات ، يقول فى إحداهن وقد سفرتْ عن وجه جميل :

أَماطتْ كساءَ الخَزِّ عن حُرِّ وجهها   وأَدنتْ على الخدَّين بُرْدًا مُهَلْهلا
من اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يبغينَ حِسْبَةً   ولكن ليقتلنَ البرىءَ المغفَّلا

ونجده يختلف إلى دار جميلة فى المدينة ، ويبدو منه ما يجعلها تُقْسم أن لا تدخله منزلها لكثرة عبثه وسفهه ، ويَشْفع له الأحوص عندها ، فتستقبله وتغنيه فى قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة العرجى وأخباره الأغانى (طبع دار الكتب) ١/٣٨٣ وما بعدها ، ٨/١٨٤ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ والشعر والشعراء ٢/٥٥٦ والاشتقاق ص ٧٨ وحديث الأربعاء ١/٣١٦ وقد طبع ديوانه فى العراق .

(٢) تلازما : تعانقا . الغريم هنا : الدائن.

ألا قاتل الله الهوى كيف أَخْلَقَا　　فلم تُلْفه إلا مَشوباً ممذَّقا[١]

وما مِنْ حبيبٍ يستزير حبيبه　　يعـــاتبه فى الودِّ إلا تفرَّقا

لقد سَنَّ هذا الحبَّ من كان قبلنا　　وقاد الصِّبا المرءَ الكريمَ فأَعْنَقَا[٢]

وكان يمضى فى التغنى بهذا الغزل لا يخجل ولا يستحيي من الجموح فيه ، إذ كان جريئاً ، بل كان عنيفاً ، وهو عنف نراه فى تتبعه للنساء المتزوجات يتغزل بهن ، كما نراه فى ظلمه لمولى لأبيه قتله وسلط عبيده على امرأته ، وأيضاً فإننا نرى هذا العنف فى هجائه لمحمد بن هشام المخزومى ، إذ أخذ يتغزل بزوجه جَبْرة المخزومية وأمه جَيْداء بنت عفيف ليفضحه بمثل قوله :

عوجى علىَّ فسلِّمى جَبْرُ　　فيمَ الصُّدودُ وأَنْتُم سَفْرُ

وقوله :

عوجى علينا ربَّةَ الهَــوْدجِ　　إنك إن لا تفعلى تحْـــرَجى

أَيْسَرُ ما نال محبٌّ لدى　　بَيْن حبيبٍ قولهُ عَرِّجِ

نَقْض إليكم حاجةً أَو نقل　　هلْ لىَ مما بىَ من مخْـــرج

فلما ولى محمد إمارة مكة لهشام بن عبد الملك أقامه على البُلُس وحبسه، وظل فى سجنه تسع سنوات إلى أن مات ،وله أشعار كثيرة يأسى فيها على ما صار إليه من عذاب السجن ، يقول فيها بيته المشهور :

أضاعونى وأَىَّ فتى أَضاعــوا　　ليـــوم كريهةٍ وسِدَاد ثَغْرِ[٣]

ومما يستجاد له قوله :

ارْجِعْ إلى خُلْقك المعروف دَيْدَنُهُ　　إن التخلُّقَ يـأْتى دونه الخُلقُ

ويقال إن الوليد بن يزيد اقتصَّ للعرجى من محمد بن هشام المخزومى حين صارت الخلافة إليه ، إذ لم يـَرْعَ حرمة قرشيته ونسبه فى بنى أمية .

---

(١) أخلق : بلى . ممذقا : مشوباً ومخلوطاً.

(٢) أعنق : سارسيراً منبسطاً ، يريد أن الصبا إذا قاد المرء الكريم أنقاد له وجرى فى ميدانه .

(٣) السداد : ما يسد به الخلل . وسداد الثغر : ما يسده من الخيل والشجعان .

٢

شعراء الغزل العُذْرى

الغزل العذرى غزل نقى طاهر ممعن فى النقاء والطهارة ، وقد نُسب إلى بنى عُذرة إحدى قبائل قضاعة التى كانت تنزل فى وادى القُرَى شمالى الحجاز ، لأن شعراءها أكثروا من التغنِّى به ونَظْمه ، ويُرْوَى أن سائلا سأل رجلا من هذه القبيلة ممن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، ويروى أيضاً أن سائلا سأل عروة بن حزام العُذْرى صاحب عَفْراء : أصحيح ما يُرْوَى عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً ؟ فأجابه : نعم والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب .

ولم تقف موجة الغزل العُذْرى لهذا العصر عند عُذْرة وحدها ، فقد شاع فى بوادى نجد والحجاز ، وخاصة بين بنى عامر ، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير ، ولا شك فى أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذى طهر النفوس ، وبرّأها من كل إثم . وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة فى مكة والمدينة ولا ما يُطْوَى فيها من لهو وعبث ومن تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل على نحو ما مرّ بنا عند الأحوص والعرجى ، وهى من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضرى المترف ولا الحب الذى تدفع إليه الغرائز ، فقد كانت تعصمها بداوتها وتدينُها بالإسلام الحنيف ومثاليته السامية من مثل هذين اللونين من الحب ، إنما تعرف الحب العفيف السامى الذى يَصْلَى المحب بناره ويستقر بين أحشائه ، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه ولا الانصراف عنه .

وفى كتاب الأغانى من هذا الغزل مادة وفيرة نقرأ فيها لوعة هؤلاء المحبين وظمأهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمأ لا يقف عند حد ، ظمأ نحس فيه ضرباً من التصوف ، فالشاعر لا ينى يتغنى بمعشوقته ، متذللا متضرعاً متوسلا ، فهى ملاكه السماوى ، وكأنها فعلا وراء السحب ، وهو لا يزال يناجيها مناجاة شجية ، يصور فيها وَجْده الذى ليس بعده وَجْد وعذابه الذى لا يشبهه

عذاب . وتمضى به الأعوام لا ينساها ، بل يذكرها فى يقظته ويحلم بها فى نومه ، وقد يصبح كهلا أو يصير إلى الشيخوخة ، ولكن حبها يظل شاباً فى قلبه ، لا يؤثر فيه الزمن ولا يرقى إليه السلوان ، حتى ليظل يُغْشَى عليه ، بل حتى ليُجَنّ أحياناً جنوناً .

وتقترن بأشعار هذا الغزل أسماء كثيرة ، كما يقترن به قصص غزير ، وهو قصص فيه بساطة وسذاجة حلوة ، قصص يصور لنا حياة هؤلاء العشاق العذريين المتبدين ، وقد أحكم الرواة نسجه ، إذ مضوا يلفقون فيه عقدة نفسية ، خَيَّلوا لسامعيهم أنها عقدة حقيقية ، وذلك أنهم زعموا أنه كان من تقاليد العرب أن لا يزوجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهن ، لما يجلبن لهن من فضيحة بين العرب . وهو تقليد لم يُعْرَف فى جاهلية ولا إسلام . وقد مضوا يقولون إن السلطان كان يهدر دماء هؤلاء الغزلين ، كأنهم أتوا جناية عظيمة ، ولو قتل السلطان فى الغزل لقتل أمثال الأحوص ، لا هؤلاء المتعففين أصحاب الحب الطاهر الشريف ، وقد حرَّم القرآن الكريم والحديث النبوى قَتْلَ النفس بغير حق . ولا شك فى أن هذا كله قصص لفقه الرواة كى يوجدوا لهذا الغزل عقدة ، بعثت على ما أحسوه عند هؤلاء العشاق من إحساس بالحرمان الشديد . وإذا كان خيال الرواة لعب فى أخبارهم فإنه لعب أيضاً فى أسمائهم ، إذ اخترع من لدنه لبعض هذه الأخبار وما طُوِيَ فيها من أشعار أشخاصاً لعلهم لم يوجدوا أبداً .

وارجع إلى أخبار مجنون بنى عامر وأشعاره التى احتلت فى الجزء الثانى من كتاب الأغانى تسعين صحيفة ونيفاً فستجد الأصمعي يقول : « رجلان ما عُرِفا فى الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القِرِّيَّة وإنما وصفهما الرواة » . ويقول ابن الكلبي : « حُدِّثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بنى أمية كان يهوى ابنة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون ، وقال الأشعار التى يرويها الناس له ونسبها إليه » .

وقد يكون اسم العاشق من هؤلاء العذريين حقيقياً ، غير أن الرواة أضافوا إليه أشعاراً وأخباراً كثيرة ، ومن خير من يمثل ذلك قيس بن ذَريح ، يقول أبو الفرج فى ترجمته لمجنون بنى عامر نقلا عن الجاحظ : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فى ليلى إلا

نسبوه إلى المجنون ، ولا شعراً هذه سبيله قيل فى لُبْنَى إلا نسبوه إلى قيس بن ذَريح » . وقد تُفْصح القصة المضافة إلى بعض هؤلاء العشاق عن انتحالها وأنها من صنع الرواة وإن لم ينص على ذلك القدماء ، وخير ما يمثل ذلك قصة[١] وضَّاح اليمن التى تذهب إلى أنه عشق أم البنين زوجة الوليد ، وأنها هويته ؛ فكانت تدخله عندها وتخفيه فى صندوق ، وعرَف ذلك زوجها ، فحفر بئراً عميقة ، رماه فيها ، وهِيل عليه التراب وسوِّيت الأرض .

وعلى هذا النحو تلقانا فى هذا الغزل العذرى أسماء وأخبار خيالية من صنع الرواة ، غير أن وراءها أسماء وأخباراً كثيرة ، لا يرقى إليها الشك . والمهم أن الظاهرة صحيحة ، فقد وُجد هذا الغزل العذرى فى العصر الأموى بنجد وبوادى الحجاز ، وكثُر أصحابه وكثرت أشعاره ، حتى غدت لوناً شعبيًّا عامًّا ، ولعل شعبيتها هى التى أكثرت من القصص حولها ، كما أبهمت بعض من نظموها . وقد اختار الرواة أشخاصاً ، جعلوا منهم أبطالا ونسبوا إليهم كثيراً من تلك الأشعار . وخاصة إذا اتفق أن كان فيها اسم محبوبة هذا البطل ، على نحو ما صنعوا بالأشعار التى وجدوا فيها اسم لُبْنَى ، فإنهم أضافوها — كما لاحظ الجاحظ — إلى قيس ابن ذَريح .

ومن الأشخاص الحقيقية فى هذا الغزل عُرْوة بن حزام العُذْرى وصاحبته عَفْراء ، وقد ترجم له صاحب[٢] الأغانى وروى له أشعاراً رقيقة من مثل قوله :

وإنى لتَعْرونى لذكراك رِعْدَةٌ ... لها بين جلدى والعظام دَبيبُ

فوالله لا أنساك ما هبَّت الصَّبا ... ومـا أعقبتْها فى الرياح جَنوبُ

ومنهم الصِّمَّة[٣] القُشَيْرى ، وكان من فتيان بنى عامر وشجعانهم ، وأحب ابنة عم له تسمي رَيَّا ، وخطبها من أبيها فآثر عليه شابًّا موسراً ، فزاد

---

(١) انظرها بترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٦/٢١٨ وما بعدها وراجع أيضاً تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٢٩٥ وحديث الأربعاء ١/٢٩٣ .

(٢) أغانى (ساسى) ٢٠/١٥٢ وانظر الشعر والشعراء ٢/٦٠٤ وذيل الأمالى ص ١٥٧ والخزانة ١/٥٣٣ .

(٣) ترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٦/٢ وما بعدها وانظر قصيدته العينية فى الطرائف الأدبية ص ٧٦ .

شغفه بها ، وأخذ ينظم الأشعار فيها . ثم رأى أن يغزو فى طبرستان لعله ينساها ، فخرج وذكراها لا تفارقه حتى قتل فى غزوة واسمها على شفتيه ،ومن قوله فى عينية له بديعة :

وأذكر أَيَّامَ الحِمىَ ثم أنثنى على كَبِدى من خشيةٍ أن تصدَّعا

ومنهم كثيِّر عزَّة ، وقد مضت ترجمته ، وذو الرمة وسنترجم له فى شعراء الطبيعة . ويدخل فيهم جماعة من أتقياء مكة والمدينة ، على رأسهم عبد الرحمن ابن أبى عمَّار الجُشَمِى وعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وكان عبد[1] الرحمن من نُسَّاك مكة ، ولقب بالقَس لنسكه ، وتصادف أن استمع يوماً إلى سَلاَّمة ، فشُغف بها ، وشاع ذلك ، فلقبها الناس بلقبه وسموها سلامة القس ، وفيها يقول :

سلاَّمُ هل لى منكمُ ناصرُ أم هل لقلبى عنكمُ زاجرُ
قد سمع الناسُ بوَجْدى بكم فمنهم اللائمُ والعاذرُ

وكان عروة[2] من فقهاء المدينة ومحدِّثيها ، ومن الطريف أنه كان يوقِّع شعره ويضع له الألحان بنفسه ، وبذلك نفهم وفرة الموسيقى فى غزله ، فهو ألحان وأنغام على شاكلة قوله :

إن التى زعمتْ فؤادك ملَّها جُعلتْ هواك كما جُعِلْتَ هَوًى لها
فبِك الذى زعمتْ بها وكلاكما يُبْدى لصاحبه الصَّبابةَ كلها
بيضاء باكرها النعيمُ فصاغها بلباقةٍ فأدقَّها وأجلَّها
مَنعتْ تحيَّتها فقلت لصاحبى ما كان أكثرها لنا وأقلَّها

أما ابن[3] عُتْبة فكان أحد الفقهاء السبعة المقدَّمين فى المدينة الذين حُمل عنهم الفقه والحديث ، وكان ضريراً ، كما كان رقيقاً مرهف الإحساس ، وله

---

(١) انظر فى حبه لسلامة الأغانى (طبع دار الكتب) ٨/٣٣٤ وما بعدها .

(٢) راجع فى ترجمته الأغانى (طبعة ساسى) ٢١/١٠٥ والشعر والشعراء ٢/٥٦٠ والموشح ص ٢١١ .

(٣) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٩/١٣٩ وما بعدها وصفة الصفوة ٢/٥١ وتهذيب التهذيب ونكت الهميان ١٩٧ .

غزل كثير فى زوجته عَشْمة بعد طلاقه لها يصور فيها حبه وندمه وألمه من مثل قوله :

لعمرى لئن شطَّتْ بعَثْمَةَ دارُها ... لقد كدتُ من وَشْكِ الفراق أَلِيحُ[1]

أَروح بِهَمٍّ ثم أغدو بمثلهِ ... ويُحْسَبُ أَنى فى الثياب صحيح

ومن طريف ما يلقانا فى هذا الحب العذرى بكاء المعشوقات لمن حُرموا منهن، وماتوا على حبهن ، ولعل أكثرهن بكاء على معشوقها ليلى[2] الأخْيَلية الخفاجية العامرية ، وكان قد تعلق بها من قومها فتى شاعر شجاع يسمى توْبة ابن الحُمَيِّر ، وشُغف بها شغفاً ، والتاع قلبه ، وهام بها هياماً شديداً ، حتى ليقول :

ولو أَنَّ ليلى الأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمتْ ... علىّ ودونى تُرْبَةٌ وصَفائحُ

لسلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ أَوزَقَا ... إليها صَدًى من جانب القبر صائح[3]

وظل يلهج باسمها إلى أن قُتل فى بعض الغارات سنة ٨٥ للهجرة فبكته ليلى بقصائد كثيرة تصوِّر ما أوقده فى فؤادها من جذوة الحب ، من مثل قولها :

أَيا عَيْنُ بكِّى تَوْبَةَ بن حُمَيِّر ... بِسَحٍّ كَفيْض الجَدْوَل المتفجِّرِ

لتَبْكِ عليه من خفاجةَ نِسْوَةٌ ... بمـــاءِ شئون العَبْرَةِ المتحدِّر

وقولها :

وآليتُ لا أنفك أبكيك ما دعتْ ... على فَنَنٍ وَرْقاءُ أَو طار طائرُ

وكل شبابٍ أَو جديدٍ إلى بِلًى ... وكل امرئٍ يوماً إلى الله صائر

---

(١) أليح : أشفق وأجزع .

(٢) انظر فى ليلى الأخيلية وأخبارها مع توبة ترجمتها فى الأغانى (طبع دار الكتب) ١١/ ٢٠٤ وما بعدها والشعر والشعراء ١/ ٤١٦ والأمالى للقالى ١/ ٨٦ وما بعدها .

(٣) زقا : صاح .

ويقال إنها ماتت فى إحدى زياراتها لقبره ، فدفنت إلى جَنْبه . ونقف قليلا عند بطلين من أبطال هذا الحب العذرى ، هما : قيس بن ذَريح عاشق لُبْنى وجميل عاشق بثينة .

قيس[1] بن ذَرِيح

من قبيلة كنانة ، كانت عشيرته تسكن فى ضواحى المدينة ، وعُرف بأنه رضيع الحسين بن على ، ولا نعرف شيئاً عن نشأته ، بل تُساق لنا قصة حبه ، كأنها هى كل حياته . وهى قصة محبوكة الأطراف ، إذ يُرْوَى أنه مر فى رحلاته بديار لُبْنى الخزاعية ، فرآها ، ووقعت فى قلبه ووقع فى قلبها . وذهب إلى أبيه ، وكان كثير المال موسراً ، يعرض عليه أن يخطبها له ، فأَبَى ، وحاول أن يجد عند أمه معونة على أبيه ، فلم يجد عندها ما أراد ، فلجأ إلى رضيعه الحسين بن على ، فتوسط له عند أبيه وأبى لُبْنَى ، وأعظما هذه الوساطة ، وتزوج العاشقان ، غير أنهما لم يُرْزقا الولد ، وداخلت أمَّ قيس الغيرة من كلف ابنها بلبنى . ومرض قيس ، فأوعزت إلى أبيه أن يغريه بطلاقها والزواج من أخرى ، رجاء أن يرزقه الله الولد . وأخذ الأبوان يُلِحَّان عليه بعد شفائه من علَّته أن يفارقها وصدع لمشيئتهما . وتولاه جزع شديد ، حتى قَبْلَ أن تبرح دارها إلى دار أبيها ، فقد تصادف أن نَعَق غُراب قبل رحيلها ، فتشاءم تشاؤماً شديداً ، ونظم فى نعيقه أشعاراً كثيرة ، من مثل قوله :

لقد نادى الغرابُ بِبَيْنِ لُبْنَى ... فطـار القلبُ من حذر الغُرابِ
وقال : غَدًا تباعَدُ دارُ لُبْنَى ... وتنأى بعد وُدٌّ واقترابِ
فقلت: تعستَ ويحك من غُرَاب ... وكان الدهرَ سعيُك فى تَبَابِ

ورحلت لُبْنَى ، فاضطرمت جذوة الحب فى نفس قيس اضطراماً ، ووجد بلُبْنى وجداً ليس مثله وجد ، ومضى لا ينعم بطعام ولا بشراب ، يذكرها

(١) انظر فى قصة قيس الأغانى (طبع دار الكتب) ٩/١٨٠ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/٦١٠ وأمالى القالى ٢/٣١٨ وراجع الموشح ص ٢٠٦ وحديث الأربعاء ١/٢٥٦ .

مستيقظاً ويطوف به خيالها نائماً ، ويقول فى غرامه بها الشعر من مثل قوله :

لقد لاقيتُ من كلفى بلُبْنَى بلاءً ما أُسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادى باسم لُبْنَى عَيِيتُ فما أُطيق له جـوابا

وقوله :

وإنى لأَهوى النومَ فى غير حِينه لعل لقاءً فى المنـام يكونُ
تحدِّثنى الأَحلامُ أنى أَراكمُ فياليت أَحلام المنام يقين

وكانت لبنى تسمع بوجده وشعره ، فلا يهنأ لها عيش ، وتبكى مصيرها ومصيره . ويُرْوَى أن غلاماً أتاها يوماً بأربعة غربان ، فذكرت أشعار قيس فى غراب البَيْن ،وأخذت تنتف ريشها وهى تصيح بأشعار مختلفة من مثل قولها :

ألا يا غُرابَ البَيْن لونُك شاحبٌ وأَنت بلوعات الفراق جديرُ
فلا زلت مكسوراً عديماً لناصرٍ كما ليس لى من ظالِمِىَّ نصير

ولما أضنى الحب قيساً رقَّ له بعض رفاقه ، فواعدوه أن يخرجوا معه إلى ديار لبنى لعله يحظى برؤيتها ، فمضى معهم وهو ينشد :

لقد عذَّبتَنى يا حبَّ ليلى فقَـعْ إما بموتٍ أَو حياةِ
فإن الموتَ أَروحُ من حياةٍ تدوم على التباعد والشَّتاتِ

ووقعت عينه عليها ، فخر مغشيًّا عليه ، وعادوا به ، وهو لا يكاد يفيق من غشيته . وأشار عليه نفر أن يحجَّ لعله يسلوها ، فحج ورآها هناك ، فعاوده فُتونه ، وأخذت تسيل عبراته ، وهو يُنْشد فيها أشعاره . ولقيها فعرف أنها ما زالت تحفظ له العهد ، وعاد من الحج يتغنى بحبه ، على شاكلة قوله :

تعلَّق روحى روحَها قبل خَلْقنا ومن بعد ما كنا نِطافاً وفى المَهْدِ
فزاد كما زدنا فـأَصبح ناميا وليس إذا مِتْنا بمُنْصَرِم العَهْدِ
ولكنـه باقٍ على كل حادث وزائرُنا فى ظلمة القبر واللَّحْدِ

وما زال به أبوه يلحُّ عليه أن يتزوج من أخرى ، لعله ينسى صاحبته . وتمضى القصة فتزعم أنه رأى فى بعض أحياء العرب فتاة تسمى لبنى فيها مخايل صاحبته ، فتزوجها ، ولكن حنينه إلى صاحبته الأولى عاوده ، وكأنما لم يكن هناك سبيل إلى إطفاء جذوة هذا الحب . وتزعم القصة أيضاً أن أباها شكاه إلى معاوية فأهدر دمه إن تعرَّض لها، وأرسلت إلى حبيبها بالخبر مشفقة عليه ، ويروون أنها تزوجت من غيره ، عله ينساها ، ولكن أنَّى له ؟ لقد أمضه الغرام، ومضى إلى ديار قومها فوجدها قد رحلت مع زوجها ، فوضع خده على التّراب ، وبكى أحرَّ بكاء منشداً :

وإن تك لُبْنَى قدأتى دون قربها حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
فإن نسيمَ الجوِّ يجمع بيننا ونُبْصر قَرْن الشمس حين تزول
وأَرواحنا بالليل فى الحَىِّ تلتقى ونعلم أنا بالنهــار نَقِيل[1]
وتجمعنا الأَرضُ القَرارُ وفــوقنا سماءٌ نرى فيها النجومَ تجــول

واشتدت به المحنة ، واشتد به الوجد والهيام، والحياة من حوله وحول معشوقته تمعن فى القسوة ، وهو لا يزال ينشد فيها الأشعار من مثل قوله :

إلى الله أَشكو ما أُلاقى من الهوى ومن حُرَقٍ تعتادنى وزفيرِ
ومن ألمٍ للحب فى باطن الحشَا وليلٍ طــويل الحزن غير قصيرِ

وقوله :

وبين الحشَا والنَّحْر منى حرارةٌ ولوعةُ وَجْــدٍ تترك القلْب ساهيا
تمرُّ الليالى والشهور ولا أرى ولوعى بهــا يزداد إلا تماديا

وقوله :

ألا ليت أياماً مَضَيْن تعــودُ فإن عُدْن يوماً إننى لسعيدُ

(١) نقيل : من القيلولة وهى نصف النهار .

وظل قيس على هذا النحو يشكو حبه وندمه على فراق صاحبته ، حتى رأى رضيعه الحسين بن على ونفر من قريش تعمَّقهم التأثر له أن يكلموا زوج لبنى فى شأنه لعله يردها عليه . وصدع لمشيئتهم راضياً ، فعادت لبنى إلى قرة عينها وظلت عنده حتى ماتت ، فأكبَّ على القبر يبكيها ، ولم يزل عليلا إلى أن لحق بها ، فدفن إلى جَنْبها .

جميل[1] بن مَعْمَر

لعل حياة جميل أوضح حياة بين الشعراء العذريين ، فقد نشأ فى منازل عُذْرة بوادى القُرَى ، وأخذ يختلف إلى المدينة ، وربما إلى مكة ، فقد كان يلقى ابن أبى ربيعة كثيراً ويتناشدان الشعر ، ويقال إنه حدا يوماً بمروان بن الحكم . ويظهر أنه كان يتصل ببنى أمية كثيراً ، ففى أخباره أنه رحل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ولقيه لقاء كريماً .

وكان كثيِّر عزَّة راوية له . وشعره لذلك أوثق شعر العذريين ، وفى أخباره أنه تلقن الشعر عن هُدْبة بن الخَشْرم تلميذ الحطيئة ، ونعرف أن الحطيئة تلميذ زهير ، وكأنه يمتُّ بأسباب قوية إلى هذه المدرسة التى كانت تُعْنَى بصقل الشعر وتجويده . ونجد له أخباراً أخرى تتصل بتهاجيه مع بعض الشعراء الحجازيين مثل الحزين الكنانى .

نحن إذن أمام شاعر واضح الشخصية ، عُنى الرواة والناس بأشعاره ، كما غنى بها مغنو المدينة ومكة ، وهى أشعار يمضى جمهورها فى التغنى ببثينة معشوقته ، إحدى نساء قبيلته ، تحابَّا صغيرين ، ولم تلبث أن ألهمته الشعر ، إذ أحبها حبًّا انتهى به إلى الهُيام بها ، وعرفت ذلك فمنحته حبها وعطفها ، وأخذت تلتقى به حين شبَّا فى غفلات من قومهما ، وخشى أهلها مغبة هذا اللقاء ، فضيَّقوا عليها الخناق ، على الرغم مما عرفوا من أن الحب بينها وبين جميل حب نقى برىء ،

---

(١) انظر فى جميل وأخباره وأشعاره الأغانى (طبع دار الكتب) ٨/٩٠ وما بعدها وابن سلام ص ٤٦١ ، ٥٤٣ والشعر والشعراء ١/٤٠٠ وما بعدها والخزانة ١/١٩٠ والموشح ص ١٩٨ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣/٣٩٥ وحديث الأربعاء ١/٢٤٩ ، ٢٨٧ .. وطبع ديوانه بشير يموت فى بيروت ونشره حسين نصار بالقاهرة وانظر فى بعض قصائده الأمالى ٢/٨٧ ، ٣٠٣ .

وأخذت الألسنة فى الحى لا تكفُّ عن التعريض بالمتحابين ، فهجرته ، واحتجبت من دونه راغمة ، وهو على ذلك لا يسلوها ، يقول :

وإنى لأرضى من بُثَيْنَةَ بالذى ... لو أبصره الواشى لقرَّت بَلابلُه[1]
بلا وبأن لا أستطيعَ وبالمُنى ... وبالأمل المرجوِّ قد خاب آملُهْ
وبالنظرة العَجْلى وبالحَوْل تنقضى ... أواخــرهُ لا نلتقى وأوائله

وكانت تلتمس فرصة من أهلها أحياناً فتلقاه ، فتُشْرق الدنيا فى عينه ، ويسعد سعادة لاحد لها . وخطبها من أبيها فردَّه ، لكراهة العرب أن يزوِّجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهم ، هكذا تزعم القصة ! . ويزوجها أبوها من فتى فى القبيلة يسمى نُبَيْهاً ، فتسودُّ الدنيا فى عين جميل ، ويلتاع لوعة شديدة ، ويصبح حبها كل حياته ، فهو يملك عليه كل شىء ، ويأخذ عليه كل طريق ، يقول :

ولو تركتْ عقلى معى ما طلبتُها ... ولكنْ طِلابيها لما فات من عقلى
خليلىَّ فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلا بكى من حبِّ قاتله قبلى
فلا تقتلينى يا بُثَيْنُ فلم أصب ... من الأمر ما فيه يحلُّ لكم قتلى

ويقول :

لها فى سَواد القلب بالحب مَيْعَةٌ ... هى الموتُ أو كادتْ على الموت تُشْرِفُ[2]
وما ذكرتْكِ النَّفْسُ يا بَثْنَ مرَّةً ... من الدهر إلا كادت النفسُ تَتْلَفُ
وإلا اعترتنى زفرةٌ واستكانةٌ ... وجاد لها سَجْلٌ من الدمع يَذْرِفُ[3]
وما استطرفتْ نفسى حديثاً لخلَّةٍ ... أُسَرُّ به إلا حديثُكِ أطْرَفُ

ويمضى يشكو حبه ، ويحاول أن يلقاها ، وتُنيله فى بعض الأحايين أمنيته فيثور به أهلها ويتوعدونه . ويعنف به حبها ، ويشقى به . ويرحل إلى

---

(١) البلابل : الوساوس . قرت : سكنت .
(٢) يقصد بالميعة حرارة الحب وقوته .
(٣) السجل : الدلو العظيمة مملوءة ماء .

المدينة وغير المدينة يتغنى باسمها وحبها متحملا من الجهد فى عشقها ما يطيق وما لا يطيق ، وتمضى الأعوام وصبوته إليها تزداد به حدة وعنفاً ، وذكراها لا تبرح مخيلته ؛ بل تعيش فى قلبه كأنها دينه ، وهو يرتل غزله كأنه صلوات يسود عها عبادته على شاكلة قوله :

أَلا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادى القُرَى إنى إذن لسعيدُ
وهل أَلقيَنْ فَرْدًا بثينةَ مرة ... تجود لنا من ودِّها ونجود
علقتُ الهوى منها وليدًا فلم يزل ... إلى اليوم يَنْمِى حبُّها ويزيد
وأَفنيتُ عمرى فى انتظار نوالها ... وأَبليتُ فيها الدهرَ وهو جديد
إذا قلتُ ما بى يابثينةُ قاتلى ... من الحبِّ قالتْ ثابتٌ ويزيد
وإن قلت رُدِّى بعضَ عقلى أَعِشْ به ... مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أَنا مردودٌ بما جئتُ طالباً ... ولا حبُّها فيما يَبيد يَبيدُ
يموتُ الهوى منِّى إذا ما لقيتُها ... ويَحْيَا إذا فارقتها فيعود

وشعرُ جميل كله فى بثينة على هذا النحو يمتاز بصدق اللهجة وحرارة العاطفة . وقد ظلت بثينة تحفظ له حبه ، إلى أن وافاه القدر بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان عليها ، فبكته ، ويقول الرواة إنها ظلت تبكيه إلى أن لحقت به .

٣

شعراء الزهد

تردَّد فى القرآن الكريم دائماً الدعوة إلى الزهد فى الحياة الدنيا ومتاعها الزائل ، وهى دعوة تحمل فى تضاعيفها الحثَّ على التقوى والعمل الصالح ، فالمسلم الحق من عاش للآخرة ، ورفض عرض الدنيا ، فلم يأخذ منه إلا بحظ محدود ، حظ يقيم أودَه ، ويعدُّه للكفاح فى سبيل الله ، ومن ثَمَّ كان زهد

الإسلام لا يعني الانقطاع تماماً عن الدنيا كزهد الرهبانية ، بل هو زهد معتدل ، زهد فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب ، يقول جلّ وعز : (وابْتَغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا) وهو نصيب ينبغي أن لا يصْرف المسلم عن الآخرة ونعيمها الخالد . .

وزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، ويُرْوَى أن رجلا جاءه فقال : يا رسول الله دُلَّني على عمل إذا عملته أحبَّني الله وأحبني الناس ، فقال : « ازْهَدْ في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس[1] » . وقد اندفع وراءه كثير من الصحابة يحيون حياة زاهدة متقشفة ، وعلى رأسهم أهل الصُّفَّة ، وهم نفر من فقراء المسلمين اتخذوا صُفَّة[2] المسجد منزلا لهم ، وعاشوا على صدقات الرسول والمثْرين يعبدون الله حق عبادته مرتلين آيَ الذكر الحكيم . وكان وراءهم كثيرون أخلصوا أنفسهم لتقوى الله حق تقواه ، وعلى رأسهم أبو بكر وعلى وعمر وعبد الله ابن عمر وأبو الدرداء وأبو ذرّ ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يقطع النهار صائماً والليل قائماً يصلي لربه . وفي ابن سعد وغيره صور كثيرة من هذه المجاهدات والرياضات للنفس[3] .

وجاء عصر الفتوح وجاءت معه الغنائم الوفيرة ، فاقتنى العرب الضِّياع وشيدوا القصور ، وهم في ذلك لا ينسون تعاليم الإسلام ، بل إننا نجد بينهم في كل مصر كثيرين يعيشون للحياة التقية الصالحة ، وسرعان ما تكونت في كل بلد أقاموا فيه جماعات القرّاء الأتقياء ، بالإضافة إلى من كان منهم يعيش في مكة والمدينة ، وأخذ كثير منهم يعيش حياته للنُّسك والعبادة . وأكبر إقليم نلتقي فيه بهؤلاء النُّسَّاك والقراء إقليم العراق ، وربما كان لكثْرة الحروب فيه أثر في ذلك ، وكأن قوماً انصرفوا عن الفتن ، خشية على أنفسهم من التورط في الإثم ، إلى النسك والعبادة ، كما انصرف إلى ذلك كثيرون ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين ، فتركوهم ودنياهم ، ومضوا يتعبَّدون ، وكان الخوارج في

---

(١) انظر في هذا الحديث رقم ٣١ في الأربعين النووية والبيان والتبيين ٣ / ١٦٦ .

(٢) الصفة : موضع مظلل من المسجد .

(٣) انظر في ذلك كتابنا التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٦٠ وما بعدها .

جملتهم جماعة كبيرة من الأتقياء ، ضلَّتْ فى اجتهادها وما زعمته من كفر الأمويين وجمهور المسلمين، ولكنها لم تضل يوماً فى تقواها .

لذلك كله عمَّت فى العراق موجة واسعة من التقوى والزهد فى الدنيا ونعيمها المادى زهداً كثيراً ما تطرَّفوا فيه ، إذ أخذت تدخل فى ثنايا هذا الزهد تأثيرات مسيحية وغير مسيحية ، بحكم ما دخل فى الإسلام من الموالى والشعوب الأجنبية . على أن المصدر الأساسى لهذا الزهد كان الإسلام نفسه وما دعا إليه من رفض الدنيا والابتهال إلى الله وانتظار ما عنده من النعيم الحق . وسرعان ما وجدنا طائفة كبيرة من الوعاظ ، تعيش حياتها تعظ الناس وتدعوهم إلى أن يجعلوا العبادة والنسك قرة أعينهم، وهى لذلك ماتنى تحدثهم — مستلهمة القرآن الكريم — عن قدرة الله فى خلقه السموات والأرض ، وعن الموت وما ينتظرهم من الحساب يوم القيامة . والحسن البصرى أشهر هؤلاء الوعاظ وهو فى وعظه دائماً يذكر الموت ، ويذكر النار حتى لكأنه يشاهدها بين عينيه، ويحض حضًّا قويًّا على الزهد فى الدنيا وحُطامها . وكان هو وغيره من الوعاظ لا يزالون يستشهدون فى وعظهم بأشعار لَبِيد والنابغة الجَعْدى وغيرهما تلك التى تدعو إلى خشية الله وتقواه، بل ربما استشهدوا بأبيات لبعض الجاهليين ،وخاصة تلك التى تصور فناء الدول أو تدعو إلى خلق فاضل .

وطبيعى أن تترك مواعظهم أثراً عميقاً فى نفوس الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى مجالسهم ، وقد مرَّ بنا فى غير هذا الموضع مدى تأثير الإسلام ومثاليته الروحية فى الشعراء ، كما مرت بنا فى مواضع مختلفة من هذا الكتاب أشعار زاهدة لنفر منهم . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الرجاز مثل أبى النجم العجلى والعَجَّاج يبدءون أراجيزهم بالحمد لله والثناء عليه ، وكثيراً ما تتحول الأرجوزة عند ثانيهما إلى موعظة خالصة . وتلقانا عند بعض الشعراء أدعية وابتهالات لله من مثل قول ذى الرمة يناجى ربه قبل موته[1] :

يارَبِّ قد أَشرفتْ نفسى وقد علمتْ علماً يقيناً لقد أَحصيتَ آثارى

يامخرجَ الروح من جسمى إذا احتضرتْ وفارجَ الكَرْبِ زحزحْنى عن النار

---

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريدج) ص ٦٦٧ .

ونريد الآن أن نقف عند نفر منهم تمثلوا فى أشعارهم فكرة رفض الحياة داعين للتفرغ إلى العبادات وإلى الأخلاق الرفيعة التى يدعو إليها الإسلام . وأول من نقف عنده عروة بن أُذَيْنَة فقيه المدينة الذى رُويت له — كما أسلفنا — مقطوعات فى الغزل العفيف ، وله أبيات تصور مبدأ مهما شاع بين الزهاد فى هذا العصر ، وهو مبدأ التوكل على الله والثقة فى أنه لا يترك أحداً بدون رزق يكفيه ، وبلغ من مبالغة بعضهم فى هذا المبدأ أن رأوا فى السعى والكد نقصاً فى التوكل والثقة بربهم . ولا شك فى أن هذا المبدأ يفضى إلى طمأنينة نفسية قوية ، كما يفضى إلى طرح الدنيا طرحاً تامًّا ، وفى تقريره يقول عروة :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقى ... أن الذى هو رزقى سوف يَأْتينى
أَسْعَى له فيعنِّينى تَطَلُّبُــهُ ... ولو قعدتُ أتانى لا يُعَنِّينى
خِيمى كريمٌ ونفسى لا تحدِّثُنى ... إن الإِلٰه بلا رزقٍ يخلِّينى

وممن اشتهروا بكثرة أشعارهم فى الزهد عبد الله بن عبد الأعلى ، ويظهر أنه كان يستمد فى زهده من منابع بعيدة عن الإسلام ، إذ نرى من كتبوا عنه يتهمونه فى دينه ، ويقولون إنه كان سيئ العقيدة[1] ، وهو فى أشعاره يقف كثيراً عند فكرة الفناء من مثل قوله :

يا وَيْحَ هذى الأَرض ما تصنع ... أكلَّ حَىٍّ فوقها تَصْرَعُ
تَزْرعهم حتى إذا ما أتوا ... عــادتْ لهم تَحْصد ما تزرع

وقوله :

مَنْ كان حين تُصيب الشمسُ جَبْهته ... أو الغبارُ يخاف الشَّيْنَ والشَّعَثا
ويأْلفُ الظِّلَّ كى تَبْقَى بَشاشتُه ... فسوف يسكن يومًا راغِمًا جَدَثا[2]

وفى تضاعيف هذا الشعر الزاهد تلقانا دعوة إلى مكارم الأخلاق يستضىء أصحابها بما جاء فى الذكر الحكيم من مثالية خلقية نبيلة ، وأكثر من لهجوا بهذه

---

(١) لسان الميزان ٣/ ٣٠٥ والمبرد ص ٢٩٤ وما بعدها وانظر أمالى القالى ٢/ ٣٢٣ .

(٢) الجدث : القبر .

الدعوة مسكين [١] الدارمى القائل :

وسُمِّيتُ مِسْكيناً وكانتْ لجاجةً ... وإنى لمسكين إلى الله راغبُ

ويقول صاحب الخزانة إن له قصيدة ، ذكر فيها طائفة من الشعراء ، ناسباً قبر كل منهم إلى بلده ومسقط رأسه ، متخذاً من ذلك العبرة ، ومصغراً أمر الدنيا ومهوناً من شأنها ، وقد ذكر له منها عشرة أبيات . ومما يتردد فى كتب الأدب من شعره قوله يعلن رضاه بالقضاء وما قُدِّر له ، وأن الله لا بد أن يكشف غمته :

ما أنزل الله من أمرٍ فأكرهه ... إلا سيجعل لى من بعده فرجا

ومن مستحسن شعره قوله :

ولستُ إذا ما سرَّنى الدهر ضاحكًا ... ولا خاشعًا ما عشتُ من حادث الدَّهْرِ

أَعِفُّ لدى عُسْرى وأُبْدى تجمُّلاً ... ولا خير فيمن لا يعفُّ لدى العُسْرِ

وإنى لأَستحيي إذا كنت مُعْسرًا ... صديقى وإخوانى بأَن يعلموا فَقْرى

ومن يفتقرْ يعلمْ مكان صديقهِ ... ومن يَغْنَ لا يَعْدَم بلاءً من الدَّهْرِ

وهو القائل :

أَخاك أَخاك إن من لا أخاً له ... كساعٍ إلى الهَيْجا بغير سلاحِ

وله أشعار طريفة فى الغيرة [٢] وأن على الزوج أن لا يبالغ فى اتهام زوجته ، حتى لا يغريها بما يخاف منه . على أننا نلاحظ عنده أنه كان يستشعر عصبيته القبلية فى فخره بخصاله ؛ وقد مرَّ بنا موقفه من تولية معاوية لابنه يزيد ، وما نظمه فى ذلك من شعر . وهو فى الحق لم يكن زاهداً بالمعنى الدقيق لكلمة زاهد ، إنما كان متأثراً تأثراً عميقاً بالروح الإسلامية ، ومن ثم استلهمها فى إشادته بشيمه ، ونحن نتركه إلى أبى الأسود الدؤلى وسابق البربرى .

---

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (ساسى) ١٨/٦٨ والشعر والشعراء ١/٥٢٩ ، والخزانة ٢/١١٦ ومعجم الأدباء ١١/١٢٦ وأمالى المرتضى ١/٤٧٢ وابن عساكر ٥/٣٠٠ .

(٢) أمالى المرتضى ١/٤٧٥ وما بعدها .

أبو الأسود الدؤلى (١)

اسمه ظالم بن عمرو من بنى كنانة ، ولى قضاء البصرة فى ولاية عبد الله ابن عباس عليها لعلى بن أبى طالب ، ولما خرج على إلى العراق لزمه فى حروبه ، ودخل بعد وفاته فيما دخل فيه الناس من بيعة معاوية ، ولكنه ظل يعلن تشيعه لآل البيت . وهو أول من وضع النقط فى المصاحف لتصوير حركات الإعراب . وهو يُعَدّ من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدّثيهم . وله مدائح وأهاج فى معاصريه وأشعار فى أزواجه ، ويقال إنه كان بخيلا شحيحاً ، وهو مع ذلك كان تقيًّا صالحاً ، وله أشعار كثيرة فى الزهد من مثل قوله :

وإذا طلبتَ من الحوائج حاجةً ... فادْعُ الإلٰه وأحسنِ الأَعمالا

فليعطينَّك ما أراد بقُدْرةٍ ... فهــو اللطيف لما أراد فعالا

ودَعِ العبادَ ولا تكن بطلابهم ... لَهِجاً تضعضَعُ للعباد سؤالا (٢)

إن العباد وشأنَهم وأُمورَهم ... بيد الإله يقلِّب الأَحــوالا

وهو فى زهده لا يدعو إلى الخمول بل يدعو إلى السعى فى الدنيا والمشى فى مناكبها ، حتى يكسب المرء لنفسه ما يحيا به حياة كريمة ، يقول لابنه :

وما طلبُ المعيشة بالتمنى ... ولكن أَلْقِ دَلْوَك فى الدِّلاء

تَجِئْك بملئها يومًا ويومًـا ... تجئك بِحَمْأَةٍ وقليلِ مـاء (٣)

ولا تقعد على كسلٍ تَمَنَّى ... تُحيل على المقادرِ والقضاء

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ١٢ / ٢٩٧ والشعر والشعراء ٢ / ٧٠٧ وأخبار النحويين البصريين ص ١٣ وطبقات ابن سعد ج٧ ق١ ص٧٠ وأسد الغابة ٣ / ٦٩ والإصابة ٣ / ٣٠٤ والخزانة ١ / ١٣٦ وروضات الجنات ص ٣٤١ وطبقات القراء لابن الجزرى ١ / ٣٤٥ ومعجم الأدباء ١٢ / ٣٤ وإنباه الرواة على أنباه النحاة ١ / ١٣ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٧ / ١٠٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٦٧ . وله ديوان نشره عبد الكريم الدجيلى ببغداد .

(٢) تضعضع : تذل وتخضع .

(٣) الحمأة : الطين الأسود .

وكثيراً ما يتحدث عما ينبغي من الربط بين العلم الديني والعمل ، فالعلم إن لم يُقْرَنْ بالعمل لم يكن علماً ، بل كان لهواً وعبثاً ، بل كان خيانة للعهد ونقضاً ، يقول :

وما عالمٌ لا يقتدى بكلامه بموفٍ بميثاقٍ عليه ولا عَهْدِ

ونراه ساخطاً سخطاً شديداً على من يتعلقون بالدنيا محيطين أنفسهم بمظاهر الثراء متناسين الشريعة الغراء ، على شاكلة قوله :

قد يجمع المرءُ مالا ثم يُحْرَمُهُ عمَّا قليلٍ فيلقى الذُّلَّ والحَربا[1]
وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبدًا ولا يحاذرُ منه الفَوْتَ والسَّلبا

وتوفى أبو الأسود سنة ٦٩ للهجرة ، وقيل بل سنة تسع وتسعين ، والقول الأول هو الصحيح .

سابق[2] البربرى

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن سابق ، وكل ما نعرف عنه أنه كان قاضى الرَّقة بالموصل وإمام مسجدها وأنه كان يفد على عمر بن عبد العزيز يعظه . فهو من وعاظ العصر ، وشعره يفيض تقوى وورعاً ودعوة إلى التقشف والفرار إلى الله من الدنيا ومتاعها الزائل ، ونراه يثور على الأغنياء الذين يعيشون لجمع المال ثورة عنيفة ، يقول :

فحتى متى تلهو بمنزل باطلٍ كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطِنُ
وتجمعُ ما لاتأكل الدهرَ دائبًا كأنك فى الدنيا لغيرك خازنُ

ويقول :

أموالُنا لذوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نَبْنيها
والنفس تَكْلَفُ بالدنيا وقد علمتْ أن السلامةَ منها ترْك ما فيها

---

(١) الحرب : سلب المال .

(٢) انظر فى سابق تاريخ ابن عساكر ٣٨/٦ والخزانة ١٦٤/٤ والبيان والتبيين ٢٠٦/١ والمبرد ص ٢٥٣ .

وكان لا يزال يكثر من حديث الموت ، وأنه نازل عما قريب ، فينبغى لكل إنسان أن يعدّ العُدّة للرحيل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل عملا صالحاً ، ومن قوله فى ذلك :

إذا الجسدُ المعمور زايلَ روحَه ... خوَى وجمالُ البيتِ يانفسُ آهِلُهْ
وقد كان فيه الروح حينًا يَزينُه ... وما الغِمْدُ لولا نَصْلُه وحمائله
إذا الأَرض خَفَّتْ بعد ثِقْلٍ جبالُها ... وخَلَّى سبيلَ البحر يا نفس ساحلُهْ
فلا يرتجى عَوْناً على حَمْلِ وِزْرِهِ ... مُسِيءٌ وأَولى الناس بالوِزْرِ حاملُه

ونراه يدعو إلى الرضا بقضاء الله، فلا مَعْدى عنه، ولا منصرف إلا إليه ، وأولى بنا أن نصبر وأن لا نجزع ، وهو يردد ذلك فى أشعاره على شاكلة قوله :

وإن جاءَ مالا تستطيعان دفْعَه ... فلا تَجْزعا مما قضى الله واصْبرَا

ويظهر أنه كان شاعراً مكثراً ، يدل على ذلك قول الجاحظ واصفاً زهدياته : « لو أن شعر سابق البربرى كان مفرقاً فى أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هى عليه بطبقات . . ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر . ومتى لم يخرج السامع من شىء إلى شىء لم يكن لذلك عنده موقع » .

٤

شعراء اللهو والمجون

رأينا فى غير هذا الموضع كيف تحضر العرب فى هذا العصر ، وكيف أن كثيرين منهم أُتْرِفوا ترفاً شديداً ، إذ أحاطوا أنفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس أنيقة ، وجوار ورقيق . ودائماً حين تغرق الأمم فى الترف يتورط كثير من أبنائها فى آثام مختلفة من اللهو والمجون ، وإذا كنا لاحظنا فيما أسلفنا انتشار موجة من الزهد فى العصر كان لها آثار عميقة فى

الشعر والشعراء فإن هذه الموجة انحسرت عن كثير من الأفراد إذ الناس ليسوا سواسية ، منهم من يجد فى الدين ومثاليته الروحية متاعه ، ومنهم من ينحرف عن الدين إلى حياة ماجنة يتهالك فيها على اللهو والخمر .

ومعروف أن الإسلام حرَّم الخمر ، وأن عمر شدَّد فى عقابها حين وجد بعض المسلمين يقترفونها من مثل أبى محْجن الثقفى ، وقصة صلاة الوليد بن عقبة والى الكوفة لعثمان بالناس وهو سكران مشهورة . غير أن أمثاله وأمثال أبى محجن فى عصر الخلفاء الراشدين كانوا قليلين . ونحن لا نمضى فى عصر بنى أمية ، حتى تظهر آثار الفتوح وما حملتْ من أموال وحضارات وصورٍ من الترف إلى العرب ، فتحضرت مكة والمدينة ، بل أُتْرفتا ، وتحضر العرب الذين خرجوا فى الفتوح واستقروا فى البيئات الجديدة ، وأخذ كثير منهم يندفع فى الاستمتاع بالحياة ، وبالغ نفر فى هذا الاستمتاع ، متحرراً من قوانين الدين . وكلما تقدمنا فى العصر ازداد ذلك قوة وحدة ، وخاصة فى البيئات البعيدة التى رحل إليها العرب ، وظهروا على ما فيها من خمور ، وأقصد بيئة خراسان ، حيث كانت تزخر بالخمر وبالطبول والمزامير ، وقد مرَّ بنا كيف أن والياً عليها — هو قتيبة بن مسلم — اضطُرَّ حين وجد تفشى الخمر فى جنده أن يعاقب على احتسائها بالقتل .

والحق أنها كانت تنتشر فى كل البيئات ، وقلما نجدها فى مكة والمدينة حيث كانت تنتشر دور الغناء . ومن الشعراء الذين نهلوا من كئوسها فى هذه البيئة لعهد معاوية ابن أرْطاة[1] ، وعبثا حاول مروان بن الحكم والى المدينة أن يردَّه عنها ، وفيها يقول :

إنا لَنَشْرَبُها حتى تَمِيل بنا ... كما تمايلَ وَسْنَانٌ بوَسْنانِ

ومنهم عبد الرحمن بن الحكم[2] الذى كان يهاجى عبد الرحمن بن حسان ، وفيها يقول :

---

(١) راجع فى ابن أرطاة الأغانى (طبع دار الكتب) ٢/٢٤٢ وما بعدها .

(٢) انظر فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ١٣/٢٥٩ وراجع المبرد ص ٥٢ والبيان والتبيين ٣/٣٤٨ .

ترى شارِبَيْها حين يَعْتورانها يَميلان أحيانًا ويعتدلان

وممن كانوا يحتسونها فى هذه البيئة لأواخر العصر ابن ميَّادة[١] مادح الوليد ابن يزيد بن عبد الملك ونديمه ، وهو من مخضرمى الدولتين ، وفيها يقول :

ومعتَّقٍ حُرِمِ الوَقودَ كرامــةً كدم الذَّبيح تمجُّه أَوْدَاجُهُ[٢]
ضمنَ الكرومُ له أوائلَ حَمْلِهِ وعلى الدِّنان تمامُه ونِتاجه[٣]

ومثله ابن هـَرْمة[٤] ، وكان مشغوفاً بها كلفاً ، وهو القائل :

أسأل الله سكرةً قبل مَوْتى وصياحَ الصِّبْيان يا سَكْرانُ

وإذا تركنا الحجاز إلى العراق وجدنا كثيرين يقبلون على الخمر فى غير حياء ولا استخفاء ، وكأنما كانت الفتن هناك وما حمَّلتهم من الخطوب باعثاً لهم على المجون ، حتّى ينسوا به عناءهم ، ومن ثم مضى نفر منهم يعلن معاقرته لها ، وأنه لن ينصرف عنها ، على شاكلة سُحَيم[٥] بن وثيل الرياحى التميمى ، وكان فيه غير قليل من بقايا الجاهلية ، وأكبر الدلالة على ذلك معاقرته لغالب أبى الفرزدق التى مرت بنا ، والتى مضى فيها ينافسه فى نحر إبله لقومه ، ويظهر أنه كان يكثر من الشراب كثرة جعلت امرأته حـَدْراء تراجعه وتكثر من مراجعته ، فقال :

تقول حَدْراء ليس فيك سوى الـ خَمْر معيبٌ يعيبُــه أَحَــدُ
فقلت: أخطأْتِ بل مُعاقرتى الـ ـــخَمْرَ وبَذْلى فيها الذى أَجِــدُ

(١) انظر فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ٢/٢٦١ والشعر والشعراء ٢/٧٤٧ والخزانة ١/٧٦ والبيان والتبيين ٣/٣٤٣.

(٢) المعتق : الشراب القديم. حرم الوقود : لم يطبخ بالنار . الأوداج : جمع ودج وهو عرق فى العنق .

(٣) تمامه : يقصد تمام مدة حمله .

(٤) راجع فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ٤/٣٦٧ والشعر والشعراء ٢/٧٢٩ والخزانة ١/٢٠٣ والموشح ص ٢٢٣ .

(٥) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٨٩ والإصابة ٣/١٦٤ والخزانة ١/١٢٣ والشعر والشعراء ٢/٦٢٦ .

هو الثناءُ الذى سمعتِ بهِ لا سَبَدٌ مُخْلدى ولا لَبَدُ(١)

ويحكِ لولا الخمورُ لم أَحْفِلِ الــ ـــعيشَ ولا أن يَضُمَّنى لَحَدُ(٢)

هى الحَيا والحياةُ واللَّهو لا أنتِ ولا ثروةٌ ولا وَلَـــدُ

ويقف السرادق الذُّهْلى هذا الموقف نفسه من ابنته ، فيعلن أنه لن يكف عنها ، إذ صارت له غذاء لا يستطيع الصبر عنه(٣). ويلقانا فى عهد زياد بن أبيه حارثة(٤) بن بدر أحد عماله وخلصائه ومُدَّاحه، كلفاً بها كلفاً شديداً ، وله فيها أشعار كثيرة رواها أبو الفرج فى ترجمته يجاهر فيها بأنه لن يكفَّ عنها ، مهما أكثر لائموه ، على شاكلة قوله :

يعيبُ علىَّ الرَّاحَ من لو يذوقها لجُنَّ بها حتى يغيَّب فى القَبْرِ

علامَ تذمُّ الراحَ والراحُ كاسمها تُريح الفتى من هَمِّه آخرَ الدهر

فَلُمْنى فإنَّ اللوم فيها يزيدنى غـــرامًا بها إن الملامة قد تُغْرى

وكان يذهب مذهبه فى الإدمان عليها مالك بن أسماء صهر الحجاج الثقفى وواليه على أصبهان ، وله فيها أشعار ساقها أبو الفرج فى ترجمته(٥). ولعل عراقيًّا لم يشتهر بها كما اشتهر الأُقَيْشر(٦) الأسدى وكان كوفيًّا خليعاً ماجناً ، وفيها يقول :

أَفْنَى تِلادى وما جمَّعتُ من نَشَبٍ قَرْعُ القَواقيزِ أَفْواهَ الأَباريق(٧)

ويقول :

كُمَيْتٌ إذا فُضَّتْ وفى الكأْسِ وردةٌ لها فى عِظام الشاربين دبيبُ

---

(١) لا سبد ولا لبد : مثل أى لا قليل ولا كثير .

(٢) اللحد : شق للميت فى جانب القبر .

(٣) الشعر والشعراء ٢/٦٧٠ .

(٤) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع الساسى) ٢١/١٣ وأمالى المرتضى ١/٣٨٠ وما بعدها وراجع فهارس الكامل للمبرد والبيان والتبيين والطبرى .

(٥) انظر ترجمته فى الأغانى (ساسى) ١٦/٤٠ والخزانة ٢/٤٨٥ ومعجم الشعراء ص ٢٦٦ والموشح ص ٢٢٠ والشعر والشعراء ٢/٧٥٦ .

(٦) انظر فى ترجمة الأقيشر أغانى (دار الكتب) ١١/٢٥١ والشعر والشعراء ٢/٥٤١ ومعجم الشعراء ص ٢٧٣ والخزانة ٢/٢٧٩ والموشح ص ٢٢١ .

(٧) التلاد : المال القديم. النشب : العقار والضياع . القواقيز : الكئوس وأوانى الخمر التى تشرب فيها .

وإذا مضينا إلى خراسان وسجستان وجدنا كثيرين يتورطون فيها ، وكأنما كان تغلغلهم فى الشرق دافعاً لهم إلى الإمعان فى المجون والتحرر من قوانين الدين ، أو لعلهم كانوا يريدون أن يزيحوا بها عن كواهلهم ما كانوا يحسون به من آلام الغربة وعناء الحروب. ويَرْوِى البلاذرى أن ثلاثة نفر من أهل الكوفة كانوا فى جيش الحجاج الذى وجهه إلى الديلم، وكانوا يتنادمون ، فمات أحدهم ، فدفنه صاحباه ، ومضيا يشربان عند قبره ، فإذا بلغته الكأس أراقاها على القبر ، وبكيا . ومات الثانى فدفنه صاحبه ، وظل عند قبرهما يشرب ويبكى إلى أن لحق بهما ، وقبورهم هناك تعرف بقبور الندماء[1]. ومن الشعراء الذين اشتهروا بمعاقرتها والنظم فيها هناك الشَّمَرْدَل[2] بن شَرِيك، وكان قد خرج للغزو فى تلك الديار مع ثلاثة من إخوته . فماتوا جميعاً ورثاهم رثاء حاراً ، وكأنه كان يغرق فيها حزنه . ومنهم أبو جِلْدة اليشكرى الذى سبق أن عرضنا له فى شعراء ثورة ابن الأشعث ، وكان يُدْمنها إدماناً ثم تاب عنها ، فقال[3] :

سأرْ[illegible]سُ فى التقوى وفى العِلْم بعدما ركضتُ إلى أَمر الغَوِىِّ المشهَّر

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تشتد موجة المجون فى خراسان والعراق جميعاً ، وخاصة الكوفة ، حيث تنشأ جماعة كبيرة من المجان على رأسها مطيع وحماد الراوية وحماد عَجْرد ويحيى بن زياد، وهم جميعاً ممن عاشوا فى الدولتين الأموية والعباسية، وهم من هذه الناحية أكثر صلة بالعصر العباسى منهم بالعصر الأموى ، ولذلك رأينا أن نؤخر الحديث عنهم . على أنهم يلفتوننا فى قوة إلى تهالك الناس على المجون فى الكوفة فى أواخر العصر ، تهالكاً تحرروا فيه من كل خلق وعرف ودين . ولعل مما هيأ لهذا الانحلال الخلقى على الأقل عند بعض الأفراد فى هذا العصر أن بعض خلفاء بنى أمية المتأخرين جعلوا يقبلون على اللهو ، يتقدمهم فى ذلك يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد الذى أكبَّ على الخمر والمجون إكباباً، كما أكبَّ على نظم الخمريات وهو وأبو الهندى شاعر سجستان أهم من عاشوا هذه الحياة الماجنة .

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٢٠ .

(٢) انظر ترجمته فى أغانى (دار الكتب) ١٣ / ٣٥١ وما بعدها والشعر والشعراء ٢ / ٦٨٥

(٣) أغانى (دار الكتب) ١١ / ٣٣٠.

الوليد[1] بن يزيد

وُلد لأبيه يزيد بن عبد الملك فى سنة ٨٨ للهجرة ، فتفتحت عينه على النعيم والترف ، بل على اللهو والمجون ، إذ كان أبوه كلفاً بالخمر والغناء ، حتى فى خلافته ، إذ كان يستقدم مغنىّ مكة والمدينة ومغنياتهما ، واشترى سلاّمة القس وحَبابة ، وانصرف عن شئون الدولة إليهما وإلى الغناء والطرب والقَصْف . وقد نشأ ابنه الوليد على مثاله ، بل لقد أخذ يسرف فى المجون واللهو إسرافاً شديداً ، حتى فكر هشام بن عبد الملك الذى خلف أباه أن يصرف ولاية العهد عنه لفساد خلقه ، ولكنه توفِّى سنة ١٢٥ قبل أن يحقق فكرته . واستوى الوليد على عرش الخلافة ، فإذا هو يحوِّل قصره ببادية شرقى الأردن مقصفاً كبيراً للخمر والعَزْف والغناء ، إذ لم يترك مغنياً فى مكة والمدينة دون أن يستقدمه ، وأخذ يعبُّ من كئوس المجون عبّاً ، جعل أهله يتنكرون له ، ويقتله ابن عمه يزيد بن الوليد فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦ تؤازره اليمانية ثأراً لخالد القسرى وما كان من تعذيبه له وقتله .

وعلى هذا النحو يذهب ضحية مجونه ، ومما لا شك فيه أنه كان ماجناً يعكف على الخمر والغناء ، ويعيش للهو والصيد والقَنْص ، حتى بعد خلافته ، فقد ظل فى نفس الجو الماجن ، الذى كان يتنفسه قبل اعتلائه عرش الخلافة ، ومن ثم آثر قصره ببادية شرقى الأردن على دمشق مستقر الخلافة الأموية ، ومضى يجلب إليه المغنين والمغنيات وآلات اللهو والطرب لا من الحجاز فقط ، بل أيضاً من خراسان ، فقد أسلفنا فى غير هذا الموضع أنه كلَّف نصر بن سيار أن يبعث إليه بما فى ولايته الخراسانية من الخيل والبراذين الفارهة وآلات الصيد ، ومن أباريق الذهب والفضة وتماثيل السباع والظباء ، ومن البرابط والطنابير والوصيفات والصنّاجات ، فجمع له نصر من ذلك أشياء

---

(١) انظر فى ترجمة الوليد أغانى (دار الكتب) ١/٧ وما بعدها والطبرى فى سنتى ١٢٥ و ١٢٦ وكتابنا التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٣١٨ وحديث الأربعاء ١٦٩/١ وقد نشر ديوانه فى مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق .

كثيرة ، كانت موضع التندر بين الشعراء والأتقياء .

وينبغي أن لا نمضي مع الرواة فى كل ما تحدثوا به عن مجونه ، إذ نراهم يجعلونه مانويًّا زنديقاً ، يسخر بالقرآن الكريم بل يمزقه تمزيقاً[١]، وفى الوقت نفسه تذكر بعض الروايات أنه قُتل وهو يقرأ القرآن ويقول: يوم كيوم عثمان[٢]. وفى الحق أن أبناء عمه من الأمويين كانوا أول من بالغ فى وصفه بالمجون ، ثم جاء العباسيون بعدهم ، فاستغلوه فى التشنيع على خلفاء بنى أمية ، وأنهم انزلقوا إلى الدرك الأسفل من انتهاك ما حرَّم الله ومن شُرْب الخمر وإتيان الفسق ، بل الكفر جملة والخروج من حدود الدين . ونحن مع تنحيتنا لهذه المبالغات التى لعبت فيها السياسة دوراً كبيراً نحتفظ للوليد بمجونه وعكوفه على اللهو والصيد والقنص وإدمانه للخمر ولهجه بالغناء لهجاً مسرفاً .

وكان الوليد شاعراً مبدعاً ، فأنفق شعره فى الخمر ، وله أشعار فى الغزل والحب ، ولكنها دون أشعار الخمر فى الإبداع والروعة ، ويظهر أنه ثقف كل ما نُظم فيها قديماً ، وخاصة عند عدى[٣] بن زيد العبادى ، وقد مضى ينميه ويضيف إليه من مواهبه ومشاعره وملكاته ما أتاح لفن الخمريات أن يأخذ طريقه إلى الظهور ، إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع فى ثنايا قصيدة أو فى مقدمتها كما كان الشأن عند عدى وعند الأعشى ، بل أصبحت تُنْظَمُ فى مقطوعات ، لها وحدتها الموضوعية والمعنوية ، تنبض بالحياة وتخفق بالجذل والسرور ، لسبب طبيعى ، هو أن ناظمها عاشق للخمر ، وهو ينظمها فى غمرة عشقه ، وكأنما تفجِّر له ينابيع الفرح تفجيراً . واقرأ له هذه الخمرية :

اصْدَعْ نَجِىَّ الهموم بالطَّرَب ... وانْعَمْ على الدَّهْر بابْنَةِ العِنَبِ

واستقبلِ العيشَ فى غضارتِهِ ... لا تَقْفُ منه آثارَ مُعْتَقِبِ

من قهوةٍ زانها تقادُمها ... فَهْىَ عجوزٌ تعلو على الحِقَبِ

---

(١) راجع الأغانى ٧/ ٤٦ ومابعدها ، ٧/ ٧٢ .

(٢) انظر الطبرى ٥/ ٥٥١ .

(٣) انظر الأغانى ٧/ ٦٥ .

أشهى إلى الشَّرْب يومَ جَلْوتها   من الفتاةِ الكريمة النَّسَبِ
فقد تجلَّت ورقَّ جَوْهَرُها   حتى تبدَّتْ فى منظرٍ عجبِ
كأنها فى زُجاجها قَبَسٌ   تذكو ضياءً فى عَيْنِ مُرْتقبِ

فهى فرحة الحياة ونعيمها، بل هى قبس سماوى يهبط برداً وسلاماً على قلوب المحزونين ، فيزيل ما فيها من أحزان وهموم ، ويردها إلى نشوة الفرح والمسرة .
واقرأ أيضاً هذه الخمرية :

علِّلانى واسقيانى   من شرابٍ أَصْبهانى
من شراب الشيخ كِسْرى   أو شرابِ القَيْروان
إن فى الكأْسِ لِمسْكا   أو بكفَّىْ مَنْ سقانى
أو لقد غُودِرَ فيها   حين صُبَّتْ فى الدِّنانِ
كلِّلانى تَوِّجانى   وبِشعْرى غنِّيانى
إنما الكأْسُ ربيعٌ   يُتعاطَى بالبَنَان
وحُميَّا الكأْس دَبَّتْ   بين رِجْلى ولسانى

وهى تجرى أيضاً فى نطاق الفرحة العميقة بالخمر ، بل لعلها أقوى من سابقتها تعبيراً عن فرحته بها ، فهى فى رأيه عطر الوجود بل ربيعه ، وهو يتلظى بنشوتها التى تسرى فى جسده من فَرْعه إلى قدمه . وهو بحق يُعَدُّ رائد العباسيين من أمثال أبى نواس فى هذا الفن من فنون الشعر ، ولاحظ ذلك النقاد قديماً فقال أبو الفرج : « وللوليد فى ذكر الخمر وصفها أشعار كثيرة ، قد أخذها الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم ، وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنه سلخ معانيه كلها وجعلها فى شعره » .

ولم تستتم الخمرية عنده وحدتها الموضوعية والمعنوية وهذا الحب الذى يجعلها كاللهب المندلع فحسب ، فإنها استتمت عنده أيضاً التفاعل الحميم بين المعانى والألفاظ ، بل بين المعانى والإيقاعات إذ كان عازفاً محسناً ، يحسن اللعب على أوتار العيدان والتوقيع على الطبول والدفوف ، وله أصوات

مأثورة في بعض أشعاره[١] . ومن ثَمَّ اجتمع للخمرية عنده طرافة المعنى وحلاوة النغم ، وقد مضى يؤثر الأوزان الخفيفة والمجزوءة من مثل الهزج والرَّمَل ، بل لقد هداه ذوقه الموسيقى إلى اكتشاف وزن المجتثّ ، فكان أول من نظم فيه[٢] . وإذا صحت الخطبة الشعرية التي يقال إنه خطب بها في يوم جمعة — وهي موعظة[٣] طويلة — كان أول من أعدَّ لصورة المزدوجات التي شاعت بين أصحاب الشعر التعليمي في العصر العباسي

أبو الهندى [٤]

هو غالب بن عبد القدوس بن شبث بن رِبْعيّ الرياحي التميمي ، وقيل اسمه عبد الله وقيل بل عبد المؤمن ، أدرك دولة بني العباس ومات في خلافة المنصور . وكان رحل إلى خراسان واستوطن في أواخر عمره سجستان ، واشتهر منذ مطالع حياته بالفسق وفساد الأخلاق ومعاقرته الشراب . ويقال إنه كان بخراسان يشرب على قارعة الطريق ، فمرَّ به نصر بن سيار واليها للأمويين ، فقال له : ويحك يا أبا الهندى ألا تصون نفسك ؟ قال : لو صُنْتها لما وليت أنت خراسان . ولما انتقل إلى سجستان نزل بموضع يقال له بالفارسية : « كوى زيان » وتفسيره بالعربية سكة الخسران . كانت تُباع فيه الخمر وتُقْتَرَفُ الفواحش .

وكان شاعراً بارعاً ، وقد وهب شعره جميعه للخمر ، وهو من هذه الناحية يعد متمماً للوليد بن يزيد ، إذ دفع معه الشعر العربي إلى تمثل الخمرية بكل شياتها المعنوية والموسيقية ، وشهد له بذلك غير ناقد ، حتى لنرى إسحق الموصلي يقول إن معاني أبي نواس وطبقته في الخمر مستمدة من أشعاره فيها ، ويقول ابن المعتز : « كان جماعة مثل أبي نواس والخليع وأبي هفّان وطبقتهم إنما اقتدروا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهندى وبما استنبطوا من معانيه » . وله في مداومة سكره وعدم إفاقته منه قصة تشبه قصة أبي نواس مع والبة . إذ يقال إنه

---

(١) الأغاني ٩/٢٧٤ و ٧/٣٢ ، ٤٤ .

(٢) انظر كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار المعارف) ص ٥٩ .

(٣) الأغاني ٧/٥٧ .

(٤) انظر في ترجمته أغاني (ساسي) ٢١/١٧٧ والشعر والشعراء ٢/٦٦٣ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ .

شرب عند خمار ونام ، ودخل جماعة فسألوا عنه ، فعرفوا خبره ، فشربوا وناموا وانتبه ، فرآهم ، فسأل عنهم ، فعرف أنهم مصرّعون من الخمر ، فشرب ، حتى سكر ونام ، وانتبهوا فصنعوا صنيعه ، وأقاموا جميعاً كذلك عشرة أيام ، يفيقون ثم يشربون وينامون ، وروى قصته معهم فى بعض شعره . إنه يعيش للخمر ويعيش بالخمر ، يصف سُقاتها ودِنانها وأباريقها وزِقاقها مثل قوله :

يمجُّ سُلافًا من زِقَاقٍ كأَنهـا شيوخُ بنى حامٍ تحنَّتْ ظهورها

وقوله :

وإذا صُبّت لشَرْبٍ خِلتها حَبشيًّا قُطعتْ منه الرُّكَبْ

ونراه يصف القيان اللائى يسمعهن فى أثناء شربها ، كما يصف من تَصْرعهم وصفاً فيه براعة ، فقد أخلص لها نفسه ، ووجد فيها طمأنيته ، بل فرحته ومسرته حتى ليتمنى أن يضمها إلى صدره فى قبره ، فلا تزايله حيًّا ولا ميتاً ، يقول :

اجعلوا — إن متُّ يومًا — كَفنى وَرَقَ الكَرْمِ وقبرى مَعْصَرَهْ

وادْفنونى وادفِنوا الـرَّاحَ معى واجعلوا الأَقداحَ حول المَقْبَرَه

وعلى هذا النحو مضى أبو الهندى فى سكة الخسران إلى الأنفاس الأخيرة من حياته ، يَصْدَحُ بخمرياته ، ويتخذ الخمر وحى إلهامه .

٥

شعراء الطبيعة

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الطبيعة دائماً كانت ملهماً بالغ التأثير فى نفسية الشاعر العربى ، وقد مضى أسلافه فى الجاهلية يَصْدُرون عنها فى أشعارهم ، فلم يتركوا كبيرة ولا صغيرة فى صَمْتها ولا فى حركتها دون أن يرسموها فى أشعارهم ، فهم يصورون فَلواتها بكُثْبانها ورمالها وغُدْرانها وغَيثْها وسيولها وخِصْبها وجَدْبها ونباتاتها وأشجارها وحيوانها وطيرها وزواحفها وهواجرها وما قد ينزل ببعض مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه .

ومضى شعراء العصر الأموى — على سُنّة آبائهم — يستلهمون صحراءهم ، مزاوجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة ، إذ يفتتح الشاعر غالباً مطولاته بوصف أطلال الديار التى قضى بها شبابه مع بعض صواحبه ، ويسترسل فى الحديث عن ذكريات حبه . ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته فى الصحراء ، وما قطع فيها من مفاوز على ناقته التى يُسْهب فى وصفها لما لها من جمال فى نفسه ، كما يُسْهب فى وصف فرسه إن كان فارساً ، وهو فى ثنايا ذلك يحدّثنا عن كل ما تقع عليه عينه فى صحرائه ويخلّف أثراً فى ذهنه من طير وحيوان فى الأرض ونجوم وكواكب فى السماء .

وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش فى بيئات متحضرة فإن الصحراء لم تجفّ ينابيعها فى نفوسهم ، بل لقد ظلت ملهمهم الأول فى أشعارهم ، على نحو ما نجد عند مبرّزيهم من أمثال الفرزدق والأخطل وجرير ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات للفرزدق يوازن فيها بين طبيعة الصحراء ونُهَيْر دُجَيْل وما يجرى فيه من سفن ، موازنة يُعْلى فيها الطبيعة الأولى علوّاً كبيراً ، يقول[1] :

لفَلْجٌ وصَحْراواه لو سرتُ فيهما ... أحبُّ إلينا من دُجَيْلٍ وأفضلُ[2]

وراحلة قد عوّدونى ركوبهـــا ... وما كنت ركّابًا لها حين تُرحَلُ[3]

قوائمُها أيدى الرجال إذا انتحتْ ... وتَحْمل مَنْ فيها قُعودًا وتُحْمَلُ[4]

إذا ما تلقّتها الأَواذىُّ شَقّهـــا ... لها جُؤْجُؤٌ لا يستريح وكَلْكَلُ[5]

إذا رَفعوا فيها الشِّراع كأنها ... قَلوصُ نَعام أو ظَليمٌ شَمَرْدَل[6]

وواضح أنه يُؤْثر الطبيعة الصحراوية البدوية على طبيعة البيئات الجديدة وما فيها من أنهار وسفن تحمل الناس فى رحلات نهرية ممتعة . وهو يعبّر بذلك

---

(١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى) ص٦٢٦ .

(٢) فلج : واد من أودية تميم بين البصرة وحمى ضرية . ودجيل : من أنهار دجلة .

(٣) ترحل : تهيأ للرحيل .

(٤) القوائم هنا : المجاذيف بأيدى الملاحين .

(٥) الأواذى : الأمواج . الجؤجؤ : بطن السفينة من أمام ، الكلكل : الصدر .

(٦) قلوص النعام : طويلة القوائم ، الظليم : ذكر النعام ، الشمردل : الطويل تام الخلق .

عن شعوره وشعور مَنْ حوله من الشعراء الذين فُتنوا مثله بالصحراء ومناظرها الطبيعية أمثال ذى الرُّمَّة، وسنعرض له عما قليل . وكان يعاصره العَجَّاج وغيره من الرجّاز . أمثال رُؤْبة الذى يقول [١] :

إن الرُّدافى والكَرِىَّ الأَرْقَبا يكفيك دَرْءَ الفِيل حتى تَرْكبا [٢]

فهو يفضل ركوب الإبل على ركوب الفيل الذى يحتاج إلى الدفع قبل اعتلائه .

وليس معنى ذلك أن الشاعر الأموى لم يَفْسَحْ لطبيعة البيئات الجديدة فى شعره ، إنما معناه أن الطبيعة الصحراوية هى التى كانت تستولى على ملكاته ، أما بعد ذلك فقد كانت تنفذ طبيعة الأقاليم الجديدة إلى حواسه ، فيصور ما يراه بها من جبال وثلوج . وقد صور الفرزدق نفسه فى بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه فى طريقه شتاءً من نثير الثلج ، يقول [٣] :

مستقبلين شمالَ الشام تَضْربهم بحاصبٍ كنديف القُطْن منثورِ [٤]
على عَمائمنـــا يُلْقَى ، وأَرْحُلنا على زواحفَ نُزْجيها محاسيرِ [٥]

وكان جرير على شاكلته لا يزال يبدئ ويعيد فى وصف المناظر الصحراوية ومع ذلك تلقانا فى ديوانه قطعة صوّر فيها نُهَيْرات شَقّها هشام بن عبد الملك من نهر الفرات ، وخاصة نهير الهنىء ، وما نبت على ضفافها من زرع وزيتون وأعناب ونخيل ومن كل الثمرات ، وهى تطّرد على هذا النمط [٦] :

شققتَ من الفُرات مباركاتٍ جـــوارىَ قد بَلَغْن كما تريدُ
وسخَّرتَ الجبال وكُنَّ خُرْساً يقطِّع فى مناكبها الحديدُ

---

(١) الحيوان ٧ / ٩٠ .

(٢) الردافى : الحادى . الكرى : الذى يكرى دابته ويزجرها . والأرقب : غليظ الرقبة . درء الفيل : دفعه وكفه .

(٣) الديوان ص ٢٦٢ .

(٤) شمال الشام : ريح شمالية . الحاصب : ما تحمله الريح من دقاق التراب أو الثلج . النديف : نثير الثلج والبرد .

(٥) نزجيها : نسوقها وندفعها ، محاسير : كليلة .

(٦) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ١٥٠ .

بلغت من الهَنِيء فقلتَ شكرا　　هناك ، وسُهِّل الجَبل الصَّلُود[١]

بها الزَّيتون فى غَلَلٍ ومالتْ　　عنـــاقيد الكروم فهنَّ سود[٢]

فتمَّتْ فى الهَنِيءِ جِنانُ دُنْيا　　فقـــال الحاسدون هى الخلود

يَعضُّون الأَنامل أنْ رأوهـــا　　بساتينًا يؤازرهـــا الحَصِيدُ[٣]

ومن أزواجِ فاكهةٍ ونَخـــلٍ　　يكون لحَمْله طَلْعٌ نَضيدُ[٤]

وجرير يحدثنا عن شق الطرق للنهيرات فى الجبال وتحطيم ما يعترض من الصخور ، كما يحدثنا عن المناظر الطبيعية فى تلك البيئة وما حفَّ بها من أشجار فاكهة وغير فاكهة وزروع مختلفة .

فالشاعر الأموى مع استغراق مناظر الصحراء له لم يُغْمض عينيه عن مناظر البيئات الجديدة ، فقد كان يسجلها من حين إلى حين ، وخاصة منهم من كانوا يلهجون بالصيد وكلابه وصقوره وفهوده ، وسنعرض لذلك فى حديثنا عن الرُّجَّاز ، وقد تعرضت طائفة منهم لوصف الفيل ، على شاكلة قول رُؤْبة يصفه[٥] :

أجْرَدُ كالحِصْن طويلُ النَّابَيْنْ　　مشرَّفُ اللَّحْيِ صغيرُ الفَقْمَيْنْ[٦]

عليه أُذْنان كفَضْل الثَّوْبَيْنْ

واشتهر فى هذا المجال هرون مولى الأزد[٧] . فالطبيعة الجديدة المتحركة والصامتة ألهمتهم كثيراً من الشعر والرجز ، ولكن من الحق أن بيئتهم الصحراوية كانت ملهمهم الأول فى هذا العصر .

---

(١) الصلود : اليابس .

(٢) الغلل : الماء الجارى تحت الشجر على وجه الأرض . الكروم : الأعناب .

(٣) الحصيد : الزروع التى تحصد ثمارها كالقمح .

(٤) الطلع : ثمر النخل فى إبانه. نضيد : منتظم .

(٥) الحيوان ٧/ ٧٩ .

(٦) الفقمان : اللحيان .

(٧) الحيوان ٧/ ١١٤ وما بعدها .

ذو الرُّمَّة [1]

هو غَيْلان بن عقبة من بني عدى بن عَبْد مَناة ، لُقِّبَ بذى الرمة لقوله فى بعض شعره يصف الوَتِدَ : « أشعث باقى رُمَّة التقليد » والرُّمة : القطعة البالية من الحَبْل ، وأضيفت إلى التقليد لأن الوتد يتقلد بها . وقيل : لُقِّب بذى الرمة لأنه كان — وهو غلام — يتفزَّع ، فأتت به أمه مقرئ قبيلته ، فكتب له مَعاذة فى جلد غليظ ، وعلَّقتها أمه على يساره برُمَّة من حبل فسمِّى ذا الرمة . وقيل إن مية التى شغفت قلبه حبًّا هى التى لقَّبته بذلك حين ألمَّ بخِبائها وطلب منها أن تسقيه ماء ، وكان على كتفه رمة ، فلما أتته بالماء ، وكانت لا تعرفه ، قالت له : اشرب يا ذا الرمة . وقد وُلد بصحراء الدهناء بالقرب من بادية اليمامة ، لأم من بنى أسد تسمى ظبية . وكان له ثلاثة إخوة كلهم شعراء ، هم مسعود وأوفى وهشام ، وفى بعض الروايات أن أوفى ابن عمه ، أما أخوه الثالث فاسمه جرفاس .

وقد ولد حوالى عام ٧٧ للهجرة ، وتلقَّن الكتابة ، وليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن نشأته الأولى ، ونراه ينظم الشعر فى خلاف نشب بين قبيلته وعتيبة بن طَرْثوث بسبب بئر كانت لقومه ، ومن ثم مضى يمدح المهاجر بن عبد الله والى اليمامة مثنياً على حكومته العادلة فى هذا الخلاف . ومن أخباره المتصلة بقبيلته أيضاً أنه نزل مع نفر منها على عشيرة امرئ القيس بن عبد مناة ، فلم يكرموهم ، فانطلق يهجوهم ، وكان ذلك سبباً فى اصطدامه بشاعرهم المسمى هشاماً المرَئى ، ولم يستطع هشام أن يثبت له لضعف شاعريته ، على الرغم مما أمدَّه به جرير من بعض الأشعار .

وتدل أخباره على أنه كان ينزل الكوفة والبصرة — ويطيل النزول فيهما — منذ مطالع القرن الثانى للهجرة مادحاً رجالاتهما ، وأول ما نستقبله من ذلك مديحه

---

(١) انظر فى ذى الرمة ابن سلام ص ٤٦٥ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٥٠٦ وأغانى (ساسى) ١٦/١٠٦ وابن خلكان فى غيلان والموشح للمرزبانى ص ١٧٠ والخزانة ١/٥٠ ومرآة الجنان لليافعى ١/٢٥٣ وفهارس الأغانى والبيان والتبيين والحيوان والكامل للمبرد وأمالى المرتضى ، وكتابنا « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » ص ٢٦٥ وقد نشر مكارتنى ديوانه فى كمبريدج سنة ١٩١٩

لهلال بين أحوز المازنى فى انتصاراته على المهالبة سنة ١٠٢ وقضائه على من بقى منهم بعد معارك مسلمة بن عبد الملك قضاء مبرماً . وقد مدح عبد الملك بن بشر بن مروان نائب مسلمة على البصرة . وتولّى على العراق فى سنة ١٠٣ عمر بن هبيرة الفزارى فاتصل به ومدحه ، حتّى إذا خلفه خالد القسرى منذ سنة ١٠٥ رأيناه يمدح نوابه ومن ولاهم الشرطة والأحكام، وعلى رأسهم نائبه أبان بن الوليد البَجلى ، ومالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطته . وأهم من مدحهم بلال ابن أبى بُرْدة الأشعرى الذى ولى شئون الشرطة لخالد فى البصرة سنة ١٠٩، ثم ولى منذ سنة ١١٠ أمور البصرة كلها : القضاء والصلاة والأحداث، وظل يليها إلى أن توفى الشاعر . وقدامتدت رحلاته فى طلب النوال إلى دمشق وخاصة فى عهد هشام بن عبد الملك ، فله فيه غير قصيدة ، كما امتدت إلى مكة حيث مدح واليها إبراهيم بن هشام المخزومى ، ولما ولى فارس أبان بن الوليد قصده ومدحه . وقد هجا فى بعض شعره حكيم بن عياش الكلبى الكوفى الذى كان يتعصب لليمن تعصباً مسرفاً .

والعناصر الإسلامية واضحة فى شعر ذى الرمة ، فهو يمدح بالتقوى ويهجو بالضلال ، ودائماً يذكر فى رحلاته الصحراوية التيمم والقَصْر فى الصلاة وتلاوة آى الذكر الحكيم ، ويظهر أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالس الوعّاظ والمتكلمين فى عصره، حتى لنراه يعتنق مذهب القَدرية فى العدل على الله جَلّ جلاله وفى حرية الإرادة ، ويناقش رؤبة فى ذلك ويعلو عليه فى نقاشه[1]، ومما صدر فيه عن مذهبه قوله فى الغزل :

وعَيْنان قال اللهُ كونا فكانتا فَعولان بالألباب ما تفعل الخمر

وقد تعرض له بعض من سمعوه ينشده ، يقول : هلا قلت : فعولين ، وكأنه لم يلتفت إلى أنه يتحرّز بذلك من القول بخلاف العَدْل وأن عملَ الإنسان وعمل جوارحه بإرادته . ويُجْمع معاصروه على أن كان ذكياً ذكاء حاداً وأنه كان كنزاً من كنوز الفطنة وذخائرها الدقيقة ، كما كان كنزاً من كنوز العلم بالشعر القديم واللغة ، وقد شُغف بشعر الراعى ، حتى قالوا إنه كان راويته

(١) أمالى المرتضى ١/١٩

ولعله هو الذى ألهمه عنايته بالصحراء ووصف مناظرها الطبيعية ، وقد مضى يتغناها إلى أن دُفن فى أحضانها سنة ١١٧ للهجرة .

وذو الرمة يتخلف فى المديح والهجاء جميعاً عن فحول عصره أمثال الفرزدق وجرير ، وكأن الطبيعة وما اقترن بها من حبه لم يُبْقيا فيه بقية. ومُلْهمته الأولى فى الديوان مَيَّة بنت طُلْبة بن قيس بن عاصم ، فقد رآها فى بعض رحلاته ، فشغفت قلبه حباً ، وظل يتغنى باسمها وحبها فى كل مكان . وفى الديوان أخرى تسمى خرقاء ، ولعله كان يكنى بها عن مية ، وإن كان من الرواة من زعم أنها امرأة أخرى . وحبُّ ذى الرمة حب عفيف كله أنين وزفرات ودموع وحنين بالغ من مثل قوله :

وقفتُ على رَبْعٍ لميَّة ناقتى فمازلتُ أبكى عنده وأُخاطبه
وأُسْقيه حتى كاد مما أَبثُّهُ تكلِّمنى أَحجارُه وملاعبه[1]

وقوله :

وحبُّها لى سوادَ الليل مرتعدًا كأنها النار تَخْبو ثم تلتهب

وقوله :

أدارًا بِحُزْوَى هِجْتِ للعين عبرةً فماءُ الهوى يرفضُّ أو يترقرقُ[2]

وقوله :

أَجَلْ عبرةً كادتْ لِعِرْفان منزلٍ لميَّة لو لم تُسهلِ الماءَ تَذْبَحُ

ولعل شاعراً عربيًّا لم يكثر من وصف دموعه كما أكثر ذو الرمة ، وعبثاً كان يطفئ بها نيران الحب المندلعة فى قلبه لمية ، وقد مضى يتعزَّى عنها بمحرابها الذى كانت تعيش فيه ، فإذا هو أكبر شاعر يتغنى بالصحراء العربية ،وحقًّا كان الشعراء قبله وحوله يصفونها ، ولكنه امتاز منهم بأنه عشقها ، عشق أيامها ولياليها ورمالها وكثبانها وآجامها وأعشابها وأشجارها وحيوانها الأليف والوحشى

(١) أسقيه : أدعو له بالسقيا .

(٢) حزوى : موضع بديار تميم .يرفض: يسيل . يترقرق : يسكن فى العين جائلا .

وكل ما يُطْوَى فيها من آبار وسمائم وسراب وطير ورياح وكل ما يلمع فى سمائها من كواكب ونجوم وسحاب وغيوم .

وكأنما وجد ذو الرمة عشقه الحقيقى فى الصحراء ، فإذا هو ينقل مناظرها إلى شعره فى لوحات رائعة ، وارجعْ إلى القصيدة الأولى فى ديوانه التى يفتتحها بوصف دموعه التى تسيل دائماً ولا تفتر ، إذيقول :

ما بالُ عينك منها الماءُ يَنْسكبُ
كأنه من كُلًى مَفْرِيَّةٍ سَربُ[1]

فإنك ستراه يخص محبوبته بنحو عشرين بيتاً ، ثم يمضى فى نحو مائة بيت يصور ثلاثة مشاهـد رائعة من مشاهد الصحراء التى كانت تبهج نفسه ، أولها مشهد أتُن الوحش وحمارها ، وهو يقودها فى يوم حارٍّ إلى ماء بعيد ، تصل إليه ، وتهوى عليه تريد أن تشفى غُلَّتها ، فيتعرض لها صائد مختف وراء الأشجار بسهامه ، فتفرُّ على وجهها ، وتطيش سهامه ، ودائماً تطيش هذه السهام فى شعر ذى الرمة حبًّا للحيوان . والمشهد الثانى مشهد ثور الوحش فى كِناسه مكتنًّا من المطر ، وقد ترامت حوله حنادس الليل ووساوسه ، وتتفلت أضواء الصباح فيخرج من كناسه للرعى وإذا بصائد قد أرسل عليه كلابه ، فيمزقها إرباً ، وينكشف عنه همه وروعه . والمشهد الثالث مشهد الظليم وصاحبته يرعيان بعيداً عن أفراخهما ، ويكفهرُّ الجو ، فيسرعان إليها خيفة أن يسقط عليها بـَرَدُ السماء أو بعض السباع . وذو الرمة فى المشاهد الثلاثة يشبه الرسامين الذين يحشدون فى لوحاتهم جميع الجزئيات والتفاصيل ، فهو يجسِّم صورة الحيوان وصورة الصحراء من حوله برمالها ومفازاتها وأعشابها ونباتاتها وغُدْرانها ، وهو إلى ذلك يبثُّ فى الحيوان مشاعر الإنسان وما يعتريه من وساوس وهواجس . وقد صور فى الثورحين هاجمته الكلاب شعوره بعزته وكأنه يمثل فيه البدوى وإحساسه بكرامته ، كما صور فى الظليم وصاحبته عاطفة الأبوة والأمومة الرحيمة .

ولعل هذه أهم خاصة تميِّز وصف الحيوان الوحشى عند ذى الرمة إذ يحمِّله

---

[1] الكلى : الرقع فى عروة المزادة . مفرية : مقطوعة ، يشبه عينه التى يسيل دمعها برقع المزادة البالية التى لا تنى ترسل الماء .

عواطف الإنسان ومشاعره ، ومن أروع ما يصور ذلك عنده قوله فى ظبية وابنها أو خِشْفها :

إذا استودعتْه صَفْصَفاً أو صَرِيمةً تنحَّتْ ونَصَّتْ جِيدها بالمناظرِ (١)

حِذارًا على وَسْنانَ يَصْرعه الكَرَى بكل مَقيلٍ عن ضِعافٍ فواترِ (٢)

وتهجرُه إلا اختلاسًا نهارَها وكم من محبٍ رَهْبةَ العين هاجر

حذارَ المنايا رهبةً أن يَفُتْنَها به وهْى إلا ذاك أضعفُ ناصر (٣)

وواضح أنه صور محبة الظبية لابنها وكيف تخشى عليه السباع ، فهى تبعد عنه حتى لا تدلها عليه ، وعينها مشدودة إليه ، وقد امتلأ قلبها بالحنان والحب والشفقة . وعلى هذا النحو كان يبثّ فى الحيوان مشاعر الإنسان وأحاسيسه .

وبجانب هذه الخاصة فى وصف الطبيعة الحية نجد خاصة أخرى فى وصف الطبيعة الصامتة ، إذ ملأها بالحياة والحركة ، ولكن كيف يأتى بذلك فى خمود الصحراء وهمودها ؟ لقد استعان فى النهار بالسراب ، فإذا ذُرَى الجبال تتحرك كأنها خيل طالعة أو إبل تُهدَى للنَّحْر عند البيت الحرام ، أولعلها سفن تجرى فى الفرات ، أما إذا جنّه الليل فحسبه النجوم التى يرى فيها صورة بقر الوحش والظباء . وجعله هذا التمثل لما يجرى فى الأرض والماء والسماء يقع على صور فريدة من مثل قوله فى وصف ظباء تبدو له من آفاق بعيدة :

كأنَّ بلادَهن سماءُ ليلٍ تُكَشَّفُ عن كواكبها الغُيومُ

وقوله فى ظباء أخرى :

كأن أُدْمانَها والشمسُ جانحةٌ وَدْعٌ بأرجائها فَضٌّ ومنظومُ (٤)

وقوله فى وصف الإبل ورحلتها فى الصحراء :

كأنَّ مَطايانا بكل مفازةٍ قراقيرُ فى صحراء دجْلةَ تَسْبَحُ (٥)

---

(١) الصفصف : الأرض المستوية . صريمة : رملة . نصت : نصبت مستقصية .

(٢) الكرى : النوم. المقيل : وقت القيلولة .

(٣) يفتنها . يسبقنها .

(٤) الأدمان : الظباء ، فض : متفرق .

(٥) القراقير : السفن .

وفى الحق أن مخيلته كانت حالمة، إذ ما تزال تبدو له الطبيعة فى رُؤًى غريبة ، وهى رُؤًى ملأت جوانب ديوانه بتجسيمات وتشخيصات بديعة من مثل قوله :

وريحُ الخُزامى رشَّها الطَّلُّ بعدما دَنا الليلُ حتى مسَّها بالقَوادمِ [١]

وقوله :

ألا طرقتْ مَىٌّ هَيُوماً بذكرهـا وأيدى الثُّريَّا جُنَّحٌ فى المغاربِ [٢]

ومن صوره الطريفة صورته للحِرْباء ووصفه لما اشتهر به من استقبال الشمس لاجئاً بظهره إلى بعض العيدان ماداً يديه كأنه مصلوب، يقول :

إذا جعل الحِرْباءُ يَغْبَرُّ لـونه ويخضرُّ من لَفْح الهجيرِ غَباغِبُه [٣]

ويَشْبَحُ بالكَفَّيْن شَبْحاً كأنَّه أخو فَجْرةٍ عالَى به الجِذْعَ صالبه [٤]

وعُنى طويلا بوصف همس الفلوات وما يُسْمع فى حنادسها من أصوات مدوية كانوا ينسبونها إلى الجن ، ونراه يشبِّهها بتراطن الروم وتَضْراب الطَّبْل وصياح الضرائر وأصوات السمر [٥]. ومن أهم ما يميزه عنصر المفاجأة فى صوره ، وهو عنصر جعله يقرن الأشياء المتباعدة بعضها إلى بعض ،فنصبح وكأننا حقا فى عالم من عوالم الرؤى والأحلام .

٦

الرُّجَّاز

الرَّجَز من البحور القديمة فى الشعر العربى ، فقد كان يُسْتَخْدَم بكثرة فى العصر الجاهلى ، وهى كثرة تؤكد أنه كان الوزنَ الشعبيَّ العام الذى يدور على

---

(١) القوادم : الريش الطويل فى جناح الطائر .

(٢) الهيوم : ذاهب العقل ، وأراد بأيدى الثريا أوائلها .

(٣) الغباغب : الجلد أسفل الحنك ، ومعروف أنه كلما حميت الشمس على الحرباء رأيت جلده يخضر بينما يظل أعلاه أصفر .

(٤) يشبح : يمد يديه .

(٥) الحيوان ٦/١٧٥ومابعدها، ٢٤٧، ٣٦٣.

كل لسان ، ومن ثَمَّ قلما وجدنا شعراءهم المبرزين ينظمون فيه وكأنما تركوه للجمهور يتعهده ويرعاه .

وليس ذلك كل ما نلاحظ فى شعبيته الجاهلية ، فقد دخلت فيه صور كثيرة من الزِّحاف ، لا تلقانا فى أى وزن آخر ، فكثر فيه المشطور والمنهوك ، وأيضاً فإنه لم يَطُلْ إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادراً ، فهو مقطوعات قصار ، ينظمها كثيرون معروفون ومجهولون ، حين يَحْدُون ببعير وحين يجولون فى ميادين الحروب ، وحين يتناولون أى عمل كحفْر بئر أو مَتْح منها .

وعلى هذا النحو كان أبياتاً قليلة تُنْظَم بديهة وارتجالا مقترنة بأعمالهم وحركاتهم السريعة والبطيئة ، ومن ثَمَّ قيل إنهم حاكوا به وقع أقدام إبلهم فى سيرها وسُراها ، وهيَّأه ذلك لأن يكون من أكثر الأوزان وأوفرها لحناً ونغماً لاقترانه بالحركة الدائبة .

وأول من أطاله وجعله كالقصيد شاعر مخضرم استشهد بموقعة نهاوند سنة ٢١ للهجرة هو الأغلب[١] العِجْلىّ ، ولا نتقدم فى عصر بنى أمية ، حتى يتكاثر من يحاكونه . وحتى يَقْصر بعض الشعراء النابهين حياتهم على تجويده وتحبيره ، وهم فى ذلك فريقان : فريق يجمع بينه وبين القصيد ، وفريق لا يجاوزه ، ولسنا نقصد بالفريق الأول من نظموا بعض أراجيز قليلة مثل جرير وذى الرمة ، إنما نقصد من أكثروا منها . ونظموا بين الحين والحين بعض القصيد.

وقد أخذت الأرجوزة — حين طالت — تتناول كل أغراض القصيدة وتجرى على نمطها من الحديث عن الأطلال ووصْف الرحلة فى الصحراء والمديح والهجاء والفخر ، فهى لا تختلف غالباً عنها فى النظام وسَرْد الموضوعات المتنوعة . ومضت تزاحمها حتى غلبتها فى باب الصَّيْد بالجوارح ، إذ نجد غير شاعر ينظم فى هذا الباب أراجيز كثيرة ، منهم الشَّمَرْدل بن شَريك التميمى الذى عرضنا له بين شعراء اللهو والمجون وفيه يقول صاحب الأغانى : « كان الشَّمَرْدلُ صاحب قَنَص وصيد بالجوارح وله فى الصَّقْر والكلب أراجيز كثيرة[٢] » ويسوق له أرجوزة يستهلها على هذا النمط :

(١) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ٢ / ٥٩٥ والأغانى ١٨ / ١٦٤ والخزانة ١ / ٣٣٢ وأسد الغابة ١ / ١٠٥ والإصابة ١ / ٥٦ وابن سلام ص ٥٧١ وما بعدها والموشح ص ٢١٣ .

(٢) أغانى (دار الكتب) ١٣ / ٣٦١ .

قد أغتدى والصبحُ فى حِجابهِ والليلُ لم يأوِ إلى مآبهِ
وقد بدا أبْلقَ من مُنْجابه بتوَّجىٌّ صاد فى شبـابه[١]
مُعـاودٍ قد ذلَّ فى إصعابهِ قد خَرَّق الضِّفارَ من جذابه[٢]
وعرفَ الصوتَ الذى يُدْعَى بهِ ولمعـةَ المُلْمعِ فى أثـوابه[٣]

ويلقانا بأخرة من العصر أبو نُخَيْلة[٤]، وهو مثل الشمردل كان يجمع بين الرجز والقصيد، ويقول ابن المعتز: «له فى الطَّرْد أراجيز كثيرة مشهورة ... وأعاجيبه فى القَنْص وغيره كثيرة» وقد ساق له أطرافاً من تلك الأراجيز، ولعل فى هذا ما يصحح الفكرة التى كانت تزعم أن أبا نواس أول من فتح هذا الباب. وربما كان أهمَّ من جمع بين الرجز والقصيد فى هذا العصر أبو النجم العجلى، وسنعرض له عما قليل.

ويلقانا كثيرون لا يتجاوزون الرجز إلى القصيد، منهم دُكَيْن[٥] بن رجاء الفُقَيْمى ودكين[٦] بن سعيد الدارمى، وقد خلط بينهما ابن قتيبة كما لاحظ ياقوت فى معجمه، ومنهم الزَّفيان[٧] السعدى التميمى، وأبرزهم جميعاً العَجَّاج وابنه رُؤْبة اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز، ونقول صناعة، لأن الرجز تحول عندهما إلى صناعة لغوية، فلم يعد يُقْصَد به إلى التعبير عن الأغراض الوجدانية وحدها، بل أصبح يُقْصَد به أيضاً إلى التعبير عن غرائب اللغة، وشركهما فى ذلك من بعض الوجوه أبو النجم، ولكنه لم يُبْعد فى الإغراب إبعادهما.

---

(١) أبلق: فيه سواد وبياض. منجابه: مكان انكشافه. التوجى: الصقر ينسب إلى توج من قرى فارس.

(٢) خرق: شق. الضفار: الحبل يشد به.

(٣) الملمع: المشير بثوبه.

(٤) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ٢/٥٨٣ والأغانى (ساسى) ١٨/١٣٩ والخزانة ١/٧٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٢ وما بعدها والموشح ص ٢١٩.

(٥) انظره فى معجم الأدباء (طبع مصر) ١١/١١٣ والشعر والشعراء ٢/٥٩٢ وتهذيب ابن عساكر ٥/٢٤٧.

(٦) راجع معجم الأدباء ١١/١١٧ وابن عساكر ٥/٢٤٨ والشعر والشعراء ٢/٥٩٢ وانظر الهامش.

(٧) راجع معجم المرزبانى ص١٦٩ وقد نشر ألوارد ديوانه فى مجموع أشعار العرب، الجزء الثانى.

ونحن نجد هذه الرغبة في العناية بالغريب عند كثير من الشعراء ، مثل الطِّرِمَّاح والكُمَيْت ، وقد عرضنا لهما في غير هذا الموضع . واشتهر شُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعِيّ بأشعار له بناها على اللفظ الغريب[١] . وهو اتجاه تعليمي نظن ظنًّا أن الذى دعا إليه عناية الأجانب بتعلم العربية ونهوض طائفة من العلماء بجمع اللغة وشواردها ، وقد انبرى العَجَّاج وابنه رُؤْبة يجمعان لهم فى شعرهما هذه الشوارد حتى تحوَّل ديواناهما إلى معجمين للغرائب اللغوية ، وهما بحق يُعَدَّان أهم من هَيَّأ لتحول الرجز من شعبيته القديمة إلى بيئة المثقفين ، وسرعان ما استغله العباسيون فى شعرهم التعليمي الذى صنفوا فيه أهل المقالات وتحدثوا عن عجائب الخلق وقَصُّوا وساقوا الحكم والأمثال[٢] .

أبو النجم[٣] العِجْليّ

من أهل الكوفة ، وكانت فيه فكاهة ، فقرب من نفوس الولاة والأمراء والخلفاء ، وله فيهم أمداح كثيرة ، إذ نراه يمدح الحجاج وغيره من ولاة العراق كما يمدح سليمان بن عبد الملك وهشاماً ، وقد أقطعه الأخير بالكوفة أرضاً تسمى الفِرْك ، كان ينزل بها . وفى أخباره أنه قدم على زياد بن أبيه فرهبه رهبة شديدة ، وخرج من عنده ، وهو يقول[٤] :

أقبلتُ من عند زيادٍ كالخَرِفْ ... تخُطُّ رِجلاى بخطٍّ مختلفْ

تكتِّبان فى الطريق لامَ أَلفْ

وفى ذلك ما يدل على أنه كان كاتباً . ويُجْمع الرواة على أنه كان سريع البديهة فى صنع الشعر ونظمه ، ومن ثَمَّ كان يغلب الشعراء والرجَّاز حين

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٤٣ وانظر كتاب المكاثرة عند المذاكرة للطيالسى (نشر جاير) ص٤٠ .

(٢) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربي (طبع دار المعارف) ص١٣٩ وما بعدها.

(٣) راجع فى أبى النجم ابن سلام ص ٥٧٦ والموشح ص ٢١٣ والشعر والشعراء ٢/٥٨٤ وأغانى دار الكتب ١٠/١٥٠ والخزانة ١/٤٨ ، ٤٠١ والمبرد ص ٤٨٥ ومابعدها ومعجم الشعراء ص١٨٠ .

(٤) الخصائص لابن جنى (طبع دار الكتب) ٣/٢٩٧ .

يَستبقون فى موضوع يطرحه خليفة أو والٍ ، ويظفر بالجائزة من دونهم ، ويقول ابن سلام : إنه أبلغ فى النَّعْت من العجاج . وأمّ أراجيزه لاميته التى يستهلها بقوله[1] :

الحمدُ لله الوَهــوب المُجْزِلِ أَعْطى فلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّــلِ

والأرجوزة بعد ذلك تفيض بالغريب فى وصف الإبل ومراعيها ، وكان رؤبة يسميها أمّ الرجز استحساناً لها وإعجاباً بها . ويُرْوَى أن العَجَّاج غدا على الناس بالمِرْبَد ينشدهم أرجوزته المشهورة «قد جبَرَ الدينَ الإلهُ فجبَر[2]» وقد ضمنها هجاءه لربيعة ، فاستعدتْ عليه راجزها أبا النجم ، فبادره ينشد أرجوزته « تذكَّرَ القلبُ وجَهْلا ما ذكَرْ» حتى إذا بلغ إلى قوله : « شيطانُه أنثى وشيطانى ذكَرْ» تعلّق الناس هذا الشَّطْر وهرب العجاج عنه . ومن طريف ما يُرْوَى من أراجيزه أرجوزته فى وصف فهود عبد الملك بن بشر بن مروان ، وهو يستهلها بقوله :

إنا نزلنا خيرَ مَنْزِلاتِ بين الحُمَيْرات المباركاتِ
فى لحم وحشٍ وحُبارَياتِ وإن أردنا الصيد ذا اللذّات[3]
جاء مُطيعًا لمطاوِعــاتِ عُلِّمْنَ أو قد كُنَّ عالماتِ
فَهْى ضوارٍ من مضرَّياتِ تُريك آماقًا مخطَّطاتِ
سودًا على الأَشداق سائلات تَلْوى بأَذناب مــوقَّفاتِ

وكثير من رجزه على هذا النحو لا يُبْعد فيه ولا يغرب ، وإن كان من الحق أنه « كان يتوسع فى الكلام ويحمل بعضه على بعض ويشتق بعضه من بعض[4]» ، ولكنه يظل قريباً منا فى جمهور رجزه ، وخاصة حين يعمد إلى التندر والدعابة ، على شاكلة قوله يوصى ابنته « بَرّة » عند زواجها :

---

(١) نشر هذه اللامية عبد العزيز الميمنى فى «الطرائف الأدبية» طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٥٥ .

(٢) جبر الثانية بمعنى انجبر .

(٣) حباريات : جمع حبارى وهو طائر .

(٤) الخصائص ١/ ٢٣٠ .

أوصيتُ من بَرَّةَ قلبا حُرًّا ... بالكلب خيرًا والحماةِ شَرًّا

لا تسأمى ضَرْبًا لها وجرًّا ... حتى تَرَىْ حُلْوَ الحياة مُرًّا

وإن كستْكِ ذهبًا ودُرًّا ... والحىَّ عُمِّيهم بشَرٍّ طُرًّا

وكان بمثل هذه الدعابة يخف على قلوب الولاة والخلفاء ، فيفسحون له فى مجالسهم ويجزلون له العطاء .

العَجَّاج[1]

هو عبد الله بن رُؤْبة التميمى، نشأ فى البادية ونزل البصرة ، وكان دائب الرحلة إلى منازل قومه فى الصحراء ، وقد سخَّر أراجيزه منذ يزيد بن معاوية فى مديح الخلفاء ، وخاصة سليمان . ونراه ينظم بلسان قومه فى خصومتهم للأزد عقب وفاة يزيد بن معاوية ، ولما ولى مصعب العراق لأخيه عبد الله بن الزبير لزمه ومدحه وهجا المختار الثقفى ، حتى إذا قتله عبد الملك بن مروان رأيناه يسارع إلى صفوف المروانيين ، فيمدح بشر بن مروان والى العراق وأخاه عبد العزيز والى مصر ، كما يمدح عمر بن عبيد الله بن معمر مشيداً بانتصاره على أبى فُدَيْك زعيم النَّجدات من الخوارج ، ويمدح أيضاً الحجاج ويهجو خصومه من مثل ابن الأشعث . وكانت فيه عصبية لقومه جعلته يضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات قبلية ، ومرَّ بنا وقوفه بالمربد يهجو ربيعة ، وكيف اقتصَّ منه أبو النجم . واشتهر بأنه لايحسن الهجاء ، وسُئل فى ذلك فقال : هل فى الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر .

وأراجيزه مليئة بأوابد اللغة وشواردها التى ينثرها ، بل يضمها بعضها إلى بعض، فى وصف الطبيعة الصحراوية بمناهلها وغدرانها ورمالها وكُثْبانها ونباتاتها وحيوانها الوحشى والأليف ، وكل ما يجرى فى أرضها من رياح وسموم وطير وفى

---

(١) انظر فى العجاج الشعر والشعراء ٢/٥٧٢ والموشح للمرزبانى ص ٢١٥ وما بعدها وشرح شواهد المغنى ١٨ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٣٩٤ وفهارس البيان والتبيين والخصائص لابن جنى والمزهر للسيوطى (طبعة الحلبى) وقد نشر ألوارد ديوانه فى مجموع أشعار العرب ، الجزء الثانى .

سمائها من كواكب ونجوم . وهو يُعَدّ بحق أول من فسح طاقة الرجز وجعله يخوض فى كل ما تخوض فيه القصيدة العربية الطويلة . وهو أيضاً أول من دفعه بقوة من الميادين الشعبية إلى ميدان الغرابة اللفظية ، ولم يكتف بذلك ، فقد أخذ يقيس فى اللغة ويكثر من القياس ، ويتصرف حسب ذوقه وإرادته الفنية . ولم يقف فى ذلك عند ألفاظ اللغة العربية وحدها ، إذ كان يعمد إلى بعض الألفاظ الفارسية فيعربّها ، وقد يصرّف منها أفعالا ، على نحو ما صنع فى أرجوزته الجيمية ، إذ يلقانا فيها هذا الشطر : « كما رأيت فى الملاء البَرْدجا » يريد الرقيق ، وقال : « كالحبشى التفّ أو تسبّجا » يريد لبس قميصاً ، وهو بالفارسية شبى ، فعربّه بسبيجة ، ثم صرّف منه فعلا فى بعض أبياته [١] .

ونراه يلتزم فى أراجيزه الموقوفة أو المختومة بالسكون أن يكون موضع الروىّ فى الإعراب واحداً ، بحيث لو أُطلقت قوافيها تحركت جميعاً بحركة واحدة ، على نحو ما يلاحَظ ذلك فى أرجوزته الطويلة « قد جبر الدين الإله فجبَر » ، وهى فى نحو مائتى بيت ، ولو أطلقت قوافيها كانت كلها منصوبة [٢] . ومن طريف ما كان يأخذ به نفسه أحياناً أن نراه يعدل عن افتتاح بعض أراجيزه بذكر الأطلال ووصف الصحراء إلى الحمد والثناء على الله ، وقد يسترسل فى ذلك استرسالا ، فتصبح الأرجوزة موعظة تامة ، على شاكلة أرجوزته :

الحمدُ لله الذى استقلّتِ بإذنه السماءُ واطمأنّتِ

وقد تحدّث فيها عن خلق السموات والأرض ، والبعث والنشور ، وما أفاء الله عليه من نعمه ، وقلقه على مصيره ورجائه فى ثوابه . وهو فى ذلك يتأثر مباشرة بمواعظ الوعاظ من حوله أمثال الحسن البصرى وغيره وقد توفى سنة ٩٧ للهجرة . وتُنْسَبُ له أرجوزة فى مديح يزيد بن عبد الملك ، وإن صحت يكون قد لحق أوائل القرن الثانى حين كان يزيد خليفة ، وهو على كل حال مات عن سن

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ٤٦١ وما بعدها .

(٢) انظر الأغانى (طبع ساسى) ١٨/ ٦٠ والخصائص ٢/ ٢٦٠ .

عالية . ونراه فى أراجيزه يكثر من بكاء الشباب وتصوير شيخوخته وضعفه ، من مثل قوله :

إمّا تريني أَصِلُ القُعَّادا — وأتقى – أن أنهض – الإرْعادا[١]

من أن تبدلتُ بآدِي آدا — لم يك يَنْآد فأمسى انآدا[٢]

وقَصبا حُنِّيَ حتى كادا — يعود بعد أعْظُمٍ أعوادا[٣]

والجناس واضح فى البيت الثانى ، وهو يشيع فى أراجيزه ، لكثرة ما كان يُعْنَى به من الإتيان بالمصادر وأفعالها ومشتقاتها ، على نحو ما صنع هنا فى الآد وانآد ، وقد جانس فى البيت الثالث بين يعود وأعواد . وكثيراً ما نراه يشتق من الأسماء الجامدة أفعالا ومشتقات ، أو يأتى ببعض المزيدات من الحروف ، وكل ذلك بقصد الإغراب ، كأن الإغراب أصبح عنده يُقْصَد لذاته ، فإن فاته فى اللفظ نفسه أتى به فيما يضعه من صيغ جديدة .

رُؤْبة[٤]

سمّاه أبوه العجاج باسم جدّه ، وقد وُلد له حوالى عام ٦٥ للهجرة ، ويظهر أنه عُنى به منذ صغره ، وأنه ما زال به حتى استيقظت شاعريته مبكرة ، إذ نراه يفد معه على الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ هـ) ، ونراه فى رفقة الشعراء الذين حجوا مع سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين[٥] . ويظهر أنه كان يولع بالرحلة منذ شبابه إلى الشرق ، فينزل تارة السند وتارة خراسان .

---

(١) القعاد : جمع قاعد ، يريد أنه يكون منهم ويفعل فعلهم .

(٢) الآد : القوة كالأيد . انآد : اعوج وانحنى .

(٣) القصب : كل عظم ذى مخ . حنى : دق ، يريد أن عظمه وهن .

(٤) انظر فى ترجمة رؤبة الشعر والشعراء ٢ / ٥٧٥ وابن سلام ص ٥٧٩ والأغانى (ساسى) ١٨ / ١٢٤ وما بعدها و ٢١ / ٥٧ والخزانة ١ / ٤٣ ومعجم الأدباء ١١ / ١٤٩ وابن خلكان وتهذيب التهذيب ٣ / ٢٩٠ ولسان الميزان ٢ / ٤٦٤ والموشح ص ٢١٩ وابن عساكر ٥ / ٣٢١ وكتابنا « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » ص ٣٤٠ . وقد نشر ديوانه آلوارد وخصه بالجزء الثالث من مجموع أشعار العرب .

(٥) طبرى ٥ / ٣٠٥ .

ومنذ أوائل القرن الثانى يلزم ولاة العراق يمدحهم ، يمدح أولا مسلمة بن عبد الملك ويشيد بانتصاراته على الأزد وصاحبهم يزيد بن المهلب ، ويجترُّ فى هذه الإشادة عصبية عنيفة لقومه تميم ، وقد مضى يمدح هريم بن أبى طحمة المجاشعى أحد قوادهم الذين أبلوا فى القضاء على يزيد وثورته . وتلقانا فى ديوانه أراجيز كثيرة فى مديح خالد القسرى وولاته وفى مديح كثير من رجالات العراق أمويين وغير أمويين ، نذكر منهم المهاجر بن عبد الله والى اليمامة ، وبلال بن أبى بردة الأشعرى نائب خالد على البصرة ، وأبان بن الوليد البجلى نائبه فى شئون الخراج ثم والى فارس ، والحكم بن عبد الملك بن بشر بن مروان ، وحرب بن الحكم بن المنذر بن الجارود ، وعمرو بن عَنْبسة بن سعيد بن العاص . ويَقدُمُ على الوليد بن يزيد بن عبد الملك فيمدحه ، ويمدح مروان ابن محمد آخر خلفائهم ويلجّ فى هجاء خصومه المارقين . وينزل خراسان . فيمدح نصر بن سيار ويحذِّره من أبى مسلم الخراسانى فى غير أرجوزة .

وجعله هذا الموقف من مناصرة الأمويين يستشعر غير قليل من الخوف والوجل حين تحولت مقاليد الأمور إلى العباسيين ، ويحاول أبو مسلم الخراسانى أن يُذهب عنه روْعه . وكذلك يصنع أبو العباس السفاح . وله فى مديحه أرجوزة طويلة إذ امتدت إلى أربعمائة بيت ، ويمدح من بعده أبا جعفر المنصور . وهو فى أثناء ذلك كله مقيم بالبصرة ، حتى إذا ثار بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رأيناه يخاف على نفسه ، ويخرج إلى البادية ، ليتجنب الثورة ، وسرعان ما يلبِّى نداء ربه سنة ١٤٥ للهجرة .

ومرَّ بنا أنه كان جَبْريًّا ، يؤمن بأن عمل الإنسان قدر مقدور عليه لا مفر منه ، مما جعله يناقش ذا الرمة فى مذهبه القَدَرىّ على نحو ما أسلفنا . والروح الإسلامية قوية فى شعره ، ويقول بعض من ترجموا له إنه كان يتألّه . وعنده انتهى فن الرجز إلى كل ما كان ينتظره من وعوثة وصعوبة لغوية ، إذ تحوَّل به يُرْضى اللغويين من حوله ويقدِّم لهم كل ما كانوا يطلبونه من الشواذ اللغوية فى الألفاظ وأبنيتها وهيئاتها وما قد يحدث فى بعض الحروف كالهمزة من إعلال ، وكأنما تحوَّل معيناً لا ينفد للأوابد والشوارد ، ومن ثَمَّ غدت الأرجوزة

عنده وكأنها متن لغوى معقد ، أو قل مستغلق ، تستغلق ألفاظه ، إذ يختارها من وحشى الكلام ، بحيث لا يفهمها إلا الخاصة من اللغويين الذين كانوا يأخذون عنه أمثال يونس وأبى عبيدة وخلف الأحمر وأبى عمرو بن العلاء . وهو لا يكتفى باستغلاق اللفظ من حيث وحشيته وغرابته ، فقد كان يضيف إلى ذلك زوائد تزيده استغلاقا ، زوائد من تغيير فى الحركات أو إعلال فى الحروف أو إتيان بصيغ جديدة فى التصريف بواسطة المصادر والجموع والأفعال ، كأن يقول فى مطلع قافيته المشهورة :

وقاتمِ الأَعْماقِ خاوى المُخْتَرَقْ   مُشْتَبِهِ الأَعلام لَمَّاعِ الخفَقْ[1]

فقد حرك فاء الخفق الساكنة وجعلها مفتوحة للإتباع . ومن ذلك إضافة النون الساكنة إلى بعض قوافيه مثل « يا أبتا علك أو عساكن » والإتيان بصيغة فيْعل بفتح العين فى قوله : «ما بال عينى كالشّعيب العيَّن » والقياس العيِّن بكسر الياء مع التشديد[2] . واقرأ قوله فى وصف الليل :

وجلٌّ ليلٍ يُحْسبُ السَّدوسا   يَسْتسمع السَّارى به الجُروسا[3]

هَماهِماً يَشْهرن أورَسيسا   علوتُ حين يخضع الرَّعوسا[4]

قَرْع يدِ اللعَّابة الطَّسيسا[5]

فإنك تراه يجمع جرساً على جروس ، فيغرب شيئاً ما ، ويعمد عمداً إلى ألفاظ غريبة يحشو بها وصفه من نحو السدوس والرسيس والرعوس ، وجاء بالطست لا بصيغته المألوفة ، وإنما بصيغة الطسيس . وعُنى بأن يلائم بين الرَّوِىِّ

---

(١) يتحدث رؤبة عن فلاة . قاتم : أسود ، أعماق المفازة : أطرافها البعيدة . مخترق الرياح : مهبها . خواؤه: خلوه . الأعلام : الجبال يهتدى بها ، يقول إنها متشابهة . لماع الخفق : السراب ، وخفقه : اضطرابه وتحركه.

(٢) راجع الخصائص ٣/٢١٤ ، وسيبويه ٢/٢٧٢ . الشعيب : المزادة والسقاء البالى . العين : سائل الماء .

(٣) جل الليل : معظمه . السدوس : الطيلسان الأخضر . جروس : جمع جرس وهو الصوت

(٤) هماهم : جمع همهمة وهى الصوت الخفى ، الرسيس : الحديث غير البين. الرعوس : الذى يهز رأسه فى نومه .

(٥) الطسيس : الطست ، يريد أن النوم يميل رأسه ويلعب به كما يلعب اللاعب بالطست .

والكلمات الداخلية فى البيت ، إذ اختارها من ذوات السين . وهو مثل أبيه كان يُعْنَى بالجناس كثيراً فى نظمه ، وخاصة جناس الاشتقاق .

واقرأْ فى أراجيزه فإنك لا تستطيع أن تخرج من بيت إلى بيت إلا بعد أن تَعْكسه على فهمك مراراً ، وتعود إلى معاجم اللغة تكراراً ، وتنظر فى سيبويه وغيره ممن عنوا بتوجيه الصيغ فى شعره . ومن المؤكد أن أباه هو الذى فتح له هذا الباب ، ولكنه هو الذى انتهى به إلى هذه الصورة المتعمقة فى الإغراب ، إذ كان يُكثر من القياس فى اللغة والتصرُّف فيها بالتفريع والتوليد ، محاولا أن يأتى بكل شاذة . وبذلك تحولت أراجيزه إلى متون لغوية كاملة ، وأخذ يفزع إليه الشعراء الذين كانوا يُعْنون بإدخال الغريب من مثل الطِّرِمَّاح والكُمَيْت ، يأخذون منه الشيء بعد الشيء ليدخلوه فى أشعارهم[1] . وتحوَّل إليه يونس وأضرابه من علماء النحو يسجِّلون رجزه وما يأتى به من مستغلقات لغوية ، كان يحشدها فى أراجيزه من أجلهم ، ونراه يصرِّح بذلك ، إذ يقول فى أرجوزة له « يلتمس النحوىّ فيها قصدى » .

وعلى هذه الشاكلة اقترنت الأرجوزة عند رؤبة بغاية تعليمية واضحة ، وهى غاية لم تلبث أن تحولت بها كما قدمنا إلى الشعر التعليمى الذى أخذ ينظمه الشعراء فى العصر العباسى ، وكأنهم وجدوا فى وفرة موسيقاها ما يتلافون به نَقْص المعانى الشعرية فى هذا الضرب الجاف من ضروب الشعر . ومضى العباسيون يولِّدون من اتحاد مصاريعها صوراً جديدة من المزدوج والمخمس . ونرى الأندلسيين حين يخترعون الموشحات ويزاوجون فيها بين الأوزان ويخالفون بين القوافى يعتمدون فى هذا الصنيع على نظام الأرجوزة فى التصريع ، فيجعلون الشطر وحدة فى الموشحة ، على نحو ما صنع رُؤبة ورُجَّاز هذا العصر فى أراجيزهم . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن الأراجيز وخاصة عند رؤبة هى التى ألهمت ابن دريد حكاياته فى تعليم اللغة كما ألهمت بعد ذلك بديع الزمان الهمذانى والحريرى صنع مقاماتهم المعروفة .

---

(١) الخصائص ٣/٢٩٧ .

الفصل السادس

الخطابة والخطباء

١

ازدهار الخطابة

أسهمت عوامل كثيرة فى ازدهار الخطابة لعصر بنى أمية ، إذ كانت لا تزال للعرب سلائقهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يَبْلُغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً فى كتابه البيان والتبيين يُشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من إشادته بهذه القدرة أن رفعهم فى الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو محق فى تقديمه لهم على الفرس ، أما اليونان فمن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً ، وأنه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتُوِّج هذا النشاط بكتاب الخطابة لأرسطاليس . ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان فى الخطابة ، ومما لا شك فيه أنهم يتخلّفون عنهم وعن العرب جميعاً فى مضمار هذا الفن من فنون النثر القولى .

وعواملُ مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ فى هذا العصر كل ما كان يُنْتَظر لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمحافل والدين ، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة فيه للدولة الأموية ، وهى معارضة كانت تدور كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع على الخلافة وهل تُقْصَرُ على بنى أمية أو

تكون حقًّا شائعاً للمسلمين جميعاً ، أو تُرَدّ إلى بنى هاشم وأبناء على خاصة ، أو تكون حقًّا للعرب ، فلا تختص بها قريش .

وكان الأمويون وولاتهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقرّرون أنها حق لهم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكموهم بشريعته . وانبرى لهم الخوارج يصيحون منذ خروجهم على على بن أبى طالب بأن الخلافة حق عام للمسلمين ، يتولاّها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشى ، بل لو كان غير عربى . ومضوا يحاجُّون فى أول الأمر عليًّا وابن عباس ، ثم أخذوا يحاجون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قِدَداً ، فكان منهم الأزارقة والنَّجدات والصُّفْرية والإباضية ، وأخذ كل فريق يحتج لرأيه مستعيناً بدقة مداخله فى حجته .

ومنذ قيام على بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناءه أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة . ويتوفّى على ، فيدعون للحسن ، ويخيب ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ ثائرتهم ، فيطلبهم زياد بن أبيه ، وقصته مع حُجْر بن عدى مشهورة . ويتوفّى معاوية ، فتكتب شيعة الكوفة إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يُقْتَلُ بكَرْبلاء دون غايته . ويتوفّى يزيد ابن معاوية ، فتنشب حركة التوابين ، يقودها سليمان بن صُرَد ، وتبوء بالخذلان . حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفى ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير ، ويتجرد له مصعب بن الزبير ، فيَقْضى عليه قضاء مبرماً . ونمضى إلى القرن الثانى فيظهر زيد بن على بن الحسين ، ويثور ، وسرعان ما يُقْضَى عليه .

ويتكون فى هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثمانى سنوات ، وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش ، لا هؤلاء الأمويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية . وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب وأسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغى أن لا تُقْصَر على قريش وأن تُرَدَّ إلى العرب قاطبة ،وبلغ هذا الشعور قمته فى الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكِنْدى يعبر عنه فى ثورته على الحجاج ؛ تؤيده بلدته ، ولكن ثورته باءت بالفشل . ولا نصل إلى أوائل القرن الثانى حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا فى صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، إذ يمتشق الخطباء ألسنتهم فى تصوير مذاهبهم السياسية . يدعون لها ، كما يدعون للانتقاض على بنى أمية . وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشَغبهم وأنهم يَضِلون الطريق . وكل ذلك هيأ فى قوة لنشاط الخطابة السياسية ، ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد فى الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة . ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين على نحو ما مرَّ بنا فى خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية سواء فى الشام أو فى الجزيرة . وكذلك خصومات تميم والأزد فى البصرة ، وما اندلع من ألسنة هذه الخصومات جميعاً فى خراسان . وهى — كما قدمنا — خصومات كانت تختلط فيها العصبيات القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بنى أمية ونُصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافل ووفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وخاصة بعد فتح مكة . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقــدم على الخلفاء الراشدين من ينبئونهم بالفتح ، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم فى المصر الجديد . وندخل فى عصر بنى أمية ، فتتحول هذه الوفود إلى سيول ، تَقْصد قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثة فى شئون قومها . واشتهر معاوية باستقدامه الوفودَ من الأمصار حين تَعِنُّ له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده . وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها

فى بيعة الخليفة الجديد وفى بثّ شكواها حين يلمّ بها مايوجب الشكوى. وانبثقت فى هذه الأثناء خطب التهنئة والتعزية . وكانوا يُسمّون محافل هذه الوفود باسم المقامات ، وفى العادة كان ينوب عن القوم فى هذه المقامات سيدهم الذى يصدرون عن رأيه . ويتصادف فى بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة ، حينئذ يتبارى خطباؤها ، ويحاول كل منهم أن يكون له قَصَبُ السبق فى البيان والفصاحة .

وبجانب المحافل والسياسة دفع الإسلامُ إلى نشاط واسع فى الخطابة ، إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين ، فأيّان رَكَزَ الإسلام أعلامه انتصبت المنابر فى المساجد كى يعظ الخطباء الناس بالمواعظ الحسنة ، يُسْهِم فى ذلك الخلفاء والولاة ، وجمهور كبير من الخطباء . ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكثر أفراد هذه الجماعة فى كل مصرٍ ، وكثر بجانبهم جماعة من القصّاص ، كانوا يقصون على الناس مازجين قصصهم بتفسير آى الذكر الحكيم وبكثير من مخلّفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الدينى . وكانوا يستهوون الناس بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة ، وكان نفر منهم يتزيد فى هذه الأخبار تزيداً شديداً ، مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساكها ينفرون منهم ، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والإزراء على خصومهم[١] ، فارضين لهم رواتب ومكافآت شهرية[٢] . ولعل من الطريف أن هؤلاء القصاص كانوا ينبثّون فى الجيوش لتحميس الجند على القتال ، كما كان ينبث معهم جماعة من الوعاظ ، وفى الطبرى نصوص تدل على ذلك كثيرة ، إذ نجد عتّاب بن ورْقاء حين نازل شبيباً الخارجى يقصّ على جنده محمساً لهم[٣] كما نجد قتيبة بن مسلم فى خراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الأزدى الناسك المشهور[٤] . ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة ، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب ، ومن كبار قُصّاصهم صالح بن مسرّح الصُّفْرىّ ،

---

(١) انظر حاشية الولاة والقضاة للكندى ص ٣٠٤ وخطط المقريزى(طبعة بولاق)٢/٢٥٣

(٢) الولاة والقضاة ص ٣١٧ .

(٣) طبرى ٥/٨٩ .

(٤) البيان والتبيين٣/٢٧٣.

وفى الطبرى طَرَف من قصصه[١] ، وكذلك كان يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جَهْم بن صفوان وصنيعه فى فتنة الحارث بن سريج بخراسان[٢] .

وفى هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رقىُّ العقل العربى بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدلٌ كثير ينشب فى مسائل العقيدة ، كمسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وهل يُعَدُّ المسلم مؤمناً وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية ، ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان مخيَّر فى الحياة أو مسيَّر لا حول له ولا قوة . ومثل مسألة صفات الله ، هل هى عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجَبْرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع .

والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً فى هذه المسائل العقيدية وهو جدال رشَّح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهى مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة نقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقى . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تُجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا يرونهم فى جدالهم يستعينون بالمنطق اليونانى وبشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله . وهم من هذه الناحية يُعَدُّون أسبق الطوائف العربية فى معرفة شئون الفكر الأجنبي ودقائق احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام فى عصر بنى أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هى صور المناظرة والمحاورة ، وهى صور جديدة ضُمَّت إلى صور الخطابة السياسية والحفلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء . وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور فى حلقات ، يقف فيها المناظر ومعه أصحابه ، فيعلن رأيه ويدعمه بكل دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدَّمه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين . وسنرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر فى رقى الخطابة رقيًّا بعيداً .

---

(١) طبرى ٥/٥٠ .

(٢) طبرى ٦/٣ وما بعدها .

٢

خطباء السياسة

نمت الخطابة السياسية فى هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيما ، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأيان وليت وجهك فى السلم والحرب وجدت الخطباء متراصّين فى صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم . وتموج كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وارجعْ إلى الطبرى فستراه لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطـَب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما فى رأيه من تمويه .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون للترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فللخوارج خطباؤهم ، وكذلك للشيعة وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار . وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنفسهم أو من ولاتهم وقوادهم . وهناك فى أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد فى سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلا شديدا . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية فى كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزباً لم يكثر خطباؤه كما كثروا فى الخوارج ، إذ كانوا شديدى الحماسة لعقيدتهم ، ولم يَدْعوا لها سرًّا كما دعا الشيعة فى أكثر الأمر ، بل دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم فى وجوه بنى أمية وولاتهم . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيئتهم كانوا يتحرجون من روايتها ، إذ كانوا يرون فيهم ثواراً خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها . ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ ، وأيضاً فإنها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم[١] .

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٤٣ وما بعدها و ٢/٣٦٤ وما بعدها .

وأول من يلقانا من خطبائهم حيّان بن ظُبْيان السُّلمى والمستورد بن علّفة لعهد المغيرة بن شعبة فى ولايته على الكوفة لمعاوية . ولا نلبث أن نلتقى بنافع ابن الأزرق وطائفة من زعمائهم لدى عبد الله بن الزبير يناظرونه حتى إذا لم يجدوه على رأيهم انصرفوا عنه إلى البصرة ، وهناك انقسموا — على نحو ما مرّ بنا — إلى أزارقة ونَجدات وصُفْرِيّة وإباضية ، وأسرع الأزارقة فأعلنوا ثورتهم وشهروا سيوفهم فى وجوه ولاة ابن الزبير ثم من خلفوهم من ولاة بنى أمية ، وتصدّى لهم المهلب ابن أبى صُفْرة وقواد آخرون ، ومزّقوهم شر ممزّق .

وقد ظلت نيران هذه الحروب مع الأزارقة مستعرة نحو خمسة عشر عاماً كانت تحتدم فيها المعارك الحربية واللسانية من الشعر والخطابة ، ومن أهم خطبائهم نافع بن الأزرق والزبير بن على الذى وليهم بعد نافع وابن الماحوز ، وله خطب مختلفة يحرضهم فيها على القتال والاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . وتلقانا فى خطابتهم نفس الروح التى وصفناها فى أشعارهم ، إذ نراهم يدعون للترامى على الموت ترامى الفراش على النار غير آبهين بالحياة الدنيا ، إنها حياة زائفة ، وهم يريدون الحياة الخالدة فى الدار الآخرة . وهم إنما يحاربون فى سبيل الحق ، يحاربون تلك الفئة التى ضلت فى رأيهم ، وكل منهم يلتمس الشهادة ، يقول الزبير فى بعض خطبه[1] : « إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجْر ، وهو على الكافرين عقوبة وخِزْىٌ . وثقوا بأنكم المستخلَفون فى الأرض والعاقبة للمتقين » .

فهم فى رأيه الفئة المحقة وخصومهم الفئة المبطلة ، وهم المؤمنون حقًّا وغيرهم الكافرون ، وقتلاهم فى الجنة أما قتلى غيرهم ففى النار . وهم لذلك يطلبون الاستشهاد ، بل يطلبون العَجلة إليه ، حتى يتخلصوا من الدنيا ومتعها الزائلة ، وكأنما يرون فى الموت نفسه ضرباً من الغلبة على خصومهم الذين غَلبوا على الدنيا ، ولا يريدون أن يغلبوهم أيضاً على الآخرة .

وإذا كنا لاحظنا فى شعرهم تنفيراً من الدنيا ، حتى ليتحول فى بعض جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن فى خطبهم ، على نحو ما يلقانا فى خطبة قَطَرِىّ ابن الفُجاءة قائدهم بعد الزبير بن على ، وهو يستهلها على هذا النمط[2] :

---

(١) الكامل للمبرد ص ٦٤٠ . ٢/٢٥٠ والعقد الفريد ٤/١٤١ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٢٦ وعيون الأخبار

« أما بعد فإنى أحذّركم الدنيا فإنها حلوة خَضِرَة[١] ، حُفَّتْ بالشهوات... مع أن امرأً لم يكن منها فى حَبْرة[٢] ، إلا أعقبته بعدها عَبرة ، ولم يلق من سَرّائها بطناً ، إلا منحته من ضَرّائها ظهراً ، ولم تَطُلَّه غبْيَة[٣] رخاء ، إلا هطلتْ عليه مُزْنة[٤] بلاء ، وحريٌّ إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة ، وإن جانبٌ منها اعذوذبَ واحلَوْلى[٥] أمرَّ عليه منها جانب وأَوْبى[٦] ، وإن آتتْ امرءًا من غضارتها[٧] ورفاهتها نِعَماً أرهقته من نوائبها نِقَماً ، ولم يُمْس امرؤٌ منها فى جَناح أمن إلا أصبح منها على قَوادم[٨] خوف ، غرّارة غرور ما فيها ، فانية ، فان من عليها ، لا خير فى شىء من زادها إلا التقوى » .

وتمضى الخطبة وهى طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب والترهيب ، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسْره ، وقد اختار لها قطرى السجع حتى يؤثر فى نفوس سامعيه أقوى تأثير ، ولم يكتف بالسجع ، بل أضاف إليه التصوير ، كما أضاف الطباق ، حتى يبلغ كل ما يريد من تنميق معانيه . وممن اشتهر من خطباء الأزارقة عُبَيْدة بن هلال اليَشْكرى وزيد بن جُنْدب الإيادى وعبد ربّ الصغير .

ويلقانا بين خطباء الصُّفْرية عمران بن حِطّان وصالح بن مسرّح الذى كان يعظهم ويقص فيهم قصصا كثيراً وكان فى وعظه وقصصه يحمل على بنى أمية ومن معهم من الجماعة الإسلامية حملات شعواء ، حتى إذا بلغ من إثارة أصحابه فى الجزيرة والموصل ما أراد خرَج على الحجّاج ، وقُتل ، فخلفه شبيب الذى دوّخ جيوش الحجاج طويلا ، ومن قول صالح فى بعض مواعظه[٩] :

« أوصيكم بتقوى الله والزهد فى الدنيا والرّغبة فى الآخرة وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين وحب المؤمنين ، فإن الزهادة فى الدنيا ترغّب العبد فيما عند الله وتفرّغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تُخيف العبد من ربه ، حتى

---

(١) خضرة : ناضرة .
(٢) حبرة : سرور .
(٣) الطل : المطر القليل . الغبية : المطرة القليلة .
(٤) الهطل : المطر الكثير . المزنة : السحابة الممطرة .
(٥) احلولى : صار حلواً .
(٦) أوبى : من الوباء .
(٧) الغضارة : النضارة والخصب .
(٨) القوادم : الريش فى مقدم جناح الطائر .
(٩) تاريخ الطبرى ٥ / ٥٠ .

يجأر[١] إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين . قال الله فى كتابه : (ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تَقُمْ على قَبْرِه إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وإن حبَّ المؤمنين للسَّبَبُ الذى يُنال به كرامة الله ورحمته . جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين » .

ومضى على هذه الشاكلة يعظ من حوله من الصُّفْرية ويحرضهم على قتال بنى أمية أئمة الضلال الظَّلَمة كما يقول ، حاثًّا لهم أن يلحقوا بإخوانهم المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله . وممن اشتهر بين الصُّفْرية بالخطابة الطِّرِمّاح بن حكيم وشُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعى والضحاك بن قيس الذى خرج لعهد مروان بن محمد وغلب على العراق فترة من الوقت .

ولم تحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء النَّجدات ، أما الإباضية فقد اشتهر من بينهم بالخطابة عبد الله بن يحيى الكندى الملقب بطالب الحق ، وقد دعا إلى الثورة على الأمويين فى سنة ١٢٩ واستطاع أن يستولى على حضرموت واليمن ، واتجهت جيوشه بقيادة أبى حمزة قائده إلى الحجاز فاستولت عليه . ولم تلبث جيوش مروان بن محمد أن ردّت الأمر إلى نصابه . ولأبى حمزة خطب مأثورة تدل دلالة بينة على أنه كان من راضة الكلام ، وربما كان أروع خطبه كلمته التى ألقاها فى مكة ، ويقال بل ألقاها فى المدينة[٢] ، وهو يستهلها بالثناء على أبى بكر وعمر ولا يلبث أن يطعن فى عثمان ومن جاء بعده من خلفاء بنى أمية ، مصوراً تعطيلهم لحدود الله وأحكامه وأخذهم للرعية بالبطش والظلم ، منددًا بمن اشتهروا منهم باللهو والمجون مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك . وينتقل إلى تصوير الخوارج وإخلاصهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم فى الدنيا وجهادهم فى سبيل الله مستعذبين للاستشهاد إذ يرون فيه الحياة كل الحياة ، الحياة الباقية التى لا تَفْنَى ، يقول متحدثاً عن شبابهم :

« شبابٌ والله مكتهلون[٣] فى شبابهم غَضيضةٌ عن الشرّ أعينهم ، ثقيلةٌ عن

---

(١) يجأر : يضرع ويستغيث .

(٢) انظر البيان والتبيين ١٢٢/٢ وعيون الأخبار ٢٤٩/٢ والعقد الفريد ١٤٤/٤ والأغانى ١٠٤/٢٠ .

(٣) مكتهلون : يريد أن لهم رزانة الكهول .

الباطل أرجلهم ، أنْضَاء[١] عبادة وأطْلاح[٢] سهر ، ينظر الله إليهم فى جـوْف الليل ، منحنيةً أصْلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مـرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شَهق شهقةً كأنَّ زفير جهنم بين أذنيه . موصولٌ كَلالهم[٣] بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار . . حتى إذا رأوا السِّهام قد فُوِّقت[٤] والرماح قدأُشْرِعت[٥] والسيوف قدانتُضِيتْ[٦] ، ورَعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقتْ استخفّوا بوعيد الكتيبة لوعْد الله ، ومضى الشباب منهم قُدُماً ، حتى اختلفتْ رجلاه على عنق فرسه ، وتخضَّبتْ بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعتْ إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء . فكم من عينٍ فى منقار طائرٍ طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كفٍّ زالتْ عن مِعْصَمِها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله » .

وهى صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة إخراجها فى ألفاظ طلية تستميل القلوب بعذوبتها ، ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإيثارهم لما عند الله من النعيم ، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كلٌّ يودّ أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قَعْصاً بالرماح ، وأن تنوشه سباع الحيوان والطير ، حتى يستحقّ رضوان ربه .

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون ، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج يندِّدون دائماً ببنى أمية ، وأنهم اغتصبوا الخلافة ، وساروا فيها سيرة جائرة عطّلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القرآن ورسوله الكريم . وكانوا لا يزالون يردّدون أن أبناء على هم أصحاب الخلافة الشرعيون بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم . وتدور هذه الأفكار دائماً فى خطابتهم وخطابة أئمتهم ، على نحو ما نجده عند الحسين حين اقترب من الكوفة واجتمع

---

(١) أنضاء : مهزولون .

(٢) أطلاح : مكدودون .

(٣) الكلال : التعب والإعياء .

(٤) فوق السهم : جعل له فوقاً وهو موضع الوتر من السهم يصنع به ذلك إذا أعد للرمى .

(٥) أشرعت : سددت .

(٦) انتضيت : استلت .

الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذى أرسله له عبيد الله بن زياد ، فقد انصرف إلى القوم بوجهه ، يقول فى كلمة له[١] .

« أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكنْ أرْضَى لله . ونحن — أهلَ البيت — أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجَوْر والعدوان » .

وتتطور الأمور ويُقْتَلُ الحسين ، ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بنى أمية وأنهم يسوسون الأمة سياسة جائرة ، فقد استباحوا دم حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويتوفّى يزيد بن معاوية فيتجمع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صُرَد ، فيعلنون توبتهم من السكوت عن الثأر للحسين وما كان من القعود عن نصرته . ويخطب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة ، وهم فى تضاعيف ذلك يقررون حق آل البيت فى الخلافة لقرابتهم من الرسول مستثيرين الناسَ على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر ابن بنت الرسول ، من ذلك قول سليمان بن صُرَد فى إحدى خطبه[٢] :

« قُتل فينا ولدينا ولدُ نبينا وسلالته وعصارته وبَضْعة[٣] من لحمه ودمه . . اتخذه الفاسقون غرضاً للنَّبْل ؛ . ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل[٤] والأبناء حتى يَرْضى الله . واللهُ ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا مَنْ قتله أو تَبيروا[٥] » .

وكان من زعماء التَّوابين معه عبيد الله بن عبدالله المُرّى ، وكان خطيباً لا يبارَى ، فمضى يعظ الناس ويحرِّضهم على الانتقاض على الأمويين بمثل قوله[٦] :

« هل خلق ربكم فى الأولين والآخرين أعظم حقًّا على هذه الأمة من نبيِّها ؟ وهل ذُرِّية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقًّا على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، ألم تروا ويبلغكم ما اجتُرِم[٧] إلى ابن بنت نبيكم . . وترميلهم[٨] إياه بالدم وتجرارهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم

---

(١) طبرى ٤/٣٠٣ .
(٢) طبرى ٤/٤٢٨ .
(٣) بضعة : قطعة .
(٤) الحلائل : جمع حليلة ، وهى الزوجة .
(٥) تبيروا : تهلكوا .
(٦) طبرى ٤/٤٣٣ .
(٧) اجترم : اقترف وارتكب .
(٨) ترميلهم : من رمله إذا لطمه بالدم .

ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم . . ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول ربِّ العالمين ، قتله عدوه وخذله وليّه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل .. إلا أن يناصح لله فى التوبة ، فيجاهد القاتلين . . وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقيل العَثْرة .. إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المُحِلِّين والمارقين » .

وخرج التوابون من الكوفة إلى الشمال فالتقوا بجيش أموى نكّل بهم وفرق جموعهم ، فارتدوا إلى الكوفة ، وهناك تلقّاهم المختار الثقفى ، زاعماً أن ابن الحنفية — على الرغم من تبرئه منه — بعثه على الشيعة أميراً وأمره بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته . وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقى لفرقة الكَيْسانية المشهورة فى تاريخ الشيعة ، وقد مرَّ بنا تصوير عقيدتها ومدى ماذهبت إليه من غلو وإسراف ، وكيف أنها كانت تدعو لابن الحنفية محمد بن على ، وتعده وصيّه والإمام المهدى المنتظر . وكان المختار خارجيًّا ثم صار زبيريًّا ثم صار كيسانيًّا [١] وكان لسنافصيحاً ، من أهل الدهاء ، فجمع الشيعة حوله ، ووجههم بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام فالتقوا بهم فى « خازر » وعصفوا بهم عصفاً . ولم يلبث مصعب بن الزبير والى البصرة لأخيه عبد الله أن قضى عليه بعد معارك طاحنة . وكانت فى المختار شعوذة كثيرة ، جعلته يتأثر فى خطابته كهنة الجاهلية ، حتى كان يزعم — على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، أنه يُوحَى إليه ، مصوِّراً هذا الوحى فى فقرات من السجع يوشّيها بالأيمان واللفظ الغريب على شاكلة قوله [٢] :

« أما وربِّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه [٣] والقِفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفَيْن الأخيار ، لأقتلنَّ كل جبّار ، بكل لَدْن خطّار [٤] ، ومهنَّد بتّار [٥] ، فى جموع من الأنصار ، ليسوا بمِيلٍ أغمار [٦] ، ولا بعُزْل [٧] أشرار ، حتى إذا أقمتُ عمود الدين ورَأَبْتُ شَعْب [٨] صَدْع المسلمين ، وشفيت

---

(١) الملل والنحل ص ١٠٩ .
(٢) طبرى ٤/٤٥٠ .
(٣) المهامه : الفيافى .
(٤) اللدن : الرمح ، الخطار : الضارب .
(٥) المهند : السيف ، البتار : القاطع .
(٦) الميل : جمع أميل وهو الجبان ، الأغمار : جمع غمر وهو ناقص التجربة .
(٧) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .
(٨) رأب : أصلح . الشعب : الفتق والصدع .

غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر علىّ زوالُ الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى » .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا المعانى التى كان يردّدها خطباء الشيعة ، وهى معان تُرَدّ إلى بيان حقوق آل البيت فى الخلافة ، وأن على المسلمين أن ينصروهم ، وأن يأخذوا بثأر مَنْ قتله الأمويون منهم . وفى تضاعيف ذلك يحمل خطباؤهم على بنى أمية حملات عنيفة مصورين ظلمهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة . ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن على وابنه يحيى ، وإن كانت كتب الأدب والتاريخ الوثيقة لم تحتفظ بشىء من خطابتهما ، وكذلك هى لم تحتفظ بشىء من خطابة بنى صَوْحان : صَعْصعة وزيد وسَيْحان وكانوا شيعة وفى الذروة من البيان والفصاحة. وقد احتفظ ابن أبى الحديد بكثير من المخاصمات والمحاورات بين الحسن بن على وعمرو بن العاص وبعض بنى أمية ، وهى مخاصمات يغلب عليها الانتحال ، ومثلها المخاصمات التى دارت بين ابن عباس ومعاوية وبعض أصحابه مما احتفظ به ابن أبى الحديد والعقد الفريد والمسعودى .

ولم يعش حزب الزبيريين طويلا ، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه ، وعبد الله ابن الزبير خطيب هذا الحزب ، وكان مفوهاً بليغاً يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه ، ويستولى على النفوس بحلاوة منطقه ، وهو فى خطابته يتناول الأمويين بالقَدْح والتجريح ، وقد استغل مقتلهم للحسين ليبين غدرهم وما يتورطون فيه من آثام . وله مناظرة مع الخوارج تدل على قوة منطقه وحدة ذكائه[١] ، وأيضاً له خطبة مشهورة خطبها حين جاءه نعى أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وهى تصور رباطة جأشه وصدق يقينه ، وفيها يقول[٢] :

« إن يُقْتَلْ فقد قُتل أبوه وعمه وابن عمه[٣] ، وكانوا الخيارَ الصالحين ، إنا والله لانموت حَتْفَ أنوفنا[٤] ، ولكن قَعْصاً[٥] بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف ،

---

(١) طبرى ٤/٤٣٧ وما بعدها

(٢) العقد الفريد ٤/٤١٢ وعيون الأخبار ٢/٤٢٠ .

(٣) أبوه الزبير قتل عقب موقعة الجمل وعمه عبد الرحمن بن العوام قتل يوم اليرموك وابنه عبد الله قتل يوم الدار . انظر أسد الغابة ٣/٢١٣ .

(٤) يقال مات حتف أنفه إذا مات على الفراش .

(٥) قعصاً : موتاً سريعاً .

وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عاريَة من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه ، فإن تُقْبِل الدنيا علىّ لم آخذها أخذ الأشِر[١] البَطِر ، وإن تُدْبر عنى لم أبك عليها بكاء الخَرِق المهين[٢] » .

ولأخيه مصعب خطب مدونة ، وقد جعل إحداها آيات قرآنية خالصة[٣] ، ولأمهما أسماء مع ابنها عبد الله محاورة[٤] طريفة حين حاصره الحجاج فى مكة وتخاذل عنه الناس .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء الثورات كان أول من نلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لبلاغته فى خطابته ، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة ٦٩ للهجرة وقضى عليه . ويلقانا بعد ذلك عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث فى ثورته على الحجاج ، وكان مِدْرهاً مفوّهاً ، ومن خطباء ثورته عامر بن واثلة الكنانى وعبد المؤمن بن شبث بن رِبْعىّ . ولا نصل إلى عصر سليمان ابن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبة بن مسلم الباهلى فى خراسان حاضًّا الجند على متابعته . ونستقبل مع أوائل القرن الثانى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد ابن عبد الملك ، وكان خطيباً بليغاً ، وطالما خطب فى جنوده يحرضهم على أهل الشام .

وكل من سميناهم من هؤلاء الثوار تتناثر خطبهم فى الطبرى وكتب الأدب ، وهى كلها تدور على إثارة الناس ضد بنى أمية وبيان ما فى حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولاتهم من عَسْف وكيف أنهم جميعاً عطّلوا أحكام الشريعة واستأثروا بالفَىْء ، حتى لنرى يزيد بن المهلب فى بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم[٥] .

وكان يقف فى الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين خطباء بنى أمية ، يتقدمهم الخلفاء ، ثم الولاة والقواد ، وممن اشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة فى

---

(١) الأشر : البطر .
(٢) الخرق : الدهش خوفاً . المهين : الحقير .
(٣) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والعقد الفريد ٤/١٣٥ .
(٤) طبرى ٥/٣٠ .
(٥) طبرى ٥/٣٣٥ .

الخطابة مع جهارة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ويزيد الناقص ، وقد وصف بعض الشعراء مهارة معاوية فى خطابته فقال[١] :

رَكوبُ المنابر وثَّابهـا مِعَنٌّ بخطبتـه مِجْهَرُ[٢]
تَريعُ إليه هَوادى الكلامِ إذا ضلَّ خُطْبتَه المِهْذَرُ[٣]

وخطابته قسمان : قسمٌ سياسةٌ خالصة ، وقسم مواعظ وترغيب وترهيب ، وهو فى القسم الأول يدعو إلى الطاعة ملوِّحاً بما فى يديه من قوة ومن عطايا وهبات ، ومن خير ما يمثِّل ذلك خطبته فى عام الجماعة سنة ٤١ للهجرة بالمدينة[٤] . وهو فى القسم الثانى ينفِّر من الدنيا والتعلق بمتاعها الزائل ، ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ[٥] ، وقد اتّهم نسبتها إليه وقال إنها حرية بأن تنسب إلى على بن أبى طالب . والجاحظ بهذا الاتّهام يقسو على معاوية ، وكأنه نسى أنه من كُتّـاب الوحى وأنه من جِلّـة الصحابة . وتتردد فى خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفتهم ، مع التهديد والوعيد لمن تحدّثهم نفوسهم بالخروج عليه[٦] ، أما عمر بن عبد العزيز فخطبه مواعظ خالصة ، يتحدث فيها عما ينتظر الإنسانَ من الموت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على ما قدّمت يداه على شاكلة قوله فى كلمة له[٧] :

« أيها الناس! إنكم لم تُخلَقوا عَبثاً ولن تُتركوا سُدىً ، وإن لكم معاداً يُحكِّم الله نبيَّكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعتْ كل شىء وحُرِم الجنة التى عَرْضُها السموات والأرض . واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف الله اليوم وباع قليلا بكثير وفانياً بباق ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُرَدّوا إلى خير الوارثين » .

وليزيد الناقص حين ولى الخلافة بعد قتله ابن عمه الوليد بن يزيد خطبة

---

(١) البيان والتبيين ١/١٢٧ .
(٢) معن : تعن له الخطبة فيخطبها مقتضباً لها.
(٣) تريع : ترجع . هوادى الكلام : أوائله .
(٤) العقد الفريد ٤/٨١ .
(٥) البيان والتبيين ٢/٥٩ وما بعدها .
(٦) العقد الفريد ٤/١٠١ والأمالى ١/١٢ .
(٧) البيان والتبيين ٢/١٢٠ وعيون الأخبار ٢/٢٤٦ .

بديعة[1] يصور فيها سياسته ودستوره فى الحكم معلناً أنه إن وفّى بما عاهد عليه الله فعلى الناس السمع والطاعة وإلا فلهم أن يخلعوه ، ويقول إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وكان ولاة بنى أمية وقوادهم لا يزالون يستوجبون على الناس الطاعة والولاء لخلفائهم ، نجد ذلك عند عتبة بن أبى سفيان والى مصر وعند ولاة العراق من أمثال زياد والحجاج وخالد القسرى ، وكانوا يضيفون إلى ذلك وعيداً وتهديداً باستخدام القوة . ولعل أحداً لم يبلغ من ذلك ما بلغه الحجاج ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته فى الكوفة حين قدم على العراق والياً من قبل عبد الملك ، وفيها يقول[2] :

« إنى لأرى رءوساً قد أينَعَتْ وحانَ قِطافها ، وإنى لصاحبها ، وإنى لأنظر إلى الدماء ترقرقُ بين العمائم واللّحى . إنى والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ما أُغمَز تَغماز التّين ولا يُقَعْقَعُ لى بالشّنان[3] ، ولقد فُرِرْتُ[4] عن ذكاء وفُتّشْتُ عن تجربة . إن أمير المؤمنين كَبّ كِنانته[5] ثم عَجَمَ[6] عيدانها ، فوجدنى أمرّها عوداً ، وأصلبها عموداً ، فوجّهنى إليكم ، فإنكم طالما أوْضَعْتم[7] فى الفتن واضطجعتم فى مراقد الضلال وسَنَنْتم سُنَنَ الغىّ . أما والله لألحُوَنّكم[8] لَحْوَ العصا ولأضربنّكم ضربَ غرائبِ الإبل[9] .. أما والله لتستقيمُنّ على طريق الحق أو لأدعنّ لكل رجل منكم شُغْلا فى جسده » .

وهو يفتتح هذه الخطبة بأشعار تمتلئ باللفظ الغريب ، حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم . وقد زخرتْ خطبته بأسلوب تصويرى قوى ، وهو يُعَدّ فى الذروة من أهل الخطابة والبيان فى العصر ، حتى ليوضع مع زياد بن أبيه فى طبقة واحدة ، وإن فضّله زياد بحلاوة منطقه ، فقد كان يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته ،

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٤١ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٣٠٧ وعيون الأخبار ٢/٢٤٤ .

(٣) القعقعة : التحريك ، الشنان : جمع شن وهو القربة البالية كانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل للمسير . مثل يضرب لمن يروعه ما لا حقيقة له .

(٤) فررت : اختبرت .

(٥) الكنانة : جعبة السهام .

(٦) عجم : اختبر .

(٧) أوضع : أسرع فى سيره أو سار بين القوم .

(٨) لحا العصا : قشرها .

(٩) قال الجاحظ : تضرب عند الهرب وعند الخلاط على الحوض إذ تختلط بغيرها فتضرب وتبعد .

ولعل من الطريف أن كتب الأدب احتفظت له بمواعظ كثيرة ، ويُروَى أن الحسن البصرى كان يقول عنه إنه «يعظُ عظة الأزارقة ويَبْطش بطش الجبَّارين»[١] ومن قوله فى بعض مواعظه : « اللهم أرِنى الهدى هدى فأتبعه وأرنى الغَىَّ غيًّا فأجتنبَه ولا تَكِلْنى إلى نفسى فأضلَّ ضلالا بعيداً[٢] » .

وكان خالد القسرى خطيباً مفوهاً، مع لحن كان فيه ، وكان إذا تكلم ظَنَّ الناس أنه يصنع كلامه لجمال لفظه وبلاغة منطقه ، وله خطب كثيرة يحثُّ فيها على طاعة الخلفاء منذراً متوعداً مَن يَنْقض حَبْل الجماعة . وأكثَرَ فى خطب الجُمَعِ من المواعظ ، حتى سُمّى خطيبَ الله[٣] ، ويُروَى أنه كان يخطب يوماً فسقطتْ جرادة على ثوبه ، فقال[٤] :

« سبحان مَن الجرادةُ من خلقه ، أدمجَ قوائمها ، وطوّقها جناحها ، ووشَّى جلدها ، وسلَّطها على ما هو أعظم منها » .

وإذا كان قواد المعارك الدامية من خوارج وشيعة وثائرين مختلفين حاربوا بنى أمية غَضَباً لدينهم كما دار على ألسنة خطبائهم فإن قواد بنى أمية فى الصفوف المقابلة كانوا يزعمون نفس الزعم ، على نمط قول مسلم بن عقبة قائد أهل الشام فى وقعة الحَرَّة : « يا أهل الشام أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا عن دينهم وأن يُعِزّوا به نَصْر إمامهم[٥] » وقول المهلب بن أبى صُفرة فى حثّ جنده على قتال الأزارقة : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج وإنهم إن قدروا عليكم فتنوكم فى دينكم وسفكوا دماءكم[٦] » . فقواد بنى أمية فى هذه الحروب الداخلية كانوا مثل خصومهم يرون أن الحق فى جانبهم وأن أعداءهم أهل غَىٍّ وضلال .

وكان قواد الفتوح شرقاً وغرباً وفى بلاد الروم لا يزالون يحثُّون جنودهم على الاستشهاد فى سبيل الله مقتبسين من آى الذكر الحكيم ما يُشْعل حماستهم ،

---

(١) البيان والتبيين ٣ / ١٦٤ .
(٢) البيان والتبيين ٢ / ١٣٧ والعقد الفريد ٤ / ١١٥ .
(٣) البيان والتبيين ٢ / ٢٧٥ .
(٤) عيون الأخبار ٢ / ٢٤٧ .
(٥) طبرى ٤ / ٣٧٥ .
(٦) الكامل للمبرد ص ٦٣٠ .

ويذكى جذوة شجاعتهم وبسالتهم ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبة قتيبة بن مسلم الباهلى وقد تهيأ لغزو طخارستان سنة ٨٦ للهجرة وفيها يقول[١] :

« وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم النصرَ بحديث صادق وكتاب ناطق ، فقال : (هو الذى أرسل رسولَه بالهدى ودين الحق ليُظهِرَه على الدين كلِّه ولو كَرِه المشركون) ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذُّخر عنده ، فقال : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نصبٌ ولا مخمصةٌ فى سبيل الله ولا يَطئون مَوْطِئاً يغيظ الكفارَ ولا ينالون من عدوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا يُنفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يَقْطعون وادياً إلا كُتِبَ لهم ليَجْزِيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وأخبر عمن قُتل فى سبيله أنه حىٌّ مرزوق فقال : (ولا تحسبنَّ الذين قُتِلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقُونَ) فتنجَّزوا موعود ربكم » .

واشتهر فى خراسان بعد قتيبة غير قائد بالخطابة مثل أسد القسرى ونصر ابن سيَّار ، ويلقانا فى الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وخطبته فى جنده حين دخلها مشهورة[٢] ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند زياد بن أبيه حتى نتمثَّل تمثلاً واضحاً ما أصاب الخطابة السياسية فى هذا العصر من نهوض ورقى .

زياد[٣] بن أبيه

وُلد فى عام الهجرة أو قبله بقليل لسُمَيَّة جارية فارسية كانت للحارث بن كَلَدَة الثقفى المشهور بطبِّه ، ويقال إنه زوجها ثقفيًّا يسمى عُبَيْداً ، ومن ثم كان يسمَّى فى بعض الروايات زياد بن عبيد . ويذهب بعض الرواة إلى أنه إنما وُلد على فراش الحارث وأن عبيداً كان عبداً روميًّا ، ولم يكن ثقفيًّا ،

---

(١) طبرى ٥ / ٢١٤

(٢) انظر نفح الطيب ١ / ١١٢

(٣) انظر فى ترجمة زياد وتحقيق نسبته طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٧٠ وأسد الغابة ٢ / ٢١٥ والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ١٧٦ وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ١ / ٢٥٩ والأغانى (طبعة الساسى) ١٦ / ٣ وما بعدها وابن عساكر ٥ / ٤٠٦ والعقد الفريد ٤ / ٥ (راجع الفهرس) ومروج الذهب للمسعودى (طبعة مصر) ٢ / ٥٥ والطبرى فى مواضع متفرقة وكتاب تاريخ الدولة العربية لفلهوزن ص ١١٣ وما بعدها .

وما نتقدم معه إلى عهد عمر . حتى نجد أبا سفيان ينسبه إلى نفسه مدعياً أبوته ، وقد تكون نسبة صحيحة ، وإن تضمنتْ أنه لم يولد لرشدة . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته . ونراه يخرج مع الجيوش الغازية فى الشرق ، وسرعان ما يعهد إليه عتبة بن غَزْوان قائد عمر فى فتوح الأبُلَّة تسجيل الغنائم وقَسْمها فى الناس ، مما يدلّ على إتقانه الكتابةَ والحساب . ويلزم ولاة البصرة يكتب لهم . ويوفده واليها أبو موسى الأشعرى إلى عمر ، فيُعْجب بذكائه ولَسنه ، ولكنه يأمر بعزله ، فيقول له : يا أمير المؤمنين أعَنْ عجز أم عن خيانة صرفتنى . فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكنى أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك[1] .

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتخذه عبد الله بن عامر واليها كاتباً له ، ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى إذا صار العراق لعلى وولَّى على البصرة ابن عباس جعله على خراجها ، وأنابه عنه أحياناً ، وأظهر فى أثناء نيابته له حُنْكة ، ذلك أن معاوية دَسّ إلى تميم بعض من أفسدها على علىٍّ ، فاستجار زياد بالأزد واستطاع بما أوقع بينهما أن يعيد الأمر إلى نصابه ، وأن يعود بتميم إلى طاعة إمامه . ولما فسدت فارس على علىٍّ أرسل به إليها والياً عليها ، فرمّ الفساد وأصلح الشَّعَث ورَأبَ الصَّدْع متوسلا إلى ذلك بمهارة سياسية فائقة ، إذ « بعث إلى رؤسائها ، فوعد مَنْ نصره ومنّاه ، وخوّف قوماً وتوعّدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودلّ بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة ، وقتل بعضهم بعضاً ، وصفَتْ له فارس فلم يلق فيها جَمْعاً ولا حرباً ، وفعل مثل ذلك بكَرْمان[2] . ويقال إن أهل فارس كانوا يقولون : « ما رأينا سيرةً أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة[3] » . ولما قُتِل علىٌّ ظل على عهده لابنه الحسن . حتى إذا تحوّلت مقاليد الأمور إلى معاوية اعتصم بفارس ، فكاتبه معاوية متوعداً ، ثم أخذ يتلطف له ووسّط لديه المغيرة بن شُعْبة الثقفى ، ذاكراً ما بينهما من الرَّحِم ، وما زال به ، حتى دخل فى طاعته . وفرح به فرحاً عظيماً . إذ كان يعرف فضله ، وأنه لا غنى له عنه فى استصلاح العراق ، ولما صار إليه

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٦٠ .

(٢) طبرى ٤ / ١٠٦

(٣) طبرى ٤ / ١٠٥ .

جمع الناس وصعد المنبر ، وأجلسه بين يديه ، وأشهد الحاضرين على نسبته لأبيه، وشهدت بذلك منهم جماعة . غير أن كثيرين ظلوا يشكّون فى هذا النسب ويتّهمونه. ولم يلبث معاوية أن ولاّه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤٥ للهجرة. فأظهر من الحزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة ، وبذلك أصبح والياً على العراق جميعه حتى وفاته سنة ٥٣ للهجرة . وقد أخذ الفسّاق والجناة بالعنف والشدة ، وكذلك صنع بالخوارج والشيعة وقصتُه مع حُجْر بن عدى مشهورة ، فقد أرسل به إلى معاوية، وهناك لقى حتفه . على أنه كان يخلط سياسته باللين ، ولم يكن يعمد إلى سفك الدماء إلا حين تُعْجزه الحيلة، وقد اتبع سياسة ضرْب القبائل بعضها ببعض حتى يشغلهم عنه وعن الدولة . ومن المحقق أنه كان سياسيًّا ماهراً بعيد النظر يحسن تصريف الأمور إلى أبعد غاية .

وكان خطيباً لا يبارَى فى جودة خطابته، يعرف كيف يصوغ كَلِمه صوغاً تَهَشُّ له الأسماع وتُصْغى له القلوب والأفئدة، وقد نوّه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشَّعْبى : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يُسِيء إلا زياداً فإنه كلما أكْثر كان أجود كلاماً[1] ». وخطبُه مثل خطب الحجاج تدور فى موضوعين هما السياسة والمواعظ الدينية، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هى أروع خطبة سياسية خلّفها هذا العصر ، وهى الملقبة بالبَتْراء[2] ، سُمِّيت بذلك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد[3] ، وقد أدخله عليها بعض الرواة .

والخطبة تُجْمل سياسة زياد التى اشتهر بها والتى رَدَّتْ إلى البصرة أمنْها بعد أن عاث فيها الفُسَّاق واللصوص واضطرب حَبْلُ النظام، وقد بدأها بتصوير ما صار إليه أهلها من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عما رسَم الله للمسلمين فى كتابه من السيرة المستقيمة الطاهرة ، يقول :

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٦٥ .

(٢) انظرها فى البيان والتبيين ٢/ ٦٢ وعيون الأخبار ٢٤١/١ والعقد الفريد ١١٠/٤ .

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٦ وانظر ٢/ ٦٢ .

« أما بعد فإن الجهالة الجَهْلاء[١] والضلالة العَمْياء والغَيّ الموفَى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام يَنْبت فيها الصغير ولا يَنْحاش[٢] عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السَّرْمد[٣] الذى لا يزول . أتكونون كمن طَرَفتْ[٤] عينيه الدنيا وسَدَّت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدَث الذى لم تُسْبَقوا إليه من ترككم الضعيف يُقْهَر ويُؤْخَذ ماله وهذه المواخيرَ[٥] المنصوبة والضعيفةَ المسلوبةَ فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نُهاةٌ تمنع الغُواة عن دَلَج[٦] الليل وغارة النهار ؟! قرّبتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر وتُغْضون على المختلس . أليس كل امرئ منكم يذبُّ عن سفيهه صُنْعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَمَ الإسلام » .

وعلى هذا النحو استهلّ خطبته بتجسيم صور الفساد التى انتهت إليها حياة الناس فى البصرة ، وهو فى أثناء ذلك يقرّع سامعيه بأنهم انتبذوا كتابَ الله وراء أظهرهم مؤثرين الفانيةَ على دار الخلود ، وكأنما عادوا يجترّون حياتهم الوثنية القديمة وكل ما كان فيها من إثم . حتى إذا بلغ من ذلك كل ما أراد انتقل يصور خطّته فى حكمهم وما أعدّه لهم من ضروب العقوبات ، يقول :

« إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لينٌ فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، وإنى أقسم بالله لآخذنّ الولىّ بالمولى[٧] والمقيمَ بالظاعن والمقبلَ بالمدبر والمطيعَ بالعاصى والصحيحَ منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : (انجُ سَعْد فقد هلك سُعَيْد) أو تستقيمَ لى قناتكم . . من نُقِب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له ، وإياى ودَلَج الليل فإنى لا أوتَى بمُدلج إلا سفكت دمه . . وإياى ودعوى[٨] الجاهلية فإنى لا آخذ

---

(١) الجهلاء : وصف مؤكد كما تقول ليلة ليلاء .
(٢) ينحاش : ينفر .
(٣) السرمد : الدائم .
(٤) طرف عينه : أصابها بشىء فدمعت .
(٥) المواخير : جمع ماخور ، وهو بيت الريبة .
(٦) الدلج : السير فى الليل .
(٧) الولى : السيد ، المولى : العبد .
(٨) دعوى الجاهلية : قولهم يالتميم مثلا ، إثارة من الشخص لقومه .

داعياً بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوماً غرّقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه . ومن نَقَبَ بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنّاه فيه حيًّا ، فكفُّوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفّ عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهرُ على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بينى وبين أقوام إحَنٌ[1] جعلتها دبْرَ[2] أذنى وتحت قدمى ، فمن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته . إنى والله لو علمت أن أحدكم قتله السُّلّ من بغضى لم أكشف له قِناعاً ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدى لى صَفْحته[3] ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأرْعوا[4] على أنفسكم ، فربّ مسوءٍ بقدومنا سنسرّه ، ومسرورٍ بقدومنا سنسوءه » .

وهذه الفقرة من الخطبة تصور بجلاء سياسة زياد ودستوره فى حكم البصرة ، وهو دستور أوضَح فيه موادّ العقوبة وأنه سيأخذ بالظِّنَّة ويعاقب على الشبهة ، وأنه قد جرّد سيفه لقتل من لا يَرْعوى ، وأن من عاد إلى العصبية الجاهلية يستثير قومه سيقطع لسانه . ونجحت هذه السياسة فى إعادة الأمور إلى نصابها فى ولايته واستقرار الأمن ، حتى قالوا إن المرأة كانت تَبيت وبابها مفتوح عليها لا تخشى لصًّا ، وكان الشيء يَسْقط فلا يعرض له أحد حتى يرجع إليه صاحبه ، فيأخذه ، وقالوا أيضاً إن الناس هابوه هيبة لم يهابوها أحداً من الولاة قبله . وفى نفس هذه الفقرة ما يصور رفق زياد برعيته ، فهو لا يبطش للبطش ، وإنما يبطش على الجُرْم ، أما بعد ذلك فليِّن رفيق بالناس ، وهو يجهر بذلك حين يلخِّص خطته فى الحكم بأنها لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، وأيضاً حين يجهر فى ختام الفقرة بأنه سيصانع الناس حتى أعداءه ما صانعوه . ويمضى فى فقرة ثالثة ، يبين ما يجب على الناس من الطاعة للخليفة وولاته ، يقول :

« أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذَادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذودعنكم بِفَيْءِ[5] الله الذى خَوَّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة

---

(١) إحن : جمع إحنة ، وهى الحقد والضغينة .
(٢) دبر : خلف . كناية عن أنه لا يهتم بها .
(٣) أبدى صفحته : جاهر بعداوته .
(٤) أرعوا : أبقوا وارفقوا .
(٥) الفىء هنا : الخراج وغنائم الحروب .

فيما أحببنا ، ولكم علينا العدلُ والإنصاف فيما وُلِّينا ، فاستوجبوا عدلنا وفَيْئَنا بمناصحتكم لنا .. وادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدِّبون وكَهْفُكم الذى إليه تأوون ، ومتى يَصْلحوا تَصْلحوا ، ولا تُشْربوا قلوبكم بُغْضهم ، فيشتدَّ لذلك غيظكم ، ويطولَ له حزنكم ، ولا تدركوا به حاجتكم ، مع أنه لو استُجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم . أسأل الله أن يُعينَ كلاًّ على كلٍّ . وإذا رأيتمونى أُنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذْلاله[1] ، وايمُ الله إن لى فيكم لصَرْعى كثيرة ، فليحذرْ كل امرئٍ منكم أن يكون من صَرْعاى » .

وزياد فى هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الإلهى المعروفة عند الفرس ، إذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم مفوَّضون لحكمهم من قِبَلِ ربهم ، وفى ذلك دلالة واضحة على تأثر الخطباء بالأفكار الأجنبية . وهو يلوِّح لسامعيه بما فى يد الدولة من أموال الخراج ومغانم الحروب وأنها ستنثرها على رعاياها المطيعين الموالين لها نَثْراً ، ولا يلبث أن يهدِّد من تحدِّثهم أنفسهم بنقض الطاعة أنهم إن صنعوا فالسيف ينتظرهم وضَرْب الرقاب .

والخطبة على هذا النحو خطبة سياسية خالصة ، إذ ترسم سياسة زياد وطريقته فى الحكم من جميع أطرافهما . وهى مقسَّمة إلى فقر تتسلسل فيها الأفكار تسلسلا دقيقاً ، وكل لفظة تقع فى مكانها وقرارها مع جمال الديباجة ووضوح الدلالة ، فلا توعُّر ولا تعقيد ولا كلم غريب .

وكان زياد بحكم خطابته فى الجمع والأعياد يعمد إلى الوعظ كثيراً ، وهو فيه يُبْدع ، كما يبدع فى خطبه السياسية ، ونسوق له من هذا الباب موعظة يقال إن عبد الملك بن مروان كتبها بيده ، وهى تطَّرد على هذا السياق[2] :

« إن الله عز وجلَّ جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بين محسنٍ بنعمة الله ومسيءٍ بخذلان الله إياه . ولله النعمةُ على المحسن والحجة على المسيء . فما أولى من تمت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره أن يضع الدنيا بحيث وضَعها الله ، فيُعْطى ما عليه منها ولا يتكثَّر

---

(١) اذلاله : وجوهه .

(٢) البيان والتبيين ١ / ٣٨٧ .

مما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عزَّ وجل ، فأحذّركم الله الذى حذّركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرّته العَجزة ، قبل أن تَصيروا إلى الدار التى صاروا إليها ، فلا تقدروا فيها على توبة ، وليست لكم منها أَوْبة » .

وواضح ما فى هذه الموعظة من حسن التقسيم ودقة التفكير وسلامة المنطق والقدرة على الإقناع بالحجة ، وحقًّا ما قاله عنه بعض معاصريه ، وقد استمع إليه فى بعض خطبه ، من أنه أوتى حُسْنَ البيان وبراعة الخطاب .

٣

خطباء المحافل

مَرَّ بنا أن العرب عرفوا من قديم هذا اللونَ من الخطابة ، إذ كانوا يَقْدُمون على ملوكهم وأمرائهم ، فيخطبون بين أيديهم مُثْنين عليهم ، ومفاخرين بقبائلهم . وكانوا يخطبون فى أقوامهم مصلحين بين العشائر أو منافرين أو حاثين على الحرب أو داعين لأن تضع أوزارها . وكثيراً ما خطبوا فى الأسواق وفى عقد المصاهرات . ونراهم بعد فتح مكة يقدمون على الرسول زَرافات ، يتقدمهم خطباؤهم وكانوا كثيراً ما يخطبون بين أيدى الخلفاء الراشدين . ولا نتقدم فى عصر بنى أمية ، حتى تنشط هذه الخطابة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جذوتها فى نفوسهم أن الأمويين وولاتهم فتحوا أبوابهم للعرب ، كى يطمئنوا إلى حسن ولائهم لدولتهم ، فكانت وفودهم تَمْثُلُ بين أيديهم ، وكانوا يُغْدقون عليها إغداقاً واسعاً.

ومعاوية هو أول من فتح أبوابه على مصاريعها لتلك الوفود ، فكانت تَرِدُ تباعاً إلى ساحته ، تعلن تارة ولاءها ، وتارة تعرض ظُلامة لها ، وهو دائم الحفاوة بها ، يُضْفى عليها من نواله الغَمْر ، وتبعه الخلفاء الأمويون من بعده يستنّون سُنَّته . وممن اشتهر بالخطابة بين يديه سَحْبان ، خطيب وائل ، وقد اشتهر بخطبته « الشَّوْهاء » التى خطب بها عنده ، فلم يُنْشد شاعر ولم يخطب خطيب[1] ،

(١) البيان والتبيين ١/٣٤٨ .

ويقول الجاحظ : « إنه كان أذكر الناس لأول كلامه وأحفظهم لكل شيء سَلَف من منطقه[١] » . ومنهم الأحنف بن قيس خطيب تميم الذى لا يدافَع وصُحار بن عَيَّاش العَبْدى ، الذى قال له معاوية : « ما هذه البلاغة التى فيكم؟ قال : شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا[٢] » ومعاوية يشير إلى ما اشتهر به قومه بنو عبد القيس من الخطابة . ويذكر الجاحظ من خطبائهم بنو صُوحان وكانوا شيعة ، ومَصْقلة بن رَقَبة ورقبة بن مصقلة وكَرِب بن مصقلة[٣] ، ويقول إنه كان لهم خطبة تسمى « العجوز » ومتى تكلموا فلابد لهم منها أو من بعضها[٤] ويقابل آل رَقبة وصُوحان فى بنى عبد القيس آل الأهتم فى تميم ، وعلى رأسهم عمرو بن الأهتم الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استمع إلى بعض كلامه البليغ « إن من البيان لسحراً » وكان أخوه عبد الله على مثاله خطيباً رائعاً ، وله مقامات ووفادات[٥] ، ومثله ابناه صفوان وعبد الله ، وخالد بن صفوان وشَبيب بن شَيْبة بن عبد الله . ومن الخطباء الأبْيناء عبد العزيز بن زُرارة الكلابى ، وهو الذى خاطب معاوية بقوله[٦] :

« يا أمير المؤمنين لم أزل أستدلّ بالمعروف عليك ، وأمتطى النهار إليك ، فإذا ألْوَى[٧] بى الليل فقَبِض البصر وعُفِّى الأثر أقام بدنى وسافر أملى ، والنفس تلوَّم والاجتهاد يَعْذر ، وإذ قد بلغتك فقَطْنى[٨] » .

وواضح ما فى هذه الخطبة القصيرة من دقة التعبير وجمال التصوير . وعلى هذا النحو تمضى خطابة المحافل ، إذ كان الخطيب يروِّى فيها طويلا حتى يروق لفظه الخليفة ومَنْ بحضرته ، وربما جعلهم ذلك يسجعون فى خطابتهم حتى يخلبوا الألباب بحسن بيانهم . وبلغ من إحسانهم لمنطقهم أن كان شباب الكتَّاب فى دواوين دمشق يحضرون مقاماتهم حريصين على استماعهم . وكانت هناك مواقف سياسية كثيرة تدعو هؤلاء الخطباء إلى المنافسة الحادة بينهم وأن يحاول كل منهم إحراز الغلبة على نحو ما كان من خطباء الوفود الذين تباروا يوم عقد معاوية

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٣٩ .

(٢) البيان والتبيين ١/٩٦ .

(٣) نفس المصدر ١/٩٧ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٤٨ .

(٥) نفس المصدر ١/٣٥٥ .

(٦) البيان والتبيين ٢/٧٥ .

(٧) ألوى هنا : استأثر .

(٨) قطنى : يكفينى .

البيعة لابنه يزيد[١]، وعلى نحو ما كان من عمران بن عصام العنزيّ فى خطبته التى صدر فيها عن رغبة عبد الملك فى خلع عبد العزيز أخيه والبيعة لابنه الوليد[٢] .
ومن ذلك الجمع بين التهنئة بالخلافة والتعزية ، وكان أول من فتح هذا الباب عبد الله بن همام السلولى الكوفى ، فقد دخل على يزيد بن معاوية حين استُخْلف والناس مجموعون على بابه يتهيَّبون القول ، فقال[٣] :

« يا أمير المؤمنين آجرك الله على الرَّزِيَّة، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية، فلقد رُزئت عظيماً ، وأُعْطيت جسيماً ، فاشكر الله على ما أُعطيت ، واصبرْ له على ما رُزيت ، فقد فقدت خليفة الله ، ومُنحت خلافة الله ، ففارقت جليلا ، ووُهِبْتَ جزيلا » . .

وبذلك انفتح باب الكلام للخطباء . وتلقانا من هذا التأبين الممزوج بالتعزية نصوص متعددة فى المناسبات المماثلة . وممن اشتهر بكثرة الوفادات عليه من خلفاء بنى أمية عبد الملك بن مروان ، فكانت ترد على بابه الوفود من كل قطر ، وكان الحجَّاج كثيراً ما يستصحب معه طائفة من وجوه أهل العراق ويقوم خطباؤهم بين يديه . وكان سليمان ابنه يتأله فوفد عليه غير واعظ من مثل أبى حازم[٤] ، ولم يكثر الوعاظ على بابٍ كثرتهم على باب عمر بن عبد العزيز[٥] ، منهم خالد بن صَفْوان وعبد[٦] الله بن الأهتم ومحمد[٧] بن كعب القُرَظى . وكان هشام بن عبد الملك يوسع لخالد بن[٨] صفوان فى مجالسه ، ولما فرَّ الكميت من سجن خالد القسرى وضاقت به الأرض بما رَحُبَتْ لجأ إلى ساحته متوسلا ببعض أهله ، حتى إذا مثَل بين يديه خطب خطبة طويلة[٩] يستنزل بها عطفه عليه ، فرقّ له وعفا عنه .

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٠ وعيون الأخبار ٢/٢١٠ والعقد الفريد ٤/٣٦٩ والأمالى ٢/٧٣ ، ٣/١٧٧ .
(٢) البيان والتبيين ١/٤٨ .
(٣) زهر الآداب ١/٤٩ .
(٤) البيان والتبيين ٣/١٣٥ .
(٥) زهر الآداب ١/٧ .
(٦) البيان والتبيين ٢/١١٧ .
(٧) نفس المصدر ٢/٣٤ و ٣/١٤٣ ، ١٧٠ وعيون الأخبار ٢/٣٤٣ ، ٣٧٠ .
(٨) البيان والتبيين ١/٣٥٥ وعيون الأخبار ٢/٣٤١ .
(٩) أغانى (ساسى) ١٥/١١٣ .

ولم تكثر هذه الوفادات على أبواب الخلفاء فحسب . فقد كان الخطباء يفدون على الولاة ، واشتهر عمران بن حِطّان بوفادة له على زياد بن أبيه ، ألقى فيها خطبة رائعة[١] . وَمَنْ وفدوا على الحجاج كثيرون ، منهم جامع المحاربى وقد تسخّطه ببعض قوله[٢] ، وكان قواده لا ينون يرسلون إليه من يخبره بانتصاراتهم على نحو ما أرسل إليه المهلب كعب بن معدان الأشقرى ينبئه بقضائه على الأزارقة[٣] .

وتلقانا بجانب هذه الوفادات أخبار عن خطبهم فى المصاهرات[٤] وفى إصلاح ذات البَيْن[٥] . وهناك خطب تأخذ شكل المنافرات القديمة ، وهى تلك التى يقال إنها حدثت بين بعض بنى هاشم وعمرو بن العاص وبعض الأمويين وقد سبق أن ضعّفناها ، ورجّحنا انتحالها ، ومثلها ما يُرْوَى فى بعض كتب الأدب من خصومة أبى الأسود الدُّؤَلى وزوجه وارتفاعهما إلى زياد . وربما كان أهم خطيب اشتهر فى هذه المحافل الأحنف بن قيس ، ويحسن أن نقف عنده وقفة قصيرة .

الأحنَف[٦] بن قيس

اسمه صخر ، وقيل الضحاك ، من بنى سعد إحدى عشائر تميم لُقّب بالأحنف لحنَف[٧] كان فى رجليه جميعاً ، وكان دميم الهيئة تقتحمه العين ، ولكنه كان يجمع خصال السيادة والشرف ، من حُنْكة وحلم وحزم ومروءة وثقة بالنفس ومصارحة بالرأى مع حسن البيان وذلاقة اللسان . وقد نزل البصرة مع عشيرته لأول العهد بالفتوح مشاركاً فيها ، وأرسله بعض ولاتها فى وفد إلى عمر سنة سبع عشرة للهجرة ، وكان لا يزال فى مطالع شبابه ، ليعرضوا عليه شئون بلدتهم وما يحتاجون إليه فيها من زيادة

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٨ .

(٢) نفس المصدر ٢/١٣٥ .

(٣) الكامل للمبرد ص ٦٩٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٢٨٣ .

(٤) البيان والتبيين ١/٤٠٤ ، ٤/٧٣ وعيون الأخبار ٤/٧٢ والعقد الفريد ٤/١٤٩ .

(٥) البيان والتبيين ١/١٠٥ ، ١٧٣ ، ٢/١٣٥ .

(٦) انظر فى الأحنف طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٦٦ والاشتقاق ص ٢٤٩ والمعارف ص ٢٩ وزهر الآداب ١/٤٦ ووفيات الأعيان لابن خلكان والبيان والتبيين والطبرى (راجع فهرسهما) .

(٧) الحنف : الاعوجاج فى الرجل .

الأرزاق ومن شقٍّ بعض القنوات والأنهار، وتكلم الوفد، وهو ساكت، فطلب إليه عمر أن يتكلم، فما كاد يتمّ كلامه حتى أعجب بروعة منطقه إعجاباً شديداً، يقول الجاحظ: «نظر عمر إلى الأحنف وعنده الوفد، والأحنف ملتفٌّ في بتٍّ[1] له، فترك جميع القوم واستنطقه، فلما تبعَّق[2] منه ما تبعق، وتكلَّم بذلك الكلام البليغ المصيب وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده في علياء، ثم صار إلى أن عقد الرياسة ثابتة له (في تميم) إلى أن فارق الدنيا»[3]. ويقولون إنه استبقاه عنده حولاً كاملاً ليبالغ في تصفح حاله. وعاد إلى البصرة وأخذ يَفِدُ على عمر من حين إلى حين كما أخذ يسهم مساهمة قوية في فتوح فارس وخراسان لعهد عمر وعثمان، وأظهر براعة نادرة في قيادة الكتائب والجيوش، إذ كان النصر دائماً يرافقه.

ونراه في وقعة الجمل يقف موقف الحياد من خصومة علي والسيدة عائشة وطلحة والزبير، ومعه أربعة آلاف سيف من قومه أُغمدت استجابة لرأيه، حتى إذا انتصر عليٌّ دخل هو ومشايعوه من تميم في طاعته، وأصفاه ولاءه، حتى إذا كانت وقعة صِفِّين أبلى فيها بلاء حسناً هو وقومه. وتذكر الروايات أنه كان ممن رأوا مواصلة القتال مع أهل الشام وأنه أشار على عليٌّ أن يحكِّم شخصاً آخر غير أبي موسى الأشعري ينهض أمام خبث عمرو بن العاص ودهائه. وما زال على ولائه لعلي إلى أن لبيَّ ربه فدخل فيما دخل فيه الناس من البيعة لمعاوية. وكان معاوية وولاته وخاصة زياداً يُكبرونه إكباراً عظيماً، ونراه يُصْبح سفيراً لقومه لدى معاوية، فهو يَفِدُ عليه من حين إلى حين، ويوسع له في مجالسه، بل لقد كان يختصه بالجلوس في جواره على سريره.

وفي هذه الحقبة من حياته يصبح أكبر شخصية في البصرة، بعد ولاتها، وفي الحق أنه كان يجمع كل مزايا السؤدد من حلم وأناة وبعد نظر وعمل على مصلحة القبيلة، حتى قالوا إنه كان إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب. وبلغ من سؤدده أنه لم يكن يُداري، وأنه كان يجهر برأيه

---

(١) البت: كساء صوفي غليظ.
(٢) تبعق المطر: تفجر وانسال.
(٣) البيان والتبيين ١/٢٣٧ وانظر ١/٢٥٤.

لا يخشى لومة لائم ، حتى الخليفة مع اصطناعه له وولائه كان إذا سأله فى شىء يعرف رغبته فيه ، وهو لا يريده ، جاهره برأيه فى رفق ، ومن خير ما يمثل ذلك كلمته عقب الوفود التى استقدمها معاوية للبيعة لابنه يزيد ، فإنه حين جاء دوره فى الكلام قال[1] :

« يا أمير المؤمنين أنت أعلم بيزيد فى ليله ونهاره وسِرِّه وعلانيته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضاً ولهذه الأمة فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوِّده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » .

وكأنه لم يكن يرضى خلافة يزيد ، فدخل إلى تصوير رأيه هذا المدخل الرفيق . ويتوفَّى يزيد ، ويُضْطَرُّ عبيدالله بن زياد إلى مغادرة البصرة ويُسْلِم أمورها إلى الأزد و زعيمها مسعود ، وتثور تميم وتقتله ، وتنشب الحرب بينها وبين الأزد ، ويقع بعض الصرعى ، فيتدخل الأحنف ، ويَحْقِن الدماء بين الطرفين المتنازعين ، مؤدياً ديات القتلى من ماله . وتخضع العراق لابن الزبير ، وتدخل تميم بزعامة الأحنف فى طاعته ، ويقرِّبه مصعب ويصبح من خُلَصائه ، فيقف معه فى حرب المختار الثقفى ، ولا يمتد به أجله ، إذ يتوفى فى أواخر العقد السابع من القرن الأول مبكيًّا من قومه وعارفيه ، ويُرْوى أن فَرْغانة بنت أوس بن حَجر التميمية وقفت على قبره ، فأبَّنَتْه قائلة[2] :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمك الله أبا بحر[3] من مُجَنٍّ[4] فى جَنَن ، ومُدْرج فى كفَن ، فوالذى ابتلانا بفقدك ، وأبلغنا يوم موتك ، لقد عشتَ حميداً ، ومتَّ فقيدًا ، ولقد كنت عظيم الحلم ، فاضل السِّلم ، رفيع العماد ، وارىَ الزِّناد ، منيعَ الحريم ، سليم الأديم ، وإن كنت فى المحافل لشريفاً ، وعلى الأرامل لعطوفا ، ومن الناس لقريبا ، وفيهم لغريباً ، وإن كنت لمسوَّدا ، وإلى الخلفاء لموفَدًا ، وإن كانوا لقولك لمستمعين ، ولرأيك لمتبعين » .

ومرَّ بنا آنفاً كيف أن عمر بن الخطاب أُعْجِب ببلاغته وحسن بيانه ، ووصفه الجاحظ فقال إنه « أنْفُ مُضَر الذى تَعْطس عنه وأبْيَنُ العرب والعجم

---

(١) العقد الفريد ٤/ ٣٧٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٣٠٢ .

(٣) أبو بحر : كنية الأحنف .

(٤) أجنه : ستره . تريد أنه ستر فى الجنن أى وضع فى القبر .

قاطبة[١] » . ونحن لا نقرأ خطبه التى كان يلقيها بين أيدى الخلفاء، حتى يروعنا منطقه، لقدرته على حَوْك الكلام وتوشيته أحياناً بالسجع وأساليب التصوير . ولم يكن يُطيل فى هذه الخطب ، بل كان يعمد إلى الإيجاز والكلم القصار ، فيبلغ بها كل ما يريد من حاجته وحاجة قومه ، ونسوق له كلمتين تصوران منطقه ، فقد وفد على معاوية مرة ، فقال يصف أهل البصرة وما يؤملونه فى الخليفة من مَدّ يد العون والمساعدة[٢] :

يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يَسير وعظم كَسير ، مع تتابع من المُحول واتصال من الذُّحول[٣] ، فالمكْثِر فيها قد أطْرَق[٤] ، والمقِلّ قد أملق ، وبلغ منه المخْنَق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعش الفقير ، ويَجْبُرَ الكسير ، ويسهل العسير ، ويصفح عن الذّحول ويداوى المحول ، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ، ويزيل اللَّأواء[٥] . وإن السيد من يعمّ ولا يخصّ ومن يدعو الجَفَلَى[٦] ، ولا يدعو النَّقَرَى[٧] ، إن أُحسن إليه شكر وإن أُسىء إليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً يدفع عنها الملمات ، ويكشف عنها المعضلات » .

وبمثل هذا اللحن من القول كان يقدّمه الخلفاء لبلاغته وحسن تأتّيه فى تصوير ما جاء من أجله ، إذ كان يسلك إليه المداخل الدقيقة ، فيُمْضونه فى التوّ والساعة . ويظهر أنه قال هذه الكلمة عقب حروب على ومعاوية ولذلك مضى يطلب إليه الصفح الجميل ، مستعطفاً ، ولكنه الاستعطاف الذى يُبْقِى فيه الرجل الكريم على مروءته . ودائماً كلما قرأناه أحسسنا عنده رجاحة العقل وأنه لا يرسل كلامه إرسالا ، بل ما يزال يتمهل فيه ، سواء عمد إلى السجع أو لم يعمد ، مورداً من اللفظ ما يحيط بالمعانى التى يعبّر عنها إحاطة تامة ، وتصور ذلك كلمته الثانية التى أشرنا إليها كما صورته كلمته الآنفة ، وقد ألقى بها حين ادلهمّ الأمر بعد وفاة يزيد بن معاوية واصطدام الأزد بقبيلة تميم ، فقد توجه إلى الأولين يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيه[٨] :

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٦٠ .
(٢) زهر الآداب ١/ ٤٦
(٣) الذحول : الثارات .
(٤) أطرق : هزل وضعف .
(٥) اللأواء : الشدة .
(٦) الدعوة الجفلى : الدعوة العامة .
(٧) الدعوة النقرى : الدعوة الخاصة .
(٨) البيان والتبيين ٢/ ١٣٥ .

« يا معشر الأزد وربيعة أنتم إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الصِّهْر وأشقاؤنا فى النسب وجيراننا فى الدار، ويَدُنا على العدو. والله لأزْدُ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام، فإن استَشْرى[1] شنآنكم، وأبى حَسَكُ[2] صدوركم ففى أموالنا وأحلامنا سَعة لنا ولكم » .

ونزلت الكلمة على الأزد برداً وسلاماً، فأغْمدت الأسنة وحُقنت الدماء. وعلى هذا النحو تُثْبت خطب الأحنف وسيرته صدق فراسة ابن الخطاب فيه، إذ اعتبره سيدَ قومه وخطيبَ مِصْره .

٤

خطباء الوعظ والقَصص

نشط الوعظ والقَصَصُ الدينى فى هذا العصر نشاطاً عظيما، فقد كان الوعَّاظ والقُصَّاص فى كل بلدة إسلامية لا ينون عن وعظ المسلمين، وقد أفرد لهم الجاحظ فى بيانه صحفاً كثيرة، أورد فيها أسماء طائفة من مبرّزيهم وكثيراً مما كانوا يعظون به الناس. ومن أشهر من وقف عندهم هو وغيره من أصحاب كتب الأدب والتاريخ الأسودُ بن سريع وهو أول من قَصّ بالبصرة[3]، وكان يقابله فى الكوفة زيد[4] بن صُوحان وفى المدينة عُبَيْد بن عُمَيْر[5] وكان عبدالله بن عمر يتأثر بقصصه ووعظه حتى ليبكى من شدة تأثره. ومن القُصَّاص أيضاً إبراهيم[6] التَّيمى الكوفى وسعيد بن جُبير، وكان يقص بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر[7]، ومسلم[8] بن جندب قاصّ مسجد المدينة، وذَرّ[9] بن عبد الله، وكان بليغاً، وهو الذى كان يقصّ فى جند ابن الأشعث حاثًّا الناس على حرب الحجاج. ومطرِّف

(١) استشرى : تفاقم . الشنآن : العداوة .
(٢) حسك الصدور : الحقد .
(٣) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٨ .
(٤) ابن سعد ج ٦ ص ٨٤ .
(٥) ابن سعد ج ٥ ص ٣٤١ والبيان والتبيين ٣٦٧/١ .
(٦) ابن سعد ج ٦ ص ١٩٩ .
(٧) ابن سعد ج ٦ ص ١٧٨ .
(٨) البيان والتبيين ٣٦٧/١ .
(٩) انظر فى مواعظه عيون الأخبار ٢٩٨/٢ والعقد ١٩٨/٣ .

ابن عبدالله الشِّخِّير وكان يقصُّ في مكان أبيه بمسجد البصرة[١]، ومنهم وهب[٢] بن منبِّه ويزيد بن أبان الرَّقاشي، ويذكر الجاحظ من وعظه[٣]. « ليتنا لم نُخْلَق، وليتنا إذ خُلقنا لم نَعْصِ، وليتنا إذ عَصينا لم نمت، وليتنا إذ متنا لم نُبْعَثْ، وليتنا إذ بُعثنا لم نحاسَبْ، وليتنا إذ حوسبنا لم نعذَّب، وليتنا إذ عُذبنا لم نخلَّد ».

فالقُصَّاص كانوا وعَّاظاً في الوقت نفسه، بل هم لا يقصُّون إلا من أجل الوعظ، وممن اشتهروا بوعظهم عبد[٤] الله بن عمرو بن العاص في مصر ورجاء[٥] ابن حَيْوة والأوزاعي[٦] في الشام وسعيد[٧] بن المسيِّب وأبي حازم الأعرج في المدينة، ولثانيهما مواعظ كثيرة كان يعظ بها سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، ومن قوله في بعض هذه المقامات وقد سُئل ما مالك؟ قال: مالان: الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس[٨]. ومن وعاظ المدينة أيضاً محمد[٩] بن كعب القُرَظي واعظ عمر بن عبد العزيز. وكان العراق يموج بالوعاظ موجاً، من مثل ابن[١٠] شُبْرُمة ومورِّق[١١] العِجْلي وبكر[١٢] بن عبد الله المُزَنيّ والشَّعبي[١٣] وأيوب[١٤] السَّخْتياني ومحمد بن واسع الأزدي البصري، وقد تولى الوعظ في جيش قتيبة بن مسلم بخراسان وفيه يقول إنه أحب إليّ من مائة ألف سيف شهير وسنان طَرير[١٥]. ومن كبار الوعاظ والقصاص مالك[١٦] بن دينار، وكان يقول في قصصه: ما أشد فِطام الكبير، وينشد:

وتروض عِرْسك بعد ما هرمتْ ... ومن العناء رياضةُ الهَرِمِ

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٧ وعيون الأخبار ٢/٢٨٩.

(٢) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٧٢ وما بعدها، ٢/٢٨١، ٣٢٨.

(٣) البيان والتبيين ١/٢٦٢.

(٤) عيون الأخبار ٢/٢٩٤.

(٥) انظر طرفاً من مواعظه في صفة الصفوة ٤/١٨٦.

(٦) انظره في صفة الصفوة ٤/٢٢٨.

(٧) راجع صفة الصفوة ٢/٤٤.

(٨) البيان والتبيين ٣/١٣٩.

(٩) انظر البيان والتبيين ٢/٣٤، ٣/١٤٣، ١٧٠.

(١٠) البيان والتبيين ١/٣٣٦ والعقد ٣/١٥٠، ١٨٣.

(١١) البيان والتبيين ١/٣٥٣ وانظر ٢/١٩٨.

(١٢) نفس المصدر ١/٣٥٣ وانظر ٣/١٤١.

(١٣) البيان والتبين ٢/٣٢٢ وصفة الصفوة ٣/٤٠.

(١٤) راجع صفة الصفوة ٣/٢١٢.

(١٥) البيان والتبيين ٣/٢٧٣ والعقد الفريد ٣/١٧٠ وطرير: محدد.

(١٦) البيان والتبيين ٢/٧٩ وصفة الصفوة ٣/١٩٧.

ومنهم إياس بن معاوية قاضي البصرة، وكان يُضْرَبُ به المثل فى الذكاء وصدق الفراسة[١]، ومنهم خالد بن صفوان وشَبيب بن شيبة الأهتميان التميميان، وفيهما يقول الجاحظ: «ما علمت أنه كان فى الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة للذى يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلاهما[٢]» ويقول فى خالد: «ومن الخطباء المشهورين فى العوام والمقدَّمين فى الخواص خالد بن صفوان.. ولكلامه كتابٌ يدور فى أيدى الورَّاقين[٣]» وقد لحق خالد عصر أبي العباس السفاح، وكان من سُمَّاره، ويُؤْثَرُ عنه أنه كان يقول: «احذروا مجانيق الضعفاء يعنى الدعاء[٤]» ومن قوله: «بِتُّ ليلتى كلها أتمنى فملأت البحر الأخضر بالذهب الأحمر فإذا الذى يكفينى من ذلك رغيفان وكوزان وطِمْران[٥]» وروَى له ابن قتيبة موعظة طويلة وعظ بها سليمان ابن عبد الملك وأبكاه[٦].

ومن كبار وعَّاظ العصر وقُصَّاصه الحسن البصرى، وفيه يقول الجاحظ: «أما الخطب (الدينية) فإنا لا نعرف أحداً يتقدم الحسن البصرىّ فيها[٧]» وممن يأتى بعده فى الوعظ عبد الله بن شداد، وهو القائل: «أرى داعىَ الموت لا يُقلع وأرى من مضى لا يرجع[٨]». ومن كبار القُصَّاص والوعَّاظ الفضل بن عيسى الرقاشى، وكان يسجع فى وعظه[٩]، ويقول الجاحظ إنه «كان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصًّا مجيداً[١٠]» وهو الذى يقول فى قصصه: «سَلِ الأرض فقُل من شقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً[١١]». ومن أشهر الوعاظ وأنبههم واصل[١٢] بن عطاء رأس المعتزلة، وكان أغزر خطباء عصره

---

(١) البيان والتبيين ١/٩٨ وما بعدها.
(٢) البيان والتبيين ١/٣١٧.
(٣) نفس المصدر ١/٣٣٩ — ٣٤٠.
(٤) البيان والتبيين ٣/٢٧٤.
(٥) نفس المصدر ٣/١٦٤ والطمر: الثوب البالى.
(٦) عيون الأخبار ٢/٣٤١.
(٧) البيان والتبيين ١/٣٥٤.
(٨) نفس المصدر ٢/١١٣.
(٩) البيان والتبيين ١/٢٩٠.
(١٠) البيان والتبيين ١/٣٠٦.
(١١) نفس المصدر ١/٣٠٨.
(١٢) انظر فى ترجمة واصل الملل والنحل للشهرستانى ص ٣١ وما بعدها وأنساب السمعانى وابن خلكان ولسان الميزان ٦/٢١٤.

وأبلغهم وأعجبهم وأبينهم ، ويُرْوَى أنه حضر يوماً مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فى إمارته على العراق (١٢٦ ــ ١٢٩ هـ) وحضره معه خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى الرقاشى ، وتبارى الأربعة بين يديه فى الخطابة ، ففضلهم بخطبته المشهورة التى جانب فيها الراء ، إذ كان يلثغ فيها لَثَغاً فاحشاً ، ونوّه بذلك بشار بن بُرْد طويلا ، قبل أن يفسد رأى واصل فيه ، على شاكلة قوله[1] :

أبا حُذَيْفَةَ قد أوتيتَ مُعْجِبةً ... فى خطبةٍ بدَهتْ من غير تقدير

وقوله :

تكلفوا القولَ والأقوامُ قد حَفَلُوا ... وحبَّروا خُطَباً ناهيكَ من خُطَب

فقام مُرْتجلا تَغْلى بَداهتُـه ... كمِرْجَلِ القَيْن لما حُفَّ باللَّهبِ[2]

وجانبَ الراءَ لم يَشْعر بها أحـدٌ ... قبل التَّصفّح والإغراقِ فى الطلبِ

ولا نستطيع أن نزعم كما زعم بشار أن واصلا ألقى هذه الخطبة على البديهة فإن من يرجع إليها يحس أثر التروية والتحضير وأنه تأنّى لها فى أناة حتى اتسقت فى نسقها البديع ، وهى من خير مواعظ العصر وأجملها وأبرعها ، وقد استهلّها بتحميد وتمجيد أطنب فيهما إطناباً لا نعرفه لأحد من رُصَفائه ، على هذا النمط[3] :

« الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقى بلا نهاية ، الذى علا فى دنوّه ، ودنا فى علوّه ، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ، ولا يئُوده[4] حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق ، بل أنشأه ابتداعاً ، وعدّله اصطناعاً ، فأحسن كلّ شىء خلقه ، وتمّم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدلّ على ألوهيته ، فسبحانه لا معقّب[5] لحكمه ولا دافع لقضائه ، تواضعَ كل شىء لعظمته ، وذلّ كل شىء لسلطانه ، ووسع كلّ شىء فضلُه ، لا يَعْزُبُ عنه مثقال حبّة وهو السميع العليم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهاً تقدّستْ أسماؤه ، وعظُمت آلاؤه ، وعلا عن صفات

---

(١) انظر فى هذا البيت وما يليه البيان والتبيين ٢٤/١ .

(٢) القين : الحداد .

(٣) انظر فى هذه الخطبة الحلقة الثانية من الرسائل النادرة لعبد السلام هرون و جمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت ٤٨٢/٢ .

(٤) يئوده : يثقله .

(٥) لا معقب : لا راد .

كل مخلوق ، وتنزَّه عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تُحيط به العقول والأفهام، يُعْصَى فيَحْلُم ، ويُدْعى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » .

وواضح أن واصلا يستظهر فى هذا التحميد والتمجيد آى القرآن الكريم فى وصف عظمة الله وجلاله ، حتى ليستعين بلفظها . وأيضاً فإنه يستظهر ما كان يقرِّره من نفى التجسيم عن الله ، وأنه ليس كمثله شىء من مخلوقاته . وقد مضى يصلى على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مطيلا فى صلاته كما أطال فى حمده . وبِقَبَسٍ من صنيعه أخذ الكُتّاب من أمثال عبد الحميد يطيلون فى تحميداتهم وصلاتهم على الرسول . ويأخذ بعد ذلك فى الحث على التقوى والعمل الصالح والتنفير من الدنيا ومتاعها الزائل ، يقول :

« أوصيكم عبادَ الله مع نفسى بتقوى الله والعمل بطاعته والمجانبة لمعصيته ، وأحضُّكم على ما يُدْنيكم منه ويُزْلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضلُ زادٍ وأحسن عاقبة فى معاد ، ولا تُلهينَّكم الحياة الدنيا بزينتها وخُدَعها وفواتن لذاتها وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ومدة إلى حين ، وكل شىء فيها يزول . فكم عاينتم من أعاجيبها وكم نَصبتْ لكم من حبائلها ، وأهلكتْ من جنَح إليها واعتمد عليها ، أذاقتهم حلواً ، ومزجت لهم سمًّا » .

وواصل فى هذه الفقرة يردِّد ما كان يَجْرى على لسان الوعاظ من الدعوة إلى تقوى الله حق تقواه ، ويحذر من الدنيا وبَرْقها الُخلَّب وما يُطْوَى فيها من نعيم لا يلبث أن يزول ، وإنها لتحت أعينهم تمدُّ لهم فى غوايات الشهوات ، والعاقل من ازورَّ عنها وكبح جماح نفسه وردَّها عن أهوائها ، فالموت بالمرصاد وعمًّا قليل لا يكون للمرء سوى ما قدَّم من عمل صالح ، فليتزودْ كلٌّ لمعاده قبل فوات الفرصة وحلول الأجل . ويسترسل على هدى القرآن الكريم يتحدث عن الدول والأمم الغابرة ، متخذاً من ذلك العبرة يقول :

« أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيَّدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الُحجَّاب ، وأعدُّوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التِّلاد ، قبضتهم بمَحْمِلها [1]

---

(١) المحمل : الشقان على البعير يحمل فيهما شخصان . والمعنى احتوت عليهم .

وطحنتهم بكَلْكَلها[1] ، وعضّتهم بأنيابها ، وعاضَتْهم من السَّعة ضيقاً ، ومن العزة ذُلا ، ومن الحياة فناء ، فسكنوا اللّحود ، وأكلهم الدود ، وأصبحوا لا تُرَى إلا مساكنهم ، ولا تجد إلا معالمهم ، ولا تُحِس منهم من أحد ، ولا تسمع لهم نَبْسًا » .

وهذا الشطر من موعظة واصل يصور لنا كيف كان القصاص يتحدثون طويلاً عن الأمم الداثرة والدول الزائلة حديثاً أطالوا فيه مستوعبين لقَصص الرسل وشعوبهم وخاصة تلك التى عصتهم ، وما صبّ الله عليها من عذابه مما دفعهم دفعاً إلى جَلْب ما ورثه أهل الديانات السماوية من أخبار عن الأنبياء ، يقصدون بذلك إلى الموعظة الحسنة . ويعود واصل إلى الوصية بالتقوى والانتفاع بالقرآن وما به من أحسن القصص وأبلغ المواعظ ، وكفى به واعظاً هادياً .

ويُشيد الجاحظ ببلاغة واصل وأنه كان أحد الأعاجيب فى بلاغته ، إذ كان فاحش اللُّثْغة فى الراء ، فخلّص كلامه منها تخليصاً ، بحيث لم يكن أحد يفطن لذلك لبيانه الرائع ، يقول : إنه كان داعية ورئيس نحلة . وعرف أن مخرج لثغته شنيع وأنه يقارع أرباب النحل وزعماء الملل وأن لابد له من حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة ، ومن أجل الحاجة إلى ذلك « رام إسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأتّى لستره والراحة من هُجْنته حتى انتظم له ماحاول واتّسق له ما أمّل . ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلا ولطرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له . ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلّدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت محاجّة الخصوم ومناقلة[2] الأكْفاء ومفاوضة الإخوان .. وذكر ذلك أبو الطُّروق الضّبى فقال

عليمٌ بإبدال الحروف وقامعٌ ... لكل خطيبٍ يغلب الحقَّ باطلُه[3] »

ولا شك فى أن عدول واصل عن الكلمات ذوات الراء فى جميع محاوراته آية بينة على تمام آلته فى البلاغة وإحكام صنعته . وكان رأساً فى الوعظ والاعتزال

---

(١) الكلكل : الصدر .
(٢) مناقلة : مدافعة .
(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤ وما بعدها .

معاً ، وخرَّج كثيرين على مذهبه ، طافوا البلاد يعظون الناس ويدعون إلى مقالته ، وكان من أهم ما يدعو إليه حرية الإرادة ، وأن الفاسق فى منزلة بين منزلَتى المؤمن والكافر . والطريف أننا نجد صفوان الأنصارى يصف أتباعه فيقول[١] :

له خلفَ شَعْبِ الصِّين فى كل ثُغْرةٍ ... إلى سوسها الأَقصى وخلف البرابرِ[٢]

رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عزيمَهُمْ ... تهكُّمُ جبَّارٍ ولا كيدُ ماكرِ

وأَوتادُ أَرضِ الله فى كل بلدةٍ ... وموضعُ فُتْياها وعلم التشاجرِ[٣]

وما كان سحبانٌ يشقُّ غبارَهُم ... ولا الشُّدْقُ من حَيَّىْ هلالِ بن عامرِ[٤]

وهو لا ينوِّه بوعظهم فحسب ، بل ينوه أيضاً بقدرتهم على الجدل والإقناع وتقرير الأدلة فى عقول الناس . ويمضى فيصور براعة واصل فى هذا العلم الجديد ، علم التشاجر ، وكيف كان يقتدر على إيراد الحجج ودفع الشُّبَه عند خصومه من أرباب الملل والنحل ، مستطرداً من ذلك إلى وصف تقواه وتقوى أتباعه ، يقول :

تلقَّب بِالغَزَّال واحدُ عصره ... فَمَن لليتامى والقَبيل المُكاثرِ[٥]

ومَنْ لحَرُورِىٍّ وآخرَ رافضٍ ... وآخرَ مُرْجِىٍّ وآخر جائرِ[٦]

وأمرٍ بمعروفٍ وإنكار منكَرٍ ... وتحصين دين الله من كل كافرِ

يُصيبون فَصْلَ القول فى كل موطنٍ ... كما طبَّقَتْ فى العظم مُدْيَةُ جازرِ

وسيماهُمُ معروفةٌ فى وجوههم ... وفى المشى حُجَّاجاً وفوق الأَباعرِ

وفى ركعةٍ تأْتى على الليل كلِّهِ ... وظاهِرِ قولٍ فى مثالِ الضمائرِ

(١) البيان والتبيين ١/٢٥ .

(٢) السوس الأقصى : كورة بالمغرب كانت حاضرتها طنجة .

(٣) علم التشاجر : يريد به علم الجدال فى العقيدة أو علم الكلام .

(٤) الشدق : البلغاء .

(٥) خير الأقوال فى تلقيب واصل بالغزال أنه كان يجلس فى سوق الغزالين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن . انظر المبرد ص ٥٤٦ .

(٦) الحرورية : الخوارج

ويهمنا ما وقف عنده صفوان والجاحظ بعده من محاجَّة واصل لخصومه من أرباب الملل: من الحَرُورِيَّة ورافضة الشيعة والمرجئة، فقد انبثقت من الوعظ شعبة من الجدل فى العقيدة، هيأت لظهور علم التشاجر كما يقول صفوان أو علم الكلام كما اصطلح المتأخرون ، فظهر القدرية بزعامة الحسن البصرى ، وظهر المرجئة بزعامة غيلان الدمشقى وغيره من دعاة هذا المذهب فى العراق وخراسان . وفى كل مكان نسمع عن مجادلات أصحاب هذه الفرق بعضهم مع بعض ، ومع الخوارج والشيعة وبعض خلفاء بنى أمية[1] . واحتدمت هذه المجادلات احتداماً شديداً، وقد احتفظت الكتب ببقايا منها تدل دلالة بينة على أنها شحذت العقول كما شحذت الألسنة ، ومن خير ما يصورها محاورة واصل بن عطاء مع عمرو ابن عبيد بمجلس الحسن البصرى فى مرتكب الكبيرة، وكان الحسن يراه مؤمناً فاسقا ، ويراه الخوارج كافراً، وتراه المرجئة مؤمناً غير فاسق ولا كافر، لأنهم كما قدمنا كانوا يَفْصلون الإيمان عن العمل . ورأى واصل أن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسطى بين منزلَتى المؤمن والكافر ، فهو ليس مؤمناً ولا كافراً . وكان عمرو بن عُبَيْد من تلاميذ الحسن البصرى، فجمع بينه وبين واصل ليناظره فى رأيه . ويقص علينا المرتضى هذه المناظرة[2] ، ويقدم لها بأن واصلا أقبل ومعه جماعة من أصحابه إلى حلقة الحسن وفيها عمرو بن عُبَيد، فحاوره فى رأيه ، وردّ عليه واصل ردًّا مفحماً مستخدماً بعض آى الذكر الحكيم، شافعاً ذلك بقياس منطقى دقيق . واقتنع عمرو فترك مقالة الحسن إلى مقالة واصل ، وأصبح بعد ذلك من رءوس المعتزلة .

والحق أن واصل بن عطاء يُعَدّ رمزاً لكل ما أصاب عقل الوعَّاظ وأصحاب المقالات فى هذا العصر من دقة لا فى مناظراته ومحاوراته فحسب ، بل أيضاً فى آرائه ، فإن فكرة المنزلة بين المنزلتين التى وضع فيها مرتكبى الكبائر فكرة لا يُؤْتاها إلا من استبصر المعانى وعرف حدودها ومقاديرها ومداخلها ولطائفها ، وكان واصل يجمع إلى ذلك قدرة واسعة فى الجدل والظفر بخصومه ، وهو ظفر

---

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » (طبع دار المعارف) ص ٧٩ .

(٢) أمالى المرتضى ١/١٦٥ .

لا يأتى عفواً، وإنما يأتى من تصفُّح الأدلة ومعرفة صحيحها من سقيمها وجيدها من زائفها .

فإذا قلنا إن الخطابة العربية تطورت تطوراً واسعاًبتأثير عقول هؤلاء المتكلمين لم نكن مغالين ، إذ دُعمت فيها الأدلة ودقَّت المعانى ، واستتمت شعباً كثيرة من خفياتها ودفائنها . وليس هذا فحسب ، فإن هؤلاء الوعاظ المتكلمين وازنوا بين خطابتهم والجماهير التى كانت تستمع إليهم ، وكانت أخلاطاً من خاصة وعامة ومن عرب وموال ، ومن ثَمَّ فتحوا الأبواب واسعة للأسلوب المولَّد الجديد ، وهو أسلوب لا يرتفع عن الموالى وفئات العامة بما قد يكون فيه من لفظ غريب ، ولا يهبط عن العرب وفئات الخاصة بما فيه من لفظ مبتذل ، أسلوب وسط ، عماده الفصاحة والوضوح .

ولم يكونوا يخطبون غالباً وقوفاً شأن خطباء السياسة والمحافل ، إنما كانوا يخطبون جلوساً ، ومن حولهم تلاميذهم ومستمعوهم فى حلقات ، وهم من هذه الناحية يُعَدّون محاضرين أكثر منهم خطباء بالمعنى الدقيق، وهيأ لهم ذلك شيئاً من التروِّى والتمهل كان له أثره فى روعة الأداء ، حتى لنرى فريقاً منهم يعمد إلى السجع فى وعظه مثل أسرة الرقاشيين[١] ، وكان بينها غير متكلم مثل الفضل ابن عيسى الرقاشى . ولكن هذا ليس الأسلوب الذى شاع فى تلك البيئة ، إنما شاع أسلوب آخر كان يقوم على الازدواج والترادف ، وهو واضح فى خطبة واصل التى مرَّت بنا، وفى خطابة الحسن البصرى وغَيْلان[٢] الدمشقى، وإنما ألجأهم إليه ضيق معانى الوعظ ، فاضطروا إلى الترادف وترداد الكلام . ومن غير شك هم الذين أعدُّوا لهذا الأسلوب الذى نراه ينتقل منهم إلى عبد الحميد ومَنْ تلاه من كتاب العصر العباسى أمثال الجاحظ . ولا أغلو إذا قلت إنهم أعدوا لشيوع لون الطباق فى كتابات العباسيين ، فقد جعلهم حديثهم عن الطاعة والعصيان والحياة والموت والجنة والنار يصوغون خطابتهم على المطابقة والمقابلة بين المعانى .

---

(١) انظر فى هذه الأسرة البيان والتبيين ٣٠٦/١ وما بعدها .

(٢) انظر فى مواعظه عيون الأخبار ٢٤٥/٢.

وليس هذا كل ما أهدوه إلى النثر العربى ، فإنهم أهدَوْا إليه أيضاً كثيراً من الوصايا البلاغية التى يموج بها كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، إذ تحولوا يعلِّمون شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون خطابتهم سواء من حيث إشاراتهم أم من حيث منطقهم أم من حيث تنقيح معانيهم أم مِن حيث تصفية ألفاظهم ، وكيف يلائمون بين اللفظ والمعنى وبين كلامهم ومستمعيهم وطبقاتهم ، ومتى يُسْتَحَبُّ الإيجاز ومتى يستحب الإطناب ، وكيف أن المعوّل دائماً على وضوح الدلالة حتى يَصْنع الكلام فى القلوب صنيعَ الغيث فى التربة الكريمة . وبذلك هيأوا لظهور قواعد البلاغة العربية ، ولعل من الطريف أن أقدم النصوص المتصلة بماهيتها تضاف إلى أحد متكلميهم ووعّاظهم ، فقد روى الجاحظ أن سائلاً سأل عمرو بن عُبَيْد ما البلاغة ؟ فأجاب[1] :

« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصَّرك مواقعَ رشدك وعواقب غيِّك ، قال السائل : ليس هذا أريد ، قال عمرو : فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ فى حسن إفهام ؟ قال : نعم ، قال : إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المكلَّفين وتخفيف المئونة على المستمعين وتزيينَ تلك المعانى فى قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة فى سرعة استجابتهم ونَفْى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فَصْلَ الخطاب ، واستحققت على الله جزيل الثواب » .

وعلى هذا النحو كان تلاميذهم لا يزالون يدفعونهم إلى الحديث عن آلات البلاغة ، وكيف يحرزون لأنفسهم التفوق فى الخطابة وفى المحاورة والمناظرة ، ويُؤْثَرُ عن خالد بن صفوان أنه كان يقول : « اعلم — رحمك الله — أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان ، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجة »[2] وكان شَبيب بن شَيبة يقول : « الناس موكَّلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه ، وأنا موكَّل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه ، وحظُّ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت[3] » . ولم يكونوا يتفقدون

---

(١) البيان والتبيين ١ / ١١٤ وانظر العقد الفريد ٢ / ٢٦٠ وزهر الآداب ١ / ٩٣ .

(٢) العقد الفريد ٢ / ٢٦١ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ١١٢ .

مطالع كلامهم وخواتمه فحسب ، بل كانوا يتفقدون أيضاً ثناياه ومقاطعه . ونحن نتوقف قليلا عند الحسن البصرى وخطابته ، إذ يُعَدُّ أخطبَ خطبائهم وأبلغ بلغائهم .

الحسن [1] البَصْرى

وُلد بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة لأب أعجمى يسمى يساراً من سَبْىْ ميسان بجوار البصرة استرقه رجل من الأنصار ، ثم أعتقه ، فكان ولاؤه فيهم ، وكانت أمه خيْرة مولاة لأم سلمة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأُعتقت هي الأخرى . وكان له أخ يسمى سعيداً . وقد عاشت هذه الأسرة فى وادى القُرَى ، وترددت على المدينة . ولم تتصل أمه بأم سلمة وحدها من أزواج الرسول ، فقد كانت تختلف إليهن جميعاً ، ويختلف معها الحسن ، فاقتبسا معاً من نورهن ونور الرسالة النبوية ، وأعان أمه على هذا الاقتباس أنها استطاعت أن تحسن العربية ، فكانت ترْوى أحاديث عن أم سلمة وتدمجها بوعظ كثير ، مما كان له أثره العميق فى نفس ابنيها الحسن وسعيد . وأخذ الحسن منذ صباه يختلف إلى المسجد الجامع ، وفى أثناء ذلك حفظ القرآن وتعلم الكتابة ، وأخذ ينهل مما فى المدينة من فيض الرسالة .

ولا نتقدم إلى خلافة علىّ حتى نجد أسرته تنزح إلى وطنه ، فينزل البصرة ، ونرى الحسن يجنح عن المشاركة فى الأحداث القائمة ،وهو مذهب اتبعه طول حياته أن لا يشارك فى الأحداث والفتن ، وكأنما وهب نفسه للدين بمعناه الدقيق ، فهو يعيش لمدارسة القرآن الكريم ورواية الحديث محاولا الوقوف على جوانب التشريع الإسلامى . ونراه يخرج بعد اجتماع الأمة على معاوية مع الجيوش الغازية فى الشرق ، ويعمل كاتباً لبعض الولاة فى خراسان ، ويظل هناك نحو عشر

---

(١) انظر فى ترجمة الحسن طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١١٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان والمعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥ وتهذيب التهذيب والملل والنحل ص ٣٢ وأمالى المرتضى ١٥٢/١ والكامل للمبرد والبيان والتبيين والعقد الفريد وعيون الأخبار انظر (فهارس تلك الكتب) والحسن البصرى لابن الجوزى والحسن البصرى لإحسان عباس (طبع دار الفكر العربى) .

سنوات يعود بعدها إلى البصرة ويظل بها حتى وفاته سنة ١١٠ للهجرة ويخلص للدرس الديني ، ولا يترك نبعاً من ينابيعه دون أن يرتشفه ارتشافاً ، وسرعان ما يصبح واعظاً كبيراً ويقبل عليه شباب البصرة إقبالا منقطع النظير . ولا نصل إلى عصر الحجاج حتى يصبح أكبر واعظ فى مصره إذ كان لا يجارَى فى بلاغته وبيانه .

ويُكْبِره عصره كما تكبره العصور التالية لزهده الذى لم يكن يتعمّل فيه ولا يتكلف ، زهد بناه على آداب الإسلام ، إذ استقاه من مناهله الحقيقية فى المدينة دار النبوة ، ومن ثَمّ أخذت الفرق الدينية تتنازعه ، حتى تسوّغ آراءها فى عقول الناس ، فكل فرقة تَنْسب إليه من عقائدها ما يجعله ينتظم بين رُوّادها الأولين ، فالجَبْرية يقولون إنه كان ينفى حرية الإرادة ويذهب إلى أن كل شىء بقضاء من الله ، ويقول القَدرية إنه من القائلين بحرية الإرادة وأن الإنسان حر مختار فى أفعاله ، ويجعله الصوفية إمامهم .

ونستطيع أن نستخلص من النصوص المتضاربة أنه كان قَدَريّاً ، إذ كان يقول مَنْ زعم أن المعاصى من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه ، ولو كان من الجبرية ما نوّه به الجاحظ المعتزلى هذا التنويه العريض الذى نلقاه دائماً كلما ذكره فى صفحات كتابه البيان والتبيين . ويزعم صاحب « المنية والأمل » أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه فى القدر ، فكتب إليه رسالة ضمّنها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله[1] ، وتلتقى بهذه الرسالة فى نفس المعنى رسالة يقال إنه أرسل بها إلى عبد الملك[2] .

والذى لا شك فيه أن الحسن كان أحد أئمة الزهاد فى عصره وأنه كان يدعو إلى الزهد فى الحياة الدنيا دعوة واسعة ، ولكنه لم يكن متصوفاً ، فالتصوف شىء والزهد شىء آخر ، حقّاً كل متصوف زاهد ، ولكن ليس كل زاهد متصوفاً ، ومعروف أن التصوف إنما نشأ بعد عصره . وقد صوّر إحسان عباس شخصيته الزاهدة تصويراً دقيقاً مبيناً كيف صرف نفسه عن متع الحياة وكيف تعمقته تجربة الزهد وكيف مضى يدعو إليه فى مواعظه دعوة لا تفتر . وكانت

---

(١) المنية والأمل لابن المرتضى (طبع حيدر آباد) ص ١٢ .

(٢) انظر مصورة هذه الرسالة فى دار الكتب المصرية برقم ٢٢١٥ أدب .

خلافة عمر بن عبد العزيز الزاهد له عيداً ، فوفد عليه واعظاً وراسله ، وقَبِلَ أن يتولى القضاء إلى فترة فى عهده . وكان بارع الفصاحة ، حتى ليصفه بعض من سمعه من الأعراب بأنه« عربى محكَّك[١] » ويُؤْثَرُ عن الحجاج أنه كان يقول : « أخطبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخْصاص[٢] البصرة إذا شاء خطب وإذا شاء سكت[٣] » وهو إنما يَعْنيه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج[٤] ». وكان يجمع إلى فصاحته حساًّ لغوياًّ دقيقاً ، ومما يصور ذلك ما يُرْوَى عن رجل من بنى مجاشع قال : « جاء الحسن فى دم كان فينا فخطب ، فأجابه رجل بأن قال : قد تركت ذلك لله ولوجوهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا ، بل قُلْ : لله ثم لوجوهكم ، وآجرك الله[٥] » .

وتموج بعظاته كتب البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد كما تموج بها ترجمته فى الكتب المختلفة وكتب المتصوفة مثل اللمع للسراج وحلية الأولياء لأبى نعيم ، وقد نوّه به الغزالى فى الإحياء مراراً . وهو فى مواعظه يستمد من القرآن الكريم وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الورعين ، وخاصة عمر بن الخطاب ، فإنه يروى عنه كثيراً من أقواله وعظاته[٦] .

وهو فى وعظه ينفِّر دائماً من الدنيا ومتاعها الزائل ، مذكّراً باليوم الآخر وما ينتظر العصاة فيه من العقاب الزاجر حاثًّا على التقوى والعمل الصالح والتأسى بالرسول وصحابته الذين رفضوا الدنيا وطلبوا الآخرة ، فكانوا كالكَرْمة التى حسن ورقها وطاب ثمرها . ومن مواعظه التى رواها له الجاحظ قوله[٧] :

« يا بنَ آدم بِعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم به . الثَّواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمةَ بعد أمتكم ولا نبيَّ بعد نبيكم ولا كتابَ بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناسَ

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٥ .

(٢) الخص : البيت من قصب ، وكان فى البصرة طائفة من هذه البيوت كان يسكن فيها الحسن زهداً وورعاً .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٩٨ ، ٢/٢٨٦ .

(٤) نفس المصدر ١/١٦٣ .

(٥) نفس المصدر ١/٢٦١ .

(٦) البيان والتبيين ٣/١٣٧ وما بعدها .

(٧) نفس المصدر ٣/١٣٢ وانظر عيون الأخبار ٢/٣٤٤ .

والساعةُ تسوقكم ، وإنما يُنْتَظَرُ بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً [١] لم يضع لَبِنَةً على لبنة ولا قصبة على قصبة . . (لقد كان لكم فى رسول الله أسْوَةٌ حسنة) . يا ابن آدمَ طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قَبْرك ، واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك مذ سقطتَ من بطن أمك ، فرحم الله رجلا نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبرَ . . يابن آدم اذكرْ قوله : (وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حَسِيباً) عدَلَ ، والله ، عليك مَنْ جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذَرُوا كدَرها ، دعوا ما يَريبكم إلى ما لا يريبكم . لقد صحبت أقواماً [٢] ما كانت صحبتهم إلا قُرَّة العين وجِلاء الصدر ، ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفقَ من أن تُرَدَّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذَّبوا عليها ، وكانوا فيما أحلَّ الله لهم من الدنيا أزهدَ منكم فيما حرَّم عليكم منها . . لو تكاشفتم ما تدافنتم [٣] ، تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوينا . أعِدُّوا الجواب فإنكم مسئولون . . يابن آدم ليس الإيمان بالتحلِّى ولا بالتمنى ، ولكنه ما وَقَر فى القلوب وصدَّقته الأعمال » .

وواضح كيف كان يمزج عظته بآى الذكر الحكيم مستعيراً من أحاديث الرسول ما يضىء به كلامه من مثل قوله : « دعوا ما يَريبكم إلى ما لا يريبكم » فى الحديث النبوى : « دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك » واستعار قول الرسول : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » واستشهد بكلمة لعمر . واستشهاده بآيات القرآن كثير ، تارة يأتى بها فى تضاعيف كلامه ، وتارة يتلو الآية ثم يعقب عليها بعظته ، من ذلك أنه تلا يوماً قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يحملْنها وأشفقْن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) ثم عقَّب عليها بقوله [٤] :

---

(١) يريد أنه كان يغدو ويروح فى كسب عيشه الضرورى .

(٢) يريد صحابة الرسول .

(٣) يريد لو تكشفت عيوب بعضكم لبعض لاستثقلتم المشى فى الجنائز .

(٤) أمالى المرتضى ١/١٥٤ .

« إن قوماً غدوا في المطارف[١] العتاق والعمائم الرقاق يطلبون الإمارات ويضيعون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه في عافية ، حتى إذا أخافوا من فوقهم من أهل العفة وظلموا من تحتهم من أهل الذمة أهزلوا دينهم وأسمنوا براذينهم[٢] ووسعوا دورهم وضيقوا قبورهم . ألم ترهم قد جددوا الثياب وأخلقوا الدين ، يتكىء أحدهم على شماله ، فيأكل من غير ماله .. يدعو بحلو بعد حامض وبحار بعد بارد وبرطب بعد يابس ، حتى إذا أخذته الكظة[٣] تجشأ من البشم[٤] ، ثم قال يا جارية هاتي حاطوماً[٥] يهضم الطعام ، يا أحيمق لا والله لن تهضم إلا دينك أين جارك ؟ أين يتيمك ؟ أين مسكينك ؟ أين ما أوصاك الله عز وجل به ؟ »

وبمثل هذه العظة كان يحمل على من يطلبون الدنيا والظفر فيها بحكم الناس ، حتى إذا حكموهم ظلموهم وعاشوا للذاتهم يلبسون فاخر الثياب ويركبون أنفس الدواب ، ويطعمون طعاماً مختلفة ألوانه ، غير مفكرين في حقوق الرعية بل طارحين وراء ظهورهم ما أوصى به الدين الحنيف من رعاية الجار واليتيم والمسكين . وكان يعنف بالأغنياء عنفه بالحكام ، فقد شغلهم متاع الدنيا عن طلب الآخرة حتى أصبحوا كالشجرة التي قل ورقها وكثر شوكها ، وإنه ليجزع من انصرافهم إلى نعيم الحياة وسلعها البائرة وقعودهم عن الآخرة وسلعها الرابحة ، ومن قوله[٦] :

« رحم الله امرأ كسب طيباً ، وأنفق قصداً ، وقدم فضلاً ، وجهوا هذه الفضول حيث وجهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ، ففضحها ، فلا والله ما وجد ذو لب فيها فرحاً ، فإياكم وهذه السبل المتفرقة التي جماعها الضلالة وميعادها النار . أدركت من صدر هذه الأمة قوماً كانوا إذا أجنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم[٧] . . يابن آدم إن كان لا يغنيك

---

(١) المطارف : جمع مطرف هو ثوب من خز .
(٢) براذينهم : دوابهم
(٣) الكظة : الشبع .
(٤) البشم : الامتلاء .
(٥) الحاطوم : الهاضوم المهضم .
(٦) البيان والتبيين ٣ / ١٣٥ .
(٧) يريد تخليصهم رقابهم من شهوات الدنيا أو من جزاء لا يرضونه .

ما يكفيك فليس‌ها هنا شيء يُغْنيك ، وإن كان يُغْنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك » .

ويكرر الحسن دائماً ذكر الموت والآخرة والإعراض عن الدنيا والخوف من الله وما أعدّ للعصاة من الجحيم والعذاب المقيم ، ويجلّل الحزن مواعظه ، فهو دائماً مهموم لما يفكر فيه من مصيره ولقاء ربه يوم يفوز المحسنون ويخسر المبطلون ، فطُوبَى لمن قنع بالكفاف وذكر فى غدوّه ورواحه المعاد ، وأعدّ عدته ليوم الحساب يوم موقفه بين يدى الله ، وهو لا يدرى أيؤْمَرُ به إلى الجنة أم إلى النار . وإن التفكير فى ذلك حرىّ أن يملأ نفس المؤمن بالحزن والهم آناء الليل وأطراف النهار .

ولعل فى هذا كله ما يوضح المعانى التى كان يخوض فيها الحسن البصرى ، وقد كان يختار لها كُسْوة حسنة من هذا الأسلوب الذى يشيع فيه الازدواج ، كما يشيع فيه الطباق والتصوير ، وأيضاً فإنه كان يشيع فيه التقسيم من مثل قوله :

« لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما أبْلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين كسَبه وفيما أنفقه » .

وهو بلا ريب أكبر من ثبّتوا فى هذا العصر ذلك الأسلوبَ المونق الذى تأثّر به عبد الحميد ومَنْ خلفوه من الكتّاب إذ كان يقتدر على تصريف الكلم مع السلامة من التكلف والبراءة من التعقيد ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً مع تحلية لفظه بالمزاوجات والمقابلات والتشبيهات والاستعارات والتقسيمات الدقيقة .

الفصل السابع

الكتابة والكتّاب

١

التدوين

كان العرب فى الجاهلية أميين ، لايعرف القراءةَ والكتابة إلا قليل منهم ، فلما جاء الإسلام أخذ يحضُّهم — كما مرَّ بنا — على تعلم الكتابة وعلى العلم والتعلم . وكان اختلاطهم بعد الفتوح بالأعاجم مهيِّئاً لهم أن يقفوا منهم على فكرة الكِتاب وأنه صحف يُجمع بعضها إلى بعض فى موضوع معين . وقد أخذوا يتحولون سريعاً من أمة أُمِّيَّة لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر ووعته الآذان إلى أمة كاتبة، تدوِّن معارفها العربية والإسلامية واضعةً بعض المصنَّفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية .

وكان من أوائل ما عُنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبارُ آبائهم فى الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم، ومن ثَمّ كثُر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار[١] ومن أشهرهم دَغْفل[٢] بن حنظلة السَّدوسى المتوفَّى سنة ٧٠ للهجرة، وله مجالس عند معاوية دُوِّنت فى كتاب له اسمه «التضافر والتناصر»[٣] وهى تدور بينهما فى أسلوب حِوارى ، إذ يسأل معاوية عن قبائل العرب ويجيبه دغفل بعبارات بليغة ، وقد احتفظ الجاحظ منها فى بيانه ببعض إجابات طريفة.[٤]

---

(١) انظر المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص٢٦٥ والبيان والتبيين ١ /٣١٨ وما بعدها

(٢) راجع فى ترجمة دغفل المعارف ص ٢٦٥ والفهرست (طبع مصر) ص ١٣١ وأمثال الميدانى ٢/٢٧٣ والإصابة ، وفى الاستيعاب لابن عبد البر ص ١٧٣ أن معاوية أمره أن يعلم يزيد ابنه العربية والأنساب .

(٣) انظر التحفة البهية (طبعة إستانبول) ص ٣٨ .

(٤) البيان والتبيين ١/١٢١ ، ٢٤٧ ، ٢/٨٠ ، ٢٥٣ .

و بجانب ذلك نجد القبائل تُعْنَى بأخبارها فى الجاهلية وأشعارها فتدوّنها، وتكاثر هذا التدوين فى الكوفة حيث كانت تعيش الأرستقراطية العربية ، مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد الراوية أن يحملوا مادة غزيرة من الشعر الجاهلى وكل ما يتصل به من أخبار وأيام[١] . وبين أيدينا أخبار مختلفة تدل على أن الشعر الإسلامى كان يُكْتَبُ ويدوَّن ، من ذلك ما يَرْويه الجاحظ عن ذى الرُّمَّة من أنه كان يقول لعيسى بن عمر : « اكتب شعرى فالكتاب أحبّ إلىّ من الحفظ ، لأن الأعرابىّ ينسى الكلمة وقد سَهِرَ فى طلبها ليلته ، فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها ، ثم يُنشدها الناس ، والكتاب لا يَنسى ولا يبدّل كلاماً بكلام »[٢] ، وفى أخبار جرير أنه كان يأمر راويته حسيناً بإعداد ألواح ودواة ليُملى عليه بعض أشعاره[٣] وأنه كان يقول لسامعيه بالمِرْبد قيِّدوا قيِّدوا أى اكتبوا[٤]، وفى الأغانى أن خالد بن كلثوم الكلبى كان يدوِّن شعره وشعر الفرزدق[٥] . ونحن لا نصل إلى عصرهما حتى يتكون بالبصرة والكوفة جيلٌ من الرواة ، يُعْنَى بتدوين أخبار العرب فى الجاهلية وأشعارهم ، لعل خير من يمثّله أبو عمرو بن العلاء ، وفيه يقول الجاحظ : « كانت كتُبه التى كتبَ عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له ، إلى قريب من السَّقْف ، ثم إنه تقرّأ (تنسَّك) فأحرقها كلها ، فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حَفِظ بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية»[٦] .

وعنايةُ العرب فى هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تُقاس إلى عنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف فقد تأسست فى كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عُنيت بتفسير الذكر الحكيم ورواية الحديث النبوى وتلقين الناس الفقهَ وشئونَ التشريع . وكان كثيرون من المتعلمين فى هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعونه . وقد اشتهر ابن عباس فى مكة بما كان يحاضر فى تفسير القرآن الكريم ، وحَمل عنه تفسيره نفرٌ من التابعين

---

(١) أغانى (دار الكتب) ٦/ ٩٤ .
(٢) الحيوان ١/ ٤١ .
(٣) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفن) ص ٤٣٠ وانظر أغانى (دار الكتب) ٨/ ٣٢ .
(٤) ابن سلام ص ٣٧٤ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٩/ ١١ – ١٢ .
(٦) البيان والتبيين ١/ ٣٢١ .

أمثال مجاهد وعطاء، ويقول ابن حنبل «بمصر صحيفة فى التفسير عن ابن عباس رواها على بن أبى طلحة ، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً [١] » .
ولا يَحْمل تفسير الطبرى تفسير ابن عباس وحده ، بل يحمل أيضاً كلَّ ما رواه الرواة عن معاصريه أمثال عبد الله بن مسعود وأبىّ بن كعب . وقد أخذتْ تعظم هذه المادة بما أضاف إليها التابعون. وما نشكُّ فى أن كثيراً منها دُوّن فى هذا العصر ، وإلا ما وصلت إلى الطبرى . وكان الصحابة والجيل الأول من التابعين كما مر بنا فى غير هذا الموضع يتردّدون فى تدوين الحديث ، غير أن بينهم قوماً كانوا لا يكتفون بالحفظ خشية النسيان ، فعمدوا إلى كتابة ما سمعوه على نحو ما يصوِّر لنا ذلك البغدادى فى كتابه « تقييد العلم » . ونحن لا نصل إلى عصر عمر بن عبد العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث ، ويُعْنَى بذلك كما مر بنا الزُّهْرى المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة فيدونه ، ويتتابع التدوين فيه . وعلى نحو ما أخذوا فى تدوين الحديث والتفسير أخذوا فى تدوين الفقه ، وخاصة تلاميذ ابن مسعود كما يلاحظ ذلك ابن قيم الجوزية ، فإنهم حرّروا فتياه ومذهبه فى التشريع [٢] . ويذكر جولدتسيهر أن عروة [٣] بن الزبير كانت له كتب فقه احترقت يوم الحرة [٤]. ويظهر أن عناية الشيعة بكتابة الفقه كانت قوية لاعتقادهم فى أئمتهم أنهم الهادون المهديون الذين ينبغى أن يلتزموا بفتاواهم ومن ثم عنوا بفتاوى على وأقضيته : ويظهر أن أول من ألّف فيها سليم بن قيس الهلالى معاصر الحجاج [٥] ، وذكر جولدتسيهر أنه يوجد فى المكتبة الأمبروزية بميلانو مختصر فى الفقه اسمه « مجموعة زيد بن على » [٦] .

وأخذت تدوّن منذ القرن الأول مغازى الرسول صلى الله عليه وسلم وممن عُنوا

---

(١) انظر النوع التاسع والسبعين فى كتاب الإتقان للسيوطى .

(٢) راجع تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لمصطفى عبد الرازق ص ١٩٢ وانظر إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية .

(٣) انظر فى ترجمة عروة تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٢/٤٧ والمعارف لابن قتيبة ص ١١٤

(٤) انظر مادة فقه فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٥) الفهرست ص ٣٠٧ .

(٦) مادة فقه فى دائرة المعارف الإسلامية .

بها عروة بن الزبير وأبان [١] بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ للهجرة ووهب [٢] ابن منبه المتوفى سنة ١١٤ . وأخذت تنضم إليها مادة تاريخية إسلامية عن الفتوح وأخبار الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية وخلافة ابن الزبير ومقتل الحسين ، ومن كل ذلك ألف المؤرخون المخضرمون الذين عاشوا فى العصرين الأموى والعباسى كتبهم التاريخية التى يفيض الفهرست لابن النديم فى بيان أسمائها ، وعلى رأسهم محمد بن السائب الكلبي المتوفّى سنة ١٤٦ .وابن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ . ومنذ أوائل العصر نجد عناية بأخبار الأمم السالفة ، وتمثلت هذه العناية فى معاوية ، إذ استقدم عُبَيْد [٣] بن شَرِيَّة الجرهمى اليمنى ليحدثه فى مجالسه عن أخبار ملوك العرب الماضين ،وأمر معاوية بعض غلمانه بكتابة ما كان يسرده من تاريخهم ، فتألف من ذلك كتابه « أخبار الأمم الماضية » وكان متداولا فى عصر المسعودى [٤] . وقد طُبع له فى « حيدر آباذ » كتاب باسم « أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » وهو يدور فى أسلوب حوارى ، إذ يسأل معاوية ويجيب عبيد ، ويستهل بأخبار عاد ولقمان وثمود ثم يتحدث عن هجرة جُرْهم من اليمن وأخبار تُبَّع إلى زمان مملكة طسم وجديس ، وتتخلله أشعار كثيرة . ومن نمطه كتاب التيجان لوهب بن منبه ، وهو مطبوع معه ، وهو يتحدث عن ملوك حمير والقرون الغابرة . ولوهب كتاب يسمى « المبتدأ فى الأمم الخالية » ذكره المقدسى [٥] وقال السخاوى إنه كثير الخرافات [٦] . وله فى الإسرائيليات كتاب نقل عنه المفسرون كثيراً ،وفى مكتبة بلدية الإسكندرية كتاب يُنسَب إليه باسم « قصص الأنبياء ». ويلمع فى هذا الاتجاه من أخبار أهل الكتب السماوية اسم كعب [٧]

---

(١) انظر فى ترجمة أبان المعارف ص ١٠١ وتهذيب التهذيب والفهرست ص٤٥ وابن سعد ١١٢/٥ والنووى (طبعة وستنفلد) ص ١٢٥ .

(٢) انظر ترجمته فى كتاب المعارف ص ٢٣٣، ٣٠١ وطبقات ابن سعد ٣٩٥/٥ وميزان الاعتدال ٢٧٨/٣ وتهذيب ابن حجر وطبقات الحفاظ للسيوطى ١٧/١ وشذرات ابن العماد ١٥٠/١ .

(٣) راجع فى ترجمته الفهرست ص ١٣٢ والمعمرين لأبى حاتم السجستانى ومعجم الأدباء ٧٢/١٢ .

(٤) مروج الذهب (طبعة أوربا) ٨٩/٤ .

(٥) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١١٥ .

(٦) الإعلام بالتوبيخ ص ٤٨ .

(٧) انظر فى ترجمة كعب الإصابة والمعارف ص ٢١٩ وابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ١٥٦ ..

الأحبار المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان من يهود اليمن وأسلم وقد طُبع له فى القرن الماضى كتاب بمطبعة بولاق « فى حديث ذى الكِفْل » .

وتلقانا بجانب ذلك إشارات إلى مصنفات تاريخية وأدبية وعقيدية ، من ذلك وَضْعُ زياد بن أبيه لكتاب فى المثالب [١] ووَضْعُ ابن مفرِّغ الشاعر قصة تُبَّع وأشعاره [٢] وتأليف كل من علاقة الكلابى [٣] معاصر يزيد بن معاوية وصُحار [٤] العبْدى كتاباً فى الأمثال. ومن ذلك كتاب [٥] فى الوصايا والحِكم للمستورد بن عُلَّفة الخارجى . ومن ذلك أيضاً تصنيف وهب بن منبِّه لكتاب فى القَدَر [٦] ، ويقول صاحب الفهرست إن لغيلان [٧] المرجىء رسائل فى ألفى ورقة [٨] ، ومع أنها كانت تدور فى المواعظ [٩] نؤمن بأنها حملت آراءه فى الإرجاء . ويقول الجاحظ إن رسائل واصل بن عطاء رأس المعتزلة وخطبه كانت مدونة. [١٠] ومرّ بنا فى الفصل السابق ذكر رسالتين للحسن البصرى أرسل بهما إلى الحجاج وعبد الملك يحتج لرأيه فى القدر ، وهو ممن أملوا تفسيراً حُمل عنه [١١] . ونجد يونس الكاتب يضع أول كتاب فى الغناء [١٢] ، وقد نسَب له صاحب الفهرست فيه ثلاثة كتب [١٣].

وفى ذلك كله ما يدل على اتساع حركة التدوين فى عصر بنى أمية ، ولا نشك فى أن القوم دوَّنوا جملة رسائلهم السياسية ، وإلا ما استطاع الطبرى وغيره أن يرووها وكذلك قُلْ فى رسائلهم الوعظية والشخصية فإنهم دونوا منها كثيراً . ويسوق لنا صاحب الفهرست أسماء طائفة من الكتَّاب البلغاء لهذا العصر كانت رسائلهم مدونة . [١٤] وبالمثل كانوا يدوِّنون كثيراً من خطبهم ، وخاصة خطب

---

(١) انظر الفهرست ص ١٣١ .
(٢) أغانى (ساسى) ١٧/٥٢ .
(٣) الفهرست ص ١٣٢ .
(٤) نفس المصدر ص ١٣٢ .
(٥) المبرد ص ٥٧٨ .
(٦) انظر معجم الأدباء ١٩/٢٥٩ .
(٧) مضت مصادر ترجمته فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .
(٨) الفهرست ص ١٧١ .
(٩) انظر عيون الأخبار ٢/٣٤٥ .
(١٠) البيان والتبيين ١/١٥ .
(١١) مختصر جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ٣٧ .
(١٢) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٤/٣٩٨ .
(١٣) الفهرست ص ٢٠٧ .
(١٤) الفهرست ص ١٧٠ وما بعدها .

الخلفاء والخطباء النابهين وعـاظاً وغير وعـاظ ، من مثل الحسن البصرى وواصل ومثل خالد بن صفوان [١] المتوفى سنة ١٣٥ وفيه يقول الجاحظ كما أسلفنا : «لكلامه كتاب يدور فى أيدى الوراقين» [٢] ومرت بنا فى الفصل السالف موعظة لزياد بن أبيه كان يتداولها الناس وكتبها عبد الملك بن مروان بيده .

وأخذوا منذ أوائل هذا العصر ينقلون عن الموالى بعض معارفهم ، وقد مرّ بنا فى حديثنا عن الثقافة كيف كان خالد بن يزيد بن معاوية مشغوفاً بكتب النجوم والكيمياء والطب . ويقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته فى الصنعة » [٣] . ومرّ بنا أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أمر ماسرجويه بنقل كتاب القس أهرن فى الطب ، ويروى الرواة أن ثياذوق طبيب الحجاج ابن يوسف نظم فى علم الصحة قصيدة ظل الناس يتناقلونها حتى عصر ابن سينا [٤] وذكرنا أيضاً أن سالماً مولى هشام نقل بعض رسائل أرسطاليس من اليونانية ، وقد اشتهر تلميذه عبد الحميد بنقل بعض رسائل الفرس السياسية [٥] . ويقال إنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية فى تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية . [٦] ومعنى كل ما قدمنا أن التدوين أخذ يذيع وينتشر بين العرب لهذا العصر فى جميع فروع المعرفة دينية وغير دينية وعربية وغير عربية . ونقف الآن لنتحدث عما خـلّف العصر من رسائل مختلفة .

٢

كثرة الرسائل المدوّنة

تزخر كتب التاريخ والأدب برسائل سياسية كثيرة أُثرت عن هذا العصر .

---

(١) انظر فى خالد المعارف ص ٢٠٦ والبيان والتبيين فى مواضع متفرقة (راجع الفهرس) وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٢ / ٢٤ والفهرست ص ١٥١ ، ١٦٧ ، ١٨١ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ٣٤٠ وانظر الفهرست ص ١٥١ .

(٣) الفهرست ص ٤٩٧ .

(٤) انظر طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١ / ١٢١ وابن القفطى ص ١٠٥ .

(٥) الصناعتين لأبى هلال العسكرى (طبعة الحلبى) ص ٦٩ .

(٦) انظر «صفحات عن إيران» لصادق نشأت ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو) ص ٨١

وحقًّا هناك كتب تزيّدت فى هذه الرسائل ونقصد كتب الشيعة من مثل شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة وكذلك كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة.

ولكن إذا نحّينا هذين الكتابين وأضرابهما واعتمدنا على الكتب الوثيقة من مثل الطبرى والبيان والتبيين والكامل للمبرد استقبلتنا وخاصة فى الطبرى سيول من هذه الرسائل كتبتها على مرّ العصر وأحداثه فرق الخوارج والشيعة والزبيريين وممّن ثاروا على الدولة الأموية أمثال ابن الأشعث ، كما كتبها خلفاء بنى أمية وولاتهم وقوادهم .

ولن نستطيع أن نعرض كل ما رُوِى للخوارج من رسائل ، لكثرتها ، ومن ثمّ سنكتفى بالحديث عن أهم رسائلهم ، ومعروف ما شجر بينهم من خلاف أدّى كما مرّ بنا إلى تفرقهم أربع فرق ، هى الأزارقة والنّجدية والصُّفْرية والإباضية ، وقد مضى الأولون بقيادة نافع بن الأزرق يحرّمون القعود عن الخروج ويستحلّون دماء المسلمين وقتل أطفالهم ، وخالفتهم فى ذلك الفرق الأخرى . ويسوق المبرد فى تصوير هذا الخلاف رسالتين[1] متبادلتين بين نَجْدة بن عامر الحنفى زعيم النّجدات ونافع بن الأزرق ، فنجْدة يراجعه فى مقالته ، ونافع يحتج لها . والرسالتان وثيقتان طريفتان فى بيان مقالتى النجدات والأزارقة . ومرّ بنا كيف قاد الأزارقة مع قواد مصعب بن الزبير حرباً عنيفة على الرغم من قتل قائدهم نافع فى وقعة دولاب ، فقد ظلوا يحاربون قائده المهلب ، حتى إذا دخلت العراق فى طاعة عبد الملك مضوا فى ثورتهم ، وظلت الجيوش توجّه إليهم ، يوجّهها ولاة العراق وخاصة الحجاج ، وكان زعيمهم لعهده قطرى ابن الفُجاءة ، ونرى الحجاج يراسله مهدداً متوعداً ، ويرد عليه قَطرى بنفس الصورة من التهديد والتوعّد ، ونحن نسوق رسالتين[2] لهما تصوّران كيف كان يتراسل الولاة مع الثائرين من خوارج وغير خوارج ، أما رسالة الحجاج فتجرى على هذا النمط .

«سلام عليك . أما بعد فإنك مَرَقتَ من الدين مروقَ السهم من الرَّمِيّة ، وقد علمت حيث تجرثمتَ ،[3] ذاك أنك عاصٍ لله ولولاة أمره . غير أنك أعرابى

---

(١) المبرد ص ٦١١ وما بعدها .

(٢) البيان والتبيين ٢/٣١٠ وانظر المبرد ص ٢١٤ .

(٣) تجرثمت الشىء : أخذت معظمه .

جِلْفٌ(١) أمىٌّ تَستطعم(٢) الكِسْرة وتَستَشْفى(٣) بالتمرة، والأمور عليك حَسْرة، خرجتَ لتنال شُبْعة(٤)، فلحق بك طَغام(٥) صَلوا بما صَليت به من العيش فهم يهزّون الرماح ويَستنشئون(٦) الرياح، على خوف وجهد من أمورهم، وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته، ثم أهلكهم الله بِنَزْحتين(٧). والسلام».

وأجابه قطرى:

«سلام على الهُداة من الولاة الذين يَرْعَوْنَ حريمَ الله ويرهبون نِقَمه، فالحمدُ لله على ما أظهر من دينه، وأظلَعَ به أهل السِّفال(٨) وهَدى به من الضلال ونصَر به عند استخفافك بحقّه. كتبتَ إلىّ تذكر أنى أعرابىّ جِلْفٌ أمىٌّ أستطعم الكِسْرة، وأستشفى بالتمرة، ولَعَمْرى يا ابنَ أمِّ الحجاج(٩) إنك لمتَيَّهٌ فى جِبِلَّتك(١٠)، مُطْلَخِمٌّ(١١) فى طريقتك، واهٍ فى وثيقتك(١٢)، لا تعرف الله ولا تَجزْع من خطيئتك، يئستَ واستيأست من ربك، فالشيطانُ قَرينك، لا تجاذبه وِثاقك، ولا تنازعه خِناقك. فالحمد لله الذى لو شاء أبرز لى صَفْحتك، وأوضحَ لى صَلْعتك(١٣)، فوالذى نفسُ قطرىٍّ بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتَصْدير(١٤) المقال، مع أنى أرجو أن يَدْحَضَ الله حُجتّك، وأن يمنحنى مُهْجتك».

وواضح أن كلا منهما يرمى صاحبه بالضلالة والغواية، وقد عُنيا جميعاً بالتأنق فى أسلوبهما. ومن ثَمَّ زَيَّنا كلامهما بالسجع. وإذا تركنا الأزارقة إلى الصُّفرية وجدنا شبيباً يراسل صالح بن مسرّح حاضاً على الخروج(١٥). ولم تحتفظ المصادر برسائل للنجدات والإباضية.

---

(١) جلف: جاف.

(٢) تستطعم الناس: تسألهم أن يطعموك.

(٣) تستشفى: تطلب الشفاء.

(٤) الشبعة: ما يشبع من الطعام.

(٥) طغام الناس: أرذالهم.

(٦) يستنشئون الرياح: يتنسمونها، كناية عن جوعهم.

(٧) يشير الحجاج إلى هزيمتين هزمهما الأزارقة أمام المهلب بن أبى صفرة.

(٨) أظلع: من الظلع وهو العرج. السفال: سفول الخلق.

(٩) يقولون ذلك إذا أرادوا الطعن فى النسب.

(١٠) متيه: مضلل. الجبلة: السجية.

(١١) مطلخم: متعجرف.

(١٢) الوثيقة: الثقة.

(١٣) كناية عن ذلته وانكشاف أمره.

(١٤) تصدير المقال: تسطيره وتحبيره.

(١٥) طبرى ٥/٥٢.

ورسائلُ الشيعة فى هذا العصر كثيرة ، وأول حادث تكثر رسائلهم فيه استدعاء أهل الكوفة للحسين وما كان بينه و بينهم من مراسلات [١] تحضُّ على الثورة على بنى أمية لظلمهم الرعية واغتصابهم الخلافةَ من أصحابها الشرعيين. ونمضى بعد مقتله فتلقانا حركة التوّابين ، ويصوّر زعيمهم سليمان بن صُرَد فى مكاتبته لبعض أصحابه ندَمهم على خِذْلان الحسين ، وأنه ليس لهم من مخرج ولا توبة إلا بالثأر من قاتليه [٢] . وسرعان ما تنشب حركة المختار الثقفى لعهد ابن الزبير ، ويستولى على الكوفة ، ويُكثر من المكاتبة إلى شيعته وإلى ابن الحنفية ، ويكتب إلى بعض زعماء البصرة مهدداً متوعداً إن لم يتبعوه على شاكلة هذه الرسالة التى أرسل بها إلى الأحنف زعيم تميم ، وفيها يقول [٣] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبى عُبَيْد إلى الأحنف بن قيس ومَنْ قِبَله ، فسِلْمٌ أنتم ، أما بعد فويل امّ ربيعة من مضر [٤] ، فإن الأحنف موردٌ قومه سَقَر [٥] ، حيث لا يستطيع لهم الصَّدر [٦] ، وإنى لا أملك ما خُطَّ فى القدر ، وقد بلغنى أنكم تسمُّونى كذاباً ، وإن كُذِّبتُ فقد كُذِّبتْ رسلٌ من قبلى ، ولستُ بخير من كثير منهم » .

وفى الرسالة خصائصه التى مرت بنا فى خطابته ، إذ كان يُعْنى باختيار ألفاظه والسجع فى كلامه ، وفيها إيهاماته وادعاءاته إذ يشير من طرف خفىّ إلى أنه يوحَى إليه . ومن ثم كان يستخدم السجع كثيراً فى خطابته وأحاديثه كما استخدمه فى الرسالة الآنفة [٧] .

وأُثرت عن ابن الزبير وولاته فى العراق رسائل كثيرة احتفظ بها الطبرى ، كما احتفظ برسالة كتب بها إليه المختار [٨] الثقفى . ونرى ولاته يكاتبون من يوجّهونهم إلى الخوارج [٩] . ونلتقى فى عصر الحجاج بثورة ابن الأشعث ومعروف أنه اتخذ كاتباً له أيوب بن القِرِّيَّة المشهور بسجعه .

---

(١) طبرى ٤/٢٥٧ وما بعدها .

(٢) طبرى ٤/٤٢٩ .

(٣) طبرى ٤/٥٣٩ .

(٤) يقولون ويل ام فلان إذا أرادوا التعجب منه. وكأن المختار يعلى من شأن قبائل ربيعة التى آزرته ، ويقول إنها ستنكل بتميم وغيرها من قبائل مضر .

(٥) سقر : جهنم .

(٦) الصدر : الرجوع .

(٧) المبرد ص ٥٩٦ وما بعدها .

(٨) طبرى ٤/٥٤١ .

(٩) طبرى ٤/٤٨١ وما بعدها .

وإذا كانت الكتابات السياسية قد كثرت فى البيئات المعارضة للدولة فإن الدولة نفسها كانت تستخدمها استخداماً أكثر وأغزر ، إذ كان الخلفاء يكتبون بالعهود إلى من يتولون الخلافة بعدهم[١] ، سُنَّة وضعها أبو بكر وعمر وسار عليها خلفاء بنى أمية . وكذلك كانوا يكتبون بالعهود إلى من يولّونهم على الولايات[٢] . وكانت الكتب لا تزال ذاهبة آيبة بينهم وبين ولاتهم فى كل كبيرة وصغيرة . وكان قوّادهم كلما فتحوا بلداً واستجاب إليهم أهلها عقدوا معهم المعاهدات .

ولا نستطيع أن نعرض بالتفصيل لكل ما دار بينهم وبين ولاتهم وقوادهم من مراسلات يَطْفح بها الطبرى وغيره ، ويكفى أن نقول إنه ليس هناك حادث مهم ولا ثورة إلا والرسائل تتساقط كالغيث ، فزياد بن أبيه يكتب مراراً لمعاوية فى شأن حُجْر بن عدىّ وأصحابه من الشيعة[٣] ، ويرد عليه . ويكتب يزيد إلى ولاته فى الحجاز بشأن عبد الله بن الزبير والحسين بن على[٤] ، وتكثر الرسائل بينه وبين عبيد الله بن زياد فى وفود الحسين على العراق وما كان من مصرعه .[٥]

ولم تكثر الرسائل السياسية بين الخلفاء وولاتهم كما كثرت فى عهد عبد الملك وخاصة بينه وبين الحجاج لكثرة الفتن والثورات التى نشبت فى العراق وخراسان . وكان الحجاج نفسه يُكثر من الكتابة إلى قواده ، ويكثرون من الرد عليه ، وكان يكتب أحياناً إلى الثوار أنفسهم على شاكلة رسالته الآنفة التى أرسل بها إلى قطرى . ولابد أن نقف قليلا عنده إذ كان يُعْنَى بتحبير رسائله على نحو ما كان يعنى بتحبير خطبه . ونراه يكثر من مراسلة المهلب وحثّه على الفتك بالخوارج الأزارقة حتى لا تقوم لهم قائمة[٦] ، كما يكثر من مراسلة قواده فى حروب الخوارج الشبيبية[٧] وفى فتنة ابن الأشعث[٨] وحروب خراسان[٩] . ورسائله مثل سياسته التى اشتهر بها تقطر شدة وحدّة ، حتى فى مخاطبته لبعض الأمراء ، فقد كتب إلى سليمان بن عبد الملك — وهو لا يزال وليا للعهد — من رسالة له : « إنما

(١) طبرى ٥/٣٠٧ .
(٢) الوزراء والكتاب ص ٣١ ، ٦٦ .
(٣) طبرى ٤/٢٠٢ وما بعدها .
(٤) طبرى ٤/٢٥٠ وما بعدها .
(٥) طبرى ٤/٢٦٥ وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٣١ .
(٦) طبرى ٥/١٢٠ والمبرد ص ٦٦٧ وما بعدها .
(٧) طبرى ٥/٧٩ وما بعدها .
(٨) طبرى ٥/١٤٩ وما بعدها .
(٩) طبرى ٥/١٤٠ ، ١٤٦ .

أنت نقطة من مداد ، فإن رأيت فيّ ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة فإن شئت محوتك وإن شئت أثبتّك[١]»

وكان الخلاف دبّ بينهما ، ومن ثَمّ حاول كما قدمنا أن يصرف ولاية العهد عنه ، ولكن الموت عاجله وعاجل الوليد بن عبد الملك قبل تنفيذ هذه المحاولة . ومعروف أنه كان صنيعة عبد الملك ، فهو الذى أظهره ، وما زال يرفع من أمره حتى ولاّه العراق وخراسان ، وكان إذا كتب إليه تأنّق ما استطاع فى تعبيره ، ومن خير ما يصوّر ذلك رسالة احتفظ بها الجاحظ ، يصف فيها لعبد الملك خِصْباً بعد جَدْب ومطراً بعد قَحْط ، وهى تجرى على هذا النمط[٢] :

« أما بعد فإنا نُخبر أميرَ المؤمنين أنه لم يُصبْ أرضنا وابلٌ منذ كتبت أخبره عن سُقْيا الله إيانا إلا ما بَلّ وجه الأرض من الطَّشّ والرَّشّ والرَّذاذ[٣] ، حتى دَقِعَت[٤] الأرض واقشعرّت[٥] واغبرّت[٦] وثارت فى نواحيها أعاصير تَذْرو[٧] دُقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاّحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها[٨] وامتناعها ، وأرضنا أرض سريعٌ تغيُّرها ، وشيكٌ تنكّرها ، سَيِّءٌ ظنُّ أهلها عند قحوط المطر ، حتى أرسل الله بالقَبول[٩] يوم الجمعة ، فأثارت زِبْرِجاً متقطعاً متمصِّراً[١٠] ، ثم أعقبته الشَّمال[١١] يوم السبت ، فطَحْطحتْ[١٢] عنه جَهامه[١٣] وألّفت متقطّعه ، وجمعت متمصّره ، حتى انتضَد فاستوى ، وطَما وطَحا[١٤] ، وكان[١٥] جَوْناً[١٦] مُرْثَعِنّاً[١٧] ، قريباً رواعده ، ثم عادت عوائده بوابلٍ منهمل

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٩٧ .

(٢) البيان والتبيين ٤/٩٩ .

(٣) الطش والرش والرذاذ : المطر القليل .

(٤) دقعت : خلت من النبات .

(٥) اقشعرت : تقبضت من الجدب .

(٦) اغبرت : تربت من الغبار .

(٧) تذرو : تسفى وتحمل .

(٨) الاعتزاز : من العزاز ، وهى الأرض الصلبة .

(٩) القبول : الريح الشرقية .

(١٠) الزبرج : السحاب الرقيق ، والمتمصر : المتقطع .

(١١) الشمال : الريح الشمالية .

(١٢) طحطحت : بددت وفرقت .

(١٣) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(١٤) طما : امتلأ وزخر ، وطحا : انبسط وملأ الأفق .

(١٥) كان هنا بمعنى صار .

(١٦) الجون : الضارب إلى السواد

(١٧) مرثعنا : سائلا .

مُنْسجل [١] ، يردف [٢] بعضه بعضاً ، كلما أردف شؤبوب أردفته شآبيب [٣] لشدة وقعه فى العِراض [٤] . وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وهى ترمى بمثل قِطَعِ القُطْن ، قد ملأ اليَبَاب [٥] . وسدَّ الشِّعاب [٦] ، وسَقَى منها كلُّ ساق . فالحمدُ لله الذى أنزل غَيْثه ونشر رحمته من بعد ما قَنطوا [٧] ، وهو الولىُّ الحميد، والسلام » .

ويتضح فى الرسالة ما اشتهر به الحجاج فى خطبه من تزيينها بالصور الدقيقة والألفاظ الغريبة . وكان غيره من الولاة والقواد لا يزالون يحتالون لكلامهم ، وينمقونه صوراً مختلفة من التنميق ، وسنرى عما قليل طبقةً من الكتاب المحترفين تتوفر على إدراك هذه الغاية بكل وسيلة ، وهم كتَّاب الدواوين .

وأخذت تَشيع ، وخاصة منذ أواخر القرن ، كتابات وعظية كثيرة ، وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعَّاظ أن يرسلوا إليه بعظاتهم ، ويُرْوَى أنه لما ولى الخلافة أرسل إلى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فدبَّج له رسالة طويلة استهلها بقوله [٨] .

«اعلمْ يا أميرَ المؤمنين أن الله جعل الإمام العادلَ قِوامَ كل مائلة وقَصْد [٩] كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفَة [١٠] كل مظلوم ، ومفزعَ كل ملهوف . والإمامُ العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيقِ بها ، الذى يرتاد لها أطيبَ المراعى ، ويذودها عن مَرَاتع الهلكة ، ويحميها من السِّباع ، ويكفيها من أذى الحَرِّ والقُرِّ . [١١] والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدَّخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرَّة بولدها ، حمَلته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلا ، تَسْهر بسهره ،

---

(١) منسجل : منصب .
(٢) يردف : يتبع .
(٣) الشآبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر .
(٤) العراض : جمع عرض وهو الناحية .
(٥) اليباب : الموضع الخالى لا نبات فيه .
(٦) الشعاب : المسالك والسبل .
(٧) قنطوا : يئسوا .
(٨) العقد الفريد ١/٣٤ .
(٩) قصد : هداية .
(١٠) نصفة : من الإنصاف .
(١١) القر : البرد، مثلث القاف .

وتسكن بسكونه، تُرْضِعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته».

ومضى يذكر له حقوق الرعية عليه وحقوق الدين وما ينتظره من الموت والبعث والوقوف بين يدى الله وما ينبغى أن يتزوّد لذلك من التقوى والحكم الصالح. والحسن فى هذه الرسالة يستخدم نفس أسلوب خطابته الذى مرّ بنا وصفه، والذى يقوم على الازدواج وتزيين المعانى بالصور حتى تتمكن فى النفس، وكان يزيدها تمكيناً بمقابلاته وطباقاته الكثيرة. وكان يجاريه — كما قدمنا — فى هذا الأسلوب كثير من الوعاظ، وعلى رأسهم غَيْلان الدمشقى، ويُرْوَى أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يعظه فى رسالة طويلة، منها قوله[1]:

«اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خَلَقاً بالياً، ورَسْما عافياً، فياميّتُ بين الأموات لا ترى أثراً فتتّبع ولا تسمع صوتاً فتنتفع، طَفِىَ أمر السنة، وظهرت البدعة، أُخيف العالم فلا يتكلم، ولا يُعطى الجاهل فيسأل».

وقد أشاد الجاحظ ببلاغته[2]، مشيراً إلى أن أدباء العصر العباسى كانوا يتحفظون كلامه وكلام الحسن البصرى، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية[3]. وما نشك كما أسلفنا — فى أن بلغاء الكتّاب فى عصرهما كانوا يجارونهما فى أساليبهما هما وأضرابهما من الوعاظ، فنحن لا نقرأ فى سالم وعبد الحميد الكاتب حتى نجد عندهما نفس هذا الأسلوب الذى يتحلى بالطباق والتصوير والذى يقوم على التوازن فى الكلام توازناً ينتهى به إلى الازدواج، حتى يؤثّرا فى أنفس من يقرءونهما ويستوليا على ألبابهم.

وبجانب الكتابات الوعظية والسياسية شاعت فى هذا العصر الكتابات الشخصية، بحكم تباعد العرب فى مواطنهم، وبتأثير بعض الظروف من موت يقتضى التعزية أو ولاية تقتضى التهنئة، أو شفاعة عند وال لقريب أو صديق، أو عتاب أو اعتذار. وطبيعى أن لا يُعْنَى أصحاب هذه الكتابات بتسجيلها، لأنها لم تكن تتصل بحياة الأمة، ومن ثم سقط جمهورها من يد الزمن إلا بقية قليلة، فمن ذلك رسالة عقال بن شَبّة إلى خالد القسرى فى شفاعة تجرى على هذه الصورة[4]:

---

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٦.

(٢) البيان والتبيين ٣/٢٩.

(٣) نفس المصدر ١/٢٩٥.

(٤) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٢/٤١٦.

« إن الله انتجبك[١] من جوهرة كرم، ومنبت شرف، وقسم لك خطراً[٢] شهرته العرب، وتحدثت به الحاضرة والبادية. وأعان خطرك بقدرة مقسومة، ومنزلة ملحوظة، فجميع أكفائك من جماهير العرب يعرف فضلك، ويسره ما خار[٣] الله لك، وليس كلهم أداله[٤] الزمان ولاساعده الحظ. وأحق من تعطف على أهل البيوتات، وعاد لهم بما يبقى له ذكره، ويحسن به نشره، مثلك. وقد وجهت إليك فلانا، وهو من دنية[٥] قرابتى، وذوى الهيئة من أسرتى، عرف معروفك، وأحببت أن تلبسه نعمتك، وتصرفه إلى، وقد أودعتنى وإياه ما تجده باقياً على النشر، جميلا فى الغب»[٦].

وتدل هذه الرسالة دلالة واضحة على أن كتاب الرسائل الشخصية أو على الأقل طائفة منهم كانت تعنى عناية شديدة باختيار ألفاظها وتنسيقها، متوسلة إلى ذلك بكل ما تستطيع من انتخاب الألفاظ الرشيقة وإحداث التوازن الموسيقى فى الكلام، مع دقة التعبير وتجليته عن المعنى؛ والفقه الحسن بمداخل التأثير فى نفس القارئ وما ينبغى أن يسلك إليه الكاتب من طرق كى يستولى على عقله، فيقضى له حاجته. وممن اشتهر فى هذا اللون من الرسائل الشخصية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذى قتل بخراسان بأخرة من هذا العصر، فقد كان لسناً بليغاً، يعرف كيف يحوك الكلم ويصوغه صياغة باهرة على نحو ما نجد فى هذه الرسالة التى كتب بها إلى بعض إخوانه معاتباً، إذ يقول[٧]:

« أما بعد فقد عاقنى الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك، ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة، ثم أعقبتنى جفاء عن غير ذنب، فأطمعنى أولك فى إخائك، وأيأسنى آخرك من وفائك، فلا أنا فى اليوم مجمع لك اطراحاً، ولا أنا فى غد وانتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة فيك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام».

---

(١) انتجبك: اختارك.
(٢) خطرا: قدرا.
(٣) خار الله لك: جعل لك فيه الخير
(٤) أداله: نصره وأعانه.
(٥) دنية: لاصق.
(٦) الغب: العاقبة.
(٧) البيان والتبيين ٢/٨٤

وكل كلمة من هذه الرسالة تنبئ عن دقة الكاتب وحذقه ، وأنه يعرف كيف يتخيَّر ألفاظه وكيف يصوغها وكأنها عقود جميلة تتألف من جواهر أنيقة . وهو لا يقتدر على اللفظ فحسب ، بل هو أيضاً يقتدر على جَلْب المعانى الطريفة ، التى تروع بما فيها من منطق عقلى دقيق ، وهو يعرضها فى أسلوب من الازدواج الرشيق تزينه الاستعارات والطباقات.

وعلى هذا النحو أخذت الكتابة تَرْقى لا فى الرسائل الشخصية فحسب ، فقد رأينا كتَّاب العظات والسياسة يحقِّقون نفس الرقى ، وحرى بنا الآن أن نتحول إلى كتَّاب الدواوين ، لنرى ما أصاب الكتابة على أيديهم من تجويد وتَحْبير .

٣

كتَّاب الدواوين

معروف أن عمر أول من دوَّن الدواوين فى الإسلام ، وتؤكد الروايات التى رافقت صنيعه بأنه استعار هذا النظام من الفرس الأعاجم[١] ، إذ أحسَّ حاجته إلى سِجلاَّت يدوِّن فيها الناس وأعطياتهم وأموال الفئ والغنائم ، وبذلك وضع أساس ديوانى الخراج والجند ، حتى إذا وَلِىَ معاوية الخلافة وجدناه يتخذ ديوانين هما ديوان الرسائل، وديوان الخاتم[٢] ، وفيه كانت تُختم الرسائل الصادرة عنه ، حتى لا يغيِّر فيها من يحملونها إلى الولاة . وظل ديوان الخراج يُكْتَبُ فى الشام ومصر بالرومية وفى العراق بالفارسية إلى عصر عبدالملك ابن مروان، إذ نراه يطلب إلى سليمان بن سعد الخُشَنى كاتبه على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان الشام الرومى[٣] ، وفى الوقت نفسه يطلب الحجاج إلى صالح ابن عبد الرحمن كاتبه هو الآخر على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان العراق

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٤ .
(٣) نفس المصدر ص ٤٠ .

الفارسى [١] ، ويظهر أن ديوان مصر تحول سريعاً إلى العربية ، أما ديوان خراسان فتأخر نقله إلى عصر [٢] هشام بن عبد الملك .

وليس معنى ذلك أن الأجانب خرجوا من الدواوين منذ عصر عبد الملك ، فقد أخذوا يحسنون العربية ويشاركون فيها ، وكانت هذه المشاركة منذ أول الأمر داعية لأن يطلب العرب معرفة ما يتصل بهذه الدواوين من نُظم ، وما تواصى به أهلها وخاصة من الفرس فى إتقان العمل بها ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه « الوزراء والكتاب » بمقدمة طويلة عن نظم الدواوين الفارسية .

ونحن فى الواقع إنما يهمنا ديوان الرسائل ، لأن أصحابه هم الذين كانوا يدبّجون الكتب على ألسنة الخلفاء والولاة ، وبحكم وظيفتهم كانوا يُختارون من أرباب الكلام وأصحاب اللَّسَنِ والبيان ، وكان كل منهم يحاول أن يُظهر براعته ومهارته وحذقه فى تصريف الألفاظ وصياغة المعانى ، حتى يروق من يكتب على لسانه ، وينال رضاه واستحسانه .

وعلى هذا النحو تكونت طبقة كبيرة من كتّاب محترفين ، تتابعت أجيالهم على مَرِّ الزمن فى هذا العصر ، وكلُّ جيل سابق يُسْلِم إلى خَلَفه صناعته ، وكل جيل لاحق يحاول أن يضيف إلى براعة سلفه براعةً جديدة . وكانوا كثيرين ، إذ لم تختص بهم دمشق ، فقد كان لكل والٍ وقائد كاتب ، وأحياناً كان يتخذ الوالى فى العمل الكبير أو الولاية الكبيرة طائفة من الكتاب . وكثيراً ما كان يطمح كتّاب الولايات إلى أن يَلْفتوا ببلاغتهم مَنْ يكتبون إليهم من الخلفاء ، حتى يعيّنوهم فى دواوينهم . واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده ، حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه [٣] ، وكان إذا أعجبه كاتب وملأ نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك ابن مروان ليسلكه بين كتّابه ، على نحو ما صنع بمحمد [٤] بن يزيد الأنصارى .

ولم يعرض علينا الجَهْشيارى آثار هؤلاء الكتاب إلا قليلا ، فقد اكتفى بعرض أسمائهم موزّعاً لهم على عهود الخلفاء ، وفى عهد كل خليفة يَسْرُدُ أسماء

---

(١) الجهشيارى ص ٣٨

(٢) الجهشيارى ص ٦٧ .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٨٧ والطبرى ٥/١٨٧ والمبرد ص ١٥٨ .

(٤) طبرى ٥/٢٠٨ .

كتّاب الولاة . وإذا رجعنا فيه إلى أيام معاوية وجدناه يذكر بين كتّابه عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لفصاحته وروعة منطقه وجهارة صوته ، وكان خطيباً لا يبارَى[١] . ولم يُؤْثَرْ عنه شيء من الرسائل فى عهد معاوية ، وقد روى له الجاحظ رسالة فى عهد عبد الملك حين خرج عليه ، إذ كتب إليه عبد الملك يتوعده ، فأجابه عمرو[٢] :

« أما بعد فإن استدراج النِّعَم إياك أفادك البَغْى ، ورائحة القدرة أورثتْك الغفلة . زجرتَ عما واقعتَ مثله ، وندبتَ إلى ما تركتَ سبيله ، ولو كان ضعفُ الأسباب يُؤْيِس الطلابَ ما انتقل سلطان ولا ذلّ عزيز . وعمَّا قليلٍ تتبيَّن مَنْ أسيرُ الغفلة ، وصريعُ الخُدع ، والرَّحِم تعطف على الإبقاء عليك ، مع دفعك ما غيرُك أقْوَمُ به منك والسلام » .

والرسالة على قصرها تصور مهارته البيانية وقدرته على التعبير الموجز السريع مع طلاوة اللفظ وحسن الديباجة . وكان يتولّى ديوان الرسائل لمعاوية وابنه يزيد عبيد[٣] الله بن أوس الغَسَّانى ، وروى له الجهشيارى رسالة على لسان يزيد إلى عبيد الله بن زياد ليتخذ العُدَّة فى مقاومة الحسين بن على حين نزوله العراق وهى تمضى على هذا النحو[٤] :

« أما بعد فإن الممدوح مسبوبٌ يوماً ما ، وإن المسبوب ممدوح يوماً ما وقد انتميتَ إلى مَنْصِبٍ كما قال الأول :

رُفعتَ فجاورتَ السحابَ وفوقه فما لك إلا مَرْقَبَ الشمس مرقبُ

وقد ابتُلِى بحسين زمانُك دون الأزمان ، وبلدك دون البلدان ، ونُكِبتَ به من بين العُمَّال ، فإما تُعتَقُ أو تعود عبداً ، كما يُعَبَّد العَبْد ، والسلام » .

والرسالة قصيرة ، ويظهر أنهم كانوا يستحبون القصر فى الرسائل الديوانية حتى هذا العهد . وكان أول من أطال فيها كاتب لعبيد الله بن زياد يسمى عمرو[٥] بن نافع ، ولا شك فى أن هذا الطول رمز لما كان يأخذ به الكتاب أنفسهم فى هذا التاريخ من التفنن فى القول ، وهو تفنن كان يفتقر إلى ترتيب

---

(١) انظر البيان والتبيين ٣١٥/١ وراجع فهرسه .

(٢) البيان والتبيين ٨٧/٤ .

(٣) الجهشيارى ص ٢٤ ، ٣١ .

(٤) الجهشيارى ص ٣١ .

(٥) طبرى ٢٨٥/٤ .

ورياضة فى نَسق الكلام وضبط أساليبه، حتى يخلبوا ألباب من يقرءونهم .

ونمضى إلى عصر عبد الملك بن مروان ، فنجد بين كتَّابه رَوْح بن زِنْباع الجُذامى ، وقد وصفه عبد الملك بأنه فارسى [١] الكتابة ، وليس بين أيدينا رسائل مأثورة له ، وروى له الجهشيارى وغيره كلمة قالها لمعاوية وقد غضب عليه يوماً لأمر كان منه ، وهمّ به ، فقال له[٢] :

« لا تُشْمِتَنّ بى عدوًّا أنت وقَمْتَه[٣] ، ولا تسوءنّ بى صديقاً أنت سَررته ، ولا تهدمنّ منى ركنا أنت بَنَيْتَه ، هلا أتى حلمك وإحسانك على جهلى وإساءتى ؟ » . فعفا معاوية عنه .

ورأسُ كُتّاب عبد الملك وأبنائه من بعده سليمان بن سعد الخُشَنىّ كاتب رسائله الذى حوّل الدواوين من الرومية إلى العربية ، ولم تنصّ المصادر القديمة على ما كتبَ به بين يدى الخلفاء . ومما لا ريب فيه أنه كان من أرباب البلاغة والبيان ، وفى الجَهْشيارى أنه خلا بيزيد بن عبد الله كاتب يزيد بن عبد الملك قبل تولّيه الخلافة وكان يزيد حين ولى أزمة الأمور استدعى أسامة بن زيد والى الخراج على مصر ، فقال سليمان لابن عبد الله [٤] : « لِمَ بعثَ أمير المؤمنين إلى أسامة بن زيد ؟ فقال : لا أدرى ، قال : أفتدرى ما مَثَلك ومَثَل أسامة ؟ قال : لا . قال : مثلك ومثله مثل حيّة كانت فى ماء وطين وبَرْد ، فإن رفعتْ رأسها وقع عليها حافرُ دابّة ، وإن بقيتْ ماتت بَرْداً ، فمرّ بها رجل ، فقالت : أدخلْنى فى كمّك حتى أدفأ ثم أخرج ، فأدخلها ، فلما دفئت قال لها : اخرجى ، فقالت : إنى ما دخلت فى هذا المدخل قط فخرجت حتى أنْقُرَ نقرةً ، إما أن تسلم منها ، وإما أن تموت ، ووالله لئن دخل أسامة ليَنْقُرَنّك نقرةً إما أن تَسْلم معها وإما أن تموت » .

والكلمة تدل دلالة بينة على دقة مداخله ومسالكه إلى الإقناع ، وإن فى نقله الدواوينَ ما يدل على سعة ثقافته وهى سعة كانت تقترن بعذوبة المنطق وتزيينه بالألفاظ المستحسنة السائغة على نحو ما توضحه كلمته .

---

(١) الجهشيارى ص ٣٥ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٥٨ والجهشيارى ص ٣٥ والأمالى ٢/٢٥٩ .

(٣) وقمه : قهره وأذله .

(٤) الجهشيارى ص ٥٦ .

وإذا ولّينا وجوهنا نحو العراق والشرق رأينا الكتّاب يُعنون برسائلهم عناية لا تقل عن عناية كتاب دمشق ، ومما يؤثر من هذه العناية أن نجد عبد الرحمن ابن الأشعث يقول لابن القِرِّيَّة كاتبه حين ثار على الحجّاج : « إنى أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجّعاً أعرّفه فيه سوء فعاله وأبصّره قبح سريرته » ويُنْفذ ابن القرية مشيئته ، ويردُّ عليه الحجاج برسالة مسجوعة[1] . ولا تهمنا الرسالتان بقدر ما تهمنا رغبة ابن الأشعث فى أن تكون الرسالة مسجوعة ، وكأنما يريد أن يضيف إلى حجته فى الثورة حجة فنية من بلاغة كاتبه .

وفى ذلك ما يدل دلالة صريحة على أن الكتابة السياسية أصبحت تقترن بها غايات بلاغية ، وكلُّ كاتب يأتى من هذه الغايات بما يتفق وذوقه . ومن طريف ما يُرْوَى فى هذا الصدد أن يحيى بن يَعْمر — أحد علماء اللغة الأوائل — كان يكتب ليزيد بن المهلب فى ولايته على خراسان للحجّاج ، ولما انتصر يزيد على ملك الترك فى « باذغيس » انتصاراً حاسما أمره أن يكتب إلى الحجاج بالفتح فكتب[2] :

« إنا لقينا العدوَّ ، فمنَحنا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة ، وأسرنا طائفة ، ولحقت طائفة بعَرائر[3] الأودية وأهْضام[4] الغِيطان ، وبتنا بِعُرْعُرَةِ[5] الجبل وبات العدو بِحَضيضه[6] » .

وواضح أن ذوق يحيى بن يعمر اللغوى أدّاه إلى أن يسوق رسالته فى هذه الألفاظ الغريبة ، وشجّعه على ذلك أنه كان يعرف ذوق الحجاج واستحسانه لأوابد الألفاظ ، على نحو ما قدّمنا فى غير هذا الموضع . وفعلا راعت الرسالةُ الحجّاج ، فقد روى الرواة أنه حين قرأها قال : ما يزيد بأبى عُذْرة هذا الكلام . فقيل له : إن معه يحيى بن يعمر ، فكتب إلى يزيد أن يُشْخصه إليه ، فلما أتاه سأله عن مولده فقال له : الأهواز ، فسأله : أنّى لك هذه الفصاحة ؟ قال : أخذتها عن أبى[7] .

---

(١) الأخبار الطوال للدينورى (طبع ليدن) ص ٣٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٧٧ والمبرد ص ١٥٨ والطبرى ٥/١٨٧ .

(٣) عرائر الأودية : أسافلها .

(٤) أهضام الغيطان : مداخلها . والغيطان : جمع غائط وهو المستوى من الأرض .

(٥) عرعرة الجبل : أعلاه .

(٦) الحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٧) البيان والتبيين ١/٣٧٨ .

وعلى هذا النحو كان كتّاب الولاة والقواد فى الشرق يحبّرون رسائلهم، كلٌّ حسب فصاحته وذوقه وقدرته البيانية . وكان ديوانُ الحجاج نفسه أشبه بمدرسة كبيرة يتخرَّج فيها الكتَّاب على يد رئيسه صالح بن عبد الرحمن الذى نَقل الدواوين من الفارسية إلى العربية ، يقول الجهْشيارى : « كان عامة كتّاب العراق تلامذة صالح ، فمنهم المغيرة بن أبى قُرَّة كتب ليزيد بن المهلب (فى ولايته لسليمان بن عبد الملك) ومنهم قَحْذَم بن أبى سُليم وشيبة بن أيمن كاتبا يوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ابنا عطية ، وكان سعيد يكتب لعمر بن هبيرة ، ومنهم مَرْوان بن إياس كتب لخالد القسرى ، وغيرهم »[١] .

وتلقانا نصوص تدل على أنهم كانوا يُعْنَون بالطَّوامير والقراطيس[٢] التى كانوا يكتبون فيها ، كما كانوا يعنون بنفس كتابتهم وخطوطهم ، وفى الجهْشيارى أن الوليد أول من كتب من الخلفاء فى الطوامير وأنه أمرَ بأن تعظَّم كتبه ويجلَّل[٣] الخط الذى يُكتَبُ به ، وكان يقول : تكون كتبى والكتب إلىَّ خلافَ كتب الناس بعضهم إلى بعض[٤] . ويظهر أن الكتاب غالوا فى النفقة على كتبهم ، حتى لنرى عمر بن عبد العزيز يأمر بالاقتصاد فى القراطيس ، طالباً من الكتَّاب أن يوجزوا[٥] ، وكأنما أصبح الإطناب ظاهرة عامة .

ونحن لا نصل إلى ديوان هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٤) حتى نحس أنه كان مدرسة كبيرة ، وهى مدرسة رَقِىَ فيها النثر الفنى لهذا العصر إلى أبعد غاية كانت تنتظره ، إذ كان يتولَّى ديوان الرسائل سالم مولى هشام ، وأخذ يخرّج غير كاتب ، وقد اشتهر له تلميذان أحدهما من بَيْته هو ابنه عبد الله والثانى من غير بيته ، هو صهره وخَتَنه عبد الحميد .

وكان سالم يجيد اليونانية ، ونقل منها — كما مر بنا — بعض رسائل لأرسطاليس ، ونرى صاحب الفهرست يجعله أحد البلغاء العشرة الأول[٦] ، ويقول عنه إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة[٧] . ومن يرجع إلى الجهشيارى

---

(١) الجهشيارى ص ٣٩ .
(٢) الطوامير والقراطيس : الصحف الكبيرة .
(٣) يجلل : يعظم .
(٤) الجهشيارى ص ٤٧ .
(٥) الجهشيارى ص ٥٣ .
(٦) الفهرست ص ١٨٢ .
(٧) الفهرست ص ١٧١ .

يجده ينص على أن هشاماً كان يأمره بالكتابة عنه إلى ولاته فى الشئون التى تعرض له[١] .

فالخليفة لم يعد يُملى كتبه على كتّابه كما كان الشأن فى القديم ، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ، ثم يعرضها عليه ، ومن ثَمّ لم يعد الضمير فى الرسالة ضمير متكلم ، بل أصبح ضمير غائب ، فالكاتب يقول فى مستهل رسالته : « بلغ أمير المؤمنين كتابك » ونحو ذلك . ومن هنا كنا نزعم أن كتب هشام بصفة عامة لم يكتبها هو وإنما كتبها سالم وتلميذاه عبد الله وعبد الحميد . وقد ينُصّ على التلميذين ، أما سالم فقلما نصّت المصادر على اسمه . وتحوّل عبد الحميد من ديوان هشام إلى ديوان مروان بن محمد عامله على أرمينية .

ولعل من الطريف أن الرسائل التى صدرت عن ديوان هشام تُطْبَعُ بطوابع أسلوبية واحدة ، إذ تَجْرى فى أسلوب من الازدواج ومن اللغة الجزلة الرصينة ، على شاكلة القطعة التالية من رسالة على لسان هشام إلى يوسف بن عمر وقد استخفّ ببعض أهله[٢] .

« حلت هضبة أصبحت تنحو[٣] بها عليهم مفتخراً ، هذا إن لم يُدَهْدِه[٤] بك قلة شكرك متحطّماً وَقيذاً[٥] ، فهلا – يا بن مجرّشة[٦] قومك – أعظمتَ رَجلهم عليك داخلا ، ووسّعت مجلسه إذ رأيته إليك مقبلا ، وتجافيت له عن صدر فراشك مكرماً ، ثم فاوضتَه[٧] مقبلا عليه ببِشْرك إكراماً لأمير المؤمنين » .

والرسالة طويلة ، وهى كلها من هذا النسيج الأنيق الذى يزينه الازدواج والصور البيانية ، وقد أُثرتْ لسالم رسالة يشكر بها بعض إخوانه على صنيع قدّمه إليه ، وهى على هذا النمط[٨] .

« أما بعد فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلىّ منك ، جسيمَ الرجاء فيما بقى لى عندك . قد جعل الله مستقبل رجائى منك عوناً لى على شكرك ، وجعل

---

(١) الجهشيارى ص ٦٢ .
(٢) طبرى ٥/٦٨ . وما بعدها .
(٣) تنحو : تشرف وتطل .
(٤) يدهده : يسقط .
(٥) وقيذا : صريعاً .
(٦) المجرشة : الماشطة .
(٧) فاوضته : حدثته .
(٨) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٢/٤٣١ .

ما سلف إلىّ منك عوناً على مؤتنف الرجاء فيك » .

وفى الرسالة ما يصوّر دقة تفكيره ولطف مداخله إلى ما يريد من إخوانه ، فهو يشكر ويرجو ، ويجعل ما سلف آية على تحقيق رجائه . واحتفظ المبرد فى كامله برسالة لابنه عبد الله كتب بها على لسان هشام سنة تسعَ عشرة ومائة إلى خالد القَسْرى حين أخذ ابن حسان النبطى وكيل هشام على ضياعه بالعراق فضربه بالسياط . وهو يفتتحها بقوله[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغ أميرَ المؤمنين عنك أمرٌ لم يحتمله لك إلا لما أحبَّ من ربِّ[2] الصنيعة قبلَك واستتمام معروفه عندك. وكان أمير المؤمنين أحقَّ من استصلح ما فسد عليه منك، فإن تَعُدْ لمثل مقالتك وما بلغ أمير المؤمنين عنك رأى فى معالجتك بالعقوبة رأيه . إن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدَّة أبطَرته، فأساء حَمْل الكرامة ، واستقلَّ العافية، ونسب ما فى يديه إلى حِيلته وحَسبه وبيته ورهطه وعشيرته، فإذا نزلتْ به الغِيَر[3] ، وانكشطت[4] عنه عَمايةُ الغَىّ والسلطان، ذلّ منقاداً ، وندم حسيراً ، وتمكن من عدوه قادراً عليه قاهراً له . . . » .

وأطنبَ عبد الله فى الرسالة مبيناً لخالد ما بلغ هشاماً من فلتات لسانه ، ومصغراً لأمره بالقياس إلى سَلفه الحجاج وقضائه على الفتن والثورات ، وكيف أن هشاماً أعلى من شأنه بتوليته على العراق مع وجود من يَعْلوه ويَغْمره . ويمضى يعدد عليه أخطاءه فى سياسته وكيف أنه يستعين بالمجوس فى أعماله ، وكيف ضيَّع أموالا كثيرة ، هى أموال المسلمين ، فى حَفْر نهر المبارك ، وكيف يبتزُّ أموال رعاياه باسم هدايا النَّيْروز والمِهْرجان وينحى عليه باللائمة فيما صنع بابن حسان ، ويسجِّل عليه نقص الخراج وأنه ولّى أسداً أخاه خراسان، مظهراً بها العصبية اليمنية متحاملا على المضرية . وهو فى ثنايا ذلك يتهدده برواجع بغيه وأنه إن لم يكف عن غَيِّه فقِبَل أمير المؤمنين كثيرون خير منه عاقبةً وعملا. وطالت الرسالة ، حتى لكأنها تاريخ مختصر لخالد القسرى وولايته الطويلة

---

(١) المبرد ص ٧٩٠ وما بعدها .

(٢) رب الصنيعة : إتمامها وتنميتها .

(٣) الغير : حوادث الدهر .

(٤) انكشطت : انكشفت .

على العراق . وهى جميعها مكتوبة بهذا الأسلوب الذى رأيناه فى فاتحتها ، والذى ثبتّه سالم فى دواوين هشام ، وقد انتهى هذا الأسلوب عند تلميذه عبد الحميد إلى الغاية المرتقبة .

عبد الحميد [١] الكاتب

اسم أبيه يحيى بن سعيد ، من موالى بنى عامر بن لؤى ، وهو فارسى الأصل . ويقول أكثر مَن ترجموا له إنه من أهل الأنبار بالعراق [٢] وسكن الرَّقّة . وكان فى أول أمره يتنقل فى القُرى معلماً فى كتاتيبها ، وعرف فى نفسه فصاحة ومهارة بيانية ، فالتحق بديوان هشام بن عبدالملك ، وأُعْجب به سالم فأصهر إليه ، وما زال به حتى خرَّجه كاتباً لايبارَى . وعرفه مروان ابن محمد ، وكان عاملا لهشام ، كما مرَّ بنا ، على أرمينية ، فاتخذه كاتباً له . ولعلنا لا نخطئ فى الحكم إذا قلنا إن ما أثبته الطبرى من رسائل لمروان فى ولايته إلى هشام ومن تَلاه من الخلفاء وإلى أبناء عمومته إنما كان بقلم عبد الحميد . ويتولّى مروان الخلافة(١٢٧ — ١٣٢ هـ) فيصبح عبد الحميد رئيس ديوانه ، وتتوالى رسائله الرائعة ،وعبثاً حاول أن يلم الشَّعَثَ حين انقضَّت جيوش أبى مسلم من خراسان ، حتى إذا هُزم مروان فى موقعة الزَّاب ولّى وجهه معه إلى مصر حيث قُتلا معاً فى معركة بوصير .

وهكذا كان وفيًّا لمروان حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وزعم بعض الرواة أنه فَرَّ بعد موقعة الزاب على وجهه ، واختفى مدة ، ثم وقف عليه السفاح فأحضره وعذبه ، حتى مات . وزعم آخرون أنه اختفى عند ابن المقفع قبل عثور السفاح عليه . وهى مزاعم لا تؤيدها الروايات الوثيقة ، ولعل مما يدل

---

(١) انظر فى عبد الحميد الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٧٢وما بعدها ووفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية)١/٣٠٧. والفهرست ص ١٧٠ والمسالك والممالك للإصطخرى (طبع ليدن) ص ١٤٥ والبيان والتبيين ١/٢٠٨ ، ٢٥١ ، ٣/٢٩ وعيون الأخبار ١/٢٦ والصناعتين للعسكرى (طبعة الحلبى) ص ٦٩ وصبح الأعشى ١/٨٥ ، ١٠/١٩٥ واليتيمة للثعالبى (طبعةالصاوى) ٣/١٣٧ والجزء الثانى من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٤٠ وما بعدها .

(٢) انظر الفهرست ص ١٧٠ حيث يقول إنه من أهل الشام .

على أنه قُتل فى مصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده ، وقد استخدمهم بعض الولاة فى دواوينهم [١]

وعبدُ الحميد بدون ريب أبلغ كتّاب هذا العصر وأبرعهم، وقد سماه الجاحظ فى بيانه عبد الحميد الأكبر ، ونصح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم [٢] ، وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل : « فُتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد » وفيه يقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا ، وهو الذى سهّل سبيل البلاغة فى الترسل » . وقد أجمع كثيرون على أنه أولُ من استخدم التحميدات فى فصول الكتب ، وكأنه تأثر فى ذلك بتحميدات واصل وغيره من الوعّاظ ، وقد احتفظ كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور بطائفة منها لا تقل كمّا ولا كيفاً عن تحميد واصل الذى مرّ بنا فى أول خطبته المنزوعة الراء. ولا تلفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبية فى صنع رسائله فحسب ، وإنما يلفتنا أيضاً أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، محاكياً فى ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التى أُثرت عن الساسانيين والتى يُقال إنه كان أحدَ نقلها إلى العربية [٣] . وليس معنى ذلك أنه وقف عند النقل والترجمة ، فقد مضى يحاكى هذه الرسائل لا محاكاة طبق الأصل وإنما هذه المحاكاة التى تنتهى إلى التمثل وصُنع الأعمال الأدبية المبتكرة ، من ذلك رسالته إلى الكتّاب [٤] وهى رسالة عامة ليست موجّهة إلى شخص معين أو كاتب بعينه ، إنما هى موجهة إلى هذه الطائفة التى أصبح لها كيان واضح فى حياة الدولة ، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتّاب فى تدبير الحكم وما ينبغى أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية تتصل بالخلفاء والولاة والرعية. ونحن لا نقرأها إلى ما استهلّ به الجهشيارى كتابه « الوزراء والكتاب » من وصايا كان يوصى بها ملوك الفرس ووزراؤهم الكتّاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر هذه الوصايا فى رسالته التى تُعَدُّ دستوراً دقيقاً لوظيفة الكاتب وما عليه من حقوق للخلفاء والولاة وحقوق للرعية فى سياستها

---

(١) الجهشيارى ص ٨٢ .

(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٤٢ .

(٣) الصناعتين ص ٦٩ والبيان والتبيين ٣/٢٩ .

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وصبح الأعشى ١/٨٥ .

وضبط شئونها فى الخراج وغير الخراج ، ونراه يرسم فيها ما ينبغى أن يحسنه الكتّاب من ضروب العلم والثقافة ، يقول :

« فنافسوا ، معشرَ الكتاب ، فى صنوف العلم والأدب ، وتفقّهوا فى الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عزّ وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثِقافُ ألسنتكم ، وأجيدوا الخطّ فإنه حِلْيَة كُتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيامَ العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعين لكم على ما تَسْمون إليه بهممكم . ولا يضعفن نظركم فى الحساب ، فإنه قِوام كتّاب الخراج منكم » .

فهو يطلب إليهم أن يتجمّلوا بحُلى العلم والأدب ، ويصرّح بأن عليهم أن يوسّعوا ثقافتهم فى الدين والفرائض حتى يقفوا على أحكام الشريعة فيما يتصل بمعاملة أهل الذمة ومعاملة المسلمين أنفسهم فى شئون الخراج . وقد طلب أن يضيفوا إلى ذلك إتقاناً لعلم الحساب ، وعيّن لهم الينابيع التى تعينهم على إحسان التعبير عما فى أنفسهم وعلى رأسها القرآن الكريم ثم الأشعار ليعرفوا غريبها ومعانيها . ومضى فطلب إليهم أن يتثقفوا بتاريخ العرب ، وتاريخ العجم وأحاديث ملوكها وسيرها ، لينتفعوا بذلك فى كتاباتهم السياسية . ونراه فى تضاعيف رسالته يطلب إلى الكتّاب أن يؤلفوا بينهم ما يشبه النقّابة فى عصرنا ، فقد حضّهم على الأخذ بيد من ينبو به الزمان منهم ومساعدته ، حتى يعود إلى ما كان عليه من الرّفه فى العيش .

ولعبد الحميد بجانب هذه الرسالة رسالة فى وصف الإخاء رواها ابن طيفور[1] وهى فى رأينا تكملها ، فقد عرض فى رسالة الكتّاب لأخوّتهم وما ينبغى أن يجمعهم من إلف الوداد والصداقة ، ومضى فى هذه الرسالة يفصّل الحديث فى معنى الإخاء وحاجة الأفراد إليه مبيناً دعائمه التى تكفل له البقاء وتجعل حياة الناس صفاء مستحبّاً وعشرة عذبة ، بما يبرّ به الأخ أخاه حين تنزل به عوارض الأقدار وحوادث الزمان . وبذلك تدْخل الرسالة فى هذا الضرب من الأدب الأخلاقى الذى شاع فى بلاط الساسانيين ، وصدر عنه ابن المقفع فى كتابيه

---

(١) انظر جمهرة رسائل العرب ٢ / ٤٣٤ .

الأدب الكبير والأدب الصغير [١] .

وعلى نحو ما تتضح ثقافة عبد الحميد بالأدب الأخلاقى الساسانى فى الرسالتين السابقتين تتضح ثقافته بأدب القوم السياسى فى رسالته الطويلة التى كتبها على لسان مروان إلى ابنه [٢] وولى عهده عبد الله حين أمّره بمحاربة الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى الصُّفْرى ، وكانت ثورته قد استفحلت بالعراق والموصل سنة ١٢٨ . ولا نكاد نلمّ بهذه الرسالة حتى نراها طويلة طولا غير مألوف ، إذ امتدت إلى نحو أربعين صحيفة من القَطْع الكبير . وهو يستهلها بمقدمة يذكر فيها اختيار أمير المؤمنين له فى محاربة الضحاك وأصحابه الذين انتهكوا حرمة الإسلام وعاثوا فى الأرض مستحلّين دماء المسلمين ، وأنه رأى أن يكتب إليه بعَهْد يؤدى به حقّ الله الواجب عليه فى إرشاده . ويمضى العهد بعد ذلك موزّعاً على موضوعات ثلاثة كبيرة ، وكل موضوع يتشعب شعباً كثيرة ، وكل شعبة تستقل بفقرة محدودة تحيط بدقائقها . وأول هذه الموضوعات يتناول فيه عبد الحميد آداب قائد الجيش فى سلوكه مع نفسه ومع حاشيته ورؤساء جنده . ويتناول الموضوع الثانى سياسته فى لقاء العدو وما ينبغى أن يتخذ من عيون ترصد حركاته ، ويُفيض فى بيان الخصال التى ينبغى أن يتصف بها رؤساء جيشه والأخرى التى ينبغى أن تتصف بها طلائعه . وفى الموضوع الثالث يتناول نظام الجيش فى الحرب ، ويقول إنه ينبغى أن لا يسير إلا فى مقدمة وميمنة وميسرة وساقة أو مؤخرة ، ويصور له كيف يُعِدُّ جيشه حين اللقاء وكيف يقْسمه إلى وحدات ، كل وحدة مائة رجل عليهم شخص من أهل المروءة والنجدة . ويشير إلى ما ينبغى أن يتحلى به خازن أمواله من خلال . وينصحه أن يتخذ كل وسيلة لإفساد رجال العدو عليه بمكاتبتهم ووعده لهم بالمنالات والولايات . ودائماً ينصحه بالتقوى والاعتماد على الله فى غُدوّه ورَواحه ومنازلة خصمه . ويختم الرسالة بالدعاء له .

والرسالة على هذا النحو دستور كبير لقائد الجيش ، وهو دستور استعان

---

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ص ١٣٩ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ١٠ / ١٩٥

فيه عبد الحميد بما قرأه فى أدب الفرس السياسى من وصايا وتعاليم ، كانوا يديرونها فى كتبهم ، هى خلاصة تجاربهم فى حروبهم وسياسة حكّامهم وملوكهم ، وقد شفعها بتعاليم الإسلام الزّكيّة واطّرد له فيها أسلوبه المرن الشفاف الذى لا يحجب شيئاً من الفكرة ، بل يوضّحها من جميع شعبها وأطرافها بما أتيح له من بيان باهر استطاع أن ينفذ من خلاله إلى صياغة محكمة ، وهى صياغة لا تكاد تفترق فى شىء عن صياغة الحسن البصرى وواصل بن عطاء وأضرابهما من الوعاظ الذين ألانوا اللغة ومرّنوها لأداء معانيهم ، وكأنما تحوّل إلى عبد الحميد أسلوبهم ، حتى أصبح لا يفترق عنهم فى شىء ، فهو يزاوج فى ألفاظه ، وهو يتخذ إلى ذلك طريقتهم فى الترادف ، موشّياً كلامه بالصور والطباقات والمقابلات الكثيرة .

وقد حاول طه حسين أن يصل عبد الحميد بالثقافة اليونانية[1] ، معتمداً فى ذلك على تقسيمه الجيش إلى وحدات كل وحدة مائة على شاكلة ما كان معروفاً عند اليونان ، وعلى أنه بالغ فى استخدام الحال ونَشْرها فى كلامه . ويضعف الحجة الأولى أن عبد الحميد كان يعيش فى الشام ، وكانت الحروب قائمة بين العرب والبيزنطيين منذ الفتوح ، وكان العرب بعامة يعرفون نظم الجيوش عند البيزنطيين والفرس جميعاً ، فمعرفة عبد الحميد بذلك لا تصله مباشرة بالثقافة اليونانية . أما مسألة استخدامه الحال فلم يوضّح طه حسين كيف كانت خاصة من خصائص اللغة اليونانية ، ومعروف أنها من خواصّ اللغة العربية ، وهى شائعة فى الشعر الجاهلى والقرآن الكريم ، ومرّت بنا قطع من كتابات سالم وابنه عبد الله ، وفيها الحال واضحة . والحق أن عبد الحميد إذا كان قد اتصل بالثقافة اليونانية ، فعن طريق غير مباشر ، نقصد طريق أستاذه سالم الذى كان يحسنها وينقل عنها أحياناً على نحو ما مرّ بنا .

وليس من شك فى أن صلة عبد الحميد بالثقافة الفارسية أوضح منها بالثقافة اليونانية . وكان يضيف إلى ذلك ثقافة واسعة بالشعر العربى ، وهى تتضح فى رسالة ولى العهد السالفة حين نراه يقف ليفصّل له ما ينبغى أن تكون عليه

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٤٠ وما بعدها .

أسلحته وخَيْله من صفات ، وكأنه ينثر أشعار أوس بن حَجر وغيره من الجاهليين فيها نثراً . ومن هذا الباب رسالته [١] التى وصف بها الصيد ، وجوارحه ومعاركها مع الظباء والآرام وحُمر الوحش ، وما وقعوا عليه من بعض الغُدْران والرياض وما أصابهم من بعض الأمطار ، وكأنه يتحدث بلسان امرئ القيس وزهير ومن على شاكلتهما من الشعراء الجاهليين .

والحق أن النثر الفنى تطور تطوراً واسعاً عند عبد الحميد ، فقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية تُكْتَب فى موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب والصيد . وهى لا تكتب فى ذلك كتابة موجزة ، فلم تعد الكتابة وحدها كافية ، بل أصبح أساساً فيها أن تُسْنَد بالتفنن فى القول وتشعيب المعانى معتمدة على ثقافات مختلفة : أجنبية وعربية . وأخذت تَزْحم الشعر وتحاول أن تقتحم عليه ميادينه أو على الأقل بعض هذه الميادين ، إذ نرى عبد الحميد يُجْرى قلمه فى وصف الخيل والسلاح ووصف الصيد . ودائماً تروعنا براعته البيانية ، ولا نستطيع أن ننقل إلى القارئ إحدى رسائله الأدبية الطويلة ليتبين هذه البراعة ، غير أنه ينبغى أن لا نمضى دون تقديم نموذج من كتابته، ونحن نسوق للقارئ هذه الرسالة [٢] التى كتبَ بها إلى أهله يعزّيهم عن نفسه ، وهو منهزم مع مروان :

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالكُرْه والسرور ، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها ، فمن درّت [٣] له بحَلاوتها ، وساعده الحظُّ فيها سكنَ إليها ورضى بها ، وأقام عليها ، ومن قَرصتْه بأظفارها ، وعَضَّته بأنْيابها ، وتوطأته بثِقلها ، قَلاها [٤] نافراً عنها ، وذمَّها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً منها ، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درِّها أفاويق [٥] استحلبناها ، ثم شَمست [٦] منا نافرة ، وأعرضتْ عنا متنكرة ، ورَمحتنا [٧] مولّية ، فملُح عذبها ، وأمرَّ

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٢ / ٥٤٤ .
(٢) الجهشيارى ص ٧٢ .
(٣) درت : من الدر وهو اللبن .
(٤) قلاها : كرهها وأبغضها .
(٥) الأفاويق : ما يتجمع فى الضرع من اللبن .
(٦) شمست : من شمس الفرس إذا جمح .
(٧) رمحتنا : من رمحه الفرس إذا ركله .

حلوها ، وخشُن ليِّنها ، ففرَّقتنا عن الأوطان ، وقطَّعتنا عن الإخوان ، فدارُنا نازحةٌ ، وطيرنا بارحة[١] ، قد أخذت كلَّ ما أعطت ، وتباعدت مثلما تقرَّبت ، وأعقبت بالراحة نصباً[٢] ، وبالجذل[٣] هماً ، وبالأمن خوفاً ، وبالعزّ ذُلاً ، وبالجِدة[٤] حاجة ، وبالسرَّاء ضراء ، وبالحياة موتاً ، لا ترْحم من استرحمها ، سالكةً بنا سبيلَ مَنْ لا أوْبة له ، منفيِّين عن الأولياء ، مقطوعين عن الأحياء » .

والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد التى تميَّز بها فى أسلوبه ومعانيه ، فالألفاظ منتخَبة وليس فيها توعُّر ولا غريب وحشىٌّ ، وإنما فيها العذوبة والحلاوة. والمعانى غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء ، وإنما فيها الوضوح وانكشاف الدلالة . وهو يُعْنى بالترادف فى أسلوبه ترادفاً ينتهى به إلى ازدواج واضح ، ازدواج من شأنه أن يؤكِّد المعانى بما يحمل من معادلات موسيقية تثبِّتها فى الذهن وتجلوها جلاء تامًّا . وهو يضيف إلى ذلك حلى من طباقات وتصويرات تُضْفى على أسلوبه روعة بيانية خلابة ، بل إننا لا ندقق فى القول حين نزعم أنه يضيف هذه الحلى ، فإنها عنده جزء لا يتجزأ من جوهر الكلام ، وكأنها سَداه ولُحْمته . والحق أن عبد الحميد أوفى بالكتابة الأدبية فى العصر الأموى على كل ما كان يُنْتَظر لها من رقى وإبداع فنى .

---

(١) الطير البارحة : التى تمر من اليمين إلى اليسار ، والعرب القدماء كانوا يتشاءمون بها .

(٢) نصبا : تعبا

(٣) الجذل : السرور .

(٤) الجدة : الميسرة .

خاتمة

١

خلاصة

انقسم العصر الإسلامى فى هذا الجزء إلى كتابين ، اختص أولهما بعصر صدر الإسلام وثانيهما بعصر بنى أمية ، وقد بدأت الكتاب الأول بالحديث عن الإسلام وقِيَمِه الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية، مبيِّناً كيف أخرج العربَ من الظلمات إلى النور وبعثهم بعثاً جديداً استضاءوا فيه بهدى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى من أسلموا يجاهدون معه قريشاً والعرب ، حتّى دخلوا فى دين الله أفواجاً . وألمَّتْ بالإسلام بعد وفاة الرسول أحداث خطيرة ، فحروبُ الردة تتبعها الفتوح وفتنة عثمان تتبعُها حروب على . وتأثَّر الشعراء بذلك كله مستلهمين مثاليةَ الإسلام الرفيعة ، وهم حقا اختلفوا فى مدى تأثُّرهم واستلهامهم لتلك المثالية ، إذ كان منهم من مسّ الدين روحه مسًّا عنيفاً ، ومنهم من مس روحه مسًّا خفيفاً . ولكن حتّى هؤلاء الأخيرين وجدتّهم يتأثرون بالدين الحنيف ، على نحو ما يصور لنا ذلك الحُطَيْئة ، فقد قال القدماء عنه إنه كان رقيقَ الدين ، ومع ذلك نراه يدعو إلى التقوى والعمل الصالح ، معلناً أنه مسلم ، وأنه من أجل ذلك لا يعمد إلى الإقذاع فى الهجاء فحَسْبُه التهكم والسخرية. وكان بجانبه كثيرون يتعمقهم الإسلام من مثل حسان وكعب بن زهير ، بل كان هناك من أثَّر فى نفوسهم تأثيراً عنيفاً مثل لبيد والنابغة الجعْدىّ فإن بعض قصائدهما تتحول إلى مواعظ خالصة .

وكان تأثر النثر بالإسلام أقوى قوة ، فقد نزل فيه الذكر الحكيم المعجز ببلاغته ، وألقى به الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديثه وخطبه الرائعة . وبذلك

تحولت العربية من لغة وثنية ساذجة إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، تخوض فى معان جديدة من عبادة الله الواحد الأحد و وَصْف الكون فى طرفيه من النَشْأة والدُثور ورَسْم الكمالات الروحية ووضع التشريعات المحكمة التى تحقّق للناس السعادةَ فى الدارين . وكانت خطابة الرسول تارة وعظاً وتارة تشريعاً، وقد تَجْمع بين الطرفين. ومضى الخلفاء الراشدون على هدى الرسول يعظون الناس ، وأخذت تدفع أبا بكر وعمر مواقف جديدة للكلام ، إذ أخذوا يخطبون فى الجيوش الفاتحة محمّسين وموصين باتباع تعاليم الإسلام السمحة فى معاملة الأمم المغلوبة . وسار فى نفس الدرب عثمان ، ثم على بن أبى طالب ، وكان خطيباً مفوّهاً ، وقد اندلعت الحروب الداخلية طوال عهده واندلعت معها خطابة كثيرة فى صفوفه وفى الصفوف المعارضة كما اندلعت مناظرات مختلفة فى الآراء المتقابلة ، وكل ذلك فسّح طاقةَ النثر العربى فى صدر الإسلام ، ومدَّ أطنابها مدًّا واسعاً. وجَدّتْ بجانب ذلك حاجة شديدة إلى الكتابة ، لا كتابة الذّكْر الحكيم فحسب بل أيضاً كتابة معاملات المسلمين وعقودهم وكتابة مواثيق الرسول صلى الله عليه وسلم وعهوده ، وأخذ يفرغ لذلك كتّاب مختلفون ذكرهم الجهشيارى وغيره . وتَحدثْ الفتوح ، وتكثر الرسائل بين الخلفاء وقوّادهم وولاتهم ، كما تكثر المعاهدات ، وفى أثناء ذلك ينشأ النثر الكتابى عند العرب ويرقى ، كما رقى النثر الخطابى ، بما أخذ يحْمل من تعاليم الإسلام وتشريعاته .

وانتقلت إلى الكتاب الثانى الخاص بعصر بنى أمية ، فتحدثت عن مراكز الشعر فى هذا العصر ، ووقفت أولا عند المدينة ومكة وما غرقتا فيه من الحضارة والترف واللهو والغناء ، مما كان له أثر واسع فى نمو الغزل بهما وذيوعه على كل لسان. وكان سكان نجد وبوادى الحجاز يعيشون فى شظف من العيش هيأ بتأثير الإسلام ومثاليته الروحية لظهور ضرب من الغزل العُذْرى العفيف وشيوعه . وحدثَ أن عشائر قيسية كثيرة رحلت مع الفتوح إلى الشام والجزيرة فاصطدمت هناك بالقبائل اليمنية وبقبيلة تغلب المضرية . ونشبت بين الطرفين سلسلة حروب دامية عادت فيها العصبية القبلية والحمية الجاهلية ، فاشتعل الفخر والهجاء . وكانت الكوفة مستقرًّا للشيعة وثوراتهم ضد بنى أمية فطُبع شعرها فى جمهوره

بطابع شيعى حزين . وأخذت العصبيات تحتدم فى البصرة احتداماً ، وحملها منها الجنود المحاربون فى خراسان ، فكثر الشعر الذى ينطق عنها فى البيئتين . وكثرت سيول المديح فيهما وفى الكوفة، ومضت أسراب تتغنَّى بالزهد أو بالمجون، وأسراب أخرى تتغنى بنظرية الخوارج السياسية وخاصة فى البصرة وبين جيوش الأزارقة فى فارس . ولم ينشط الشعر فى الشام إلا قليلا ، فإن أكثر ما أُنشد فيها وفد عليها إما مع مُدَّاح الأمويين وإما مع العشائر القيسية التى هاجرت إلى الشمال وإما مع بنى أمية أنفسهم، فقد ظهر بينهم غير شاعر . وكان الشعر فى المراكز الأخرى خامداً ، ومصر تتقدَّمها لا بشعرائها الذين نبتوا فيها ، ولكن بمن وفدوا على ولاتها مادحين .

وكانت تؤثِّر فى الشعر الأموى مؤثرات عامة مختلفة ، فقد امتزج العرب فى البلدان المفتوحة بالموالى ، وسرعان ما هجروا لغاتهم إلى العربية وعبَّروا بها عن عقولهم وقلوبهم وأعماق وجدانهم ، مما أحدث فيها صوراً مختلفة من التطور ، إذ دخلت فيها بعض الألفاظ الأعجمية وظهرت على ألسنة الموالى لُكْنات مختلفة وانتشر اللحن ، وأخذت سلائق بعض العرب أنفسهم فى الضعف . وقد مضى الشعراء جميعاً يستلهمون الإسلام فى أشعارهم سواء حين يتغزلون أو يمدحون أو يهجون أو يتحمَّسون للجهاد فى سبيل الله أو حتى حين يصفون الصحراء . وتوزعتهم الفرق السياسية من زبيرية وخوارج وشيعة وغيرهم . ونعموا بالحضارات الأجنبية، وساقهم ذلك إلى ضروب من المتاع الحسى واللهو والترف . ودُعمت عقولهم بعناصر ثقافية مختلفة : جاهلية وإسلامية وأجنبية، وانبعثت بينهم فرق الجَبْرية والمُرْجئة والقَدَرية والمعتزلة، وخضعوا لمؤثرات اقتصادية مختلفة . وكل ذلك نرى أصداءه فى الشعر كما نرى فيه تعاوناً وثيقاً بين العرب والموالى ، فقد عاشوا بنعمة الإسلام إخواناً، وكأنما مُحيت بينهم الفوارق الجنسية، حتى ليفتخر الأعاجم بمواليهم من العرب ، إذ يشعرون فى قرارة أنفسهم بأنهم من أبناء هذه القبيلة أو تلك ، ويتبادل العرب معهم نفس الشعور .

وكَثُرَ شعراء المديح والهجاء كثرة مفرطة، فقد كان المدَّاحون يَغْدُونَ ويروحون على أبواب الولاة والقواد والأجواد ناثرين ورودَ الثناء محمَّلين بنفائس

الأموال ، وخير من يمثلهم نُصَيْب والقطامى وكعب بن مَعْدان الأشقرى وزياد الأعجم . وسعرت العصبيات القبلية شعراء الهجاء وخير من يمثلهم ابن مفرِّغ والحكم بن عَبْدل وثابت قُطْنة . ومما لا ريب فيه أن أبرع شعراء الهجاء والمديح جميعاً شعراء النقائض النابهون : الأخطل والفرزدق وجرير ، فقد أتاحوا للنقيضة كل ما كان ينتظرها من رقى ونهوض ، كما أتاحوا للمِدْحة كل ما كان ينتظرها من براعة وازدهار .

ووقف كثير من الشعراء فى صفوف الفرق السياسية يحامون عنها ويناضلون وكانت لكل فرقة نظرية فى الخلافة تدافع عنها وتذود . أما الزبيريون فكانوا يرون من الواجب أن تعود حاضرة الخلافة إلى الحجاز وأن يستند الخليفة فى حكمه إلى قريش لا إلى كَلْب وغيرها من القبائل اليمنية التى يستند إليها الأمويون ، وابن قيس الرُّقَيَّات أهم من صَدَر فى شعره عن هذه النظرية. وكان الخوارج يرون أن الخلافة حقٌّ للمسلمين جميعاً لا لقريش وحدها ، وأنه ينبغى أن يتولاَّها خير المسلمين تقوى وزهداً ، ولو كان عبداً حبشيًّا ، وقد وهبوا أنفسهم للنضال عن نظريتهم مذيعين فى أشعارهم حماسة دينية ملتهبة ورغبة عنيفة فى الاستشهاد وزهداً قويًّا فى الحياة ومتاعها الزائل ، ويمثِّلهم عمران بن حِطَّان والطِّرِمَّاح. وكان الشيعة يرون أن الخلافة حقٌّ شرعى لأبناء على اغتصبه منهم الأمويون وينبغى أن يُرَدَّ عليهم ، وكان استشهاد أئمتهم لا يبرح ذاكرتهم ، فمضوا يبكونهم بدموع غزار ، مُحْفظين الناسَ على أن يثأروا لهم من الأمويين ويذيقوهم حَتْفهم ، كما مضوا يصوِّرون عقيدتهم فيهم وما يكنُّون لهم ولأهل البيت من عواطف حارة متبتِّلين بذلك إلى الله ورسوله الكريم ، ويمثِّلهم كثيِّر والكُمَيْت. وكان كثير من أشراف العرب وخاصة فى الكوفة مَغيظين مُحْنقين على الأمويين لجعل الخلافة وراثية فيهم من دون العرب جميعاً ، وعبَّر عن ذلك ابن الأشعث فى ثورته وشاعره أعْشَىَ هَمْدان فى شعره واصطفَّ مع الأمويين شعراء كثيرون يدعون لهم ويناضلون ضد كل هؤلاء الخصوم ، على شاكلة ما نرى عند عبد الله بن الزَّبِير الأسدى الكوفى وعدىّ بن الرِّقاع الدمشقى .

وتلقانا طوائف من الشعراء عاشت حياتها فى اتجاه واحد أو على الأقل

فى اتجاه غلبَ على حياتها وساد ، فمن ذلك أصحاب الغزل الصريح من أمثال ابن أبى ربيعة والأحوص والعَرْجى ، وأصحاب الغزل العفيف من أمثال قيس ابن ذَريح وجميل بُثَيْنة، وأصحاب الزهد من أمثال أبى الأسود الدُّؤَلى وسابق البربرى ، وأصحاب اللهو والمجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبى الهندى ، وأصحاب شعر الطبيعة من أمثال ذى الرُّمَّة. ومن ذلك الرجَّاز ، وقد نهضوا بالأرجوزة من وجوه ، إذ جعلوها تتسع لكل أغراض القصيدة، وأضافوا لذلك موضوعاً جديداً هو الطَّرديات ، كما أضاف نفرٌ منهم إلى غاياتها الوجدانية غاية تعليمية جديدة إذ تحرَّوا أن يودعوا أراجيزهم كل ما استطاعوا من شواذ اللغة وشواردها الآبدة .

وازدهرت الخطابة فى العصر الأموى ازدهاراً ، لعل العرب لم يعرفوه فى أى عصر من عصورهم القديمة ، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية ، وعملت بواعث كثيرة على أن تتوهج هذه المواهب فى الخطابة حينئذ، بسبب ما نشأ من خصومات سياسية عنيفة ، فكان هناك خطباء الخوارج وخطباء الشيعة وخطباء الزبيريين والثوار المختلفين وخطباء الأمويين، وكلٌّ منهم يحاول استمالة القلوب إليه بالتفنن فى بيانه، وخير من يمثلهم زياد بن أبيه. ونمتْ بجانب هذه الخطابة خطابة المحافل بين أيدى الخلفاء والولاة، إذ أخذ أصحابها يُعْنَوْنَ بتحبير كلامهم، وخيرُ من يمثّلهم الأحنف بن قيس . واحتدمت خطابة الوعظ والقصص الدينى احتداماً ، وما فتئ أصحابها يطلبون كل وسيلة بيانية كى يؤثروا فى الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ثبَّتوه تثبيتاً قويًّا، وهو أسلوب نهض على حُلًى من الازدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعانى . وقد مضوا يعلّمون الشباب فى البصرة والكوفة كيف يبرعون فى الخطابة والمناظرة، وبذلك أعدُّوا لنشأة علم البلاغة العربية، وخير من يمثّلهم الحسن البصرى .

ونمَى التدوين فى هذا العصر نموًّا واسعاً ، إذ دوّنوا معارفهم التى تتصل بالجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها كما دونوا معارفهم التى تتصل بالإسلام وما يرتبط به من تفسير الذكر الحكيم والحديث النبوى والفقه والمغازى وقصص الأنبياء ، ومضوا يدونون أخبار الأمم الماضية وأخبار الدولة الإسلامية وما صادفها

من أحداث وخطوب . وأخذت تظهر مصنفات فى المثالب والأمثال والمواعظ والحِكم وفى مسائل العقيدة . ودونوا كثيراً من الرسائل والخطب ، كما نقلوا إلى العربية بعض المعارف الأجنبية ، وخاصة فى الكيمياء والطب والنجوم .

وكثرت كثرة مفرطة الرسائل وخاصة السياسية . وأخذ كتاب الدواوين المحترفون ينهضون بالكتابة الديوانية ، حتى كان سالم رئيس ديوان هشام بن عبدالملك ، فإذا هو يتخذ فيها أساوب خطباء الوعظ والقصص الدينى الذى تحدثنا عنه آنفاً ، وتبعه عبد الحميد الكاتب ، فأوفى بالكتابة الديوانية على الغاية من غزارة المعانى وروعة الأسلوب وإعطائه حقوقه من الجزالة والرونق والطلاوة ، ومضى يدبِّج رسائل أدبية لا يقصد بها إلى سياسة ، إنما يقصد بها إلى الأدب من حيث هو فن جميل .

٢

تعليق

كل الشعراء الذين ذكرناهم فى الخلاصة السابقة ترجمنا لهم ترجمات تختلف طولا وقصراً حسب شخصياتهم الأدبية ، وقد نظَم ابن سلام المخضرمين منهم فى طبقات الجاهليين العَشْر الذين أودعهم كتابه « طبقات فحول الشعراء » وقد جعل الطبقة الأولى للجاهليين وحدهم ، أما الطبقة الثانية فأدخل فيها كعب ابن زهير والحطيئة من المخضرمين ، وجعل الطبقة الثالثة للبيد والنابغة الجَعْدى وأبى ذؤيب الهُذَلى والشَّماخ ، وكلهم عاشوا فى العصرين الجاهلى والإسلامى. وخص الطبقة الرابعة بمن عاشوا فى الجاهلية . ثم مضى فى الطبقات الست الباقية يمزج جاهليين بمخضرمين . وتحدث عن شعراء المراثى وشعراء القُرَى ، مُشيداً بحسان ابن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد ترجمنا لمن وضعهما فى الطبقة الثانية مع بعض الجاهليين وهما كعب والحطيئة ، كما ترجمنا الاثنين من الطبقة الثالثة ، وهما لبيد والنابغة الجعدى ، وترجمنا لحسان. ولم نترجم لأحد وراءهم من المخضرمين اكتفاء بهم ، إذ يُعَدُّون فى الذروة من شعراء عصرهم ، ولأن لهم دواوين

كبيرة توضح شخصياتهم ومدى ما أثَّر به الإسلام فى أشعارهم. ولم نُغْفل مَنْ سواهم ، ممن داروا عند ابن سلام وفى الكتب الأدبية والتاريخية ، بل مثَّلنا لهم بأشعار كثيرة ، ووضعنا بإزاء المجيدين منهم فى الهوامش مراجع أخبارهم وأشعارهم ، ليستعين بها من يريد متابعة دراستهم .

وإذا تركنا المخضرمين عند ابن سلام إلى شعراء عصر بنى أمية وجدناه يسلكهم فى طبقات عشر ، يسميها طبقات الإسلام، ومن يقرن مَنْ سمَّاهم فى تلك الطبقات إلى من ترجمنا لهم يرى أننا أعرضنا عن كثيرين ممن ذكرهم وعُنينا بآخرين لم يجروا على لسانه ، لأنهم فعلا يتقدمون من أعرضنا عنهم من حيث تمثل الحياة التى عاشوها ،ومن حيث الشعر والشاعرية ، ومن ثَمَّ اهتمَّ بجمهورهم صاحبُ الأغانى ، ففتح لهم فى كتابه فصولا طويلة ، وعُنى الرواة بدواوينهم أو على الأقل بكثير منها ، فصنعوه صنعة مُحْكمة . وكثرة من سمَّاهم ابن سلام ليس لهم دواوين محفوظة ولا أخبار كثيرة مسجَّلة ، وهم غالباًمن نَجْد، وكأنه إنما عُنى بمن كانوا يدورون على ألسنة اللغويين متمثِّلين بأشعارهم ومستشهدين ، ونفس ترتيبه لطبقاتهم يدل على ذلك دلالة بينة ، فقد سلك الراعى فى الطبقة الأولى مع جرير والفرزدق والأخطل ، وهو شاعر مقلٌّ ،ويدنو عن طبقتهم درجات.وإنما دعاه إلى ذلك ما اشتهر به فى بيئة اللغويين من إحسانه لنعت الإبل ، وحَشْده فى هذا النعت لأوابد الألفاظ . ولو أنصف لأخَّره عن طبقته ووضع فيها بدلا منه ذا الرُّمَّة الذى يتقدم جميع شعراء عصره فى وصف الصحراء وكل ما يتصل بها من إبل وغير إبل .

وقد جعل ابن سلام ذا الرُّمَّة فى الطبقة الثانية وقَرَن به فيها البَعيث والقطامى وكثيِّراً ، والبعيث مقل ولا يرتفع بجناحه إلى آفاقهم جميعاً . ولذلك أهملناه كما أهملنا أصحاب الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة ، وهم على الترتيب كعب بن جُعيل وعمرو بن أحمر وسُحَيْم بن وَثيل وأوس بن مَغْراء، ونَهْشل بن حرِّى وحُمَيْد بن ثور الهلالى والأشهب بن رُميلة وعمر بن لَجأ التَّيْمى، وأبو زُبَيْد الطَّائى والعُجَيْر وعبدالله بن هَمَّام السَّلوليان ونُفَيْع بن لقيط الأسدى، جميعهم مقلُّون، ولا يمثِّلون عصرهم لا فى أحداثه الجسام ولا فى تطور فنون الشعر وأغراضه .

وجعل فى الطبقة السادسة ابن قيس الرقيات والأحوص وجميلا ونُصَيْباً ، وهم أعلى من طبقتهم ، وقد ترجمنا لهم جميعاً . وقَرَن بالمتوكل الليثى فى الطبقة السابعة ابن مفرّغ وزياداً الأعجم وعدىّ بن الرقاع ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا المتوكل لقلة أشعاره . وجعل فى الطبقة الثامنة عَقِيل بن عُلَّفة وشبيب بن البَرْصاء ، وشعرهما جميعاً قليل قلة شديدة . وسلك فى الطبقة التاسعة أربعة من الرجّاز هم : الأغلب العِجْلى وأبو النجم والعجّاج ورُؤْبة ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا الأغلب لقلة أراجيزه . وجعل الطبقة العاشرة لمزاحم العُقَيْلى ويزيد بن الطَّثْرِيَّة وأبى دُؤاد الرُّؤاسى والقُحَيْف العُقَيلى ، وجميعهم مقلون . وعلى هذا النحو وضع ابن سلام فى طبقات الإسلام شعراء مقلين لم يبلغوا فى الشعر مبلغاً مذكوراً ، ونحّى كثيرين يُغْنون فيه غناء محموداً ، مسوقاً فى ذلك بدوافع لغوية خالصة ، ومن ثَمَّ عُنِى بشعراء نجد والبوادى ، ولم يكد يُعْنَى بشعراء المدن مع أنهم يتفضلونهم بما دفعوا إليه الشعرَ من تطور مع الحياة الجديدة وبما نظموا من آيات رائعة . وقد أهمل ابن أبى ربيعة ، وهو أكبر شعراء الغزل فى عصره ، وأهمل معه العَرْجى وأهمل شعراء الخوارج من أمثال عمران بن حِطّان والطِّرِمّاح ، ولم يُعْنَ من شعراء الشيعة إلا بكُثَيِّر ، وأهمل شعراء الزهد من أمثال أبى الأسود الدؤلى وسابق البربرى وشعراء المجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبى الهِنْدى .

وبذلك كله كانت طبقات الإسلام عند ابن سلام قاصرة عن إعطاء صورة حقيقية لحياة الشعر الخصبة فى عهد بنى أمية . وقد ترجمتُ لكل من ذكرتهم آنفاً ممن أهملهم ولآخرين لا يقلون عنهم إبداعاً . ومضيت أمثّل فى كل جانب من جوانب العصر وفى كل فن من فنون الشعر بأشعار مختلفة لغير مَنْ ترجمت لهم ناثراً فى الهوامش مراجع كثيرين منهم ، تُعين على التوسع فى دراستهم . والذى لا شك فيه أن شعراء العصر الأموى تطوروا بالشعر فى جميع مناحيه واتجاهاته وأنهم استطاعوا أن يمثّلوا عصرهم فيه بجميع انطباعاته ، ناطقين بلسانه نُطْقاً أشاعوا فيه الروعة والجمال .

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

● الوجيز فى تفسير القرآن الكريم
الطبعة الثانية ٢١١٢ صفحة

● سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات

● عالمية الإسلام
الطبعة الأولى ١٢٠ صفحة

● الحضارة الإسلامية فى القرآن والسنة
الطبعة الأولى ٣٣٤ صفحة

● معجزات القرآن
الطبعة الأولى ٢٦٠ صفحة

فى تاريخ الأدب العربى

● العصر الجاهلى
الطبعة الثالثة والعشرون ٤٣٦ صفحة

● العصر الإسلامى
الطبعة العشرون ٤٩٦ صفحة

● العصر العباسى الأول
الطبعة الخامسة عشرة ٥٨٠ صفحة

● العصر العباسى الثانى
الطبعة الثانية عشرة ٦٦٠ صفحة

● عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية – العراق – إيران
الطبعة الرابعة ٦٨٨ صفحة

● عصر الدول والإمارات
الشام
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

● عصر الدول والإمارات
مصر
الطبعة الثالثة ٥٠٤ صفحة

● عصر الدول والإمارات
الأندلس
الطبعة الثالثة ٥٥٢ صفحة

● عصر الدول والإمارات
ليبيا – تونس – صقلية
الطبعة الأولى ٤٤٨ صفحة

● عصر الدول والإمارات
الجزائر – المغرب الأقصى – موريتانيا – السودان
الطبعة الأولى ٧٠٨ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

● الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة الثانية عشرة ٥٢٨ صفحة

● الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة الثانية عشرة ٤٠٠ صفحة

● التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة

● دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة

● شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٨ صفحة

● الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة الثانية عشرة ٣١٢ صفحة

● البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة

● الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة

● البحث الأدبى :
طبيعته – مناهجه – أصوله – مصادره
الطبعة الثامنة ٢٨٠ صفحة

- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
- فى التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة
- فى الشعر والفكاهة فى مصر
الطبعة الأولى ١٢٨ صفحة

فى الدراسات النقدية

- فى النقد الأدبى
الطبعة الثامنة ٢٥٢ صفحة
- فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة
- فى الأدب والنقد
الطبعة الأولى ١٥٢ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

- البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة العاشرة ٣٨٠ صفحة
- المدارس النحوية
الطبعة الثامنة ٣٧٦ صفحة
- تجديد النحو
الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة
- تيسير النحو التعليمى قديما وحديثا مع نهج تجديده
الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحة
- تيسيرات لغوية
الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

- ابن زيدون
الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

- الرثاء
الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
- المقامة
الطبعة السابعة ١٠٦ صفحات
- النقد
الطبعة الخامسة ١٣٦ صفحة
- الترجمة الشخصية
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
- الرحلات
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

- المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
الجزء الأول - الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة
الجزء الثانى - الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة
- كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة
- كتاب الرد على النحاة
الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة
- الدرر فى فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

السيرة النبوية

- محمد خاتم المرسلين
الطبعة الأولى ٤٨٠ صفحة

فى سلسلة اقــرأ

- مع العقاد
الطبعة الخامسة
- البطولة فى الشعر العربى
الطبعة الثانية
- الفكاهة فى مصر — الطبعة الثانية
- معى (١) — الطبعة الثانية
- معى (٢) — الطبعة الأولى
- القسم فى القرآن الكريم — الطبعة الأولى